مكتبة
رواية

غوزيل ياخينا

قطار إلى سمرقند

ترجمة: تحسين رزاق عزيز

قطار إلى سمرقند

سجل في مكتبة

اضغط! الصفحة

SCAN QR

رواية

Author: **Яхина Гузель Шамилевна**

اسم المؤلف: غوزيل ياخينا

Title: **Эшелон на Самарканд**

عنوان الكتاب: قطار إلى سمرقند

Translated by: **Tahseen Razzaq Aziz**

ترجمة: تحسين رزاق عزيز

P.C.: **Al–Mada**

الناشر: دار المدى

First Edition: **2025**

الطبعة الأولى: 2025

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Guzel Yakhina All rights reserved

Cover design © Andrei Bondarenko,
All Rights Reserved.

Cover image © State Art Museum of
Chuvash Republic, Russia

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

+ 964 (0) 770 2799 999 | + 964 (0) 780 808 0800 | + 964 (0) 790 1919 290

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 | + 963 11 232 2275 | + 963 11 232 2289

ص.ب: 8272

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617 | + 961 706 15017 | + 961 175 2616

مكتبة

t.me/soramnqraa

غوزيل ياخينا

مكتبة
t.me/soramnqraa

قطار إلى سمرقند

ترجمة : تحسين رزاق عزيز

الإهداء

إلى والدي شامل زاغرييفيتش ياخين

الجزء الأول

خمسمائة

مكتبة
t.me/soramnqraa

قازان

أربعة آلاف فرسخاً[1] -بالضبط المسافة التي يجب أن يجتازها القطار الطبي على سكة حديد قازان إلى تُرْكِستان. لكن القطار نفسه لم يحضر بعد- وقِّعَ على أمر تشكيله يوم أمس، 9 أكتوبر (تشرين الأول) من عام ألف وتسعمائة وثلاثة وعشرين. ولم يكن ثمة ركاب بعد -كان لابد من جمعهم من دور الأيتام ومراكز إيواء الأطفال المُشَرَّدين: صبايا وصبياناً، من عمر سنتين إلى اثنتي عشرة سنة، الأضعف والأكثر هزالاً. لكن مسؤول القطار كان حاضراً: إنه دييف- مقاتل من الشباب في الخطوط الأمامية في الحرب الأهلية. وقد عُيِّنَ للتو.

قال له قائد إدارة النقل، تشايانوف، بدلاً من التحية:

- الأطفال، خمسمائة نفْس. تسلّمهم من قازان إلى سمرقند. سوف تستلم كتاب التفويض والتعليمات من السكرتير.

على مدى سنين من الخدمة في النقل، رافق دييف كل ما يمكن أن يتحرك على القضبان، من الحبوب والماشية المُصادَرَة إلى زيت الحوت

1- الفرسخ الروسي، أو الفيرست: وحدة قياس روسية قديمة كانت تستخدم لقياس الأطوال. يتم تعريفها باعتبارها تساوي 500 قامة (ساجين)، القامة تعادل (2,13 م)، مما يجعل الفيرست يساوي 1.0668 كيلومتر. (المترجم).

في خزانات أرسلتها النرويج الصديقة إلى منطقة الفولغا التي تعاني من المجاعة. ومع ذلك، لم يحدث أنْ رافق أطفالاً.

- متى المغادرة؟

- غداً على الأقل. اجمع القطار -وأسرِعْ، يا دييف، حلّق مثل الطيور! الأطفال- لا يحبون الطريق الطويل، ستفهم قريباً بنفسك.

هذا كل ما في الحديث، الذي لم يتجاوز دقيقتين. لم يتضح فقط: ماذا تعني هذه العبارة الغريبة «ستفهم بنفسك»؟ لكن لم يكن ثمة وقت للتفكير. الأفكار الطويلة لكبار السن، فهُم وحدهم لديهم الكثير من الوقت.

بادئ ذي بدء، ذهب إلى إدارة المحطة. فوعده مسؤولو الإدارة بكشط خشب الأرضية، ولم يكشطوا سوى عربة واحدة فقط، ولكنَّ هذه العربة كانت سابقاً صالون الدرجة الأولى، وكانت في وقت ما ذات لون أزرق جميل، والآن بهت لونها وتحول إلى الرمادي، وذات نسيج من الغوبلين على الجدران، لكنَّ التنجيد مُمَزَّق في بعض الأماكن، والمرايا سليمة تقريباً وصالة مشتركة فسيحة يمكن عند الرغبة أن ترقص فيها رقصة الفالس. ذات مرة كانت فيها مكتبة سفرٍ وحتى وضِعَت فيها آلة بيانو، والآن كان فيها بانيو من الحديد مُبَتَّر (يمكن ملاحظة أنه سُحِبَ من حُجَيرة الحمام والغسيل ونُسِيَ هنا). بدا منظره غير مألوف وهو محاط برفوف الكتب الفارغة والشمعدانات التي اسوَدَّ لونها. تجهم دييف، لكنه أخذ العربة. وأمر بإزالة قماش الجدران المُمَزَّق، وإسقاط الشمعدانات. في المقصورة، وبدلاً من شبكات الأمتعة الأنيقة، أُقيمت أسرَّة خشبية من طبقَتَين وثلاث طبقات. أمر دييف بترك البانيو. وحاول أن يطلب موقداً من الحديد من أجله، حتى يكون لدى الأطفال مكان ما لتدفئة الماء من أجل الغسيل، لكنه دُعيَ برجوازياً فأجّل فكرة الإمداد بالماء الساخن إلى وقت لاحق.

تحتّم عليه أنْ ينتظر العربة الثانية حتى الغد: اقتيدَت من بلدة كراسنايا غوركا، التي كانت متوقفة فيها منذ أربع سنوات في الفناء الخلفي لمرأب القاطرات. ما إنْ نظر دييف إلى الغنيمة حتى استولت عليه الرجفة: لم تكن هذه مجرد عربة بسيطة، بل كنيسة متنقلة. على ما يبدو، هذا هو سبب تراكم

الغبار عليها في موقف التخزين كل هذه المدة الطويلة وكان من الصعب تكييفها مع أيّ احتياجات سوفييتية. لنفترض، أنه يمكن إزالة البرونز الذي اخضَرَّ لونه من القبة، ويمكن تفكيك المذبح (المحراب). ولكن ماذا عن النوافذ المقوسة تحت الحواف الحمراء؟ وماذا عن الطنف (إفريز الحائط) المقنطر تحت السقف؟ قَبِل دييف هذه العربة أيضاً. الشيء المُفرِح الوحيد فيها: أنها فسيحة كبيرة الاستيعاب. «كم من المقاعد نَصُفُّ فيها؟» -سأل رئيس تعاونية النجارين، وهو ينظر بإجلال إلى السقف الناضح. «دعنا نصنع ثلاثة صفوف!»- قال دييف ولوَّح بيده. ربما يسع المكان الصفوف الأربعة جميعها، لكن الأطفال يخشون الصعود إلى الأماكن العالية.

أُرسِلَت عربة المطبخ بعد يومين، من مكان بالقرب بلدة سيمبيريسك. وهذه العربة عبارة عن صندوق صغير رشيق على عجلات، صُنعَ على عجل من ألواح مصقولة ثم رُتِقَ لاحقًا بألواح غير مصقولة، فيها بقع من الخشب الرقائقي، وخط معقوف متمايل من مدخنةِ موقدٍ بارز من نافذة ناتئة من السقف. قيل، إنه منذ عام تسعة عشر كان هناك الكثير من هذه الأشياء غير المرغوب فيها في خطوط سيمبيرسك الحديدية الجانبية المسدودة، ويمكن أن يكون هناك ما ينفع دييف، لكن لم يكن لديه وقت للذهاب إلى هناك من أجل التأكد.

أخيراً، فُكِّكَ قطار ركاب جاء من موسكو ونُقِلَت خمس عربات منه إلى قطار دييف، الذي أطلق عليه عمال سكك الحديد فيما بينهم «الضفيرة» بسبب تنوع الألوان والأشكال فيه. لم تكن العربات -المليئة بالمقاعد والمُفعَمة بالدخان والملطخة إلى حدّ إثارة الغثيان- بحاجة إلى نجارين، بل تحتاج إلى تنظيف شامل. لكن بحلول ذلك الوقت، كان دييف قد أزعج سلطات المحطة بالمطالب (بالإضافة إلى أنَّ طلباته كلها كانت «على الفور!»، «في هذه الساعة بالذات!» و«بكل الوسائل!»)، مما جعله يتخلى عن طلب عمال النظافة. بصقَ وأخذ عدة دلاء من الماء وبدأ يغسلها بنفسه.

في هذه اللحظة بالذات جاءت هي. كان دييف منبطحاً على الأرض المبتلة، وينبش كومة من قشور البذور من تحت المقعد بقطعة قماش. وإذا بفردَتَي حذاءٍ عريض المقدمة من النوع الذي يُنتعَل في فرقة المشاة ينتصبان

أمام وجهه بالضبط. رفع عينيه إلى الأعلى: فرأى بطّتَي الساقين الرفيعتين، من دون لفافات جوارب الجنود - بل في صوفِ جوربٍ ناعم.

بدأت الحديث بهذا الشكل:

- أيها القاتل، لماذا تتمهل؟

ذُهِلَ دييف. فرفع عينيه إلى الأعلى أكثر: التنورة سوداء، ضيقة، وتحت قماش التنورة الجوخ - ركبتان حادتان.

- في الوقت الذي تزحف فيه هنا ببطنك على الأرض، الأطفال يموتون.

حاولَ الخروج من تحت المقعد والجلوس، فصدم قفاه على حافة المقعد.

- من أنتِ؟

كان دييف يتهيَّب أمام النساء ولذلك كان يخاطبهنَّ بصيغة المفرد المُخاطَب «أنتِ»[1] حصرياً، ويتعامل بفخر، بنوع من التحدّي.

- أنا مفوّضة لجنة الأطفال. سأذهب معكم إلى سمرقند، لو سمحت اخرج من البِركة وباشر بتنفيذ الأمر.

- هل لديكِ اسم، أيتها المفوَّضة؟

- بيلايا (البيضاء).

لم يفهم دييف ما إذا كان هذا اسمها أم لقب عائلتها. ولكنه لم يرغب بتكرار السؤال مرة أخرى.

كانت أكبر منه سناً، لكن لا يحسبها المرء والدته. كانت بعمر أخواته الأكبر سناً. كان وجهها جميلاً وصارماً، يليق بأنْ توضع صورته على ملصق. شعرها أشقر، بقَصة قصيرة، مجعد في كل الاتجاهات. نظرتها تسلّطية، مثل نظرة قائد في الجيش. في ظل هذه النظرة، أراد دييف أن يقفز على الفور ويرتِّب نفسه، لكنه تماسك: ومسَّدَ ناصيتَه ببطء (وفي الوقت نفسه أزاح قشور عباد الشمس العالقة من جبينه)، وألقى خرقة المسح في الدلو بعدم

1- اعتاد الروس في الخطاب في المواقف الرسمية ومع الأكبر سناً أو الغرباء استعمال صيغة الجمع المخاطب «أنتم». (المترجم).

اكتراث (طرطَش الماء على الحافة ورش المفوَّضة على حذائها) – بقي جالساً على الأرض، ومدّ رجليه قليلاً. وقال:

– إذاً، ربما، يمكنك المساعدة في التنظيف، أيتها الرفيقة بيلايا؟ أم ننقل الناس في هذه العربة التي تشبه الحظيرة؟

أجابت بجدية:

– سأُقَدِّم لكَ المساعدة، ولكن في الليل عندما ينام الأطفال.

– يبدو، أننا، لا نتلاءم، أليس كذلك؟

ردَّ دييف بفظاظة. مع أنه لم يكن يريد أن يبدو وقحاً على الإطلاق، لكن اللسان الغبي انطلق بنفسه.

وعلى الفور شعر بالخجل من هذا الكلام الفاحش المُبتَذَل. فنهض ونفض الأوساخ عن سرواله الملفوف وركبتيه العاريتين. وعندما استقام، أدرك أنه كان ينظر إلى الضيفة من الأسفل إلى الأعلى: كانت المفوَّضة بيلايا أطول منه بنصف رأسٍ كامل.

قالت، وهي تنظر إليه عن كثب:

– أخشى، يا دييف، انه لن يُقَدَّر لنا أنْ ننام. لن يتعيَّن علينا الذهاب إلى سمرقند بالذات.

وهنا، أخيراً، حدَّق إلى عينيها – كانتا رماديتَين على نحو فاتر، برموش مستقيمة.

***

بعد دقيقتين، تمشّى إلى جانب بيلايا. وحتى لم يتمشَّ – بل انطلقَ بسرعة على مسارات السكة المبتلة من رذاذ المطر، محاولاً بكل قوته ألا ينزلق ولا يبدأ في الجري.

سارت هي بخطوات واسعة، من خلال عوارض سكة القطار، على الرغم من حقيقة أنَّ ساقيها كانتا نحيفتَين للغاية، كان قوامها خفيفاً، وبالكاد يمكن تمييزه تحت الطيات العريضة للسترة العسكرية، المربوطة بحزام عند الخصر. راقب دييف الحركة السريعة لخُفَّيها المربعين وفكَّرَ لا بد أنهما

يخفيان تحتهما قَدمين صغيرتين ونحيفَتين. فتعثر، ولعنَ - ثم طرد من رأسه الفكرة غير المناسبة.

تحدثت بيلايا بسرعة، من دون أنْ تكلف نفسها عناء الالتفات برأسها نحو مُحاوِرها، بل كأنها تطلق سيل العبارات إلى الأمام، فكان عليه أن يسرع الخطى ليسمع التعليمات:

- سيحاولون زيادة عدد الأطفال -لا توافق! سيحاولون إضافة مرضى بالتظاهر بأنهم في مرحلة النقاهة- لا توافق!

لم يستطع دييف معرفة معَ مَن لا يوافق. وبعبارة أخرى، لم يعرف، على مَن أطلقت المفوَّضة هذه الكلمات بلا رحمة؟

- سيبدؤون في الضغط من خلال مبدأ الرأفة - ألقِ بالمسؤولية على عاتقي في كل شيء. قل لهم هكذا: الحقيقة، أنَّ بيلايا، هذه، مبدئية للغاية ولا يرقّ لها قلب، ولا توجد ثمة طريقة للتوصل إلى اتفاق معها، إنها ليست إنسانة، بل حجر...

ذكَّرها دييف على كل حال:

- لكنّي، أنا، رئيس القطار.

وافقت بيلايا وقالت:

- أنت رئيس القطار. ولكن ألقِ باللوم عليَّ في كل شيء. والأفضل، اصمت، سأقول، أنا، كل شيء.

من خلال الأفنية الخلفية للمحطة خرجا إلى المدينة وسرعان ما وجدا نفسيهما في وسط المدينة بالذات، حيث انتصب في الساحة الرئيسة قصر مشيد من الجرانيت والرخام، ذو أعمدة بعرض ثلاثة أبْواع ونوافذ أعلى بكثير من طول قامة الإنسان. كان القَصر في وقت مضى مقرَّ جمعية النبلاء والآن صار مركز إخلاء الأطفال رقم واحد في قازان. أُحضِرَ الأطفال إلى هنا من جميع مناطق تتاريا (تترستان) القريبة والبعيدة، الذين لا يريد آباؤهم إطعامهم أو لا يستطيعون إطعامهم؛ ومن هذا المكان كان يُتَوقع أنْ يكون نصيب الأسد من ركاب قطار دييف.

لكن عن قرب، لم يكن مركز إيواء الأطفال يشبه القصر، بل كان يشبه قلعة محاصرة. كانت نوافذ الطابق السفلي محكمة الإغلاق بألواح، وفي بعض

الأماكن بطبقتين من الألواح - أما النوافذ المقوَّسَة في الطابق الأول فقد وضِعَت في مكانها صفائح من الحديد والخشب الرقائقي. وأعمدة الرخام الأبيض مليئة بشبكة كثيفة من الشقوق. الجدران مليئة بالحُفَر بكثرة لدرجة أنها تبدو كأنها بنيت من حجر رخو مَسامي بشكل غير عادي (عرف دييف سبب حدوث هذه الشقوق على الفور: الشقوق الصغيرة من الرصاص، والشقوق الأكبر من القذائف). بدا المبنى صارِماً ومنيعاً، كما لو كانت الحرب الأهلية لا تزال مستعرة من حوله. يا ترى، مِمَّ تحصّن الموجودون في الداخل؟ هل حقاً من الأطفال المحاصِرين للمؤسسة؟

أما الأطفال، فقد تمرَّغوا في كل مكان -على سلالم المدخل الجرانيتية، وعلى الجرائد المفروشة على طول الجدران- دزينة أو دزينة ونصف من الأجساد الصغيرة الوسخة، الملفوفة في خِرَق حتى الحاجبين وبلا حراك في المطر. شاهد دييف مثل هذه الصورة أكثر من مرة، لكنه لم يفكر قط: لماذا يرقد الأطفال خارج المأوى وليس في الداخل؟

سارت بيلايا على المنحدر المتدرِّج للعربات التي تجرها الخيول إلى الباب الأمامي وطرقت الباب. لم يرد عليها أحد. فطرقت مرة أخرى، هذه المرة بقوة أكبر، هزَّت البوابة المغلقة بإحكام -ومرة أخرى من دون نتيجة. وقفت على رؤوس أصابعها وضربت براحة يدها عدة مرات على الخشب الرقائقي الذي يغطي فتحة النافذة- كادت تجرح يدها بمسمار.

بقيت القلعة صامتة. وكذلك الأطفال الراقدون عند السفح.

لم يتحرك أحد. راقبت عدةُ أزواج من العيون أفعالَ المرأة بفضول متراخٍ. لكنَّ طفلاً واحداً فقط -طفلاً صغيراً ذا وجه بنيّ لفحته الشمس كأنه حبة بطاطا وسخة- جلس على نحو أكثر راحة حتى لا يفوته المشهد. فتوجهت بيلايا إليه، وسألته بنبرة ودية:

- لماذا لا يفتحون؟

لا تليق بكِ النبرة المتسلطة، ولا نظرة القائد، اندهش دييف. تبيَّن أنَّ المفوَّضة تُحسن الكلام على طريقة البشر!

ظل الطفل صامتاً لبعض الوقت، ينظر إلى الجوانب وإلى الأعلى، الذي هطلت منه قطرات المطر الصغيرة. ثم غمغم على مضض:

– لقد تأخرتم. تعالوا يوم غد، سيكونون أكثر لطفاً في الصباح.

تنهدت بيلايا:

– نريد أنْ يُفتَح لنا الآن. ربما، هناك طريقة أخرى... ساعدنا.

ومرة أخرى لم يجب على الفور وكأن الكلمات قد وصلت إليه من بعيد.

– وماذا سأستفيد من ذلك؟

– سأخبرك كيف تلتحق بالمأوى. لكي لا تستجدي هنا تحت الباب، وتمسح الشرفة بسروالك. وحتى تأخذك الممرضات الاجتماعيات بأنفسهن من كوعك ويقُدنَكَ إلى الداخل، ويحمِّمنك، ويطعمنك، وتُلحَق بالجراية لتأخذ حصة من المواد الغذائية.

كشَّرَ الطفل على الفور عن أسنانه السوداء، وقال:

– أنتِ تكذبين.

– اليوم، في منتصف الليل، هناك مداهمة عند المصب، لجنة مكافحة تشرد الأطفال والشرطة سوف يمشطون الشاطئ. وأولئك الذين يُقبَض عليهم سيُنقَلون إلى مراكز إيواء الأطفال المشردين. لذلك فإنَّ كل مَن يريد سقفاً يؤويه وجراية من المواد الغذائية سيتواجد عند المصب قبل غروب الشمس. ومَن لا يريد فسوف يولّي إلى أيّ مكان ولا يُضايق أحداً. هل فهِمتِ؟ ستنقلينه على طريقتك.

انكمشَ وجه الصبي الذي يشبه البطاطا، ورفع حاجبيه بريبة، وهزَّ أنفه.

فقالت بيلايا:

– إذا كنت أكذب، فليكن سكين في قلبي، مسامير في عيني!

ثم لطمت بيلايا نفسها بقبضة يدها المشدودة على صدرها، كما لو كانت تغرز خنجراً بين ضلوعها، وانبسط وجهها على الفور، وابتسمت على نحو تآمري. وطلبت منه مرة أخرى:

– الآن ساعدني.

نهض الصبي، ببطء، بالكاد يحرك أطرافه، كما لو كان يتحرك في قاع النهر، وليس على الأرض، وتوجه إلى البوابة الأمامية. أدار ظهره لهما، وبعد

أنْ فقد على الفور كسله وتوانيه كله، ضرب بكعبه وبقبضتيه بعنف؛ دقَّ بقوة لدرجة أنَّ الخشبة الثقيلة الملمَّعة بالورنيش ارتجفت وبدأت المفصلات تصرف. ثم بدأ يلهث وأوضح، من دون أنْ يقطع عمله الصاخب:

– كان ينبغي الدَّق بقوة شديدة؟ لا يمكنك أن تأخذهم إلا بالإصرار!

تناهى بعد دقيقة من مكان ما في الأعلى، من النافذة، صوت:

– قيل لكم، لا توجد أماكن!

لكن الصبي استمر يدق، من دون أن يخفف الوتيرة، وسرعان ما نقر مفتاح على أحد الأبواب. وثب الطفل على الفور وتنحّى على الجانب، ونطَّت من الفجوة مكنسة وجعلت تلوِّح في الهواء.

ظهرت في الفتحة صورة أنثى ضخمة تلوح بالمكنسة مثل سيف محطم:

– انصرِفوا من هنا، أيها الحثالة! انصرفوا، ليأخذكم عفريت الغابة على قرونه!

فقالت بيلايا بصوت هادئ جداً وبنبرة تهديد جعلت القشعريرة تستولي على دييف كله حتى على أمعائه:

– ما هذا الحصن الذي أقمتموه هنا؟ لقد انتهت الحرب منذ مدة طويلة.

لم ترتبك المرأة البواب. وقالت:

– انتهت الحرب لبعض الناس، وللبعض الآخر ما زالت مستعرة على قدم وساق. سوف يدمرون المؤسسة! ليس خطأي أنَّ جيشاً منهم موجود هنا كل يوم! أين يمكن أنْ نستوعبهم، كلهم؟

لم تقل بيلايا كلمة أخرى، وخطت خطوة إلى الأمام، فتراجعت المرأة الضخمة إلى الوراء، وخفضت مكنستها. اندفع دييف على أثرها، في ظلام المبنى الدامس ذي النوافذ المغلقة بإحكام.

***

ظلت المرأة البوابة تصيح عند الباب وهي تغلق آخر قفل من عدة أقفال وتضع المفتاح في الثقب:

– أيها الرفاق، إلى مَن تريدون؟ إلى أين، أيها الرفاق؟ قولوا!

اندفعت بيلايا وصعدت على الدرج الأمامي الواسع إلى حيث يتوهج الضوء من الطابق الثاني. سارع دييف وراء المفوَّضة، لكنه تعثر بشيء لين وكاد يسقط. وتعثر مرة أخرى. وكاد يسقط مرة أخرى. صرخ مَن في الظلام بصوت رقيق، ثم صرخ ساخراً:

– أيها الرفاق!

كان لا يمكن رؤية أي شيء في الظلام. توقف دييف، وهو يفتّش أمامه بيديه – لمسَ زوجاً من الهامات المحلوقة.

قهْقَهَ أحدهم من الجانب الآخر، وقال:

مكتبة
t.me/soramnqraa

– أيها الرفاق! أنتم ذاهبون إلى أين؟

ردَّ أحدهم من الجانب الثالث:

– إلى جبل العين! على السياج المعوج!

– لأنظر إلى الشَّرِه الأكول!

– أو لأشرب النبيذَ والكحول!

– أو ألتهم الجبنةَ في المحلول!

ثم امتلأ المكان المُظلِم بالأصوات والضحكات والتنهدات.

– لأضرب الفاحش الفعّال!

– ثم، المدّعي المُتعال!

– ومن ثم، الملمّع الصقّال!

– من دون تَباهٍ ولا إعْوال!

– هدر صوت المرأة البوابة في مكان ما عند أسفل الدرج:

– اخرسوا!

بعد أن حدَّق دييف وأجهد عينيه وتلمَّسَ الفضاء أمامه، اندفع خلف بيلايا –من خلال حشد الأولاد الجالسين على الدرج. كانت راحة يده تنزلق على رؤوس حليقة، وسيقان، وفوق أكتاف وظهور. وأكثر ما كان يخشاه أن

يدوس على أحدهم، لكن أجساد الأطفال كانت أسرع بكثير- فقد اندفعوا هم بأنفسهم على الجوانب، فاسحين الطريق، مثل سرب من اليرقات الذي يتفتت عند رؤية سمكة كبيرة تقترب.

كلما صعد دييف إلى الأعلى أكثر، صار المكان أكثر إشراقاً وأصبح الحشد مِن حوله أكثر كثافة. وسرعان ما انقسم الدرج إلى فرعين، كل منهما منحنٍ بشكل حاد -أحدهما إلى اليسار والآخر إلى اليمين- ويؤدي إلى الطابق الثاني. هنا يمكن رؤية العيون -بنية، حمراء، سوداء، زرقاء، خضراء- كانت العيون تحدق بفضول من كل مكان. كان الأولاد صغاراً ورؤوسهم محلوقة تماماً. بدا أنَّ أحدهم ليس لديه أذن؛ لكن، ربما، كان هذا مجرد خيال في الظلام.

انكشف الطابق الثاني من الجانبين بممر واسع. البوابة عريضة (كانت ذات يوم بيضاء ناصعة، منقوشاً عليها بأحرف ذهبية، ولكنها الآن مُقَشَّرة حتى ظهرَ منها الخشب الداكن) تؤدي إلى الفضاءات الداخلية. أسرَعَت نحو الضيوف من أعماق الممر سيدةٌ ضئيلة تلبس نظارات، من شكلها تبدو موظفة في مأوى الأطفال. لكن بيلايا لم تنتظر المرأة، بل حتى كأنما نكاية بتسرعها، فتحت البوابة المركزية ومشت إلى الداخل بحزم. خطا دييف خلفها وهو يتوهّج من الحرج. أليس هو الوحيد المسؤول عن هذا التدخل الوقح؟

دخل، فذهل: كانت هذه قاعة لحفلات الرقص. من خلال النوافذ الضخمة (كانت النوافذ جميعها تقريباً تحتوي على زجاج سليم، وقليل منها فقط كان مغطى بالخرق) تدفَّقَ ضوء النهار بسخاء. كان السقف مرتفعاً بشكل غير عادي - فاضطرَّ دييف إلى لف رقبته ليرى ثريا عملاقة متعددة المستويات بحجم قاطرة (كانت الشموع فيها كلها مكسورة، لكن الزخارف البرونزية سليمة). امتدت من الثريا أزهار من الجبس وشقوق سوداء على شكل موجات عبر السقف. وفي المكان نفسه، في الأعلى، كانت هناك شرفة أوركسترا مسوَّرة بدرابزين أبيض، وامتدت منها نحو الأسفل أعمدة متهالكة لكنها لا تزال رشيقة.

امتلأت هذه المساحة الكبيرة بالأطفال لدرجة أنها كانت تشبه غرفة الانتظار في محطة سكة الحديد. رفوف النوافذ فُرِشَت بالخِرق وتحولت إلى أماكن للنوم؛ على كل رفّ ازدحم ثلاثة أو أربعة من الفتيان، وأحياناً جنباً إلى جنب. الصناديق، والحقائب، والأكياس المحشوة بأشياء ما، وأكوام الكتب المكدسة عن قرب أو المبعثرة التي غُطِّيَت بالتبن استُعمِلَت أَسِرَّة - امتدَّت على طول الباركيه في صفوف طويلة (كانت الكتب ثمينة، مجلَّدة بأغلفة مصنوعة من الجلد أو من الورق المقوى الأنيق، من الواضح أنها مجموعات الأعمال الكاملة). وأولئك الذين لم يكن لديهم أماكن نوم أو جلوس كافية كانوا مستلقين على الأرض مباشرة، يغطونها بطبقة كثيفة متحركة من الأطراف الشاحبة المتسخة والوجوه النحيلة.

لم ينتبه أحد لمَن دخل: كان سكان مأوى الأطفال يحدقون من النوافذ، ويلعبون الورق بحماس، ويثرثرون، ومنهم مَن كانوا نائمين، يلسعهم القمل، أو ببساطة يحدقون في السقف من دون تأمّل. لم يسبق أن رأى دييف هذا العدد الكبير من الأطفال مجتمعين معاً. بُهِرَت عيناه من كثرة الكعاب الحافية، والأقفية الحليقة إلى حد الصلع والمتشابهة. ملأ هدير الأصوات أذنيه:

- لم تكن المرة الأولى التي التهمنا فيها لحم الكلاب - لقد حدث! ولا شيء، شبعت منه بطوننا، ولم نَمُت...

- كانت والدتي تحتضر حينها، وأظهرت الأرض بالفعل مخالبها السوداء...

- ما بك، يا فتى، هل تريد أنْ تقرأ عليَّ موعظة؟! إذا ما أردتُ شيئاً، فلن أتوجه إليكَ بالسؤال. فنحن، أصابعنا، لا تزال رطبة من أخذ البصمات، سجلّنا حافل في مراكز الشرطة. ونعرف كيف نهرب من دون أنْ يلاحظنا أحد، وكما يُقال، حتى البراغيث لا تحسّ بنا...

- أيتها العذراء القديسة، يا أم الرب، يا ملكة السماء والأرض! استمعي إلى تنهداتي المملوءة بالألم...

- وحتى هنا، الأكل الذي يُقَدَّم رديء للغاية: الأكل -ماء، والشرب- ماء، لن تتغوط أبداً...

– إنَّ صاحبكَ موزجوخين[1] أمام دوغلاس فيربانكس[2] – فأر مقابل فيل!...

– عندما يبدؤون العراك معي، أتذكر أمي بكلمة حلوة...

– آه، أقول لها، أيتها الأخت، إنكِ تأكلين كثيراً جداً، لكنها تصر بعناد، مثل لينين...

– أيها الرفاق! هل أنتم من مفوضية الشعب للتعليم (وزارة التعليم)؟

كانت المرأة التي تلبس النظارات تلهث من جرّاء الركض لهذه المسافة القصيرة (في القرب، رأى دييف أنَّ شعرها غير الكثيف المصفوف على شكل حزمة أشْيَب تماماً، ولم تعد نحافة جسدها نحافة الشباب، بل العجائز). لكن بيلايا لم تفكر حتى في التوقف – كانت تخطو بسرعة بين أجساد الصبيان المتناثرة على الأرض، وتدير برأسها في جميع الاتجاهات.

لحقت المرأة بدييف وتكيفت بطريقة ما مع وتيرة سير بيلايا السريعة، واصطفَّت بجانبها مذعورة، وهي تحاول أن تنظر في وجه الضيفة الغريبة، وقالت:

– لقب عائلتي شابيرو. المديرة شابيرو.

قالت بيلايا بنبرة صارمة للغاية، كما لو كانت تلومها مقدماً على أي إجابة:

– كم إجمالي عدد الأطفال في المأوى؟

نزعت المديرة نظارتها وهي تسير وفركتها بحافة سترتها الصوفية المحبوكة، على ما يبدو على أمل أن ترى الغريبة بشكل أفضل من خلال العدسات النظيفة. وقالت:

– أربعمائة وخمسون شخصاً. لكن بعد الغداء يكونون أكثر، ننتظر رتلاً من بلدة يلابوغا.

1- إيفان موزجوخين (1889–1939) – ممثل روسي وكاتب سيناريو ومخرج من عصر السينما الصامتة، وعمل أيضاً في فرنسا وألمانيا والولايات المتحدة. (المترجم).

2- دوغلاس فيربانكس (1883–1939): ممثل ومخرج وكاتب ومنتج أمريكي من أهم وجوه السينما الصامتة. بدأ مسيرته الفنية عام 1899. (المترجم).

– هل من بينهم أصحاء؟

عبّر وجه المديرة عن المزيد والمزيد من الارتباك، وصار تنفسها أكثر حدة من المشي السريع، وقالت:

– ذلك يعتمد على مَن يسمى معافى وبصحة جيدة. هناك سبعة وأربعون طفلاً في المستوصف وفي الحجر الصحي... أَم أنكم من مفوضية (وزارة) الشعب للصحة؟

ليس من الصحيح إجبار إنسان عجوز على المشي بهذه السرعة. يا ترى، هل فهمت بيلايا هذا؟ كلا، لا يبدو أنها فهِمَت. أو على العكس – فهِمَت تماماً؟

– من إجمالي عدد الأطفال الأصحاء، كم عدد الأطفال الذين تزيد أعمارهم عن خمس سنوات؟

قالت شابيرو وهي تلهث وتتنفس بصعوبة:

– الثلثان تقريباً... ولكن اسمحوا لي... ما زلت لا أعرف مَن أنتم، أيها الرفاق؟...

شعر دييف بالخجل. وأشار لها على مرافقته:

– بيلايا. المفوَّضة بيلايا من لجنة إيواء الأطفال المشرَّدين.

ابتسمت شابيرو على الفور، وتناست ضيق التنفس، وقالت:

– لجنة إيواء الأطفال المشرَّدين وإجلائهم! أخيراً، تذكرتمونا! نحن نموت من دونكم، نموت... لماذا لم تنبّهونا؟ كنت سأجمع كل الأرقام معاً، وأعد قائمة بالأسئلة، حتى لا يكون الأمر بلا تروٍّ...

– لا داعي للعجَلة.

نظرت بيلايا إلى النوافذ والحيطان التي بينها: اشتد المطر في الخارج، وظهرت قطرات كبيرة عبر التجصيص الرث على الباركيه.

نظرت لسبب ما: وأوحت أنها ترى وتدين. أسلوبها مُدهِش وليس كلامها فقط، بل وكذلك حركاتها وإيماءاتها، وحتى نظراتها الصامتة التي تتحول إلى عتاب! إنها ليست امرأة – أفعى.

بدأت شابيرو تقول بإلهام:

– لا بأس أولاً، وقبل كل شيء، المبنى، بالطبع. يمكنكِ أن تري بنفسك ما الظروف التي نحن فيها! المسؤولون في مفوضية (وزارة) الشعب للتعليم يعتقدون أنهم منحونا القصر – وهذا كل شيء، أُنجِزَت، بنظرهم، المهمة! ماذا عن العيش في هذا القصر؟ هل فكروا في ذلك؟ كيف يدرس الأطفال؟ وكيف ينامون؟ ماذا عن المرض؟ لا مكان للأطفال في مثل هذه الظروف.

انتابت دييف الرغبة في نجدة المديرة المسكينة، فقال:

– هذا صحيح. أين الأَسِرَّة؟

هزَّت شابيرو رأسها، وقالت بلهجة الوعظ:

– لم يكن الناس ينامون في جمعية النبلاء، أيها الرفيق. هنا كانت تُقام حفلات الرقص والولائم. هاك، انظر، هذا أفضل سرير لدينا.

صفعت يدها على مقعد من مقاعد الشارع، من الواضح أنه أُحضِرَ من حديقة عامة: تكدَّست عليه مجموعة من الأطفال، وغُطِّيَ بمفرش طاولة من الحرير فيه شراريب – ملوّث بالدسم تماماً وبهتَ لونه منذ زمن طويل.

نشرت شابيرو ذراعيها النحيفتين بشكل مأساوي وبدت على الفور كأنها عنكبوت خائف، وقالت:

– كل يوم لدي قافلة جديدة! فأين أُسكِنهم، أين أُسكِن جميع الذين جُلُوا؟ وكل يوم، يأتوننا باللقطاء. لقد علَّقنا إشعاراً على الباب: «الرجاء، نقل جميع الرّضَّع على الفور إلى دار رعاية الرّضَّع!» وكتبنا العنوان هناك. لكن الأمهات اللائي يأتين إما أمّيات أو عنيدات: فنجد كل صباح على الدرج – فرخاً أو اثنين من فروخ الوقواق، أو حتى ثلاثة...

شعرَ دييف بأنَّ أحدهم وجَّهَ نظره إليه. فالتفتَ – ورأى من خلال زجاج باب الشرفة المتعددة المصاريع عدة تماثيل من الجبس تنظر إليه؛ أغلب الظن، أنها نُقِلَت إلى الشرفة لانتفاء الحاجة إليها. بعض من التماثيل قُطِعَت أنوفها. وكان ماء الأمطار يجري على وجوه التماثيل الثابتة.

–... وبالإضافة إلى ذلك كل يوم يأتي إلينا البعض من تلقاء أنفسهم، من عشرة إلى خمسة عشر شخصاً. يأتون ويأتون، يأتون ويأتون، يأتون ويأتون. يأتون من كل حدب وصوب، ليس من تتاريا فقط – يأتون من تشوفاشيا إلى

هنا، ومن موردوفيا، ويأتي الألمان من ضواحي ساراتوف، وقبل عدة أيام جاءوا إلينا من كالميكيا. لنفترض أنني لن أسمح لمراهق بالدخول. ماذا عن طفل بعمر ثلاث سنوات؟ قلبي لا يطاوعني أنْ أرفض.

قالت بيلايا وهي تجتاز القاعة:

– أنتم مَن أغلقتم النوافذ بالحديد بسبب الودّ المفرط؟

ثم استدارت بيلايا وسارت بحيوية نحو المخرج، كما لو كانت هي صاحبة الدار هنا وتقود الضيوف بنفسها في المؤسسة.

شعر دييف بالانزعاج إلى درجة الذهول من حدة نغمة رفيقته وسلوكها الفظ. إنها ليست مفوضة أطفال، بل رئيس عرفاء في ساحة العرضات!

سارت شابيرو مسرعة، وبالكاد استطاعت أنْ تلحق ببيلايا، وقالت لها:

– لا بأس، سوف أقول لكِ لماذا! الطابق الأول والأقبية غير مؤهّلَة للسكن تماماً، حتى الماشية لا يمكن الاحتفاظ بها هناك: في الشتاء يكون فيها صقيع على الجدران بسمك الإصبع، وفي الربيع والخريف يكون الماء بعمق الركبة. والنوافذ بلا زجاج، منذ أيام الحرب. والمدافئ لا تعمل والمجاري مسدودة. الآن، ليت لجنة إيواء الأطفال تساعدنا...

صوتٌ غريبٌ ممدودٌ قطعَ الحديث: كان يأتي من مكان ما فوق، من تحت السقف –بدا لدييف في بداية الأمر أنَّ ذلك كان صوت صفارة إنذار. لكن، كلا، لقد كان ذلك طفلاً يعوي– لا يبكي، بل بالضبط يعوي – ينشج على نحو يائس نشيجاً متواصلاً لا يقطعه إلا قليلاً لكي يأخذ نَفَساً بين الحين والحين. حتى بيلايا توقفت واستدارت نحو الصوت. لكن المديرة لوحت بيدها فحسب في حالة من التعب:

– لا تشغلوا بالكم، هذا سينيا التشوفاشي. سوف يهدأ قريباً.

***

لم ينحسر العواء –أثناء ما كان الضيوف يغادرون القاعة، وأثناء ما كانوا يسيرون في الممر، وأثناء ما دخلوا الغرفة المجاورة. أغلقت شابيرو الباب جزئيّاً حتى لا يزعجهم الصوت– اخترق الصوت حتى الجدران.

ولكن بمجرد أن وصلوا إلى المكان الجديد، نسي دييف أمر سينيا، فقد أثارت ذهوله القاعة التالية كثيراً. ربما، كانت ذات يوم غرفة الطعام الرئيسة. الآن تسكنها الفتيات. كانت هنا نفس الأَسِرَّة الذاتية الصنع من الكتب، وقطع الأثاث، وصناديق الكرتون، ونفس الازدحام والضيق، ونفس الأجساد العظمية والأقدام الحافية - لم تعد لصبيان، بل لصبايا. وفوق كل شيء، هيمن الطعام.

السقف مطلي بلون فاتح وبسخاء، بنوع من الأصالة الطبيعية غير العادية. حول المحيط - أوراق عنب، وانتصبت في الأعلى عناقيد كبيرة بفخر، تضيئها أشعة الشمس. وتناثر هناك على الضوء أيضاً التفاح الوردي اللون والكمثرى العسلي، شبه الشفاف. وكانت الفراشات ترفرف فوق جبال المشمش والخوخ، والليمون نصف المقشر يتلألأ رطباً ويكاد يقطر بالعصير.

الجدران عبارة عن لوحات عملاقة. طيور مشوية، قطع من لحم الخنزير ذات لون وردي فاتح، محار، خبز مُقَطَّع وكأس من النبيذ مملوءة إلى النصف -هذا كله كان بأحجام مذهلة وفي حالة ممتازة: لم تسلب الشقوق ولا العفن هذا الثراء الشديد- توهجت اللوحات الجدارية كما لو كانت رُسِمَت بالأمس.

المكان هنا هادئ للغاية: ضغطت المساحة غير الاعتيادية على الصبايا، فاستَلقَينَ بسكينة، يتحدثن بصوت بالكاد يمكن سماعه (حتى سينيا التشوفاشي توقفت عن الصراخ). لاحظ دييف كيف حاولت إحداهنَّ انتزاع قطعة من اللحم المرسوم عن الحائط، لكنها لم تستطع: كانت طبقة الطلاء سميكة وقوية، وكانت إصبع الصبية ضعيفة.

أراد دييف أن يطرح سؤالاً، لكنه نحنحَ بتضايق فقط، وهو يتفحص سحابة الفاكهة المنتشرة فوق رأسه.

تنهدت شابيرو:

- أقول لك، لا توجد غرف.

كشَّر دييف وهو يبحث عن كلمة مناسبة وقال:

- أليس من الممكن دهن هذه الرسومات؟

– بأي شيء؟ بالفحم؟ وحتى هذا غير متوفّر لدي أيضاً.

قاطعتهما بيلايا:

– موضوع الغرف واضح. ما الذي يقلقك بعد؟

لم يلاحظ دييف على وجهها الناعم الجميل أيَّ أثر للقلق: نظرت المفوَّضة إلى جنون الطعام المستعر والأولاد المحتشدين تحته بهدوء تام. كان لديها تركيبة نفسية غريبة: تارة تغلي لما تراه أمامها، وتارة جافة المشاعر، كما لو لم يكن في صدرها قلب، بل قطعة من السمك المجمد. الجدران التي يتسرب منها الماء والنوافذ المسدودة بالخشب الرقائقي، تثير قلقها. ولكن عذاب الأطفال الذين يعيشون محاطين بالطعام المرسوم – فلا يحرّك فيها شعرة.

ردت شابيرو على الفور، وهي تشير بكفّيها النحيفتَين إلى المواد الغذائية المرسومة على نحو خلاب:

– ثانياً، بالطبع، الطعام. إنّي أفهم كل شيء: الدمار والمجاعة والظروف الصعبة. لكن لماذا نُخْليهم إذا لم نتمكن من إطعامهم؟ روبل في الأسبوع لكل طفل –هل هذا معقول؟ ماذا يمكنني أن أطعم الطفلَ مقابل روبل؟ أأطعمه من غبار المطحنة؟ أم مِن قشارة الشوفان؟ لكن حاجة الطفل لا تقتصر على الطعام فقط– فهو بحاجة للعلاج أيضاً وللتدفئة. وهذا – الأمر الثالث.

أومأت برأسها إلى المدفأة في الزاوية، وهي موقد ضخم من الحديد الزهر والرخام، كانت عند سفحها بضعة أغصان مكسورة وصحف ممزقة. وكان في فوهة المدفأة دلو من الصفيح، يقطر فيه الماء من حين لآخر من المدخنة – ربما من المطر الذي يهطل في الخارج.

احْمَرَّت وجنتا شابيرو المتجعدتان من الامتعاض، وبدا أنها قد توهَّجَت كلها من هذا الكلام؛ وانفتحت بلوزتها، وأصبحت حركاتها أكثر اتساعاً. وقالت:

– القصر... هل فكَّرَ المسؤولون في مفوضية الشعب للتعليم ما مقدار الحطب اللازم للتدفئة في هذا القصر مرة واحدة على الأقل؟ العواصف الثلجية لدينا تهب في القاعة طوال الشتاء!

فجأة، شعر دييف أنه قد تجمّد خلال نصف الساعة الذي قضاه في مأوى

الأطفال المشردين: ربما، لم يكن الجو هنا أكثر دفئاً منه في الخارج على الإطلاق. فأشعة الشمس المرسومة على السقف لم تدفّئ المكان.

تحولت بيلايا مرة أخرى إلى النبرة الرسمية، وقالت:

- لا بأس، المطالبة بالحطب أسهل من المطالبة بالمال أو المباني.

- طلبتُ! أنفقت الورق كله على المخاطبات معهم!

- إذاً، كان ينبغي ألا تكتبي لهم، بل أن تذهبي إلى دائـرة التربية الاجتماعية، إلى المدير، ولا تسمحي له بالخروج من المكتب حتى يعطيكم قافلتين محمَّلتَين بالحطب. وأنْ تضعي قلم رصاص لهذا اللقيط هنا، (قالت بيلايا هذا وغرزت إصبعها في المكان الذي عادة ما يبرز منه النتوء الحنجري لدى الرجل) وأنْ تدسّي القلم الرصاص الثاني في يده: ودعيه يوقع! وأنْ تهدّديه بأن يفعل ذلك وإلا ستشتكين إلى اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب - جراء تقصيره وموقفه العدائي تجاه الأطفال!

من خلال النبرة المُمَيَّزة التي تكلَّمت المفوَّضة بها، فهم دييف: أنها نفسها فعلت ذلك، وربما، أكثر من مرة. طقطقت شابيرو فحسب بعينيها القصيرَتَي النظر من غير حول ولا قوة، من دون أنْ تستجيب للمقترَح الجريء، وبعد لحظات فقط واصلت كلامها، كما لو كانت لا تزال تأمل في التعاطف:

- ومِن ثم، بالطبع، النظافة -نحن ببساطة لا نمتلكها. ليس لدينا حمامات بخار، ولا حُجُرات للتعقيم- نحن نأخذ الأطفال إلى الحمام، بنسبة واحد من عشرة. ونُعطى قطعة صابون واحدة لكل عشرة. وإذا ما ظهرت الحكّة فجأة؟ أو الجرب؟ مجرَّد التفكير في هذا يصيبني بالرعب...

رفعت بيلايا صوتها لدرجة أنَّ شابيرو ارتجفت، والفتيات جعلن يحدّقن في ذعر إلى الكبار الذين يتشاجرون:

- كفى، توقفي عن الخوف والشكوى! اذهبي إلى مفوضية الصحة الشعبية (وزارة الصحة) واضربي بقبضة يدك على الطاولة! وألقي إليهم على نفس الطاولة حفنة من القمل الأكبر حجماً - كتذكار من الأطفال الذين لا يُتاح لهم الغسل. ستحصلين بسرعة على حُجُرات تعقيم وعلى الصابون ومسحوق الأسنان!

قالت بيلا ذلك، ثم استدارت ساخطةً وتوجهت نحو الباب.

لقد فعلَت كل شيء، فكَّرَ دييف. كل هذا فعلته بيلايا: دقَّت بقبضتها، وهالت القمل على الطاولة. أو ربما ليس على الطاولة - بل على ياقة المدير المسكين. كل شيء يمكن أن يحدث منها: إنها ليست إنسانة، بل غرغرينا في تنورة. وهو الأحمق! حدَّق في رموشها وفي ركبتيها الجميلتين. وقد أصابته بالذعر فكرة كونه سيكون معها على القطار نفسه!

شهقت المديرة وقالت:

- هل تنصحينني هكذا، بصفتكِ عضواً في لجنة إيواء وإجلاء الأطفال المشرَّدين؟

- أنصحكِ بهذا وبقوة!

قالت المفوَّضة ذلك وهي تخرج من غرفة الطعام من دون أن تكلف نفسها عناء أنْ تمسك الباب خلفها، كاد الباب يصفع شابيرو، التي كانت تسرع وراءها، على جبهتها. وبالكاد أسعف الوقت دييف ليقفز لحماية المرأة العجوز من ضربة الباب. لو كان الأمر بيده، لضرب بهذا الباب بيلايا عن طيب خاطر على ظهرها، أو حتى على وجهها ذلك الجميل المتغطرس.

صعدت بيلايا مسرعة على الدرج إلى الطابق الثالث، وكادت تُسقط طفلاً صغيراً.

فردَّ الطفل بفظاظة وقلة احترام:

- افسحوا الطريق، الخراء يريد أنْ يطفو في البحر!

فردت عليه بيلايا على الفور:

- الخراء ليس كله سواء!

اضطربت شابيرو أكثر من السابق وصار الخوف يُلاحَظ في نغمة صوتها، وقالت:

- لا شيء هناك يستحق المعاينة! هناك المستوصف والحجر الصحي فقط!

لقد فات الأوان: فقد انطلقت المفوَّضة في المسير، وكان كعبا حذائها يدقان على الأرض - في مكان ما في الأعلى.

***

صبيٌ يرتدي سترة رجالية من دون أكمام لونها قرمزي وذات أزهار ذهبية وأزرار من البلور كان واقفاً في الممر، ويبول في دلو. كانت السترة كبيرة جداً لدرجة أنَّ الحاشية تجعَّدت وامتدت على شكل طيات على الباركيه، وبرزت رقبة الصبي النحيفة من ياقة السترة مثل عصا من برميل. بدا تحت المخمل الأحمر جسده الأبيض العاري تماماً -لم يكن لدى الصبي بنطلون، ولا حتى ملابس داخلية. بعد أن قضى الصبي حاجته، انشغل برفع أطراف ردائه حتى لا تجرّ خلفه أثناء المشي، وتوجه إلى مكانه وهو يجر قدميه متثاقلاً. كانت قدماه الحافيتان اللتان تظهران من أسفل جوانب السترة تشبهان أقدام الفيل- طرفاه السفليان القبيحان المنتفخان اللذان فقدا أي شكل كانا يتقدمان ببطء، وبجهد، وبالكاد يرتفعان عن الأرض.

أوضحت شابيرو، وهي تلهث وقد انقطع نَفَسها من الصعود (بدا لدييف أنها كانت تتأرجح من التعب ومن كثرة القلق والاضطراب خلال الدقائق الأخيرة):

- وجدنا هذه الثروة على شرفة الأوركسترا، إلى جانب الشعر المستعار والبودرة. هذا صحيح، بقيت من الموسيقيين: دزينة من بدلات الحفلات التنكرية، ولم نعثر على زوج واحد من الأحذية. كان من الأفضل لو وجدنا العكس. لكن الخير لا يضيع، فوزَّعناها على الأولاد... أم إنكِ تنظرين إلى قدميه؟ لقد قلتُ لكِ، لدينا هنا مستوصف.

كانت مساحة الطابق الثالث أضيق بكثير وأشد انخفاضاً: في النوافذ الصغيرة يمكن للمرء أن يرى إفريزاً متدلياً من الأعلى، وكان بإمكان دييف أن يلمس السقف بيده إذا رغب. من الواضح، أنَّ أبنية مُلحَقَة كانت هنا ذات يوم. وثمة باب منخفض يؤدي إلى كل منها.

نظرت شابيرو ودييف في عدة ردهات (كان عليهما أنْ ينحنيا عند عتبة الباب حتى لا تضرب هامتاهما العتبة)، حتى وجدا بيلايا في واحدة منها: لم تكن تتمشى في الغرفة، بل وقفت فحسب على مقربة من الباب، وهي تتطلّع باهتمام إلى الساكنين. وحتى لو أرادت أنْ تتمشى لن يكون بمقدورها السير هنا - كانت الغرف ضيقة للغاية، وقد افترشت أجسادُ الأطفال الأرضيةَ بكثافة.

كانت هذه الأجساد غريبة. بعض الأجزاء منها -الأذرع والأكتاف والأضلاع وعظام الترقوة والرقبة- نحيفة بشكل غير عادي وذات عظام بارزة بشكل حاد. وبعض منها -الأقدام، والسيقان، والأفخاذ، والبطون- منتفخة انتفاخاً غير معقول، مثل وسائد الريش. والشيء نفسه ينطبق على الوجوه: بعض منها ذو أقنعة عظمية، والبعض الآخر ليس له حتى وجه، بل مثل الضفدع المنتفخ من خلال القش، وبالكاد يمكن رؤية شقوق العينين في طيّاتها. لقد رأى دييف، بالطبع، أناساً مصابين بداء الاستسقاء وتورمت أجسادهم (ومَن لم يَرَهُم في مناطق نهر الفولغا!)، لكنه لم يرَ مثل هذا العدد الكبير منهم في وقت واحد، وكلهم من الأطفال فقط... كان أحدهم عارياً، وأحدهم مغطى بسترة من المخمل، ربما هو الذي رأوه قبل قليل. وضع بعضهم على رؤوسهم قبعات مثلَّثة مطرّزة بخيوط ذهبية اللون وذات ريش وشعر مستعار مجعد. كان الأطفال مستلقين على المضاجع وعلى الأرض، يتحدثون بتكاسل، وكان الكثير منهم نائمين.

تمتمت شابيرو بخجل:

– وفقاً للتعليمات، بالطبع، من المفترض ألا نقبل في المأوى المصابين بداء الاستسقاء والمتورمين والمقعَدين، لكن الناس الذين يعملون بالإخلاء... ما عساك أن تأخذ منهم، فهُم على كل حال بشرٌ أيضاً. كل شيء يحدث، إنهم يخطئون: أحياناً يجلبون أطفالاً رُضّعاً، وذات مرة أحضروا صبية حُبلى من ضواحي بلدة ماماديش - بالرغم من أنها تبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، ومع ذلك حامل...

ففهم دييف أخيراً سبب شعورها بالإحراج.

اقترحت عليها بيلايا:

– نفقات علاج هؤلاء الأشخاص غير المفترَضين اقطعيها من رواتب العاملين في الإخلاء – وسوف يتوقفون على الفور عن ارتكاب مثل هذه الأخطاء.

انحنت شابيرو فحسب وهي تشعر بالذنب ولم ترد على أي شيء.

لم يعد بإمكان دييف التحمل أكثر من ذلك، فقال بحقد:

- اخرسي.

قيل هذا بهدوء وفي ظهر كلتا المرأتين -من المستبعد أنْ تكونا قد سمعتاه. أراد أن يكررها بصوت أعلى، وأن يضيف أيضاً بضع كلمات تنعش المديرة، ومن ثم يأخذ بيلايا من تحت كوعها (يمسكها بشدة أكثر حتى تتألم ألماً حقيقياً) ولا يسمح لها أنْ تفتح فمها بعد الآن... ولكن في هذا الوقت لمس شخص ما ساقه من الخلف- بمودة، مثل قطة تلوي بذيلها.

التفتَ فرأى: طفلة تبلغ من العمر أربع أو ثماني سنوات -نحيفة جداً لدرجة أنك لا تستطيع أنْ تدرك كم عمرها- تجلس على كومة من القش في الزاوية وتمد يدها لمن دخلوا. عيناها مفتوحتان كل الفتح -بيضاوان مثل بيضتين مسلوقتين مقشرتين- حدقت في دييف. كفها المطوي كالقارب، يتأرجح في الهواء. فأدرك أنها عمياء. تطلب الصدقة بعدما سمعت الصوت.

جلس دييف القرفصاء بجانب الطفلة، ومسَّدَ على كتفها وخفض يدها الممدودة إلى الأرض برفق، وقال لها:

- ليس عليكِ فعل ذلك بعد الآن. سوف يطعمونك هنا على أي حال.

التفتت شابيرو، وقالت:

- لا تُتعِب نفسك. مرحومة - لا تفهم الكلام باللغة الروسية ولا باللغة التترية. يبدو لها أنَّ هذه هي الطريقة التي تكسب بها الخبز.

***

قالت شابيرو في الممر، وهي تدعو بيلايا ودييف بإيماءة منها إلى السُّلَّم:

- هذا، هو، قصرنا بالكامل. الآن، وبعد أن رأيتما كل شيء. دعونا نذهب إلى الأسفل، أيها الرفاق، سأقدم لكم الشاي.

ولكن لم يسعفهم الوقت للنزول -حتى دوّى عواء مألوف أجش، في مكان قريب جداً- يمكن أنْ يحسبه المرء عواء حيوان، لو لم يتخلله نشيج متقطّع وغمغمة.

خمّن دييف:

- إنه سينيا التشوفاشي؟

كانت المديرة، لسبب ما، شاحبة، ووجهها متجمداً. أومأت باقتضاب وأشاحت بعينيها. ثم شرحت:

- يطارده قطيع من القمل. في الحلم. فيهرب من القمل، ولكنه لا يستطيع الفرار. تعرضت رجلاه لصقيع شديد وللدغات من الحشرات الآن تؤلمه للغاية. بمجرد أن يستيقظ سينيا، يبدأ يمسك بهذا القمل الذي يدب عليه، ويقنصه... وعندما ينام، يبدأ القمل يهرش به... لنذهب، أيها الرفاق! (لاح في صوت المديرة شعور بانقطاع الأمل) -الشاي عندي ممتاز- شاي الجزر.

نظرت بيلايا في عَينَي شابيرو المليئَتَين حزناً. وقالت:

- لسنا بحاجة إلى الشاي.

وسارت على طول الأبواب المغلقة تتنصَّت - بحثاً عن الباب الذي خلفه يصرخ سينيا.

وجدت الباب، وفتحته.

لكنَّ هذا الباب لم يؤدِّ إلى غرفة، بل إلى شرفة الأوركسترا.

لم يكن الراقدون هنا أطفالاً، بل هياكلِ عظمية لأطفال: هكذا فكَّرَ دييف بمجرد أن دخل. على الكراسي التي صُفَّت بعضها بجانب بعض صُنِعَت مضاجع من الخِرَق. واستقرت فوقها العظام - رقيقة ملفوفة بجلد مترهل رمادي. كان الجلد نفسه مُلتفّاً حول الجماجم والوجوه، التي بدت كأنها تتكون من أفواه ضخمة ومحاجر عيون. كانت العظام تتحرك قليلاً بين الحين والآخر: أحياناً يفتحون أعينهم من دون وعي ويتمايلون ببطء على مضاجعهم، ثم يرقدون بلا حراك، بجفون نصف مُغمَضَة. أُضجِعَ عدد من الأطفال في صناديق مسطحة كبيرة (من خلال المقابض المنقوشة البارزة من الجانب، عرف دييف أنها أدراجٌ أُخِذَت من خزانة ذات أدراج). طفل واحد رقد في صندوق من الخشب الرقائقي كانت توضع فيه آلة الكونترباس.

المُمَدَّدون هنا هم -أولئك الذين مروا بإغماء الجوع، وحمى الجوع، واستسقاء الجوع، والذين تضوروا جوعاً مدة طويلة- ليس لمدة أشهر، بل سنوات - وأنَّ أجسادهم لم تمت من نقص الغذاء، بل أُنهِكَت ونَحُلَت من

فقره المستمر. هؤلاء بالذات يبدو إنقاذهم غير ممكن البتة. نظرت إليهم آلهة الحب الجبسية من السقف مبتسمة.

كان سينيا أيضاً يرقد هنا. لم يعد يصرخ – كانت عيناه النائمتان تحدقان في مكان ما في الفراغ، ويلهث مثل الكلب، وفمه مفتوح كل الفتح. كان لديه جمجمة ذات نتوءات كثيرة فيها شعر خفيف أحمر وأذنان كبيرتان بشكل خارق للعادة، وفم من دون أسنان تقريباً، لم يكن فيه سوى اثنين من الأنياب العلوية يتلألآن على جانبي اللسان.

ارتعش أنف بيلايا الشاحبَ على الفور، وقالت بصوت منخفض جداً:

– هل يجلب لكِ جماعتُك الذين يعملون في الإخلاء مرضى مُقعَدين؟ وهل تستقبلينهم؟ الحقيقة، أنَّ ملائكة الرحمة كلهم هنا، في هذا المكان!

رفعت شابيرو عن أنفها نظارتها التي اكتست بالضباب، وذهبت من دون أن تجيب لتعدّل غطاء سينيا – وهو عبارة عن قطعة من نسيج الغوبلين الذي لا يزال بإمكان المرء أن يرى عليها رسوم الحجل وكلاب الصيد.

من الأسفل، من قاعة الحفلات الراقصة المزدحمة بالأطفال الأصحاء، اندفعت الصيحات والضحكات.

قال دييف:

– لماذا في مثل هذا المكان الغريب؟

ثم نظر من الشرفة، فرأى كيف بدأ الأولاد يلعبون على الباركيه لعبة النط.

قالت المديرة:

– أنا أقول لكِ، لا توجد غرف.

ثم راحت تمسّد على رأس سينيا الحليق. فبدا وجهها الوردي الصغير من دون نظارات مثل وجه طفل، لكنه متجعد فقط.

قالت بيلايا على نحو الإجمال وبسخرية:

– لكن الأمر لا يهم بالنسبة لأولئك الأطفال المرضى الذين يلازمون الفراش.

قال دييف:

– لا ينبغي أنْ تقولي هذا!

ثم شعر بالغثيان فجأة يدور في معدته - إما من علو الشرفة أو من كل ما يراه.

استقامت شابيرو ووضعت نظارتها ببطء على أنفها، وقالت:

- أفهم أنني انتهكت جميع التعليمات. وأنا مستعدة لتحمّل العقاب. لكن عليكِ أن تفهمي أنك أيضاً - بعد كل شيء، أنتِ من لجنة إيواء الأطفال المشردين وإجلائهم، ولستِ من اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب: إلى أين أتركهم يذهبون؟ لم يكن من الصحيح أنْ أعيد القافلة إلى بلدة يلابوغا أو لايشيفو! في التقرير الخاص بنتائج التفتيش، أطلب منك الإشارة إلى أنَّ: المسؤولية في هذا كله تقع على عاتقي وحدي وأنَّ...

قاطعت بيلايا المديرة، وقالت وهي تنظر في وجهها مباشرة:

- نحن لسنا من التفتيش. إننا نعمل على جمع الأطفال من أجل نقلهم إلى تركستان.

- نعم، نعم، كانت هناك مثل هذه الرسالة... (تمتمت شابيرو بارتباك، ثم فجأة شهقت شهقة ناعمة، مثل شهقة صبية، ووضعت كفها المتجعد على صدرها. فقد فهمَت). - لماذا فعلتِ كل هذا؟ كل هذا الاستجواب وتفتيش المكان كله... وهذا العقاب الجسماني كله... لماذا لم تقولي على الفور؟

قالت المديرة ذلك فبدت عيناها أكبر خلف عدسَتَي النظارات السميكتَين، ربما بسبب الامتعاض، لكن بدا لدييف أنهما صارتا أكبر بسبب ترقرق الدموع فيهما.

- كان ينبغي عليَّ أنْ أرى بنفسي جميع الأطفال الموجودين في المأوى.

ضمَّت المديرة كفّ يدها الثانية إلى صدرها، وقدَّمَت كتفيها النحيفتين إلى الأمام - كأنها مع كل ثانية، تتقلص وتتقلص أكثر فأكثر، وقالت:

- بمعنى أنَّ تقريري لن يكون كافياً بالنسبة لكِ؟

فردَّت عليها بيلايا، ولكن هذه المرة بهدوء وعلى نحو عملي، بعد أنْ تخلَّت عن النبرة الاتهامية:

- كلا. هل أعددتِ قائمة بأسماء الأطفال الذين يجب نقلهم؟

– نعم، وأضفت احتياطياً ضئيلاً. وأردت فقط أن أسأل مفوضية الشعب للتعليم...

ألقت بيلايا نظرة حول الشرفة، وقالت:

– لن تكون هناك زيادة في العدد المُقَرَّر، اشطبي الأسماء الاحتياط على الفور. أرجوكِ اشطبي أسماء جميع الأطفال الموجودين في الطابق الثالث، وكذلك الرّضَع دون سن الثانية والفتيات الحوامل. اتركي الأصحاء فقط. والأفضل – الأكبر سناً.

– وإذا لم أوافق؟ وسأحضر إلى القطار ليس أربعمائة طفل، كما هو مذكور في الحصة، بل أربعمائة وعشرة؟ هل ستتركينهم على رصيف المحطة؟

لم تجب المفوَّضة، لكن الجواب كان واضحاً في نظرتها الثقيلة.

– أرجوكِ! اكتبي في القائمة، أولئك الذين لديهم حقاً فرصة للوصول إلى هناك فقط. ويبدو لي أنَّ...

ثم صمتت بيلايا.

بقيت شابيرو واقفة وتضم قبضتيها المضغوطتين إلى قاعدة عنقها، كأنها تريد أن تخنق نفسها، وقالت:

– كيف يمكنني أنْ أشطب أسماءهم بيدي؟ هذا خيار غير معقول...

قال دييف:

– لا داعي لشطب أي شخص. سنأخذ الجميع. وحتى الصبي الذي يرتدي السترة من دون الأكمام، ومرحومة العمياء، وسينيا التشوفاشي. وسنأخذ حتى الصبية الحامل. وحتى هؤلاء أيضاً.

وأومأ برأسه إلى المضاجع مِن حوله.

التفتت إليه بيلايا بحدة كأنها تريد أن تضربه وقالت:

– كلا!

ردَّ عليها دييف:

– نعم! أنا رئيس القطار.

ثمَّ وجَّه كلامه إلى المديرة:

- حضّري الأوراق الخاصة بنقل الأطفال. وسوف أوقعها.

رمشت المديرة بعينيها فقط، وجعلت تحوّل نظرتها الحائرة من ضيف إلى آخر. ثم أسبلت يديها الضعيفتين على جذعها من دون إرادة منها، وهمست بصوتها الذي ضعف فجأة:

- ليس لدى أيّ واحد منهم حذاء. ينبغي على الأقل أنْ يصلوا إلى العربة بطريقة ما، وبعد ذلك سيصلون بالقطار إلى...

قال دييف:

- وحتى أحذية سنجد لهم. لا تهتمّي، سوف نجد الأحذية!

***

وقفت بيلايا على الشرفة وقالت، بل حتى لم تقل، بل فحَّت على مضض بصوت غير مفهوم:

- هل تريد أن تكون لطيفاً؟ تريد أنْ تكون مرهَف المشاعر؟ طيباً في كل شيء؟

قال دييف:

- نعم، أريد. وأنتِ ألا تريدين؟

وقفت عند باب دار إيواء الأطفال المشردين وإجلائهم، وحذاؤها المربع يضغط بشدة على الجرانيت، كأنها لا تزال تأمل في العودة وحل المشكلة بشكل مختلف، وقالت:

- كلا! أريد أنْ أوصِل أكبر عدد ممكن من الأطفال إلى تركستان - ولكن أنْ أوصِلهم أحياءً! ولن آخذ أما المقعَدون، فلن أوصِلهم، إنهم يشغلون مكاناً في العربة عبثاً.

- من الأفضل تركهم يموتون هنا، هكذا ترين؟

هبط دييف ركضاً على الدرج، لكن المفوَّضة لم تتحرك من مكانها - نزل الدرجات، ولم يفهم ما إذا كان عليه أنْ يبقى معها أو أنْ يواصل طريقه قدماً. لم يكن يريد أن يهرب مثل الأرنب من الثعلب.

- هذا هو منطق البقاء يا دييف! قاسٍ، لكنه منطق: أنْ تساعد أولاً أولئك الذين ما زالوا قادرين على النجاة.

قفز دييف قريباً جداً منها، لكنه لم يستطع النظر إليها على مستوى واحد، فقد كان نظره طوال الوقت يهبط ويرتفع. وقال:

- يمكن إنقاذهم كلهم جميعاً! ننقذهم، أو نحاول على الأقل.

- على حساب حياة أطفال آخرين أصحاء؟

كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها لدى إنسان مثل هاتين العينين: باردتَين وفي الوقت نفسه غاضبتَين. لقد رأى مثلهما لدى الذئاب عندما كانت تندفع نحو الناس أثناء الصيد. لكنه لم يرَ مثلهما لدى البشر قط.

سألها دييف:

- وكيف عَيَّنَكِ الحزبُ مفوضاً للأطفال؟! -ثم لوَّح بيده يائساً، ونزل على الدرج واندفع عائداً؛ لكنه لم يستطع أنْ يمسك نفسه، فاستدار وهو يمشي وصرخ مرة أخرى، وأضاف قائلاً:- أنتِ، لستِ صاحبة مبادئ ولستِ بلا قلب، كلا! ولا حتى حجر! أنتِ، يا بيلايا، عدو!

وقفت المفوَّضة على الشرفة كأنها نبتت. وردَّت عليه بصوت منخفض، لكنه سمعها:

- حتى نصل إلى سمرقند، يا دييف، أنا صديقك الوحيد والأكثر وفاءً.

***

لا بـأس، من أين يمكن الحصول على هذه الأحذية؟ خمسمائة زوج تساوي خمسة ملايين. لم يكن لدى أحد مثل هذه الثروة -لا في المستودعات التجارية، ولا في صناديق تجار الخردة، ولا في صفوف دِكاك الباعة في البازار. المدينة كلها تسير في قباقيب ذات نعال متهالكة وجزمات مرقعة وأحذية من القنب. في المطر، يضع الناس فوقها أخفافاً خشبية، وهي عبارة عن قطع من الخشب على شرائط، حتى يتمكنوا من المشي في البِرَك. لا تُصادَف الأحذية العالية الجيدة على الأقدام إلا نادراً، وعادة ما يُحصَل عليها إمّا من المضاربين في سوق السلع المستعملة، أو من نائب ضابط في الجيش (التحق العديد من الأشخاص الماكرين في الخدمة العسكرية من أجل الأحذية المتينة وحدها). فمثلاً حصل دييف على حذائه- المستعمَل

قليلاً، والذي أكبر من اللازم بقياس واحد، وإن كان من دون شرائط، باختصار، حكاية، وليس حذاء! ربما يمكن الحصول على الأحذية في قسم التجهيز. ولكن حتى في المستودعات العسكرية، لم يكن بالإمكان الحصول على احتياطي من الأحذية لفوج كامل. إذاً، لا يمكن الحصول على خمسمائة زوج من الأحذية الجيدة سوى عن طريق الاستعارة - ومن الجيش فقط.

اندفع دييف سريعاً إلى الحصن، كأنه لم يكن يركض في طين الخريف، بل ركض بأقصى سرعته: الشجار الأخير زاد من قوته. هنا، خلف جدران القلعة القديمة البيضاء، استقرت الأكاديمية العسكرية - خلف هذه الجدران داست الأرض، وهمزت الخيل وسارت على ساحة العرضات خمسمائة زوج من الأحذية، وهو ما احتاجه دييف على وجه الخصوص.

ولكن لم يُسمح له بالدخول إلى الحصن. فقد عاند حارس البوابة الأخرق الذي علَّق على ظهره بندقية ذات حربة! وأصرّ: إذا لم يكن لديك تصريح بالدخول - ممنوع الدخول.

استشاط دييف غيظاً، وقال:

- أنت قاتل! في الوقت الذي نثرثر به أنا وأنت، الأطفال يموتون. -وسرعان ما أدرك أنه كان يتكلم بلسان بيلايا، فغضب أكثر من غضبه السابق.- اذهب على الأقل وبلّغ القائد عنّي!

فردَّ عليه الرجل: ليس لدي الحق في ترك موضع الحراسة.

فهدده دييف:

- سوف أصرخ بأعلى صوتي. سأصرخ مثل خنزير لم يكتمل ذبحه، استدعِ قائدك هذا بالذات حتى يخرج إليّ.

فردَّ عليه: لدي الحق بأنْ أستدعي الشرطة.

بصق دييف وجعل ينتظر. ارتجف جسمه تحت المطر المتساقط، فأخذ يحدّق في الحارس، المختبئ بشكل مريح في كشك الحراسة. وأراد أنْ يثير جلبة. ولكن بين الحين والآخر كانت عيناه تنزلقان إلى الأسفل - إلى حذاء الجندي الأنيق، المُلَمَّع بحب وعناية.

فكَّر في الأطفال. وإذا ما حدث حقاً، أنهم سوف يموتون أثناء الطريق؟

كلا، لن يموتوا. كل ما يحتاجونه هو الحصول على الأحذية -وسيركض الأطفال من القصر الحجري البارد إلى عربات القطار الدافئة. سوف يغلق عليهم دييف في هذه العربات- سوف يقفل عليهم بسبعة أقفال، باعتبارهم أكثر البضائع قيمة، -وسوف يوقد النار في المواقد حتى تحمرّ، وحتى يحل الصيف في القطار،- فيندفع القطار بأقصى سرعة، مثل الرصاصة إلى سمرقند. ما هي إلا مدة أسبوعين، وسوف يكونون في تُرْكِستان.

ثم عندما يصلون إلى هناك، يجدون الصيف الأبدي. هناك الشمس الحارة، والأمطار اللطيفة. هناك الخبز والرز. هناك العنب حبّاته معجزة، يجعل الدم ينساب بأسرع قوة، وتُزهِر الحُمْرة منه على الخدود (دييف لم يتذوق منه بنفسه، بل سمع عنه). هناك جبال من المكسرات، والخوخ المجفف، حباته كبيرة، الواحدة منها بحجم قبضة الطفل. والكثير من لحم الضأن – يكفي للجميع. لا يتطلب الأمر سوى الحصول على الأحذية...

وهكذا بقي يحرس البوابة – مع الحارس، حتى حلول الظلام. كان الناس يدخلون إلى القلعة ويخرجون منها، وكان واضحاً من تسرعهم وضجيجهم أنهم ليسوا من القادة. ثم دخلت سيارة، ومن خلال تصريح الدخول الذي مُدَّ من النافذة، اتضح مرة أخرى: إنه ليس من القادة.

ظهر القائد في المساء. دوَّت في أعماق الحصن قعقعة حوافر حصان، فانتصب الحارس على الفور واقفاً، وحملق في عينيه بشدة. فأدرك دييف، ها هو ذا، قد ظهر أخيراً.

انطلق الحصان من البوابة مسرعاً. يمتطي الحصان – رجل ضخم وقوي يرتدي سترة رسمية ذات صفّ واحد من الأزرار. مع أنّ دييف لم يميز في الظلام شرائط الرتبة الموجودة على الكم، لكنه اندفع تحت حوافر الحصان، وقال:

– إيها الرفيق القائد!

اندفع الحارس ليسحب الرجل الوقح بعيداً، لكن الفارس قد كبح جماح الحصان، فالتفَّ الحصان في مكانه على الفور، ورفع قائمتيه الأماميتين مهدداً بسحق جماجم كل من حوله.

دار دييف حول الحصان الراقص، محاولاً في وقت واحد أنْ يصيح إلى الفارس ويراوغ من الحارس، الذي اهتاج اهتياجاً أخرق في مكانه، وبندقيته المزعجة ذات الحربة خلف ظهره. وبدأ دييف يصيح:

- أيها الرفيق القائد! خمسمائة طفل! سيموتون إذا لم تساعدهم!

انقضَّ الحارس الأحمق على دييف، ولأنه لم يكن يعرف كيف يحيده عن طريق القائد، فأمسك به من الخلف - كما لو كان يحتضن فتاة! وضغط مرفقيه بشدة على جسمه، وتشبَّثَ بجثته الثقيلة على ظهره، فمنعه من الحركة من مكانه.

حاول دييف أنْ يفلت نفسه، ويتخلص من أحضان الحارس وهو يصرخ على قعقعة الحوافر:

- خمسمائة طفل! إنهم بأمسّ الحاجة إلى أحذية!

قال الخيّال بهدوء، من دون أنْ يرفع صوته، واثقاً من أنه سيُسمع:

- لماذا تطلب مني؟ من أين لي بالأحذية؟

- الأحذية ليست لديك، بل لدى جنودك! دعهم يقرضوننا الأحذية -ليس لمدة طويلة، وإنّما ليصل بها الأطفال إلى المحطة فقط! وبخلاف ذلك، سوف يصاب الأطفال بنزلة برد في مثل هذا الزمهرير! إنهم حفاة- كلهم أجمعين...

- هل تقترح أنْ نترك جميع أفراد جناح الأكاديمية حفاة الأقدام؟ -جلس الخيّال بشكل مستقيم جداً على الحصان الراقص، ممسكاً بالزمام بإحدى يديه، واليد الأخرى أسبلها بشكل عرضي على طول جسده (كان دييف قد رأى مثل هذه الجلسة الأنيقة أكثر من مرة- لدى الضباط السابقين في الجيش القيصري).

- هكذا، لمدة ساعة واحدة فقط!

لم يصرخ الخيّال، بل قال ملاحظة ببساطة:

- هل فقدتَ عقلك... ماذا لو في هذه الساعة بالذات، صدر الأمر «تقدَّمْ إلى المعركة»؟

صرخ دييف بصوتٍ عالٍ، إلى درجة أنه نفسه خاف من كلماته:

- وماذا لو ماتوا جميعاً من البرد -خمسمائة طفل؟ تماسكوا ثلاث سنوات من المجاعة، والآن سيموتون؟ إنهم بحاجة للذهاب إلى سمرقند، للشمس والخبز. عليَّ أنْ أُسرع بهم إلى هناك، بأقصى سرعة! وبدلاً من ذلك، أنا أتحدث معك، وأضيع الوقت...- ثم حدق بغضب في الحارس، الذي كان لا يزال يضغط عليه بحضنه الحديدي. - التفويض في جيب الصدر. كنتُ سأريه لك، لكنّ يدَيَّ مشغولتان.

أمر الخيَّالُ بحركة من ذقنه، ففكَّ الحارس ذراعيه ونفخ بأسى.

أفلتَ دييف من حضن الحارس، ودلَّك كتفيه المدعوكتين، وقال:

- ها هم جنودك - أقوياء ومغذون جيداً! ألا يستطيعون أن يجلسوا حفاة لمدة ساعة في الثكنة الدافئة؟

دسَّ يده إلى جيب صدر سترته العسكرية وأظهر التفويض - ونشر الوثيقة ورفعها.

من غير المحتمل أن يتمكن الخيال في عتمة الغسق من معرفة ما مكتوب، لكنه لم ينحنِ على الورقة أو يأخذها بين يديه - تبخترَ قليلاً على الحصان في مكانه وهو ينظر إلى مقدم الالتماس من جميع الجهات، ثم أمر بصوت منخفض:

- تعال يوم الأحد - الساعة السادسة صباحاً، مع عربة. انتظر هنا عند المدخل. وسوف تستلم خمسمائة زوج من الأحذية، بعد أن توقِّع على استلامها. وأنْ تعيدها بعد ساعتين. وسيرافق العربة فصيل من سلاح الخيالة وسوف يشرِفون على ما يحدث. وعند أدنى شك في سرقة ممتلكات الدولة، سيصدح الأمر «استل السيوف!».

لم يسعف الوقتُ دييف أنْ يرد - حتّى جذب الخيال الزمام، فانطلق الحصان الواقف يعدو سريعاً إلى الأمام، وطقطقت حوافره إلى أسفل منحدر الحصن المرصوف بالحصى.

كان يوم الأحد بعد غد. وهكذا، حُدِّدَ فيه يوم المغادرة.

***

ركض على الفور إلى النزل الجماعي ليأخذ حاجياته. فقد قرر أنْ يسكن في القطار هذه الليلة بالذات، حتى لا يضيع الوقت غداً في الجلبة. وأراد أن يركض –إلى تشايانوف. أراد ذلك– لأنَّ حرقة في صدره! – وأنْ يقتحم مكتب المدير وينظر إلى عَيْنَي تشايانوف، ينظر إليه نظرة رجل، نظرة ند لند. وأن يقول له: بيلايا هذه، ليست من جماعتنا. ووجهات نظرها لا تتطابق مع وجهاتنا. وإنّي، بالطبع، يمكنني التعامل مع المرأة في القطار، لكنها تشرب الدم مثل مصّاص الدماء. لا تشرب دمي، بل دم الأطفال. إنه لأمر مخيف السماح لها بالاقتراب من الأطفال. ومن الخطأ أنْ تُمنَح منصب مفوض. إنّي أقولُ من موقع المسؤولية، أيها الرفيق تشايانوف. أنا لا أشكو، وإنما أُعلن فحسب.

لكن مهما لفَّ دييف ودار، اتضح أنه يشكو.

كان محرجاً أن يشتكي من امرأة.

ولهذا لم يذهب إلى تشايانوف. فنظر فقط إلى نافذة مكتبه المتوهجة في جناح المحطة وسار على طول القضبان المتلألئة في ضوء القمر وعلى الحصى المخشخش إلى الجزء الخلفي من ساحة وقوف وتكديس عربات القطار غير المُستَعمَلة، التي كان ينتظر فيها القطار الفارغ الذي يُجمَع في الطريق.

وهل، فعلاً، هو فارغ؟ كانت نوافذ إحدى العربات تتوهج بضوء كيروسين أصفر شاحب.

هل هم، النجارون يعملون إلى وقت متأخر؟ بيدَ أنَّ جميع أعمال البناء قد انتُهِيَ منها قبل الظهر: وقد سار دييف بنفسه عبر القطار، وفحص قوة الأَسِرّة المشبوكة معاً، ووقع لرئيس الفريق المهني مستند تنفيذ العمل. هل، هؤلاء متسولون يبحثون عن سكن لليل؟ هل هم لصوص جوّالون ينتظرون الوقت حتى وصول القطار اللازم؟

تلمَّس المسدس في ثنايا سترته العسكرية – لم تُوَزَّع أيّ حَمّالات أو ملابس رسمية على العاملين في مجال النقل في قازان حتى الآن، ولذا كان عليه أنْ يحمل السلاح بطريقة بسيطة في جيبه. حاول أن يسير بصمت فوق الصخور الناعمة التي تصدر حفيفاً تحت الأقدام، واقترب من القطار.

من الخارج، كان لا يمكن النظر إلى العربة - لأنَّ النوافذ مرتفعة، فرأى دييف من الشارع قطعة من ألواح السقف. ورأى ظل أحدهم يتمايل على السقف بإيقاع رتيب وعلى نحو واسع مثل البندول.

أخرج المسدس. وبعد أنْ حبس أنفاسه، صعد ببطء على السلَّم الحديدي إلى باب العربة. أمسك بالمقبض وسحبه ببطء نحوه. مدَّ السلاح إلى الأمام، وتسلل عبر شقّ الباب المفتوح.

في منتصف عربة القطار، المضاءة بمصباح الكيروسين، تمايل وِرْكا امرأة: كانت هذه -المفوَّضة بيلايا تغسل الأرضية- في ملابسها الداخلية فقط، وقد حنت ركبتيها قليلاً ومدَّت ردفَيها المتينَين إلى الأعلى. كانت الملابس الداخلية رجالية، مقطوعة مثل سروال قصير، والساقان مفتوحَتين بالكامل تقريباً - ممشوقَتين، مثل سيقان الصبيان، وبطّتا الساقين مستديرتَين استدارة بالكاد بارزة.

بعد أن شعرت بيلايا بوجود شخص آخر، استقامت ومسحت وجهها بظهر كفّها، وقالت:

- إلى أين تذهب، يا دييف؟ لقد اتفقنا: التنظيف ليلاً.

كان المصباح منتصباً على الأرض -لكي يضيء واجهة العمل بشكل أفضل- فأضاء جسم المرأة من الأسفل ببعض الضوء الخفيف الرائع. بدت قدماها الحافيتان بلون ذهبي لامع، بأدق التفاصيل: الركبتان مثل وجهَي طفلين -فيهما غمازات ونتوءات؛ الكاحلان- جافان ودقيقان، بقَدَر حجم قبضة اليد؛ والقدمان -هما كذلك!- ضيقتان ولكنهما ليستا صغيرتين كما اعتقد دييف، بل طويلتان. وحتى إنه بدا له أنه يستطيع تمييز الشُّعَيرات الخفيفة على الجانب الخارجي من ساقَي المرأة. كان جذع بيلايا يكتنفه الظل، وكان رأسها بالكاد يمكن رؤيته في عتمة العربة.

لم يعرف دييف إلى أين يصرف بصره، فقال:

- كنت أبحث عن أحذية. وقد حصلت عليها! سوف نغادر بعد غد.

أومأت برأسها موافقة واقتربت منه أكثر، وقالت:

- هكذا، بسرعة. هل ساعدتك نصائحي؟ وهل ضغطتَ مدير تجهيزات

المدينة على الجدار وهددته بتقديم شكوى إلى اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب؟

أخذت بيلايا نفَساً عميقاً، وهدّأت من لهاثها بعد أنْ أنهكها العمل. ففاحت منها رائحة الملح. وكان الماء يقطر على الأرض من قطعة قماش غير معصورة في يدها.

– إنك تصرف بصرك عنّي. كيف لم أخمّن؟

توهّج دييف على الفور:

– ارتدي ملابسك! وعندئذ لن أصرف بصري عنكِ.

وأجبر نفسه على دفن عينيه في صدرها –خذي! حدق بوقاحة في الخط المفتوح من قميصها الداخلي– خذي! –من دون أن يرمش بل تعمَّدَ حتى أنْ يغرز بصره إلى أنْ شعر بدفء خديه من الخجل. رأى كل شيء– العنق وعظمَي الترقوة وقطرة عَرَقٍ في الحفرة بينهما. وحتى هو نفسه لم يكن يعرف كيف تدبَّرَ أمره في مثل هذا الظلام، ورأى.

قالت بيلايا:

– أنا بالنسبة لك، يا دييف، مجرد مفوض، ولست امرأة.

واقتربت منه حتى التصقت به، فامتدّ جسده إليها، واستقام كالوتر، كما لو شدّه أحدهم من شعره إلى السقف حتى يصبح أطول منها بمقدار بوصة واحدة على الأقل: – إذاً، ما الذي يهم مَن أنا؟ أو مَن أنت؟ أليس كذلك؟

لم يفلح في أنْ يكون أطول.

مزَّقت بيلايا قطعة القماش إلى قسمين وألقت نصفها عند قدمي دييف. عادت هي نفسها إلى المنطقة المغسولة واستمرت في التنظيف.

عملت بسرعة وبشكل جيد. انزلقت يداها على الأرض بحركة كاسحة، وظهرها يتأرجح بمرونة. تأرجح شعرها على وقْعِ حركاتها، وهو يومض مثل سحابة ذهبية في ضوء المصباح النفطي الخافت... زجر دييف نفسه – وأشاح ببصره.

وفجأة أدرك أنه لا يزال يمسك المسدس في راحة يده. بدأ في إعادته

إلى سترته العسكرية، لكنه لم يستطع أنْ يصل إلى جيبه. ثم وصل إليه أخيراً. وهنا، كاد يطرق بحذائه دلو الماء. يا لها من ورطة!

رمى حقيبة الظَهَر التي فيها أشياؤه على أحد الرفوف، وألقى معطفه العسكري وبدأ في خلع حذائه. كان يود لو يهرب إلى العربة المجاورة وينظفها هناك -ولكن لم يكن متوفراً إلا مصباح واحد فقط. ولا يمكنه حتى التسلل إلى الطرف الآخر من العربة- دائرة الضوء صغيرة، عليه أنْ يدفع مؤخّرته على الرقعة المضيئة. وأنْ يتدافع! المهمة صغيرة - أنْ ينظّف الأرضية مع فتاة وقحة لبضع ساعات. شَمَّرَ عن سرواله إلى الركبة، وعن أكمام القميص العسكري إلى الكوع. واستعدّ للتنظيف!

واصلت بيلايا قائلة:

- لكنَّ حظي عاثر. رئيسك، تشايانوف، رفض إبعادك عن المسار. اشتبكتُ معه بإحكام. قلت له: تبيّن أنه ضعيف، أعني، صاحبك دييف - ذا مزاج عصبي، سريع التأثر، مثل البُنَيَّة. لن يوصِل...

عندما قالت بيلايا ذلك كان دييف يشطف الخرقة في الدلو، فتجمد في مكانه منحنياً إلى النصف، ممسكاً بالخِرقَة المبللة في يديه.

تراءت رِجلا المفوَّضة الحافيتان ليس بعيداً أمامه، فتراجع خطوة بعد خطوة، تاركاً وراءه ألواح الأرضية النظيفة.

-... فردَّ عليَّ تشايانوف: إذا ما كان أحدهم سيوصِل الأطفال، فلن يكون سوى دييف. (اقتربت رِجلاها منه أكثر). - على الأقل سيحل محل سائق القطار في الطريق، وعلى الأقل سيحل محل الميكانيكي. إنه يعرف القاطرات، كما قال، مثلما يعرف الأب أبناءه. نادراً ما أتراجع، لكن كان عليَّ أن أتراجع هنا. (صارت قدماها عند وجه دييف تقريباً، لو مد يده للمسهما). هل أنت الأفضل حقاً؟

رمى دييف الخِرقَة المبللة على الأرض؛ فتناثرت قطرات كبيرة من الرذاذ كالشظايا في كل الاتجاهات.

نزع قميصه العسكري من خلال رأسه، وخلع السروال، وألقى به جانباً - وبقي أيضاً في ملابسه الداخلية.

أمسك الدلو الثقيل وضربه بكل قوته وسكب كل الماء منه على الأرضية المغسولة. وفي الوقت نفسه على الساقين الناعمتَين الوقحتَين. ولم يتأسف سوى على الدلو وحده!

تدحرجت الموجة على أرضية العربة، وغمرت حامل المصباح النفطي - لم تنطفئ الشعلة، بل اهتزت قليلاً. انطرح دييف أرضاً في ذلك الماء على أطرافه الأربعة وبدأ يمسح بالخرقة بحماس وينظّف خلف المفوَّضة.

لم يرد على ما قالت.

وقفت بيلايا قليلاً وتطلَّعت إلى دييف، ثم بدأت تساعده...

أضاء المصباح النفطي على نحو جيد - وعمل كلاهما على نحو جيد أيضاً، ولم يعد يقطعهما الحديث عن العمل. عند غسل الأرضيات، أصبح الاختلاف في طولهما غير ملحوظ. كان قميصاهما الداخليان متشابهين تماماً، ولم يختلف البنطلونان إلا في الطول.

عمّ الهدوء في العربة... سقط ظلّا المُنَظِّفَين على السقف، تارة يتقاطعان، وتارة أخرى يتباعدان. وكانت رائحة القطران تفوح من الأَسِرّة المقصوص خشبها حديثاً.

تدلّى من الرف العلوي طرف التنورة الموضوعة بعناية، كانت فوقها كتلة داكنة - قميص عسكري رجالي.

***

كان اليوم السابق للمغادرة - معركة لا نهاية لها.

استيقظ دييف، الذي استطاع بصعوبة أنْ ينام بعد ليلة التنظيف المنهِكة، عند الفجر بسبب وخز ثقيل على كتفه. فتح عينيه فرأى إنساناً. كلا، ليس إنساناً - بل جبل: كتفاه بالكاد وسِعَهما الممر، ويافوخ رأسه يسند السقف. وفي يد الجبل حقيبة من الخشب الرقائقي عليها صليب أحمر في المنتصف.

ابتهج دييف، وقال وهو بعد نائم:

- أنت الطبيب.

فهز الرجل الجبل رأسه، وقال:

- لا، أنا المساعد الطبي.

ردد المساعد الطبي بوغ كلمة «لا» أكثر من غيرها. «لا، لن يكون المستوصف في عربات الدرجة الثانية - النوافذ صغيرة بعض الشيء. ولكن المناسب جداً أن يكون في العربة الكنيسة». «لا، المستوصف ليس مكانه في وسط القطار. ينبغي أن نحوّله إلى النهاية». «لا، سيسقط المرضى من مثل هذه الأَسِرَّة. يجب تجهيز كل واحد منها بحزام».

كان دييف يهرع من القطار إلى مبنى المحطة ثم يعود -طالَبَ بقاطرة مناورة لتحريك العربات (وقد حصل عليها!)، وأحزمة للأَسِرّة (وجِدَت! وإن لم تكن أحزمة، بل مجرد حبال لعربات الخيول)، وموقد من الحديد الزهر لغلي الماء (ووجِد هذا فجأة!)، وطاولة لغرفة العمليات (صُودِرَت طاولة مطبخ، من وحدة التغذية)، وبطانيات لتخفيف القشعريرة من الحمى (اتضح أنَّ هذا هو أصعب شيء- تمكنوا من الحصول على دزينة فقط من أكياس الأمتعة المصنوعة من القماش)... هرع على طول السكة متبعاً تعليمات المساعد الطبي، وتساءل: كم عمره؟

كان الرجل الجبل عجوزاً وقوياً. شعره القصير، المقصوص مثل جلد القندس، أشيب؛ وكذلك غزا المشيب شعر حاجبيه، ونما لديه شعر خشن في الأذنين، ولديه حزمتان كثيفتان من الشوارب تحت أنفه الذي يشبه حبة البطاطا. وكست التجاعيد خدّيه الحليقَين وعنقه. وظهره، الذي بدا بعرض ظهر دييف مرّتين، قد انحنى من فعل السنين، على الرغم من أنَّ هذا لم يفقده الوقار، بل على العكس -زاده وقاراً. ويداه- السليمتان، ذواتا الكفّين الضخمتين، المغطاتين ببقع الشيخوخة على القفا - لم يُسبَلا على طول الجسم، بل مرفوعتان قليلاً على الجانبين، وكأنَّ قوة ما تتفجر من داخل بوغ. يمكن قراءة الماضي العسكري في مظهر المساعد الطبي الخارجي بنفس وضوح قوته المذهلة. أما عمره فلم يكن العمر قابلاً للقراءة: كانت حركات الرجل العجوز سريعة، وعيناه شابتين تماماً.

عندما أمسك دييف وبوغ بالموقد الحديد الضخم من كلا الجانبين، وجرّاه في العربة بحثاً عن مكان مناسب. سأله دييف:

- هل تقاعدتَ من مدة طويلة؟

دييف نفسه تجمّد واحمرّ وجهه من الخجل، بينما احتفظ المساعد الطبي بمظهره البهي، الأمر الذي أثار دهشة دييف.

ردَّ بوغ لأول مرة بالإيجاب خلال هذا اليوم:

- نعم، من وقت طويل. منذ القرن الماضي.

إذاً، كان يبلغ من العمر ليس أقل من ستين عاماً: كان المساعدون الطبيون العسكريون يُحالون إلى الحياة المدنية بعد أنْ يقضوا عشرين عاماً في الخدمة.

ضحك بوغ، وهو ينظر إلى دييف الذي انشغل في حساب السنين؛ ثم لف يديه الضخمتين حول الموقد واندفع وحمله إلى النافذة التالية وحده، وقال:

- عمري واحد وسبعون عاماً. لا تخَف، يا حفيدي الصغير، لن أموت قبل أنْ نصل إلى سمرقند.

- لَستُ حفِيدَكَ، بَلْ رئيس القطار!

صفع الرجل العجوز راحة يده على جانب الموقد المصنوع من الحديد الزهر (سوف ننصبه هنا!) وابتسم فقط رداً على كلام دييف، كاشفاً عن أسنانه الصفراء - القوية، الخالية من كل فجوة أو بقعة داكنة.

***

في الخارج، كان الطباخ المنتدب ينتظر. هذا الذي كان مُفعَماً بالشباب! إنه صبي أخرق - نحيف مثل المِسعر، وأسود تماماً: بشرة داكنة وعينان وحاجبان كأنما طُلِيَت بالفحم، وشعر أسود منتصِب. لا يُعرَف إن كان من شعب الأدمورتيين[1]، أو من التشيريميس[2]، أو عفريتاً من عفاريت

1- الأدمورتيّون أو الفوتياك: جماعة عرقية فنلندية - أوغرية. من الشعوب القديمة التي استوطنت جبال الأورال والمناطق المحاذية لترستان. (المترجم).

2- التشيريميس أو الماريّون: مجموعة عرقية فنلندية - أوغرية، عاشت تقليدياً على طول نهري الفولغا وكاما في روسيا. يعيش ما يقرب من نصف الماريين اليوم في جمهورية الماريين، مع وجود عدد كبير منهم في جمهوريتي باشكورتوستان وتتارستان (ضمن الاتحاد الروسي). في الماضي، عُرف الماريون باسم «تشيريميس» أو «تشيريميسا» باللغة الروسية، وتشيرمس لدى التتار. (المترجم).

الغابة –هو نفسه لا يستطيع أن يوضّح، لأنه لم يكن يتحدث الروسية على الإطلاق، ولكنه يفهم فقط، وحتى يفهم بصعوبة. يُدعى– ميميليا.

نظر دييف بكآبة إلى رأس الطاهي الأشعث والأوساخ تحت أظافره التي تشبه أظافر الأطفال، وعذّبه بالسؤال:

– هل تجيد الطبخ؟ هل يمكنك أنْ تطبخ عصيدة لخمسمائة فم؟ ماذا عن شوربة دقيق الجاودار؟ وهل تستطيع إعداد هريسة الحنطة السوداء؟

أومأ مميليا برأسه بجد وبشكل متكرر، وهو ويحملق بعينيه المنتفختين. ولسان حاله يقول: وهل عرفت إعداد ذلك للتو؟

فكّرَ دييف بأنه لا ينبغي له أنْ يترك مثل هذا الطاهي يذهب بمفرده للحصول على المؤن – فقرر الذهاب إلى قسم التموين معه. ولم يفعل ذلك عبثاً: إذ لم تكن هناك حنطة سوداء، ولا دقيق الجاودار، ولا مادة من المواد الغذائية الأخرى التي كانت على قائمة الطلب في قسم التموين الفرعي.

نفخ دييف على عامل المتجر خلف منضدة البيع مُهدداً:

– ماذا سأطعم الأطفال أثناء الطريق؟ ليس مما في القائمة – اعطِني ما لديك!

فكشّر الرجل ولوّى وجهه الكئيب وقال بكسل:

– لكن لا يوجد شيء! وهل أنت الوحيد في المدينة كلها، الذي لديه أطفال جياع؟

لم يلاحظ حتى دييف نفسه كيف وثب فوق منصّة المتجر. فجأة – وإذا به يمسك جرذ المتجر من صدره وكاد يحطّم برأسه ذلك الوجه الكئيب. وهمس في أذنه:

– أقول لك، أعطني، قبل أنْ أقدم شكوى ضدك إلى اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب...

وهكذا توصّلا إلى اتفاق. بدلاً من الحنطة السوداء، أُعطيَ دييف جريش الدخن. وبدلاً من الدقيق –نخالة الشوفان؛ وبدلاً من القمح– الثمام والبازلاء. كما حصل على القليل من الذرة والجاودار المهروس والكثير من الملح وثفل بذور عباد الشمس. وفتّش دييف بنفسه في الرفوف بحثاً عن

الكنوز المخبأة -الزبدة أو القهوة أو السمك المجفف- لكن لم يكن هناك مثل هذه الثروة في المستودع.

لم تكن ثمة سكاكين ولا قِصَاع وملاعق. وبدلاً من ذلك، كان عليهم قبول أقداح الفوج المصنوعة من القصدير، المنقوش عليها على شكل حراب متقاطعة «نَخْب الرماية الممتازة»، -كانت هذه الأقداح لا تعد ولا تحصى. لا يمكن للمرء أن يأكل العصيدة منها، بل يشربها، ناهيك عن الحساء الجيلي- وهذا لعمرك أفضل من الاحتساء من القدر براحة يدك! كانت الأقداح من زمن القيصرية، لكن شعار النبالة كان موجوداً في قعر القدح وصغيراً جداً إلى درجة بدا كأنه لطخة صغيرة، يمكن تجاهلها وعدم الانتباه إليها.

طوال هذا الوقت، كان ميميليا متكئاً على الحائط، ويومئ برأسه بخجل -إلى دييف، وإلى عامل المتجر الوغد، وإلى الصناديق التي تتلألأ الأقداح بداخلها- يبدو أنَّ الصبي الطباخ كان خجولاً للغاية وغبياً بعض الشيء. وبهذا يكون الحظ قد حالف دييف في ما يخص الأفراد الذين سيعملون معه!

وعندما سحب الغنيمة، هو وميميليا، إلى العربة التي كانت تنتظرهما، قال لميميليا مهدِّداً:

- لو احترقت لديك العصيدة حتى وإنْ مرة واحدة - سأُنزِلَك في أول محطة.

هدده، برغم علمه أنه لن يطرد أحداً ولن يضع أحداً في السجن، لقلة مساعديه.

هزَّ ميميليا رأسه على الفور موافقاً. ثم صعد إلى العربة وبدأ يمسِّد على أكياس الحبوب بلطف، ويهمس لها بشيء مهدئ بلغته.

***

ما إن أوصلا المؤن التي حصلا عليها إلى عربة المطبخ وأفرغاها هناك، حتى وصلت الممرضات الاجتماعيات. لم يَأْتِينَ فُرادى، بل جئنَ سرباً كاملاً: إحدى عشرة موظفة -ثلاث مرات أقل مما هو مطلوب لمثل هذا المستوى. لكن لم يعد هناك المزيد منهنَّ في مفوضية الشعب للتعليم- ومن الواضح أنَّ دييف ينبغي أن يكون ممتناً حتى على هذا العدد القليل.

جِباهٌ مُتغضِّنة، وأفواه مائلة مثل كفَّتي الميزان، وأصابع تعجّرت وانتفخت – كانت الممرضات متجهمات المظهر وصامتات. ودَّ دييف لو يحسب هذا التجهم والتقدم في عمر النسوة خبرةً لهنَّ فيبتهج، لكنه لم يفلح: كانت الممرضات جميعهن من العاملات الجديدات.

مُنَظِّفة غرف سابقة. زوجة موظف، اختفى زوجها في اضطرابات عام 1917. أرملة قس. خياطة مُفلِسَة. فلاحة بشكيرية فقدت منزلها وعائلتها بالكامل في الحرب الأهلية. أمينة مكتبة في إحدى البلدات الصغيرة، انتقلت إلى المدينة مع بداية المجاعة، لأن نصف سكان البلدة هلكوا، والكتب سُرقت وحُرقت في الأفران...

سار دييف على طول خط الوافدات الجديدات المصطَفّات عند القطار وراح ينظر إلى مناديل رؤوسهنّ التي بهت لونها وقبعاتهنَّ البالية، ثم سأل بلا أمل:

– هل من بينكن اختصاصيات اجتماعيات؟

لم يسمع جواباً.

– هل بينكنّ معلمات؟

لا إجابة.

– أخوات الرحمة؟... ممرضات؟... حاضنات؟

خطت إحدى النساء خطوة إلى الأمام، فسكت دييف في منتصف الجملة. كيف لم يلاحظ أنثى الطاووس هذه مِن قبْل؟ بدت أصغر من النسوة الأخريات –لا تزال بعيدة عن سن الأربعين– وجميلة جداً لدرجة أنه في الدقيقة الأولى من تعرّفه عليها لم يرغب في التحدث معها، بل أنْ يستمتع بالنظر إليها فحسب. عينان داكنتان وحاجبان سوداوان، وبياض الوجه، وامتلاء الجسد الجميل – كل واحد من هذه التفاصيل يلبق مع غيره منها بشكل غير عادي. فدارت في رأسه فكرة خرقاء لا يعرف من أين أتت: إنها «أميرة فارسية».

قالت:

– لدي فكرة عن بنية جسم الإنسان. يمكنني تقديم الإسعافات الأولية للطفل أو للشخص البالغ.

واضح من خلال نعومة اللفظ: أنها تترية. إذاً، فإنَّ الأميرة ليست فارسية - بل تترية. ابتلع دييف ريقه الجاف وحاول أن يعطي صوته نبرة المسؤول:

- أنتِ مختصة في المجال الطبي؟

- مختصة في علم الأسماك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ارتبك دييف كالطفل، وقال:

- ماذا تعملين؟

- متخصصة في دراسة الأسماك.

أدرك دييف أنه كان يرمش بعينيه، مثل ميميليا تماماً. فرفع بصره عنها، ونحنحَ، وأطبق حاجبيه، ونظر بتجهم إلى الأخريات. فنظرت إليه الممرضات الاجتماعيات - بتجهم.

تابعت الأميرة قائلة:

- درستُ في جامعة زيورخ في كلية العلوم الطبيعية. وتعمقتُ بدراسة علم الأحياء.

لم يكن دييف يعرف أين تقع زيورخ هذه - في ألمانيا أم في هولندا. ولم يعرف كذلك ما نوع العلوم التي تسمى طبيعية.

- هل اعتنيتِ بالجرحى؟

- كلا. عملت في الحديقة النباتية[1] في قازان. كانت مهمتي تنحصر في إنشاء مجموعة غير مألوفة لحوض السمك.

مرة أخرى لم يستطع كبح جماح نفسه وسأل:

- ما المجموعة؟

1- الحديقة النباتية: حديقة تُوَثَّق النباتات فيها حسب تصنيف المملكة النباتية، من خلال زراعتها في أرض واسعة تضم أعداداً هائلة من النباتات الطبيعية والغريبة، وكذلك النباتات الشائعة، مع وجود معلومات كاملة بجانب كل نبات تكون بمنزلة هوية موثّقة يتم فيها التعريف بالنبات وكتابة الاسم العلمي والفصيلة والشعبة النباتية التي ينتمي لها. وتكون مرجعاً للهواة والدارسين لعلوم النبات. ويكون وجودها ضرورياً في الجامعات ليتسنى للطلاب التعرف على النباتات عن قرب وأخذ المعلومات الكاملة عنها. (المترجم).

وغضبَ على نفسه لأنه سأل عدة مرات – مثل الأبله. وقال مع نفسه: هذه المرأة عرفت كيف تتحدث بالألغاز، لتجعل الآخرين يبدون مثل الحمقى!

– مجموعة غير مألوفة. وبعبارة أخرى، نادرة. أفراس البحر، أسماك المهرج، أسماك الفراشة... –أصبحت عيناها البنيتان فجأة حنونتين وحالمتين،–... أصنام مغاربية، ملائكة إمبراطورية...

لم يستطع دييف تحمل ذلك، فقال:

– لماذا لم تجلسي في هذه الحديقة النباتية مع الملائكة والأصنام والأباطرة؟! لماذا أتيت إليّ في القطار – أخذتِ مكان شخص آخر؟ لولاك، ربما، كانت مفوضية الشعب للتعليم قد أرسلت مضمّدة أو صيدلانية أو حاضنة! أيّ واحدة أفضل من صيّادة السمك...

فردّت عليه بصوت منخفض:

– لم تعد هناك حديقة نباتية. أكلتها الخيول.

سأل مذهولاً:

– أيّ خيول؟

– تمركز هناك فوج الفرسان – في عام تسعمائة وثمانية عشر. وأكلت الخيول جميع النباتات الغريبة بدلاً من التبن. وما لم تأكله الخيول، استُعمِل للوقود في العام تسعة عشر.

تنهّدَت واحدة من النسوة:

– يا إلهي، وماذا عن سُمَيكاتك؟

اشتاط غضب دييف في النهاية، وقال:

– سُمَيْكاتها؟! اسمعنَ أمري، أيتها الرقيقات الممرضات! لننقسم كلّ اثنين معاً – ولنتوزّع على العربات! لنحضّر الأماكن لاستقبال الأطفال. واعزلن أماكن نومكنّ بالستائر. واستلمن النفط للمصابيح والفحم للمواقد. واتركن الثرثرة. هيّا، إلى الأمام سرّ!

اختلجت النساء، وصخبنَ، وبدأن يهذين فيما بينهن بكلام غير واضح، وانقسمن إلى أزواج. وبعد دقيقة – ركضنَ إلى العربات. هكذا، إذاً، يجب التعامل معهنّ: ليس بشكل تعسفي، بل أكثر تهديداً!

بقيت الأميرة فقط واقفة في نفس المكان، كأنها لم تسمع الأمر. انتظرت حتى لم يبق أحد، واقتربت من دييف.

لاحظ دييف في شعرها الأسود اللامع، المفروق بشكل متساو في المنتصف والمرتب خلف رأسها في شكل عُقد وضفائر، وجود خصلات غزاها الشيب.

قالت بهدوء وهي تنظر في عينيه:

– لا تعذب نفسك بهذه الطريقة. النسوة يعرفن كيف يتعاملن مع الأطفال، ولهذا السبب هنّ نساء. كان لدي أيضاً ولد، لذا يمكنني هز الطفل أو إطعامه.

نطقت كلمة «كان» بالذات بطريقة خاصة، ولم يجرؤ دييف على لومها على عصيان الأمر.

– ما اسمك؟

– فاطمة سُليمانوفا.

إذاً، فعلاً، هي تترية.

– إلى جانب اللغة التترية، ما هي اللغات التي تتحدثين بها، يا فاطمة؟

كان من المتوقع وجود أطفال من مختلف القوميات في القطار – ستكون معرفة اللغة التشوفاشية أو اللغة التشيرميسيّة مفيدة.

بدأت فاطمة تعدد:

– العربية، الفرنسية، والألمانية أيضاً، بالطبع. في الجامعة حضرت دورة في اللغة اليونانية القديمة، لكنها كانت اختيارية ولمدة عام واحد فقط...

لوح دييف بيده، وقال بنبرة حزينة:

– لا بأس، اذهبي، يا فاطمة، جِدي لكِ مكاناً. يجب أن ننهض غداً مبكراً.

استدارت وسارت على طول القطار – بظهر مستقيم، كما لو كانت تحمل حقيبتها القصيرة ليس في يدها، ولكن على رأسها. وضعت قدميها اللتين تنتعلان حذاء رثاً على الأرض بعناية، كما تضع راقصات الباليه في أفلام السينما أقدامهن.

نظر دييف إلى معطفها العتيق، الذي من الواضح أنه كان على كتف شخص آخر، وإلى الجوارب الخيطية المتجمعة عند كاحليها مثل الأكورديون، وفكّرَ أنَّ عمرها يمكن أن يكون مثل عمر والدته.

***

رجل عجوز في الثمانينيات من عمره، وسرب من الخرقاوات المسنات وطباخ أحمق صامت -ها هو فريق دييف. هؤلاء الذين عُيِّنوا لدعمه ومساعدته في الرحلة التي ستستمر عدة أيام: أن يؤمّنوا نظافة القطار «الضفيرة» وركابه وإطعامهم وعلاجهم وسلامتهم. ها هم الذين عهد إليهم دييف بحياة الأطفال- لقد عهد إليهم، بما لم يرغب به بنفسه. هؤلاء الذين ينبغي عليه أن يتحمّل المسؤولية عنهم كما يتحملها عن نفسه.

وبالإضافة إلى ذلك، كانت هناك أيضاً المفوَّضة الأفعى، لكنها ذهبت إلى مكان ما منذ الصباح. ظنَّ دييف أنها تسللت في الصباح الباكر ليس عبثاً - من المؤكَّد أنها ذهبت إلى منزل الأولاد في شارع فوسكريسينسكايا، إذ كان ينبغي أنْ يُجلوا من هناك أيضاً. كان يجب أن يذهب دييف إلى هناك أيضاً، لكن هل يمكنه الابتعاد عن الجلبة والضوضاء عند القطار؟

جاءت بيلايا عند الظهر. رآها دييف من نافذة العربة -هادئة، جدّية، تمشي على طول مسارات السكة الحديدية مع حقيبة من القماش الخشن خلف ظهرها- فشعر بعاطفة دافئة ومبهِجة تحركت فجأة في داخله: فعلى الرغم من صرامتها، كانت المفوَّضة موثوقة الجانب كالحربة.

بدلاً من التحية سألته وهي تفتح باب المقصورة:

- هل حصلتَ على عربة إضافية؟ أين ستضع كل أولئك الذين وافقتَ برحمة على قبولهم بالأمس - والذين وعدت بكل تأكيد أنْ توصِلهم إلى سمرقند؟

اختفت البهجة على الفور.

- سوف يرقد كل اثنين أو ثلاثة معاً، إنهم ليسوا سادة. -كان دييف في هذه الأثناء يوقّع المَحضر الذي طلبه مدير المحطة بشكل عاجل-

بخصوص استلام القطار المشفى المكون من ثماني عربات، بما في ذلك الكنيسة السيارة والمطبخ الميداني.

وافقت بيلايا:

- سوف يرقدون. وفي الليل يسقطون من الرفوف العلوية ويكسرون أيديهم وأرجلهم وحتى ظهُورهم.

تجمد قلم دييف على الورق قبل أنْ يصل إلى نهاية السطر. كانت المفوَّضة على حق: يمكن أن يحدث هذا، ومن المحتمل تماماً.

واصلت بيلايا كلامها بهدوء وبنبرة المدعي العام المألوفة لدييف:

- بماذا كنت تفكر عندما قدمت الوعود؟

هل يجب الحصول على المزيد من الأحزمة وربط أولئك الذين ينامون على الرفوف العلوية ليلاً، كما يُربَط المرضى الفاقدون للوعي في المستشفى؟ لم تكن ثمة حبال أو أمْرَاس في مستودعات المحطة - فقد جرف دييف بنفسه في الصباح جميع الاحتياطيات بناءً على طلب المساعد الطبي.

- أن تكون طيباً، لا يعني أن تعد بحزمة من الأكاذيب. ولا أنْ تتنهد ولا تذرف الدموع على المساكين المرضى السقم المُقعَدين. ولا أن تتباهى بروحك الرحيمة! -(تحدثت بهدوء، لكن سيكون من الأفضل لدييف لو صرخت).- أن تكون طيباً، هو أن تفكر في كل شيء. وأنْ تخشى كل شيء. وأنْ تحسب حساباً لكل شيء. أن تكون طيباً - هو أن تكون قادراً على فعل الشيء. وأنْ تعرف كيف ترفض، وكيف تضبط، وكيف تعاقب...

فكّر دييف: هل يضع الأطفال على الأرض؟ فيصابون بالبرد في الليلة الأولى. هل يعطيهم مقصورتَي الموظفين -مقصورة دييف ومقصورة بيلايا- وينامان، هما أنفسهما، على الأرض؟ لا تكفي المقصورتان لاستيعاب عدة عشرات من الركاب.

-... وأن تخفي روحك الرحيمة في جيب أعمق حتى لا تخرج. أحياناً أن تكون طيباً، يعني أن تكون لئيماً!

اختلج شيء ما بلطف - فانكسر قلم الرصاص في يده إلى نصفين.

بقيت بيلايا واقفة على عتبة الباب، ولم تدخل إلى المقصورة وتنظر إلى دييف الذي تجمَّدَ.

قالت وهي تنظر مِن حولها:

- لا تكسر الممتلكات. وافقت دار الأولاد على تخفيض الحصة. لذا، سوف نأخذ خمسمائة طفل - كما هو مخطط، من دون تجاوز العدد.

وبقي خمسون صبياً يتيماً في قازان الممطرة بانتظار فصل الشتاء، ليفسحوا المجال لخمسين معاقاً من مركز الإجلاء.

وضع دييف قطع قلم الرصاص بضربة على المحضر غير المكتمل ونظر بجدية إلى بيلايا.

قالت المفوَّضة:

- حاول حقاً ألا تعد بشيء لأي شخص آخر حتى صباح الغد!

وأغلقت باب المقصورة خلفها، ومن المرآة الكبيرة المُلصَقة على مصراع الباب، حدقت في دييف ملامح وجهها ذي الانتفاخات البارزة والشفتين المضغوطتين كخيط مستقيم...

لم يكن ثمة وقت لتبادل الشتائم في هذه الفوضى. ولم يكن لدى دييف ما يمكن أن يقوله. شغل نفسه حتى الليل، في القطار وحوله؛ وفي مكتب تشايانوف وفي مخازن المحطة؛ وفي المرأب، حيث كانت القاطرة البخارية تستعد للتوجه إلى القطار؛ وفي غرفة استراحة المصلحين التي كانوا يدخّنون، - كان يشتغل ويفكر في الأولاد من دار رعاية الأطفال في شارع فوسكريسنيسكايا الذين لا يعرفهم.

لم يكن يعرف الأولاد في وجوههم ولا يعرف أسماءهم -وحسنٌ، أنه لم يعرفهم. لم يتمكن من تبرير أفعاله أمامهم- ولم يطلب منه أحد أنْ يبرر. لم يستطِع أن يعد بشيء -وما قيمة الوعود في مواجهة الشتاء القادم؟ كان بإمكان دييف أن يحاول فقط- أن يندفع بالقطار إلى سمرقند كالسهم وأن يسرع بالعودة أيضاً، ما دام الأولاد المجهولون ينتظرون البرد في القاعات،

التي تحوم فيها ريح الزمهرير فوق الأرضية. وبعد ذلك -إذا لم ينته الشتاء، ولم يُفَكك القطار، ولم يُنقل دييف عن المسار، ولم يُرسَل الأولاد إلى أُسَر حاضنة- فسيأخذهم أولاً. هذه الحجة ضعيفة، لكن لم يكن لدى دييف حجة أخرى.

وقد فكر أيضاً في الأطفال الذين عرفهم يوم أمس، فكَّر في الطفل ذي الأذن الواحدة، وفي مرحومة العمياء ذات العينين البيضاوين، وفي الصبي الذي كان يرتدي سترة المخمل التي من دون أكمام، وفي سينيا التشوفاشي. فكَّر وفهم أنه لن يستطيع أن يتركهم في دار إيواء الأطفال المشردين وإجلاءهم. وفهم أنه يخشى، نعم، يخشى لدرجة القشعريرة في معدته: ألا تكون بيلايا على حق؟ باختصار شديد، ربما، شخصيته ضعيفة جداً...

وهكذا، لم يلاحظ دييف في ظلّ مخاوفه وأفكاره كيف حلَّ الظلام. انتهى هذا اليوم المجنون، الذي كان بمنزلة معركة لا نهاية لها من أجل المواقد والفحم والكيروسين والمؤن والطُّشوت والمغارف والمجارف والدلاء والضمادات والحبال وحقائب القماش والقدور، ومن أجل الحصول على أفضل قاطرة في المرأب والبحث عن السائق الأكثر بعداً عن السُّكْر – كل هذا انتهى منه وخلَّفه وراءه. وحلَّت الليلة، الأخيرة ما قبل المغادرة.

لكن دييف لم يستطع البقاء في المقصورة، ناهيك عن النوم. بعد أن تجول في القطار ونبّه الجميع عدة مرات إلى ضرورة النهوض المبكر القادم، بقي بعض الوقت يكابد قليلاً، ثم داس في الظلام عند عربة الموظفين. ومن ثم أمسك بالدرابزين -الأول والثاني؛ وبعد ذلك أمسكَ بمتدليات تعليق المصابيح؛ وأراح قدميه على طرف العربة المجاورة، ومطَّ نفسه- ثم قفز إلى السطح.

القصديرُ – زلقٌ من الرطوبة والبرودة. لكن دييف ليس غريباً عن المشي على السطوح. زحف بالقرب من مركز العربة وجلس، بعد أنْ اتّكأ على أنبوب التدفئة.

كانت الليلة حالكة الظلام. إلى يمين دييف امتدت خطوط القضبان التي بالكاد يمكن تمييز لمعانها، وخلفها -أضواء مبنى المحطة، وبدت أبعد منها أضواء المدينة- صغيرة تماماً. وإلى اليسار، خلف غابة الصفصاف على

الشاطئ وخلف كُتل المنازل المُلحَقَة، يمكن له أن يخمن العرض الهائل لنهر الفولغا. فوق رأسه، تنفست سماء أكتوبر الشديدة الرياح والرطوبة.

سقطت الرطوبة العالقة في الهواء على وجه دييف وكتفيه، وهدَّدت بالتحول إلى صقيع. فاحتضن ركبتيه بذراعيه وقرر الجلوس بعناد حتى يظهر نجم واحد على الأقل في هذه السماء الداكنة.

القطار الذي تحته لم ينَم: سقطت مربعات الضوء الشاحبة على الأرض على يمين ويسار كل عربة. وقعقع شيء ما بهدوء في المطبخ الميداني –كان من الواضح أن ميميليا يغسل بلا كلل الأطباق الموكلة إليه. ذهب المساعد الطبي بوغ، وهو يضع يديه خلف ظهره ويخشخش في الحصى، في نزهة على طول المسارات واختفى في الظلام. نزلت اثنتان من الممرضات الاجتماعيات بحذر إلى الشارع– ولكن ليس على الجانب الواسع الذي ديسَت فيه الأرض، بل على الجانب الآخر، الذي فيه الأعشاب الكثيفة وأكوام القمامة – وبدأنَ يُدَخِّنَّ سراً عن الجميع وهنَّ يتهامسنَ ويضحكنَ.

ومن ثمّ، بعد أن انتهينَ من التدخين والضحك، بدأت واحدة منهن تغني بصوت منخفض. كانت الأغنية ممدودة وحنونة فتمنّى دييف لو تغني المرأة بصوت أعلى لكنه لم يُرد أنْ يصيح ويقطع سكون الليل ويثير الفزع. حملت الريحُ نصفَ الكلماتِ، والنصف الآخر بالكاد عرفه دييف، لأنَّ الممرضة غنت باللغة التترية، لكنه فهم بطريقة مدهشة.

نَم، يا ولدي،
نَم – واستيقظ رجلاً.
الحصان قد أُسرِجَ، ووتر القوسِ شُدَّ.
الزمن يناديك. والناس – بانتظارك.

تمنى دييف بشدة لو كانت فاطمة هي التي تغني، لكن في الظلام لم يكن بالإمكان تمييز وجوه النساء.

الدروب - لابد أنْ تدوسها.
الأعداء - لابد أنْ تهلكهم.
نَم بسرعة - واستيقظ رجلاً.
يا ولدى!
يا فؤاد فؤادي، يا ولدي الحبيب!

وفي السماء -لا شيء يُمَيَّز: لا الغيوم، ولا النجوم، ولا شعاع واحد من القمر. كم من الوقت ينبغي عليه الجلوس ساكناً، في انتظار النجم الخفي؟ ارتجف دييف وحدق في سُحُب السماء التي تشبه الصوف الأسود،- وانتظر.

***

الجزمات -ألف قطعة، خمسمائة يسار وخمسمائة يمين- خشخشت على حجارة الرصف. صدحت هذه الخشخشة، في المدينة في الصباح المظلم، بصوت عالٍ وملأت شارع ريبنوريادسكايا بأكمله، وجميع الشوارع والأزقة المجاورة. وغطَّت على أصوات المؤذنين العالية على المآذن، وعلى خطوات المارة القليلة. مشت بتثاقل خمسمائة زوج من الأرجل فوق أحجار الرصيف، غير قادرة على رفع باطن الأقدام عن الأرض.

كانت جزمات الفرسان كبيرة جداً لدرجة أنَّ بعض الأطفال يمكن أن يدخلوا فيها تماماً -ويغرقوا مع رؤوسهم في ساق البوط الضخم. ولهذا ساروا ببطء، بعد أن تلقَّفوا بأيديهم الجزمات التي وصلت تقريباً إلى الآباط- بالكاد كان الموكب يجر نفسه على طول الشارع، ويمتد مثل المصران الطويل. في بعض الأحيان ينقلب أحدهم على الأرض، بعد أن يتعثر بحصاة بارزة، ثم يتجمد المصران كله وينتظر بصبر حتى يساعد الكبارُ الطفلَ الذي سقط - فالأطفال أنفسهم لا يتمكنون من النهوض في مثل هذه التجهيزات.

كان عدد المساعدين البالغين قليلاً جداً: قاد دييف الموكب، وسارت شابيرو في المؤخرة، وكان العديد من العاملين في مركز إيواء الأطفال المشردين وإجلائهم يتحركون بجلبة وضوضاء على الجانبين. وكان هناك

عدد من الخيالة أيضاً، لكن هؤلاء كان من الصعب عليهم أنْ يترجّلوا. جلسوا على السروج، صامتين ومتجهمين، ودفنوا ذقونهم في أطواق معاطفهم العسكرية. خلف ظهر كل واحد منهم لاحت بندقية كالصارية في الأفق، وتدلى من الحزام سيف في غمد. وبرزت أقدامهم الحافية من تحت المعاطف.

بدا لديف أنَّ الخيّالة كانوا يخجلون من عدَّتهم الدافئة أمام الأطفال، الذين يرتدون ملابس ممزقة ورثة، ويتدثرون بقطع من غوبلين الحائط ومن الستائر. وكان هو نفسه سعيداً لأنه لم يكن يركب الآن، بل يدبّ مع الجميع. وتأسف للغاية لأنه لم يستطع مشاركة حذائه مع أي شخص.

وخلفهم جرَّت عربةٌ تحمل المُقعَدين: وضِعَ المرضى في صف عبر العربة، مضغوطين بإحكام بعضهم إلى بعض، مثل الحطب في العُرمَة، وقد استوعبتهم العربة جميعاً، وكان لا يزال هناك مكان لطفلين. وخُصِّصَت العربة، التي جُلِبَت الأحذيةُ على متنها في الصباح، للأطفال الرُّضَّع - الأطفال في عمر سنة وسنتين.

استغرق الأمر وقتاً طويلاً للغاية للوصول إلى المحطة. وقد حل الصباح، وامتلأت الشوارع بالمارة وبعربات الترام، وأطلقت مصانع المدينة صفّاراتها، في البداية صفّارة، ثم صفّارتين، ومن ثم ثلاث صفّارات، وكانت مسيرة الأطفال التي على شكل مصران تزحف وتزحف. وتَشكَّلَ خلفها ذيل من الأطفال المشردين -كان لا بد من إبعادهم حتى لا يدخلوا في الصف؛ وأدى هذا إلى تشتيت انتباه البالغين، فتسبب في إبطاء وتيرة المسيرة الزاحفة مثل السلحفاة. وقد انقضت الساعتان المخصصتان لديف منذ مدة طويلة. فكان بين الحين والآخر يلقي نظرة خاطفة على الخيالة- ماذا لو أمروا بخلع الأحذية في منتصف الطريق واسترجعوا ممتلكات الجيش؟ -لكن الخيالة كانوا يسيرون ببرود ورباطة جأش. وبدأوا في حث المشاة على السير بشكل أسرع- استجاب الكبار فقط، وزاد الأطفال الأصغر سناً من خطواتهم بطاعة، لكنهم تعثروا وسقطوا على الفور. تعرق ديف أيضاً، على الرغم من برد الصباح القارص، إما بسبب كل هذا الجري، أو بسبب القلق من الكلمة التي أعطاها ولم ينفّذها.

أخيراً وصلوا إلى مبنى المحطة. الآن لم يتبقَّ عليهم سوى عبور السكك إلى المرأب الخلفي الذي يقف عنده القطار (القادرون على المشي ساروا بمفردهم، والمرضى والصغار في أحضان الكبار)، ثم يندفع الجميع بسرعة إلى عربات القطار، ويقولون – شكراً للمساعدة، أيها الرفاق الفرسان، كونوا بخير... ولكن لم يحدث أيّ شيء من هذا القبيل.

لم يتمكن الأطفال من تخطي قضبان السكة الحديدية. لأنهم ينتعلون جزمات ضخمة، وكانوا يتعثرون فوق عوارض السكة وتغوص أرجلهم في حصباء السكة. الفصيل الذي قاده دييف قد تجاوز بطريقة ما مسارين اثنين وتوقف –بالضبط في منتصف متن السكة الذي تتقاطع فيه العديد من الخطوط الحديدية والعوارض الخشبية. استطاع الأولاد الأكبر سناً بطريقة ما أنْ يتقدّموا إلى الأمام، وهم يشتمون، أما الصغار فتساقطوا يميناً ويساراً، وتدحرجوا بعضهم فوق بعض وأفلتوا من أحذيتهم الكبيرة. اندفع دييف وشابيرو مثل الدجاجة الحاضنة أثناء تفقيس الكتاكيت، يلتقطان الأحذية الساقطة والمفقودة، ويجمعان الأطفال الذين تشتتوا في كومة،– ثم انطلق الأطفال الذي رُفِعوا بعد بضع درجات مرة أخرى وأسرعوا يمشون على الأرض. ولم يرغبوا في انتظار الصفوف الخلفية التي تعبت من المسيرة الطويلة، فشدّوا للأمام، وزحفوا على متن السكة –وسقطوا أيضاً. إذ لم يعد من الممكن إيقاف الطابور أو الرجوع للخلف– فقد انتشر على طول القضبان في اتساع وامتد عبر جميع مسارات السكة، من الرصيف الرئيس إلى الأفنية الخلفية.

أزّت قاطرة المناورة القادمة من اليمين. ومن اليسار، دوّت قاطرة بخارية – هسهست الفرامل، وصرَّ الفولاذ على الفولاذ، وبانت فنطيسة القاطرة السوداء في مكان ما في الأعلى، قريباً جداً. بالكاد أسعف الوقت دييف للقفز نحوها، ورفع ذراعيه وحجز الأطفال بنفسه، ولكنّ القاطرة واصلت الضجيج وتقدّمت وهي تغمر المكان بموجات من الحرارة والرطوبة.

أخرج سائق القطار الأحمر من الغضب رأسه من النافذة وصاح:

– أيها الأحمق! أبعد الأطفال!

لكن القاطرة البخارية توقفت. وبعد أن لوَّح دييف بيده فقط رداً على ذلك، اندفع مرة أخرى إلى الأطفال...

تحتّم على القاطرة البخارية الانتظار. وكذلك قاطرة المناورة وزوج من عربات السكة الذاتية الدفع تحملان عمال السكة الحديد. تجمدت جميع العربات والآليات على مسارات السكة، وأفسحت المجال لمرور الأطفال.

***

وقف القطار «الضفيرة» في مكانه السابق، لكن الاقتراب منه كان صعباً: فقد شغل متن السكة المجاور قطار الشحن الذي لم يكن موجوداً في الصباح. فتشكّل ممر طويل بين القطارين - تَحَتَّمَ على الأطفال أنْ يسيروا فيه من أجل الوصول إلى العربات.

وفي بداية الممر، كانت بيلايا تنتظر الركاب القادمين. لم تكن تنتظر وحدها: فقد كانت هناك منضدة، لا يُعرَف من أين أتت. المنضدة ذات أرجل منحنية، كانت في وقت ما ملمَّعة (على ما يبدو، صُودِرَت من حانة المحطة)؛ وكان عليها رزم من الأوراق، مضغوطة بقطعة من الطوب، حتى لا تتطاير بفعل الريح. وإلى جانبها جلس على صندوق مقلوب المساعد الطبي بوغ، مرتدياً مريولاً أبيض فوق سترة رسمية ذات صفّ واحد من الأزرار، وقد تجمّدا وهما ينتظران الممرضات الاجتماعيات - اللائي اصطففنَ في طابور، بوجوه متشابهة متوترة، ولكن واحدة فقط جلست خلف الطاولة وفي يدها قلم رصاص.

كان دييف، الذي تبلل تماماً من العرق بسبب الركض على طول القضبان، أول من وصل إلى القطار «الضفيرة»، وعندما رأى المنضدة قال:

- أي نوع من طاولات الكتابة هذا؟!

وخلف دييف كان يلهث الأطفال الأكبر سناً - الأكثر قدرة على التحمّل والأطول في الأرجل؛ وتعثر وراءهم الأولاد الأصغر منهم سناً، وسار أصغر الجميع في نهاية الموكب، تدفعهم شابيرو وزميلاتها. وفي آخِر الركب سار الفرسان المرافِقون.

وما إنْ نظرت إليه المفوَّضة، حتى صاحت فجأة بصوت عالٍ إلى درجة ارتجف صدى صوتها ورَنَّ بين العربات:

- أيها الرفاق الأطفال والمراهقون والأحـداث! اسمي المفوَّضة بيلايا...

اختلج دييف من قوة صوت المفوَّضة. ولكن المراهقين والأحداث لم يختلجوا.

وعلى الفور ردَّ عليها أحدهم:

- أيتها المفوَّضة - الفوّاض، رافقيني إلى المرحاض!

كان ذلك ذا الأذن الواحدة الذي رآه دييف في دار استقبال الأطفال المشرّدين وإجلائهم.

لم تفعل بيلايا شيئاً ولكنها نظرت نظرة ثاقبة إلى الوقح - كما لو كانت تختم عليه بنظرتها. وواصلت كلامها:

- اسمعوا الإيعاز! اصطفّوا بعضكم بقفا بعض! واحداً تلو الآخر، من دون دفع أو شتائم، تقدّموا إلى الطبيب! وارفعوا القمصان!

امتعض دييف وقال:

- ما هذا «واحداً تلو الآخر»؟ حان الوقت كي أُسَلِّم الأحذية! لقد وعدتُ قائد الأكاديمية!

في هذا الوقت ارتفعت الشمس فوق أشجار الحور النابتة بالقرب من محطة السكة الحديد - لقد زحفت بأقصى طاقتها عبر السماء الباهتة: ومن خلال هذا كله، تكون قد مرت تسع ساعات، أو حتى تسع ساعات وربع. لكن بيلايا وضعت يدها على كتف دييف وضغطتها بمغزى: انتظر، نحن الآن في شغل عن هذا. ارتفعت درجة حرارة كتفه، كما لو وِضِعَت عليها لصقة الخردل. حدق دييف في أصابع المرأة التي شبكت كمه: كانت أصابعها طويلة وذات أظافر متّسقة ووردية.

لم يهدأ ذو الأذن الواحدة:

- وأنتِ هل سترفعين قميصكِ؟ أودُّ أنْ أرى ما تخفينه تحت قميصك!

والآن استيقظت طيور محاكية أخرى - وبدأ الأطفال يزقزقون ويسخرون ويصفرون:

- لا تعطيني طبيباً، أعطني رغيفاً!

- لا أريد أن أُعالَج حسب الأصول، بل أريد أنْ أبول!

- دعني أبول، لا أعرف الأمر كيف سيؤُول!

جاء صوت المفوَّضة خشناً، مثل صوت الرجل:

- لن أتوسل. من لا يريد -فليقف على الجانب. جميع مثيري الصخب والنقيق والجدال، جميع المتنمرين والمعربدين- إلى هنا! -ثم رفعت يدها عن كتف دييف (فاستمرت كتفه تتوهَّج!) وأشارت إلى مكان ما في بداية القطار «الضفيرة»، بجانب المطبخ الميداني.- جميع الفخورين والعاصين، تقدّموا إلى هنا! ابقوا في المدينة.

بدا الأمر كما لو أنها خاطبت الجميع، لكنها نظرت إلى ذي الأذن الواحدة. نظرت، من دون أنْ تحوّل بصرها وقعست رأسها المرتفع قليلاً إلى الوراء، كما لو أنها زادت من ارتفاع قامتها الطويلة أصلاً من دون هذا.

فحدق بها الولد، بعينيه الوقحتين اللتين تشبهان عيون البالغين تماماً، الزرقاوين الساطعتين في وجهه البني. كان جسد الطفل الصغير بارز العظام وقصيراً، وساقاه ملتويتَين لدرجة أنهما بدتا أقصر تقريباً من جذعه. كان من الممكن أن يكون في العاشرة من عمره، أو ربما، في الرابعة عشرة.

- الباقون، عندما يركبون في عربات القطار، سيحصلون على الغداء. أيها الرفيق الطباخ، ماذا نتناول على الغداء؟ - ضربت بيلايا بقبضتها على باب المطبخ، ففتحَ الباب طائعاً، وظهر ميميليا في طاقية بيضاء قذرة وفي يده قدر، تمتم بشيء غير واضح.

رفعت بيلايا حاجبيها بشكل معبِّر وقالت:

- هل سمعتم؟ هو ذا!

عندما رأى الأولاد الطباخ والقدور اضطربوا وصفَّروا بحماس وحيوية.

- الطباخ الضئيل الجسم، لن يفعل ذلك!

استمر الكبار في الاستهزاء، لكن كان واضحاً من أصواتهم الرنانة - أنهم سعداء.

- دع العصيدة تُسلَق، وتَسْمَك!

فردَّ أحدهم عليه من الخلف:

- العصيدة عزيزة علينا، أَحْببها كحبك لأُمّك!

- يا ترى، بعد الغداء، هل نحصل على لفافات سجائر ماخوركا؟

ما زالت الصفوف الأولى هائجة.

كان من الواضح أنهم يحجمون عن إبداء آخر قوتهم حتى لا يندفعوا بسرعة إلى طاولة المساعد الطبي لإجراء الفحص، ومن ثم إلى العربات.

لم يتوقف ذو الأذن الواحدة، وسعى جاهداً حتى يدفع الآخرين إلى الصياح:

- والحشيش؟ من دون الحشيش - لا تقدر أن تعيش! ومع الحشيش...

أخذ الولد استراحة، مثل ممثل متمرس، وألقى نظرة انتصار على رفاقه وواصل كلامه:

-... مع الحشيش، أنتِ، أيتها المفوَّضة، ستشبهين المرأة!

دوَّت الصفوف الأولى بالضحك. حلَّقَت النكتة بين الحشد أبعد، وانتقلت من فم إلى فم مصحوبة بضحكات خافتة وهتافات.

هرعت شابيرو تركض إلى ذي الأذن الواحدة وتهزّ بكفيها كأنها تريد أن تغلق الفم الوقح، وقالت له:

- يا غريغا، عار عليك!

لكنّ غريغا ابتسم فحسب برضا.

رفعت بيلايا يدها عالياً لتهدئة الحشد الهائج، واعترضت قائلة:

- بلى، هذا سؤال جوهري. -ثم سارت على طول الصفوف، ونظرت بسرعة وبعناية في عيون جميع الضاحكين.- أجيبُ عليه: لن تكون في القطار حشيشة، ولا فحم الكوك، وكذلك فحم الإنتراسايت، والكوكايين، والنقيع،

والمستنشَق، والطباشير، والدقيق والصودا[1]. ومن يظهر لديه –سوف نقذف به من العربة. وحتى من دون أنْ نكبح سرعة القطار– سوف نلقي بالشَّمّام أثناء السير، وهذا كل شيء!

ظلّ غريغا ذو الأذن الواحدة مبتسماً، وسأل:

– وإذا كنا لا نريد أنْ يُقذَف بنا أثناء سير القطار؟

فاقترحت بيلايا بصوت عالٍ على مسمع من الجميع:

– إذاً، اذهب أولاً. –ثم أضافت قبل أنْ يفطن الولد:– أَم أنكَ خفتَ ولويتَ ذيلكَ؟

بقي غريغا مبتسماً، وبصق على الأرض –بصق بمهارة من دون أن يغلق شفتيه ومن دون أن يفكّ أسنانه. تأمَّلَ قليلاً، وبعد أنْ رفع بصره إلى السماء على نحو مصطنع، بالكاد حرَّك بتكاسل قدميه– ذهب إلى طاولة الفحص.

المساعد الطبي بوغ، حتى وهو جالس، بدا إلى جانب جسد الطفل الضعيف كأنه جبل. غريغا، الذي لاحَ عليه الملل، رفع قميصه وكشف عن بطنه النحيف –سمح لنفسه بالتواء في اتجاهات مختلفة، مقدماً جوانبه ذات الضلوع البارزة، المرقطة بكدمات وسحجات قديمة وجديدة. وعندما وضع بوغ كفّيه الجبارَين على رأس ذي الأذن الواحدة الصغير من أجل فحص تجاويف العين والحلق، بدا الصبي كأنه اختفى تماماً عن الأنظار. لكن سرعان ما ظهر– من الجانب الآخر من الطاولة. فقد انتهى الفحص.

أمرت بيلايا:

– الآن ضع الممنوعات. (ثمّ وجَّهَت كلامها إلى واحدة من النساء) – وأنتِ، أيتها الممرضة، قدّمي المساعدة.

حملقَ ذو الأذن الواحدة بعينيه، الكبيرتين من دون ذلك، وحدَّق بغباوة، ثم قلب جَيبَي السترة الرثة من الداخل إلى الخارج ولوح بهما مثل جناحين: إنهما فارغان. وعلى وقعِ ضحكات استحسان الجمهور، حاول أن يهز شيئاً

1– هذه كلها مسميات شعبية للمخدرات في روسيا في حقبة العشرينيات والثلاثينيات. (المترجم).

من أذنه الوحيدة: إنها فارغة. وبعد ذلك -لم يكن لدى أحد الوقت لقول أي شيء- أنزل سرواله، وأمسك ردفيه النحيلين العاريين براحة يده، وفكَّهما إلى الجانبين واستدار بغاية الجهد -فلربما، كما يُقال، ترغبون بالتفرّج، انظروا إنه فارغ! صرخ مَن في الصفوف الأولى مِن الدهشة، واضطرب مَن في الصفوف الخلفية، وصخبوا مستفسرين- لأنهم لم يروا ما حدث على نحو جيد.

حاولت الممرضة، على ما يبدو، بعد أن تلقت تعليمات من بيلايا، أن تفتش الولد العديم الحياء، لكنه صرخ مثل خنزير صغير:

- أشعر بالدغدغة! الأفضل أنْ تفتشني المفوَّضة، فلديها خبرة أكثر!

مشت بيلايا إلى طاولة الفحص، لكنها وقفت على الجانب - حتى لا تحجب الرؤية عن المشاهدين. وسألت:

- ماذا يوجد في الحذاء؟

ابتسم غريغا ساخراً وسألها:

- هل أتيتِ إلينا مباشرة من سولوفكي[1]؟ أم أنّكِ قاتلتِ في مكان ما آخر؟

أخرج قدمه العارية، السوداء من الوساخة، من حذائه ووضعها على المنضدة فوق الأوراق الموضوعة -مباشرة تحت أنف الممرضة التي ذُهِلَت. وحرك أصابعه: انظروا، هذا ما في حذائي- ولا شيء أكثر! فسقطت قملة سمينة من قدمه على المستندات وزحفت فوق ورقة.

تذكَّرَ دييف فجأة، وقال:

- هناك، في الأكاديمية العسكرية الجميع حفاة ينتظرون! يجب أنْ نرجِع الأحذية - الآن في الحال! هل سنبقى طويلاً نلعب هنا لعبة نزع الملابس؟

انحنت بيلايا بسرعة. من دون أنْ تجيب، وانتزعت الحذاء الفارغ من

1- سولوفكي أو معسكر سولوفيتسكي: معسكر العمل القسري في الاتحاد السوفياتي أقيم على أراضي جزر سولوفيتسكي، في 1920-1930. أُنشئ لعزل المدانين بقضايا سياسية والمجرمين الخطرين جداً والاستفادة منهم في الأعمال الشاقة وإعادة تأهيلهم. (المترجم).

تحت غريغا. التفت الصبي بوجهه الذي تغيَّر لونه على الفور واندفع نحو الحذاء، لكن رجله الممدَّدة على المنضدة خذلته: لم يستطع أنْ يتماسك، فارتمى على الأرض. انتشلت بيلايا من باطن الجزمة العميق كيساً من القماش، فيه آلة قاطعة يدوية الصنع ملفوفة في قصاصات من الخرق والجرائد. ورفعتها أمام أنظار الحشد الصامت ووقفت هكذا لبضع لحظات حتى يتمكن الجميع من إلقاء نظرة جيدة عليه. ثم رمته على الطاولة. وبعد ذلك فقط، نظرت نظرة ذات مغزى إلى دييف، وأجابت على سؤاله الذي طرحه قبل قليل، وقالت بتشديد:

– السلاح في قطارنا سيكون لدى شخص واحد فقط. يا دييف، أرِهم.

أخرج المسدس من جيبه ورفعه فوق رأسه – رفعه عالياً، كما فعلت بيلايا للتو. ومسكه في الهواء، مثلما مسكت هي الآلة الجارحة. صفَّرَ الحشد صفيراً باحترام.

نهض غريغا ذو الأذن الواحدة من الأرض، لكنه لم يعد غريغا ذلك نفسه: خمدت عيناه اللامعتان واختبأتا تحت رموشه، وغرق رأسه في كتفيه المنحنيتين، وأصبح جسده الصغير ضئيلاً تماماً. وحتى من دون أنْ ينفض الأوساخ من ملابسه الملوَّثة، هزَّ قدمه المنتعلة – فقُذِفَت فردة الجزمة الثانية، وتدحرجت نحو بيلايا، لكنها لم تحلّق ووقعت على الأرض عند قدميها.

قالت بيلايا بحزم:

– أما السكين، أو القطار.

تمتم غريغا بصوت بالكاد يمكن سماعه:

– هذه ليست مجرد سكين. إنها «زيكس» السكين القتالية، نحن معاً منذ ثلاث سنوات.

ارتجفت حواجبه وشفتاه، وتجعد ذقنه بشكل مثير للشفقة – لم يكن في الرابعة عشرة من عمره، وربما لم يكن حتى في العاشرة.

لخَّصت بيلايا الحديث:

– إلى العربة الثانية. أيتها الممرضة، رافقيه.

وابتعدت عن غريغا.

ولكن غريغا بقي يدوس الأرض خلفها، وبدا صغيراً، يثير الشفقة، وعيناه متعلّقتان بالآلة القاطعة الملقاة على الطاولة - غير قادر على ترك «زيكس» المحبوبة، ويصيح:

- ليس لديكِ الحق في الاستيلاء على الممتلكات. أنتِ لستِ على حق، أيتها المفوَّضة.

قالت بيلايا بنبرة مُشَدَّدة من دون أن تدير رأسها وبصوت عالٍ حتى يسمع الجميع:

- الحقّ في عالمنا الأغبر، لمن لديه قضيب أكبر.

فسألها ذو الأذن الواحدة بحزن من خلفها:

- وهل عندك قضيب أكبر؟

أجابت المفوَّضة:

- عندي.

لم يكن الجواب موجهاً إلى غريغا، بل إلى الجمهور الذي تجمد مترقّباً الجواب.

وفجأة صاح ذو الأذن الواحدة بصوت رقيق، وبدت المعاناة الحقيقية على وجهه:

- أيتها المديرة الطيبة! يا شابيركا، أنتِ أيتها الرائعة! أطلب منكِ، بوصفكِ أمّنا، أن تأخذي السكين منها وتعتني بها! أنت امرأة طيبة، إنكِ تنقذين الأطفال -فانقذي سكّيني «زيكس»! وعندما أعود بعد رحلة تُرْكِستان- أولاً، وقبل كل شيء، سأتوجه إليكِ من أجل زيكس!

أومأت بيلايا برأسها موافِقَة، فأخذت شابيرو، الشاحبةُ من الانفعال، السكينَ -أخذتها بارتباك وذهول من النصل، وكادت تجرح نفسها- ووضعتها في حقيبتها النسائية الرثة...

ثم جرى كل شيء بسرعة. تدفق الطابور إلى كرسي المساعد الطبي بقمصان مرفوعة مسبقاً وألسنة ممدودة. وتساقطت المشاحِذ والمسامير وشفرات الحلاقة على المنضدة. وكانت الممرضات الاجتماعيات يركضن

على طول القطار، يقدنَ الأطفال: الأولاد الأصغر -في عربة واحدة، والأكبر- في عربة أخرى، والصبايا -في العربة الثالثة. وكان المساعد الطبي من وقت لآخر يتنهد بقلق ويومئ برأسه إلى شابيرو- فكانت المرأة تأخذ الأطفال الذين لم يعجب منظرهم بوغ وتقودهم جانباً: ظل هؤلاء غير المحظوظين في قازان، وكان طريق إلى مستشفى المدينة.

هرعت بيلايا في الممر الضيق بين القطارين -كانت تقدّم الصغار إلى الأمام، وتنعِش المتعبين، وتصد نكات الأولاد وتلقي النكات بنفسها، وتصدر الأوامر، وتصرخ، وتلوّح بذراعيها- كانت تحلّق مثل طائر كبير. كان وجهها ملهماً وسعيداً.

حمل دييف الرضَّع بين ذراعيه من العربات التي تُرِكَت في الفناء الأمامي عبر القضبان، إلى القطار «الضفيرة». ساعده الفرسان: من دون أن ينزلوا من سروجهم، أخذوا الأطفال من يَدَي دييف -أخذوهم بطريقة خرقاء، وبرزوا مرافقهم وأمسكوا أجساد الأطفال في الهواء مثل الحراب، وضغطوا برفق على جوانب الخيل بكعابهم الحافية. بالكاد كانت الخيول قادرة على تخطي قضبان السكة، وتنقل حوافرها ببطء وسلاسة- لم تكن الخيول تمشي، بل تطفو على طول مسارات السكة، وتحمل الفرسان وحمولتهم الغريبة.

الكتف التي لمستها بيلايا على نحو خاطف كانت لا تزال دافئة. حاول دييف ألا ينظر إلى الشمس وهي تزحف إلى الزوال.

***

عندما أُركِبَ جميع الأطفال الذين يبلغون من العمر عاماً واحداً وعامين في القطار – قُرِّرَ أنْ يُحمَلوا إلى مقصورة الموظفين، إلى أكثر المقصورات نعومة والأقرب إلى الحمام. ثم حان دور المُقعَدين. كانت الحيلة الرئيسة هي جرهم إلى القطار من دون أنْ يراهم بوغ: فهو لم يكن يعلم أنَّه من المحتمل أن يكون بين الأطفال مُقعَدون؛ لم يجرؤ دييف على أنْ يخبر المساعد الطبي عنهم خشية من رفضه. لم يكن بوغ يعرف حتى أن دييف خطط لأن يرقد المرضى في العربة المستوصف.

لذلك، حملَهم بنفسه، ولم يثق بالفرسان. وعن طريق التهريب: في طريقه إلى القطار «الضفيرة» غاص على جانب الطريق، وسط غابة من الصفصاف وأكوام الركام، ليقترب من القطار من الخلف. طاف في القطار من الخلف، وركض بسرعة وبهدوء -المهم بالنسبة له ألّا يلاحظ ذلك مَن في موقع الفحص،- ومن الخلف صعد إلى العربة المستوصف. وضع الأطفال بعناية على الأَسِرَّة -الصبايا إلى اليسار والصبيان إلى اليمين- وسارع ليحمل الآخرين.

كانوا خفيفين كأنهم من الورق، وباردين عند اللمس، مثل السحالي. لم تكن ثمة قوة في أجسادهم شبه الخالية من الوزن: فبالكاد كان بإمكان الأطفال رفع أيديهم أو أرجلهم المتدلية، أو أن يديروا رؤوسهم على نحو مُلائم. كان من الممكن حملهم في الحضن، مَثنى أو ثُلاث، لكن هذا بدا لدييف ليس صحيحاً. فكان يحملهم واحداً تلو الآخر، ويتمتم بلا كلل: «العصيدة ستكون قريباً. قريباً ستكون هناك عصيدة. قريباً، قريباً، قريباً ستكون هناك عصيدة...» لم يرد عليه الأطفال. حاول ألّا ينظر إلى الوجوه - لم يستطع تحمل هذه النظرة، التي كانت هي نفسها لدى جميع أولئك المُقعَدين: نظرة غير مبالية تماماً وتحمل حكمة العجائز. لا ينبغي للأطفال أنْ ينظروا بهذا الشكل. ولا ينبغي لأحد أنْ ينظر هكذا.

عندما كان ينظر إلى كلّ واحد منهم، تنتابه الرغبة في أن يغمض عينيه -وكان يشعر بالخجل من نفسه: فهو لا يحمل وحشاً! فكان يجبر نفسه وإنْ في أحيان قليلة على النظر إلى الطفل- أنْ ينظر مباشرة إلى عينيه المتعبتَين، الخاليتَين من المشاعر - ويبتسم ابتسامة تشيع الطمأنينة. فتخرج ليس ابتسامة، بل قَطْب وقُطوب: لسبب ما، لم تعد شفتاه تُطيعانه.

تصبب جسده عَرَقاً حتى آخر طيّة فيه، كما لو كان يحمل أكياساً فيها حبوب، لكنه لم يكن عرق الصباح الحار الصافي الناشئ من الجهد مع الأطفال، بل كان بارداً ولزجاً، ولم يجفّ بعد. وأحسّ في معدته أيضاً بشيء بارد ولزج. وتجمَّدت أصابعه، كما لو أُصيبت بالعدوى من السقم المُقعَدين بمرض ما يجعلها باردة.

الآن فقط، بعد أن حمل دييف على يديه هذه الكائنات الحية الخفيفة الوزن، أدرك مدى هشاشتها. وتبيَّن أنَّ عظام الأطفال هشة، مثل حطب القشاش. والجلد ناعم مثل خيوط شبكة العنكبوت. فخاف من أي حركة غير صحيحة: حتى لا يُكسر العمود الفقري الرقيق، ولا تخترق الضلوع الجلدَ عن طريق الخطأ. كان كل شيء مخيفاً: إذا ما فتح الأطفال عيونهم (هل حدث شيء ما؟) وإذا ما أغمضوها (هل سيفتحونها مرة أخرى؟)، وإذا ما تنفسوا بصوت عالٍ (هل يشعرون بالضيق؟) وإذا ما تنفّسوا بهدوء (هل يتنفسون على الإطلاق؟)، عندما يرقدون بلا حراك وعندما يتحركون...

البعض منهم كانوا يتكلمون. في البداية، ابتهج دييف لمثل هذه العلامة الواضحة على الحياة، ثم لم يعد يفرح لذلك.

قالت إحدى الصبايا أثناء الطريق بصوت منخفض وواضح:

- لقد أكلت العسل اليوم.

فابتهج دييف، وقال:

- أوه، كم هذا جيد! من أطعمكِ؟

وتابعت قائلة كأنها لم تسمع السؤال:

- أكلت ثلاثة أرطال. وبالأمس أكلتُ الأربعة كلها. وفي اليوم الثالث ظفرتُ بخمسة أرطال. كنت سآكل أكثر، لكن الشمع سيغرز في أسناني.

نظر دييف إلى كفَّيها الرفيعتين، الملتويتين والمضغوطتين على صدرها، ونظر إلى عينيها الكبيرتَين السوداوين تحت الحاجبين السميكَين على نحو خرافي كالفرشاة، وإلى الفم المضغوط على شكل عقدة - وفكَّرَ، أنَّ البنت تبدو حقاً مثل النحلة. وكانت تزن ثلاثين رطلاً، لا أكثر.

- وشربتُ برميلاً كاملاً من دبس السكر.

حملها دييف وأومأ برأسه في صمت: كان يخشى أن يرتجف صوته أثناء الكلام.

نظرت إليه البنت نظرة شديدة الوضوح، وسألته:

- هل أنت المسؤول الرئيس هنا؟

هز رأسه مرة أخرى.

- سوف تطعمنا؟

أومأ برأسه.

- هل ستعطيني العسل؟

فقال دييف:

- أولاً، العصيدة. قريباً، أيتها النحلة، قريباً ستكون هناك عصيدة...

نشأت ألقاب الأطفال من تلقاء نفسها. بما أنّ دييف لم يَنَم لمدة ليلتين الآن، وبالتالي فإن دماغه مشوَّش قليلاً -فلربما تكون الألقاب التي أطلقها على الأطفال غير صحيحة! أطلق هذه الألقاب السوقية بمجرد أن أخذ الطفل التالي بين ذراعيه: ذو الأنف الطويل- صبي ذو أنف طويل، يمكن رؤيته وحده على وجه الصغير العظمي؛ البهلوان -الصبية التي كان جلدها مترهلاً لدرجة بدا كأنه ثوب سيرك فضفاض كبير الحجم؛ المكواة- طفل ذو فك سفلي ثقيل وعينين غائرتين مغمضتَين دائماً... كان يشعر بالخجل من هذه الألقاب السيئة والمسيئة، لكن المرء ليس له سلطة على تفكيره!

قرروا أن يحملوا سينيا التشوفاشي في الأخير -إذ، لربما، يصرخ هذا الصبي ويفضح دييف قبل الأوان. لكن الولد اليوم كان هادئاً بشكل مدهش: فقد رقد طوال الطريق من دار إيواء الأطفال المشردين في صمت، لم ينَم، وأحياناً كان يرتعش قليلاً، ويجمع الحشرات- الحقيقية والخيالية - من جسده. ثم يأكلها.

لقد فهم دييف هذا عندما كان يجر سينيا إلى القطار: استمر يبحث عن الحشرات حتى على ذراعَي دييف. لم يكن لدى الصبي ما يكفي من القوة، وبالتالي كانت حركاته محدودة ودقيقة: تحركت يداه فقط - وكانتا تتنقلان في هزات على طول جسمه، إلى الأعلى وإلى الأسفل، تمسكان بالفريسة؛ ظل وجهه غير مبالٍ، ولم يستدِر الرأس. بعد أن اصطاد سينيا الحشرة، وضع أصابعه في فمه وشد شفتيه بإحكام. بعد لحظة، اختلجت رقبته، وأُدخِل الصيد إلى المريء، ومُدَّت يداه مرة أخرى على جذعه.

لم يحتمل دييف هذا، فقال:

- لا تفعل. لا تأكلها.

اعترض سينيا بحزن:

- إذاً، هي ستأكلني.

تمتم دييف تعويذته:

- قريباً ستكون هناك عصيدة. قريباً، قريباً، قريباً ستكون هناك عصيدة...

بعدما أُرقِدَ جميع الأطفال المُقعَدين في العربة المستوصف، دفع دييف باب المطبخ الميداني من دون أن يطرق، ووثبَ إلى الفضاء القاتم من الصناديق والحقائب والأواني.

كان ميميليا مشغولاً على طاولة التقطيع، التي كان يفرم عليها أوراق العليق التي جُمِعت في الأفنية الخلفية للمحطة، والتي كانت مناسبة للتحضير مع الشاي أو بدلاً من الشاي.

أمرَ دييف ميميليا:

- اطبخ العصيدة للغداء. لا تبدأ الآن! اغلِ الماء وانتظر، وإلا سيتجمع نصف أهالي قازان عند الرائحة، لن يدعوا القطار يغادر. وبمجرد أن نتحرك، ارمِ الحبوب على الفور في ذلك الماء المغلي. واطبخ لنا، يا رفيق ميميليا، عصيدة من النوع... عصيدة من النوع... لدرجة أنَّ...

لم يجد دييف الكلمات المناسبة واكتفى بهز قبضته المشدودة بإحكام أمام الطباخ: انتفخت عروق قبضته، وابيضَّت المفاصل.

- لدرجة تكون هكذا!

***

قفز دييف من المطبخ الميداني إلى الأرض، فوجد أنَّ نصف الأطفال كانوا جالسين في أماكنهم. فقد استمر المساعد الطبي بوغ ينظر في الفجوات، وسعت الممرضات جيئة وذهاباً على طول القطار مثل مكوكات النسيج - وتفرَّقَت كتلة الأطفال الخرقاء الصاخبة في العربات.

ما إنْ وقف الأطفال على درجات العربات، حتى بدأوا يخلعون الأحذية (جُمِعَت الأحذية في كومة كبيرة وكانت من وقت لآخر تُسحَب إلى عربة

واقفة في ساحة المحطة) ويخلعون ممتلكات دار إيواء الأطفال المشردين وإجلائهم التي استُعمِلَت بمنزلة ملابس: أغطية أَسِرَّة من قماش الغوبيلين، وشالات مأخوذة من مفارش المائدة، وبطانيات مصنوعة من الستائر، والسترات التي من دون أكمام والقبعات المثلثة الخاصة بالحفلات التنكرية - كل هذا مملوك للدولة ولم يكن من المفترض أن ترحل. دخل الأطفال إلى عهدة دييف حفاة وعُراة تقريباً.

ولم يقلّ عدد الناس الواقفين عند القطار: فقد زحف الأطفال المشردون من جميع الجهات، وركض الكبار -سواء من سكان البلدة أو من القرويين. كانوا يأملون أنهم يفرغون المؤن (ويمكنهم عند ذاك الاستفادة من تفاحة ملفوفة أو قطعة من البسكويت واقِعة)؛ أو أنهم يحمّلون الفحم (ويمكنهم عندئذ أنْ يجرفوا جانباً لأنفسهم على الأقل حفنة من الفحم)؛ وبعض منهم طلبوا أن يكونوا مرافقين للمسافرين (حتى لو وصلوا على متن منصة الكبح إلى بلدة سيرغاتش)؛ وبعض منهم سعوا جاهدين لأن يضمّوا أطفالهم إلى القافلة في القطار. كان الجميع يتزاحمون حول العربات، ويمدّون أعناقهم وينظرون بحماس. وازدحم هناك الفرسان أيضاً- فقد كانت لديهم أوامر بالمراقبة حتى إعادة آخر زوج من الأحذية.

تدحرجت قاطرة من المستودع من مدة طويلة - كانت تلهث وتدخن على نحو يائس، وبين الحين والآخر تغرق كل ما حولها بأعمدة من الدخان الرمادي والأبيض: كانت السحب تطفو على طول الممر الضيق بين العربات، وأحياناً تغطي الناس حتى الرؤوس وتترك أكتاف الفرسان وخُطُومَ الخيول فقط مرئية.

وسرعان ما لاح من هذه السحابة خيّال لا يعتمر قبعة عسكرية بسيطة ولا يرتدي معطفاً رمادياً، مثل أفراد المفرزة المرافقة، بل يعتمر قبعة من فرو أستراخان القرقولي وسترة سوداء أنيقة ذات صفّ واحد من الأزرار. إنه قائد الأكاديمية بنفسه.

ما إنْ رآه دييف، حتى توقف عن التنفس. رفع عينيه إلى السماء. فرأى الشمس في كبد السماء.

انحنى، كما لو كان يشدّ الشريط في حذائه، وعلى الفور -غطس، وزحف- تحت وَصلة قَرن العربات، على الجانب الخلفي: قبل أنْ تتبدد سحابة ضباب البخار في الهواء وتختفي - فاختفى هو بالذات.

لم يره القائد -سار ببطء على طول القطار، ناظراً إلى الجلبة عند العربات. لم يتحدث إلى أي شخص بعد، لكن كل شيء كان واضحاً: إنه يبحث عن شخص ما. ليس عن شخص ما- بل يبحث عن دييف.

نظر دييف إلى القائد، أو بالأحرى نظر إلى أرجل جواده: جلس القرفصاء، وزحف من عربة إلى أخرى على طول الجانب الخلفي من القطار، يراقب من تحت العجلات التنقّل البطيء لحوافر الحصان ولا يفهم ماذا سيحدث له وكيف ينبغي له أنْ يتصرف.

هل يلعب الغميضة؟ إنها حماقة وتخلٍّ عن المسؤولة. وإلى متى يبقى يرقص حول القطار؟... هل يخرج ويكشف عن نفسه؟ لا محال، سوف يأمر القائد بالاستيلاء على الأحذية المحتجزة، وسيظل نصف الأطفال حفاة عند القطار...

وهكذا تابع دييف والقائد بعضهما بعضاً على طول القطار - هو من ناحية، والقائد من الناحية الأخرى: من جانب حجرة الماء والوقود في القاطرة التي فيها الفحم، وعربة المطبخ الصغيرة؛ ومن جانب عربة الموظفين الطويلة التي لا تزال تُرى عليها بوضوح علامات الدرجة الأولى؛ ومن جانب عربات الركاب الخمس وعربة الكنيسة (التي صارت عربة المستوصف). هنا انتهى القطار، ولم يخرج دييف بأي شيء ذي قيمة. ثم وقفت أرجل الحصان.

وقفت مدة دقيقة، ثم دقيقة أخرى - وقفت بخضوع، بالكاد تتحرك حوافرها: ربما كان الفارس يتحدث إلى شخص ما وهو جالس على صهوة جواده. أو تساءل مع نفسه إلى أين عساه ذهب بعد ذلك. أو...

سمع دييف أحدهم ينادي بصوت مُنخفِض من الأعلى، في مكان قريب جداً:

- ها أنت ذا.

رفع دييف عينيه: فرأى قائد الأكاديمية يقف على منصة العربة المفتوحة وينظر إليه باهتمام. فقال بغباء:

- مرحباً، أيها الرفيق.

كان لا يزال جالساً القرفصاء بين أكوام الحصى والأنقاض، متكئاً على الأرض بيديه مثل قرد في حديقة حيوانات.

نهض ومسح الأوساخ عن باطن كفيه. عدّل الحزام، وضرب قدماً بقدم، ونفَضَ الغبار عن حذائه. ثم أمسك الدرابزين وقفز على المنصة - نحو الضيف المنتظر. استقام بهدوء وتجمد مُستَعِدّاً للتوبيخ أو لعقوبة جدّية.

كان الأمر محرجاً للغاية، لدرجة لم يتوهّج وجهه فقط - بل حتى جذور شعره، وقفاه، وحتى عنق دييف الذي تصبب عَرَقاً من التوتر قد تلهَّبَ بشكل لا يطاق. وفي تلك اللحظة انتابته رغبة شديدة بأنْ يغمض عينيه، لكنَّهما لم تطاوعاه: جعل يحدّق في عَيْنَي القائد، إلى درجة لم يقدر معها حتى على أنْ يرمش.

لاحت على وجه القائد أمارات كرامة المَحتَد والشدّة. شاربان - مُتَّسِقان، كما لو كانا مرسومين بفرشاة رسّام، بأطراف مبرومة. وهيئته يكتنفها الوقار. كان واحداً من أصحاب الشهامة السابقين. هذا الرجل من النوع الذي يلتزم دائماً بكلمته.

بدأ دييف يتكلم:

- أيها الرفيق آمر الأكاديمية...

وصمت، لأنه لم يعرف كيف يعتذر.

لم يستمع إليه القائد. وأخرج من جيبه صرّة صغيرة من القماش ومدّها إلى دييف، وقال بجفاف:

- هذا لكَ. من المستبعَد أنْ أحتاج إليه بعد الآن. وربما، تكونون بحاجة إليه في الطريق.

فتح دييف الصرة: في منديل مطوٍّ عدة مرات وِضِع صليبان فضيان - وساما القديس غيورغي، واحد من الدرجة الثالثة والثاني من الدرجة الرابعة.

- للدواء أو للطعام، -تابع القائد، ولم يعد ينظر إلى دييف، بل إلى مكان ما بعيد، إلى حشد الأطفال الذين يزحفون نحو طاولة المساعد الطبي. وأضاف بعد توقف بصوت منخفض جداً:- حاول ألا تبيع بثمن بخس.

أومأ دييف برأسه فقط رداً: بدت كل الكلمات الآن فارغة وغير ضرورية.

وقف القائد مدة أطول قليلاً، وكان صامتاً. ثم نقر بلسانه بصوت بالكاد يمكن سماعه -ومض عجز الفرس الداكن عند درج العربة: جاء الحصان على نداء صاحبه. فقفز الآمر إلى السرج- مباشرة من منصة عربة القطار، من دون أن يلمس الأرض.

ثم التفتَ، كأنما تذكّر للتو شيئاً عرضاً، وقال:

- وإليكَ شيئاً آخر. هناك عربة يجرها حصان تقف عند المحطة فيها خمسمائة قميص داخلي. هذا لركاب قطارك. رتّب أمر تفريغها.

خمسمائة قميص - ثروة خارقة للعادة، لا يمكن تصورها. فخفق قلب دييف بشدة. وابتسم ابتسامة عريضة ملأت وجهه وجعلت من الصعب عليه أنْ ينطق الكلمات، وصاح:

- أنا، بنفسي، سوف أسحبها! شكراً لك، أيها الرفيق آمر الأكاديمية! أشكرك شكر البروليتاريا!

فأجاب بحدة، وهو يستعد لسحب زمام الجواد:

- الشكر ليس لي! الجنود أنفسهم قرروا. كنتُ ضد ترك الأكاديمية من دون ملابس داخلية.

ضحك دييف بسعادة رداً على ذلك -مثل أشد الحمقى. لم يضحك بفرح من حقيقة أنَّ الأطفال سوف يرتدون ملابس (على الرغم من أنَّ هذا كان فعلاً جيداً جداً!)، بل ضحك من حقيقة وجود أخوَّة على الأرض- أخوة حقيقية من أشخاص غرباء ولكنهم حميمون.

وحذره الخيّال:

- القمصان غير مغسولة. لقد خلعوها عنهم للتو.

ثم ضغط على جانبي الحصان بقدميه وابتعد.

فقال دييف باضطراب:

- والأحذية! ستبقى لدينا لمدة ساعة أخرى - ثم نعيدها!

لكن ظهر القائد المنتصب قد ابتعد، وهو يتأرجح...

وبعد ذلك، حمل دييف بحضنه القمصان - المجعدة، البيضاء الوسخة، المُرقَّعة والمَرْفوءة، الجميلة فعلاً! وفي كل مرة، عندما يحمل حضناً جديداً عبر مسارات السكة، يدفن وجهه المبتسم فيه. كانت تفوح منها رائحة سجائر الماخوركا، ورائحة عرق الرجال القوية، ورائحة الفودكا والخبز ومخلل الملفوف. ورائحة السمك، وصابون القطران، والكيروسين، والدخان.

وكذلك خُيِّلَ لدييف أنَّ القمصان كانت دافئة. كلا، لم يُخَيَّل: لقد كانت دافئة حقاً.

***

في الساعة الثانية بعد الظهر، انتُهِيَ من الفحص الطبي وتوزيع الركاب على أماكنهم في القطار. وكانت الوجوه المضطربة لأولئك المغادرين في مجموعات تتوهج في نوافذ السيارات، ولاحت في الأفق السحنات الحزينة لمن لم يُسمح لهم بالسفر -كان ثمة العشرات منهم-: كان الأطفال ينتظرون شابيرو، التي ظلت تركض حول القطار وتردّد كلمات الوداع للممرضات ولِمَن كانوا تحت وصايتها السابقة. وكان الفرسان ينتظرون شابيرو - لمرافقة الباقين إلى ساحة المحطة، ووضعهم في العربات، وبعد ذلك فقط يأخذون منهم الأحذية.

وكان الغرباء المتجمعون ينتظرون شيئاً ما -لم يتفرقوا، بل ازدحموا أكثر فأكثر. سعى الأطفال المشردون جيئة وذهاباً على جانبي القطار، وحاولوا بين الحين والآخر التسلل إلى الداخل؛ وقد أبعد سائق القطار اثنين من حجرة الماء والوقود في القاطرة- كانا قد حفرا في الفحم واخْتبَآ حتى المغادرة -وطردت بيلايا اثنين آخَرين من داخل عربة الموظفين. أما عدد أولئك الذين أبعدهم دييف بالصراخ والتهديد- من مَداخِل العربات، ومن الأسطح ومنصات الفرامل - فلا يُحصى.

والأمهات اللائي يحملن أطفالهنَّ الرضّع يُحَوّمن في المكان، بحثاً عن ممرضات بوجوه أكثر لطفاً، ويدفعن لهنَّ الرضَّع:

- خذي الرضيع! طفلي خفيف، ويأكل قليلاً!

- خذي طفلي! إنه هادئ!

- خذي رضيعي! خذي رضيعي!

وكان الرجال يراوحون في أماكنهم بالقرب من القطار وهم يراقبون الحركة ويتناقشون:

- هل ينقذون الأطفال مقابل المال؟ أم مجاناً؟

- يا ترى، هل يوجد ثمة ما يُفعَل مجاناً؟...

- إلى أين يأخذونهم؟ إلى الصين، إلى محيط مليء بالسمك؟

- يُقال إلى أمريكا! هناك أيضاً محيط...

- بدأوا يجْلون الأطفال بعيداً. ربما، ستندلع الحرب؟

- وحتى لو كانت! على الأقل لن يتضوروا جوعاً أثناء الحرب.

- انتظروا الحرب، أيها المواطنون!

توقف الصخب - كما حدث عند انطلاق أول قطار إلى موسكو من المنصة الرئيسة.

- يوو -يوو- يوو -يوو!- أطلقت القاطرة صوتها العالي وغطَّت على جميع الأصوات الأخرى - حتى صُمَّت الآذان من الصفير.

دار ديف حول العربات ووزع القمصان الداخلية. قرر أن يرتدي الملابس جميع الأطفال الذين في عهدته على الفور، من دون انتظار المغادرة: مع أن التدفئة بالبخار قد شُغِّلَت، لكن العربات تدفّأت ببطء - فتجمّد الأطفال من دون ملابس وبطانيات. بالإضافة إلى ذلك، يمكن بسهولة تمييز الركاب الذين يرتدون الزي الأبيض عن أولئك المشرّدين الذين يقفزون إلى القطار، والذين سعوا جاهدين لأنّ يدسّوا أنفسهم في إحدى المقصورات.

أبقى عشرين قميصاً -لأصغر الركاب والمشلولين- في عربة الموظفين، التي تشرف عليها فاطمة. وما يقرب من مائة -إلى كل واحدة من عربات المقاعد العادية. والبقية- بضع دزينات - إلى عربة المستوصف، للمُقعَدين.

ذهب دييف إلى هناك في نهاية التوزيع. لم يكن لديه الوقت للدخول - فقد قابله على درج العربة المساعد الطبي بوغ بوجه متجمد وشفتين مشدودتين بصرامة.

سأل المساعد الطبي:

- كيف نفهم هذا؟

زمَّ دييف أنفه باهتزاز شديد، مثل خياشيم الحصان الخائف. وقال عابساً:

- افهم كما يحلو لك!

وقف بوغ على الدرجات - ضخماً، عريضاً، يسد الممر تماماً، وانحنى فوق دييف الضئيل الجسم مثل السحابة وقال:

- كلا! لا! لا يمكن أن نأخذ المُقعَدين.

أجاب دييف بفظاظة:

- إذاً، لا تأخذهم!

لم يتبقَّ سوى بضع دقائق قبل المغادرة: لم يكن هناك وقت لإنزال الركاب. وأين يمكن إنزالهم؟ فهل يمكن أنْ يضعهم على الأرض، تحت أقدام المتفرجين المتجمهرين؟

دسَّ دييف حزمة القمصان للمساعد الطبي في بطنه -أمسكها، كما يُقال!- لكنَّ المساعد الطبي أعرض كأنه لم يرَ ذلك وقال:

- على مدى نصف قرن رأيتُ من الموتى بمقدار ما رأيتَ، أنت، من الأحياء. وإني أرى، أرى بوضوح: هؤلاء لا أمل في إنقاذهم، أيامهم معدودة.

وَكَزَ دييف القمصان مرة أخرى في بطن المساعد الطبي المرصوص، ومرة أخرى بدون نتيجة، وقال له:

- قل لي ما تحتاجه فقط! أدوية، حليب، بيض، زيت السمك... حتى العسل! وسوف أجده لك! عندما يتعلق الأمر بحاجة شخصية لي - أكون مجرد شخص تافه. ولكن إذا تعلق الأمر بحاجة للآخرين فأتحوّل إلى وحش!

ظلّ المساعد الطبي صامتاً، ونفث فحسب رداً على ذلك.

تذكر دييف الصلبان الفضية المخبأة في جيبه، فقال:

- ولديَّ نقود أيضاً!

ومرة أخرى، وكز المساعد الطبي بالقمصان في بطنه! ولكن كيف يمكنه كسر مثل هذا الجبل...

قال بوغ بصوت منخفض:

- سيأتي عاجلاً يومٌ لن يستيقظوا فيه ببساطة. ولن يعود يُسمَع لهم صراخ، ولا يُرى تقلّبهم ولا معاناتهم. كل شيء سيحدث بهدوء وبشكل غير محسوس. أولاً، لن يستيقظ واحد، ثم الثاني، والثالث... الأوائل لن يستيقظوا -حتى قبل أنْ يصل القطار إلى بلدة أرزاماس. وبعض منهم- في مدينة سامارا أو أورينبورغ. لن يصل أحد منهم إلى سمرقند.

نظر دييف إلى وجه المساعد الطبي الذي شحب بسبب التعب، وإلى التجاعيد المميَّزة بحدة - وللمرة الأولى صار واثقاً من أنه تجاوز السبعين من عمره.

واصل بوغ بهدوء:

- سندفنهم بالقرب من السكة الحديد. -(ومرة أخرى صفَّرَت القاطرة، وأخمد صوتها كلّ صوت آخر، لكن دييف سمع كل كلمة بوضوح، كما لو كانت تصدح داخل رأسه).- سوف نحفر لهم في الأرض حتى لا تأكلهم الكلاب. سوف ندفنهم في الليل ونخبّئهم عن باقي الأطفال. سوف تحفر القبور، وأنا أحمل الموتى.

دوَّت صفارة القاطرة - صوتها يدقّ في الآذان.

قال دييف، من دون أنْ ينتظر القاطرة حتى تصمت، واثقاً من أنَّ بوغ سيفهمه:

- عليك أن تنقذهم. هذا أمر.

وضع كومة القمصان تحت أقدام المساعد الطبي -وضعها مباشرة على الدرج، حيث الغبار والأوساخ- وانصرف مبتعداً.

***

أطلقت قاطرة العنان لصوتها، كأنما جُنَّ جنونها. اندفع عمود كثيف من

الدخان ممزوجاً بالشرر من المدخنة إلى السماء، وطشّت سحب بيضاء وانتشرت على الجانبين.

ضمَّت الأمهاتُ الرضَّعَ إلى صدورهنَّ، لكنهم ارتعشوا خوفاً من زئير الآلة -وانتحبوا صارخين. لا تزال بعض النسوة يجاهدن لتسليم الرضيع الصاخب لشخص ما في القطار، لكنَّ الممرضات الواقفات على أرصفة العربات صرخن بشدة ولوَّحن بأيديهن. ورداً عليهنَّ صفَّر الأطفال المشردون- الغاضبون لأنهم لم يتمكنوا من الالتحاق بالقطار... انزعجت خيول الفرسان من الضوضاء فوثبت وصهلت صهيلاً حزيناً.

شق دييف طريقه عبر كل هذا الصخب والصراخ والبكاء والأزيز إلى مقدمة القطار، إلى عربة الموظفين، التي لمعت فيها قبّعة مدير المحطة – كان المدير يستعد لإعطاء إشارة المغادرة.

أمسكه أحدهم من كمه، وقال:

– يا بُني! أنقذه!

كانت تلك امرأة ذات وجه ناحل شاحب كأنه وجه عجوز. على صدرها رضيع ملفوف في قماط قرمزي. أمسكت بمرفق دييف بكل قوة ومدّت الطفل نحوه:

– خذ الطفل، يا بني! سيموت! خذه إلى أيّ مكان – حتى وإنْ إلى الصين، حتى وإنْ إلى أمريكا اللعينة هذه! أنقذه!

حاول دييف أن يفكَّ نفسه من أصابع المرأة العنيدة، لكنها أمسكت به مثل فخ من الحديد.

– آخ، آخ، آخ! – طافت سحابة جديدة من الدخان عبر رصيف المحطة، وغطّت دييف والمرأة.

ارتجف القطار بشكل غير محسوس، من بدايته إلى نهايته، وارتعدت قعقعة عالية: فقد سحبت القاطرة قارنات التوصيل.

وصاح أحدهم من الأمام على الفور:

– لقد تحرك القطار. إننا نسير!

لم يستطع دييف أن يبعد عنه الكف الغريبة. ثم دفعته من جميع الجهات أكتاف وظهور أناس آخرين، فدفعهم، وطردهم إلى الأمام. وتعلّقت على مرفقه -مثل ثقل بثلاثة أرطال- امرأةٌ: وجعلت تقترب، وتقترب أكثر فأكثر، حتى تتنفس أنفاسها الحارة والمرّة على خدها، وتضغط بجسد الرضيع على دييف، وكادت تتعلق برقبته وتسقطه تحت أقدام الحشد.

صاح دييف بغيظ لأحد الفرسان الذي كان في جواره:

- ساعدني، أيها الرفيق! ألا ترى؟ الله يعلم ما الذي يجري!

ولكن هذا الرجل كان حماراً على حصان! - بدلاً من أنْ يمسك المرأة العنيدة من قفا عنقها ويترك دييف يذهب، استل سيفه.

وصار الحديد يصفر في الهواء فوثبت المرأة إلى الخلف.

أمسك دييف الحصان من اللجام، فتجمد الفارس، وبقي سيفه مرفوعاً نحو السماء، من دون أن يعرف ماذا عليه أنْ يفعل بعد ذلك. فصاخ به دييف:

- هل جُننت؟!

- لكن العجلات قد دقَّت على قضبان السكة، فلَوّح دييف بيده بغضب فحسب وركض نحو عربة الموظفين.

وبقيت المرأة التي تخلّفت وراءه تصيح:

- خذ الطفل يا بني! خذه! خذه! خذه!...

ركض من جانب الحشد المضطرب -من جانب الأفواه المفتوحة والأيدي المرفوعة- تحت وقع الهدير المدوي الذي لا نهاية له. ولم يكن واضحاً له ما إذا كانت هذه الصرخة المدوية التي أخمدت كلّ شيء نشأت من صوت القاطرة أو من حناجر كل هؤلاء الناس.

مُدَّت يد من مقصورة الموظفين - يد طويلة وقوية. أمسك بها دييف، فسحبته اليد إلى الأعلى، وجرَّته إلى درجات العربة. قفز! فإذا به الآن يقف على المنصة إلى جانب بيلايا، وكفّاهما متشابكتان بإحكام، كأنهما يتصافحان.

سألته، وهي تضغط بشفتيها على أذنه لتحجب الضوضاء من حوله:

- هل تعلم كم عدد الأطفال في القطار؟ إنهم خمسمائة -لا أكثر بواحد ولا أقل بواحد! في بعض الأحيان حتى لو تريد- لما أمكنك أنْ تخمّن، ولكن هنا...

وابتسمت له - لأول مرة منذ اليوم الذي التقيا فيه. ولكنه لا يستطيع الابتسام رداً على ابتسامتها. وتمنى ألا تبتسم!

كان يرتجف تحت قدميه بدن العربة العملاق، وقضبان السكة تقعقع. مبنى المحطة، الأشجار، القطارات - كل شيء يطفو ببطء ويتدفق للخلف. وتتطاير سحب كثيفة من البخار فوق الأرض وعليها، وتحجب عن دييف بشكل متزايد الحشد المتبقي على منصة المحطة.

وفجأة يظهر شخص من هذه السحابة البيضاء: شخص ما يركض خلف القاطرة - يركض بتهور، بكل قوته. إنها امرأة! تنورتها الطويلة تخفق أثناء الركض، وترتفع فوق الركبتين وتكشف عن رجليها النحيفتين في القبقاب الكبير. وجديلتها التي غزا نصفها الشيب تطير في مهب الريح. وفي يد المرأة طفل في قماط قرمزي.

القطار يتسارع -أكثر فأكثر مع كل ثانية. والمرأة تجري- أسرع وأسرع. وتمد أثناء الجري ذراعيها مع الطفل نحو القطار. تمد يديها نحو دييف، وليس نحو أحد سواه.

إنها تنظر إليه، وتجري خلفه. يقف دييف ممسكاً بالدرابزين، غير قادر على رفع عينيه عن المرأة. هي تركض يائسة، مثل حيوان جريح، وكأنها تهرب من موت محتَّم. الوجه -المُنهَك والشاحب- مشوه لدرجة أنه يبدو: ما هي إلا لحظة أخرى - وسوف ينفطر قلب المرأة.

ركضت المرأة أسرع، وأسرع، ثم أسرع -والآن أصبح وجهها بجوار منصة العربة، يكاد يكون عند قدمي دييف. عيناها تحملقان بوحشية. وفمها مفتوح. تمدّ الرضيع نحوه- على ذراعيها المستقيمتين العظميتين: ألا تأخذ الطفل!

تماسك دييف ولم يُظهِر ضعفه، واستند إلى الدرابزين بكلتا راحتيه -حتى كاد يكسره!- وهز رأسه قليلاً: كلا، لا أستطيع، أنا آسف، أنا آسف!

وهنا، استجمعت المرأة أمرها ووضعت الطفل على سلم العربة.

صارت اللفافة القرمزية أسفل قدمَي دييف، على الشبكة المعدنية المهتزة، التي تجري تحتها الأرض وتومض. حتى من دون أنْ يفهم دييف أيَّ شيء أمسكت يده من تلقاء نفسها بهذه الحزمة. وإذا به ممسك بالدرابزين بإحدى يديه، وبيده الأخرى يضم الطفل إليه.

والمرأة؟ غير موجودة، لقد اختفت. إما أنَّ دييف لاحظ من زاوية عينه كيف تدحرجت وانحدرت تحت المنحدر الجانبي على السكة، أو خُيِّلَ إليه ذلك. لكن المرأة لم تظهر في أيٍّ مكان مرة أخرى. نعم، وحتى لم يعد ثمة شيء يُرى - فقد غطّى على كل شيء البخارُ الأبيض الذي التفَّ خلف القطار كالجناح الكث.

فتح دييف القماط. كان فيه طفل رضيع يبكي بصوت بالكاد يمكن سماعه، جسمه أحمر وتملأه التجاعيد: رضيع حديث الولادة.

أُغلِق باب العربة - ودخلت بيلايا، من دون أن تنبس ببنت شفة.

الطفل بين ذراعي دييف يضيِّق بعينيه اللتين ما زالتا عمياوين ويدير برأسه. ويمدّ شفتيه المفتوحَتَين في جميع الاتجاهات - بحثاً عن ثدي أمه.

الجزء الثاني

الاثنان معاً

سفياجسكي - أورماري

كان دييف إنساناً بسيطاً وكان يحب الأشياء البسيطة. يحب أنْ يقول الحقيقة. ويحب وقت شروق الشمس. ويحب أنْ يرى طفلاً غريباً يبتسم ابتسامة شبه خالية من الهموم. ويحب غناء النساء وغناء الرجال. كان يحب كبار السن والأطفال -لقد أحب الناس كلهم. يحب أن يشعر بأنه جزء من مجتمع كبير- من الجيش، ومن البلد، وحتى من البشرية جمعاء. وكان يحب أن يضع كفيه على جانب القاطرة ويستشعِر بجلده عمل قلب الآلة.

ولا يحب - الجراح والدم. ولا يحب أنْ يقتلَ الناسُ أناساً من جماعَتهم أَو من الآخرين على حد سواء، فالأمر كله متشابه. ولا يحب أن يجوع وأن يشاهد الآخرين يتضورون جوعاً. ولا يحب أنْ يسمع عبارة «غذاء بديل»، وأنْ يرى المتورمين والمقعَدين، والمقابر ومدافن الحيوانات.

بعبارة أخرى، أحبَّ دييف الحياة وكره الموت.

ولكن حدث أنَّ جميع السنين التي عاشها، تخبَّطَت في هذا الموت، كما تتخبّط الذبابة في الحليب، من دون أن يتمكن من الخروج منه؛ وتخبَّط فيه جميع رفاقه، والبلاد السوفيتية الفتية كلها. عندما كان طفلاً، مُتَبنّى في مرأب القاطرات، بالكاد استطاع أنْ يَبقى حيّاً، يقضي الليل نائماً في مستودع عوارض السكة، وفي الصباح بعد أن ينهض من على العوارض الخشبية

ينتشل شعره المتجمد على الخشب بصعوبة. وفي سن الصبا، اشتغل متدرباً في جماعة مهنية لأعمال الترميم، كان يسعى مضطرباً من أجل الحصول على طبق من الحساء، تارة منتعشاً بصحة جيدة، وتارة يغمى عليه من الجوع. وفي فتوته، كان جندياً في الجيش الأحمر، وقتل، نعم قَتل الكثير من الناس. في شبابه، وعندما صار متطوعاً في منظومة التسليم الإلزامي للمحاصيل الزراعية، قتلَ مرة أخرى.

وفي الزمن اللاحق، كان هناك الكثير من الموت في رحاب الوطن، كما لو كان الموت، هو المتحكّم بالبلد، وليس الحكومة السوفيتية على الإطلاق. اتخذ الموت أشكالاً مختلفة: الأوبئة، والمجاعة، والشتاء القاسي، والفقر المدقع، واللصوصية العنيفة. أساءَ الجيش الأبيض الذي توغل في الساحات الخلفية للجمهورية بشراسة حتى قُضيَ عليه. وتصرّف بشراسة جيشُها الأحمر أيضاً. وعاثَ فساداً الفلاحون المتفضون الذين لم يرغبوا في تسليم الحبوب إلى الدولة. وعاثت في الأرض فساداً مفارزُ تسليم المحاصيل الزراعية الإلزامي، عندما أسالوا «الدم مقابل القمح» في القرى. واستعرت الأمراض: التيفوئيد التهم ثلاثة ملايين مواطن، و«الإنفلونزا الإسبانية» -ثلاثة ملايين آخرين. واحتدمت المجاعة: في خمس وثلاثين مقاطعة- تسعون مليون شخص -لمدة عام باستمرار يشتكون نقص «الخبز»! وعلى الرغم من أنَّ الصحف كانت تتحدث على استحياء عن القضاء على المجاعة، فإنها كانت على علم أنَّ في منطقة الفولغا- لم يُقضَ على المجاعة بعد؛ وكذلك لم يُقضَ عليها في أوكرانيا، وفي جبال الأورال وفي شبه جزيرة القرم.

لماذا حدث هذا، لم يفهم دييف. لماذا كان هناك دائماً الكثير من الموت والألم، ولكن القليل من الحياة؟

في محاولة لمعرفة ذلك، تخيَّلَ دييف ميزاناً ضخماً -مثل ذلك الذي يُنصَب في الموانئ لوزن البضائع- ووضع ذكرياته ذهنياً في كفّتَين عملاقتَين: على إحداهما -الذكريات الحزينة والمؤلمة، وعلى الكفة الأخرى- الذكريات المشرقة.

امتلأت الكفة الأولى على الفور. ها، هو نفسه، شاباً خائفاً، يجرّ زملاءه في الفوج القتلى طوال الليل ويكوّمهم؛ ثم يسحب ذخيرتهم وأحذيتهم وحتى ملابسهم الداخلية (الأحذية والملابس في الجيش تساوي وزنها ذهباً!)؛ وحده، يحفر حفرة ويلقي بالجثث العارية هناك، ينتابه القلق بشأن شيء واحد: الجو بارد، وسوف يتجمدون في الأرض. شمس الصباح تلوِّن الجثث المتيبسة باللونين الأصفر والوردي، في محاولة لبعث الروح فيهم... ها هو القمح الذي غُمِرَ بالنفط الأبيض يلتهب في مركز تخزين الحبوب: لا رطل ولا رطلين، بل أرطال كثيرة من الحبوب التي كانت ذهبية ذات مرة تحترق وتتحول إلى فحم في لحظة - وتختفي في اللهب وتندفع إلى السماء بأعمدة من الدخان الأسود... ها هي، الزوارق البخارية العسكرية تسحق مياه نهر الفولغا وتطحن الجنود العائمين فيه، وتمزج المخ والدم مع الأمواج، فيتحول الماء إلى اللون الأحمر القاني، والأمواج المتكسرة على الشاطئ إلى اللون الأرجواني...

وكذلك امتلأت كفة الميزان الثانية، ولكن ببطء وبشكل قليل. الابتسامات، الكلمات الرقيقة، جمال الغروب عند النهر - ولكن كيف يمكن لهذا أن يفوق حريق القمح أو هدير القوارب البخارية التي تفرم لحم البشر؟ لطالما كانت كفة اللطف والفرح أخف وزناً بما لا يقاس.

تباً للفرح، لا حاجة به. فالناس، بعد كل شيء، لم يُخلَقوا من أجل الفرح أو المتعة. ولكن كذلك لم يُخلَقوا من أجل الموت. الناس خُلِقوا من أجل الحياة فحسب. يولد الإنسان ليتعرّق من العمل، وليقرقش بالتفاحة، ليمشي حافي القدمين على العشب، وليتشاجر، وليتصالح، وليحب أحدهم وليساعد آخر، ليبني ويعمّر -هذا كل ما في الأمر. لا ليرقد عارياً في قبر جماعي بثقب في جمجمته. ولا ليُفرَم في النهر إلى مائة قطعة تحت شفرات مراوح زورق بخاري عسكري. ولد الإنسان- ليعيش.

لم يعرف دييف من أين جاء إليه هذا الإيمان العنيد. لكنَّ الإيمان كان أهم ما لديه. وبالرغم من أنه لم يفهم أشياء كثيرة، وأنه كان خائفاً من أشياء كثيرة، ولديه طبيعة هشة، وبرغم أنَّ الميزان المُتَخَيَّل كان يهتز ولم يتوازن قط، لكن هذا الإيمان لم يُنتزع منه. لقد عاش بفضل هذا الإيمان وبه نجا.

هو ذا السبب في حبه لوظيفته الحالية بشغف. بحسب الأوراق، أُدرِجَ في دائرة النقل، وعمل في إرساليات القطارات والبضائع؛ إنه في الواقع، كان يحارب الجوع. أول مرة يقاتل من دون أنْ يقتل أحداً. لم يكن على الإطلاق الزيت ولا الماشية ما قدمه دييف إلى المقاطعات الجائعة، بل قدّم لها الحياة. لم يرافق الإرساليات الطبية إلى المناطق النائية، بل رافق الحياة نفسها. والآن، وهو جالس في مقصورة الموظفين بالقطار الطبّي، ينقل دييف خمسمائة راكب ليس من إحدى المحطات على الطريق إلى محطة أخرى - بل ينقل الأطفال من الموت المحتمل إلى المكان الذي، ربما، تنتظرهم فيه الحياة.

***

لم يخبر دييف أحداً أنَّ المؤونة في القطار كانت لرحلة تستغرق ثلاثة أيام فقط. وفي حالة الاقتصاد بحصص الإعاشة -تكفي لأربعة أيام. وفي حالة الزهد- لخمسة أيام.

ولمن يقول؟ فلو عرفت بيلايا ذلك، لكانت قد وضعت كل المقعدين مُمَدَّدين على منصة محطة قازان من دون أن يرف لها جفن. والمساعد الطبي لو عرف لبقي في المحطة. لم يكن لدى دييف أيّ رفاق في الطريق - لديه خصوم فقط. كأنهم لا يعملون عملاً واحداً معاً، بل يتقاتلون بعضهم مع بعض.

وهكذا غادر قازان -كما لو كان يقفز إلى الهاوية. في رقبته- خمسمائة طفل: أربعمائة ولد -ومائة بنت؛ ومن بين هؤلاء، أكثر من عشرين رضيعاً والعدد نفسه من المُقعَدين؛ والمعاقون والمتورمة أجسادهم من داء الاستسقاء- عشرون آخرون. بالإضافة إلى الرضيع الذي لم يتجاوز عمره بضعة أيام (لم ينظر دييف في ثنايا القماط القرمزي - لهذا لا يعرف ما إذا كان الطفل ذكراً أم أنثى). إما أن يتمكن دييف من تدبير أمر إطعامهم، أو لا يتمكن. إما أن يهبط إلى قاع الهاوية، آمناً وسليماً، مع حمولة سليمة في رقبته، أو لا.

أن ينقل هذه الشحنة -أولاً إلى الغرب، عبر غابات الفولغا، إلى أرزاماس. ثم جنوباً وشرقاً إلى بحر آرال. ثم مرة أخرى إلى الجنوب: عبر صحاري قيزيل قوم وسهوب الجياع (ميرزاشول)، ثم إلى طشقند. ومن هناك إلى الغرب- من جانب سلسلة تلال شيمغان وزرافشان، حتى سمرقند.

أسبوعان. أربعة آلاف ميل.

كان لدى دييف كل شيء: القطار، وحجرة الوقود المليئة بالفحم، وحتى لديه مستوصفه الخاص. ولديه كذلك تفويض مختوم ومسدس في جيبه. ينقصه الطعام فقط.

إذا لم يحصل دييف على الطعام -فسيموت الأطفال. يمكن لهم أن يتحمّلوا الجوع لبضعة أيام، لكن حتى الشباب الأصحاء لا يمكنهم البقاء على قيد الحياة لمدة أسبوعين بدون طعام، ناهيك عن المرضى والسُّقام المُقعَدين. وإذا ما حدثت عقبة في الطريق- أو عطل في القاطرة أو حادث آخر؟ سيتحول الأسبوعان بسهولة إلى ثلاثة أسابيع...

لكن في النتيجة سيتحمّل دييف نفسه المسؤولية في كل مكان، وعن كل شيء. ويكون هو المذنب في أنه أخذ المعوَّقين طريحي الفراش بدلاً من الأطفال الأصحاء. وفي كونه انطلق في الطريق من دون مؤونة كافية من المواد الغذائية. وحتى في حقيقة أنه أخذ معه الطفل ذا القماط الأحمر. هل كان من الضروري حقاً ترك سينيا التشوفاشي والنحلة وذا الأنف الطويل والولد المكواة ليموتوا على شرفة الأوركسترا؟ أم يؤجل مغادرة القطار بانتظار وصول الطعام -ليوم أو اثنين أو أسبوع أو شهر؟ أو أنْ يرمي الرضيع من درج العربة إلى الأرض... لكن- لمن يمكنه أنْ يشرح ذلك؟ أمام مَن يبرر؟ لن يشرح لأحد، ولن يبرر لأحد.

لابد لأحد ما أن يأخذ الأطفال من المدينة الجائعة. وأنْ يتولى رحلتهم -وأنْ يحمل على عاتقه مسؤولية هؤلاء الخمسمائة من نفوس الأطفال ويتحمل المسؤولية عنهم- طوال الرحلة. وهكذا فعل دييف وأخذ المسؤولية على عاتقه. والآن فقط، وهو جالس في مقصورة الموظفين في القطار الطبي، أدرك مدى خوفه -لدرجة أنه بدأ يعاني من آلام في عظام

وجنتيه. والآن ليس لديه خيار آخر. يجب أن يطعم هؤلاء الأطفال- يتلوى مثل الأفعى، ويتقلَّب في الوحل، ويطعمهم.

***

ليست مقصورة، بل مَخدَع في بيت دعارة! على الجدران -زهور. وزهور على تنجيد الأريكة كذلك. وعلى السقف أورقَت روضة كاملة. الشمعدانات محزّزة من الجدران. وطاولة الكتابة مطلية بالورنيش. الستائر من المخمل، بشراريب سميكة من الحرير. وعند الطاولة- كرسي صغير من دون مَسنَدِ ظهرٍ بوسادة منتفخة يقف على أرجل منحوتة كأرجل الأسد مع تنجيد زهري، وبالطبع، مثبتة على الأرضية بقوة - لا يمكن خلعها.

قبْل المغادرة، لم يكن هناك وقت لدراسة الموقف: وضع دييف وبيلايا حاجياتهما -هو في مقصورة، وهي في المقصورة التالية- وهرعا يباشران أعمالهما. الآن نظر إلى كل بتلات البراعم هذه وكاد يختنق من وفرتها وتجعدها. فتح المصراع المخبأ تحت الطاولة -تلألأ شيء مشرق وأنيق في الكوة. هل هذه مزهرية؟ إنها وعاء للتبول الليلي. لا توجد رسوم زهور عليه- بل رسوم طيور الجنة. أغلق دييف الباب بانزعاج، لكن لم يكن ثمة ما يمكن فعله: ها هو المنزل على بعد نصف شهر.

بقيت مقصورتان للموظفين -واحدة لمسؤول القطار والثانية للمفوض- بمنأى عن عمل النجارين أثناء التصليح. ذات مرة، كانت هذه المقصورتان شقَّتَين عائليتَين: كان لكل غرفة مدخل إلى الممر، لكنهما كانتا متصلتين بعضهما ببعض بواسطة باب خشبيّ مُنزلق (سلايد). توهَّجت خدود دييف من التفكير في الغرض السابق من هذا الباب. ربما لن يستخدمه، وسيذهب إلى بيلايا عبر الممر، مثل أي شخص آخر، إذا ما أراد أن يفعل ذلك. والأفضل أنْ يدعها تأتي إليه، هي، بنفسها: فدييف، على كل حال، رئيس القطار. وليدعها تطرق قبل أنْ تدخل -بهدوء واحترام- كما ينبغي أن يكون الحال عند الدخول إلى مكتب الرئيس...

قفز عدة مرات على المقعد النابض، للتحقق من مرونة الأريكة.

مسح بكفه النافذة الملبدة بالضباب: سُحُبُ القاطرة تطفو خلف الزجاج، وأومضَت من خلالها خضرة أشجار الصنوبر الداكنة من المطر. مسح بيده على النسيج الزلق لورق الحائط. ولم يلاحظ كيف انتهى به المطاف عند الباب المنزلق.

خلف مصراع الباب – صمت. في مكان ما في الممر، من خلال قعقعة العجلات وصليل المعدن، يُسمع صراخ طفل رضيع (فور المغادرة، أعطى دييف الطفل الرضيع لفاطمة لتهزّه وتهدئه). ويُسمَع صوت صرير العربة، وصوت القاطرة البخارية بعيداً في الأمام. ولكن صوت المفوَّضة لا يُسمع. إنها تفكر في كيفية التخلص من القائد الرقيق القلب؟ تقدِّم شكوى ضده؟

نقر على الباب! انطوى مصراع الباب بشكل حاد وانزلق جانباً، بعد أن كاد يضرب دييف على أذنه الملصقة بالباب. وظهرت بيلايا في المدخل. وقالت:

– هيا، نتّفق، يا دييف، كيف يمكننا الاستمرار في العيش. سوف نعيش معاً. المسافة ليست قصيرة، سوف نقضي أسبوعين في الطريق. من دون اتفاق، لا يمكن.

شعر بالحرج، وتراجع، فدخلت المفوَّضة من دون تردد، كما لو كانت تدخل إلى منزلها.

– أنت إنسان طيب القلب، بل وحتى رقيق. –أخذت بحزم وسط الأريكة، وانحنت إلى الوراء ووضعت ساقاً على ساق.– لا يمكنك التعامل مع الأطفال.

لأنّ دييف لم يرغب في الجلوس على ركن الأريكة أو أنْ يقف أمام المفوَّضة، مثل التلميذ المذنب أمام المعلم، ظلّ يراوح قليلاً في مكانه، ثم جلس على المقعد الذي بجانب طاولة النافذة. كان المقعد منخفضاً، وكانت النوابض الموجودة أسفل التنجيد تهتز اهتزازاً شديداً – وتكاد تنخلع: كان عليه أن يفرد رجليه بشكل أوسع، وأن يضع يديه على ركبتيه، ثم يجلس القرفصاء أمام بيلايا الجالسة في وضعية الاسترخاء.

جعلت بيلايا تنظر إلى السقف والجدران المليئة بالنباتات – من دون فضول، ولكن بدهشة غير مبالية، كأنها لاحظت مثل هذا الذوق السيئ

لأول مرة. نقرت بإصبعها على شراريب الستارة المتمايلة بانتظام، وحرَّكَت حاجبيها السميكين والطويلين بازدراء قليلاً. هل الأمر مختلف حقاً في مقصورتها؟

تململ دييف بعصبية على المقعد، محاولاً أنْ يجلس جلسة مريحة. وقال:

– وفي المقابل، أنتِ لدينا امرأة حديدية.

– ولهذا السبب آخذ الأطفال على عاتقي. المشاجرات، المشاكل، الشكاوى، المزاح –اترك كل هذا العناء لي. لا تتدخل فيه. الباقي لك: قُدنا، أطعمنا، عالجنا...– بقيت بيلايا تنظر بتمعن في داخل المقصورة، ثم فتحت من دون تكلّف الباب تحت الطاولة –فأومضت طيور الجنة ساطعة على جانب الإناء الخزفي الأبيض.–... وأنتَ مَن يأمر، في نهاية المطاف! اتفقنا؟

آخ، لم يخطر ببال دييف أنْ يحمل وعاء التبول الليلي على الفور إلى الأطفال!

تكيَّفَ دييف بطريقة ما مع حركة المقعد النابضة، وعدَّلَ استقامة ظهره وحاول أنْ يعيد إلى وجهه مظهره المعبّر، وقال:

– اعتقدتُ أنك تعرفين كيف تلوّحين بالسيف، ولا شيء غير ذلك. ولكن ها أنتِ ذي تكشفين عن الجانب الدبلوماسي.. لماذا تغيرتِ في تعاملكِ معي؟

فأجابت ببساطة ومن دون توانٍ:

– أنت إنسان مخلص ومتحمس.

صدرَ هذا الاعتراف من شفَتَي المفوَّضة بشكل غير متوقع لدرجة أنَّ دييف كاد يفقد توازنه مرة أخرى.

– وهذا خير من منافق أو لص. علاوة على ذلك، أنتَ لست أكبر أحمق رأيته في حياتي. لقد رأيتُ من الحمقى – ما فيه الكفاية.

تجمدت شفَتا دييف، اللتان بدأتا تتكوّران لتشكلا ابتسامة إحراجٍ، ولكن لم تخرج ابتسامة، بل حركة وجهٍ مشوَّهة.

– مثلاً، فكرتك بشأن الأحذية، فكرة رائعة...

ما هذا الثناء غير المتوقَّع؟ وأراد أن يذكر رداً على كلام بيلايا كيف أجلست الأطفال بمهارة في العربات في الصباح، لكن لم يسعفه الوقت.

لخَّصت المفوَّضة:

-... باختصار، عقلك صغير، لكنه حَصِيف. أنت تناسبني. دعنا نعتاد على ذلك.

هذه خلاصة الحديث! لم تتضح طبيعة كلامها، إن كان مديحاً أم توبيخاً. تماماً مثل وضعية جلوس دييف غير المستقرة على كرسيه الغبي.

هز رأسه:

- لم أفهم شيئاً، هل تمدحينني أم تذمينني؟

- هل أنتَ بحاجة ماسة إلى الثناء؟

لم يستطع دييف مواصلة الجلوس غير المريح وقفز من المقعد، وقال:

- أريدكِ أن تعامليني معاملة إنسان! ليس كلمات ما يخرج من فمك – بل سم قاتل. أنا رئيس القطار. لذا تحدثي معي بصفتي رئيسك.

قفز ببلاهة، وانتصب مثل غُلام حَدَثٍ. لكن لم تكن لديه القوة للجلوس على المقعد مرة أخرى. وهكذا ظل واقفاً أمام بيلايا الجالسة: ووضع يده على المنضدة من أجل الوقار، وأدار كتفيه بشدة أكثر. وقال:

- الاتفاق الذي أبرمناه معاً سيكون بشكل آخر. أنتِ تتعاملين جيداً مع الأطفال، أعترفُ بذلك. استمرّي بذلك، وأمريهم كما تشائين –ولكن أمام عينَي فقط. سنفعل كل شيء سنفعله معاً: نوزع العصيدة ونفصل المشاجرات. أين ما تذهبين– أذهب أنا أيضاً! كلانا معاً! هكذا! –وضربَ براحة يده على الطاولة– كأنه يختم على ورقة، لزيادة التشديد.

كانت المقصورة ضيّقة، فوقف دييف مخيّماً على بيلايا، يكاد يلمس ساقيها المتقاطعتين بركبتيه. تمايلت العربة أثناء السير، فتمايل جسد دييف معها، وجعل يقترب قليلاً من المرأة على الأريكة، ثم يبتعد عنها. ومع ذلك، فإن وضعية المحادثة هذه لم تزعجها – وصارت تنظر إليه، وإن كان من الأسفل، ولكن بنفس الغطرسة، وقالت بهدوء وبرودة:

- أتريد أنْ تضع الجميع في قبضة يدك؟ وأنْ تعرف كل شيء –عن كل

طفل وعن كل ممرضة وعن آخر قملة في القطار؟ لن يكون لدينا الوقت الكافي لذلك.- (ثم فكرت ببساطة، وفرزت الخيارات من دون أنْ تحسب أنَّه من الضروري إخفاء تدفق الأفكار عن المُحاوِر). -أم تريد أن تقتنص خطأً مني لتقدّم شكوى ضدي- حتى تطردني من الرحلة؟ ليس لديك العقل الذي يسعك لتفعل هذا... أم تريد أن تتحبَّب إليَّ، يا دييف، وتغازلني؟ وهذا ما لا تسعه شخصيتك.

حاول دييف أن يظل هادئاً، لكنه شعر أنَّ وجهه يتغير غيلةً مع كل عبارة جديدة. ولم يكن بمقدوره أنْ يلوي كشحَه فيكشف عن ضعفه - ولهذا بقي واقفاً أمام المرأة، لخلق انطباع بالتماسك، مثل ممثلة على المسرح.

لم تخمن المفوَّضة. لم يرغب دييف في إقامة علاقة غرامية، ولا في الانتقام، ولا في إظهار سلطته القيادية على الجميع، بل أراد أن يتعلم: كيف يتحدث مع الأشخاص الوقحين، مثل بيلايا، وكيف يروّضهم ويسيطر عليهم، وكيف يفتّشهم ويمزح معهم - أراد أن يتعلم كل شيء. وبسرعة. لأنه لا محالة سيُكشَف عن سره: ستعرف بيلايا أنَّ القطار انطلق في الطريق مع إمدادات من المؤن تكفي لمدة ثلاثة أيام بائسة. وعندئذ سيبدأ الصراع الحقيقي: إما أن تقفز المفوَّضة نفسها عن الطريق، أو أن تتخلّص من دييف. مهما كان الأمر، فلن يبقيا مدة طويلة في قطار واحد.

نهضت بيلايا دفعة واحدة، وكادت ترتطم بصدرها على صدر مُحاوِرها المنكمش، ومدت يدها لمصافحته وقالت:

- أنا موافقة. سوف نفعل كل شيء معاً. أنت تقود شؤون القطار، وأنا أقود الأطفال.

وضع يده في يد المفوَّضة الساخنة. كانت قبضة بيلايا قوية وذكورية. ولكن جلدها ناعم مثل جلد الطفل.

وضغطت، هي، على يده أكثر فأكثر، كما لو أنها أرادت أن تفلطح أصابع دييف أو أنْ تقطعها، وقالت:

- هاكَ، هو ذا، أمري الأول: لا نُركِب أي شخص آخر في القطار: لا رُضَّع ولا مُقعَدين ولا ما شابههم. الركوب مغلق - حتى نصل إلى سمرقند.

نظر دييف في عينيها، من دون أن يرمش ومن دون أنْ يكشف بأيٍّ شكل من الأشكال عن ألمه. وحتى لم ينفض أصابعه التي ابيضَّت عندما تركت المفوَّضة يده أخيراً. ثم ابتسم ابتسامة عريضة، وقال:

– الفتى ذو الأذن الواحدة كان مُحقاً عندما دعاك في الصباح رجلاً.

فضحكت وردَّت عليه:

– لذا، لا يمكننا في القطار أنْ نكون بلا رجال...

وبعد توقف، أضافت بودٍّ تقريباً:

–... أيها الرفيق الرئيس.

***

انطلقا في طواف التفقّد الأول على الفور – من دون أنْ ينتظرا أنْ يكتمل طهي العصيدة التي ستأخذ كل انتباه الأطفال.

سارت بيلايا في الأمام، وبالكاد تمكن دييف من أنْ يقتفي أثرها؛ دخلا إلى العربة بسرعة، من دون أن ينطقا بكلمة واحدة للممرّضات المضطربات، وشقا طريقهما من خلال صرخات الأطفال وصخبهم إلى المنتصف – توقفا هناك، في الممر، حتى يمكن رؤيتهما من جميع الجوانب. وانتظرا، بعد دقيقة، هدأ الصخب، فالتفتت وجوه مئات الأطفال إلى هذين الداخلين: تجمَّع الصغار أمام المسؤولَين واحتشدوا بجانبهما، وجلس الأولاد الأكبر سناً على مقاعد قريبة أو معلقين من الطبقة الثالثة من الأَسِرَّة، من تحت السقف مباشرة.

كيف حدث ذلك، لم يستطع دييف أن يفهم، لكن بحضورها وحده –بحدة حركاتها، وبقامتها الطويلة، وبصرامة ملامحها– جذبت بيلايا عيون الأطفال. أما مَن أظهر الازدراء وأشاح بوجهه عن قصد إلى النافذة، غير راغب في النظر إلى المفوَّضة التي دخلت، فلم يكن في منأى من صوتها: تحدثت بصوت عالٍ وواضح، وغطَّت على قعقعة العجلات، كما لو كانت تدق العبارات دقاً في رؤوس الأطفال.

دوّى صوت بيلايا في العربة:

- أنتم مسافرون على متن القطار الطبي التابع للجمهورية السوفيتية. تذهبون إلى تركستان، بلد الدفء والقمح. ليس لأنكم طيبون وتستحقون ذلك، بل لأن الحكومة السوفيتية تعتني بجميع أطفالها، حتى بأولئك الميئوس منهم والضائعين، في أشد حالاتهم.

نوَّرَت وجوه الركاب في عتمة المكان غير المضاء، كما لو أنَّ القمصان البيضاء أنارتها، وحدَّقَت العيون بقلق في الرجل والمرأة المتفقِّدَين، وتغضَّنَت جباههم بالتجاعيد.

- سيبقى في هذا القطار أولئك الذين يتبعون القواعد فقط. هذه القواعد، خمس لا غير. سأذكرها الآن للمرة الوحيدة. فاستمع وتذكر. لن أكررها. وسأطرد من القطار مَن ينتهكها. وسوف أكون قاسية.

أثناء التوقفات في خطاب المفوَّضة، كان يمكن سماع هدير القطار فقط -نعم، نعم! نعم، نعم! نعم، نعم! نعم، نعم!...- كأنه ردّ إيجابي بالموافقة على كلامها.

هنا عادة ما كانت بيلايا تتوقف قليلاً، فيُخَيَّل لدييف أن المستمعين في تلك اللحظة توقفوا حتى عن التنفس خوفاً من أن تفوتهم وإنْ كلمة واحدة.

- القاعدة الأولى: قاعدة البيت. القطار - بيتكم. فالناس لا يسرقون في البيت، ولا يتغوَّطون تحت المقعد، ولا يكسرون النوافذ ولا يلطخون السقف بالفحم. لا يكسرون الأثاث ولا يحطمون الجدران ولا يحرقون الأبواب. في البيت يحافظون على النظافة والراحة، ويجمّلون المكان ويوفرون الدفء. هل هذا واضح؟

قاعدة جيدة، وافق دييف عليها بينه وبين نفسه. مقاعد العربة قوية وتتحمّل، حتى لو نقلت عليها رجالاً ثقال الوزن (وإن لم يكن لديك الوقت لوضع القش من أجل النعومة، فلا يهم، النوم أحلى على سرير صلب). المراحيض -فسيحة ومسيجة بجدار وبها فتحة كبيرة في الأرضية: لن تخفق في أداء المهمة. النوافذ- مغلقة إغلاقاً مُحكَماً. وحتى معجزة الفكر الهندسي -بطاريات التدفئة- تتوهج على طول الجدران، ولن تدع العربة تبرد. فكيف يكون البيت؟

- القاعدة الثانية: قاعدة الأخ. جميع المسافرين معك في القطار أثناء الرحلة هم إخوتك. إخوة من الدرجة الأولى! لا ينبغي الإساءة للإخوة أو إلحاق الضرر بهم -فلا يُرمى الزجاج في أَسِرَّتهم، ولا توضَع الإبر في أحذيتهم، ولا تُشعَل النار في فراشهم أثناء النوم. لا ينبغي التنمر على الإخوة- فهم لا يُجبَرون على شرب الأوساخ أو البول، ولعق أقدام الآخرين. ولا تُقال لهم كلمات نابية. نعم، الناس يتجادلون ويتعاركون مع الإخوة، لكن ليس لدرجة إراقة الدماء. نعم، يلعبون الورق مع إخوانهم، لكن ليس من أجل الاستيلاء على طعامهم. لا يستقرض الإخوة المال والخبز. إنهم يساعدون الإخوة في كل شيء. الإخوة يُعتنى بهم وتُقَدَّم لهم المساعدة. الناس يحبون إخوتهم كما يحبون أنفسهم. هل هذا واضح؟

لم يردّ أحد وحتى لم يومئ أحد برأسه، ولكن يمكن للمرء أنْ يقرأ في النظرات المركزة والوجوه التي تجمّدت من التوتر: نعم، الأمر واضح، وكيف لا يكون كذلك.

وخُيِّل الأمر لديف: في الملابس الداخلية المتشابهة -التي وصلت لدى البعض إلى الركبتين، ولدى البعض الآخر إلى أصابع القدم تقريباً- بدا الأولاد حقاً أشقاء من أعمار مختلفة. كانت القمصان الواسعة تخفي أجسادهم الصبيانية، وانحناء سيقانهم، ونحافة أجسادهم أو تورمها المَرَضي، وتخفي الكدمات والندوب، وعلامات المرض. وكانت أعناق الجميع البارزة من الياقات - نحيفة. والرؤوس الجالسة على هذه الرقاب كلها حليقة.

- القاعدة الثالثة هي الأقصر. قاعدة الممرضات: من أساء إلى ممرضة -ولو بإشارة من خنصره، ولو بكلمة- سوف يُطرَد على الفور.

تحولت عيون الأطفال إلى الممرضات الاجتماعيات، اللائي كن يستمعن، مثل الأطفال، بذهول إلى المفوَّضة. شَعَرن بالحرج من انتباه الجميع، واتخذن هيئة الشّدة والصرامة وارتجفت ذقونهنّ. لم تستجل بيلايا في متابعة حديثها - بل انتظرت حتى يتطلّع الأطفال إلى النساء ويفكروا ملياً في كل ما قيل.

خُصِّصَت اثنتان من الممرضات الاجتماعيات في كلّ عربة للاعتناء بالأطفال، أما في عربة الموظفين فكانت فاطمة وحدها المسؤولة عن ذلك. اختِيرَت الثنائيات على نحو مضحك: أمينة المكتبة والفلاحة، الخيّاطة وزوجة الكاهن. لم يكن توزيعهنّ توزيعاً عشوائياً، بل توزيع مدروس بحكمة: بحيث يكون لدى الشريكتَين لغتين على الأقل - اللغة الروسية مع اللغة التترية، واللغة الروسية مع اللغة الباشكيرية، واللغة التشوفاشية. راح دييف يحدّق إلى الممرضات وتجهَّم من الشكوك: يجب أن تكون الشريكتان قادرتين على التفاهم فيما بينهنّ، ناهيك عن التفاهم مع الأطفال...

- القاعدة التالية: قاعدة رئيس القطار...

اليوم سمع دييف هذه العبارة خمس مرات -في جميع عربات الركوب- وفي كل مرة في تلك اللحظة بالذات يجفّ حلقه تماماً: اخترقته مائة من نظرات الأطفال في وقت واحد -مصحوبة بقلق وبسؤال صامت. لحسن الحظ، لم تكن هناك حاجة للتحدث: اليوم هناك شخص واحد فقط يبث- إنها بيلايا وحدها.

-... والقاعدة هي: جميع أوامر الكبار يجب أنْ تُنَفَّذ -فوراً ومن دون ثرثرة. إنْ قال لك المساعد الطبي اشرب خلطة الدواء- افتح مناقيرك وابتلع الدواء. إن قالت الممرضة الاجتماعية اغسل المرحاض -أمسك بقطعة قماش واركض لتنظيف حفرة الخراء. إنْ طلب منك دييف أن تمشي على أربع وتنبح مثل الكلب- انهض على ركبتيك وابدأ في النباح. في تلك اللحظة بالذات! هكذا فقط.

امتلأت عيون الأطفال التي كانت تحدّق إلى دييف باللوم، كأن الأمر السخيف قد صدر بالفعل. وصار دييف نفسه يقف مثل الصنم، متجهماً مكفهرّ الوجه، بالكاد يقدر على انتظار سماع النقطة التالية.

سكتت المفوَّضة مدة أطول وحولت نظرتها الثاقبة من وجه إلى آخر بحثاً عن أكثر العيون وقاحة ومن أجل رفع التوتر المتزايد إلى أعلى درجة، وقالت:

- والآن القاعدة الرئيسة الأخيرة. قاعدة المفوَّضة بيلايا: كلما قل عدد المتواجدين في القطار، كان ذلك أسهل. لدينا القليل من الغذاء، والقليل

من الفحم، وتقريباً لا أدوية ولا ملابس. لهذا السبب لا أتمسك بإبقاء أيّ شخص هنا. علاوة على ذلك، أنا أريد حقاً أنْ تنتهكوا القواعد، وأنتظر ذلك. أنتظره بفارغ الصبر.

وبعد أنْ عثرَت على العيون الأكثر وقاحة، حدقت بها ولم ترفع بصرها عن تلك العيون. وواصلت كلامها:

- إنْ خرقتم قاعدة، ولو واحدة، سأُنزلكم من القطار على الفور. لن أضعكم في مركز لاستقبال المشردين في الطريق ولن أسلمكم إلى لجنة رعاية الأطفال، بل سأطردكم من القطار في أول محطة - عراةً، ومن دون طعام. والقمصان التي وزِّعَت في بداية الرحلة ستبقى في القطار. لن تضيع حصتكم من الطعام، وسيحصل الباقون على حصص أكثر.

جالت المفوَّضة ببصرها مرة أخرى حول الجميع، كأنها تجمع النظرات معاً، ثم قطعت حديثها. وقالت:

- هذا كل شيء.

ومضت من دون تردد إلى العربة التالية. تبعتها الأسئلة، ولكنها كانت أسئلة قليلة - عاد الركاب المذهولون إلى رشدهم. أدارت رأسها قليلاً، وأجابت وهي تمشي:

- كلا، لا يوجد حمام في القطار. سوف نسبح في البحر، في بحر الآرال، عندما نصل إلى هناك...

- نعم، لدينا الكثير من الماء، يمكنك أن تشرب من الزجاجة...

- كلا، الطباخ لا يحتاج إلى مساعدة. إنْ عثرتُ على أحد منكم في حجرة المطبخ، فسأتركه من دون طعام...

أثناء ما كانا يتفقدان عربات الركاب، نضج الغداء - فاندفع ميميليا في القطار حاملاً دلاء العصيدة التي يتصاعد منها البخار. كان لكل عربة دلوان كاملان وعدة حُزَم من أقداح القصدير تُخَشخش بدلاً من الأطباق.

كان هذا في وقته المناسب: فكَّر دييف بارتياح أنه يمكنهما القيام بالجولة التفقدية إلى عربة المستوصف لاحقاً، حتى لا يعيق الركاب عن تناول

الطعام. فقد كان يرغب في تأجيل اللقاء القادم مع بوغ والحديث الصعب الذي لا مفر منه - فكلما جرى ذلك أبعد عن قازان، كان أفضل.

مشهد الدُّخن ورائحته الشهية للغاية (تمكن الطباخ من تحضيره بشكل صحيح!) جعلا الأطفال في حالة من الهياج المرح: فقد كانوا يصرخون ويقفزون حول المقاعد ويصفعون بعضهم بعضاً -ولكن سرعان ما اصطفوا، من دون أيّ تعليمات، في الطابور واقتربوا بشدة من مكان التوزيع، بهيئة وقورة، واحداً تلو الآخر. أخذوا الطعام من أيدي الممرضات الاجتماعيات باحترام: فقد لفّوا أطراف القمصان المطوية عدة مرات حول الأقداح الساخنة بشدة، واحتضنوها بأيديهم، وضغطوا بها على بطونهم، ثم توزَّعوا على المقاعد. جلسوا هناك جلسة التربيع وطووا أرجلهم الحافية إلى النصف تقريباً- كما لو كانوا يلفون أجسادهم بالكامل حول القدح: في البداية تدفّأوا بالقدح، فاكتووا به وهم يبتسمون، ثم -رشفة بعد رشفة- مصّوا الطعام في أفواههم.

كُلُوا، فكَّرَ دييف، كلوا إلى حد الشبع. لن يكون هناك المزيد من العصيدة. ستكون هناك أنواع أخرى من هريس أوراق الجزر والبنجر مخلوطة بقشور الحبوب، أما مثل هذه العصيدة الهشّة بالحبوب، فتُعدّ من الإسراف - ولن تكون موجودة...

لم يكن لديه الوقت للاستمتاع بالنظر إلى هذه الصورة - فقد أسرَعَت الممرضة من عربة البنات، وهي تلهث، وعيناها مفتوحتان كل الفتح من الارتباك، وصاحت:

- أيها الرفاق، لدينا أعمال شغب!

***

انطلق دييف وبيلايا بأقصى قوة إلى العربة التي نشب فيها التمرد -كان الوضع هادئاً في العربة، كما لو لم يكن أحد فيها. العجلات تقعقع، ووصلات العربات تصرّ أثناء الحركة، ولكن ليس ثمة تنهد، ولا كلمة تُنطَق. بدا الأمر كما لو أنه لم تجلس على المقاعد- في ثلاث طبقات، من الأرضية

إلى السقف - مائة صبية يرتدين الملابس الداخلية للجنود على أجسادهن العارية. كُنَّ مُنزويات في الأركان، مُنكمشات على شكل أكوام، ويمسكن ركبهنّ بأيديهنَّ العظمية. يحدقنَ في البالغين من تحت حواجبهنَّ الصغيرة المقطّبة وهنَّ صامتات. وبجانب كل واحدة منهنّ قدح مليء بعصيدة الدخن السميكة التي يتصاعد منها بخار خفيف، والتي لم تُمَس.

رفضت الفتيات كلهن تناول الطعام.

- أيها الرفيقات الصغيرات، ماذا تعنين بهذا؟

رددن عليها بالصمت.

- هل أنتنَّ خائفات من شيء ما؟ شخص ما أساء لكنّ؟

سارت بيلايا من خلال الحُجَيرات، ونظرت إلى الرفوف العلوية وانحنت نحو الرفوف السفلية حتى تتمكن من اقتناص نظرات الأطفال، لكنها لم تستطع إلى ذلك سبيلاً: فقد تغضَّنت وجوه الصبايا من الخوف، وأُغمِضَت عيونهنّ أو نُكِّسَت في الركبتين، لا يُرِدنَ النظر إلى المفوَّضة.

- هل هذا دلال أم إضراب عقائدي؟ هل أنتنَّ غاضبات أم لديكنَّ احتجاج على شيء ما؟ إذا كان هذا احتجاجاً، فعلى أيّ شيء؟

سارت في العربة من طرف إلى آخر من دون أن تلتقي عيناها مع عيون أيّ واحدة من الصبايا. الممرضتان فقط -الضخمتان والقويتان كلتاهما، مثل عملاقين بين الأطفال- تحدقان في المفوَّضة من دون انقطاع وكلهما أمل.

- مَن المحرض؟

هزت الممرضتان أكتافهن: بمعنى لا يوجد محرّض.

- لا بأس، مَن الأكثر جرأة ونشاطاً هنا؟

فهزَّتا أكتافهما مرة أخرى: لم نُدرِك بعد.

تفحص دييف المُضْرِبات ولم يرَ بينهن جريئات ولا نشيطات أو حتى مرحات بأدنى درجات المرح: كانت الفتيات جميعهنّ مُغْتَمات مَهْزُولات، واحدة أكثر شحوباً من الأخرى. الكثير منهنَّ شعرهنَّ حليق لحد الصلع لتفادي مرض التيفوس. وإحداهنّ جلدها التهمه الجدري، كأنما رُمِيَت

بالخُردُق. والأخرى لديها دوائر تحت العينين زرقاء أرجوانية. والثالثة، بدت عليها ابتسامة. أمعن النظر عن كثب – فرأى شفتها مشقوقة.

جلس على مقعد –بجوار تلك البنت التي بدت عيناها محاطتين بالحبر– فابتعدت عنه الصغيرة، وضغطت نفسها على الجدار؛ وفي الوقت نفسه، ركلت بشكل محرج بقدمها – فتزعزع قدحها. وسقطت حفنتان من الدخن الأصفر اللامع على المقعد مثل حفنتين من الذهب. وفاحت رائحة حادة من الحرارة والمذاق، إلى درجة سال معها لعاب دييف. لم تتحرك الصبية: جعلت تحدّج في كومَتَي الحبوب المتناثرة، فانتفخت دمعة ضخمة في كل واحدة من عينيها الكبيرتَين.

لم تكن عيناها متمردتَين على الإطلاق – بل بائستين وجائعتين.

سألها دييف بصوت منخفض حتى لا يثير فزعها:

– ما اسمكِ؟

لم ترد عليه وحتى لم ترفع حاجبها كأنها لم تسمع.

نيابة عن الصبية ردَّت الممرضة التي كانت قريبة:

– الوقواق. إما اسم أو لقب مِعزى، لا أحد يعرف. وفي وثائقها ليس هناك لقب عائلة على الإطلاق... أما على مثل هذه الحفنة من حبوب الدخن، –أشارت إلى العصيدة المتناثرة،– فكان الناس يُقتَلون في قريتنا قبل عام.

أمرت بيلايا بصوت عالٍ:

– لا تلمسنَ الطعام الموزع. حافظنَ عليه حتى عودتنا. إذا جاء أحد الأولاد من العربة المجاورة – اطردنَه شرَّ طرد.

وأومأت برأسها بصرامة إلى إحدى الفتيات: اتبعيني! أومأت أيضاً برأسها إلى دييف وإلى الوقواق: أنتما أيضاً، اتبعاني! وتوجهت إلى عربة الموظفين. خمَّنَ دييف، أنها تريد أنْ تتكلم على انفراد – لاستجواب المتمردات واحدة تلو الأخرى.

اعتقدت الوقواق، أنهم اقتادوها إلى المدير، فانكمشت تماماً من الذعر، وجعَّدت وجهها. لكنها لم تقاوم: زحفت بصمتٍ من مخبأها –واجتازت

العصيدة المبعثرة على المقعد بشكل مرتَّب، من دون أن تمس حبّة واحدة- وسارت خلف المفوَّضة. وتبعهما دييف.

كانت ممرات العربات ذات يوم مفروشة بالسجاد، الذي لم يبق منه الآن سوى قِطَع ممزقة. استولى على دييف إحساس بعدم لمس هذه البقايا: أثناء تجهيز القطار، أمر بأن تُثَبَّت كل واحدة منها بعناية بالمسامير -والآن يقفز الأطفال حفاة الأقدام على جُزر السجاد هذه حتى لا تتجمّد أقدامهم على الأرضية الباردة. لم تقفز الوقواق، بل خبطت بقدميها بلا مبالاة على الأرضية الخشبية، وهي منحنية ودافنة ذقنها في صدرها. وكان القميص الفضفاض يجر على الأرضية. برزت عظام عمودها الفقري مثل النتوءات- تكاد تثقب جلدها. كان رأسها الحليق الذي يشبه القنفذ الأسود ذا الإبر الشعثاء كبيراً بشكل مفرط جداً مقارنة بعنقها النحيف، الذي بدا على وشك الانفصال.

همست بيلايا في أذن دييف:

- تحدث معها حديثاً ودياً من القلب إلى القلب. بصفاء نية، وفق الطريقة التي تجيدها.

ارتبك دييف، وسألها:

- أنا؟

لم ترد بيلايا، بل تـوارت في ذلك الوقت في مقصورتها - مع الصبية الأخرى.

بقيت الوقواق في الممر. صغيرة، بالكاد وصل طولها إلى ارتفاع مقبض الباب، لكن بسبب جدية ملامح وجهها، كان دييف سيقدر عمرها بثماني أو تسع سنوات. بالإضافة إلى ذلك، كانت منحنية بشدة: لو استقامت بظهرها - ستصبح على الفور أطول بنصف رأس.

فتح الباب، ودعاها للدخول - فخطت إلى داخل المقصورة. جلست على حافة الأريكة، مثل طائر صغير على قصبة، ووضعت يديها على ركبتيها، ونكَّسَت رأسها على صدرها وتجمدت. لا يمكن رؤية وجهها، بل يافوخ رأسها فقط بشعره المنفوش، ويديها الصغيرتين، البنيتين من الوساخة، بأظافرهما السوداء القصيرة. على إحدى اليدين وشم: حمامة.

ومرة أخرى وقف دييف في مسكنه المؤقت، من دون أن يعرف أين يجلس. لم يجلس على الأريكة، حتى لا يخيف الضيفة، ولم يرِد الجلوس على المقعد أيضاً - فظل واقفاً، متكئاً على حافة الطاولة وعقد ذراعيه فوق صدره.

لم يفهم عمَّ يتحدث مع الصبية الصامتة بعناد. فهي بحاجة الآن إلى أنْ تتدثَّر بملابس أكثر دفئاً، وإنْ تُطعَم طعاماً أكثر دسومة وتُسقىَ مشروباً دافئاً، لا أنْ تُعَذَّب بالأسئلة.

- هل تستطيعين أنْ تتكلمي؟

اهتزّ يافوخها بشكل بالكاد يمكن ملاحظته: أستطيع.

- لا بأس، قولي شيئاً.

من خلال ضجيج العجلات، بالكاد يميز دييف صوتاً قصيراً - إما طرطَشَة ماء أو مواء قطّة.

انحنى أقرب إلى هامتها الشعثاء وسألها:

- ماذا؟ حسناً، مرة أخرى، بصوت أعلى!

كـرَّرَت الوقواق مطيعة - فاستطاع دييف أخيراً أنْ يميّز كلمتين: «لا تضربني».

ودَّ لو يشتم -ولكنه لم يستطع! وودَّ أن يصرخ- «ومَن ذا، الذي يجرؤ على ضربك، أيتها الحمقاء؟! إنَّكِ تُطعَمين إلى حدّ الشَّبع بالعصيدة المفتتة، التي يُقتَل الناس من أجلها في القرى!» - ولكن لم يستطع أن يقول ذلك أيضاً. تحمَّل، وظلَّ صامتاً. ثم قرر أن يبدأ بشكل مختلف.

سألها، وواصل على الفور من دون أنْ ينتظر الإجابة:

- منذ متى وأنتِ تتجولين؟ لستِ مضطرةً للكلام، أرى بنفسي -أنكِ تتجولين من مدة طويلة. أرى كل شيء. فكعبا رجلَيك خشنتان- هذه ليست السنة الأولى التي تسيرين فيها من دون حذاء. وأصابع قدميكِ معوجة - إما سَحَقَها حافر حصان، أو عجلة عربة. أرى أنكِ كنتِ مريضةً بالتيفوس. وأنكِ عاشرتِ حثالة المحطات. وأنَّكِ تدخنين الماريجوانا وتشربين الخمر.

وكذلك أرى أنكِ جائعة إلى حد الإغماء. فقد التهمتِ هذا الدخن المسلوق بعينيك، لذلك أردتِ أن تبلعيه. ولم تبتلعيه. لماذا؟

ظلت الصبية جالسة كأنها متحجرة. أو تمتمت بشيء ما بصوت منخفض جداً؟ فجعل يصغى إليها - ومرة أخرى عادت إلى موضوعها: «ولكن لا تضربني».

«ولكنني سأضربكِ!» -أراد على الفور أن يصيح. إذا استمررتِ تتصرفين بشقاوة وتلعبين لعبة الإضراب عن الطعام، فسوف أضربكِ بنفسي، بيديَّ هاتين! وأراد أن يهز راحتي يديه أمام يافوخها المتعرج- من أجل التهديد. وعلى الفور شعر بالخجل من تهوره - خجل جداً إلى درجة أنه رأى أنَّ الصواب أن يضرب نفسه. لم يكن غاضباً من الوقواق. إذاً، مِمَّ غضبه؟ مِن نفسه، لأنه لا يعرف كيف يتعامل مع الطفلة؟ فالتفتَ إلى النافذة وأمسكَ بحافة الطاولة. وقال لنفسه، اخرس. أنت محقق فاشل.

وارتجف رذاذ المطر على الزجاج، وسبحت الأشجار السوداء وتأرجحت خلف الزجاج. كان القطار يسير ببطء، لم تتجاوز سرعته أكثر من عشرة فراسخ في الساعة، فيمكن للمرء أن يرى كل فسحة وكل فجوة. غابات ضواحي قازان -الشفافة في الخريف، المخفَّفة بقليل من صُفرَة أشجار البتولا وخضرة أشجار الصنوبر- امتدت وامتدت إلى ما لا نهاية. وفوقها، تكاد تلامس قمم الأشجار، سحبٌ بيضاء ممتدة - إما نزلت من السماء، أو ارتفعت من فتحة قاطرة.

لم يصدر عن الوقواق أيَّ صوت، وبدا لدييف للحظة أنها اختفت -قطرت بصمت على الأرض وتسربت من خلال صدع في الباب. استدار للتحقق مما إذا كانت الضيفة في مكانها،- فصُعِقَ.

كانت الصبية مستلقية على الأريكة عارية. وجهها الساكن غير مبال ويحدق في السقف. صدرها الصغير الأجوف، بحجم صدر الدجاجة تقريباً، محزَّز بدرنات من الضلوع الضيقة، وحلمات كزرَّين داكنين. وذراعاها العظْمِيَّتان ممدودتان بطاعة على طول جسدها. وساقاها -وحتى ليستا ساقين، بل عظمان مكسوان بالجلد- ممدودتان إلى الجانبين، فأدى

هذا إلى فتح الطيات الصغيرة من لحم الأنثى قليلاً. والقميص الذي خلعته مرمي في زاوية الأريكة، عالق بعناية في الفجوة بين المقعد والجدار - حتى لا يسقط أثناء الفعل ويتسخ.

نظرت عيناها شزراً إلى دييف، وتطلَّعت فيه بوجل: هل فعلَت كل شيء بشكل صحيح؟

لم يفهم دييف في البداية، فسألها:

- ما هذا؟

لم يأتِه الفهم على الفور، بل تدحرج تدريجياً، في موجات ساخنة. فأحرق في البداية أحشاءه الباطنية، ثم الرقبة والقفا، وظل يحملق بذهول في جسد الطفلة الشاحب الذي استولت عليه قشعريرة كبيرة بسبب البرودة -حاول أنْ يستجمع فكره ليخمّن معنى هذه الصورة الغريبة. وما إنْ وصلت موجة الاحتراق إلى رأسه- أدرك فجأة، فاختنقت الموجة في الحال.

أراد أن يهدر بصوته، لكنه لم يستطع: خانه حلقه. أمسك بملابس الفتاة، وألقى بها مباشرة على بطنها الضامرة -ارتدي ملابسك بسرعة!- وقفز إلى الخارج.

لقد توهَّج وجهه بحيث لم يبقَ إلا أن يخرج رأسه إلى خارج القطار -تحت الريح والمطر. أمسك إطار نافذة الممر وبدأ يدفع إلى الأسفل- لكنها لم تُفتَح. ومن المقاومة -تصبح ساخنة فقط من الداخل. يسحب دييف الإطار لأسفل ويعرف أنه سيفتحه على الفور، وسيفتحه من دون أن يفشل- أو سيكسر الزجاج العنيد بقبضته...

- إنها مؤصَدة.

استدار: فرأى خلفه - بيلايا.

وفعلاً، الإطار دُقَّ بالمسامير، تماماً، على مدار محيطه كله.

نظرت المفوَّضة إلى دييف نظرة غريبة، لكن ما أدهشها ليس تصرفه الغبي، بل فكرة من أفكارها المُذهِلة جداً. وسألته

- هل تعلم لماذا الفتيات مُضربات عن الطعام؟ إنهنَّ يعتقدن أنَّ العصيدة مسمومة.

لم يستطع دييف أنْ يعود إلى حالته الاعتيادية، فسأل؟
- بأيِّ معنى؟
- إنهنَّ يعتقدن أننا نقتل الأطفال ثم نبيع أجسادهم للأمريكيين.
ما زال صوت دييف لا يطيعه، فجعل يسعل وينحنح، ويكرر السؤال:
- كيف... كيف، نبيع؟
قالت بيلايا بهدوء، ونطقت كل كلمة بوضوح.
- بسعر رخيص جداً. الأولاد الروس -الواحد مقابل عشرين روبلاً. التتار- مقابل خمسة عشر. والتشوفاش والموردوفيين -الواحد بعشرة روبلات. والفتيات- كل واحدة بعشرة روبلات، بغض النظر عن القومية.
باب حجرة المفوَّضة مفتوح. الطفلة التي استجوبتها بيلايا تنظر خارج الفجوة للحظة، وتحدق في البالغين بعينَين مُحمَرَّتين من الدموع وتغوص مرة أخرى.
- مَن أطلق الشائعة؟
حدقت بيلايا بلا انقطاع من النافذة المؤصَدة المبللة من المطر، وقالت:
- لن يخبروك بذلك، أبداً.
دييف نفسه لم يفهم كيف حدث ذلك، - ولكن بعد لحظة وجد نفسه في عربة البنات، يتجول بين المقاعد ويصرخ بصوت عالٍ، إلى درجة سمعه، بالتأكيد، سائقو القاطرة في حجرتهم. قال مُحتدماً:
- ... لأيّ الأمريكيين نبيعكم؟! كيف سمحتم لعقولكم، عقول الدجاج، أنْ تفكر بمثل هذا؟! كيف استطاعت ألسنتكم أنْ توصل مثل هذه الأشياء بعضكم لبعض؟! -(تدفقت الحروف من حنجرته بِحرّية وبنقاء، كأنه لم يكن يوبخ، بل يصدح بأغنية).- أطلب من الجميع أن يضعوا الهراء جانباً وأن يأكلوا طعام الغداء! القاعدة الرابعة: قاعدة رئيس القطار! نفِّذ على الفور!
حملقت المتمردات بعيونهنّ المنتفخة من الخوف وفغرن أفواههنّ كالسمك على اليابسة. انهمرت الدموع لدى بعضهنّ على خدودهنّ وسال مخاطهنّ، لكنهنّ لم يَجْرُؤْنَ على البكاء بصوت عالٍ ولم يَجْرُؤْنَ حتى على

النحيب -فقد جلسنَ ببساطة ووجوههنّ مبتلة. ماذا دهاهنّ! والممرضات- اندفعن إلى الأركان كأنّ ريحاً عاتية دفعَتهن.

بيلايا وحدها لم تفقد أعصابها: أمسكت بأول قدح من العصيدة الذي صادف أمامها، وصفعَت! صبَّت منه في يدها، وبدأت في تناول الطعام على نحو جدي مباشرة من راحة يدها، ولحست الحبوب المفتتة بشفتيها ولعقت أصابعها. وفعلَت مع القدح الثاني كذلك!

رأى دييف هذا -وكذلك أخذ قدحاً في راحة يده: وصفق! لم يُصَبّ الطعام- كان غاضباً قبل هذا -لكنه غرف بأصابعه، وابتلع ما فيها من دون أن يمضغ، وبالكاد حرك فكيه، وحدَّق بعينيه بشراسة. حشر الجريش غير الممضوغ في حنجرته، ووقف في كتلة عبر المريء. ولكنه أخذ القدح الثاني بعناد- وصفعه!

راقبت الفتيات في البداية في حيرة كيف يلتهم البالغون حصصهم الغذائية بسرعة، وبعد ذلك -كما لو كُنَّ يُنَفِّذنَ الأمر- بدأنَ يفعلن ذلك بأنفسهنَّ. بعضٌ منهنَّ سكبْنَ من القدح مباشرة في أفواههنَّ، وبعضهن وضعن وجههنّ في القدح وارتشفن بشفاههنَّ، وبعضهن، مثل المفوَّضة، كوَّمن العصيدة في راحات أيديهنَّ والتهمنها من كفوفهنَّ...

بعد دقيقة انتهت المأدبة.

أُطعِم جميع مَن في عربات الركاب الخمس.

***

سترافق الشائعات القطار على طول الطريق. لم يكتشف دييف مرة واحدة مَن كان مخترع الشائعة أو إلى أين ستصل هذه الشائعة أو تلك.

أكثر الشائعات رسوخاً وتواصلاً -شائعة حول «القطار الأمريكي»- تندلع وتخمد أكثر من مرة. تلك الشائعة مفادها أنَّ قطاراً يتكون من مئات العربات يسير على طول خطوط السكك الحديدية الروسية، ممتلئاً بالكامل بالذرة الحلوة والشوكولاتة واللحوم المعلبة. وأنَّ المؤونة فيه من الكثرة أنها توزَّع في كل محطة -ولا تقل مطلقاً. ولكن لا يُوزَّع على الجميع- يوزَّع فقط لأولئك

الذين يوافقون على أنْ يحفظوا عن ظهر قلب باللغة الأمريكية عبارة بقافية وينطقونها ثلاث مرات متتالية من دون أن يخطئوا، على أنْ يرددوا العبارة وهم يقفون على ساق واحدة ولا يرمشون أبداً. وهذه القافية ليست مجرد رطانة – بل قسم الولاء للملك الأمريكي. ربما، من أجل المأكل السخي، يمكن أن يؤدي هذا القسم. ثم، أين هو، خلف أيّ بحار وجبال، هذا الملك المجهول؟!

إنَّ شائعة حزينة -عن وفاة لينين- سوف تثير دموعاً غزيرة، لاسيما بين الفتيات. يُزعم، أنَّ زعيم البروليتاريا العالمية لم يعد يعيش معنا، لقد مات منذ زمن طويل. وأنَّ ما تنشره الصحف من تقارير عن صحته، هذا كله هراء وأكاذيب. في الواقع، يرقد الجد لينين الآن في تابوت من البلور، وهذا التابوت معلق على سلاسل من ذهب في أعلى برج في الكرملين في موسكو. ويحرس هذا التابوت الرفاق تروتسكي وكالينين ودزيرجينسكي، يبدّلون بعضهم بعضاً بالدَّور، وتضع كروبسكايا نفسها قطناً مندوفاً منقوعاً بالشمع في أذني كل حارس حتى لا يصاب بالصمم من رنين الأجراس.

والشائعات حول هجوم القيصر الصيني ستجعل الأطفال غير مبالين – سيتحدثون قليلاً ويَهْدَأُونَ: من غير المرجح أن يصل الصينيون إلى تركستان، التي يتجه إليها قطار دييف «الضفيرة»، وليس لأيّ من الركاب أقارب عزيزون في روسيا كي يقلق عليهم.

ستكون بعض الشائعات المُبتذلة لدرجة أنه لا يلائمها إلا أن تنفجر من الضحك عليها، -لكن يجب دحضها أيضًا. منها: أنَّ دييف- مصاص دماء حقيقي، من ذلك الصنف الذي يُعرَض في السينما: في الليل يطلق العنان لأنيابه الطويلة، يجوب العربات ويشرب من دماء الركاب الخارجين عن الطاعة. وأن دييف -جاسوس إنكليزي. وأن دييف- هو فريتيوف نانسين (الرحالة النرويجي) بعينه، الذي جلب مليون بود[1] من الطعام لروسيا الجائعة، وتعلم اللغة الروسية هنا، والآن، في المقابل، يأخذ مليون طفل إلى الخارج لإطعام الدببة القطبية، التي تعاني أيضاً من المجاعة في القطب الشمالي.

لسبب ما، لن تدور مثل هذه الأحاديث عن بيلايا – كلها حولها دييف فقط.

1- بود: وحدة وزن روسية قديمة زنتها 16,38 كيلو غراماً. (المترجم).

لن يعرف أحد أبداً، من أين نشأت هذه الحكايات الخرافية. ربما تكون التخيلات الغريبة والرهيبة ضرورية للأطفال - كبديل للحكايات الخيالية التي لم يؤمنوا بها.

***

قالت فاطمة:

- الطفل بحاجة إلى الحليب.

لقد استيقظ الكتكوت الصغير، الذي نام بين ذراعيها لبضع ساعات، منذ مدة طويلة وملأ بصراخه عربة الموظفين كلها، بعد أنْ فغرَ فاه الخالي من الأسنان ونفخ فيه فقاعات ضخمة من اللعاب. كان الرضيع ضَئِيلاً، ضامراً، ولكن فمه ضخم.

كان خمسة رُضَّع آخرين يتدافعون تحت قدمَي فاطمة: فقد زحف سكان عربة الرُّضَّع على طول المقصورات والممرات مثل قشعريرة الرعب، بوجوه فضولية تستنشق وتلعق كل ما يصادفها في الطريق؛ ومع ذلك، فإن الأطفال الأكثر وجلاً احتشدوا عند تنورة المربية وتشبَّثوا بها بإحكام، وشكَّلوا ما يشبه الذيل الحي الأخرق. لهذا صارت فاطمة تتحرك ببطء، بما يجعل طول خطوتها يتناسب مع الخطوات الصغيرة المتنافرة للعشرات من الأرجل الصغيرة، وتهزّ الطفل بعناية حتى لا تضرب بمرفقها أحداً ممن تعلَّق بأطراف تنورتها. على وجهها المستدير والجميل، لم يلاحظ دييف أيَّ أثر للتوتر أو التعب -بل على العكس، أصبحت أصغر سناً خلال الساعات الأخيرة. جرى الأمر كما لو أنَّ هذه المرأة كانت دائماً على هذا النحو- محاطة بالأطفال، تحمل أطفالاً بين ذراعيها والأطفال يدورون من حولها. بقي كل شيء فيها كما هو: طريقتها في المشي والوقوف، ونعومة حركاتها، ونظرتها الدافئة، -وفي الوقت نفسه تغير كل شيء: صارت فاطمة أخرى- صلبة، قوية، لا تعرف الكلل. وجدت الوقت لتؤدّي كل شيء وتكون في كل مكان: لتربّت على متن الرضيع وتبتسم في وجه الأطفال الذين يتشبثون بها، وتتابع حركة الأطفال الآخرين، وتتحدث مع المسؤولين.

قالت بهدوء، كما لو أنَّ الطفل لم يكن يتلوى بين ذراعيها:

– لا يفرق، أيّ حليب: حليب بقرة، ماعز، إنسان.

فسألها دييف بغباء:

– ألا يصلح الدخن؟

اعترضت بيلايا قائلة:

– إنه لا يحتاج إلى حليب، بل إلى دار رعاية الأطفال. ولكن أقرب دار على بعد يومين. وإلى ذلك الحين، إما أنه سيموت من الصراخ، أو نحن. وحتى هناك لن يأخذوه: إذ إنَّ قطارات الإخلاء تأخذ الأطفال من دور الإيواء ولا تفعل العكس. أين سنتخلَّص من الطفل، أيها الرفيق الرئيس؟

ربما، تكون بيلايا على حق: مكان الرضيع ليس في القطار. ولكن أين مكانه؟ في دار رعاية الأطفال في إحدى البلدات، حيث ينهمر المطر في الخريف عبر مداخن المواقد، وفي الشتاء يتجمد الصقيع بكثافة إصبع على الجدران، وكل صباح يتضاعف على الدرجات عند المدخل؟ أم في الخندق على جانب الطريق حيث سقطت والدته، وتدحرجت حتى تكسّرت ساقاها؟

خلَّصَت فاطمة الرضيع من القماط المُبَلَّل وهي تنقله ببراعة من يد إلى أخرى. فتبين أنه صبي. وكي لا يبرد الطفل العاري ضغطته إلى جسدها الممتلئ، فلفَّ أطرافه المُتَغَضِّنة حولها على الفور، وغمر نفسه في صدر المرأة وبطنها، كما لو يغمرها في فراش من الريش. كانت هذه الحركة مُفعمة باليأس والشغف بالحياة لدرجة أنَّ دييف شعر بسببها بحرقة في أحشائه.

شعر دييف بالارتباك والإحراج من المشهد الحميمي –فأراد أن يشغل عينيه ويديه، فالتقط الخرقة القرمزية التي ألقيت على الأرض وفتحها. فإذا بها ليست قماطاً على الإطلاق– بل لافتة: خُطَّت عليها بحروف مطرزة كبيرة الحجم «الموت للبرجوازية وأتباعها!» ممتدة على طول القماش الأحمر ذي الحافة الصفراء.

طوى الراية بعناية ووضعها في حوض الاستحمام الفارغ، وأمر:

– يجب أنْ تُغسل الدعاية وتُعَلَّق على الحائط. سوف نجد حليباً. حتى

ذلك الحين، يا فاطمة، افعلي ما تشائين مع الطفل، حتى لو ترقصين معه، حتى لو تنشدين له الأغاني باليونانية القديمة، المهم ألا يفطس من الصراخ.

ابتسمت بيلايا ابتسامة ساخرة، وسألته:

– قررتَ أنْ تحلب مَن في الطريق؟ أنْ تحلب سائقي القطارات القادمة؟

لم يردّ عليها دييف. فك أزرار قميصه العسكري وخلعه بصعوبة من خلال رأسه. ثم خلع قميصه الداخلي ورماه لفاطمة – من أجل الطفل العاري: دَعي الكتكوت يرتدي الملابس البيضاء، مثل بقية الأطفال. كان هناك شيء حقيقي وصحيح في هذا، كما لو كان دييف من خلال قميصه الأبيض قد جعل بقاء الطفل في القطار أمراً مُنتهياً منه. وكان الأصح من ذلك أنه ظلَّ الآن بلا ملابس داخلية، مثل إخوانه الجنود الخمسمائة في حصن قازان الذين لا يعرفهم شخصياً.

وفجأة أدرك أنه يقف نصف عارٍ، والمرأتان تنظران إليه باهتمام. لم تنظرا بعيونهما -إلى ذراعي دييف العاريتين وكتفيه: بيلايا– تقيّم، مثل طبيب في فحص طبي، وفاطمة – بحزن وحنان، مثل الأم. آه، النسوة! عبثاً أنَّ إحداهما جامعية والأخرى مفوّضة...

لسبب ما توهَّج خداه، كأن رفيقتَيه ليستا من تحدّقان بوقاحة إلى جسد الذكر، بل هو نفسه يحدّق إلى جسد أنثى. لكن لم يكن لديه الوقت الكافي ليصرفه على الترهات – فقد حان الأوان للذهاب إلى عربة المستوصف، ليكون تحت سطوة عَينَي المساعد الطبي الصارمتَين.

ارتدى قميصه العسكري، وسوّى قذاله الأشعث – واستجمع شجاعته. ولكن جاء المساعد الطبي بنفسه: وعيناه ممتلئتان بالكآبة، وفي يده نصف دلو من العصيدة.

قال المساعد الطبي:

– ما هذا الذي تفعله، أيها الحفيد، هل تهرب مني؟ هناك، سرية كاملة لم تتناول الأكل. لا يجوز إطعام المرضى المقعَدين من الدخن، حلوقهم قبل هذا قد هرأها الطعام البديل. أين الزبدة والبيض اللذين وعدتنا بهما؟

***

شفاه الأطفال السقم المُقعَدين جافة وشاحبة ومتشققة وعليها بثور بيضاء. كان مجرد إدخال الملعقة في مثل هذا الفم يثير الرعب، لأنك بذلك سوف تمزقه (على الرغم من عدم وجود ملاعق في القطار). وأنوفهم – حادة، مع قشرة متيبسة حول الخياشيم. وعيونهم مُغمَضَة.

كان الأطفال يرقدون على مقاعد مدثَّرين ببطانيات. وتلك البطانيات، عبارة عن أكياس أمتعة. بدت وجوههم ناصعة البياض إلى جانب القماش الغامق. برزت على الأكياس صور باللون الأزرق لنسور كبيرة ذات رأسين وكتابات أرجوانية: «دائرة برقيات موسكو»، «مكتب بريد سانت بطرسبورغ»، «سكة حديد تيفليس». كان كيس سينيا التشوفاشي من تلك القادمة من خارج الحدود – مليئاً بأحرف غير مألوفة، لم يستطع دييف قراءتها: «Coffee de Costa Rica». شعر دييف بالحرج من رؤية النسور ذات الرأسين، التي تمثل شعار الدولة في أيام الحكم القيصري، والنقوش الأجنبية على أجساد الأطفال السوفيتيين، ولكن لم تكن في يده حيلة.

مساحة عربة الكنيسة السابقة شُطِّبَت ببذخ بزخارف خشبية مطلية بلون ذهبي، والضوء المتدفق من النوافذ المقوسة يلعب على التذهيب، ناشراً بقع الضوء الصفراء: على أجساد الأطفال ووجوههم، وعلى الأسرّة التي نُجِرَت حديثاً، وعلى المنضدة التي كانت ذات مرة خوان مطبخ، والآن صارت طاولة عمليات، وعلى مريول المساعد الطبي الأبيض وعلى سياج الخِرَق في المذبح (المحراب)، الذي خُبِّئ خلفه مقعد المساعد الطبي.

وما إنْ دخل دييف وبيلايا إلى عربة المستوصف حتى قال لهما بوغ بتجهم على الفور:

– للعلم، كان لي كل الحق في أنْ أغادر القطار.

هذا صحيح، أومأ دييف برأسه على نحو مُتعَب: كان لك الحق.

– وأنا لا أتنازل عن هذا الحق! لم أوقِّع لأن أكون بديلاً عن طاقم مصحة كامل. الأطفال المُقعَدون مكانهم ليس في القطار وإنما في المصحة فقط! حيث الطهاة والاختصاصيات في التغذية والمربيات والأطباء الأساتذة.

أومأ دييف برأسه مرة أخرى: نعم، لقد لاحظتُ ذلك.

– ولهذا أضع شرطاً: أنْ تُنَفَّذ جميع طلباتي بدقة. أنا لا أتحمل مسؤولية المرضى، المسؤولية كلها تقع على عاتقك. لكنني سأحاول المساعدة.

وافق دييف حتى على هذا.

– وللبداية، أعطني بعض الحليب. والمزيد من البيض لإعداد مخفوق البيض بالحليب. لا أطلب الزيت بعد، دعونا نرى كيف تعمل المعدة لديهم. إذا كان لديك زيت السمك، أعطني منه أيضاً، سأبدأ في إعطائه قطرة بقطرة. واللحوم، بالطبع، البروتينات الخالية من الدهون أمر حيوي للجسم المُنهَك. وكذلك أُريد صابوناً منزلياً وبرافين لتليين قروح المُقعَدين.

قطَّب دييف حاجبيه، ولكن ليس بمقدوره أنْ يفعل شيئاً – فأومأ برأسه، كأنما، يقول: سأعطيك، بالطبع، سأعطيك. على الفور.

– أحتاجها الآن! ينبغي أنْ أطعمهم ثماني مرات في اليوم، ويفضل أن يكون أكثر. إذا لم يكن لديك الحليب والبيض – أعطني ما لديك من الأغذية الخاصة.

ظلَّ دييف صامتاً، وحتى لم يومئ برأسه. لا يريد أنْ يعترف بعدم وجود حصص من الأغذية الخاصة على الإطلاق، ولا يوجد في مستودع المطبخ سوى النخالة وثفل بذور عباد الشمس المعصورة. وأما عن البرافين والصابون – فليس هناك ما يقال.

لم يصدّق المساعد الطبي، فسأل:

– وحتى اللحم لا يوجد عندك؟ ولا دقيق، ولا قشدة حامضية؟ ولا سمك؟ لا كاكاو أو شوكولاتة؟ السكر في أسوأ الأحوال؟ ولا حتى أطعمة جافة خاصة؟

أراد دييف أن يصرخ به: متى كانت آخر مرة رأيت فيها الشوكولاتة والقشدة الحامضية؟! الناس العاديون لا يتذكرون مطلقاً مثل هذه الكلمات، ناهيك عن مذاقها! ماذا بك، هل سقطت مباشرة من القمر إلى القطار؟! لكنه لم يصرخ، وضبط نفسه.

نظر بوغ إلى دييف، كأنه رآه لأول مرة، وسأله:

– كيف حصلت على هذه الأشياء، يا حفيدي؟ وماذا كنت تأمل؟ بِمَ كنت تأمل أنْ تطعم الأطفال – بالروح القدس؟

اقترح دييف:

- دعونا نمضغ لهم الدخن في الوقت الحالي.

- يا لك من أحمق؟ احسِب أنك قد قتلتهم جميعاً. قتلتهم بنفسك.

كان لا بد إذاً، من تركهم يموتون في دار استقبال الأطفال المشردين؟! حيث يُعطى روبل في الأسبوع لإطعام الطفل الواحد؟! أين المواد الغذائية الخاصة الوفيرة؟ هل هو - غبار المطاحن وقشور الشوفان؟!

أصر دييف:

- هذه الطريقة التي يطعمون بها الرّضَع في القرى. نفركه بأسناننا جيداً ثم نبصقه في فم كل واحد منهم.

فكَّ بوغ أزرار مريوله الأبيض، لكن أصابعه لا تطيعه، فهي بالكاد تستطيع التأقلم:

- هل تريد أن تجعل منّي حفارَ قبور؟ هذا لن يحصل. أنا معتاد على أنْ أعالج الناس، لا أنْ أدفنهم. سوف أنزل من القطار في المحطة التالية.

هز دييف رأسه:

- كلا. لن تنزل. لأنني سأحضر لك كل شيء. لا أعدك بالشوكولاتة، لكن الزبدة والبيض - ربما.

- ومع كل هذا، أنت متفاخر!

بعدما استطاع بوغ أنْ يفك الأزرار أخيراً، أخرج حقيبته من تحت طاولة العمليات وبدأ في طي مريوله هناك؛ طواه بعناية، لكن الأكمام البيضاء لم تكن تريد أن تتناسب مع الجوف الخشبي الرقائقي بأي شكل من الأشكال - لقد برزت بعناد، ولم تسمح بإغلاق قفل الحقيبة.

وفي هذا الوقت سُمِعَت ضحكة مكتومة: ضحك الصبي الصغير الذي كان يحدق في السقف بلا تفكير طوال هذا الوقت؛ والآن استمر في التحديق، من دون تغيير في التعبير على وجهه وحتى من دون أنْ يفتح شفتيه، ومن مكان ما في جوفه، تناهت أصوات بالكاد يمكن أنْ تُسمع. إنه لا يضحك على الكبار، بل يضحك على شيء خاص به، مخفي. لهذا، أطلق عليه دييف في الصباح لقب ضحكة الصرصار. لقد نسي الصبي كيف يتكلم، لكنه لم ينسَ كيف يضحك بعد.

– إذا ما حصلتَ على ما تريد، هل ستبقى في القطار؟

– لن أبقى.

– إذاً، ستتعرض إلى المحاكمة! آمر بأن تُعَد مهمة إنقاذ الأطفال الجوعى معركة. وعندي الهروب من القطار يعادل الهروب من الخدمة العسكرية.

– أنا، يا حفيدي تقاعدت من الخدمة العسكرية عندما لم تكن قد ولدتَ، أنتَ، بعد. وأنا لم أخضع للأوامر من مدة ربع قرن.

استاء دييف:

لم يتكلم دييف، بل صاح بأعلى صوته بالرغم من تقدم سن المحاور والشعر الأبيض في رأسه:

– لا بأس، اذهب إلى الجحيم! يمكنك القفز أثناء سير القطار إذا رغبتَ. اذهب وابحث لك عن قطار أكثر ثراءً! إلى قطار يُقَدَّم فيه الكاكاو في أكواب من الفضة ويُخلط فيه السكر بملاعق من الذهب. الإمبريالي يريد أنْ يضع لي شروطاً... أنا سأطعم الأطفال بنفسي! سوف أوصِلهم بنفسي! الجميع سوف يصلون معي إلى سمرقند، الجميع كلهم!

أخذَ دييف دلوَ العصيدة المتروك، وغرف نصف قدح وبدأ يطعم الأطفال.

فكر أنْ يبصق الدخن المبشور في القدح وأنْ يسقي هذا السائل للمرضى، لكن الأمر لم ينجح – بدوا كأنهم نسوا كيف يشربون: لم يسعفهم الوقت لأن يفتحوا فُكُوكهم أو، على العكس، أن يغلقوها؛ كان القدح يرن على أسنانهم، وتتدفق العصيدة على وجوههم، ولم تصل إلى بَلاعيمهم.

قرر أن يطعم بشكل مختلف – مثل الأطفال.

بدأ بالطفلة التي سمّاها النحلة. مضغ الحبوب المسلوقة مدة طويلة، ودحرج كتلة الدقيق بلسانه عبر الحنك؛ ثم أخذ وجه النحلة العظمي بين يديه بحذر وانحنى نحوه. بشفتيه فتح فم الطفلة المتكتل –ببطء، وكتم أنفاسه وأحسَّ بالنَفَس الآخر على خديه،– وفتح بلسانه أسنان النحلة وانتظر تدفق العصيدة اللزجة منه إلى الطفلة. تقلصت الشفاه الغريبة الباردة بالكاد – ابتلعت الطفلة العصيدة. فقال دييف مع نفسه: حسنٌ هذا. انفصل عن فم الطفلة ومضغ جزءاً جديداً، وانحنى مرة أخرى على شفتي النحلة. تمام.

فكَّرَ في حقيقة أنه لم يُقَبِّل قط شفتَي -لا فتاة ولا امرأة. والآن يُستَنتَج- أنه قبَّل. ويُستَنتَج أنَّ النحلة أصبحت الآن مُقبَّلة أيضاً. لا بأس. ثمّ فكَّرَ أيضاً في أنَّ الحصول على الحليب للرضيع في الطريق مهمة صعبة، والحصول على الزبدة والبيض يكاد يكون مستحيلاً. لكن في مكان ما، في هذا العالم الكبير الذميم، لابد أن يكون ثمة حليب وزبدة وبيض -على الأقل بضعة أرطال أو بضع عشرات. من غير الممكن أن لا يكون. لا بأس. وفكَّر أيضاً أنه إذا كان لدى بوغ ما يكفي من الذكاء، فلن ينزل في أقرب محطة، حيث سيقفون قليلاً للتزود بالماء والرمل (الذي يُذَرّ على السكة لمنع التزحلق)، بل أنْ ينتظر حتى يصلوا إلى مركز مواصلات كبير- حيث يكون من الأسهل له المغادرة من هناك. وهذا يعني أنَّ المساعد الطبي سيبقى لمدة أطول قليلاً مع الأطفال، وربما يستيقظ ضميره خلال تلك المدة...

ثم أطعم البهلوان وذا الأنف الطويل.

عمّ سكونٌ لا يُسمَع فيه غير قعقعة العجلات. ثم قهقه الطفل، الذي دعاه دييف ضحكة الصرصار، بهدوء حول شيء ما. ومن وقت لآخر، كان سينيا التشوفاشي يصرخ، تارة يستيقظ، وتارة يُغمى عليه. المساعد الطبي بوغ جالس على مقعد يراقب دييف. وعندما بدأت البهلوان تتقيأ من العصيدة غير المهضومة، راح يغسل وجهها ويراقبها كي لا تختنق.

تناولت بطون بقية الأطفال الطعام -كما أطعم دييف الأطفال الذين أعطاهم أسماء السنجاب والقميء وتشارلي شابلن. ولم يسعفه الوقت لإطعام الباقين- فقد دوّى القطار على الجسر عبر نهر الفولغا، واقترب من المحطة، فعرف دييف أين يمكنه أنْ يحصل على المواد الغذائية الخاصة. كانت الفكرة ميئوساً منها، بل حتى مجنونة، لكن لم يكن ثمة غيرها. فأعطى الدلو مع باقي العصيدة إلى المساعد الطبي من دون أن ينبس ببنت شفة.

***

المحطة الصغيرة تسمى سفياجسكي، وتقع البلدة التي تحمل الاسم نفسه على بعد فراسخ قليلة على ضفاف نهر الفولغا ونهر سفيياغا الذي

يصبّ في الفولغا. في المحطة كان هناك منزلان، وحجرة بها قدر للماء المغلي للركاب ومضخّة لضخ الماء إلى القاطرة.

عندما دفن سائق القاطرة كُم المضخة الطويل في كمامة القاطرة وارتجف تحت ضغط الماء قال له دييف:

– سنقضي الليلة هنا.

فامتعض السائق، وقال:

– أمامي طريق لأربعين فرسخاً أخرى! أنت بنفسك صرخت في الصباح بأن نُسرع مثل طيران الطيور.

ردَّ دييف مؤكداً كلام السائق:

– نعم، صرخت. والآن قد غيرت رأيي.

لم يبقَ دييف حتى يسمع كيف شتمه السائق. قفز إلى الأرض وسار إلى المدينة على طول الدرب الضيّق الذي بالكاد يمكن رؤيته.

فصاح وراءه السائق بأعلى صوته:

– لديك جيش من الأطفال الجائعين! لماذا تتركهم هنا، أيها المخبول؟

كانت هذه الكلمة صحيحة: مخبول. أو بالأحرى كان الأكثر دقة أن يقول: أيها المجنون تماماً. لأن الاتجاه الذي سار فيه دييف لا يسير فيه العاقلون. وعزم أنْ يفعل ما يمكن تسميته تهوراً تاماً. لم يخبر بيلايا شيئاً – لم تكن تعلم بعد أن دييف قد أوقف القطار على نحو طائش في منتصف الطريق النهاري.

أصبحت الحكمة الآن غير ضرورية: لا أحد يتمتع بعقل رصين وفي الوقت نفسه يبحث عن البيض أو الزبدة أو القشدة الحامضية أو السكر في منطقة الفولغا. فهذه الكلمات من عدة سنوات لم تعد موجودة كأسماء لمواد غذائية، بل كذكريات من الحياة الماضية. لم يأكل الناس هنا الزبدة –بل يحلمون بها. ولم يأكلوا الحلويات– بل يحكون الحكايات عنها للأطفال. وما يأكلون – سوى البدائل الغذائية.

أفضل خبز بديل كان مصنوعاً من الدخن والشوفان والنخالة. ولا بأس به حتى إنْ خُلِط بثفل البذور المعصورة من جميع الأصناف. ولكن

ليس لذيذاً على الإطلاق عندما يُخلَط مع الطحالب والأعشاب: عشبة القراص، وعشبة الحرفش، وجذور الهندباء، وأعشاب البوط، والقصب، وزنابق الماء. وعُدَّت بدائلَ ضارة أعشابُ حميض الخيل والسنط ونشارة الزيزفون والقش -فحتى الخنازير لم تلتهم دقيق القش. وأُضيف أيضاً إلى الخبز مسحوق قشور الجوز والخشب اللين، المأخوذ من أشجار الزيزفون والبتولا والصنوبر، لكن لم يستطع الجميع أن يأكلوا خبز الخشب. ولم يعرف الجميع كيفية إعداد خبز الدم أيضاً. وقد كان يُباع في الأسواق الشعبية ثفل البذور المعصورة وغبار الدقيق والخضروات الورقية والغربان الميتة. ونادراً ما يُباع الحليب أو السمك والبطاطس وبذور عباد الشمس والتوت. وكان المضاربون في السوق السوداء يتاجرون بالأطعمة الشهية- زيت بذر الكتان ودقيق الذرة.

فهذا دييف نفسه لا يتذكر آخر مرة أكل فيها الزبدة. ربما، في هذه المناطق بالذات، بالقرب من سفياجسكي، في السنة الأولى من الحرب: كانت مخابئ الفلاحين لا تزال مليئة بالاحتياطيات من المواد الغذائية ومرتبة ببساطة، في مكان ما في مخزن تحت الأرض أو بئر في الفناء الخلفي لحقل بطاطا، في أماكن حتى يتمكن الطفل من اكتشافها.

أثناء ما سار دييف إلى المدينة -بدأ الظلام يحل؛ وعندما توغّل في البلدة حلّ الظلام. كانت البلدة صغيرة، مثل لعبة للأطفال،- نُحِتت على قمة تل كبير، وتهبط قليلاً على المنحدر نحو نهر الفولغا، -قرر دييف أن يمشي إلى قلب مدينة سفياجسكي، إلى القمة. لم يعرف أين يقع هدف مسيره، لكنه كان متأكداً من أنه سيجده- فالليل سيساعده: المكان الذي توجّه إليه دييف، لم يَنَم الناس فيه في الليل. ولم يكن مخطئاً -حتى من بعيد لاحظ قصراً من طابقين على أعلى التل، شكل المنزل يوحي أنه يعود لتاجر، فيه علّية رحيبة وشرفة واسعة كل الاتساع. كانت النوافذ مضاءة بشكل ساطع. والشوارع المحيطة بها سوداء وصامتة- كان القصر يحوم فوق المدينة، مثل كوكب في السماء العالية.

تسلق دييف نحو الأعلى على الرصيف، فتناهت إلى سمعه في الظلام أصوات بالكاد مسموعة -أصوات تنهد وبكاء. لم يستطع أن يُمَيِّز الباكين:

إما نساء، أو شيوخ، أو حتى بعض الظلال. لقد فهم شيئاً واحداً: كان عددهم كبيراً- احتشدوا إلى الأشجار وإلى أسيجة الشارع، ومع اقتراب دييف، صمتوا، وبعد أن مرَّ، عادوا إلى البكاء مرة أخرى. كلما اقترب من القصر قل عددهم. وعندما وصل إلى الأرض الفارغة بالقرب من المبنى المتوهج لم يكن ثمة أحد. اختفى النحيب الذي تركه وراءه تقريباً في الصمت، ولكن ليس بشكل نهائي - ارتجف في الهواء، مثل طنين البعوض البعيد.

دوّت إطلاقة في أعماق المنزل، ثم سُمِعَت إطلاقة ثانية - في مكان ما من بعيد، ورداً عليها نبح كلب يقظ ثم صمتَ مرة أخرى. وصمتَ طنين البعوض كأنه قُطِع.

صعد دييف إلى الشرفة، وسحب الباب الثقيل تجاهه وتسلَّلَ إلى الداخل. لم يكن بإمكانه أنْ يُخرِج المسدس، ولا حتى أنْ يضع يده على الجيب المعهود. رفع كفيه الممدودتين إلى الأعلى -وكانت كفاه مبللتَين، كما لو كانتا مغسولتَين بالماء- ونظر مِن حوله، في أي لحظة كان مستعداً ليصرخ العبارة المعدة: «أنا مِن جماعتكم! لا تطلق النار!»

وقف في المدخل الضيق ذي الجدران الرثة، التي خُطَّت عليها بالطلاء فوق الألواح الخشبية المكشوفة مباشرة كلمات كبيرة: «الموت لأعداء الشعب -أتباع جنود الجيش القيصري وأتباع قوات البِيض...» نهاية الكتابة ضاع في ظلام السرداب- كانت درجات شديدة الانحدار تهبط من هناك، وتناهى من هناك هدير أصوات. أدى الجانب الآخر من الدرج إلى الطابق الثاني، الذي يبدو أنه كان فيه أحد ما أيضاً. لم تكن هناك حراسة. فكر دييف قليلاً ثم صعد السلَّم ببطء.

سرعان ما صار دييف عند باب ذي مصراعين. أحد المصراعين مفتوح قليلاً، من الشق الناتج لاح ضوء وانتشرت رائحة البارود المحترق. المصراع متين، مصنوع من البلوط -مثل المسدس الذي لدى دييف لن يخترقه، بل يحتاج الأمر إلى مدفع رشاش. استقر دييف خلف الباب- حتى لا تخرج من المخبأ كتفاه ولا ذراعاه المرفوعتَان إلى السقف - جمع راحة يده الباردة من العَرَق في قبضته وطرق برفق.

لم يرد عليه سوى الصمت.

طرق مرة أخرى. ومن دون انتظار الرد، دفع مصراع الباب المتحرك برفق -ففُتح الباب بصرير، ليكشف عن مساحة كبيرة: كثير من الضوء الكهربائي، وكثير من دخان البارود. من هذا الضوء والدخان، نظر إلى دييف المتجمد ثقبان أسودان- ماسورَتا مسدس.

طلبَ صوت مهذب من مؤخرة الغرفة:

- أغلق الباب من فضلك. أنت تعيق عملي.

مشى دييف على رجليه، اللتَين وهنتا، إلى داخل الغرفة. بقي رافعاً راحتيه المفتوحتين.

بدت غرفة ضيوف التاجر السابق كما لو هزّها عملاق من الأساس: الأشياء العديدة التي كانت تستقر في الغرفة سابقاً -اللوحات والمرايا ومناضد الزينة- انتشرت مُبَعثَرَة في الزوايا، مقلوبة أو موضوعة على أعجازها. وقد دُفِع الأثاث من مكانه وتكدس بطريقة غريبة: استند البيانو المفتوح إلى طاولة الطعام، ودُفِعَت الأرائك الطويلة إلى الخزانة التي فقدت أبوابها... غُطيت جميع الأشياء والأسطح بالأوراق: أكوام من حافظات الأوراق المكتبية والدفاتر والأوراق المُفرَدة غطت المساحة بطبقة سميكة تضطرب وترتجف عند أدنى حركة للهواء.

كان هناك ثلاثة أشخاص في الغرفة. واحد -ذو شعر أسود ومجعد كثيراً، مثل جلد الكبش- ممدّداً على الأريكة، يطوي ساقيه بشكل مريح على ساعة الحائط ذات البندول الساقط المُلقاة إلى جانبه. والثاني، بشاربه الأحمر الناري الذي يبرز بعيداً عن الجانبين، كان جالساً على كرسي بذراعين مسحوبٍ إلى الوسط ويصوب مسدساً على دييف. وإلى جانبه جلس الثالث، الذي بالكاد استوعبه الكرسي نفسه، وهو رجل ضخم الجثة، أصلع - وكذلك كان يسدد من مسدس على دييف.

قال دييف بهدوء:

- مساء الخير، أيها الرفاق (جَفَّت شفتاه من الخوف، لكن صوته لم يرتجف). - أنا رئيس قطار، أنقل أطفالاً جائعين إلى سمرقند. من بينهم الكثير من المرضى المُقعَدين. إنهم بحاجة إلى البيض والزبدة والحليب.

أجاب صاحب شعر الرأس الذي يشبه صوف الكبش بلطف:

– لقد أخطأتَ، أيها الرفيق. هنا ليس مركزاً للمواد الغذائية. هذا فرع بلدة سفياجسكي للجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب.

انتابت دييف رغبة شديد لابتلاع ريقه وترطيب حلقه، لكن حلقه كان جافاً وناشفاً، مثل ورق الصنفرة:

– أعرف إلى أين أتيت. هل تعرفون مَن في هذه المدينة لديه طعام مُخَبَّأ؟

دوَّت إطلاقة. فجلجلت صرخة وارتجاف في مكان ما قريب جداً، على اليمين –دخلت الرصاصة في دعامة الباب. وفوراً، تقريباً من دون انقطاع،– دوّت الطلقة الثانية – باتجاه الدعامة الأخرى، على اليسار.

طارت نُتفتان من الورق من على الخزانة الجانبية وحوَّمتا حول الباركيه المُهَشَّم.

وقف دييف بلا حراك. كان قلبه ينبض في بطنه، في حلقه، وحتى في أطراف أصابعه الممدودة. لسعته عيناه وأنفه بشكل لاذع، لكنه لم يجرؤ على إنزال يد واحدة على الأقل ومسح وجهه بكفه.

الشخصان الجالسان على الكرسيَّين، من دون أنْ ينتظرا تبدد الدخان، رفعا زنادَي المسدَّسَين مرة أخرى: صاحب الشارب الناري –الذي كان يتلهّى بشكل مكشوف بالموقف ويتفحص بفضول الضيف بعينَين ماكرتين، والأصلع– الذي كان يتحرك بلا مبالاة بنوع من كسل الترف، لم يكن ينظر إلى دييف حتى، بل ينظر إلى مكان ما في الجوار. أدرك دييف أنَّ هذا هو العنصر الرئيس هنا. هذا الوحيد الذي يقرر كل شيء.

قال صاحب الشعر الذي يشبه صوف الكبش، كأنه لم يلاحظ إطلاق النار:

– نعم، نحن نعلم من لديه احتياطيات في هذه المدينة. وماذا عنك، هل ستذهب لتسلبهم؟ (لم يكن في صوته قطرة خبث إنما تعاطف فقط). الآن، أم ستنتظر حتى الصباح؟

شد دييف أصابعه بكل قوته حتى لا تهتز، وقال:

– سأرحل في الصباح. وليس لدي جنود مرافقة. أطلب منكم مساعدتي

في مصادرة المواد الغذائية الخاصة للأطفال الجائعين من الشرائح الثرية من السكان. الآن بالذات.

ضحك صاحب الشارب الناري بصوت عالٍ، وانتفخ خداه وتناثر من فمه اللعاب، وأصبحت عيناه الضيقتان بالأصل صغيرتين تماماً، ورفرف شاربه، مُغطياً نصف وجهه. اختنق بسبب الضحك، وهو يهز كتفيه وجمجمته المحلوقة. وأخيراً دفن وجهه المتجعد بقبضة يده التي يمسك بها المسدس، ثم تجمد، وهو يئن قليلاً من جراء المشاعر الفيّاضة. أما الأصلع، فعلى العكس من ذلك، لا يبدو أنه قد سمع خطاب دييف الوقح – فقد جلس على الكرسي مثقلاً، بعد أنْ وضع ذقنه الجبارة على صدره القوي وأغمض عينيه بتعب؛ وناءت رقبته الهائلة مثل نير فوق سترته الرسمية ذات الصف الواحد من الأزرار.

يبدو أنهما كانا ثملين تحت تأثير الكحول.

بين الكراسي لاحظ دييف طاولة شطرنج. بدلاً من قطع الأحجار الموجودة على لوح المربعات، كانت هناك كؤوس من الكريستال، بعضها ممتلئ.

أومأ صاحب الشعر الذي يشبه صوف الكبش متفهّماً:

– نعم، نعم، الآن. لذا يجب أن نترك عملنا في هذه اللحظة بالذات، ونوقِظ الجنود النائمين، ونقتحم منزل بعض أكلة لحوم البشر ونطلب منه دزينة من البيض وبوداً من الزبدة من أجلك؟

أجاب دييف:

– الدزينة لن تكفي. نحن بحاجة إلى مائة بيضة على الأقل، وعشرة أرطال من الزبدة، لا أقل.

لم يستطع صاحب الشارب الناري أنْ يمسك نفسه وانفجر ضاحكاً وترنَّح برأسه نحو السقف، كاشفاً عن أسنانه البنية على اللثة. وحاول أن يمسح بيده التي تمسك بالمسدس الدموعَ التي ظهرت في عينيه – فتمايل السلاح في كل الاتجاهات. ثم قال وهو يهتزّ من الضحك:

– أُحيّيك، وأحيّي فيكَ هذه الوقاحة...

حاول دييف ألّا ينظر إلى المسدس، الذي كانت فوهته تهتز على مقربة منه، مشيرة الآن إلى وجه دييف، ثم إلى معدته، وقال:

– لسنا بحاجة لإيقاظ أيّ شخص. ولسنا بحاجة أيضاً إلى نزع ملكية الكولاك (الفلاحين الميسورين). ما علينا سوى الوصول إلى المنزل –أنت تعرف بيت مَن. يجب أنْ نذهب الآن، في الليل، عندما يشعر الجميع بالنعاس ولا يفهمون أيَّ شيء. نذهب ونطلب منهم أنْ يسلّمونا ما ادّخروا. ها هي، النهاية قد حانت الآن. سوف يصدّقونك ويطيعون أمرك– وسوف يقدمون كل شيء بأنفسهم.

رنَّت إطلاقة مرة أخرى. فتأوَّه ثمة شيء ما في الزاوية وبدأ يهتز بأصوات عديدة، ولكن صاحب الشارب الناري جعل يحدق بذهول في السلاح الذي تصاعد من فوهته الدخان: الرصاصة التي أطلقها أصابت البيانو.

ومن جرّاء الطقطقة استيقظ الأصلع –وعلى الفور رفع كفه إلى الأعلى أيضاً: وأطلق! ومرة أخرى اختلج ما بجانب دييف– دخلت رصاصة أخرى في عضادة الباب.

كانت معدة دييف مع كل إطلاقة تتقلّص مثل كتلة جليدية –وحتى دييف نفسه بدا كأنه يتقلص، وصار يتحدّب وينقبض أكثر فأكثر. ولاحظ أنه لم يعد يمسك يديه المرفوعتين على الجانبين، بل أمام وجهه تقريباً– كما لو كان يحمي نفسه بهما من إطلاق النار.

واصل صاحب الشعر الذي يشبه صوف الكبش كلامه بهدوء:

– أيّ نهاية هذه؟ النهاية ستكون في شهر ديسمبر (كانون الأول) عندما تبدأ حملة الحصاد الشتوي. ماذا سيعطينا الكولاك في الشتاء إذا ما ضربناهم الآن بالسياط؟

– بيد أنك تعرفهم! –(شدَّ دييف ظهره بكل قوته حتى لا ينحني مثل الخطاف أمام أصحاب الدار، وبالتالي بدا صوته مخنوقاً، مثل صوت مَن أصابته نزلة برد).– في غضون شهرين، تصبح أماكن الاختباء والمخابئ ممتلئة مرة أخرى. الفلاح الكولاك شديد، إنه ممتلئ بالطعام، مثل امتلاء جلد حيوان بري بالصوف: مهما قصصت صوفه يبقى أشعث.

أثار هذا الحديث صاحب الشعر الذي يشبه صوف الكبش فنهض حتى نصفه من الأريكة من أجل أنْ يرى بشكل أفضل الضيف الذي غطّت عليه أعمدة الدخان:

– اسمع، من أين أتيت؟ إنك وقح وعنيد وتعرف كل شيء عن كل شيء!

– من هنا، بالقرب من بلدة سفياجسكي. أنا قاتلت هنا.

بدا لدييف أنَّ فوّهتَي المسدسَين تنظران إليه مرة أخرى من خلال الثقبين الأسودين، لكن، لا: هذا الأصلع، بعد أنْ رفع ثنايا جفنيه المتورمَين، حدق إلى دييف بنظرة من دون أنْ يرمش. كان وجه الأصلع الثقيل جامداً كأنه صخرة ناعمة الملمس: لم تكن ثمة شعرة واحدة على الجلد المسامي، ولا حتى حاجبان أو رموش. وكان العرق يتلألأ على رأسه الأصلع. وضع الأصلع، ببطء شديد، السلاحَ في الحافظة (لم يحشره في اللحظة، بل من المرة الثانية أو الثالثة)؛ وبعد أنْ استراح على مساند الذراعين، رفع جسده الكبير، على وقْعِ صرير الكرسي المضغوط، ونقل وزنه إلى رجليه المتباعدتين – وهكذا تجمد، متمايلاً قليلاً، في منتصف الغرفة. واصل النظر إلى دييف من دون انقطاع.

بدأ الباقون على الفور يضجّون.

فتح صاحب الشعر الذي يشبه صوف الكبش باب الشرفة، مما سمح بدخول الهواء النقي إلى الغرفة. ثم صرخ بشكل غير مفهوم:

– الحزب!

ومن ثم وجّه كلامه إلى دييف:

– أيها الرفيق، أعد الحساب، من فضلك! الأقرب لك.

بسبب عدم فهمه لما يريدونه منه، استدار دييف على نحو مرتبك، فوجد صورة غريبة: على دعامة الباب، التي كسرها الرصاص، من أعلى إلى أسفل، ثُبّت هناك ذباب بدبابيس مشبك – ذباب رمادي عادي. ترك البعض خدوشاً فقط في الخشب. بعض الذبابات، على الرغم من ثقبها بالدبابيس، ما زالت على قيد الحياة وحتى أطرافها تتحرك. على ما يبدو، كانت هناك مباراة في دقة الرمي.

حسِبَ دييف، وهو يلامس العضادة اليسرى:

- ست ضربات. وهنا ثلاث. (لمس العضادة اليمنى).

بدأ صاحب الشعر الذي يشبه صوف الكبش يصفق، إما تكريماً للفائز، أو بمنزلة إعطاء إشارة للانتهاء. أخذ صاحب الشارب الناري، وهو يئن بحسرة، كأساً ممتلئة من رقعة الشطرنج وأسقطها في حلقه: على ما يبدو، خسر الرهان هذا اليوم. ولم يستطع أنْ يعيد الإناء إلى الطاولة - فقد انزلقت الكأس من اليد الخطأ وتصدعت على الأرض، التي حوّمت عليها الأوراق التي أثارها تيار الهواء.

تناهت من الشارع أصوات مضطربة، وصهيل الجياد. وطقطقت خطوات خلف الباب، وعلى الدرج.

ونادى صوت بإلحاح من المدخل:

- إيها الرفيق رئيس القسم! أحضرناه.

تحرك الرجل الأصلع نحو المخرج، وهو يهز جمجمته قليلاً، ومن دون أنْ يرفع عينيه عن وجه دييف. كانت حركاته بطيئة وثقيلة، مثل حركات القاطرة لحظة انطلاقها. صرَّ الباركيه تحت جزمته الثقيلة.

وعندما اقترب، وضع كفيه الضخمتَين على رأس دييف وضغط برأسه عليه: الجبين إلى الجبين. وتنفس بحرارة ورطوبة صادرة من أقوى مشروب كحولي منزلي الصنع: بدا دييف كأنه غُمِر في برميل من مشروب كحولي ناتج في بداية عملية التقطير المنزلي. فُتِحَت شفتا الرجل الأصلع السميتتان، بقصد أن تقولا شيئاً ما، وارتجفتا مدة طويلة، مثل زوج من الحلزونات خرجتا من القشرة، وأخيراً انطلقتا:

- متى... قاتلتَ... هنا؟

- في الصيف من عام 1918. -اختنق دييف بين ذراعَي الأصلع لكنه حاول التحدث بسرعة وبشكل واضح.- أثناء الدفاع عن سفياجسكي وتحرير قازان من قوات الجنرال كابيل.

- في أيّ وحدة قتالية؟

- في فرقة المشاة الثانية.

- مَن... قائد... الجيش؟

- قائد قوات الضفة اليمنى. الفريق سلافين. وقائد الضفة اليسرى، اللواء يودين.

لم يكن ثمة هواء في رئتيه - أبخرة كحولية فقط. ورأسه في مِلزَمة من راحتين من الحديد، والمِلزَمة تزداد شداً أقوى فأقوى...

- من منهما... استولى على.. قازان؟

- لا أحد منهما. قاد تروتسكي، الذي وصل خصيصاً من موسكو، عمليات الاستيلاء على قازان.

الملزمة التي أمسكت بدييف رفعت رأسَه إلى مكان ما في الأعلى، وانزاحت الأرض من تحت قدميه، ثم لمع شيء أسود في عينيه، وتغطّت شفتاه بشيء حارق وزلق. وملأ هذا الشيء الزلق فمه، وتحركَ في مكان ما على حنكه ووصل إلى البلعوم - وطفح على دييف من الداخل، وتوغل بشكل أعمق ولم يسمح له بالتنفس. هل انتهى كل شيء بالنسبة إليه؟ هل هذه النهاية؟ هل هذا هو الموت؟

وفجأة تركه: جسّت قدما دييف الأرض، ورأت عيناه النور - بعد أن منح الأصلع زميله قبلة صداقة طويلة ولذيذة، فقد قبضته.

- القوارب البخارية... هل تذكرها؟

التقط دييف أنفاسه، وقال:

- أتمنى أن أنساها، لكني لا أستطيع. أحياناً تأتيني في المنام.

سحقت القوارب البخارية أربعين جندياً من الجيش الأحمر من الذين حاولوا الفرار من سفياجسكي أثناء المعركة في عام 1918. بأمر من الرفيق تروتسكي، أُعدِموا رمياً بالرصاص أمام الجنود المصطفّين -أطلق عليهم زملاؤهم الجنود النار- ثم أُلقوا في نهر الفولغا وسحقتهم القوارب البخارية وحوّلتهم إلى هلام.

بدأ الرجل الأصلع يتكلم بشكل أسرع، إما حتى تلحق شفتاه على الاستجواب أو لكي ينشّط ذاكرته:

– وأنا أحلم بها كل ليلة. وكم عدد الأطفال لديك في القطار؟

– خمسمائة.

أمسك الرجل الأصلع بكتفي رفيقه بالحرب في يديه وهزه برفق. كاد رأس دييف يتصدّع في دعامة الباب. وسأله:

– لماذا تطلب قليلاً جداً؟ لا تطلب هكذا! لا تطلب البيض، بل اطلب الدجاج. لا تطلب الحليب، بل اطلب بقرة. –ونقرَ قليلاً على جبين دييف بيده التي تشبه مخلب عملاق، ثم نفش شعره ووبّخه. ومرة أخرى كاد رأسه ينفطر في الحائط، وقال:– إننا لا نبخل على الأطفال بأي شيء! نقدم للأطفال كل شيء!

ربَّتَ على كتف رفيقه السابق مودّعاً ودبدبَ بجزمته على الدرج، فصرَّ الدرج، كما لو كان يتألم. رمقَ صاحب شعر الرأس الذي يشبه صوف الكبش دييفَ بنظرة فاحصة وانزلق وراءه.

التفتَ الأصلع نحو الأسفل، وسأل دييف:

– هل لديك أدوية؟ لماذا تسكت عن هذا؟ وسأعطيك الدواء. سأعطيك كل شيء!... صباح الغد سوف تصل الأدوية إلى القطار. انتظر.

وانتابت دييف الرغبة أنْ يندفع خلفهما، يخرج من هنا، بكل سرعته. لكن لم يكن الأمر كذلك: كان صاحب الدار الثالث لا يزال في الغرفة. أمسك صاحب الشارب الناري، وهو يبتسم ابتسامة عريضة غمرت فمه كله، بكأسين ممتلئتين من النبيذ للضيف. ومع ذلك أدرك أنه لم يكن في حالة مزاجية لتناول المشروب، فقلبَ الكأسَين وأسقطهما على الأرض وسحق شظايا الكريستال بحذائه، وعرج على الشرفة. كان بالكاد يستطيع الوقوف على قدميه – وكان على وشك أنْ يقعَ ويكسر رقبته.

أراد دييف منع الرجل من السقوط فحسب: قفز أيضاً إلى الشرفة من أجل أنْ يسعفه الوقت للإمساك بالرجل السكران ومنعه من السقوط على الأرض. ولكن في تلك اللحظة نفسها أمسكَ الرجل بدييف، ودسَّ المسدس تحت ضلوعه – بعمق، إلى أحشائه. وهمسَ في أذنه:

– كيف علمت أنَّ رئيس القسم رفيقك في الجيش؟ مع أنك وصلت للتو.

لم يستطع دييف أنْ يتذكر ما إذا كان صاحب الشارب الناري قد تمكن من تعبئة السلاح. ربما تمكن من ذلك، وحشا المسدس، وحرَّكَ الزناد.

اعترف دييف بصراحة:

– لم أكن أعرف.

بدا لدييف أنَّ فوهة ماسورة المسدس قد شقَّت مصارينه واستقرت على العمود الفقري – وهي على وشك اختراقه. فشعر بألم وبضيق في التنفّس.

– هذا يعني أنك جئتَ في مدينة غريبة عنك إلى مكتب اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب وطالبت بالزبدة والبيض؟

كانت عينا المحقق صاحيتَين تماماً. مكتبة سُر مَن قرأ

– نعم، هكذا بالضبط.

– انتظر، انتظر... لا بأس، ماذا لو لم يكن المسؤول هنا رفيقك في الجبهة؟ أو إذا لم يصدقك؟ أو إذا لم يتعاطف معك ولم يوافق على إعطائك ما طلبت؟ فماذا كنت ستفعل؟

اعترف دييف بصدق مرة أخرى:

– ما كنت سأغادر المكان حتى تعطوني ما أريد.

ابتعد عنه الرجل الذي بدا كالجذع الصلب، فتمكن مرة أخرى من التنفس.

ضحك صاحب الشارب الناري مندهشاً. وتراخت ملامح وجهه وانتفخت بسرعة، وغشى عينيه مرة أخرى ضباب نشوة السُّكْر، وقال:

– دعك من هذا! إنه لأمر مدهش أنك مجرد قائد لقطار، وتتمتع بمثل هذه الشخصية!

– الحقيقة إني مِقحام من أجل الحصول على احتياجات الآخرين.

استُفِزَّ صاحب الشارب الناري، فتمايل حتى كاد يسقط على الدرابزين. وسأل:

– وماذا عن احتياجاتك؟

– أنا لست بحاجة إلى أي شيء لنفسي!

تمكن دييف من الإمساك بالرجل السكران، ولكنَّ الرجل لم يعد يقف

على قدميه: هبط، وانكفأ إلى الأرض، ومال بكتفيه على سياج الشرفة، ودسّ جمجمته المحلوقة إلى الخارج.

وسُمِعَ صوته المتلعثِم من خلف الدرابزين:

– اسمع، لِمَ لا تعمل معنا في اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب؟ نحن بحاجة لأشخاص مثلك...

وقفت في الأسفل، أمام المبنى، عربة بها أشخاص، كلهم جُرِّدوا من ملابسهم حتى الداخلية وأيديهم مقيدة. والجنود المرافقون لهم يمسكون ببنادق ذات حراب. في الظلام، يطنّ ويرنم نشيج وتنهدات نساء مثل صرير البعوض الثاقب، لكن الباكيات أنفسهنَّ لا يُرَين. وفي المقابل تُرى بوضوح هامة الأصلع الناعمة – تتلألأ في ضوء القمر، كما لو كانت مدهونة بالزيت. يقف الأصلع على الشرفة ويراقب تفريغ القافلة.

تأوّه صاحب الشارب الناري، وهزَّ برأسه البارز من الشرفة وقال بحسرة:

– هناك الكثير من العمل! آه ما أكثره...

ثم راح يتقيأ بغزارة مدة طويلة.

وبعد أنْ أراح معدته، تحسَّسَ عن المسدس الذي سقط بجانبه، وأدخل الماسورة بين أسنانه، وضغط على الزناد – نقرة جافة: مخزن الإطلاقات فارغ. فسحب رأسه إلى الخلف ووقف على قدميه وهمس بحسرة:

– لقد أطلقت الرصاصات كلها على الذباب... اللعنة على الذباب. ماذا؟ (لم يعد يتمتم بل يصرخ بغضبٍ ومرح). على الذباب!

دسَّ سلاحه في حزامه. ونفض بيديه سرواله وأزاح الأوساخ عن ركبتيه، ومسَّد بكفّه على يافوخه. وقال مُجمِلاً على نحو كئيب:

– لا شيء يأخذني – لا الفودكا ولا رصاصة.

وبعد أنْ نسي أمر دييف نهائياً، خرج يسير بخطوات سريعة متّزنة.

***

عاد دييف إلى القطار بعد منتصف الليل. كان رأسه ثقيلاً كأنه محشو

بالحجارة. كان بحاجة بشكل لا يقاوم إلى الجلوس أو الاتكاء على شيء ما، لكن دييف أدرك أنَّ ذلك لا يجوز: ما إنْ يهدأ للحظة حتى يستولي عليه النوم تماماً.

كان القطار «الضفيرة» يقف على القضبان صامتاً ومظلماً، بنوافذ مغلقة، ولكن في عربة الموظفين الرضيع الكتكوت يصرخ صراخاً مبحوحاً. وكانت فاطمة تهدئه لينام: غنت له تلك التهويدة نفسها التي غنتها في قازان – وعند الفواصل بين الأبيات كانت تحتضنه وتوبخه برفق. ولسبب ما، أطلقت على الطفل اسم إسكندر.

طرق دييف على باب مقصورة المفوَّضة بيلايا –بهدوء، خوفاً من إيقاظها وفي الوقت نفسه على أمل أن يجدها مستيقظة– لكن لم يكن هناك أحد. سار على طول القطار كله، من البداية إلى النهاية، ونظر في جميع المقصورات التي نام فيها الأطفال – ووجد المفوَّضة في الطرف الخلفي من القطار: كانت بيلايا وبوغ يجلسان على منصة العربة ويحتسيان الماء المغلي، إما يتحدثان بحديث مُقتَضَبٍ، أو كانا صامتَين.

فُصِلَت عربة المستوصف عن القطار: وقد وضِعَت الأحزمة والسلاسل التي تربطها بالعربة السابقة على الأرض.

بالكاد تحركت شفتا دييف من التعب، وقال بصوت أجش، مثل صوت المريض:

– تفاهمتما، أليس كذلك؟

لم تتفاجأ بيلايا بخروجه من عتمة الليل وقالت بجفاف:

– لقد عُزلتَ من القيادة، من الآن وصاعداً أنا سأتولى القيادة. وسوف يبقى المستوصف مع السقم المُقعَدين في المحطة، وسيبقى معهم المساعد الطبي، لانتظار قاطرة العودة إلى قازان. كما أطلب منك العودة إلى قازان. وفي الطريق، اكتُب مذكرة تفسيرية تصف فيها أسباب المخالفات التي ارتكبتها.

كلمات، كلمات – اندمجت في سحابة ضيقة طافت على دييف وصعدت إلى أذنيه، ولفّت دماغه. واصلت السحابة تدق بصوت بيلايا:

- الذهاب في رحلة لعدة أيام بدون احتياطي من المواد الغذائية - لم يحدث هذا مطلقاً في حياتي. أعدك بأنني سأقدم التماساً شخصياً لإنزال أقسى عقوبة بحقك.

كان كل ما يمكن أن يقوله:

- لن تفعلي. وجبات الطعام الخاصة ستصل في الصباح.

- هل يرسلها الله؟

ما كان للتهديدات ولا للنبرة اللاذعة أن تخترق الإرهاق المتزايد -لم يكن لدى دييف القوة لتبرير فعله أو للاعتراض. لم يفعل سوى أن التقط من الأرض سلاسل الربط التي نُزِعَت للتو وألقى بها مرة أخرى على عتلة الربط- وشدَّ عربة المستوصف بالقطار. هذا كل ما في الأمر.

وعندما نهض بوغ وبيلايا من مقعديهما، عازمين على الجدال، أخرج المسدس من جيبه - بمنزلة الحجة الوحيدة والأخيرة. هذا فحسب.

وقال بصوت مختنق:

- ليلة سعيدة، تصبحون على خير.

- إنك تشدد العقوبة عليك من خلال المقاومة المسلحة.

اتكأ بظهره على صفائح ارتباط العربات، موضحاً بمظهره الكامل أنه لن يغادر المكان، ثم كرر بهدوء:

- تصبحون على خير.

لم يترك المكان. سرعان ما افترقت المفوَّضة والمساعد الطبي، وقررا تأجيل المواجهة حتى الصباح. وظل دييف - لحراسة الوصلات.

كان بإمكانه أنْ يجلس على عوارض السكة ويغفو لمدة قليلة، أو يضطجع ويهجع قليلاً على درجات العربة، أو حتى أنْ يعود إلى المقصورة وينام لبضع ساعات حتى الفجر - لم يكن هذا المستوصف ليذهب إلى أي مكان في الليل. لكن دييف وقف، متكئاً بعناد على الصفائح، متحسساً بعموده الفقري الحبال والسلاسل التي تلتف حولها، كأنما ازداد طولاً.

ولكن، كما اتضح، كان يستولي عليه الوسن في بعض الأحيان. بيد أنَّ النوم كان سمجاً وثقيلاً -لم يخفف من التعب، بل زاد منه. وفي كل مرة

كان يسحب نفسه من النوم كأنه يجره من شعره. إذ يُخَيَّل إليه أنَّ القطار يتحرك ويغادر، تاركاً في المحطة دييف والمستوصف مع المرضى النائمين. أو يتراءى له أنَّ عربة المستوصف تُسحَب عائدة إلى قازان ومعها دييف المتشبث بها- وجميع المنازل والأعمدة والأشجار تمر من جانبه، وتعيد الجوالين إلى نقطة انطلاقهم...

هل حقاً كان يُخيَّل إليه؟ ولكن بالفعل، مرَّت شجرة على طول القطار، ضخمة، ذات أوراق صفراء وخضراء. مرّت بشكل غريب - لا تقف منتصبة، كما ينبغي أن تنتصب الأشجار، بل امتدت، كما لو كانت تتمايل على أمواج ضباب الفجر؛ الأغصان المنتشرة خدشت الأرض وصرَّت صريراً مقرفاً على نوافذ العربات. إنه هذيان، هذيان! هز رأسه المشوَّش من الأرق، لكن الشجرة لم تختفِ، بل أصبحت مميزة أكثر فأكثر. امتدّ غصن طويل إلى دييف وضرب وجهه. اهتزّت ثمرة خضراء على الغصن: إنها شجرة تفاح.

ذُهِلَ دييف من هذه الرؤية الواضحة، وقفز إلى رصيف المحطة، فرأى الشجرة المقطوعة من الأصل تنقلها سيارة: كان جنود جالسون في الخلف يمسكون بساق الشجرة، وأطرافها العلوية تجرّ على الأرض. أضاء نور الفجر قليلاً في السماء، ولكن برغم وجود ضباب الصباح الخفيف كانت الرؤية ممكنة: كانت في الشجرة وفرة كثير من التفاح.

قفز صاحب الشعر الذي يشبه صوف الكبش من السيارة، وقال معتذراً:

- ما كان لدينا الوقت الكافي لجمع الثمار، لذا أحضرنا الشجرة كلها. أين نفرِّغ المواد الغذائية؟

لم يجد دييف من الدهشة كلمات كي يقولها، فأشار بيده إلى المطبخ الميداني - فرفع الجنود شجرة التفاح ودفعوها بسرعة فوق السطح، وربطوها بشيء ما: المطبخ الصغير اختفى تقريباً تحت مظلة النبتة الضخمة.

راقب الأطفال الناعسون العملية وقد ألصقوا أنوفهم على النوافذ وفغروا أفواههم. تدفق الكبار إلى الشارع وأحاطوا بالسيارة، لكنهم لم يجرؤوا على الحديث مع رجال اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب - وهكذا وقفوا صامتين، مذهولين، وهم يشاهدون تفريغ الهدايا.

بالإضافة إلى التفاح، جُلِبَت العديد من الأكياس الضخمة، محشوة بإحكام بحيث اختلطت محتوياتها: البطاطا مع قطع شحم الخنزير المقدد، والشوفان في البيض المُكسَّر، والتوت المجفف الملتصق بالسمك المجفف. هذا كله أُلقي إلى ميميليا الطباخ. كان ثمة كيس ثقيل آخر يرن رنيناً غريباً؛ نظر دييف في داخل الكيس، فوجد كومة من شظايا الخزف -قطع من أكواب وصحون مطلية؛ كان من الواضح أن طقمَ شاي، أو حتى طقمَين، قد دُفِنا في الكيس. فقرر دييف، أنْ يُسَلِّم هذا أيضاً إلى ميميليا، ومن ثم يتدبرون الأمر. ووصلت بعد ذلك سلال بها دجاج: جلست الدجاجات بإحكام في سلال من الخوص- لم تكن قادرة على الحركة، وبعضها كاد يختنق في الطريق وبالكاد يتنفس. وهذه لميميليا أيضاً! وزجاجة حليب - إلى هناك أيضاً! وقُلَلٌ مليئة بالقشدة الحامضة...

وبعد أنْ غادرت سيارة اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب المحطة واختفت في الضباب سألت بيلايا:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- كيف استطعتَ أنْ تفعل ذلك؟

هز دييف كتفيه:

- لا أعرف. حالفني الحظ.

جاء راكضاً سائق القطار الذي كان يراقب المشهد من بعيد، وقال:

- أيها الرفيق، قائد القطار! هل تأمر بأنْ نشغّل الماكنة؟

أومأ دييف برأسه:

- نعم، شغّل، ولا تبخل بالفحم. اسمع، يجب أنْ نسرع مثل الطيور!

وانطلقوا فعلاً مثل الطيور -بعد ساعتين، عندما سخن المحرك، وتغذى الأطفال بهلام النخالة الكثيف مع التفاح. أُعطي المُقعدون خليط البيض والحليب- بضع رشفات من الحليب المخفوق مع البيض ورشة طحين لكل واحد منهم.

لم يرَ دييف هذا -فقد نام في مقصورته، ودفن أنفه في المقعد المنجَّد بالأزهار، من دون أن يخلع معطفه وحذاءه. تدلت ذراعه ورجله على

الأرض، والمسدس المخبّأ في جيبه استند إلى فخذه، ونوابض الأريكة توخز صدره- وشعر بالراحة. كان نومه حلواً وخفيفاً - ولكن في بعض الأحيان كان ينقطع بصوت أو بفكرة غير متوقعة: تارة يشعر بالأسف لعدم وجود عسل للطفلة النحلة بين الهدايا، وتارة يستولي عليه القلق من أنّ الحليب سوف يتخثّر بسرعة...

عمَّ الهدوء في عربة الموظفين: فقد شبع الصغار، وحتى الرضيع الكتكوت سكتَ بعد أنْ أُرضِع. لكن فاطمة استمرت في الغناء لسبب ما، فشعر دييف بالسرور من ذلك، وكأنها تغني له. أتى الصوت من الممر بالكاد يمكن سماعه، لكن لم تكن لديه القوة للنهوض وفتح باب المقصورة - كان يطفو على أمواج النوم، مسترشداً بأصوات لطيفة، تارة يغرق في السبات، ثم يُنتَشل منه.

أسماء الرجال - رماد ماعدا اسمك.

وجوه الرجال - تموجات على الماء.

أصوات الرجال - رياح في الجبال،

ماعدا صوتاً واحداً - صوتك، يا إسكندر.

مَن يكون إسكندر هذا، بالنسبة لها؟ الابن؟ الزوج؟ الحبيب؟ كانت التهويدة تهويدة أُمٍّ، لكن في الصوت الشادي الهادئ كان ثمة شغف كبير لدرجة أنَّ دييف كان سيؤمن بأيّ تفسير.

خُيِّل إليه كما لو أنَّ العجلات كانت تطرق الآن بطريقة مختلفة: إسْ -كَنْ- دَر، إسْ -كَنْ- دَر... والبخار الخارج من الصمامات يصفِّر صفيراً خاصّاً: إس-س-س-س-س-س-س-س! ودوّى صوت صافرة القطار بنغمة تعصر القلوب: إسكندر-ر-ر-ر-ر-ر-ر-ر-ر-ر!

لا أحتاج بنات - لا واحدة ولا دزينة.

ولا أريد أبناءً آخرين.

لا مكان لأحد - لا في قلبي ولا في ذهني.

كل شيء ممتلئ بك،
مثلما أنَّ قاع البحر ممتلئ بالماء.

انطلق القطار كالطائر عبر الغابة السوداء، يخترق سحب الضباب ويقذف سُحُباً مثلها في الفضاء. تراكمت رطوبة الصباح على جوانب العربات الحديدية، وزحفت على شكل قطرات على الزجاج، فغسلت النوافذ ووجوه الأطفال المتوهجة فيها.

على سطح المطبخ الميداني، بين أغصان شجرة التفاح القوية، جلس ميميليا وقطف التفاح. وقد ملأ جميع الأكياس والسلال الفارغة بالفواكه - ولم ينفد التفاح. جعلته هذه الوفرة غير المتوقعة أحياناً يضحك كثيراً، ويغمض عينيه ويقتنص الريح القادمة بشفتيه. وعندما يتوقف عن المرح تدعوه الشفقة على الشجرة المقطوعة إلى البكاء، فيمسِّد على اللحاء الخشن، ويهمس لها معتذراً.

ليتني نقرتُ النجوم من السماء وابتلعتُ الشمس -
ولا يأتي إليّ صباح الفراق.
لكن لا يمكنني إجبارك على النوم إلى الأبد.
وبالتالي - نَم واستيقظ،
استيقظ رجلاً.

في نهاية القطار، وقف المساعد الطبي بوغ على منصة العربة ونظر إلى القضبان والعوارض التي تتدفق في البعد خلفه. ويرى كيف تدفقت أشجار الصنوبر بعيداً عنه، وأشجار البتولا والتوت النابتة على طول حواف السكة الحديدية، والمسارات والوديان، وقطع السماء الرمادية المنعكسة في البرك -كل شيء تدفق بعيداً. وخلفه، في أعماق عربة المستوصف، كان الأطفال ينتظرونه. وينتظره المريول الأبيض، الذي أخرجه من الحقيبة مرة أخرى ووضعه بأناقة على المقعد الخشبي. وكان عليه أن يذهب إلى هناك،

وبالطبع، أنْ يرتدي المريول، ويكون مع الأطفال- كم كان هذا الصباح منعشاً ورقيقاً للغاية وكم كان هذا العالم الذي يكتنفه الضباب مُتغيِّراً لدرجة أنَّ بوغ واصل الوقوف.

أنا – طائر غارق في أمواج البحر.

أنا نجم سقط في البئر.

أنا سمكة زاحفة على الرمال.

هكذا حالي، أنا، من دونك، يا بُنَي الحبيب.

في عربة الموظفين، في أبعد ركن فيها، على سرير خشبي، خلف ستارة من قماش الشيت، رقدت فاطمة. لم ترقد بمفردها، بل استرخى الطفل النائم من دون هموم على صدرها. تدحرجت من فمه، المفتوح قليلاً كأنه مبتسم، قطرةٌ فاتحة اللون على خده –فقد تجشّأ تجشؤ شَبَعٍ. التفّت المرأة حول الطفل، ودثَّرت نفسها في بطانية، ولفّت نفسها كالشرنقة- وغنت تهويدتها التي لا تنتهي. وكانت في فترات التوقف بين المقاطع، تلتصق بيافوخ الرضيع –وتقبّله، وتُقَبِّل صدغه الصغير، وجبينه- بحرارة وبكثرة.

نصحَت فاطمة الرضيعَ: «نَمَ، يا ولدي، نَم واستيقظ رجلاً...»

فأطاعها دييف وغفا.

***

قبل أنْ تصل شمس شهر أكتوبر (تشرين الأول) الشاحبة إلى كبد السماء، استيقظ دييف ونهض على قدميه. كان جسده يؤلمه من الأرق ورأسه مشوَّشاً، لكنه أدرك أنَّه سوف يتجاوز الحالة وينسى التعب. لم يكن لديه وقت للنوم، ففكَّر مع نفسه: لقد وعد بيلايا أنْ يعملا معاً – هيّا، افعل.

لم تكن المفوضة في المقصورة، فأراد أنْ يبحث عنها في القطار، لكن شيئاً ما في مأوى بيلايا دفعه إلى أن يدخل إلى المقصورة وينظر بعناية. لأول مرة، نظر دييف إلى المقصورة المجاورة في ضوء النهار ولم يجد شيئاً مميَّزاً

فيها: الأريكة كانت عريضة، والطاولة المُلصَقة بالنافذة مصقولة، والستائر من المخمل. بعد لحظات فقط أدرك لماذا تجمد مذهولاً: لم تكن ثمة بتلات زهور هنا. فقد كُسِيَت الغرفة بخشب البلوط الأسود وبقماش عنابي اللون -لا توجد شراريب على الستائر، ولا توجد زخرفة على السقف، ولا شمعدانات محزّزة من الجدران. من الواضح أنَّه حصل على مقصورة النساء والمفوضة أخذت مقصورة الرجال. نحنحَ دييف، لكن لا يمكن فعل شيء- لا يستحق الأمر أن يُثير نزاعاً حول مثل هذا الهراء.

عثر على بيلايا في حجرة المطبخ - كانت تتفقد المواد الغذائية. لم يقل شيئاً وانضم إلى التفتيش في صمت؛ وفي الوقت نفسه، اتخذ وجهه هيئة أكثر جدية، إلى درجة كان واضحاً معها من النظرة الأولى مَن المسؤول هنا. ما إنْ دخل دييف إلى عربة المطبخ حتى حدّقت إليه الدجاجات المنتشرات في العربة بعيونها المكوَّرة واندفعت بعيداً على الجانبين وهي تقاقي. فأمرت بيلايا:

- يجب إخراج الدجاجات من المطبخ، إلى عربة الموظفين في مقصورات التدفئة. وأنْ تُقَصّ لها مجاثم من أغصان شجرة التفاح. وتُحشى السلال بالقش وتصنع أعشاش لها. وتُكشَط الأرضية التي ذرقت فيها الطيور وتُرَش بالرمل.

كرَّرَت بيلايا كل عبارة عدة مرات. من أجل الوضوح، وغرزت إصبعها في جميع الأشياء المسماة، وفي فترات التوقف بين التعليمات، كانت توجه نظرات معبِّرة إلى ميميليا. فكان الرجل يرتجف بذقنه من الحماسة، ويندفع على الفور لتنفيذ كل طلب، ولكن لم يكن لديه الوقت لإنهاء ما بدأه: سقطت الأوامر على رأس الطباخ الأشعث واحداً تلو الآخر، فكان يدور مثل الدوّامة في مساحة المطبخ الضيقة يكاد ينهار على الأرض من الحماس.

- اغسل طاقية رأسك والمئزر النظامي حتى يصبح لونهما أبيض. واغسل عنقك! ونظّف أظافرك من الوسخ الكامن تحتها!

قال دييف مع نفسه إنَّ الأحمق لن يفلح في تنفيذ الأوامر. سوف ينسى، ويخلط بينها: بدلاً من المئزر، سيغسل الدجاجات، ويملأ طاقية الرأس

بالقش... لكنَّ شكه كان عبثاً: فحتى قبل الظهر، كانت حجرات المواقد في عربة الموظفين (زاويتان كانت بهما بطاريات التدفئة والحطب) قد تحولت إلى أقنان دواجن. وجلست الدجاجات البيّاضات على أغصان التفاح -في طبقات عديدة، من الأرضية إلى السقف، والتصقت حول المواقد الدافئة والحطب؛ سعت بعض الدجاجات إلى الصعود إلى أعلى أو النظر من النوافذ- فكانت تسقط وترفرف على الأرض؛ امتلأت عربة الموظفين بالقيقاء وبزعيق الطيور. حاول الأطفال الفضوليون تكوين صداقات مع الدجاج، ولكن الطيور احتُجِزَت وأُغلِقَ عليها بالقفل والمفتاح - ليس عن الصغار من الأطفال، بقدر ما عن الأولاد البالغين الذين، ربما، يرغبون في الحصول على بيضة طازجة.

وسرعان ما غُسِلَت ملابس الطاهي وشُطِفَت أرضيات المطبخ. وقُطِّعَ ساق شجرة التفاح المتبقي بعد بناء حظيرة الدجاج لاستخدامه بمنزلة حطب. وأُجـرِيَ جرد لجميع هدايا اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب في مدينة سفياجسكي: لم يكن ميميليا يعرف الكتابة أو الحساب، وبالتالي، بناءً على نصيحة المفوضة، خربشَ على خشب الجدران بالطباشير صور المواد الغذائية -البيض، جِرار القشدة الحامضة، أكواز الحبوب- ومقابل كل رسم خطَّ بعنايةٍ العدد على شكل عِصي، إلى درجة صار المطبخ الصغير الآن يشبه إلى حد ما كهفاً رسم على جدرانه الإنسان القديم.

لا بد من الاعتراف: إنَّ بيلايا وجدت طريقة للتعامل مع الطاهي الغبي أفضل بكثير من تعامل رئيس القطار معه. عندما بدأت المفوضة وميميليا مناقشة قائمة العشاء (في ظل وجود الوفرة من الطعام، تقرر إطعام الركاب بسخاء -مرتين في اليوم، في الصباح والمساء)، أراد دييف أنْ يتدخل في الحديث، لكنه لم يفعل: كان الحديث عن العصيدة قليل الأهمية. المفوضة تتدبّر الأمر- لا بأس، دعها.

وبالفعل تدبَّرَت الأمر بشكل جيد. فقد أمرت بعدم نقل الطعام الخاص بالأطفال المُقعَدين إلى عربة المستوصف إلا بعد إطعام الأطفال في عربات الركاب، وأنْ يكون الطعام في دلو بغطاء مغلق بإحكام - حتى لا

تثير الروائح لدى الآخرين الحسد والأحاديث التي لا لزوم لها. وأمرت بالإبلاغ الفوري عن كل مَن يجرؤ على التدخّل في شؤون المطبخ خلافاً لحظر المفوضة؛ والمخالف سوف يُعاقَب بالحرمان من الطعام. وأمرت بحصة مزدوجة للبنت الحامل.

وبعد أن دبَّرا الأمر في المطبخ، توجّها إلى العربات. أجرت بيلايا هذه الجولة التفقدية بهدوء -بالرغم مما حدث في الليلة البارحة، وحاولت عدم التدخل في مسار الحياة الجاري في القطار: تحدثت مع الممرضات فقط، وكانت تستدعيهنَّ حسب الحاجة إلى مدخل العربة أو تنعزل عند الموقد. أعطت الكثير من التعليمات، لكنها استفسرت واستمعت أيضاً. وأصغى إليها دييف أيضاً- وأخذ كلامها بنظر الاعتبار.

حدَّدوا جدولاً زمنياً لتنظيف ومسح المقصورات والمراحيض -مرة واحدة على الأقل يومياً. كان هناك دلو واحد فقط لغسل الأرضيات- فاتفقوا على استخدامه بالدور، ونقله من عربة إلى أخرى. لم يكن ثمة دلو آخر للغسيل في القطار، ولأسباب صحية تقرر تنظيف المراحيض باستخدام جرن المعمودية الصغير الموجود في حاويات عربة المستوصف (التي كانت عربة الكنيسة) - وهو عبارة عن دلو نحاسي اخْضَرَّ لونه بفعل الزمن، مجعد تماماً وقاعدته السفلية غير موجودة، ولكنه من دون ثقوب.

لم يكن ثمة أمل في ترتيب حمام أثناء الطريق (حتى مؤسسات الأطفال المستقرة لم تكن قادرة دائماً على تحمل مثل هذه الرفاهية)، لكن دييف شدَّ العزم وعدَّ العدة على غسل وتعقيم البياضات في مكان ما بالقرب من أرزاماس أو أورينبورغ. لذلك، كان من الضروري إعداد القمصان -وتطريز رقم تسلسلي على كل منها. وبالنسبة للأطفال القصار القامة، لا بأس بقص الملابس الداخلية حتى لا تجر على الأرض ولا تبلى. كل هذا عُهد به إلى الخياطة السابقة، التي كان لديها بضع بكرات من الخيوط وإبرة- الإبرة الوحيدة في القطار. تقرر إبقاء الإبرة تلك -التي تمثل قيمة عظيمة وذات أهمية اجتماعية- مغروزة في قطعة من القماش؛ ووضِعَت القطعة في ظرف إطلاقة نحاسي فارغ، ووضِع الظرف في علبة بارود بالية.

وكُلِّفَت أمينة المكتبة، التي جلبت معها مُجَلَّد أعمال ليرمونتوف في الطريق، بترتيب ساعات للقراءة في المساء في العربات. أثناء تصفح الكتاب الصغير الممزق، لم يجد دييف أي شيء مفيد فيه - مجرد قبلات وتنهدات فارغة، لكنه لم يجد فيه أيضاً أيَّ شيء مضاد للثورة. ومع ذلك، لم يكن ثمة خيار آخر: هذا الكتاب أيضاً الكتاب الوحيد في القطار. دع الأطفال يستمعون، سمح دييف. سوف ينامون بشكل أفضل.

تطوعت أرملة الموظف عن طيب خاطر لترتيب دروس في الغناء الجماعي كل يوم -استُحسِنَت الفكرة وسُمِح بها. لا بأس أنْ ينشغل الأطفال بشيء آخر- بالعمل اليدوي أو التنوير السياسي - حتى تقل معاناتهم من الكسل، لكن في غياب العاملين التربويين اقتُصِرَ على الشعر والموسيقى.

عرضت الفلاحة، التي أرادت أن تكون مفيدة أيضاً، أن تتمتم عند كل طفل بتعويذة للحفاظ على الصحة، لكن هذه المبادرة قوبلت بالرفض من طرف دييف والمفوضة.

تنهد بوغ عندما أخبروه عن الرّقية، وقال:

- المرضى لا يحتاجون إلى التعويذات، بل إلى اللحم. لإعادة تكوين القوة الجسدية المفقودة، يحتاج الأطفال إلى البروتين.

ضحكت بيلايا ضحكة ساخرة، وقالت:

- هذه المسألة من شأن رئيس القطار. إنه المسؤول عن المعجزات.

غضب دييف، وقال:

- ادعوا الساحرة تستحضر اللحوم لكم! وبرميلاً من العسل. ومصنعاً للملابس أيضاً. وأنْ نستيقظ يوم غد ونجد أنفسنا في سمرقند - الجميع ببطون شبعانة ويرتدون أحسن الملابس وبصحة جيدة!

لقد ردَّ دييف بفظاظة ولكنه أدرك: عبثاً فعل. على مدار اليوم، أصبحت الممرات الراكدة صامتة تماماً وهادئة: على الأسرة المكونة من طابقين -لا صوت، ولا تنهيد، ولا أدنى حركة. تمايلت العربة واهتزت أثناء سيرها، واهتزت معها أجساد الأطفال المسطحة المتدثرة في بطانيات من خيش الأكياس هزّاً خفيفاً، كما لو أن الأكياس لا تحتوي على كائنات بشرية، بل

قطع من الورق المقوى. انحنى دييف على أحد الأَسِرَّة الأمامية– لم يُسمع أيّ نَفَس.

فأوضح له المساعد الطبي:

– لقد تعبوا بعد الإفطار، وهُم الآن نائمون. إنَّ هضم قدح من الحليب المخفوق مع البيض يتعبهم مثلما نتعب أنا وإياك عندما نحرث حقلاً كاملاً.

جالت المفوضة ببصرها بهدوء حول الأَسِرّة، من دون أن تركِّز نظرها على أيّ شخص، ولهذا، حولت الحديث بسرعة إلى مشاكل الأطفال الأصحاء، فأدركَ دييف: بالنسبة لبيلايا، لم يعد الأطفال المقعدون في عِداد الأحياء.

ناقشوا الهدايا التي صارت من حصة المستوصف مما جادت به اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب: من بين السلال والطرود التي تحتوي على المؤن، عُثِرَ كذلك على كيس ضخم به أدوية. تحدثَ المساعد الطبي عن الهدية، وبدا عابساً وفي الوقت نفسه غير قادر على أنْ يكبح الابتسامة –بدت محتويات الكيس كأنها أشياء سرقها لص غبي: حبوب ومراهم وأدوات من أكثر التخصصات الطبية تنوعاً مخلوطة؛ فقد اختلطت القوارير، وثنيت مقاييس الدواء الهشة، وانسكبت المستحضرات العشبية من الأكياس، لتشكل خليطاً مثالياً. وإذا كان لا يزال من الممكن استخدام بعض الوسائل (الشموع ضد البواسير يمكن استخدامها لتليين قروح المقعَدين، على سبيل المثال)، فقد تبين أنَّ بعض الأدوية غير مجدية تماماً– مثل بلسم العناية بالشارب أو لقاح داء الكلب. يبدو أنَّ كل ما عُثِرَ عليه في عداد الصيدلية قد جُرِفَ ببساطة في الكيس –من دون تفكيك ومن دون قلق كبير على الحفاظ على سلامته من التلف. وشملت الموجودات نظارات بالية لشخص ما، وكومة من ملصقات الأدوية، وأكمام الصيدلي. وأغرب شيء كان جمجمة بشرية– قوية، بيضاء مائل لونها إلى الصُّفرة، مع ملصق غريب مكتوب بلغة أجنبية في الجزء الداخلي من مؤخرة الرأس. أمرَ دييف بإلقاء الجمجمة وترْكِ الملصقات – مهما كانت، فهي ليست سوى أوراق.

اتفقوا على كيفية حماية الثروة، التي حصلوا عليها، من غارات المتطفلين: حذرت بيلايا من أنه قريباً جداً –ربما، اليوم أثناء الفحص الطبي– سوف

يفلت الأولاد الذين في عربات الركاب من رقابة المربيات ويظهرون في المستوصف للتطفل والمزاح. فقُرِّرَ أن تأتي إحدى الممرضات إلى هنا أثناء الجولة لحراسة الممتلكات.

وحذرت بيلايا أيضاً من أنه سوف يظهر بالتأكيد في القطار المتمارضون - سيبدؤون في التلوي من الألم وتمثيل مختلف أنواع الأمراض، لغرض وحيد، هو الاستلقاء في سرير المرضى وتذوق حصص المستوصف، لذلك لا ينبغي تصديق التشنجات والمغص، بل تلك الأعراض فقط التي لا يمكن إنكارها: الطفح الجلدي والحرارة وغيرها من العلامات الواضحة...

مثلَ جنرال قبل المعركة، سعت بيلايا للتنبؤ بكل مناورات العدو وأعطت تعليماتها بصبر لمرؤوسيها. المساعد الطبي ذو الشعر الأبيض، والممرضات، وميميليا الأحمق -كلهم أقرّوا بقيادتها. وماذا في الأمر! حتى دييف، بعد أن أمضى اليوم الأخير معها، كان على استعداد للموافقة: هذه المرأة شخصياً- إنسانة مزعِجة، وامرأة سافلة وأفعى، ولكن لن تجد مفوضاً أفضل منها.

كان فيها عيب واحد فقط لم يُرِد دييف أن يتحمله ولم يستطِع ذلك: كل طاقتها ومهاراتها وقوتها العقلية كانت موجهة للأطفال الأصحاء. لأولئك الذين سيصلون بالتأكيد إلى الوجهة النهائية، مما يعني أنَّ الجهود المستثمَرة لن تذهب سدى، تماماً مثلما لن تضيع أموال الرأسمالي الحكيم المستثمر في بنك موثوق به. أما السقم المُقعَدون فلا ينالون من المفوضة -لا نظرة انتباه، ولا فكرة اهتمام، ولا شيء. لم يكن من الممكن بأي حال من الأحوال تسمية هذا باللامبالاة أو الشُّح الروحي- ربما لأول مرة في حياته، لاحظ دييف شخصاً بهذا القدر من الحماس في عمله. إذاً، كيف يمكن تسمية فعلها هذا؟

قال وهو يغادر المستوصف:

- سوف أُحضِر اللحم.

لم يوجه خطابه إلى المساعد الطبي ولا إلى المفوضة، بل خاطب نفسه.

فردَّت عليه بيلايا:

- بعد ما حدث هذا الصباح، أكاد أصدقك.

لم تكن في صوتها نغمة سخرية.

***

في بلدة تورليما، عند محطة التزود بالمياه مباشرة، توقفت القاطرة، فراح السائق يتحرك بسرعة واهتياج حول المحرك البخاري، الذي تجمَّد على القضبان، وكان وجهه مكفهراً من نذير الشؤم. فقد طار صمام الفحص في حجرة الخلط، وكان بحاجة إلى تنظيف - العمل بسيط، ولكنه يتطلب دقة ويستغرق وقتاً طويلاً.

صعد السائق تحت الكابينة، يتمتم بشتائم. أما دييف فضرب بقبضته على جانب القاطرة بانزعاج: كان التأخير في غير وقته - فقد كان بإمكانهم أنْ يجتازوا قبل حلول الليل خمسين فرسخاً أخرى! وعلى الفور أحسَّ بالخجل، ومسَّد على الآلة كأنه يسترضيها. إنَّ ضرب القاطرة أسوأ من ركل الكلب: قد يزمجر الحيوان أو يعض، لكن الآلة لا تفعل ذلك.

وسرعان ما تشكل الناس حول القطار «الضفيرة»: متاجرون صغار بالمواد الغذائية بوجوههم السمراء من الغبار العالق بها من عدة أيام، ونازحون مع حقائب كبيرة الحجم، وشلة من أنواع المشردين. لم يطلبوا شيئاً، ولم يقولوا أي شيء بوقاحة - بل جلسوا بعيداً بكل بساطة، ومدوا أعناقهم، وحدّقوا بأعينهم التماساً: ألا يمكن العثور على شيء من الطعام على الأقل؟ ألا تأخذوننا معكم ولو لمحطة واحدة؟ مثل هذه الصورة تظهر بالتأكيد في كل محطة يتوقف فيها القطار لأكثر من ربع ساعة: كان هناك عدد قليل من القاطرات البخارية على السكة، والناس الجوّالون في البلاد لا يُعَدّون ولا يُحصَون.

أمُرِ َميميليا بصرامة بعدم مغادرة المطبخ أثناء التوقف؛ ومُنِعَ حتى من فتح مقطورته المليئة بالأكياس وبرائحة التفاح. ولتجنب أي سوء تفاهم، كان هناك دائماً عند باب المطبخ فأسٌ وحربةٌ حادة ذات طرفَين، صنعها الطباخ بنفسه، وفي جيبه كانت صافرة من صافرات السكك الحديدية أعطاها له

دييف (كانت صفارة خارقة لدرجة يصمّ صوتها آذان الأطفال). في المواقف الخطيرة، كان من المفترض أن يقاتل الطاهي المهاجمين حتى الموت ويستعمل الصافرة، طلباً للمساعدة من رئيس القطار والمساعد الطبي.

بعد أن جالَ دييف النظر حول أولئك المتجمعين عند القطار ولم يرَ من بينهم لصوصاً واضحين خطرين، ذهب يتمشى في المحطة. كان التفكير في اللحم مثل مسمار يدقّ في ذهنه. وفكّرَ أيضاً في الحليب: نصف الدلو المغلي رُكِنَ في أبرد زاوية في المطبخ وكان مخصصاً حصرياً للكتكوت الرضيع، ولكن كان من الواضح أنه سوف يخثر عن قريب -في غضون يومين أو ثلاثة أيام، لكنه بالتأكيد سوف يحمض. فما عساه أنْ يفعل بعد ذلك؟ هل سيذهب مرة أخرى ويركع أمام اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب؟ قد لا يحالفه الحظ في المرة الثانية مثلما حالفه في المرة الأولى. أو، لربما لا يحالفه على الإطلاق- وسيحدث حقاً ما لم يرغب حتى في تخيله.

كانت بلدة تورليما مليئة بالناس، كما لو لم تكن قرية تقع خلف منصة التوقف، بل مدينة كاملة: أينما وجَّه المرء بصره -يرى الناس يرتدون الأردية التترية، والسترات الروسية المصنوعة من جلد الغنم، والمعاطف القيرغيزية- الممزقة والداكنة بسبب المطر والطين، والتي بالكاد يمكن التمييز فيما بينها. والوجوه بالكاد يمكن تمييزها: كالحة، جائعة، غاضبة. بعض منهم نائم، وبعض يراقب، وبعض يصلي حزيناً بعد أنْ مدّ سجادة صلاة على الأرض. النساء المنحدرات من شعب الماريين يجلسنَ على بالات، وينشرن تنانيرهن العريضة فوقها، ويطردن عنهنّ أولاد الشوارع -العراة، السود من الشمس، المغطاة أجسادهم كلها بالجرب، الذين يتسكعون حول المحطة مثل قطيع جائع. وهذا رجل بشكيري حافي القدمين يجر عربة فيها أطفال عراة- مضغوطون بعضهم على بعض ومُدَثَّرون بشظايا من الألواح. وحول تورليما وناسها المتعبين الذين ملأوها، هناك سرب ضخم من العربات ودخان النيران: فقد وصل النازحون إلى خط السكة الحديدية وأقاموا مخيمات ينتظرون فرصة سعيدة -يركبون فيها قطاراً عابراً. الطريق واحد للجميع- إلى الغرب، إلى العاصمة.

كلا، كان البحث عن اللحم في المحطة ميئوساً منه – فقد أُكِلَ كل شيء هنا وبالتأكيد: القطط والكلاب، والسناجب الأرضية والجراد في السهوب. الآن فحسب خطرت لدييف فكرة واحدة عن الحليب...

سار على طول المنصة الخشبية -لم يجد ما كان يبحث عنه. نظر مِن حوله إلى جميع المقاعد في حديقة المحطة، لكنه لم يعثر هناك على ضالته. ثم نظر إلى كوخ الانتظار- فوجد: امرأة، ممتلئة الجسم ومترهِّلَة، مثل كدس التبن، ذات وجه شاب وناعم؛ صدرها الكبير بارز إلى الأمام، وخلفها كيس يتأرجح، وعلى ذراعيها لفة فيها رضيع. كانت المرأة تجلس مكتئبة بين الناس وتهز الطفل الصامت -بشكل رتيب، كما لو كانت تطحن الحبوب؛ لا تنظر مِن حولها ولا تبحث عن أحد- من الواضح أنها تجوب البلاد من دون زوج.

حبك دييف حاجبيه أكثر صرامة، وفرَجَ كتفيه أوسع. ومشى نحو المرأة ووقف إلى جانبها – وأطلَّ مثل الجدار، وقال:

– إلى أين أنتِ ذاهبة، أيتها المواطنة؟

تمتمت المرأة:

– إلى موسكو.

وجعلت تحدق إلى سترة دييف العسكرية وإلى سرواله -سروال الخيّالة، وجزمته العسكرية- وتكوَّرت عيناها من الخوف. ارتجفت شفتاها، لكنها لم تستطع أن تقول أي شيء وشحبت على الفور – كما لو أنَّ الألوان مُسِحَت كلها من وجهها.

أومأ دييف وذهب إلى المخرج من دون أن يستدير:

– تعالي معي!

بدأت المرأة ترتجف وسارت خلفه.

قالت وسُمعَت في صوتها المرتعش نبرة الدموع المنهمرة:

– أيها المواطن المُفَتِّش، أيها المواطن رئيس المحطة... أيها المواطن منتسب اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب...

ساراعبر رصيف المحطة، وسحقا الحصى عبر مسارات السكة الحديدية المتشابكة - وعندما وصلا إلى الساحة الخلفية من المحطة، وراء العربة الوحيدة المتوقفة، استدار دييف إلى المرأة مرة أخرى. نظرت إليه شاحبة، بخدود ورموش مرتجفة، بخضوع وتوسل، مثل بقرة في مسلخ.

أمرها دييف بصرامة:

- أرِيني ثديَيْكِ.

- ممم؟

كل ما استطاعت، فعله أن تمتمت من الخوف والذهول.

- هيّا؟!

بعد أنْ حملقت بعينيها كالمجنونة تماماً -حتى كادت تسقط!- نقلت المرأة اللفة التي فيها الطفل إلى إحدى يديها، وفتحت سترة الفراء باليد الأخرى، ودسّتها في فتحة الثوب وأخرجت ثديها -المكوّر الممتلئ، مثل الرغيف، المليء بالنمش، وبنتوءات العروق الزرقاء. فانتصبت أمام دييف حلمة قرمزية بحجم حبة البرقوق، وانتفخت على الفور قطرة بيضاء وارتجفت عند الحافة. التقط دييف، بإصبعه السبابة، القطرةَ ووضعها في فمه- فأحسّ بالحلاوة والدسومة على لسانه.

ثم أمرها:

- الثاني.

أخرجت المرأة الثدي الثاني.

أخذ العينة وأومأ بارتياح، وسارا باتجاه القطار «الضفيرة» وقال للمرأة في الطريق:

- حليب جيد. سآخذك إلى أرزاماس، وفي المقابل، سترْضِعين طفلي. أولاً، أعطي الحلمة لطفلي -حتى يبدو عليه الشبع من بطنه، إلى حد التجشؤ والنعاس- وبعد ذلك فقط تعطيه إلى طفلك. إذا رأيتُ، وإنْ مرة واحدة، أنّك لم تُطعمي طفلي إلى حدّ الشبع أو تُرضِعين طفلك قبله، فسوف أُنزِلُكِ من القطار. هل فهمتِ؟

دلَفَت المرأة خلفه، وهي تهز رأسها بامتنان وتلهث قليلاً، إما من المشي السريع أو من الحظ الذي وافاها على نحو غير متوقع.

حشرت نفسها في عربة الموظفين وقالت بقلق:

– وإذا لم يأخذ الثدي؟

لم يفهم دييف، فسألها:

– من الذي لن يأخذ؟

– إذا لم يأخذ ثديي؟

– إذاً، عندئذ، لن آخذك!

لكن الكتكوت الصغير أخذ الثدي. ولأنه كان متعطشاً للحصول على حليب النساء، فقد التصق بحلمة ثدي المرأة، وما إنْ أدخلها في فمه، حتى مصّها بشراسة بخديه. كانت رشفاته المسرعة صاخبة ومصحوبة بأنين؛ أزبد الحليب ونزل على ذقن الطفل. ومن حين لآخر، كان يختنق، ويزمجر بانزعاج ويتشبث بمصدر الطعام المعلق فوقه.

أخرجت المرأة الثدي الثاني أيضاً بعناية ومن دون أن تمنع الكتكوت الصغير من الشبع، وأسندت إليه طفلها. وهكذا جلست –وهي تنشر ذراعيها بالكامل على الجانبين، مثل جناحين: في كل منهما– طفل. تألق الثديان الكبيران في شبه العتمة في العربة، وأشرق وجهها بسعادة وفخامة. وقف دييف في مكان قريب، غير قادر على رفع عينيه عن المرأة، وشعر برائحة جسدها الحامضة القمحية. وفكر بأن يوبخها لأنها بدأت إرضاع طفلها مبكراً – لكن ثدييها كانا كبيرين وقادرَين على إطعام الرضيعَين بسخاء لدرجة أنه كبح نفسه.

وقفت المفوضة في الجوار وراحت تنظر – جعلها هذا تشعر بالإحراج ولامس روحها: فخجلَ دييف (يا ترى، من نفسه؟ أَم من هذه المرأة الوقحة؟)، ووَدَّ لو تطول هذه اللحظة، وكأنها حوَّلَته هو وبيلايا إلى شريكين في شيء مهم وخفي.

ولكن فاطمة لم تنظر: بمجرد أن أدركت أنَّ دييف وجد مُرضِعَة، ذهبت

إلى نافذة العربة البعيدة وتجمدت بوجه غير مبالٍ -وجعلت تنتظر حتى يتناول طفلها إسكندر غذاءه. ثم أخذت الطفل الثقيل النائم من المرأة- ولم تتركه حتى حلول الليل...

لم تغنِّ تهويدةً تلك الليلة. ولأنَّ دييف اعتاد أنْ يغفو على وقع صوتها اللطيف، فقد بقي يتقلَّب مدة طويلة على الأريكة، محاولاً أنْ يهدأ. أُصلِحَت القاطرة لتنطلق في طريقها في الصباح الباكر، وأُطعِمَ الأطفال، وجُدِّدَت احتياطيات الفحم. ولكن النوم جافى عينَي دييف. فبمجرد أن يغمض جفناه، تنتصب المرأة الضخمة أمام عينيه: عارية، كلها مكونة من طيات رخوة وأكمات عظيمة، يتدفق منها الحليب الدسم.

بعد أنْ تقلَّب دييف لمدة ساعة أو ساعتين وأنهكته الخيالات العنيدة، أشعل المصباح النفطي وذهب ليبحث عن فاطمة كي يطلب منها أنْ تغني. شق طريقه عبر العربة بين النيام إلى سريريها المحاط بستارة، ونقر برفق على الخشب المحزَّز. لم يسمع جواباً، فرفع الستارة.

فاطمة نائمة، وهي ملتفة حول الكتكوت الرضيع. كانت ياقة ثوبها مفكوكة، والطفل يمضغ صدرها الفارغ مثل اللهاية، مع كل حركة لفكَّي الصغير، يتمدد الجلد ويتجعد. وبعد أنْ تعب الكتكوت من الرضاعة، بصق الحلمة -فبدت رمادية وعديمة الشكل، مثل كرة خيوط الصوف- وغطَّ في النوم.

خفَّضَ دييف الستارة، وحاول أن يخطو بصمت، ومشى عائداً إلى مقصورته.

***

كلا، ما كان لعينيه أن تستسلما على الفور للنوم بعد هذا!

بقي يتقلّب فوق نوابض الأريكة، ثم قفز الآن وقرر أن يتمشى فوق القطار (لكن السماء كانت تمطر بالخارج)، فاضطر إلى أنْ يستلقي من جديد وأُجبِر على الرقود مثل جذع شجرة -ولكن بعد دقيقة وجد نفسه يقف على قدميه مرة أخرى. إذ بدا لدييف أنَّ مَن خلف الجدار، في المقصورة المجاورة، لم

تَنَم أيضاً- وخُيِّلَ إليه سماع أصوات هادئة، ورأى وميضاً من الضوء تحت الباب. فخمَّنَ أنَّ المفوضة تخربش في دفتر الملاحظات. أو استلقت للتأمّل، بعد أن فكّت الحزام من أجل الاسترخاء واتّكَأت على الجدار. والجدار رقيق كأنه من الخشب الرقائقي؛ هذا يعني أنَّ جسده وجسد المفوضة يرقدان بقُرب شديد ما رقد دييف مثله مع امرأة من قبل... أصبح الأمر بالنسبة إليه لا يطاق على الإطلاق.

فنهض وطرق بحذر:

- هل أنتِ مستيقظة؟

ردت بصوت مرح:

- مثلما ترى. الباب مفتوح.

دفع الباب المنزلق، ففوجئ بالظلام الدامس في حجرة المفوضة. ولم يسمع سوى تنفس بيلايا - من مكان الأريكة. تجمد دييف على عتبة الباب، ولم يجرؤ على الدخول ولم يفهم ما يجب فعله بعد ذلك.

- هل أردتَ التحدث؟

أومأ دييف. ثم أدرك متأخراً أنَّ الإيماءات في الظلام لا تُرى؛ لكن صمته قد استمر طويلاً لدرجة أنه كان من الغباء الإجابة - قرر ببساطة أن يسعل رداً على ذلك بجدية وبشكل هادف.

فطلبت منه بصرامة:

- تكلَّم، إذاً.

ارتبك دييف تماماً. ما الذي يمكن أنْ يتحدث به مع هذه المرأة الفخورة؟ حول حقيقة أنه على الرغم من ازدياد كمية المؤن في حجرة المطبخ بعد بلدة سفياجسكي، فإنَّ العجز لم يُسَد بعد؟ وأنَّ السقم المُقعَدين يضعفون كل ساعة؟ وحتى أنَّ دييف نفسه، بعقله المراوغ وحماسه، لا يمكنه معرفة من أين يجلب اللحم للمرضى؟

كان وابل المطر يضرب في كثير من الأحيان سقف العربة المعدني والنوافذ - وقد ازدادت شدة هطول المطر.

تحركت بيلايا، ويبدو أنها استندت إلى مرفقيها، وقالت:

- لا بأس، قل شيئاً عن نفسك، أخيراً.

ما عساه أنْ يقول؟ هل يقول إنَّ القلق يستولي عليه - وإنَّ عقله وجسده لا يعرفان الراحة لأيام كثيرة؟ وإنَّ ثمة شيئاً كبيراً وشديداً ينغّص عليه، وبسببه لا يستطيع أنْ ينظر بهدوء إلى بيلايا ولا إلى فاطمة ولا إلى المرضعة؟ هل يقول إنه لم يعد يستطيع النوم، بل يتغلب على نفسه بالوسن، وبسبب هذا صارت أفكاره أكثر حدة، وطبعه ساء؟

استدارت المفوضة أكثر قليلاً، على ما يبدو، جعلها هذا تشعر بالراحة أكثر.

- حسناً، بما أنك لا تعرف ما الذي تتحدث عنه، حدثني، يا دييف، ماذا ستفعل عندما تحلّ عندنا الشيوعية؟

هكذا سألت! على الفور، سألت عن أحبّ الأشياء. كان يمكن لدييف أنْ يختلق رداً جميلاً، أو أنْ يرد بفظاظة، أو أنْ يكذب. لكنه لم يرغب أنْ يدنّسَ نفسه. جلس على أريكته، وأخذ نفساً عميقاً وأجاب بصدق في الظلام:

- سوف أتزوج.

- فقط؟

شعر دييف بالإهانة، فقال:

- لا أعني، أني مجرد سأتزوج، بل سأتزوج من فارسية. سأجلبها من بلاد فارس تلك، وأخلع البرقع عن وجهها - هنا، وأقول، تحرّري! وانسي إلى الأبد ماضيك الإقطاعي.

- لماذا تذهب بعيداً؟ في تركستان السوفيتية هناك الملايين من الفتيات اللائي يلبسن البرقع، إذا ما كنت حقاً بحاجة إلى زوجة شرقية.

كانت فتحة الباب المنزلقة واسعة، فسمع دييف بوضوح كل كلمة قالتها بيلايا، كما لو كانا في نفس الحجرة، وليس في مقصورَتَين متجاورتين. وسمعَ حتى حفيف ملابسها، وأدنى صرير من الأريكة، وحتى كيف ابتسمت عند الكلمات الأخيرة.

- النسوة هنا، في تركستان، حرائر من دون تدخّل مني! لماذا أرضخ لهنّ؟ حتى نرتقي إلى مستوى الشيوعية، سوف ينسينَ أمر برقع العصور الوسطى!

- إنكَ، إذاً، بحاجة إلى أن تكون بطلاً - محرِّراً ومنقذاً؟ هل تعتقد أنَّ لا أحد سيحبك من دون ذلك؟

آه، يا لها من خبيثة! هو يتكلّم معها بروح صافية. وهي تعكّر له صفو هذه الروح.

- ألا تحبّك النساء، يا دييف، قل لي؟ أنت تحبهنَّ، لكنهنَّ لا يحببنك.

ودَّ لو يعترض -حتى وإنْ لم يكن بصوت عالٍ، بل في أفكاره فحسب- لكن لم يجد حاجة لذلك. إذ لم تكن ثمة نساء في حياة دييف. لم تكن لديه أم ولا أخوات ولا خالات وعمات. ناهيك عن العشيقات. ذات مرة كانت زوجات العمال من مستودع القاطرات -في الصيف، يحضِّرن غداء أزواجهن، فيسبحن في خور النهر، فيخفي دييف الصغير نفسه ويراقب أجسادهن المُكوَّرة من خلف القصب. ثم كانت ثمة عاهرة من شارع موكرايا في قازان، حيث زارها في صباه- كانت طيبة، كبيرة في السن، كثيرة الثآليل، كانت تناديه بمودة «يا سُوَيق الملفوف» بسبب قصر قامته وسحنته الخالية من الجمال. وبعد ذلك جاءت الحرب. هذا كل ما لديه من نساء.

قال دييف بحماس:

- لا بأس، وماذا عنكِ؟ حدّثيني، يا بيلايا، هل أحببتِ رجلاً من قبل؟ حبّاً حقيقياً، لدرجة الألم في المعدة... (وهنا انتابته رغبة أن يركض إليها، ويشعل الفانوس النفطي ويقربه من وجه المفوضة المتغطرسة، وينظر في عينيها). - هل أحببتِ، حتى إنْ كان لمدة قليلة، حتى وإن حدَثَ خلال بضعة أيام؟

لم يكن يأمل في الحصول على إجابة - اعتقدَ أنها ستنفجر ضاحكةً أو ستسخر منه. وفجأة، قالت:

- نعم (تكلَّمَت بهدوء وبجدية ويتضح من صوتها أنها لا تكذب). - أحببتُ لسنوات عدة. وبقوة.

فوجئ دييف من هذه الصراحة المُدهشة:

– ثم ماذا؟

– لقد خدعني.

– هل ترككِ؟

نشبت في دييف موجة سخط مفاجئة: كان من المستحيل، ومن غير الممكن أنْ يتخيّل مثل هذه المرأة الفخورة يمكن أن تُترَك. هي، وحدها، مَن يقدر على السخرية والمضايقة والهجر. وتقديم الشكوى للمسؤولين، وغسل الأرضيات وهي شبه عارية. هي، وحدها، مَن سُمح لها – بكل شيء.

– ذاك كان صورة. عُلِّقت في مخبز دير كهنوتي، يقدم المساعدات للملاجئ هناك. كنت أنظر إليه كل يوم. (كانت بيلايا تتحدث بعبارات مُقتَضَبة، وتصمت مدة طويلة بين تلك العبارات، وكل وقفة كانت تهدد بالتحول إلى صمت؛ ولكن هيهات، تدفق خطاب المفوضة واستمر يتدفق في الظلام –على شكل دفعات، مثل المياه المتدفقة من ينبوع من تحت الأرض).– إنه صبي ذو عينين زرقاوين وشعر ذهبي رائع. لم أكن أعرف مَن هو. طوال طفولتي كنت أنظر إليه وأحلم أن أكبر وأجده.

لم يستطع دييف أنْ يفهم ما معنى أن تحب قطعة من القماش مغطاة بضربات من الطلاء. لكن السخط الذي نشب فيه حلّت الراحة محله: كان في هذه القصة نوع من الصحة – إذ لم تستطع المفوضة أن تحب رجلاً أرضياً، بل شيئاً من ذلك النوع فحسب، الذي لا يمكن للآخرين الحصول عليه.

– وهل عثرتِ عليه؟

– لم يسعفني الوقت. فقد أُعدِمَ مع والديه رمياً بالرصاص –حتى قبل أن أغادر دار الأيتام. (هنا جاءت وقفة طويلة لدرجة أن دييف كان على وشك أن يسأل عما حدث بعد ذلك، لكن بيلايا تنهدت بشدة وواصلت)– كانت هذه صورة نجل القيصر.

صفَّر دييف من الدهشة وقال:

– هكذا إذاً، هل أنتِ من أتباع المَلَكيّة؟

– أنت أحمق، يا دييف، على كل حال. لقد مرَّ عامٌ على التحاقي في

صفوف الحزب عندما اكتشفت مَن أحبَبتُ. رأيتُ الصورة بالصدفة في الجريدة. فجئت إلى المخبز بهذه الجريدة، وقارنتُ بين الصورتَين: بالتأكيد – هو، الأمير الأكبر أليكسي نيكولايفيتش رومانوف.

قفز دييف على الأريكة من شدة الانفعال، وسألها:

– وماذا فعلتِ بالصورة؟ لو كنتُ في مكانك لأخذتُ المقص وغرسته في عينيه ومزقتها، أو أحرقتها في الفرن مع الإطار، ولن أندم على ذلك!

– لقد كتبت مذكرة رسمية إلى اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب: «في مخبز دير زاتشاتيسكي الكهنوتي، بعد ثلاث سنوات من الثورة العظمى، لا تزال صورة ولي العهد معلقة...»

– ثم ماذا؟

وانتابته رغبة شديدة في أن يشق طريقه إليها ويجلس بجانبها، لكنه خشي أنْ يفسد الحوار.

قاطعته بحدة:

– هذا كل شيء.

وصمتَت.

لم يجرؤ دييف على الإصرار، وصمَتَ أيضاً مطيعاً. صحيح، كان يجب أن يقف ويسد الباب المنزلق، ومرة أخرى يقسِّم المساحة إلى قسمين، لكنه لم يفعل ذلك – بل على العكس، استلقى بهدوء، متمنياً أن تظل المرأة مستلقية، والسر الذي نشأ بينهما لن يُنتهك. أدار وجهه إلى الجدار الفاصل وأخذ يحدق بعناد في الظلام، متخيلاً أنَّ وجه بيلايا النائم ينظر من الجانب الآخر إلى هذا الجدار.

كان يستمع إلى تنفس المرأة الذي أصبح بالتدريج أكثر استواءً وأعمق. وسمع صوت المطر على النوافذ. وفي هذا الحفيف أراد أن يميز المقاطع المألوفة له، لكنه لم يلحق بعد أنْ يحفظ تهويدة فاطمة، ولذلك استذكر مقاطع منها:

... ليتني نقرتُ النجوم من السماء

وابتلعتُ الشمس –

ولا يأتي إليّ صباح الفراق.

استعرض في ذهنه ملامح وجه بيلايا – فاكتشف فجأة أنه يعرفها جميعاً. ويتذكر يديها وشعرها وكيف تهز رأسها وتدفع الخصلات عن جبينها إلى الوراء. ويتذكر الأزرار التي على ثنية القميص، بكل تفاصيلها، والرتق على الجورب. وماذا بعد! ويرى كل شيء تحت قميصها وجواربها، وكل ما ظهر أمامه في تلك الليلة، في العربة التي كانت لا تزال فارغة، ومضاءة بالضوء الذهبي المتوهج من الفانوس النفطي.

... لا مكان لأحد – لا في قلبي ولا في ذهني.

كل شيء ممتلئ بك،

مثلما أنَّ قاع البحر ممتلئ بالماء.

حاولَ أن يتخيل بيلايا كصبية صغيرة –ولم يستطع. لكنه تذكر نفسه– صغيراً. لم يحب دييف طفولته. لم يحبّها، لأنّ هذه الذكريات كانت تجرّه دائماً إلى حالة العجز والكآبة التي كان عليها في السابق: إلى الرعب أمام قدوم الشتاء، إلى الجوع اللامتناهي وإلى وحدة اليتم – إلى كل شيء يسعده نسيانه، لكنه لم يستطع نسيانه. وها هي تلك الذكريات تستحوذ عليه إلى الآن. وتسحبه بعيداً إلى تلك السنوات التي لم يكن يحصل فيها على ما يكفي من طعام سيئ في العشاء، فكان يمص الصمولات التي يسرقها من الورشة قبل أنْ يأوي إلى النوم.

... أنا – طائر غارق في أمواج البحر.

أنا نجم سقط في البئر.

أنا سمكة زاحفة على الرمال.

هكذا حالي، أنا، من دونك، يا بُنَي الحبيب...

***

الأمهات لا يعرفن كيف يحببنَ. حلماتهنَّ تفرز الحليب، وأعينهن على استعداد لتذرف الدموع على مرأى من معاناة أطفالهنَّ. لكن ألا نسمي الدمع أو الحليب -حبّاً؟ فالنعجة، والناقة، وأنثى الخفاش المقرفة- كلهنَّ يطعمنَ نسلهنّ، ويعلّمنه ويحمينه من الحيوانات المفترسة، وأحياناً يكُنَّ أفضل بكثير من أمهات البشر.

أمهات البشر -الوحيدات في الطبيعة- اللائي ينكشن أرحامهن بإبر الحياكة ويشربن جرعات السم لقتل الجنين النامي. إنّهنّ يحاولن حماية أطفالهنَّ من الجدري عن طريق تركهم يستنشقون قشور بثور مريض الجدري في الحمام -ومن خلال هذا يبعثن بهم إلى القبر. ويعالجنَ الحمى والكوليرا بقراءة التعويذات والرُّقى وفصد الدم- أحياناً حتى الموت. والأطفال المتلعثمون يقطعن لهم طرف اللسان - ويتركنهم بُكماً. وفي عام المجاعة، يطعمن أبناءهن حساء الرمل والطين، في محاولة لإشباعهم، لكن من خلال هذا ينقلن لهم عدوى التيفوس. فهل هذا حب؟

الحب -شيء آخر. الحب- معرفة وإرادة. قلة من الناس لديهم كلا الأمرين، وبالتالي فإنَّ الحب الحقيقي للأطفال متاح لعدد قليل. تنتمي بيلايا إلى هؤلاء القلة. لقد عرفت متى ومِمَّ يُلَقَّح الطفل، وكيف يُطعَم ويُعالَج، وماذا يُعَلَّم وإلى أيّ مدى يجب تعليمه، وكيفية تمييز الطفل المتخلّف أخلاقياً عن المهمَل تربوياً، والمهمَل عن الصحيح عملياً. كانت لدى الرفيقة بيلايا مثل هذه الإرادة التي من شأنها أن تكون أكثر من كافية لرجلَين اثنين: لم تتأثر بدموع الأطفال الصغار ولا بأهواء الأطفال الأكبر سناً أو أكاذيب المراهقين وحيلهم.

لم يقتصر حب بيلايا الكبير على طفل واحد بعينه، بل امتد إلى مئات وآلاف من الأطفال السوفييت، الذين تركهم الزمن القاسي من دون مأوى ومن دون رعاية الوالدين. وحتى لم يكن لدى بيلايا أطفالها: فقد صُمِّمَ جسدها بشكل لا تؤذيه نطفة الذكور - استمرت جميع العلاقات مع الرجال من دون عواقب غير سارة. قدّرت بيلايا هذه الخاصية الجسدية أكثر من كل شيء.

حسبت بيلايا أنَّ أقوى صفة روحية لديها هي القدرة على تقليب

الصفحات - القدرة على الانتقال من مرحلة من مراحل الحياة إلى أخرى من دون الشعور بالشكوك والألم.

لم تلاحظ بيلايا الثورة: ففي ذلك العام تخرّجت في دار الأيتام للبنات في دير زاتشاتيفسكي في موسكو وبلغت سن الرشد. ولأنها كانت تشعر برغبة روحية في تربية الأطفال بقيت تعمل في دار الأيتام. وقد تعلمت الكثير من الراهبات وكان بإمكانها العمل على قدم المساواة مع أخواتها الأكبر سناً، لكن كان يجب عليها أن تجتاز مراسم الرهبنة - لم تكن بيلايا الصغيرة مستعدة لذلك: طبيعتها الحيوية كانت تشعر بالاشمئزاز من رتابة حياة الرهبنة، وأثار نفورها تشابهُ الأردية الكهنوتية الذي يمحي الشخصية الفردية.

حدثت ثورتها الشخصية بعد ذلك بعامين. في عام 1919، دخل ثلاثة من الخيّالة إلى فناء الدير الكهنوتي المحاط بالجدران ذات اللونين الأحمر والأبيض. كان الخيّالة يجلسون بشكل مستقيم على السروج، صارمين، ووجوههم عابسة، لم تدرك بيلايا على الفور أنَّ الخيالة الثلاثة كانوا من النساء. لكنها شعرت: ها هي اللحظة التي تُطوى فيها صفحة الحياة. الراهبات، الشاحبات من الخوف، اندفعنَ متفرقات من الفناء، يُصَلِّبنَ ويغطين أفواههن بأطراف الخُمُر... خلعت بيلايا المنديل من رأسها، ودسته في حزامها، وذهبت مكشوفة الشعر لملاقاة الضيوف، واستقبال الخيول. لم تعتَمِر خماراً قَط بعد ذلك: في ذلك اليوم تحول المأوى الكهنوتي إلى مركز لإيواء الأطفال تابع لمفوضية التعليم الشعبية. وفي مساء ذلك اليوم نفسه التحقت به بيلايا بصفة ممرضة اجتماعية وخلعت ملابس الرهبنة وتحولت إلى اللباس المدني. حشِرت الراهبات والمبتدئات -وطُرِدنَ من مبنى التمريض إلى المباني الملحقة، وسُمِحَ لهنّ بالخدمة في مركز إيواء الأطفال. أما بيلايا، التي حصلت على حقوق موظفة في مؤسسة سوفييتية، فبقيت تعيش في صومعتها. لم ترغب بالذهاب لزيارة الأخوات الراهبات في الفناء الخلفي. ولم تذهب إلى ربائبها في دار الأيتام أيضاً: فقد أصبحن تحت رعاية الدولة، وجرى الاعتناء بهن وإطعامهن- لم يعدن بحاجة إلى حب بيلايا بعد الآن.

ولكن باقي أطفال موسكو -بحاجة إليها. فكل يوم يستقبل المأوى العشرات من الأطفال المشردين. كان ينبغي فحص الجميع في المركز

الطبي، وتحميمهم في قسم الاستحمام، وإطعامهم، وحلق شعر رؤوسهم ومعالجتهم بسائل فليمنغ المطهِّر للتعقيم، وغسل ملابسهم وتعفيرها في غرفة التطهير. وبعد ذلك فقط، تجري المقابلة مع اللجنة والفرز الأولي: حيث يُرسَل المرضى- إلى المستوصف، وأصحاب الانحرافات الأخلاقية -إلى الإصلاحية أو دار العمل، والباقون- للفرز الثانوي: بعض منهم يُرسَلون إلى المنزل (سكان موسكو يُصطَحبون إلى ذويهم ويُسَلَّمون لهم، والوافدون الجدد تُشتَرى لهم تذاكر سفر على متن باخرة أو يُعثَر على مسافر عرضي يصحبهم)، وبعض منهم - إلى دور الأيتام أو المساكن المشتركة.

ها هي ذي مساحة الحب! الأطفال، المغطاة أجسادهم بالقمل والجرَب، المُحْوَلَّة أعينهم من تأثير الحشيشة، الساقطة أسنانهم، الذين يعانون من السعال والنتن، حلّوا في مأوى الأطفال -في أيدي بيلايا القوية- ليخرجوا منه أناساً آخرين: مُطَهَّرين. كانت تغسل رؤوسهم، المتصلبة من الأوساخ، بشراسة، وبشغف. وتحلقها حتى تبدأ الجماجم باللمعان. كانت تعفّر الملابس ثلاث مرات، من دون أن تبخل بالحطب (وعندما حاول مدير التموين أن يوبخها على الإسراف، اغتنمت اللحظة - وألقت سترته في كومة من القمامة القذرة المليئة بالحشرات بالقرب من خزان التعقيم، ثم سألته: «بهذا الشكل، كم مرة ينبغي أنْ نعفّرها؟»؛ وبعد ذلك لم تبدر منه المزيد من الاعتراضات). وإذا ما بدرت من أحد الصبية، بسبب السخط من شدة العلاج، كلمة شديدة موجهة إليها، كانت بيلايا ترد بعشر: فقد تعلمت على الفور رطانة المتشردين والمفردات الثورية على حد سواء واستعملت اللغتين الجديدتين بمهارة، مثلما تستعمل الليفة أو ماكينة الحلاقة. لم يصدق أيّ واحد من الموظفين الجدد أنها نشأت في الدير الكهنوتي.

بعد ثلاثة أشهر أصبحت مديرة المأوى -وفي ذلك الوقت، أطلق الأطفال المشردون على دير زاتشاتيفسكي ببساطة ومن دون تكلّف اسم «دار زاتش». وكانت بيلايا آنذاك ترتدي بلوزة من قماش الجوخ، مربوطة عند الخصر بحزام، وطاقية جلدية شُكِّلت فيها بدقة شارة حمراء اشترتها في سوق السلع الرخيصة والمستعملة. هذه الطاقية- السوداء، ذات التاج العالي، من بعيد تشبه القلنسوة. كانت بيلايا تعتمرها وتجوب جميع أنحاء موسكو. فتارة تجدها

بين صناديق القمامة بالقرب من متجر «موير وماريليس»، حيث كان المشردون يتجمعون مثل النحل في قرص العسل. وتارة بين الأعمدة المتهالكة للبوابة الحمراء لنُصب النصر: كان المبنى أجوفَ من الداخل فصار مأوى للعديد من المشردين. وتارة في محطة سكة حديد كازانسكي (قازان)، حيث كان هناك في أحد الأزقة المسدودة عربة استقبال تمتلئ دائماً بالأطفال. وتارة في مبنى مفوضية الشعب للتعليم (وزارة التربية) في شارع تشيستوبرودني، حيث افتُتِح مؤخراً مكتب عناوين للم شمل الأطفال الهاربين مع والديهم. وفي نُزُل يرمولايف. وفي الإصلاحية في شارع شابولوفكا، وفي مصنع أواني الصفيح. وفي دار التوقيف في ياكيمانسكي. وفي مركز الاحتجاز في فلاديكا -ليس بعيداً عن سجن بوتيركا، على ضفاف نهر ليخوبوركا. وفي منزل «كارلا مارلا» الشهير في زقاق ستاروكونيوشيني (وفقا للوثائق- تُسَمّى دار الأيتام ومدرسة كارل ماركس)، حيث كان هناك مركز التعليم الفني للأطفال الموهوبين...

بدأت تتواعد مع الرجال. كانت اللقاءات رتيبة لدرجة الشعور بالألم ولم تُثِر لدى بيلايا سوى الانزعاج. لو تعلق الأمر بها، لكانت قد اختصرت هذه المواعيد إلى الثلاثين أو الأربعين دقيقة الأخيرة المهمة، التي من أجلها رُتِّبَت عدة ساعات من التفاهة: الجولات، وزيارة السينما، وركوب القوارب وما إلى ذلك. لكن الرجال كانوا يُحرَجون من مثل هذه المباشرة - فكان عليها أن تتحمّل. لم تتواعد مع أحدٍ أكثر من مرتين أو ثلاث مرات.

بعد عام ونصف استُدعِيَت، بصفتها عاملة عقائدية وذات خبرة في المجال الاجتماعي، إلى لجنة تحسين حياة الأطفال في اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا. وافقت بيلايا: كان حب الأطفال الذي طغى على قلبها كبيراً إلى درجة لا تسعها جدران دير زاتشاتيفسكي. بل وحتى موسكو كانت بالنسبة لها صغيرة جداً. كان الأطفال في المدن والقرى النائية في الجمهورية السوفيتية ينتظرون حب بيلايا.

وقلبت الصفحة من جديد -وكان الأمر سهلاً مرة أخرى: في صباح أحد أيام شهر فبراير (شباط) من عام 1921، ركبت مفوض الأطفال بيلايا في عربة القطار الخاص وغادرت من محطة قطارات ساراتوفسكاي للسكك الحديدية في بعثة استكشافية لعدة أشهر إلى مؤسسات الأطفال في الجنوب

السوفيتي والقوقاز. علم الزملاء السابقون في دار زاتش بنقلها من المدير الجديد. استغرقت رحلة العمل ما يقرب من عام، مع زيارة قصيرة للمنزل من أجل تقديم تقرير نهائي. لم تذهب بيلايا إلى زاتشاتيفسكي خلال هذه الزيارة ولا في وقت لاحق- لم تكن ثمة حاجة لذلك.

صارت مساراتها وطرقها الآن تُحَدَّد ليس انطلاقاً من المصالح الشخصية، بل حصرياً من خلال مصالح الدولة: فقد كانت تسير على خطى الحكومة السوفيتية. وعندما كانت تندلع حرب أهلية في أرض معينة، وتُرفَع الرايات الحُمْر بشكل نهائي ولا رجعة فيه فوق الدوائر الحكومية في المدينة وفوق أكواخ مجالس القرى -تظهر بيلايا. في قبعتها الجلدية التي لم تُبَدّلها، وتتمنطق بحزام وحمّالة، وبدلاً من القِراب، علَّقَت حافظة فيها نصف دزينة من أقلام رصاص مَبْرِيّة، تمشي بخطى سريعة- على رمال أستراخان البيضاء، وعلى سهوب كالميكا الصفراء، وفوق أرض إقليم ستافروبول الغنية. كان معطفها يرفرف مثل عباءة، وفي يدها تومض عصا -فهي لا تسير في الممرات الطويلة من دون عصا بأي شكل من الأشكال. في بعض الأحيان تركب على ظهر حمار، أو على ظهر جمل، ونادراً ما تركب السيارة. في سفوح التلال القوقازية، كانت تمتطي حصاناً- لم تكن هناك طريقة أخرى للتغلب على المنحدرات والممرات. فَتَّشَت دور الأيتام في مدن فلاديكافكاز وتيفليس وكيسلوفودسك وسوخوم. للتحقق من ظروف حياة الأطفال، صعدت إلى القرى البعيدة في القوقاز وفي آسيا الوسطى. وبحلول نهاية عام 1921، تقدمت ووصفت جميع المناطق الجنوبية وحدود روسيا السوفيتية – من بحر قزوين إلى البحر الأسود (ولكن لم يسعفها الوقت لاستكشاف الجمهورية السوفيتية الفارسية[1] – إذ اختنقت في الصراع السياسي وسقطت).

كانت بيلايا تعود من حملاتها تلك إلى القطار الذي ينتظرها على خط

1- الجمهورية الفارسية الاشتراكية السوفيتية (المعروفة على نطاق واسع باسم جمهورية غيلان السوفيتية) كانت جمهورية سوفيتية لم تدم طويلاً في مقاطعة غيلان الإيرانية وقد دامت من يونيو (حزيران) 1920 حتى سبتمبر (أيلول) 1921. تأسست الجمهورية على يد زعيم الحركة الدستورية بغيلان ميرزا كوشاك خان وحزبه حركة جانجل (حركة الغابة)، بمساعدة الجيش الأحمر السوفيتي. (المترجم).

السكة الحديد -في باتوم أو ديربنت أو مايكوب أو باكو- كأنها تعود إلى المنزل. وأصبحت مقصورات القطار منزلها: تارة ناعمة، من الدرجة الأولى، ذات تنجيد حريري على الأرائك الفسيحة، وتارة في مقصورات عربات مشتركة، مفصولة كيف ما اتفق بجدران من الألواح ومقاعد خشبية للنوم. لم تُلقِ بالاً للمصاعب - كانت خدمتها نقية ومتحمسة، ولم تسمح لنفسها حتى في التفكير بالراحة أو الاسْتِرْخاء الجسدي.

حياة السفر بسّطت قواعد سلوكها، وفي بعض الأحيان ألغتها تماماً: ظهر الرجال في مقصورة بيلايا لمدة قصيرة (كان تواجدهم محدوداً) واختفوا من دون أن يتركوا أثراً. المواعيد اختُصِرَت لمدة ساعة، وإلى نصف ساعة، وإلى ربع ساعة، والمشاعر ضُغِطَت إلى أقصى حد، ولهذا صارت مشرقة بما لا يقاس، وصارت عبارة عن أفراح حياة بدوية صغيرة واختيارية. حاولت أنْ تختار الرجال الأكبر سناً - فوق الثلاثين أو حتى فوق الأربعين: لم يكن هؤلاء يميلون إلى توقع استمرار العلاقة أو إلى عرض الزواج بعد اللقاء مباشرة. كان بإمكانها الاستغناء عن الرجال على الإطلاق: كانت احتياجات جسدها متواضعة. لكن التقاطعات القصيرة مع الجسدية والبدائية أكدت فقط المعنى السامي للكينونة الأخرى.

الأطفال! الذين يأكلون من مكبّات القمامة، والذين ينامون في أَجْواف الأشجار وبراميل خزن أسماك الرنجة، والذين يعيشون قطعاناً في القصبات (القرى القوزاقية الكبيرة) المهجورة، والذين يصطادون القوارض والكلاب -كانت أعدادهم مئات ومئات. وجميعهم بحاجة إليها وإلى حمايتها- أكثر من حاجتهم إلى أمهاتهم اللائي ولدنهم وتركنهم تحت رحمة القدر. أخيراً، أدركت بيلايا الحجم الذي يُقاس به الحب الذي غمر روحها: كانت وحدها قادرة على أنْ تحل محل ألف من الأمهات، وربما، محل عشرات الآلاف منهنَّ. كانت مستعدة لأن تفتح ذراعيها -من مصب نهر الفولغا إلى نهر الدنيبر- وأنْ تجمع كل المشردين والسائبين، وتنظّفهم وتطعمهم وتؤويهم من سوء الأحوال الجوية. وكذلك - من جشع وفساد البالغين: غالباً ما كان رؤساء مؤسسات الإيواء والتعليم في أطراف البلد الشاسع يسرقون الأطفال ويضربونهم ويدفعونهم إلى الدعارة.

أسِفَت بيلايا لأنه لم يكن مسدس يتدلى من حزامها، بل مجرد حزمة من أقلام رصاص مُستَهلكة بالكتابة: لأنَّ بعض الاختصاصيين الاجتماعيين لا يستحقون أنْ توجَّه لهم التعليمات، بل يستحقون رصاصة على الفور في البطن. نضج هذا الغضب في روحها منذ مدة طويلة، لكن بيلايا أدركته عندما اقتربت من منتصف البعثة التفتيشية. حدث ذلك في مدينة بياتيغورسك. دخلت دار الأيتام المحلية، كعادتها من دون أنْ تحيّي المدير، وبدأت جولاتها -فوجدت الأطفال في المطبخ- يجثون على الأرض ويرتشفون حفنة من الحساء من قدر مشترك: إذ باع المدير جميع الأثاث والأواني الحكومية. فجلست على الفور على حافة النافذة مباشرة (بسبب عدم وجود طاولة وكراسٍ) وكتبت تقريراً إلى اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب. مدير المأوى، الذي كان يتصبب عرقا غزيراً من الخوف، دار حولها، يوجه اللوم، ثم صمت -ووضع بعناية قطعتَين نقديَّتَين ذهبيتين على نفس عتبة النافذة. لم يلحق الرجل أنْ يرفع يده- حتى رفعت بيلايا قلم الرصاص من دفتر الملاحظات، حيث كانت تخربش التقرير، وغرسته في كفّه. صرخة الجريح ورذاذ الدم على النافذة - لم يكونا كافيين، بل هذا قليل مقابل سرقة الأطفال التي لا تُغتَفَر.

منذ ذلك الحين، لم تخْفِ غضبها، بل على العكس، أطلقت له العنان: غدا لسانها أكثر تسلّطاً، وصوتها -أعلى وأكثر دويّاً؛ يمكن أن تضرب بقبضتها على المنضدة، وأنْ تغرز قلم الرصاص بشدة في ضلوع المُحاوِر. أصبح هذا الغضب مُنصِفاً لدى بيلايا- فهو بمنزلة الجناح الثاني الذي يعادل الحب.

أُطلِقت النار عليها مرتين: في جبال لوري وفي حرج الدفلى في ضواحي مدينة آدلير؛ مرت كلتا المحاولتَين بسلام. وأُلقِيَت عليها الحجارة مرتين في المقصورة، مما أدى إلى كسر الزجاج. وجرت محاولة واحدة لاختطافها. وتعرَّضَت للتهديد -مرات كثيرة، لا تُعَد. بيلايا، لم تَخَفْ: الحب الحقيقي لا يعرف الخوف. كانت تخربش بلا كلل في دفتر الملاحظات، ثم تجلس لساعات طوال ترسل البرقيّات وتُجري المكالمات الهاتفية- تقدّم تقاريرها، وهي تشتم وتسبّ إلى حد البحة وتطالب بالمال والطعام والكتب المدرسية والملاكات الاحترافية، وافتتاح مؤسسات جديدة، وتوسيع المؤسسات

القائمة. وواصلت زياراتها إلى أبعد المناطق النائية... كل يوم تفتح جبهة جديدة. وكل يوم تخوض معركة جديدة. لقد قاتلت من أجل جميع الأيتام والأطفال المشردين في السهوب والجبال وشواطئ البحار – مؤمنةً بخلاصهم وباذلةً قصارى جهدها لتقريب يوم الخلاص. هكذا كانت حياتها. وهذه كانت سعادتها.

***

في شهر ديسمبر (كانون الأول) من عام 1921، بعد أن عادت بيلايا للتو إلى موسكو من مأمورية في الجنوب وقدمت تقريراً إلى اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا، تلقت أمراً جديداً – للذهاب إلى منطقة الفولغا. الغرض من الحملة: «أنْ تقدم تقريراً عن مستوى المجاعة في المنطقة والتدابير الممكنة لإنقاذ الأطفال». كانت صورة ما يحدث في الجمهورية السوفيتية تظهر بالفعل من التقارير الواردة من الميدان، لكن كان من الصعب تصديق هذه الأرقام: «25 مليون شخص يعانون من الجوع، ثلثهم من الأطفال». كان يُنظر إلى ضفاف نهر الفولغا على أنها المحور الرئيس لوباء المجاعة.

عرفت بيلايا المجاعة عن كثب. في عام 1918، ساءت وضعية الحصول على المواد الغذائية في العاصمة، فطبخت الراهبات في دير زاتشاتيفسكي الكهنوتي لأسابيع عديدة عصيدة ابتدعن خلطتها: في البداية كانت من البطاطا والشوفان، وعندما نضب مخزون البطاطا، طبخنها من عشبة الحماض وقشور الدخن. في ذلك الوقت، امتلأت أسواق العاصمة بتجار السوق السوداء من مختلف الأنواع والكوادر، محمَّلين بأكياس مغبرة – كان الطعام في أكياس صغيرة. وكان سكان موسكو يسيرون بوجوه مكفهرة ومُتربة على طول صفوف السوق ويقايضون أشياء كانت في زمن ما باهظة الثمن (الساعات والذهب وأدوات المائدة) مقابل بضعة أرطال من الدقيق أو مقابل دلو من الجزر جيء به من مكان ما بالقرب من مدينة ريزان أو فلاديمير. وإلى جانب المتاجرين الصغار بالمواد الغذائية، ظهرت أنواع من الأوباش: المتسولون، الشَّحّاذون، اللصوص. لم يشحذوا نقوداً، بل طلبوا

الخبز. ولم يسرقوا المال، بل سرقوا الخبز. أصبح الطعام أكثر قيمة من المال، وأصبح الطعام نفسه مالاً.

وعانى من المجاعة كذلك السكان في القوقاز. ففي رحلتها الأخيرة، رأت بيلايا العائلات تأكل العشب فقط. أرغفة، لم يكن فيها حتى حفنة من الدقيق -قش يابس مخلوط بأوراق البنجر والجزر المفرومة. ورأت الأطفال ذوي العظام اللينة، والأرجل المصابة بالكساح. والمزارع والقرى التي تركها السكان الذين غادروا بحثاً عن رزق أفضل. في كل مكان كانت الحياة- هزيلة، ومن دون خبز، والجميع يتضورون من السغب.

وفي منطقة الفولغا؟

كان من المفترض أن تسافر بيلايا على خط السكك الحديدية بين موسكو وقازان إلى شيخران ومن هناك تقوم بعدة رحلات استكشافية إلى مناطق تشوفاشيا، بما في ذلك العاصمة تشيبوكساري. ثم تنتقل إلى مدينة فولجيسك، حيث ستستكشف منطقة ماريسكي النائية. ثم تنتقل إلى قازان وتمر عبر تتارستان، وفي نهاية الطريق ستُعَرِّج إلى سيمبيرسك وسامارا (من أجل اكتمال الصورة، سيكون من المفيد أنْ تنحدر إلى الأسفل -إلى مدينة ساراتوف أو حتى إلى أستراخان كذلك- لكنها قررت تأجيل هذه الجولة حتى الصيف، عندما تُفتَح الملاحة على طول نهر الفولغا). كان ينبغي على المفوضة أنْ ترسِل مرة واحدة كل ثلاثة أيام برقيات من خلال التلغراف حول تقدم المأمورية، وفي نهاية كل أسبوع – تقريراً موجزاً عن طريق الاتصال الهاتفي المباشر.

التفويض الخاص بالرحلة صادر من أمانة اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا – طُبِعَ في ثلاث صفحات كاملة من الورق السميك وممهورة بتواقيع من النوع الذي يجب أن تُفتح بفضلها جميع الأبواب وتتمهد جميع الطرق. وعلى الرغم من ذلك، يمكن للرحلة أنْ تطول مدة شهر أو شهر ونصف: فقد جرت شائعات مفادها أنَّ السكك الحديدية في الشرق تعمل بشكل متقطع، وأنَّ القطارات تتحرك ببطء.

تَبَيَّنَ أنَّ الشائعات قد قُلِّلَ من شأنها إلى حد كبير: لم تتحرك القطارات ببطء،

بل توقفت تماماً. تراءت القاطرات البخارية بلونها الأسود على المسارات (بالقرب من مدينة بيروف وشيريميتيف وبودوسينكي ورامينسكوي) مثل الحيوانات النافقة. فكانت بيلايا ترى الأجساد الحديدية المغطاة بالثلج من نافذة المقصورة. هذه القلة التي ما زالت قادرة على الزحف وتجر نفسها على القضبان أكثر قليلاً من سرعة الحصان الذي يمشي وتسحب خلفها قطارات بطول لا يمكن تصوره -ستين أو سبعين عربة- وعلاوة على ذلك هذه العربات مربوطة بعضها ببعض بواسطة قطع من السلاسل، أو بالأسلاك، أو بحبال السفن البالية، أو حتى ببعض الخرق التي لا يمكن تصورها. في الطريق، تقصف صفائح العربات بعضها بعضاً، وتطلق صريراً وقعقعة تصم الآذان لا تقل عن قعقعة العجلات على السكك الحديدية الفولاذية -ويُسمَع صوت هذه القطارات الزاحفة من بعيد. وقد رأت بيلايا كيف أنَّ أحد هذه القطارات فقدَ ذيله (العربات التي يجرّها): ابتعد القطار إلى الأمام، وانقطعت مجموعة العربات الخلفية، وتدحرجت وهي تترنّح على طول القضبان من تلقاء نفسها؛ تدحرجت مدة طويلة- حتى اختفت في الأفق.

أكثر القطارات كانت مقطوعة الرأس: فقد وقفت على القضبان من دون قاطرات بخارية. وكلما اقتربنا من المحطات أكثر، ازداد عدد القطارات المقطوعة الرأس على طول الأفرع الجانبية. عند مدخل المدن -فوسكريسينسك، كولومنا، ريزان- ملأت هذه القطارات جميع المسارات المحيطة. وامتلأت جدران العربات بكتابات: «تأخير الطعام -بمنزلة الموت!»، «افسحوا الطريق- لخبز الجياع!». كانت الكتابات مغطاة بالصقيع ومدفونة بالثلوج.

لم يكن ثمة من يقرأ النداءات -يبدو أنه لم يكن هناك أناس على السكك الحديدية على الإطلاق. فمنذ مدة طويلة حُظِرَ على المسافرين ركوب القطارات- فهي تنقل الطعام ووقود القاطرات فقط. هؤلاء المتهورون الذين ما زالوا يجرؤون على الجلوس على وسادة الفرامل والركوب إلى أقرب محطة كانت تهددهم عقوبة السجن خمس سنوات في معسكرات الاعتقال -لذلك لم يكن هناك مَن يخاطرون بالركوب من دون بطاقة سفر. ولم يتواجد أحد- لا مودِّعون ولا حمالون ولا باعة طعام. الحراس فقط

-الذين تجمدوا بسبب عدم الحركة، وهم يشبكون على ظهورهم البنادق التي لمعت حرابها البيضاء كالإبَر على أرصفة المحطات الفارغة. ويبدو أنَّ الآلات تعمل من دون تدخل بشري. فالحديد، والبرونز، والقصدير، والنحاس، والتروس والمكابح، والنوابض والمكابس- كل هذا يخفق ويقرقع بتعب، ويصرّ ويقعقع من تلقاء نفسه؛ فالآلية التي شُغِّلَت من مدة طويلة لا تزال تطرق - تكاد تتوقف شيئاً فشيئاً.

ذهبوا إلى ريزان لمدة أسبوع. وإلى روزايفكا -أسبوعاً آخر. لم يساعدها التفويض الخطير الشأن ولا المكالمات الهاتفية إلى المركز: بقي القطار في وضعية الخمول لأيام على السكة الاحتياط، في انتظار محرك بخاري. لم تكن هناك قاطرات من دون عطل. لم يكن ثمة من يصلح القاطرات المعطوبة- لم يكن هناك ميكانيكيون (بعضهم التحق بالجيش، وسافر بعضهم إلى الجنوب من أجل الخبز). وإنْ وجِدَ الميكانيكيون -لم يكن ثمة معادن للإصلاح (ولا فرن حدادة ولا سندان ولا غيرهما من الأدوات). وإذا ما حدثَ أن أُصلِحَت القاطرة، فلن تجد سائقين (بعضهم قُتِل في الحرب الأهلية، وبعضهم ترك العمل أو اختفى). وحتى لو كان هناك سائق، لن يكون هناك وقود (لقد صودِرَ الوقود من السكان، وفُرِضَت عليهم المشاركة في تقديم الحطب، ومع ذلك لم يكن هناك ما يكفي). وإنْ وجد الوقود- لم يكن ثمة من ينظّف الطريق من الثلج (لم يكن لدى العمال الجائعين القوة للتلويح بالمجارف في الصقيع، وأحياناً لم تكن لديهم حتى ملابس شتوية)...

كانت بيلايا تكرر كالعادة لمدير المحطة اللاحقة في كل مدينة تصلها:

- أطالبك بتجهيز قاطرة صالحة للخدمة! إذا لم تفعل، سيُقبَض عليك وتودَع السجن!

فيوافق الرجل بوداعة واستسلام:

- سأعطيكِ أول قاطرة يجهز وقودها! بمجرد أنْ يظهر بوزها من المستودع - استلميها على الفور. لذا، سوف نرسلكِ غداً، ونضع القطار الذي يحمل الذرة الأمريكية إلى قازان على الاحتياط، دعيه ينتظر. هل يرضيكِ هذا، أيتها المفوضة؟

فتستسلم بيلايا:

- اللعنة. دع الذرة تنطلق أولاً.

تغادر الذرة. وتبقى في المحطة مائة عربة أخرى مغطاة بالثلج: محمّلة بدقيق الشوفان ودقيق الحنطة السوداء وزيت عباد الشمس وزيت بذور الكتان والقمح... بهذه الطريقة كانوا يسيرون.

بعد ثلاثة أسابيع وصلوا إلى شيخران. ومن هناك، سار القطار إلى الشرق، وظلت عربة مفوضة الأطفال في الانتظار: بعد الرحلة التفتيشية إلى تشوفاشيا، توقعوا ربط العربة بقطارات عابرة وبالتالي نقلها من نقطة واحدة في الطريق إلى أخرى.

في محطة السكة الحديد، ذهبت بيلايا إلى المكتب لإبلاغ موسكو عن وصولها إلى وجهتها. غير أنَّ الخط المباشر كان مشغولاً: إذ إنَّ شاباً مُرْهَقاً كان يردد (إما إلى تشيبوكساري، أو إلى مكان آخر في المركز) أرقاماً لا حصر لها: تمتم بصوت رقيق، وهو يمرر إصبعه عن قربٍ على ورقة مجعدة ويكرر بصبر نفس الشيء عدة مرات - على ما يبدو، لم يكن الاتصال جيداً، وكان مَن على الطرف الآخر من الخط يطلب منه باستمرار أنْ يعيد الرقم مرة أخرى. لم تفهم بيلايا على الفور عمَّ يدور الكلام.

- ...مئة وثمانية. نعم، نعم، في بلدة تارخانوفسكايا -مائة وثمانية. لا، مائة وسبعة- هذه في بلدة موراتوفسكايا. إذاً، في بلدة تارخونفسكايا -مائة وثمانية من المتوفين. أكرر: مائة وثمانية مُتَوَفّين... التالي. بلدة خورمالينسكايا. يتضورون جوعاً- تسعمائة وأربعون. تسعة، أربعة، صفر -تسعمائة وأربعون... أصيبَ بداء الاستسقاء- مائتان وتسعون. ليس مائة، بل مائتان وتسعون. أكرر في المقاطع: مائتان وتسعون! هؤلاء الذين تورَّمت أجسادهم، نعم، نعم، هذا صحيح... مات -ستون بالضبط. نعم، نعم، ستون ماتوا- جثث، لذا... التالي. بلدة شيمورشنسكيا. يعاني من المجاعة - ألف وثلاثون. ليس ثلاثين فقط، بل ألف وثلاثون... الذين أُصيبوا بالاستسقاء... هل تسمعني؟ تمام. إذاً، تواصل. أُصيبَ بالاستسقاء...

بعد بلدة شيمورشيتسكايا بلدة كوشيليفسكيا. ومن ثمّ -شامكينسكايا

ويادرينسكايا وتشيبايفسكايا، وأبيبفسكايا وبولدويافسكايا، وتويسينسكايا وتورايفسكايا... لم تستطع بيلايا الانتظار حتى ينتهي الشاب من الإملاء،- فكتبت بضعة أسطر على ورقة من دفتر الملاحظات، وأمرت مشغلة الهاتف أنْ تبعث الرسالة الرسمية إلى اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا.

انتظرتها، في مدخل مبنى المحطة، ياشكينا، سكرتيرة قسم رعاية الأطفال المحلي، ومرافق من الجيش الأحمر، نسيت بيلايا اسمه تماماً. ووقفت هناكَ أيضاً زلاجات جاهزة للرحلة: فقد اتّفِقَ مسبقاً على أنْ تذهب على الفور إلى المناطق النائية -عبر القرى والقصبات- من دون إضاعة الوقت في تفتيش المأوى في شيخِران، التي وفَّر قربها من السكة الحديد بعض الازدهار. فجلسوا في الزلاجة وانطلقوا على الفور.

ياشكينا، ذات الوجه الشاحب إلى حد الزرقة والعينين الذابلَتَين، كانت ملتحفة بأنواع المناديل والشالات، وترتجف من البرد باستمرار، على الرغم من معطفها الضخم المصنوع من جلد الغنم وحذائها المصنوع من اللباد الجيد. وكانت دائماً تنظر إلى الأرض، وتتحدث قليلاً ومن غير رغبة - إما بسبب طبيعتها المكتئبة، أو بسبب بعض الضعف العام الذي اعتراها في جميع إيماءاتها ونبرات صوتها. أما الجندي والحوذي فلم يتحدثا باللغة الروسية على الإطلاق. من الواضح أنَّ الرحلة ستكون صامتة. ففكرت بيلايا، بأنّ هذا أفضل، وسيجعل نظرتها أكثر انتباهاً وحيادية.

سارت بهم الزلاجة عدة ساعات - عبر الحقول البيضاء المملة التي تحدها الغابات. لم يُلاحَظ أيّ حيوان أو طائر، ولا حتى آثار لهم: فالثلج في المكان امتد صلِداً، أملس، لم يمسه مخلب ذئب أو ثعلب. من الأعلى، ارتفعت في السماء غيوم كالقطن المنفوش.

بحلول الظهر دخلوا إلى القرية. أدركت بيلايا ذلك، بعد أن اكتشفت على جانبي الطريق ركاماً ثلجياً كبيراً، بارتفاع قامتَي رجل طويل -كانت المنازل تختبئ تحتها. لم تكن تُرى أسقف ولا أساسات ولا جدران- كل شيء كان مغطى بالثلج؛ النوافذ فقط المنحدرة تدلّت من تحت زوائد الأسقف المتجمدة، مثل العيون من تحت الخمار. عمَّ السكون هنا، كما هو الحال

في الحقل. ولم يَفُح المكان بأيّ رائحة، كما في الحقل: لا رائحة دخان ولا رائحة روث ولا طبيخ ولا أيّ روح بشرية أخرى.

ياشكينا اقترحت البحث عن مجلس القرية، لكن بيلايا، بدافع من عادتها الراسخة في بدء جولاتها من دون المسؤولين، قفزت من على الزلاجة وتوجهت إلى الفناء الأول الذي صادفته. وبمجرد أن فتحت الباب المتجمد، غرقت في جرف ثلجي وجرفت الثلج في حذائها، لكن من دون جدوى: كان الكوخ فارغاً، والكوخ التالي والذي بعده أيضاً.

لم تتحمّل وقالت أخيراً:

- إلى أين أتيتم بي؟ ربما، هذه قرية مهجورة؟

هزت ياشكينا رأسها من دون أن ترفع عينيها. ثم أشارت إلى بوابة متهدمة عبر الطريق، تقود إليها سلسلة من آثار الأقدام.

في هذا الفناء، كان وجود الإنسان محسوساً بالفعل: سحابة شفافة ترتجف فوق أنبوب المدخنة –لم تتبيّن إنْ كانت دخاناً أو حرارة فقط؛ وقد أزيل الثلج من السقف، لكنه أُزيل بطريقة غريبة إلى حد ما– في بعض الأماكن، إلى الأسفل على منحَدَر السقف. وعندما اقتربوا، أدركت بيلايا: لقد نظّفوا السقف لسبب ما – كانوا يأخذون القش منه.

وجدت بيلايا القش داخل الكوخ: كان مفروماً فرماً ناعماً، ووضِع في أكوام على الطاولة. كانت هناك طاحونة يدوية أيضاً، عبارة عن حَجَري رحى وضع أحدهما فوق الآخر – ويبدو أنَّ القش المفروم طُحِن دقيقاً. وكان هناك قدر من الحديد الزهر مملوء بسائل لزج، بدت منه أغصان وأشواك. كان القدر الحديدي دافئاً. يا ترى، هل طُبِخَت هذه الأغصان بشوكها؟

جالت بيلايا بصرها في الغرفة. رأت قطعاً رمادية من جذوع الأشجار، مشدودة بنسالة القنَّب؛ وأثاثاً من الخشب غير المقطَّع. النوافذ صغيرة مغطاة بالصقيع لدرجة أنها بالكاد تسمح بدخول الضوء. وفي الزاوية موقد كبير. ومن جهة الموقد، كانت عدة أزواج من العيون تنظر إلى بيلايا – تنظر بلا مبالاة وبلا انقطاع، ومن دون أن ترمش.

إنهم أطفال. أربعة أو خمسة، على الأغلب، لم تتمكن بيلايا من عدِّهم

على وجه اليقين. ولم تستطِع أنْ تقدِّر أعمارهم: ثلاث وأربع سنوات أَم ثماني وعشر سنوات؟ ليس عليهم خيط واحد من الملابس، يرقدون على المضجع بجانب الموقد على شكل كومة من الأذرع والأرجل النحيفة، ببطون منتفخة وسُرّات بارزة، وأفواه نصف مفتوحة وشعر متشابك. دخلت ياشكينا، بعد بيلايا، وسألت شيئاً ما باللغة التشوفاشية - فاختلجت الوجوه المتسخة في إيقاع، واتجهت إليها العيون في نفس الوقت، لكن الشفاه لم تتحرك للإجابة.

اقتربت بيلايا من الموقد ومدت يدها إلى الكتلة البشرية - ببطء شديد، فتحت كف يدها إلى الأمام، حتى لا تخيف الأطفال:

- أين آباؤكم؟ وأين الملابس؟ هل أنتم جياع؟

تأرجحت الرؤوس الشُعْثُ على أعناق طويلة -ونظرت إلى الكف المُقتَربَة. امتدت من الكتلة البشرية نحوها يدٌ صفراء شاحبة صغيرة، تشبه برثن الدجاجة- وخدشت اليد الغريبة من المعصم، وسحبتها تجاهها.

وفجأة فُتِحَ فم واحد كل الفتح واحتضن إبهام بيلايا بشفتيه -وبدأ يمصه مثل اللهاية. فانفغرت الأفواه الأخرى أيضاً على الفور، وبدأت تمتص الأصابع المتبقية. ألسنة خشنة جافة، أسنان صغيرة- في كل إصبع من أصابع بيلايا: خمسة رؤوس، تدفع بعظام الخد، وتمتص يدها. العيون مغلقة، والأنوف متوترة، والتنفس يتسارع ويصفر - هذا هو الشيء الوحيد الذي يُسمع في المنزل.

استطاعت بيلايا أنْ تكبح صرختها. وببطء شديد، سحبت يدها نحوها -ففتح الأطفال فُكُوكهم باستكانة، وتركوا يدها. تمطّقت شفاههم بلطف، وصارت تمتد منها خيوط من اللعاب وتتدلى في الهواء- وأخيراً تنقطع.

مسحت بيلايا أصابعها المبللة بمعطفها وقالت:

- يجب إطعامهم. وكسوتهم. لابد من ذلك.

هزّت ياشكينا رأسها وهي تنظر إلى الأرض، وقالت:

- نعم، نعم. سوف نقول للمسؤولين في مجلس القرية.

في الأكواخ الأخرى لم تصادفهم إلا آثار البشر. في أحد الأكواخ عثروا على كومة من عظام البقر المحروقة على طاولة، قُضِمَت بالترتيب. وفي كوخ آخر، هناك ثلاثة رؤوس كلاب في قِدر مملوء بالماء، على ما يبدو مهيأة لطهي حساء اللحم.

لم تستطع بيلايا أنْ تفهم ما يجري في القرية:

- وأين ذهب الناس؟

هزَّت ياشكينا كتفيها، وقالت:

- سوف نسأل في مجلس القرية.

طوال الطريق، حافظت ياشكينا على هذا التعبير الخامل الرزين على وجهها لدرجة أنَّ بيلايا تنتابها أحياناً رغبة شديدة في أنْ تضربها وتصفعها على خديها. لكن من غير المرجح أنَّ هذا يساعد: فمن الواضح أنَّ ياشكينا تتميز بطبيعتها بالبلادة الروحية، بل إنها ستتحمل الضرب من رؤسائها بنفس الاستسلام واللامبالاة.

واصلت بيلايا السير بعناد، وتقدمت إلى الأمام -إلى منزل طويل من دون سياج وحديقة أمامية، مع شرفة عالية ونوافذ كبيرة. عند الباب آثار حركة أقدام كثيرة إلى حد ما. والطبقة الجليدية قد أُزيلت من السقف- ثمة علامات على الحياة على نحو بيّن. وفعلاً، من خلال النوافذ المغطاة بالصقيع إلى نصفها، لاحظت بيلايا وجود البشر، الكثير من الناس: صف كامل من الأطفال يجلسون على الرَّحلات ويكتبون بالأقلام على الدفاتر، والمعلم يشرح على السبورة شيئاً ما، ويلوّح بعصا تأشير. تبدو هذه الصورة الوديعة غريبة جداً في وسط قرية منقرضة نصف مغطاة بالثلج لدرجة أنَّ بيلايا، لم تقدر على أنْ ترفع بصرها، والتصقت بوجهها على زجاج النافذة - لتقف بضع دقائق، وتحدق في المشهد الحلو والمألوف.

ولكن لماذا المدرسة مظلمة جداً؟ الغرفة الفسيحة مضاءة بشعلة واحدة - في هذه العتمة، الضوء بالكاد يكفي لمشاهدة الوجوه. كيف يكتب الأطفال في هذه الظلمة؟ لماذا لا يغمسون الأقلام في المحابر؟ لماذا لا يقف المعلم أمام الفصل كما يُفتَرَض، بل يجلس على كرسي، وحتى يميل

برأسه إلى الحائط؟ لماذا العيون مغمضة؟ لماذا يضغط بعصا التأشير على السبورة من دون كتابة أي شيء عليها؟

دخلت بيلايا إلى الفصل. فالتفتت نحوها الوجوه. كانت الوجوه كلها عريضة بشكل غير عادي، وذات جفون منتفخة وخدود متورمة، وبسبب ذلك بالكاد يمكن رؤية العيون، أما عظام الخدود فضيقة للغاية ومشدودة الجلد وذات تجاويف عيون كبيرة. نظرات الجميع متعبة وناعسة لدرجة الذهول. يرتدي التلاميذ معاطف من جلد الغنم ومعاطف من الفرو، وبعضهم يرتدون القبعات. المعلم يرتدي معطفاً رثّاً لونه ضارب إلى الصفرة، يبدو أنه معطف نسائي.

تهلل وجهه المنتفخ على نحو فظيع بالفرح، وقال هامساً باللغة الروسية لسبب ما:

– لقد وصلتِ. لقد أخبرت الأطفال، لقد وعدتهم – وفعلاً جئتِ. يا لها من سعادة...

فقالت بيلايا:

– مرحباً. أنا من موسكو، من لجنة الأطفال.

اتكأ المعلم على عصا التأشير، ونهض من كرسيه، ومشى بتثاقل (كان بوط حذائه اللباد مشقّقاً لكي يسمح بدخول قدميه المتورمتَين بسبب داء الاستسقاء) واتجه نحو بيلايا، وقال:

– هل يمكنك أنْ تفتحيه اليوم؟ أيمكنك، الآن بالذات؟ نحن ندرس كل يوم – حتى الظلام، كما رأيتِ أنت بنفسك. وليس لدينا المزيد من القوة للانتظار...

– ماذا أفتح؟ أين؟

– المقصف. هل جئت لافتتاح المقصف؟ مقصف المدرسة؟

استمر المعلم في محاولة زَرِّ أزرار معطفه الرث العتيق، الذي ارتدى تحته عدة سترات وكنزات، لكن أصابعه لم تطعه.

هزّت بيلايا رأسها، وقالت:

– كلا. أنا، هنا، من أجل التفتيش فقط.

بسبب الإثارة ازدادت قوة المعلم، وتمكنت أصابعه أخيراً من معالجة الزر الأخير عند الحلق:

- لا تمزحي هكذا! لقد أُبلغْتُ في دائرة التعليم على نحو رسمي تماماً، أنَّ المقاصف الأولى ستكون دائماً في المدارس - ولكن في المدارس الفعلية فقط. وإلا فلماذا نجلس هنا طوال الخريف والشتاء؟

قالت بيلايا:

- آسفة. لن يكون هناك مقصف. اذهبوا إلى المنزل.

نظر إليها المعلم طويلاً، وهو يهز وجهه المنتفخ ويتراخى أكثر فأكثر مع كل ثانية، كما لو كان يتقلص أمام عينَي بيلايا. وتجعَّد معطفه إلى طيات عرضية - وانطوى مثل أكورديون أصفر كبير.

خاطبت بيلايا التلاميذ:

- وأنتم، يا أطفال، عودوا إلى المنزل!

ظلَّ الأطفال جالسين، ومن الواضح أنهم لا يفهمون كلمة واحدة باللغة الروسية؛ كانت سحب بخار صغيرة تنفتح وتختفي عند أفواههم. كان البعض منهم قد غمرهم النوم بالفعل - فقد فقدت وجوههم كل معنى، وتدلَّت على صدورهم، وأُغمِضَت عيونهم.

التفتت بيلايا إلى المعلم:

- قل لهم أنْ يعودوا إلى المنزل!

لكنَّ الرجل عاد وجلس على كرسيه مثل دجاجة عجوز على مجثم. وضغط المعطف ذا الأزرار على رقبته المتورمة، وفك الياقة مرة أخرى. ثم فجأة ضرب ضربة بعصا التأشير في مكان ما للخلف وللأعلى - كان يضرب من دون أن ينظر، لكنه يضرب بدقة في مركز السبورة (لوح الكتابة): من شدة دويّ الضرب، ارتجفت رؤوس التلاميذ بشكل محموم، وبدأوا يحملقون بعيونهم الفارغة.

اتكأ المعلم على الحائط وأغمض جفنيه، وقال:

- اخرجوا، لا تشوّشوا علينا الدرس.

ألقت بيلايا نظرة على الرَّحلات: بدلاً من الدفاتر أمام التلاميذ قصاصات

من الجرائد. البعض لا يحمل أقلاماً في أيديهم - بل أغصان. لا توجد محبرة واحدة على الرَّحلات.

أومأت بيلايا برأسها معتذرةً وخرجت، وأغلقت الباب بحرص وقالت مخاطبة ياشكينا التي كانت تنتظر بالخارج:

- لا بأس. دعينا نذهب إلى مجلس القرية.

عثروا على المنزل الذي فيه مقر المجلس بسرعة: إنه يقع على تلة، في الشارع الرئيس في القرية، كان الثلج المحيط به قد داسته بكثرة أقدام البشر وحوافر الخيول ومزالق الزلاجات. بناء الكوخ -جيد؛ والسياج المحيط مرتفع ومغطى بمظلة: يمكن ملاحظة حديقة مُلحَقَة كبيرة مختبئة في الفناء. من الشارع، يمكن رؤية الريشات فقط من طاحونة الهواء المنزلية: أجنحة ضخمة ترتفع فوق الفناء مثل صليب أسود. نوافذ بناية المجلس مظلمة، لكنها ظلمة متحركة حية: هناك ستارة ترتجف، ثم ومض بعض الظل خلف الزجاج- بكل تأكيد، داخل المنزل يعتزّون بالكيروسين أو الشموع، ولا يشعلونه حتى حلول الليل.

في المنزل رائحة البشر قوية: تفوح رائحة العرَق ورائحة نفث أفواه كثيرة وشعر غير مغسول. لم يكن كلام الناس مسموعاً، ولكن من خلال حركة الهواء المحيط، وموجات الحرارة الضعيفة القادمة من جميع الجهات، أدركت بيلايا: أنهم بشر! أحياناً تتناهى أصوات وجود البشر من الظلمة: مرةً تنهد، ثم شخير، ثم سعال أجش -يقرقر، من مكان ما في أعماق المعدة. وسرعان ما اعتادت الرؤية على الظلام السائد بالداخل- وبدأت عيونها تميز ما يحدث، وأخيراً رأت سكان القرية. ما أكثر عددهم هنا!

لسبب ما، كانوا جميعاً ملتصقين معاً في مجموعات -من خمسة أجساد أو ثمانية أو حتى دزينة من الأجساد: لا أحد جالس أو مستلقٍ منفرداً، وحده، بل كلهم كانوا مُكَدَّسين معاً. يجلسون متراصّين- كما في الحزمة -النساء جالسات على المقاعد، يحتضنَّ بعضهن بعضاً ويحتضنَّ كذلك الأطفال على رُكَبهنَّ. وتكوَّم الرجال على الأرض: تمددت الأجساد تحت النوافذ، وبجانب الطاولة، وفي ركن الدعاية، بعضها منتفخ على نحو قبيح وبعضها نحيف حتى العظم،

واستلقت جنباً إلى جنب، مثل جذوع الأشجار في مخزن الخشب. تجمع كبار السن حول الموقد: كانوا يلصقون خدودهم وأكتافهم وظهورهم على الجانب المطلي بالجص الأبيض، ونشروا لحاهم البيضاء أيضاً فوقه، وضغطوا عليها بأيديهم المجعدة- لا يُرى ذلك الموقد، ولا شبر منه، ولا نصف شبر، بل ترى أجساد الشيوخ التي تغطيه فقط. كلهم صامتون. الجميع يتنفسون، ولا ينفقون الطاقة على الكلام الفارغ أو الضجة الجسدية، بل على تدفئة الكوخ فقط. من حين لآخر، ينفصل شخص ما عن مجموعته، يحركُ أطرافه بخمول، ويسحب نفسه بتثاقل إلى دلو فيه ماء؛ وبعد أنْ يشرب، يعود إلى مكانه.

لماذا تجمعوا هنا، لماذا جاءوا إلى المجلس؟ ما هذا التجمع؟

جاء الجواب من رئيس مجلس القرية: لقد ظهر بعد ذلك بقليل – دخل، يجر قدميه، ويمشي مشية المصاب بداء الاستسقاء. فتح صندوقاً مغلقاً بالمفتاح وأخرج منه مصباحاً نفطياً وأشعله. أخرج زوجاً من جذوع الأشجار من القبو المغلق بقفل مخزن وألقى بهما في الموقد. اتضح أنه إذا لم يكن النفط والحطب مُخَبَّأين، فسيأخذهما الناس إلى المنازل على الفور. في البداية، فرح بضيوف العاصمة وانتظر بأمل، ولكن، بعد أنْ أدركَ أنهم من أجل التفتيش فقط، فقدَ على الفور كل فرحه وحيويته.

وبدأ يشرح: نحن نعيش مجتمعين، أهل القرية كلنا -منذ عدة أشهر. لقد نفد الحطب لدى الكثيرين، ولا توجد قوة للشراء- لذلك يأتي الناس إلى المجلس، من أجل الدفء. بالإضافة إلى ذلك، قلة من الناس لديهم ملابس شتوية، لهذا لا يخرج الجميع في البرد. لا يوجد طعام عند أحد من مدة طويلة. ذُبِحَت الماشية والدواجن منذ الخريف، واصطيدَت الكلاب والقطط والفئران والسحالي كلها. ماذا يأكل الناس؟ يأكلون كل أنواع القمامة: يحفرون العشب من تحت الثلج ويطحنون الأغصان ويغلونها. جمعوا ورق الشوح وأكواز الصنوبر والطحلب. وطحنوا جوز البلوط وسلقوه في سبع مياه. والأكثر حماقة -ابتلعوا الحجارة وطبخوا حساءً من الرمل. وحاولوا طحن الخشب لكنهم لم يستطيعوا أنْ يأكلوه. ومع ذلك، عَجَن أحدهم خشب البلوط المطحون وأكله- كانت تفوح منه رائحة الخبز. نحن ننتظر الربيع، ننتظر الدفء والعشب الطازج. وأكثر من الربيع

نحن ننتظر حمولات من المركز. لا نأمل في القمح، لكن ربما سيحضرون الحمص أو ثفل بذور عباد الشمس المعصورة. هل تعرفون إنْ كان يُحتمل أنْ تصل من هناك شحنة هذا العام؟

تذكرت بيلايا مئات العربات التي تحتوي على مواد غذائية، متجمدة على خطوط السكك الحديدية، في انتظار قاطرات بخارية. وهزَّت رأسها وقالت: لا أعلم.

نعم، أومأ الرئيس متفهماً. إننا لسنا بحاجة إلى الكثير -ليتنا نحصل على ما نطعم به الأطفال فحسب. أولئك الذين ما زالوا في المهد- يموتون بسرعة، لا يعانون. لكن هؤلاء الذين يقفون على أقدامهم -فالأمر أكثر صعوبة عليهم. إنهم يقضمون أصابعهم- يقضمونها حتى العظام. يمدون أيديهم لمضغ أيّ شيء -أحزمة، حبال، أحذية قديمة- ويختنقون، لأنهم لا يقدرون على بلعها. يمرضون بأمراض مختلفة: التيفوس، الإسقربوط، الديدان في الفم. وبعضهم لديه في جميع أجزاء الجسم تقرحات لا تلتئم. ومع أنَّ في القرية مستوصفاً، ولكن من دون جدوى: الأطفال لا يتعافون في ظل الجوع. وحتى الكبار لا يتعافون. ربما ينبغي غلق هذا المستوصف حتى الصيف – وعدم إهدار الحطب؟

هزَّت بيلايا رأسها مرة أخرى: لا أعرف.

وأنا أيضاً لا أعرف، وافق الرئيس على رأيها. أصبح الحطب الآن يعادل وزنه ذهباً. بالإضافة إلى مجلس القرية والمستوصف، ندفّئ كذلك حظيرة في الضواحي – نحتجز هناك الذين فقدوا عقولهم. يفقد الناس عقولهم بسرعة من الجوع. في الصباح، تجد الرجل لا يزال يتمتع بعقله، وما إنْ تنظر إليه في المساء حتى تجده قد جُنّ: يعوي، ويهجم على الجيران، ويهدد بأكل أطفاله. مثل هؤلاء نحبسهم على حدة حتى لا يصيبوا الآخرين بالجنون. ربما، ينبغي ألّا نعطيهم المزيد من الحطب؟ ونحتفظ به من أجل المستوصف؟

نهضت بيلايا وقالت: شكراً لك على هذا الحديث. وبإيماءة من رأسها دعت خلفها ياشكينا. سنذهب، لا يزال يتعين علينا الوصول إلى القرية التالية قبل حلول الظلام.

نعم، هزَّ الرئيس رأسه بكل تأهّب. اركبوا في الحال، من الخطر أن يسير المرء في الليل. هل تستطيعون أنْ تأخذوا مُعتَقَلاً معكم؟ فأنتم، على كل حال تذهبون إلى بلدة تسيفيلسك وسلّموه إلى الشرطة هناك. ليس لدينا مكان نحتجزه فيه: من الخطر أن نحتجزه في المستوصف أو في مجلس القرية، فهو على كل حال مجرم، وفي الحظيرة بين المجانين، هو نفسه يخاف. ونحن لن نأخذه بأنفسنا - لن نستأجر عربة من أجله وحده. ولم تتهيّأ في هذا الشهر فرصة لعابر سبيل نرسله معه سواكم.

كلا، قالت بيلايا وهي تركب في المزلقة. لن نأخذ مجرماً.

حاول الرئيس إقناعها وقال إنه ليس شريراً على الإطلاق، بل على العكس، هو رجل طيب القلب. لم يستطع إطعام ابنتيه - فخنقهما بلحاف حتى لا تتعذَّبا. وقبل ذلك، كان قد حفر قبراً، وصنع بيديه نعشاً، واحداً لشخصين. فدفنه وجاء مباشرة من المقبرة وسلَّم نفسه. يا له من رجل!

دعونا نذهب بسرعة، أمرت بيلايا الحوذي. هيّا لنذهب! هيّا لننطلق!

فسارت بهم المزلقة -عبر الشوارع التي غشيتها ظلمة الشفق الأزرق من جانب البيوت الداكنة، التي بدت على نحو كئيب من تحت الثلج. وبقيت تتراءى لهم الأضواء الحمراء الباهتة لمجلس القرية على التلة مع صليب الطاحونة الممتد باتجاههم مدة طويلة- حتى من حافة القرية.

عندما اجتازوا الضواحي، سمعوا عويلاً منطلقاً من مبنى مظلم يقع على الأطراف: صوتان يعويان، على نحو منخفض ومخيف، في انسجام تام تقريباً. أدركت بيلايا أنَّ هذه -الحظيرة التي يُحتَجز فيها المجانين. سرعان ما ينضم صوت ثالث إلى الصوتين: هذا الشخص لا يعوي- يبكي ويكرر نفس الشيء بكل تناغم.

«بماذا يصرخ؟» وجّهت بيلايا سؤالها إلى ياشكينا. فشرحت لها المرأة وهي ناعسة: «اقرعوا الناقوس».

ساروا في حقل. امتدت أمامهم الثلوج السوداء في كل مكان، من الأفق إلى الأفق. وبانَ القمر كالثقب الأبيض في كبد السماء. شريطان فاتح لونهما -بالكاد يكفيان لمسار الزلاجة- يؤديان إلى القرية التالية.

وهدر الصوت:

- اقرعوا الناقوس! اقرعوا! اقرعوا! اقرعوا!

انتابت بيلايا رغبة بأنْ تستلقي على الفور في قعر المزلقة، وتزحف تحت المفرش المصنوع من جلد الغنم، وتدفن نفسها في القش، وتغمض عينيها وتسد أذنيها، لكنها سيطرت على نفسها، وحتى لم ترتجف.

تناهى الصوت فوق الحقول المهجورة:

- اقرعوا الناقووووووووس!

جرى تفتيش عدة قرى أخرى خلال الأسبوع. لو لم تكن بيلايا قد حددت بدقة متناهية في دفتر الملاحظات المكان الذي كانوا فيه وما رأوه، لكان بإمكانها أنْ تُقْسِم أنها زارت ثلاث أو أربع قرى فقط. ولكنها، في الواقع، زارت إحدى عشرة قرية. إحدى عشرة قرية ذات أسماء تشوفاشية معقدة - متشابهة تماماً للوهلة الأولى وحتى بعد التعرف الوثيق عليها.

في كل مكان -صور متشابهة كل التشابه: منازل فارغة، أناس محتشدون في كوخ واحد. أجساد نحيفة إلى حد القبح، أو منتفخة من داء الاستسقاء إلى درجة القبح. واستسلام ولامبالاة في النظرات. وفي قدور الحديد الباردة ليس سوى أحجار وتراب وعشب متعفِّن. الحقول خالية من المحاصيل الشتوية. والحظائر- خالية من الحيوانات. سقاف الخزن -لا تحتوي على طعام. والمستشفيات- لا تعالِج. المدارس - لا يُعَلَّم فيها...

بحلول نهاية الأسبوع، فقدت بيلايا قدرتها على التأثّر: لن يعود يثير دهشتها لا الأحياء الذين شوَّههم الجوع والمرض ولا الموتى المتيبسون في البرد. وآنذاك عرفت أيضاً سبب خمول رفيقتها الغريب. فقد لاحظت عند مدخل بلدة تسيفيلسك أنَّ ياشكينا كانت تمتم بإيقاع بعض الكلمات بصوت منخفض وغير مفهوم. فسألتها بنوع من التوعّد وهي تنظر في عينيها:

- هل تُصَلّين؟

فأجابت ياشكينا بهدوء، ولأول مرة منذ بداية الرحلة، من دون أن ترفع بصرها:

- نعم، أصلّي من أجل ابني وابنتي. اليوم هو التاسع منذ أنْ فاضت روحهما...

في بلدة تسيفيلسك، كان على بيلايا أن تستريح لمدة يوم كامل -لتغتسل وتنام نوماً عميقاً، وتُبَلّغ موسكو بتقاريرها- ومن ثم تنتقل إلى تشيبوكساري. حصلت على أفضل غرفة في أفضل فندق في المدينة. الغرفة فسيحة، بمَوقِد خاص بها (وإن كان غير مُوقَد) وسقف مرسوم بالغيوم والملائكة.

لكن بيلايا لم تستطع الجلوس في حمام الماء الساخن، الذي أعدته الخادمة بعناية، ولا أنْ ترقد في السرير المفروش ببياضات من الكتان النظيف. بمجرد أن دخلت الغرفة، جلست على الطاولة -وحتى من دون أن تخلع معطفها- وهكذا بقيت جالسة طوال الليل. لم تضئ المصباح، ولم تلمس العشاء الذي وِضِعَ هنا على المائدة ولُفَّ في منديل. كان ينبغي لها أنْ تكتب تقريراً -ليس طويلاً جداً ولا قصيراً جداً، وتذكر فيه الحقائق من دون هستيريا وتقديم مقترحات بناءة- لكن الكلمات اللازمة لم تأت.

لأول مرة في حياتها، وقفت بيلايا عاجزة: فالمكالمات الهاتفية والتقارير والبرقيات اليائسة كانت عديمة الفائدة. ذلك كله لا يطعم ولا يدفئ الأطفال الذين رأتهم. لا يمكنها، حتى مع أكثر نبضات روحها حماسة - أنْ تذيب الثلج الذي غطى القضبان، وتفسح الطريق أمام القطارات المحمَّلة بالقمح. أو أنْ تعيد الحركة للقاطرات في مقابر القاطرات. أو تبعث الحياة في أرواح السائقين الذين سقطوا صرعى في الحرب الأهلية.

هناك، في القرى التي تركتها بيلايا خلفها، رأت الموت لأول مرة عن كثب. وهناك، في المدارس والمستشفيات والمجالس القروية التي يسكنها الموتى، الحياة تتظاهر فحسب بأنها موجودة. في الواقع، كانت العلامات خادعة: تحت ستار الحياة، اختبأ الموت منذ مدة طويلة. فوقفت بيلايا أمام هذا الموت، وجهاً لوجه - لا تعرف ماذا تفعل بعد ذلك وكيف تعيش.

وعند الفجر، بعد أن دعكت وشطبت نصف دزينة من الأوراق، ذهبت بيلايا إلى مكتب البريد، على أمل أنْ ترتب في الطريق أفكارها وتجد الكلمات المناسبة للتقرير.

دائرة البريد المحلية، عبارة عن منزل صغير متكوّن من طابق واحد يقع في ركن الساحة الرئيسة، محاط بأعمدة مشبوكة بالأسلاك. وجدت بيلايا دائرة البريد تعمل. فجلست عند المكتب الوحيد، تحت نظرات موظفة البريد المتعاطفة، وجعلت تكتب وتشطب، وتكتب وتشطب لمدة نصف ساعة. في كل مرة، كانت تدير عينيها على نسخة جديدة من الرسالة، وتشطب بقساوة علامات الحساسية المفرطة: «رهيب»، «قاسٍ» أو «كارثي»، «يموتون» أو «يتساقطون كالذباب الميت». وفي كل نص لاحق، كانت هذه الكلمات تقفز بطريقة لا يمكن تصورها مرة أخرى، كما لو لم تكن بيلايا هي التي توجه قلم الرصاص على الورقة، بل شخص آخر -عنيد وشكس الطباع. أخيراً، بطريقة ما، أكملت كتابة الرسالة- وسلمتها إلى ساعية البريد.

لكن لم يسعفهم الوقت لإرسال الرسالة: فقد فُتح الباب بقعقعةٍ، ودخل خطمُ مشبع بالبخار لحصان برموش ولبدة متجمدة إلى القاعة، وبعد ذلك، دقّت حوافرٌ، ودخل بدنُ حصانٍ ذي جنبين منتفخين مغطى بالثلج. يجلس على الحصان رجل يعتمر قبعة شعثاء: كان أنفه أحمر ووجنتاه حمراوَين من الصقيع، كان الصقيع متجمداً على لحيته التي بدت مثل رقاقات الثلج.

فصاحت الموظفة:

- إلى أين؟!

ولكن الرجل قفز على الأرض، وسحب يده من قفاز الفراء - فظهر مسدس من مكان ما في أصابعه العظمية وحدق في وجه الموظفة الشاحب من الاضطراب.

قال الرجل بصوت أجش من البرد:

- أريد أن أقدم تقريراً إلى بلدة تشيبوكساري.

أدارت موظفة البريد ذقنها في اتجاه بيلايا، وقالت:

- انتظر في الدور.

قال الرجل:

- الرسالة التي لديَّ أهم.

ثم نقر على الزناد وسعل بشدة، وضغط المسدس بظهر يده في فمه.

غمزت موظفة البريد بعينها لمدة وجيزة - وجلست مطيعة أمام آلة التلغراف، ومررت أصابعها على الأسطوانة بالشريط الورقي، واستعدت للعمل.

سعل الرجل، وأحنى مرفقيه على دكة البريد، وبحركة غير مبالية أزال رقاقات الثلج الذائبة من لحيته على الأرض؛ ثم أخرج ورقة مطوية عدة مرات من حضنه وفتحها، وقال:

- بالأمس كان من المفترض أن أرسلها، لكنني لم أتمكن. حاولي أن تفعلي ذلك بأسرع ما يمكن. مَن في الطرف الآخر لا يحبون الانتظار.

وبدأ يقرأ بصوت هامس مشوب بالصفير بسبب التوتر.

- تقرير إلى مكتب اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب في تشيبوكساري. أبلغكم أنه خلال الأسبوع الماضي في قرية أبيفو التابعة لقصبة تسيفيلسك، مات تسعة أشخاص، منهم خمسة ماتوا متسمّمين: لقد أكلوا جيفاً من المقبرة -إذ أخرجوا جثث الأبقار التي صُبَّ عليها حامض الكاربول من الأرض المتجمدة وقطَّعوها وأكلوها. جثث الموتى مكدسة مع جثث أخرى في سقيفة المخزن. أطلب منكم إرسال جنود لحفر قبر جماعي. السكان أنفسهم يرفضون الحفر لقلة القوة. وِلِدَ طفلٌ- ميت. إذا ما حسبناه معهم، فيكون عدد الموتى ليس تسعة، بل عشرة أشخاص. أرجو أن ترشدونا إلى كيفية التصرف في المستقبل: هل يُضاف المولود الميت إلى عدد الأموات؟ وأيضاً: المواليد الذين عاشوا عدة أيام أو ساعات ثم ماتوا هل يُضاف عددهم إلى عدد الموتى؟ نحن في حيرة من أمرنا طوال الوقت. ليس ثمة حوادث أخرى. رئيس المجلس عبدولوف.

فرقعت مفاتيح التلغراف. كان الحصان يرفع حوافره ويضعها ويتنفس بصخب، ثم بدأ يلعق المكتب المطلي بالورنيش - لا بد أنه كان عطشاناً.

سألت الموظفة، وهي تنضِّد الكلمات الأخيرة:

- هذا كل شيء؟ - نعم، هذا كل شيء.

نزع عبدولوف قبعته الصوفية (وكشف عن بقعة صلعاء متعرجة تحتها)،

وضغطها على صدره وهز رأسه، إما شكراً للنساء أو تحية خفيفة لهنّ. ثم اعتمر قبعته، وفتح الباب، وصعد على السرج. فهزَّ الحصان رأسه بجزع، وتطاول إلى الشارع.

قالت موظفة البريد خلف عبدولوف:

– لديكم تلغراف خاص بكم في قرية أبييف.

فقال بصوته الأجش من المدخل من دون أن يلتفت:

– لقد سرقوها بالأمس. سآتي إليكم الآن مع التقارير.

أُغلق الباب بقوة. بقيت آثار الأقدام الرطبة على الأرض – من الأحذية والحوافر.

سُمِعَ عواء الريح خارج النافذة. فقد هبَّت عاصفة ثلجية.

سألت بيلايا:

– ولكن لماذا الحصان؟

هزّت موظفة البريد كتفها، وقالت:

– إذا ما تركه في الخارج يُسرَق في رمشة عين. لا بأس، أعطِني رسالتك.

دعكت بيلايا مسودة التقرير ووضعتها في جيبها:

– كلا، أنا أفضل أن أملي بنفسي.

أمْلت على الموظفة بسرعة من دون أي توقف.

– إلى رئيس لجنة الأطفال –سرّي وشخصي. عاجل. فيما يتعلق بالحالة الكارثية– أشدد، الكارثة –في تشوفاشيا، أطلب إذنكم لتغيير أهداف الرحلة. بالشكل الآتي: أطلب الإذن بقطع المسار المخطط له واستخدام التفويض الممنوح لي لاتخاذ الإجراءات اللازمة هنا. أقترح إعداد قطار إخلاء لنقل أكبر عدد ممكن من الأطفال الذين أشرفوا على الهلاك من تشوفاشيا إلى موسكو. بالإضافة إلى ذلك، أخطط لاستخدام هذا القطار بشكل منتظم لنقل أطفال تشوفاشيا إلى موسكو وبتروغراد ومقاطعات إنتاج القمح– إلى أنْ تتحقق هزيمة المجاعة. أنا في انتظار موافقتكم. مفوضة لجنة الأطفال بيلايا.

استُلِمَت الموافقة. وعاشت بيلايا لمدة عام كامل في قطارات تربط إقليم

تشوفاشيا بموسكو. وبفضل جهودها، افتُتِحَت أربعة ملاجئ أيتام جديدة في مدن تشوفاشيا المختلفة، ودزينة ونصف من مراكز التغذية الإضافية، ومقصف متنقل لإمداد القرى والقصبات النائية، وأُجلِيَ ما يقرب من ستة آلاف طفل جائع.

لم تصل بيلايا إلى قرى أقاليم ماري أو تتاريا أو بشكيريا في ذلك العام. ولا إلى مقاطعة سامارا ولا إلى سيمبيرسك ولا إلى ساراتوف أو أستراخان.

وفي العام التالي، ألف وتسعمائة وثلاثة وعشرين وصلت إلى تلك الأقاليم والمقاطعات. استمرت تعيش في القطارات التي أصبحت أطول وأكثر ازدحاماً. لم تعد تنقل الأطفال إلى العاصمة أو بتروغراد (لأنَّ المدينتين امتلأتا من تدفق اللاجئين) بل صارت تنقلهم إلى الأراضي الأكثر دفئاً والأكثر طعاماً. كان ترتيب قطار أطفال قازان هو السادس عشر في الأشهر العشرة الماضية. والأول - إلى تُرْكِستان.

***

اللحم، اللحم، اللحم... فكّر دييف باللحم طوال الليل. كان على استعداد للذهاب وشراء بضعة أرطال مقابل الصلبان الفضية التي كانت في حضنه من قازان، لكن لم تكن ثمة أسواق في المحطات. كان مستعداً لأن ينقل في القطار أحد المضاربين في السوق السوداء مقابل أيّ ذبيحة مسلوخة الجلد، سواءً كانت كلباً، ثعلباً، أو أحد القوارض - لكن لم يكن ثمة مضاربون عند سكة الحديد.

هل يلوّح بالتفويض ويصادر فرساً هزيلةً من أحد ما؟ ولكن لا أحد هنا لديه فرس: فالعربات التي أسدل الظلام عليها ستره لا يجرها حيوان - بل بشر.

هل يلوِّح بالمسدس ويسرق؟ لا يسمح له ضميره. ومرة أخرى ليس ثمة مَن يُسرَق.

لم تكن هناك لحوم في البلاد - لا في المزارع الجماعية التعاونية، ولا لدى الفلاحين المنفردين، ولا حتى لدى الكولاك (الفلاحين الميسورين) البخلاء. سهوب كالميكيا، التي كانت مليئة بقطعان الأغنام، أصبحت فارغة،

وكذلك مراعي الأبقار في حقول منطقة الفولغا، وتلال تتاريا وباشكيريا، التي كانت ذات يوم داكنة من القطعان التي ترعى فيها.

صُودِرَت خيول العربات، والإبل والثيران والحمير مع بداية الحرب الأهلية لتلبية احتياجات الجبهة وبعد انتهاء الحرب سُلِّمَت للسكّين وذُبِحَت كلها. وقد نُفِّذَ بصرامة مرسوم مجلس مفوضي الشعب (مجلس الوزراء) بشأن التسليم الإجباري للماشية وذبحها من أجل اللحوم: كان تحديد حصص اللحوم حازماً للغاية، ونَفَّذَه «جيش تسليم المحاصيل الزراعية» بصرامة تامة. التوصيات جاءت للحصول على كل شيء: لحم الضأن، لحم الخنزير، لحم الخيل، لحم البقر، لحم الماعز، وفي مناطق الصيد -للحصول على لحوم الدب ولحم الأيائل، وفي بعض الأماكن حتى لحم الأرانب البرية- لأصحاب الكلاب السلوقية (ومع ذلك، فشلت هذه المبادرة ولم تؤدِّ إلى تنفيذ خطة التموين، بل تسببت بحملة قتل جماعي لتلك الكلاب من خلال إطلاق النار عليها).

وبعد أن استُبدِلَت الضريبةُ العينية بالحصص، أصبح الأمر لا يطاق تماماً، وبدأت المجاعة. فنهب الفلاحون مراكز تجميع الماشية ومراكز تخزين الحبوب. وانتشرت بينهم أمراض الكوليرا والتيفوئيد وداء الاستسقاء. وبسبب المجاعة أحرقوا منازل الشيوعيين ومجالس القرى وانطلقوا في أعمال شغب. ويئسَ الناس حتى صاروا يستطلعون الغيب ويحلمون بالخصب الوفير وبالنسل الكريم. وساءت الحال إلى درجة أنَّ الإنسان يمكن أنْ يقتل من أجل سرقة قطعة من شحم الخنزير المُقَدَّد أو حفنة من أحشاء الطير، فأصبح الاقتصاص العرفي فورياً وقاسياً. وشرب الناس الكحول المقطَّر في المنازل (الساموغون): فقد بدا لهم الموت أسهل وهم سكارى. وصاروا يسلمون الروح بهدوء ووجل، بينما بدأ النشيطون واليائسون بذبح آخر الحيوانات، وجعلوا يتركون المزارع ويسيحون في جميع أنحاء البلاد. وأكلوا كل شيء، ومثالاً على ذلك، نشرت صحيفة «إزفيستيا» مقالاً بعنوان «السنجاب الأرضي، يا له من طبق لذيذ وشهي!».

لن يرفض دييف لحم السنجاب الأرضي، ولكن حتى هذا لم يكن مُتاحاً أيضاً. لم يكن هناك لحم في أي مكان: اعتبرته الدولة، أولاً وقبل كل شيء،

أهم مصدر للغذاء، إلى جانب القمح. ودييف يعرف جيداً مدى صرامة مفارز تسليم المحاصيل الزراعية الإلزامي وكيف يتعاملون مع النقص في تنفيذ خطة اللحوم: إنهم، ربما، يتغاضون عن نقص العسل أو البطاطا، لكنهم لا يتغاضون عن نقص اللحوم - أبداً.

ألا يعرف دييف مدى صعوبة الاحتفاظ بالماشية المنفردة: البقرة ليس مثل الحبوب، لن ترقد بصمت على الأرض، بل بالتأكيد ستندفع إلى راعيتها السابقة، وهي ترغي خلف جدران الحظيرة العامة. لذلك، في بعض الأحيان يكون من الضروري إقامة حراسة مزدوجة: الحارس الخارجي لطرد الناس المتطفلين، والحارس الداخلي للاحتفاظ بالحيوانات.

ألا يعرف دييف مدى صعوبة سَوْق القطعان التي حُصِلَ عليها أثناء حملة التموين: أن يُحَضَّر لها العلف؛ وأنْ يوفَّر لها المراح الدافئ؛ وألّا تُقاد في الصقيع أو الشمس الحارقة. فالخنازير الجائعة تسعى إلى قضم ذيول الماعز أو الخراف، أما هذه فتلد في اللحظة الخطأ.

ألا يعرف الضيف كل هذا؟!

ألا يعرف دييف أنَّ...

ألا يعرف...

قعقعت العجلات، وقادت القطار عبر غابات الفولغا. وفي رأس دييف كانت تقعقع فكرة واحدة - يائسة، بل حتى جنونية. يبدو أنَّ الأفكار الجنونية فقط هي التي تراود رأسه مؤخراً. ويبدو أنَّ الأفكار المجنونة فقط، هي التي لها ثمن اليوم.

عرف دييف أين يجد اللحم. وعلمَ أيضاً أنَّه من المستحيل أنْ يحصل عليه.

هل يمكن لدييف ألّا يعرف هذا!

ألا يعرف دييف...

ألا يعرف...

في طريقهم إلى بلدة أورماني، قفز من عربة الموظفين إلى حجرة الماء والوقود، ومشى عبر أكوام الفحم إلى القاطرة وصعد إلى حجرة القاطرة. كان

وجهه شاحباً للغاية وجنتاه مشدودتان من التوتر، لدرجة أن السائق لم يسأله عن أي شيء – تزحزح عن مكانه فحسب وأفسح له المجال أمام نافذة الرؤية.

قبل الوصول إلى المحطة، أمر دييف السائق بالتوقف –فتوقف القطار. قفز دييف إلى الأرض وبدَّل بيده المُحَوِّلَة (مفتاح التحويلة)، وفتح الطريق أمام القطار إلى مفترق لا يكاد يُلاحظ– بعيداً عن المسار الرئيس، باتجاه الغابة.

بعد الحصول على المواد الغذائية بالقرب من سفيسياجسك، زادت سلطة الرئيس (دييف)، وصارت أوامره تُنَفَّذ بسرعة ومن دون تذمر. لكن مثل هذا التعنّت الواضح – مسألة خطيرة، وربما حتى بمنزلة جُرم يستدعي المُحاكَمة. استراح السائق: «لن أحيد عن الطريق».

لكنَّ دييف لم يعترض حتى، بل صعد إلى حجرة القاطرة، وأدار ناقل الحركة العكسي، وفتح المنظم –فخرج القطار «الضفيرة» إلى الفرع الجانبي بهدوء، من دون صعوبة تُذكَر. وبعد ذلك، أعاد المُحَوِّلَة إلى موقعها الأصلي وقاد القطار في عمق الغابة. سائق القطار هز رأسه بحسرة وصلَّب (رسم شارة الصليب على نفسه)– سراً من الرئيس، بعد أنْ أدار ظهره للنار المشتعلة في الفرن...

بعد ذلك بقليل، سأل دييف بوغ في عربة المستوصف:

– يا بوغ، هل تستقبل حالات النَّفاس؟

فرفع المساعد الطبي حاجبيه بدهشة، وقال:

– نعم، حدث ذلك.

لقد كان ثمة سبب للدهشة. إذ ما إنْ بدأ رئيس القطار الحديث، حتى راح يمشي في العربة: من دون أنْ ينظر إلى محاوره، سار في الممر بخطوات طويلة –ذهاباً وإياباً، ذهاباً وإياباً– بسرعة ومن دون توقف.

القطار «الضفيرة»، على العكس من ذلك، توقف –في مكان ما في أعماق الغابة، محاطاً بأشجار الصنوبر التشوفاشي القوية. اقتربت الأشجار من العربات، ولامست أغصانها النوافذ. هبت الرياح– فكشطت إبر الأغصان الخشنة زجاج النوافذ، وارتطمت الأكواز بالسقف.

قال دييف:

- أرني الآلة.

واستمر في الترنح بين الأَسِرَّة، وفرك خديه بقوة بأصابعه المفتوحة؛ بدا أنَّ جميع أعضائه كانت مليئة بقلق لا يمكن السيطرة عليه، وأنه خضع لهذا الشعور، وغير قادر على التكيف معه أو حتى تعديله.

أخرج بوغ بعناية من تحت طاولة العمليات حقيبته المصنوعة من الخشب الرقائقي والكيس الذي تبرع به منتسبو اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب، فقام دييف ونفض محتويات الحقيبة والكيس كليهما على سطح الطاولة (لم يكن لدى المسعف وقت حتى ليتأوَّه). جلجلت كومة الملاعق والمقصات والمبارد والحُقَن المدنية. وبعد ذلك سحب دييف محفظَة خشبية بطول كف ونصف، تشبه الحرف «ع»، وقال:

- هذا الشيء سيفي بالغرض.

فأوضح بوغ قائلاً:

- إنها ليست للتوليد. إنها «قسطر».

- نعم، حتى لو كانت «سنطر أو فنطر»! - وبعد أن وضع دييف الشيء الذي اختاره في جيبه الخلفي، أومأ إلى المساعد الطبي بنحو آمِر: اتبعني.

أراد بوغ أن يلبس المريول الأبيض، لأنه لا يعرف إلى أين يذهب! ولكنَّ دييف انتزع المريول من كتف المساعد الطبي وألقاه بعيداً؛ وسحبه من كوعه، وتنهد بانزعاج: هيّا تحرك!

فقاوم المساعد الطبي وحاول أن يجمع شيئاً ما على الأقل في الحقيبة الفارغة، وقال:

- ماذا عن المادة المُطَهِّرَة؟ والمَشرَط؟ وربما، تستعمل الملقط إذا كانت الولادة صعبة...

توقف دييف للحظة ورفع عينيه إلى المساعد الطبي (كانت عيناه تلمعان مثل عَينَي مريض مصاب بالحمى)، وقال له:

- اسمع، يا بوغ! ألم تطلب اللحم للمرضى السقم المُقعَدين؟ إذاً، ساعدني - من دون أسئلة!

***

ولكن الأمر لم يفلح من دون أسئلة.

– ماذا نفعل، يا حفيدي؟

لم يستطع بوغ أنْ يمسك نفسه، عندما مشَيا مسافة طويلة عبر عوارض السكة الممتدّة المليئة بإبر الأغصان: كان دييف يسير في الأمام، وهو يلوح بيده على نطاق واسع بقبضتيه؛ وخلفه يلهث جسد المساعد الطبي الضخم.

الغابة المحيطة بالمكان لم تنتهِ، بل أصبحت أكثر كثافة وأكثر ظلاماً. وصارت أشجار الصنوبر أقرب إلى قضبان السكة، ومدت أغصانها التي تشبه الكفوف الممدودة نحو الناس. كانت الأشجار المتساقطة ترفع جذورها إلى السماء، كل جذر منها أطول من قامة الإنسان (كان هناك الكثير من الجذوع المقطوعة – من الواضح أنَّ السكان المحليين لم يزوروا أجزاء الغابة هذه من أجل الحطب).

قال دييف وهما يمشيان:

– اسكت. مهما حدث، ابقَ صامتاً. واجعل سحنتك تبدو أكثر قساوة. يجب أنْ يبدو وجهك من القساوة بدرجةٍ أنَّ الحليب يخثر من مجرد رؤيته.

بقي المساعد الطبي في حيرة من أمره، فأضاف دييف للتوضيح قائلاً:

– تذكّر كيف نظرت إلي في ذلك الصباح عندما وجدت الأطفال السقم المُقعَدين يرقدون في المستوصف. هل تذكر؟ بمثل ذلك الوجه انظر!

مرة أخرى لم يفهم بوغ، فنظر إلى المنطقة الفارغة مِن حولهما، التي ليس فيها سوى سرب من الغربان التي تنعب بصوت أجش في مكان ما فوق الغابة، وقال:

– أنظرُ إلى مَن؟

أجاب دييف بفظاظة:

– انظر هكذا إلى كل شيء!

لم يغضب من رفيق دربه، بل غضِبَ على هذا المكان المتعفّن، الذي تواجد فيه ذات مرة، والذي لا يريد أن يراه أبداً. لقد غضبَ من الغربان –لأنه فهم سبب نعيبها. وغضِبَ من نفسه– لأنه كان يجرّ خلفه رفيقاً موثوقاً،

مثلما يقتاد قطة عمياء إلى بئر. وحتى لو أراد دييف ذلك، فلن يتمكن من أنْ يتحدث عن تفاصيل المشروع المستقبلي، لقد تخيلها بنفسه بشكل غامض. كان يعلم فقط: أنهما يسيران، على ما يبدو، عبر غابة جافة في يومٍ صحو، لكن في الواقع، كانا يسيران عبر مستنقع مُوحِل في ليلة مظلمة. خطوة خاطئة - وتموت. لكن هذه المرة لم يستطع دييف أنْ ينجح بمفرده. بل، الاثنين معاً.

أخرج المحفظة الطبية من جيب سرواله ووضعها في جيب بنطلون المساعد الطبي (انتفخ النسيج، والتصقت زوايا القماش بهيئة تشبه المسدس في الخطوط العريضة تماماً)، وقال لبوغ:

- خذ. إذا لزم الأمر، افتح سترتك حتى يمكن رؤية هذه الآلة، التي قلتَ عنها «قسطر». المسها براحة يدك بلا مبالاة، كما لو كان بالصدفة، بدافع العادة. ولكن لا تحركها كثيراً - سوف يعتقدون أنك تهددهم.

- ما تقول، هل نحن ذاهبان إلى السرقة؟

تحسَّسَ المساعد الطبي الجسم غير العادي على فخذه، وحاول أنْ يتكيف مع وجوده.

كان بوغ يتحدث بصورة رتيبة كأنه يسأل عن الطقس. وخاف أنْ يشعر أولئك الذين يرقدون في العربة أنهما ذاهبان إلى السرقة. وكان دييف ممتناً له كثيراً على هذا الهدوء وعلى الاستعداد لفعل أيّ عمل. فعلى كل حال، من الجيد أن يكون إلى جانبه رجل عسكري.

أجاب متنهداً:

- المكان الذي نحن ذاهبان إليه لا يمكن أن يتعرض للسرقة. فقد ذهبت إلى هناك قرى بأكملها، ولكن ليس مثلك ومثلي، بهذه الآلة التي سميّتها «قسطر»، ولكن بالمذراة والآلات الزراعية القاطعة.

- وماذا حصل؟

- لا شيء!

سرعان ما اصطدمت القضبان بحاجز خشبي مكون من خوازيق طويلة

مستوية. كانت الجذوع مشحوذة شحذاً حاداً، مثل بَرْيِ أقلام الرصاص، ورُكِّبَت بإحكام، إلى درجة لا ينفذ معها الضوء في السياج من أيِّ ثقبٍ. ولكن كانت هناك فجوة ضيقة فقط، فوق العوارض التي ارتفعت عليها بوابة كبيرة ذات مصراعَين اثنين. هذه الفجوة تسمح لقطة أنْ تنزلق منها، ولكن لا يمكن لرجل أنْ يتسلل من هناك.

بجوار البوابة بُنِيَ برج حراسة من سيقان الأشجار. وقد دُقَّ على ألواح برج الحراسة بالمسامير زوجٌ من جماجم البقر، اصفرَّ لونهما وتشققتا، ولكن لا تزال بهما القرون، لا يُعرَف إنْ كان ذلك عن جد أو من أجل المزاح. والآن تحدق الجماجم باهتمام من تجاويف عيونها مثل الثقوب السوداء إلى القادمين من الغابة. وبدت من البرج فوهة بندقية.

رفع دييف يديه على الفور. ثم رفع المساعد الطبي يديه كذلك.

نادى دييف الحرس المختبئ:

– إننا نريد مقابلة مدير مركز تخزين الحبوب!

كان الحارس يختبئ خلف سياج منصة المراقبة، وثمة خوذة من القماش بارزة إلى الخارج وسبطانة البندقية.

ارتعشت سبطانة البندقية بسرعة، لترغم الضيوف غير المدعوّين على العودة إلى الغابة.

– أنا مع قطار، سأقوم بإجلاء أطفال جياع إلى سَمَرقَـ...

صوتُ إطلاقة! انفجر ينبوع صغير من إبر أوراق الصنوبر عند أقدامهما – واخترقت رصاصة الأرض على بعد خطوة من الجزمات.

رفع دييف صوته:

– التاسع من مارس! أبلغ الرئيس هاتين الكلمتين فقط: التاسع من آذار (مارس)!

البندقية لم تتحرك، لا تزال توجه الحربة نحو القادمين.

صرخ دييف بأعلى صوته، وهو يهز كفيه المرتفعين بسخط:

– أنت جديد، أليس كذلك؟ هنا، حتى الغربان تعرف التاسع من آذار (مارس)!

سُحِبَت سبطانة المدفع تحت المظلة. يبدو أنَّ شيئاً ما حدث هناك، داخل البرج أو داخل التحصين. ولكن من الخارج لا يمكن للمرء أن يرى أو يسمع ما حدث.

وقف دييف لدقيقة، ثم دقيقة أخرى -بقيت البندقية بارزة على البرج، لكنها لم تعد تستهدف الضيوف- وأُهبِطَت نحو القضبان. كان من غير المريح الجلوس على الحديد البارد، لكنه أمر بوغ بالجلوس أيضاً: دع الحراس يرون أنَّ الزوار يشعرون بالراحة وليسوا وجِلين.

جلس المساعد الطبي إلى جانب دييف وسأله بصوت منخفض:

- ماذا حدث في التاسع من مارس (آذار)؟

دييف حدق فقط في رفيقه: لماذا لا تصمت، بأي شكل من الأشكال، يا جدي؟! فقد أُمِرْتَ أن تصمت!

انتظرا وقتاً طويلاً، حتى كادت مؤخرتاهما تتجمدان. ورغبة من دييف في تهدئة أعصابه المتوترة، هز ركبتيه هزّاً خفيفاً -بالتناوب مرة ركبته اليمنى، ثم ركبته اليسرى؛ لم يكن الحراس يرون هذا. وكان بالإمكان كذلك المغادرة- أنْ ينهضا الآن ويذهبا بهدوء إلى غابة الصنوبر، خلف ظهور الأشجار القوية. وأنْ يوضّح لبوغ أنَّ المشروع فشل. وأنْ يأمر السائق أن يلتزم الصمت بشأن ما حدث. وأنْ يعود بالقطار إلى الطريق، وفي المساء يصِلون إلى بلدة شخراني. لن يفهم أحدٌ أي شيء. ولن يعرف أحدٌ شيئاً...

صَفَرَ مصراع البوابة وفُتِح قليلاً -كأنما تدعو للدخول. هذا كل شيء. إما- إلى هناك، إلى خلف الحاجز المصنوع من الخَوازِيق، تحت تسديد البنادق ونعيب الغربان اللعينة. أو - ركضاً بأقصى سرعة نحو الغابة.

نهضا - المساعد الطبي بسرعة وبارتياح، ودييف ببطء. لقد أبطأ دييف من حركته بكل جهده، وبهذا أخفى الرجفة المفاجئة التي استولت على جسده. وجعلا يضربان على أردافهما ضرباً شديداً، إما لينفضا عنهما الإبر العالقة، أو ليحرِّكا الدم المتجمد. واتجها إلى الداخل تحت أنظار جماجم الأبقار.

***

أُخفِيَت وجوه الجميع -لُفَّت بالمناديل- وتُرِكَت أعينهم فقط مكشوفة. كان الجميع يعتمرون قبعات الكيبي ذات الحواف العريضة، وقد نكّسوا حواف القبعات وأزاحوا تحتها خصلات الشعر عن جباههم، لذلك كان من الصعب تحديد لون العيون أو الشعر. وحتى ملابس الرجال لم يكن من الممكن تمييزها: السترات والكنزات والسراويل والأحذية - كل شيء كان مغطى بطبقة من الغبار الأبيض ولهذا بدت متشابهة.

كان هؤلاء الناس الكثيرون جداً يعملون بلا توقف: يحملون أكياساً ثقيلة، رابضين تحت ثقلها الكبير؛ ويقودون عربات تجرها الخيول محملة بمثل تلك الأكياس نفسها - كانت المساحة داخل التحصين تشبه مستعمرة النمل العملاقة. كان الغبار يتصاعد من الأكياس: تتضخم السحب البيضاء مع كل حركة، وكأن الأكياس حية وتتنفس.

غطّى الغبار عنابر التخزين الضخمة، التي تمتد إلى مسافة في صفوف وتشكل شيئاً يشبه القرية. وغطّى كذلك السياج المحيط بأبراج الحراسة العديدة، وغطّى الأرض نفسها. وحتى الهواء هنا بدا أكثر سمكاً - يحتك بمناخر الأنف عند الاستنشاق ويترسّب على الحلق بطعم غير محسوس.

استولت على دييف حاجة شديدة إلى التنحنح، لكنه لم يرغب بإظهار الضعف حتى في هذه الجزئية الصغيرة. ألقى دييف نظرة على بوغ، بمعنى، اصمد، يا جدي! وفعلاً، كان بوغ قد تغضَّن وجهه وارتجف أنفه، في نية واضحة إلى العطس.

اقتادهما عبر المنطقة ثلاثة رجال من السكان المحليين، ملفوفة وجوههم، ويضعون بنادق الصيد على أكتافهم. كانوا ينظرون من تحت قبعاتهم، كما لو ينظرون من كوّات الرمي في سور قلعة -لم يُفهَم تعبير أعينهم، لم يُحَدَّد حتى اتجاه نظراتهم. انقطع العمال الآخرون للحظة عن عملهم، وجعلوا يراقبون الضيوف- كذلك كما لو كانوا ينظرون من كوّات الرمي في سور قلعة. بسبب هذه النظرات الواضحة، ولكن في الوقت نفسه غير المرئية، شعر دييف وبوغ بعدم الارتياح: سارا، بوجهيهما المكشوفَين، كما لو كانا عاريين بين أناس يرتدون ملابس.

كان السكان المحليون صامتين، إما بطبيعتهم أو بسبب أفواههم المغطاة باللفافات. لم يلاحظ دييف مرة واحدة أنَّ الناس نادوا بعضهم على بعض أو قرَّبوا رؤوسهم بعضها من بعض، أو تبادلوا بضع كلمات. لقد كانوا يعملون بجد، من دون أنْ يحتاجوا إلى تعليمات: كل واحد منهم يعرف ماذا يفعل. وحتى أولئك الذين تعبوا وجلسوا القرفصاء للتدخين، استراحوا في صمت -ليس بشكل جماعي، بل واحداً تلو الآخر؛ كانوا يشدون لفائف السجائر بعناية، ويدخنونها من أطراف أفواههم عند زاوية المنديل؛ كل هذا حتماً- بجوار دلو الماء، الذي تُقذَف فيه أعقاب السجائر بعد ذلك.

وفي القرية أيضاً لم يُسمع أي صوت بشري، ولكن تُسمَع الخطى فقط، قعقعة عُدّةِ شدٍّ خيول العربات، وجلجلة العجلات، وصرير الدرج الخشبي الذي تُجَرّ على طوله أكياس لا نهاية لها إلى سقائف الخزن. ربما، لا يُقبَل بالدخول إلى هنا سوى للصَّموتين والعَبوسين؟ أو، ربما - قُطِعَت ألسنة العاملين هنا تماماً؟

وفي بعض الأحيان كانت الخيول تصهل. وغالباً ما تنعب الغربان، كانت الغربان من الكثرة كأنها سحابة. وكانت نحيفة، منفوشة الريش، تقفز فوق الأسطح، وتهبط على مقاعد الحوذيين في العربات وعلى أَنْيارِ الخيول، وتدس رؤوسها الوقحة ذات المناقير الطويلة في كل مكان على أمل الحصول على شيء. على طرف كل سقيفة خزنٍ كانت فزاعةٌ تتلوى، لكنها لم تُخِف الطيور: بل كانت الغربان توكر على أذرع الفزّاعات الممدودة وتنقر بغضبٍ على رؤوسها -التي هي عبارة عن أوان فخارية مكسورة (لاحظ دييف أنَّ إحدى الفزاعات كانت ترتدي رداء كاهن، وأخرى- في معطف فراك ممزق تماماً).

وكلما ساروا أكثر، كثرت الغربان وازداد نعيبها. وازدادت كثافة الهواء أكثر فأكثر: وصارت رؤية الأشياء من خلال ضباب أبيض، وفقدت حدودها الواضحة.

لعق دييف شفتيه بلسانه -فشعر أنه لعق شيئاً مثل الدقيق. ثم نظر شزراً إلى بوغ- لقد اكتست خدود المساعد الطبي التي لوَّحتها الشمس بطبقة

رقيقة فاتحة اللون. وتكوَّرَت عيناه من التساؤلات؛ يخفي نظرته تحت حاجبيه الأشعثين، ويقطِّب حاجبيه بجهدٍ، لكن يمكن للمرء أن يرى من على بعد ميل: أنَّ الرجل لأول مرة يتواجد في مركز ضخم لتخزين الحبوب. اصمت، يا جدي. وعبِّس، عبِّس بغضب أكثر -فأنت لم تأتِ إلى حماتك لتتناول الفطائر! ولأنه لا يوجد ضيوف في مركز تخزين الحبوب- هذا المكان غير مضياف ولا يحب نظرات الغرباء. وكل قادم بالنسبة لأصحاب المكان -مثل شوكة في اللسان. وها قد تجمد الحراس على الأبراج مثل قضبان الخشب- على الرغم من تغطية وجوههم، فمن الواضح أنهم يحدقون إلى الضيوف، وبنادقهم مضغوطة بشكل أكثر إحكاماً. هناك مَذارٍ تتكئ على جدران المخازن (مفردات ومثنى وثُلاث) على الرغم من عدم وجود التبن هنا على الإطلاق. والحراس الذين يقودون دييف والمساعد الطبي، بالإضافة إلى البنادق خلف ظهورهم، لدى كل واحد منهم سكين صيد أيضاً في ساق البوط...

لقد خرجوا إلى أرض قفر كبيرة مجاورة لسياج الخوازيق -على ما يبدو، ساروا عبر التحصين كله وانتهى الأمر بهم إلى الجانب الآخر. ربما، يمكن تسمية هذا المكان الساحة الرئيسة: من هنا تناثرت صفوف من العنابر في جميع الاتجاهات، وهنا يقع مكتب الإدارة واثنان من الأكواخ السكنية- يمكن التعرف عليها من خلال النوافذ الزجاجية والأعلام الحمراء على الأسطح. من نافذة العلية المفتوحة برز بوز داكن. ليس بوزاً – بل رشاش.

في وسط الساحة، ارتفعت ثلاثة أكداس ضخمة -قد تبدو من بعيد مثل الرمل أو الحجر الصغير، لكن دييف عرفَ ما هي- إنها غلال مُنتقاة. أحد الأكداس -قمح، والثاني- جاودار (الشَّيْلَم)، والثالث -شوفان. كل كدس بحجم العنبر. كانت تيارات الحبوب تتدفق ببطء على منحدرات الأكداس، ناشرة غبار الطحين، وكانت الأكداس مُحاطة بدقيق يطفو في الهواء، كما لو كانت متوهجة بنور أبيض باهت. وكلما ابتعدوا عن الأكداس، أصبح هذا التوهج أكثر شحوباً، لكنه كان واضحاً- إنه المصدر الرئيس للمسحوق الأبيض.

هنا لم يستطع المساعد الطبي أنْ يكبح جماح نفسه – فتأوه. فغمز دييف إلى رفيقه: لماذا تخذلني، يا جدي؟! إنها البداية فقط.

عند أطراف الساحة لمعت مسارات السكة الحديدية؛ ومن المدخل الذي تسلَّلَ من خلاله الضيفان إلى الحصن، امتدت القضبان عبر المنطقة بأكملها، وانقسمت إلى عدة فروع، ثم تجمعت مرة أخرى في نسيج واحد، يمر عبر البوابة الواسعة. هذه البوابة تُفتَح مرة لتسمح للعربات المحملة بالاندفاع واحدة تلو الأخرى، ثم تُغلق، مما يسد الطريق أمام أولئك الذين ينتظرون في الخارج. يبدو أنَّ عدداً غير قليل من العربات كانت تزدحم هناك وسُمِعَت أصواتٌ، لكن لم يكن من الممكن تحديد الصورة - أُغلِقَ مصراع البوابة بسرعة، بمجرد مرور خلفيات العربات الداخلة.

قفز السكان المحليون على الفور إلى كل عربة من هذا القبيل (أطلق دييف على السكان المحليين مع نفسه لقب «ناس الطحين» عندما كان هنا في المرة الأخيرة)، ومثل القرد ألقوا بمهارة الأكياس التي جُلِبَت على ميزان عملاق، وبعد أنْ خربشوا شيئاً في ألواح على أحزمتهم، ألقوا بمحتويات الأكياس عند سفح واحد من الأكداس الثلاثة؛ كان بعضهم يهيل، وبعضهم يقلِّب (بيده وبأنفه تقريباً) ليفحص جودة القمح المسَلَّم. ارتفعت سحب الغبار من حبوب الغلال المتدفقة مثل بخار الماء المغلي. وبعد التفريغ، استدارت العربة وخرجت من التحصين من خلال البوابة نفسها، لتفسح المجال للعربة التالية.

ازداد حجم الأكداس بسرعة. وعلى الجانب الآخر، كان عشرات العمال يهيلون الحبوب التي أُحضِرَت مرة أخرى في أكياس، وينقلونها من خلال ضباب الدقيق إلى سقائف المخازن.

كانت الغربان التي اندهشت من كثرة القمح، تحلّق فوق الساحة وتزعق من دون توقف، لكنها لم تجرؤ على الهبوط ونَقْرِ حتى حبة واحدة. كان السرب كبيراً، إلى درجة بدا فيها أنَّ السماء نفسها كانت تدور في رقصة على شكل حلقة فوق أكداس الحبوب وتزعق بصوت عالٍ. هبت الرياح التي رفعتها أجنحة الغربان على السحب المغبرة التي كانت تحوم فوق الأرض وتنتقل عبر السكك، على طول جدران عنابر التخزين. ومن وقت لآخر، كان السكان المحليون يرفعون أسلحتهم -فتنطلق رصاصة، ويسقط جسد طائر أسود على منحدر الكدس، يقطر منه الدم ويتناثر الريش. فيدخل

مطلق النار، من دون أن يخلع حذاءه، إلى كومة الحبوب، ويرفع الفريسة، ثم ينفض الحبوب العالقة. لا أحد يلتقط الدم والريش. وعند ذلك يندفع السرب مبتعداً وهو ينعب- فيطير سرب آخر من الغابة مكانه.

مهما حاول دييف أنْ يرشد رفيقه بنظرته الصارمة، لم يفلح: فقد أبطأ المساعد الطبي حركته وتوقف، مفتوناً بمشهد وفرة الحبوب التي لا تُحصى. وقف عند سفح الكدس الأصفر -عند بداية الممر، حيث كان «ناس الطحين» يندفعون وهم يحملون الأكياس- ونظر بصمت إلى تيارات القمح التي تتلوى أسفل المنحدرات. لم تغير عيناه اللامعتان تعبيرهما، وبدا وجهه يجف بسرعة: بدأت جبهته تكتسي بالتجاعيد، وتقلَّصَت شفتاه وسقطتا تحت شاربه، واندفع ذقنه إلى الأمام.

بالكاد منع دييف نفسه من سحب رفيقه من كُمِّه، ليقطع هذا الافتتان الذي ليس في محله، لكن الحراس المرافقين الثلاثة أيضاً تباطأوا ووقفوا. يبدو أنَّ هذا هو المكان الذي قادوا إليه الضيوف غير المدعوين.

قال أحدهم بصوت منخفض من الخلف:

- كيف عرفت عن التاسع من مارس؟

استداروا - كان يقف وراءهم رجل يرتدي نفس الملابس البيضاء التي يرتديها الآخرون هنا ويضع نفس الوشاح على وجهه. راح الرجل يتفحصهم عن كثب. لم يكن الرجل يختلف عن البقية على الإطلاق لولا مَن يقفون حوله: فبجانبه كان الحراس يدفعون صدورهم إلى الأمام ويرفعون ذقونهم إلى الأعلى، أما العاملون العاديون المجتهدون فكانوا، على العكس من ذلك، يجلسون القرفصاء ويركضون أسرع.

ارتجف بوغ، بعد أنْ أفاق، لكن عينيه كانتا لا تزالان شاردتين. وبدا أنَّ دييف كان ينتظر هذا السؤال فقط، فقال بوضوح ودقّة:

- أيها الرفيق، رئيس مركز تخزين الحبوب، في تلك السنة خدمتُ في قوات التفتيش عن المواد الغذائية! مفرزة قازان لتسليم المحاصيل الزراعية الإلزامي رقم مائة وتسعة عشر. وقد أُرسِلنا إلى تشوفاشيا لزيادة ما يُجمَع من الغلّات. (حدَّق دييف من دون أن يرمش في الفجوة بين لفافة وجه مُحاوِرِه

وغطاء رأسه، لكنه لم يستطع رؤية العينين تحت ظلِّ القبعة الكيبي، ولهذا بدا له أنه يتحدث إلى فزاعة بلا روح). - في التاسع من آذار (مارس) أقمنا في مكان قريب من هنا. أُرسِلَ فصيلنا للمساعدة عندما بدأ كل شيء.

سار الرجل ببطء، من دون إيماءة أو إثارة الاهتمام بأي طريقة أخرى، حول الأكداس التي يتصاعد منها الغبار - كان يتفقد استلام الحبوب: كان يلتفت بوجهه الملفوف في منديل تارة إلى العربة التي تُفَرَّغ حمولتها، وتارة إلى الميزان، ومن ثم إلى العمال الذين أحدثوا جلبة على مرأى منه.

انطلق دييف وراءه، ليس على مسافة قريبة جداً منه، ولا بعيدة جداً، لم يستعجل في مشيته، ولكن من دون الكثير من الوجل، كما لو كان مدعوّاً إلى نزهة مشتركة. ونظر إلى الحراس المرافقين من زاوية عينه - فرأى أنهم انتحوا بحذر إلى الجانب.

واصل كلامه في ظهر مُحاوِره:

- لقد انتقلتُ الآن إلى قسم النقل. والآن أقود قطار الأطفال الذين يعانون من المجاعة إلى سمرقند. ولدينا عربة كاملة من المرضى السقم المُقعَدين.

كان المستلمون متحمسين للغاية لرؤية رئيسهم لدرجة أنَّ عملهم تشوَّشَ إلى حد ما: أُهيلَت كمية من الجاودار، من خلال السهو، في أعلى الكدس من دون فحص مناسب. فجلس رئيس مركز تخزين الحبوب في ذلك المكان، يعبث بيده، ويفرز الحبوب.

رأى دييف شيئاً غريباً بشكل غير محسوس في الطريقة التي حرك بها الرجل يده اليمنى. اقترب منه ونظر من فوق كتفه، وأدرك السبب: كانت كف رئيس مركز تخزين الحبوب من الحديد.

صُبَّت الأصابع المعدنية بمهارة: فُصِل كل أصبع قليلاً عن الإصبع الآخر، وثُنيَ على شكل قوس، وشكَّلَت ما يشبه القفازات، وكان في طرف كل إصبع مخلب حديدي مدبب. يمكن لمثل هذا الطرف أن يعمل كيد وأداة - كمذراة أو خطافات. ولكن في الحجم ثمة اختلال: كانت الكف الحديدية نوعاً ما أكثر حيوية.

غربلَ صاحب اليد الحديدية الجاودار بأصابعه المصبوبة، وسأل:

- لماذا قدِمْتم؟

كانت تلك اللحظة الحاسمة.

أخذ دييف نَفَساً عميقاً، ثم زفرَ - كما لو كان يغوص في الماء:

- من أجل الحصول على الفائض، أيها الرفيق رئيس المركز.

تدفقت بذور رمادية كبيرة بين الأصابع الخطافات. كانت الحبوب منتقاة حقاً - عادةً لا يُسمح بطحن هذا النوع من الحبوب، بل يُحتَفَظ بها من أجل البذار.

لم يُجب صاحب اليد الحديدية على الفور:

- عن أيِّ نوع من الفائض تتحدث؟

ولكن من خلال النغمة التي بدا بها صوته، كان واضحاً أنه يفهم كل شيء.

- اللحم، أيها الرفيق رئيس المركز. (حاول دييف أنْ يتحدث بنشاط، وأنْ يبقي وجهه بسيطاً ومكشوفاً، كما لو كان يطلب أمراً قليل الشأن، لكنه هو نفسه يعرف: أنّهَ بسبب مثل هذا الشيء القليل، يمكن أنْ يُدفَن هو والمساعد الطبي في مكان ما في غابة الصنوبر هذه، تحت جذمور، وبأسرع ما يمكن).

-الحبوب ليست ضرورية فقط اللحوم. ولليلة واحدة فقط- لهذه الليلة.

- لا يوجد فائض في مركزنا.

نفض صاحب اليد الحديدية كفه، وطرحَ القمح الذي تم جمعه من راحة يده.

ابتسم دييف قائلاً:

- اللحم موجود في كل مكان.

حاول دييف أن يكون ودوداً، على طريقته الخاصة، لكنه بدا ملتوياً ومتصنّعاً. لقد فاته بالفعل في وقت متأخر أنَّ الابتسامة يمكن فهمها على أنها استهزاء، لكنه لم يستطع أنْ يعيد شفتيه إلى ما كانتا عليه - فبرزتا كأنهما ممدودتان على خيوط إلى الجانبين. وهكذا وقف، وكشَّرَ مبتسماً مثل دمية هزلية، وحدق إلى صاحب اليد الحديدية حتى نهض الرجل من جلسة القرفصاء واقترب منه.

وفي تلك اللحظة رأى دييف عينَي مدير المركز - المائلتَين على الطريقة

المنغولية، بجفنَيهما المفلطحَين كأنهما كيسان من الأعلى، ومن الأسفل مُسنَدَين بعظام الوجنتين اللحمية التي برزت مثل النتوءات فوق وشاح مربوط بإحكام.

وجاء الصوت من تحت المنديل:

– كُن بخير، مع السلامة.

استدار صاحب اليد الحديدية وتوجه إلى مبنى الإدارة.

سار دييف على أثره، وقال له:

– أنا لا أريد اللحم من أجل نفسي، بل من أجل الأطفال السقم المُقعَدين!

هرول خلف الرئيس، وألقى نظرة على الحراس المرافقين –كانوا على أهبة الاستعداد، لكن لم يكن لديهم الوقت لفهم ما يجب عليهم فعله. ونظر إلى ناس الطحين الباقين– انقطع البعض عن عملهم وراحوا ينظرون إلى ما يحدث، متكئين على مقابض المجارف القوية المغروزة في الحبوب.

بدأ دييف يتكلم بسرعة، قبل أن يختفي المُحاور في الإدارة:

– لقد تشققت أفواههم من الغذاء البديل، أسنانهم تنخلع! لا يمكنهم أن يأكلوا أي شيء، بل يشربون فقط. إنهم بحاجة إلى مرق اللحم أو اللحم الخالي من الدهن، الذي يُهرَس...

استدار صاحب اليد الحديدية وصفَّرَ صفيراً منخفضاً – فاندفع الحراس إلى دييف.

ولكنَّ دييف اندفع إلى مدخل المكتب: تجاوز صاحب اليد الحديدية وسدَّ فتحة المدخل، وسترها بجسده وبيديه المرفوعتين – من دون أنْ يتضح إنْ كان يستسلم أو يواصل الجدال. وقال:

– وإلا، لن أستطيع أنْ أُوصِلهم، لأنهم من دون اللحم سوف يموتون! (ثم بحث عن اتجاه نظرة عَينَي الرئيس الضيقتَين، لكنَّ صاحب اليد الحديدية استدار بانزعاج، في انتظار النجدة العاجلة). وأنت بنفسك تعرف، لا يوجد لحم في أي مكان إلا في مركز التجميع! ما فائدة هذا اللحم الذي تجمعونه من المنطقة كلها إذا لم يحصل الأطفال حتى على الفائض منه؟ لقد عيَّنكَ

الحزب هنا لإنقاذ البلاد من الجوع -فانقذْها! (لم يلاحظ دييف كيف انتقل من المواعظ إلى الشعارات).- أنت الآن أهم شخص لهؤلاء الأطفال، وحتى أهم من كل المربيات والأطباء، وأهم من الوالدين، ومن الرب نفسه! أنت وحدكَ، مَن يمكنك إنقاذهم!

عبثاً جرَّ الرب إلى هنا، لكن اللسان أحمق، ثرثر من تلقاء نفسه، مِن دون أن يسأل الرأس.

صار جميع مَن في الساحة ينظرون إلى الوافدَين المزعجَيْن: عمال الدقيق، ونساء على عربة يجري تفريغها. ربما، من الجيد أن يكون هناك الكثير من الشهود على الحديث؟ وأنَّ من بين هؤلاء الشهود مَن ليسوا من السكان المحليين؟

دفع الحراس المرافقون دييف العنيدَ -بحذر، وحتى من دون أن يلووا يديه خلف ظهره- وأخرجوه بعيداً، خلف العنابر؛ على ما يبدو، أرادوا أنْ يؤدّبوه ليس أمام الناس، بل في السر. ودار في خلده، أنه ليس من المخيف أنْ يضربوه. ولكن، يا ترى، هل يكتفون بالضرب؟

أُغلِقَ الباب - وتوارى صاحب اليد الحديدية في الكوخ. ولكن كانت نافذة المنزل مفتوحة، ولا يزال دييف يأمل في أن يصل صراخه من خلال النافذة إلى الرئيس.

- أفهمُ أنك لا تضع هذا الفائض في جيبك! وأعرفُ أنك حتى لا تراه، أيها الرفيق رئيس المركز! أنت تخمن فحسب أنَّ هناك فائضاً، ولا تعرف من يستخدمه!

أحاطت بدييف أكتاف وصدور وذقون متينة من جميع الجوانب، وأخرجته من الساحة -ولم يعد يُرى من خلفها المكتب ولا أكداس الحبوب ولا بقية الناس. حاول أنْ يفلت من الطوق- كما لو كان يتخبط في فخٍّ، وتزحزح تدريجياً أكثر فأكثر إلى الساحات الخلفية. أصابته وخزة شديدة تحت الأضلاع تسببت في خروج الهواء من رئتيه -وأجبرته على الانحناء. فاستعدَّ دييف لتلقّي الضربة الثانية- على ظهره أو على قفاه - عندما قال صوت مألوف في مكان قريب:

- كلا! لا داعي لضرب أي شخص.

فكَّ المهاجمون الطوق والتفتوا: كان الضيف الثاني يقف في الخلف - وهو، رجل ضخم ذو شعر غزاه الشيب، ورقبة كرقبة الثور ومتجهم كالثور. فتح سترته ووضع يده على شيء ثقيل بارز من جيب سرواله، ونظر إلى المتصارعين وهزَّ شاربه الأبيض قليلاً، مثل حيوان وحشي قبل القتال.

كان لدى دييف بضع ثوان حتى اكتشف السكان المحليون حقيقة الأمر.

راح دييف يصرخ صراخاً شديداً بأعلى صوته، ويوجه كلامه في الوقت نفسه نحو النافذة المفتوحة.

- ألا تعلمون أنَّ سقيفة العنبر السابع تنضح؟ وأنَّ ثلث القمح قد تعفن بسبب ذلك، وأنَّه لابد من إعادة كتابة البيانات، وتعديل الأرقام -هذا أيضاً لا تعرفونه؟ وأنكم إلى الآن، ونحن في منتصف أكتوبر (تشرين الأول)، تخزنون القمح في مكان مفتوح في مهبّ الريح وتحت الأمطار- وهذا أيضاً لم تسمعوا به؟ (لاحظ دييف أنَّ النساء اللواتي على العربة كنَّ يُصلّبنَ خائفات، وكان رجال الطحين يتبادلون النظرات، فصاح بصوت أعلى من ذي قبل). - وأنَّ الجرذان في المخزن العميق أكلت الحبوب و...

خبطت النافذة في المنزل - وفُتِحَت.

أخرج رجل يرتدي قميصاً داخلياً رأسه من فتحة النافذة، وقال:

- اسمع، أنت، يا مَنْ يدَّعي معرفة كل شيء...

لم يعد لديه غطاء رأس ولفافة على وجهه - لم يتعرف دييف على صاحب اليد الحديدية إلا من خلال صوته. كان شعره الأشيب الخفيف منتصباً، ومتشابكاً من أثر القبعة؛ ولاح على وجهه البنّي من سفع الشمس خط أبيض من الطحين كالنظّارات؛ كما بقيت بيضاء حواجبه ورموشه. وتدلّت منشفة مبللة حول رقبته.

انتصب الحراس المرافقون في مكانهم على الفور عندما رأوا رئيسهم. دييف، فركَ بطنه المصاب بالكدمات، واقترب من النافذة.

وجّه صاحب اليد الحديدية سؤالاً إلى دييف بصوت منخفض:

- هل تريد أنْ تخيفَني؟

لم يعد ممكناً لدييف أنْ يتملَّق أو أنْ يتغابى. فاعترف، قائلاً بصوت منخفض أيضاً:

- كيف يمكن ذلك، أيها الرفيق رئيس المركز؟ أنا أصرخ كل هذا الصراخ الآن، لكنني أنا نفسي خائف حتى الموت، وحتى أنَّ فكَّيَّ خذلاني. ويداي ترتجفان من الخوف، وكل شيء في أحشائي يختلج، كأن الحمى استولت عليَّ. فأنت، على كل حال، إنْ أردتَ، تستطيع أنْ تسحقنا مثل القمل، ولن يكون لدينا وقت للتلفظ بكلمة واحدة. عندما صرختُ بكل هذا، أردتُ شيئاً واحداً فقط - أنْ تسمعني.

كان يمكن ملاحظة الارتياح على وجه المُحاوِر أثناء المحادثة! على الرغم من أنه كان وجهاً غريباً: تحت العينين المائلتين، برز أنف كالبطاطا وشفتان منتفختان، ولحية شقراء خشنة على طول الجزء السفلي من وجهه المستدير - كما لو أنَّ الجزء العلوي من الرأس عُثِرَ عليه في سهوب قرغيزيا، والجزء السفلي وُجِدَ في الروافد العليا لنهر الفولغا. الحاجبان والرموش البيضاء من الطحين أضفَت على الوجه عبثية ورعباً في الوقت نفسه.

رغبَ صاحب اليد الحديدية في أنْ يلقي نظرة فاحصة على الضيف العنيد، فانحنى نحو دييف، ووضع أصابعه المصبوبة على مؤخرة رقبته وشده تجاهه. التفَّت الخطافات الباردة حول رقبته، وكادت تُطبِق عليها كالحلقة وتُمسِك بخناقه.

اقتربت عيناه المنغوليتان بعضهما من بعض لدرجة كادتا تندمجان في عين واحدة: حدقت العين الضيقة الضخمة في دييف من خلال حدقة البؤبؤ السوداء من تحت الرموش البيضاء. وحدق دييف ردّاً عليه من دون أن يرمش أو حتى أنْ يتنفس، - كما لو كان يقلبُ روحه من الداخل إلى الخارج حتى آخر طيّة. لم تَبدُ لديه أيّ أسرار من عينه. ومع ذلك، فهو نفسه يعرف كل شيء عن هذه العين، أفضل من أيِّ شخص آخر في مركز تخزين الحبوب.

انزلقت الأصابع المعدنية عن حلق دييف وتركته. فانقسمت العين إلى قسمين وتحولت إلى عينين بشريتين مألوفتين، محمرَّتَين بسبب الغبار.

فركَ صاحبُ اليد الحديدية جفنيه بيده الطبيعية، ومسح قناع الطحين. وبهذه الحركة البطيئة كان واضحاً: أنَّ الرجل متعَب جداً. الآن ينبغي التحدث معه -في هذه اللحظة القصيرة قبل الراحة، بعدما ألقى اللفافة من على وجهه، والنافذة لا تزال مفتوحة،- يجب أنْ يتحدث معه حديثاً مباشراً، من الروح إلى الروح، وكما ينبغي. فقال دييف بصوت منخفض:

- أتينا إليكم بسبب القنوط واليأس الشديد.

أغمض الرجل جفنيه، ومسح الشريط الأبيض من وجهه بالمنشفة. لم يطرد الضيف. وهذا يدل على أنه يستمع إليه.

- وأيضاً لأنك إنسان. لا يمكن للإنسان أنْ يسمح بإرسال خمسمائة طفل إلى الموت. ولأنَّ عدم إعطائهم اللحم الآن أشبه بقتلهم.

رغبَ دييف في أنْ يضع يده على حافة النافذة حتى لا تضرب هبّة قوية من الريح الإطار. لكنه لم يفعل ذلك في محاولة لاستغلال الوقت. وتابع حديثه:

- يحدثُ، في بعض الأحيان، أنْ يَقتل حتى الإنسانُ الطيب - في الحرب أو عندما يهاجم الكولاك مركز تخزين الحبوب. أنت أكبر مني وتعرف أفضل مني. أنا أيضاً قتلتُ، في الحرب الأهلية، وفي غيرها. لكن الأطفال لا يُقتَلون. هذا ضد الحياة.

وفجأة نفدت الكلمات. تصوَّر أنَّ ثمة الكثير في قلبه ويمكنه أن يتحدث طوال ساعات؛ لكن اتضح أنَّ لديه القليل جداً. استمع له الرجل، وهو يمسح جبهته ووجنتيه بالمنشفة، لكن لم يكن لدى دييف أي شيء آخر ليقوله - فكل ارتباكه الروحي وخوفه الكبير تناسبا مع عبارات قصيرة. فأضاف أخيراً:

- ربما، لهذا السبب يجب علينا إنقاذهم، بدلاً عن أولئك الذين قتلناهم...

وصمتَ.

مسح الرجلُ الطحينَ الأبيض عن حاجبيه، وأزال الكتل اللاصقة من رموشه وزوايا عينيه. ونظَّف أذنيه ومنخريه بطرف الخِرقَة. ونفض شعره الأشعث.

كانت الغربان تنعَب فوق الساحة – كأنها تبكي.

أخيراً، سأل صاحبُ اليد الحديدية:

– قل لي، بالضبط ماذا تريد؟

انفجر دييف قائلاً:

– ليلة واحدة في حظيرة مركز التجميع! ليس بالخارج، ولا في بيت الحراسة –بل داخل الحظيرة نفسها. (عادت الكلمات على الفور إلى دييف وتطايرت بخفة من فمه).– وهناك –نحن وحظّنا. كل فائض الليل– لنا. ومع انبلاج الفجر سنغادر – إلى الوراء، عبر الممرات، كما أتينا. لن نخبر أحداً أبداً. كلمة مقاتل شريف.

نظر صاحب اليد الحديدية فحسب إلى الضيف بتعب – وفي هذه النظرة قرأ دييف الموافقة.

والآن بعد أن حصل دييف على الرد الأكثر أهمية له، صار بإمكانه ألّا يتساهل: فأمسك بعتبة النافذة، كأنه يريد إخراجها من الكوخ، وبدأ يعبّر عن جميع طلباته:

– وكذلك! خلال هذه الليلة نحتاج إلى الحراس. لا تنزعج، أيها الرفيق رئيس المركز، فالسكان المحليون لا يرغبون بوجودنا، أشعر بذلك في داخلي. مُر بإرسال ثلاثة رجال شِداد من المفرزة الزائرة. من أين تأتي مفارزُ تسليم المحاصيل الزراعية الإلزامي الآن؟

لم يعد رئيس القسم ينظر إلى مقدم الالتماس، كان على وشك إغلاق النافذة، لكن أصابع دييف اعترضت طريقه. لم يرفع دييف أصابعه التي ضُغِطَت من الإطار؛ شعر بالألم، ولكنه تحمل، وحتى لم يكشّر.

– هل بينهم أحد من بطرسبورغ؟

يبدو أنَّ دييف خمّن أنه من بطرسبورغ. في الحقيقة، لم يكن ثمة ما يمكن التكهن به – فقد ارتحل رجال بروليتاريا بطرسبورغ إلى جميع أنحاء روسيا اليوم، وصادروا بقبضاتهم الخشنة المُؤن من الفلاحين الطائشين.

واصل دييف ثرثرته في شق النافذة المضغوط:

– لا بأس، هذا يعني، أنهم من بطرسبورغ! لن يخذلوا أحداً!

ثم رفع يديه.

فأُغلِقَ المصراع على الفور. وارتعشت الستارة في الداخل.

ابتعد دييف عن النافذة وجلس على مصطبة منزل الرئيس. قرر الانتظار هنا حتى المساء: بالقرب من الإدارة، على مرأى ومسمع من الساحة بأكملها. بدا الأمر أكثر أماناً.

وجلس المساعد الطبي إلى جانبه. أراد دييف أن يمدحه أو أنْ يقول له بضع كلمات مشجعة -لقد تبين أنك رفيق جيد، يا جد!- لكن دييف نظر فحسب إلى رفيقه بامتنان.

كان رجال الطحين قد عادوا إلى العمل منذ مدة طويلة: وسار خزن الحبوب كالمعتاد - فقد كانت العربات تدخل وتخرج من الفناء من دون توقف، وأكداس الحبوب ينتشر منها غبار الدقيق.

الحراس المرافقون، الذين كانوا ينتظرون طوال الوقت من بعيد، راوحوا قليلاً في مكانهم، ثم اختفوا في كوخ مجاور - على ما يبدو، كانوا يراقبون من النوافذ ذات الستائر.

جلس بوغ جلسة أكثر راحة على المقعد وعدّل الآلة التي برزت من جيبه، وتنهّد قائلاً:

- سوف يضربوننا الليلة، يا حفيدي.

تذكر دييف العينين المنغوليتين الحمراوين من الأرق والغبار. وهز رأسه بعناد، وقال:

- لا. لن يضربونا.

رفع دييف يديه إلى وجهه، ما زالتا ترتجفان.

***

في بداية الليل، عندما عسعس الظلام في السماء، وبدأت أوائل الحيوانات الوحشية الليلية تعوي في الغابة وجَّه المساعد الطبي إلى دييف هذا السؤال:

- من أين تعرف أنَّ العنبر السابع ينضح الماء من سقفه؟

حَلَّ الظلام. كانا لا يزالان جالسَين على المصطبة بالقرب من المكتب - ولا يزالان سليمَين معافَيين.

انتهى استلام الحبوب. وتوارى رجال الطحين في مكان ما، وابتعدت أسراب الغربان منتشرةً في الغابات - كان الهدوء غير عادي. وتوهَّجَت أكداس الحبوب في الساحة المدلهمّة كأنها مصنوعة من السكَّر؛ وتَأَلَّقت ليس بالضوء، بل بالطحين.

لم يكن الوقت الآن مناسباً للحديث - في قلب التحصين، بجوار الرئيس صاحب اليد الحديدية، بالقرب من مفرزة الحراس. ولكن لم يتبقَّ لدى دييف صبر للبقاء صامتاً بضع ساعات، والتحديق في كل ظل وتوقع خدعة قذرة من كل مكان. فردَّ على سؤال بوغ:

- في أيٍّ مركز لاستلام الحبوب وتخزينها، هناك نضح من سقف ما. ربما، ليس في العنبر السابع ينضح الماء بل في الخامس أو الثاني. ولكن بالتأكيد أنَّ سقف أحد العنابر ينضح. وكذلك، لابد أنْ تكون الجرذان قد تسلَّلَت إلى مكان ما، وأكلت نصف الحبوب.

لم يهدأ بوغ، وسأل:

- وحرّاس بطرسبورغ بأيّ شيء أفضل من البلطجية المحليين؟

- إنَّ الوافدين أفضل، بالنسبة لنا، لأنه لم يتح لهم الوقت للتأقلم حتى الآن. إلى أين يذهب فائض الليل برأيك؟ في جيب مَن، وفي أيِّ عبٍّ عريض؟ سنستولي على قوت مَن في هذه الليلة؟

صمتَ بوغ قليلاً، وراح يلهث في الظلام. ثم سأل عن الشيء الرئيس، مرة أخرى:

- لا بأس، في التاسع من مارس (آذار)، ماذا حدث على أي حال؟

يا لكَ من لحوح، أيها الجد، أراد دييف أن يسب. في أيّ لحظة قد يصفعوننا مثل البعوض - وأنت مستمر في فضولك، وتستمتع باهتمامك!

لكنَّ دييف لم يسب. يمكن أن يُقال ذلك لمساعد طبي في القطار، ولكن ليس لرفيق في السلاح. والكذب على رفيق السلاح لا يجوز أيضاً. وبعد دقيقة أجاب:

- جاء أهل القرية إلى هنا. وقد أرادوا استعادة حبوبهم، لأنّ نظام التسليم الإلزامي للمحاصيل، بزعمهم، أخذ منهم كل شيء، ولم تعد لديهم بذور كي يزرعوا.

وعلى الفور تصوَّر دييف حشداً يقف أمامه - مائة شخص، ليس أقل: يزعقون، يشتمون، يبكون، يصرخون بالصلوات. البعض يرفع مذاري خشبية، والبعض الآخر يهز الصور. ومن هم أكثر غباءً يرفعون أطفالاً رُضَّعاً. ورؤساء الحزب يناشدونهم: «أيها الرفاق! أيها الأعزاء! عودوا إلى منازلكم!» ولكن لا مناص! حُطِّمَت البوابة، وكُسِّرَت الأقفال في العنابر...

استمر بوغ بطرح الأسئلة:

- هل دار تبادل كبير لإطلاق النار؟

ما حاجتك بذاك، يا جدي؟! لماذا تريد أن تعرف هل جرى إطلاق نار، أم جرى أسوأ من ذلك؟ عندما توجد في جهة بنادق رشاشة، وفي الجهة الأخرى - مجارف ومناجل وسياط...

أوضح دييف على مضض:

- ليس تبادلاً لإطلاق النار، بل حريق.

- هل احترقت الحبوب؟

إذا ما سُكبَ عليها النفط فلماذا لا تحترق؟! اشتعلت الحبوب ودخنت السماء! اشتعلت الأكياس، وعنابر التخزين، وأكداس القمح نفسها...

تحتَّم على دييف أنْ يحكي عمّا جرى:

- آنذاك اقتحم سكان القرية المسالك. كان هناك صهريج مليء بالنفط. بمجرد أن أدركوا أنهم لن يعطوا الحبوب، بدأوا في حمل النفط في دلاء. واتجهوا إلى العنابر، إلى العنابر! وهكذا حدث ما حدث... مائة ألف بود[1] من القمح في ليلة واحدة ما عادت في الوجود، كأنها لم تكن.

شهق بوغ:

- يا إلهي. مائة ألف بود...

1- بود: وحدة وزن روسية قديمة زنتها 16,38 كيلو غراماً. (المترجم).

ديف غضب من هذا التأثر العاطفي. وأراد ألا يكون لطيفاً في طرحه، وأن يضع كل شيء أمام المساعد الطبي كما هو تماماً. إنَّ ما احترق في التاسع من مارس ليس القمح فقط في العنابر، بل واحترقت كذلك الخيول في إسطبل المركز، والماشية في الحظيرة، والعمال الذين كانوا في تلك العنابر. واحترق مُثيرو الشغب –ولكن هؤلاء على الأقل لم يحترقوا وهم أحياء. لقد أُطلق النار عليهم، أيها الجَد– أُعدِم أهل القرية كلهم رمياً بالرصاص، حتى آخر فردٍ فيهم. رقدوا بين العنابر المشتعلة مختلطين مع الفزاعات الساقطة، بلا حراك –واحترقوا. ونتنَ كل شيء– كما في الجحيم: الحبوب المحترقة، واللحم المحترق. لكن بعد كل شيء، ما يثير الدهشة، يا جَد: أحرقت جميع الأكواخ برمتها، لكن سياج الخوازيق مع الأبراج بقي، مجرد أنه تغطى بطبقة من السخام. كيف حدث هذا؟! وفي اليوم التالي اشتغل مركز استلام الحبوب. سارت إلى هنا عربات محمّلة بالحبوب طوال اليوم، وعادت – محملة بالجثث. وفقدت الغربان خوفها في ذلك اليوم، واندفعت إلى العربات ومزقت اللحم المحترق أثناء النقل...

لكن بوغ لم يسأل بعد ذلك – جلس فحسب، وشبك في يديه رأسه الذي غزاه الشيب، وجعل يهمس بلا انقطاع: مائة ألف بود... مائة ألف... مائة ألف...

سئم ديف من الإنصات إلى الرثاء. وقال بقسوة:

– لحسن الحظ، لم يكن في ذلك الوقت سوى مائة ألف بود من الحبوب في المستودعات. هل تعرف كم بوداً يستوعب مركز استلام الحبوب هذا؟

نظر إليه المساعد الطبي – في الظلام لم يبدُ منه سوى حاجبيه البيضاوين وشاربه الأبيض الذي تهدَّلَ على نحو كئيب.

تمهَّل ديف قليلاً، معزِّزاً الانطباع اللاحق، ثم قال بصوت عالٍ:

– مليون.

ظلَّ بوغ صامتاً.

***

وصل حرّاس بطرسبورغ في الليل -كانوا عريضي الأكتاف وذوي شوارب. جميعهم بوجوه مكشوفة قد لفحتها الشمس. اثنان- يحملان بندقيتين، واحد يحمل مسدساً من نوع «ماوزر» يبرز من حزامه. الثلاثة ذوو أجسام ضخمة مشدودة العضلات.

أخذوهما بعيداً، إلى الفناء الخلفي للتحصين، حيث كانت هناك حظيرة الاستلام. الحظيرة صغيرة، تتسع لمئتي رأس من الماشية. على ما يبدو، بُنيَت على كل حال، لمجرد أنْ يكون ثمة مأوى للماشية أيضاً في مركز استلام الحبوب: على الأقل يُقاد إليها في الليل القطيع، ويكون بالإمكان إرساله إلى موسكو وبتروغراد (بطرسبورغ) مع القمح.

كان حرّاس الدقيق يلازمون المناوَبَة في الحظيرة -وهم، عدة رجال بوجوه ملفوفة مستلقين على مقاعد خشبية عند المدخل. سمحوا للضيفين بالدخول، لكنهم لم يرحبوا بهما ولم يعرضوا عليهما الجلوس على المقاعد. وبدلاً من ذلك- في الليل، وفجأة على ضوء المصابيح النفطية - بدأوا في تنظيف أسلحتهم. أحصى دييف لدى المُضَيِّفين أربع بنادق قصيرة المواسير، وثلاثة مسدسات بمُدخَر بكرة، ومسدساً نسائياً. وسكاكين صيد في سيقان جزماتهم الطويلة، وبلطات لا تُعَد.

طلب منهم دييف:

- أريدُ مصباحاً نفطياً، أيها الرفاق.

لم يرد المضيفون، لكنهم لم يعترضوا كذلك -فاقترب دييف ببطء من المقاعد، وأخذ ببطء أحد المصابيح. وضع يده على جيبه الذي فيه المسدس- لم يُخرِج هذا المسدس وحتى لم ينظر إلى عيون الحراس، بل اكتفى بأن لمس بأصابعه السلاحَ الذي على فخذه. لاحظ أنَّ المساعد الطبي أيضاً أمسك الآلة التي في جيبه بنفس القدر من الحذر. والحراس الذين من بطرسبورغ أمسكوا أيضاً بأسلحتهم -لكن هؤلاء بلا رقة، علانية، وهم يبتسمون بتحدٍّ. التحدي- جيد: هذا يدلّ على أنه لم يكن لديهم الوقت للتوصل إلى اتفاق مع الحراس المحليين.

أضاء دييف الطريق، ذهب ليتعرف على الحظيرة. كانت المساحة الطويلة

والمظلمة مقطوعة بالطول بواسطة ممر ضيق، من المدخل على جانب واحد إلى المَخْرَج على الجانب الآخر. ويتألف كل نصف من عدة زرائب، كان سكانها الآن يتحركون ويتنفسون بهدوء -من حسن حظ دييف، كان هناك الكثير منهم في تلك الليلة. الأبقار والأغنام والماعز، ومرة أخرى الأبقار- نحيفة وليس فيها سوى العظام ولكنها حية. وبعضها مَواخِض. كان هذا المطلوب. كان هذا هو الفائض المزعوم الذي جاءوا من أجله للعمل في مركز استلام المحاصيل. العجل حديث الولادة، الذي يبلغ وزنه تسعين رطلاً، والذي لم يُجْرَد في الأوراق الرسمية، لحمه الناعم للأكل، وأحشاؤه، وعظامه للمرق، وجلده للبيع. أو الحَمل (الضأن) -الأخف وزناً، ولكن جلده يكفي لصنع قبعة فرو أستراخان كاملة. نعم، حتى لو كان مجرد جَدي- يكفي عشاءً دسماً للعائلة، ومعطف فرو للصغار. وحتى لو يحصلوا على دزينة من البيض فقط. الطيور إذا لم يحصل منتسبو مفارز استلام المحاصيل الزراعية الإلزامي على الماشية يعَوِّضون ذلك بالطيور.

لم يُوَظَّف أي شخص غير معروف للعمل هنا -بل الأشخاص الموثوق بهم فقط. كان ثمة عدد قليل من الوظائف الجديدة- لم يُطرد أحد من هنا. صحيح، أنَّ موظفي مراكز استلام المحاصيل الزراعية ماتوا في كثير من الأحيان، بسبب رصاصة طائشة أو منجل طائش في البطن -العمل هنا مُربح، لكنه خطير، كما هو الحال في الجيش. ويمكن للمرء أنْ يلاحِظ أنَّ حراس الدقيق لم يكونوا غرباء بعضهم عن بعض- إما كانوا إخوة أو أقارب وأنساباً أو رفاق سلاح سابقين في جبهات القتال؛ لذلك، لم تكن ثمة حاجة لهم بالأحاديث الشخصية - فهم يفهمون بعضهم بعضاً تماماً من دون كلام.

جابَ دييف الحظيرة مثل الكلب السلوقي يبحث عن طريدة مصابة: دخل إلى الزريبة وتجول بين ظهور الأبقار العظمية وأبوازها ذات القرون وخفّض المصباح - كان يبحث عن بطن مُثقل. المساعد الطبي، الذي أدرك كل شيء بسرعة، ساعده: فكان يمسِّد على ظهور الأبقار الناعسة ويهدّئها، وفي الوقت نفسه يبحث عن رِدف سمين عن طريق اللمس. لقد صفع ونقر على لسانه في نفس الوقت، مثل سائس خيل حقيقي.

في أوقات التغذية الجيدة، يمكن أن يغضب قطيع البقر من الغرباء -

يدعس أو ينطح. ولكن في حالة الجوع، ضعفت الحيوانات وأصبحت مُستَسلِمة. الخنازير فقط أصيبت بالجنون من الجوع، لذلك عُزِلَت الخنازير على حدة. لم يكن هناك أيّ خنزير في هذه الحظيرة.

فتشوا المكان كله - وجدوا ثلاث عِجْلات على وشك الولادة وشاة واحدة ماخضاً.

قال دييف:

- لو كنتُ أُومِنُ بالله، لدعوتُ أنْ تلد الليلة واحدة منها على الأقل.

يمكن أن يحدث هذا تماماً - كانت الأبقار مثقلة كليّاً، وكانت ضروعها المنتفخة متدلّية على الأرض تقريباً. نظر بوغ تحت ذيل كل واحدة منها، ومرر أصابعه على طول الحلمات البارزة. وأشار إلى إحداها وقال بثقة:

- هذه.

بالكاد كانت البقرة تستطيع أن تحمل وزن الجنين الطافح على ساقيها النحيفتين وتنظر بحزن إلى الأرض. أدارت خطمها بعيداً ونأت بنفسها عن الجميع كالمخبولة. ربما، كان الجد على حق: كان ينبغي الرهان عليها بالذات.

في الزاوية البعيدة، لاحظ دييف منذ مدة طويلة زريبة مسيجة -اقتيدت إليها حيوانات مختارة تحت أنظار حراس الدقيق. (توجد هذه الزرائب في جميع مراكز استلام المحاصيل الزراعية- لاحتجاز الحيوانات التي يمكنها إنتاج فوائض. لم يكن الاهتمام مُنصبّاً على تلك الحيوانات، بل على ضرورة أنْ يتكوّن الفائض من دون فشل وفي أسرع وقت ممكن: أثناء السَّوْق لمسافات طويلة أو عند الزحام في حظيرة مشتركة كان من الصعب أنْ تُفرَد الحيوانات من أجل الولادة، ولكن داخل الأماكن المخصّصة المنفردة تكون الولادة أسهل).

رتّب دييف وبوغ مناماً لهما في الزريبة. واستقرا بعضهما بجانب بعض على لوح من الخشب، متكئين بظهريهما على جدار الحظيرة. واستقرت جماعة بطرسبورغ في جوارهما.

وراحوا ينتظرون.

كانت الليلة باردةً، لكن مائة وخمسين من أفواه الحيوانات نفثت الدفء.

وشَعَّ الدفء أيضاً من الروث الذي غطى الأرض في عدة طبقات: الطبقات السفلية تصلَّبَت وحمت المكان من برودة الأرض، والطبقات العليا لا تزال طرية، وتتبخّر، فسخَّنَت الحظيرة.

الماشية كانت تثغو وتراوح على أقدامها، وتدوس الروث تحت حوافرها. ورجال بطرسبورغ يضحكون بصوت منخفض على شيء خاص بهم. وفي مكان بعيد، عند المدخل، قعقعت بنادق حارس الدقيق.

مرَّ الوقت.

شدَّ دييف فتيل المصباح، لكي يوفر النفط -كان لسان اللهب بحجم ظفر الطفل، وبالكاد يخفف من الظلام. في هذا الظلمة الكثيفة، تُرى صورة شارب الجد وانتفاخات جذوع الجدار على نحو باهت. ومن خلال نافذة الرصد الصغيرة، المغطى نصفها بالمصراع، يمكن للمرء أن يرى قطعة من السماء- يتغير لونها تدريجياً: من الرمادي إلى الأزرق، ثم إلى اللون الحبري تماماً.

حان الوقت الآن لإجراء محادثة جادة أو حديث من القلب إلى القلب. ولكن المساعد الطبي، المهذار قبل هذا، التزم الصمت: لقد سمَّره بحزم رقم المليون بُود.

لم يستطع دييف أنْ يمسك عن الكلام وهمس قائلاً:

- اسمع، يا جدي، إلى جانب مَن كنتَ في الحرب الأهلية؟ هل كنت إلى جانب الحُمر، أَم البِيض؟

لم يرد عليه بوغ، بل تنهد بصوت عالٍ فحسب.

- فهمت...

فتح بوغ فمه أخيراً:

- لم تفهَم شيئاً! أجل، كنتُ مع الحُمر، نعم، مع الحُمر!... ولكن ليس على الفور.

- إذاً، أنت هارب من معسكر العدو. حرباء سياسي.

- أنا لا أمارس السياسة. أنا أعالج الناس.

- وهل لا يعنيكَ مَن تعالج؟

كان لا ينبغي التحدث بصوت مسموع - فهمسا همساً، وفي لحظات التوتر تحوَّلا إلى الأزيز والصفير.

- لا يهم. ولكن في الحقيقة، الأفضل بالنسبة لي لو عالجتُ الحيوانات. لسنوات عديدة كان ينتظرني مقعد في الأكاديمية العسكرية - كطبيب خيول في سلاح الفرسان. وأنا، العجوز الأحمق، كنتُ أهتم بالناس، نعم، بالناس...

- ماذا تقصد، هل تحب الحصان أكثر من الإنسان؟

- نعم، بمئة مرة! يعتني الطبيب البيطري بالفرس -فتعيش الفرس مدة أطول، لإسعاد مالكها، ولن تتسلل في اليوم التالي تحت الرصاص مرة أخرى. أما الإنسان- فيتصرف بوقاحة وبتهور! فلماذا أُرَقِّعه وأُرَتِّقه، إذا كان هو بنفسه أول مَن يخوض المعركة غداً؟ وبعد لحظة تجده قد قُتِلَ ومات. لماذا أقطع ساقه اليوم -من دون تخدير، ليعيش- إذا ما غداً كانت قنبلة ستسقط على القافلة وتمزقه؟! وهكذا -طوال حياته. هذا يعني أنَّ علاجي له كان عبثاً، ووجودي أيضاً- عبثاً...

- وفرس سلاح الفرسان، إذاً، ألا تموت برصاصة؟

- تموت. لكن ليس بمحض إرادتها أو غبائها - ولهذا السبب تكون الشفقة عليها أكثر.

ضربت البقرة الماخض بحافرها، فصمَتا لمدة دقيقة. لكنهما لم يستطيعا ترك موضوع النقاش المهم، وسرعان ما قال دييف بصوت أجش مرة أخرى:

- لقد أنقذتَ الناس طوال حياتك - وها أنتَ الآن، تتذمَّر!

لم يأتِ دييف ردٌّ لمدة طويلة، فاعتقد أنَّ بوغ قد غفا في منتصف الحديث. أراد أن يهزَّ مُحاوِره، لكنَّ الرجل رفع صوته بنفسه:

- هل تعرف لماذا اشتركتُ في القطار؟ تعبتُ من الحرب. وتعبت من الموت. اعتقدتُ أنَّ هنا سيكون أطفال، وفرحٌ، وحياة. لا رصاص ولا شظايا ولا جروح تنزف. اعتقدت أنَّ وجودي بالتأكيد لن يكون هنا عبثاً. ولكن اتضح أنَّ...

لم يصمت دييف وزمجر قائلاً:

– هسّ، أراد الفرح! أنت عصبي جداً، أيها الرفيق بوغ، وعاطفي تتأثر بسرعة مثل فتاة شابة. سوف نفرح ونبتهج في ظل الشيوعية عندما تُطَبَّق.

– لن أعيش إلى ذلك اليوم. إنّي أريد ذلك حقاً – حتى وإنْ لم يكن الفرح بعينه، وإنما مجرد الطيبة واللطف فحسب.

– افتح عينيك أوسَع! لترى اللطف في كل مكان. جاء الأطفال إلى المحطة بأحذية، وليس حفاة، هذا لطف. وركبوا القطار وهم يرتدون القمصان، وليسوا عراة –وهذا لطف مرة أخرى. وهم ذاهبون الآن إلى تُرْكِستان– يذهبون، من دون أنْ يُتركَوا ليموتوا في مأوى الأطفال المُشَرَّدين –وهذا لطف لك مرة أخرى! أكياس الطعام الخاص، والدجاج في السلال، وشجرة التفاح على السطح– كل هذا لطف! هل هذا قليل؟

– لطفك ليس صحيحاً، يا حفيدي. إنه بالمقلوب. رأساً على عقب.

بسبب الحنق تحوّل همس دييف إلى أزيز:

– عقلك المقلوب رأساً على عقب! أن تكون لطيفاً ليس بمعنى أن تذرف الدموع على المُقعَدين المساكين! بل أنْ تحملهم إلى عربة القطار –عراةً، من دون طعام– وتنقلهم إلى تُرْكِستان! أن تكون لطيفاً هو أنْ تحصل لهم على الحليب واللحوم في الطريق! وتوصِلهم إلى سمرقند – كلهم جميعاً من دون نقص!

سأل بوغ بعد توقف طويل:

– إذاً، أنا وأنت الآن، كما يتَّضح، طيّبان؟

لم يكن هذا مجرد سؤال – بل مضايقة ووخز في الكلام. لكن الخُبث لا ينطلي على دييف.

– هكذا يتضح!

– وهذا الرجل، صاحب اليد الحديدية، الذي سمح لنا بالحصول على الفائض هنا، هل هو لطيف أيضاً؟

سأل مرة أخرى – كأنما يسخر. فأجاب دييف بجدية:

– هكذا يتضح!

- وفي التاسع من مارس -ماذا فعل هنا هذا الرجل الطيب؟ عندما تحدث إليك عن ذلك، تحجَّر ظهره، وكاد يمزق قميصه. لم يكن في ذلك الوقت يفكر في الحبوب التي احترقت، بل في شيء آخر- شيء لا أريد حتى أن أسأل عنه، ولا أريد أن أعرفه.

ولماذا لا تريد أنْ تعرف، يا جدي، كان من المغري أن تسأل. كثير من الناس يعرفون ذلك -ولا شيء يضرهم، إنهم يعيشون. رئيس مركز استلام المحاصيل الزراعية هنا، إنسان عادي جداً، ليس أكثر شراً من غيره. فأنت لم ترَ الآخرين! وتاريخ التاسع من مارس (آذار)، لم يكن نهاية العالم، بل مجرد قمع لعصيان معادٍ للثورة. وآنذاك اندلعت أعمال شغب وعصيان في جميع أنحاء روسيا- لا تُعَد ولا تُحصى...

استمر المساعد الطبي يتمتم بصوت منخفض:

- ولن أسأل أيضاً عمّا حدث لأولئك الرجال الذين أتوا إلى هنا في التاسع من مارس وهم يحملون مَذاري، ضد أبطال بطرسبورغ الطيبين من مفرزة تسليم المحاصيل الزراعية الإلزامي، الذين يحملون البنادق والرشاشات، ولا أريد أنْ أعرف.

ولكنك ترغب بالسؤال، يا جدي! وأود أن أجيبك -أنهم لم يكونوا مجرد قرويين فحسب، بل كانوا نساء فقط. يا جدي، لقد كان ذلك شغب نساء. لم يبقَ رجال من الفلاحين في القرى من مدة عامين- أخذ بعضهم البِيضُ، وبعضهم أخذهم الحمرُ، والبعض الآخر احتجزهم عناصر اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب كرهائن. وفي التاسع من مارس (آذار) وصلت مائة امرأة إلى مركز استلام الحبوب وتخزينها. فتيات وعجائز وشابات يحملن الأطفال الرضّع -أَتَيْن كلهنَّ. الحمقاوات! الحمقاوات الغبيات! تركن أطفالهن الصغار في المنازل، فوق المواقد، في المهاد. وجئنَ إلى هنا. وحدث أنهنَّ حصلنَ على استحقاقهنَّ- بسبب غبائهن الكبير.

قال بوغ:

- ولن أسألك، ما فعلتَ أنتَ، يا حفيدي، أيها الرجل الطيب، هنا في

ذلك اليوم. فأنتَ عندما كنتَ تجرّ خطاكَ إلى هنا عبر الغابة، كنت ترتجف كلّكَ، مثل الذي يرتجف من الحمى. وعندما حدَّثتَني عن ذلك اليوم، اسوَدَّ وجهك.

ليتكَ سألتَ هذا، يا جدي! لماذا تخاف من كل شيء مثل قملة الخنادق! أنت رجل عسكري! اسأل وسأجيب. سأجيبك، أنني أطلقتُ النار. نعم، نعم، أطلقتُ النار، مثل بقية رفاقي. أطلقتُ الرصاص على النساء. لقد أُصِبنَ بالجنون في ذلك اليوم –ليس بمعنى المجاز، بل حقاً، أُصِبنَ بالجنون. لقد رأيتُ عيونهنَّ وأعرف ما أتحدث عنه. لم يكُنَّ بشراً، بل قطيعاً من الحيوانات. كان بإمكانهنَّ أنْ يمزقنَنا. في البداية لم نتمكن من إطلاق النار. ليس نحن مَن هجم أولاً، بل هنَّ هجمنَ علينا. ورحنَ يقطّعنَ– بالمناجل والمِحاش. هل سبق لك أن رأيت امرأة تقطع رأس رجل بالمنجل؟ في البداية دافعنا عن أنفسنا بأعقاب البنادق، ثم بالحراب. أردتُ أنْ أركض وأهرب إلى الغابة. وأراد ذلك الكثيرون. لكن سياج الخوازيق مرتفع، ولا يمكن للمرء أنْ يقفز فوقه، وعند البوابة ازدحام وتدافُع. لذلك تخبطنا داخل هذا السياج، كما في المرجل – فقاتلنا النساء بضراوة.

وبعد ذلك عَثَرْنَ على خزّان للنفط. فرَشَشنَ دلاءً من هذا النفط علينا. فاحترقت العنابر. وهنا صار لا يمكن للمرء أنْ يفلت باستعمال الحربة: إما أن تطلق النار حتى لا تصل إليك إحداهنّ بهذا الدلو، أو أنْ تحترق. وراح الجميع يطلقون النار. وأنا أيضاً بدأت أرمي. وكان هناك الكثير من النساء! كنت أرغب في إنهاء كل هذا في أقرب وقت ممكن – ولذلك أطلقت النار كثيراً.

وفي اليوم التالي أُرسِلنا إلى تلك القرية لجمع الأطفال وتسليمهم إلى دور الأيتام. جمعنا الأطفال كلهم، ووزعنا الجميع على دور الأيتام. لم يمت أحد منهم، حتى الرّضَع بقوا على قيد الحياة.

لقد فعلتُ كل شيء –نفذت جميع الأوامر. ثم ألقيتُ حقيبتي على كتفي وغادرتُ من دون أن أُخبر أحداً وتوجهتُ إلى قازان. مشيتُ على قدمَيَّ لمدة أسبوع عبر الغابات والثلوج. ثم وصلتُ إلى مكاني في السكن الجماعي، واستلقيتُ على السرير وبقيتُ راقداً لمدة أسبوع كامل. لم أذهب حتى إلى

المرحاض. أحضروا لي دلواً ووضعوه عند قدمَي حتى لا أطرح فضلاتي في الفراش. وقد خفتُ من هذا الدلو- ورميته من النافذة. في اليوم الثامن، نهضت وذهبت إلى تشايانوف - لأطلب وسيلة نقل...

أجمَلَ المساعد الطبي قائلاً:

- هذا اللطف، ما أسميه المقلوب رأساً على عقب. لا أريد هذا اللطف. أريد اللطف الحقيقي، النقي.

وأنا أريده، يا جدي! لكن في الحقيقة، ليتنا نجد اللطف النقي! المستدير من جميع الجهات وغير الملوث بخطايا الحياة السابقة. يا حبذا لو وِجِد مثل هذا الإنسان، على الأقل إنسان واحد على الأرض، لم يفعل فِعلاً شريراً واحداً. وليت هذا الشخص سار حول العالم، يفعل الأعمال الصالحة فحسب، والبقية ينظرون إليه ويستمتعون بلطفه. لكن لا يوجد مثل هؤلاء الناس. ولا يوجد مثل هذا اللطف النقي. أجل، الحلم بهذا اللطف - موجود. وهو ما نتعايش معه.

اللطف من حولنا مختلف -مائل وقذر، مثل جزماتنا، أنا وأنت، الملطخة بالروث. وأولئك الذين قتلوا وسرقوا- يصنعونه بأيد قذرة. حسب رأيك، يا جدي، كلهم سيئون. وحسب رأيي، كلهم لطيفون. لأنهم يحلمون بهذا اللطف النقي وغير القابل للتحقيق -وإلا لما كان لدينا قطار أو مستوصف أو هذه الليلة في الحظيرة. لقد حدث ذلك، يا جدي: لقد تجادلنا، أنا وأنت، بشدة، وكدنا نتشاجر- لكننا اتفقنا على شيء واحد...

تنهدَ بوغ، منتظراً الجوابَ بصبر.

***

أُنهِكَ ديف قُبَيل حلول الصباح. تدريجياً أنارَ مقطع السماء البارز من نافذة الرصد التي فوق رأسه: تحول لون السماء من الحبري إلى الأزرق الرمادي، ثم إلى الرمادي، ثم تحول إلى الأحمر والأصفر. لكن البقرة لم تلد. كانت طوال الليل تزفر بألم وصخب، وترجف بحوافرها، وتراوح على الروث. ولكن - لم تلد.

هرع دييف إلى البقرة الماخض. فقد عذَّبه الانتظار، وتغلب على جميع المشاعر والأفكار الأخرى، فكان ينجذب في كل دقيقة تقريباً إلى النظر إلى الزريبة. لم يرَ دييف مرة واحدة كيف تظهر الفوائض - كيف تلد بقرة أو نعجة. لقد شاهد حيوانات حديثة الولادة، لكنه رآها بعد أن قفزت من رحم الأم وأصبحت فريسة لرؤساء مفارز التفتيش عن المحاصيل الزراعية. ولذا كان يخشى أن تفوت اللحظة التي تكون فيه ثمة حاجة إلى مساعدته. وكان يخشى أكثر ألّا تحدث الولادة اليوم.

تناهت إلى سمعه في زفير البقرة المُقلِق نبراتٌ جديدة: هل جاءها الطَلَق؟ فقرر أن يضيء المصباح تحت ذيلها ويتحقق: هل ظهر بوز العجل؟ ثم خطر في ذهنه أنْ يعطي البقرة الماء: المسكينة تثغو طوال الليل، من دون نوم - ربما بضع رشفات ستخفف من عذابها وتسرع من مجرى الأحداث.

أمره بوغ:

- اجلس، يا حفيدي. لا تتدخل في شغل الطبيعة.

ماذا لو لم يكن لديها عجلة واحدة في بطنها، بل توأم؟ فهي، لديها بطن كبير جداً. وهذا هو سبب معاناة البقرة التعيسة، لأن العجلَين يندفعان في أحشائها ويعيقان بعضهما بعضاً. توأم كامل، وكل واحد منهما يزن تسعين رطلاً - أوه، كم سيكون ذلك رائعاً!... ماذا لو كانت العجلة غريبة برأسين؟ يحدث هذا، لم أره بنفسي، لكن قيل لي. وإذا كان الأمر كذلك، فلا يمكنها أن تلد مثل هذا الوحش بنفسها، بل بالمساعدة فقط... ماذا لو خرج الذيل أولاً؟ أم أنه متشابك مع الحبل السري ولا يستطيع الخروج من الأم إطلاقا؟ يجب أن نجسّه، يا جدي...

- اجلس، أيها النفس القلقة! اجلس.

هل أنت مساعد طبي أم لا؟! مَن هنا أراد أنْ يكون طبيباً بيطرياً، حتى كاد يبكي؟! تعال، افعل شيئاً! الأمر متروك لك! وإذا كنت لا تعرف كيف، فسوف أفعل ذلك بنفسي و...

- أوه، أوه، أوه، أوه، أوه! نفثت البقرة من مكان ما عميق في أحشائها.

اندفع سائل ثخين زلِق مخلوط بالروث، فتهدّل جسم البقرة الثقيل على الأرض وضربت بحوافرها على الطين.

أمر المساعد الطبي:

- الآن يمكنك التدخّل.

لفَّ دييف فتيل المصباح النفطي إلى الأعلى - فانطلق اللهب ولعق جوانب المصباح الزجاجية، ونفث السخام، فتمايلت ظلال البشر والبقر على طول الجدران الخشبية. حمل دييف على عَجَل مصدر الضوء إلى الزريبة المعنية، التي كانت البقرة الماخض مستلقية فيها على جانبها، بعد أن وسَّعَت عينيها ورفعت ذيلها المتوتر نحْو السقف.

كان رأس البقرة تارة ينخفض في الطين، وتارة أخرى يرتفع ويمتد إلى مكان ما - بدا الأمر لدييف: أنَّ البقرة تمد رأسها باتجاهه، باتجاه الناس. فعلَّق الفانوس على جانب الباب المائل وتجمد للحظة، من دون أن يعرف ماذا يفعل، لكنه أدرك بعد ذلك: أن يكرر ما يفعله الجد.

كان المساعد الطبي قد شمَّرَ عن أكمامه وهو في طريقه إلى البقرة الماخض، ثم ارتمى على ركبتيه أمام جثة البقرة الممددة على الأرض -بالضبط في المكان الذي كان فيه الذيل يرتجف على شكل قوس- وأدخل راحتيه تحت هذا الذيل. أولجهما في العمق، -بدا لدييف، أنه أدخلهما حتى المرفق تقريباً- لكنه لم يعدهما فارغتَين: كان ثمة شيء في كل واحدة منهما -شيء داكن ومستقيم، وممتد إلى البقرة. إنهما رِجلا العِجل. نحيفتان وكثيفتا الشعر، وذواتا حوافر صفراء حادة في نهايتهما، تمدَّدتا ببطء- على الرغم من أنَّ بوغ شدهما بكل قوته، بعد أنْ استند إلى ركبته.

صرخ بوغ مختنقاً بصوته:

- ساعدني!

أدرك دييف أنه كان لا يزال قائماً كالعمود -يحدق في الجد وفي البقرة اللذين يختلجان أمامه. فاندفع إلى ذات المكان، إلى روث البقر، وأمسك أيضاً بهاتين الرِّجلَين، الدافئتَين الزلقتين، وبدأ يسحب أيضاً- جرّا قليلاً، ثم أكثر قليلاً، وانتقلا من الأعلى إلى الأسفل من مؤخرة البقرة المتورمة.

فبرز نحوهما شيء آخر - مثل الجزمة ذات المقدمة العريضة وفيها عَينان: إنه خطم العجل. نظرت هاتان العينان (الكبيرتان اللتان تشبهان عينَي البشر تماماً) إلى دييف من دون أن تطرفا.

ونظر دييف إلى العجل: خرج العجل شيئاً فشيئاً من أحشاء الأم -أولاً الأذنان المنتصبتان، ثم العنق، ثم الصدر. كان المخاط السميك يغطي جسمه كله، فتلألأ المولود، في ضوء الفانوس النفطي الضعيف، مثل الزجاج. تدفق ذلك المخاط نفسه من خياشيم العجل العريضة؛ فخشي دييف ألّا يتمكن الحيوان الصغير من التنفس، لكنه لم يستطع مسح أنفه- كان لا يزال يسحب العجل من ساقيه.

لهث المساعد الطبي من شدة الجهد، وكاد صوت لهاثه يغطي على خوار البقرة. ألقت البقرة رأسها للخلف وجعلت تدير بعينيها، وأصبح حوضها البارز أكثر اتساعاً، وانزاح أكثر فأكثر على الجانبين -فقد كاد العجل الكبير أنْ يمزق أمه؛ وعند ذاك ظهر منها كاحل العجل المُشعِر دفعةً واحدةً، وقفز في ثانية تقريباً. لم يكن لدى دييف الوقت حتى يلهث- فقد دفعه العجل بقوة في صدره وأجلسه على الأرض، وصار في يديه العجل الساخن، الزلِق، المُشعِر، الثقيل: استلقى المولود الجديد في حضن دييف، بعد أنْ نشرَ أطرافه الأماميَّتين والخلفيتَين على الأرض، ودفن خطمه في كتف دييف. إنه ضخم، ممتلئ الجسم - مائة رطل، لا أقل!

قال بوغ:

- ضعه جانباً. هيّا، ضعه جانباً، سوف تُنهِك نفسك.

هز دييف رأسه بعناد -كلا، الآن لا!- ثم انحنى وضغط بشفتيه على اليافوخ المبلل: يا فائضتي العزيزة!

لكن وجهه دُفِعَ بخطم آخر: فقد نهضت البقرة على أطرافها، ثم مدت رأسها لتلعق ابنها الوليد. فسمح لها دييف أن تفعل ذلك: لم يترك العجل من يديه، ولكن ترك الأم لتكشط جلد العجل بلسانها الذي يشبه ورق الصنفرة. لحست البقرة بجدية، وأحياناً كانت تلامس يدَي دييف ورقبته بحافة لسانها (فشعر به مثل الخدش بالمَبْشرة) -نظّفَت البقرة خطم وليدها وجانبيه

ووركه، ثم عادت مرة أخرى ونظّفَت خطمه؛ وسرعان ما لاحظ دييف تنفس العِجل المتكرر بجانب خده- فقد بدأ يتنفس بحرية أكبر. في البداية، أبقى فمه مفتوحاً (فسال لعاب العجل الدافئ على دييف من لسانه المتدلي)، ثم أغلقه واستنشق من خلال أنفه.

حرَّكَ بوغ رجلَي العجل الخلفيتين قليلاً، ثم ربَّت على رقبة البقرة:

- أهنئكِ بولادة ابنك، أيتها الأم!

دفعت البقرة ابنها بلطفٍ بأنفها على جانبه -حان وقت النهوض!- فاضطرب العجل، وزحف بحوافره الملتوية في الوحل، وهز رأسه ذا الجبهة العريضة، كما لو فهِمَ، وأراد على الفور أن ينفذ أمر والدته.

وقد حان الوقت كي ينهض دييف ويتهيّأ مع بوغ للخروج من مركز استلام المحاصيل الزراعية: بينما كانا مشغولَين بتوليد البقرة، يمكن أن يكون الفجر قد انبلج في الخارج. أراد أن ينظر من خلال نافذة الرصد ويفهم الوقت من خلال لون السماء -لكن بصره اصطدم بنظرات عديدة أخرى: كل من قضى الليل في الحظيرة كان يقف منذ مدة طويلة بجوار سياج الزريبة ويراقب ما يحدث. نظر حراس الدقيق بتجهم- إلى العجل في يد دييف وإلى دييف نفسه. أما جماعة بطرسبورغ، فعلى العكس، نظروا بمرح - إلى الحراس ذاتهم.

ضمَّ دييف العجلَ إليه بقوة وقال:

- شكراً لكم على المصباح، أيها الرفاق.

لم يرد الرفاق عليه. كانوا يعلّقون البنادق على أكتافهم، وأيديهم تمسك بمقابض المسدسات المغروزة في أحزمتهم.

في الخارج، كان الفجر قد انبلج بالفعل: أشعة ضيقة من الضوء اخترقت فضاء الحظيرة المظلم. بعد مدة قليلة سوف يستيقظ باقي حراس الدقيق ويزحفون من جميع الشقوق، فالأفضل للضيوف أنْ يغادروا القرية قبل هذه الساعة - لقد حان وقت رحيلهم منذ مدة طويلة.

نهض دييف كيف ما اتفق، من دون أنْ يترك المولود الجديد من حضنه - لم يكن بمقدوره أنْ يحمل وحده مثل هذه الجثة الثقيلة بين ذراعيه، لكن بوغ

ساعده، وأسنده؛ أراد بوغ أن يأخذ وحده العجل (كان الأنسب أن يتحمل المساعد الطبي الضخم الحملَ الثقيل)، لكن دييف لم يعطِه. وضعه على كتفيه، مرة أخرى بمساعدة بوغ، بحيث تدلت رِجلا العجل الأماميتان من أحد كتفيه، وطرَفاه الخلفيتان من الكتف الأخرى، وضغطَ هذه الأرجل إليه بإحكام وانطلق إلى الأمام.

فتحت جماعة بطرسبورغ باب السور له. هؤلاء الرجال لم يخشَوا أيَّ أحد ولم يمزحوا، بل كانوا بكل بساطة يحملون أسلحتهم في أيديهم -علانية، ومن دون مواربة. ابتسموا فتلألأت أسنانهم البيضاء في عتمة ما قبل الفجر، وفي هذه الابتسامات قرأ دييف الاستعداد والرغبة في الصِّدام- مكث هؤلاء الشجعان مدة طويلة في مفرزة تسليم المحاصيل الزراعية الإلزامي. عندما مرَّ دييف من جانبهم وهو يعرج، غمز له أحدهم: لا تخف، يا أخي الصغير! أراد دييف أن يغمز رداً عليه، لكن ملامح وجهه كانت مشوَّهة من الجهد ولم يستطع ردّ إشارة الترحيب الودية.

كان من الصعب عليهما أنْ يجرّا أقدامهما – فقد انزلقت جزماتهما على الروث. وحتى العجل راح يرتعش بقلق، مستشعراً الانفصال عن أمه؛ كانت عضلاته لا تزال ضعيفة ولم يعرف كيف يتحرّك حركات جيدة التنسيق، ولهذا بدا كأنه هلام يتخبط على كتفي دييف. هلام يزن تقريباً بقدر وزن دييف.

سار دييف من الحظيرة إلى المَخرج: ببطء، خطوة خطوة. ومشى المساعد الطبي إلى جانبه -لكنه لم يمشِ ووجهه إلى الأمام، بل ظهره: ينظر إلى جميع من ساروا خلفهما، ويمسك بالآلة على وركه. وسارت جماعة بطرسبورغ أيضاً وظهورهم إلى الأمام، وأبدوا للعيان بندقيتين ومسدس ماوزر. أغلق المطارِدون المسار- إما كنوع من التهديد الجاد، أو ببساطة من أجل الترهيب والرغبة في الانتقام من الفائض المأخوذ منهم عنوة بهذه الدقائق غير السارة. لم يتخطوا الضيفين ولم يحاصروهما، برغم قدرتهم على ذلك. ولم يطرحوا أيَّ مطالب. هل حقا، تمكّنا من الإفلات؟ هل حقاً، سيتركونهما يخرجان مع اللحم؟

وبينما كانوا يغادرون المبنى، بدأت البقرة الأم ترغي -أرغت بصوت

منخفض حزين، تندب وليدها المسروق. اهتز السياج الخشبي تحت الضربات– فقد أرادت البقرة اللحاق بالخاطفين، فضربت بصدرها على جدران الزريبة. بصق أحد حراس الدقيق بانزعاج وبقي في الحظيرة لتهدئة الحيوان – وهكذا نقص عدد الأعداء واحداً.

خرجا من الحظيرة. ووصلا إلى مسارات السكك الحديدية. تحركا على طول القضبان إلى الأفنية الخلفية لقرية الدقيق – إلى المدخل الذي من خلاله دخل الضيوف إلى التحصين.

استمع دييف إلى الخطوات التي كسرت هدوء الصباح بخشخشتها وتساءل عما إذا كانت البوابة تُفتَح. وإذا ما فُتِحَت، أليس هناك، في غابة الصنوبر الكثيفة، يمكن أنْ يتغلب عليهما مُطاردوهما؟ ربما، كانت هذه أضمن طريقة للتعامل مع الغرباء الوقحين. الطريقة الأهدأ وغير الملحوظة تماماً.

تساءل دييف مع نفسه، هل يبقى مع العجل في المنطقة، تحت حماية حراس بطرسبورغ، ويرسل المساعد الطبي إلى القطار؟ ولكن مَن سيأتي كتعزيزات – الممرضات وميميليا؟ كلا، لا ينبغي تفتيت فريقهم الصغير.

هل يتخلى عن الذهاب إلى البوابة الآن، ويتوجه إلى مبنى الإدارة – لطلب الحماية من صاحب اليد الحديدية؟ لن يسعده أن يُعرَض الفائض في بداية يوم العمل أمام جميع مَن في موقع العمل. ومن يدري، كيف يكون مزاجهم الآن.

أيطلب من جماعة بطرسبورغ إحضار رفاقهم من مفرزة تسليم المحاصيل الزراعية الإلزامي؟ هؤلاء لن يطلبوا المساعدة – لن يرغبوا في الاعتراف بضعفهم.

مهما بالغ في التفكير، لم يجد له مع المساعد الطبي سوى طريق واحد – على طول القضبان باتجاه الغابة. وإذا ما حدث في تلك الغابة أيّ اصطدام مع حراس الدقيق، فإن دييف يعرف شيئاً واحداً مؤكداً: لن يتخلى عن العجل. لديه في المسدس ست خراطيش: لن تكون هذه الإطلاقات كافية لجميع الأعداء، ولكنها كافية تماماً لأولئك الذين يمدون أيديهم الجشعة أولاً إلى اللحم الذي حصلَ عليه.

فُتِحَت البوابة بسرعة ومن دون سؤال واحد - على ما يبدو، أُحيط الحارس علماً (من طرف صاحب اليد الحديدية أو من طرف حراس الدقيق؟). خرج دييف وبوغ من أراضي التحصين. وعلى إثرهما خرج شجعان بطرسبورغ. وبعدهم حراس الدقيق أيضاً.

سار دييف وبوغ على طول قضبان السكة الحديد وابتعدا. وسارت جماعة بطرسبورغ خلفهما. وسار خلفهم حراس الدقيق أيضاً.

وبمجرد أنْ اختفى برج الحراسة مع جماجم الأبقار المسمرة به خلف الأشجار، قال بوغ همساً: «سيبدأ الآن».

نقرت تَرابيسُ البنادق - كان ذلك، جماعة بطرسبورغ استعدّوا للصِّدام.

دسَّ دييف، أثناء سيره، يده في جيبه وأخرج المسدس. وجعل يمسك ساقي العجل على صدره، لا يمسكهما بكفه، بل بالسلاح الذي في يده. قرر أن يطلق النار في اتجاه البطون، في الحال. لم يستطع أن يرى ما كان يجري خلف ظهره، لكنه استمر يناوب قدميه على عوارض السكة. لقد كان يعلم: إذا ما توقف، أو على الأقل، إذا ما تردد قليلاً، فسيؤدي إلى تعطيل المسار الثابت لطابورهم الغريب، وستكون هذه إشارة لبدء الاشتباك.

لكن الطابور تباطأ من تلقاء نفسه: خفَّف كل من المساعد الطبي والمدافعين الذين من بطرسبورغ من سيرهم لسبب ما، ثم توقفوا. لم تعد تُسمَع أيّ خطوات متابعة -وتوقف حراس الدقيق أيضاً. أمسك دييف بالمسدس بإحكام، واستدار ببطء، مع العجل بين ذراعيه، وفهم سبب العقبة: من جهة القرية، كان رجل يسير نحوهم على طول الممرات. إحدى كفيه متدلية أسفل الأخرى قليلاً: إنه صاحب اليد الحديدية. كان الجميع ينتظرونه- ما زالوا يوجهون أسلحتهم بعضهم نحو بعض ومستعدين لسحب الزناد في أي لحظة.

هل قرر التأكد من مغادرة الوافدين للتحصين؟ أو، غيَّر رأيه بشأن تقاسم الفائض؟ أو، لربما، بناءً على أوامره، اقتاد حراس الدقيق الضيفَين إلى الغابة، والآن سيُؤمر جماعة بطرسبورغ بعدم الدفاع، بل بالهجوم؟ نظر بوغ إلى دييف نظرة حزن: آه، هذا صاحبك، الرجل اللطيف!

قال صاحب اليد الحديدية، وهو يقترب:

- أرى أنها كانت ليلة سعيدة.

لم يُولِ مواسير البنادق الممدودة اهتماماً - كأنه لم ينتبه إليها. ألقى كيساً كبيراً من على كتفيه وألقاه عند أقدام الضيفين.

- لقد أعددنا ذلك لكم، على كل حال - خذه.

أومأ دييف برأسه امتناناً، والتقط بوغ الهدية - من دون أنْ يفتحها ومن دون أنْ ينظر إلى داخلها، وألقى بها خلف ظهره.

تابعَ صاحب اليد الحديدية كلامه على نحو عمليٍ، كما لو كانا يتحدثان في مكان ما في مكتب هادئ وليس تحت تسديدات البنادق المستعدة للرمي:

- واصلا سيركما. لا يمكنك دفع القطار مرة أخرى إلى المسار الصحيح. سيرا عبر مركز استلام المحاصيل الزراعية، سنفتح لكما البوابة.

أومأ دييف مرة أخرى برأسه. لم يحسب أنه سينال مثل هذا الكرم - كان يخشى أن يضطر إلى بذل جهد كبير، كي يُخرِج القطار «الضفيرة» على خلفيته من الفرع إلى المسارات الرئيسة، أو حتى أنْ يلجأ إلى الذهاب إلى بلدة أورماري من أجل القاطرة المناوِبة وسحب العربات على المسار واحدة تلو الأخرى.

قال صاحب اليد الحديدية:

- مع السلامة. كن بخير.

وبعد أن أدرك حراس الدقيق أنَّ الأمر قد حُسم نهائياً، أنزلوا أسلحتهم ووضعوها خلف ظهورهم. وفعل جماعة بطرسبورغ مثلهم أيضاً.

فأومأ دييف برأسه للمرة الثالثة.

***

ثم ركضا على طول مسارات السكة - دييف يحمل العجل على قفاه وبوغ يحمل الكيس، لا يكادان يصدقان أنهما ابتعدا سالِمَين ومعهما اللحم. ولا يصدقان أنَّ كل ما تبقى لهما، أنْ يتسلَّلا عبر القرية الملعونة ويندفعا بعيداً عنها، ولن يعودا إليها أبداً مرة أخرى.

كانت القاطرة تلهث وسط الغابة، وتنفث الدخان والشرر – منذ الأمس تلقى السائق أوامر بإحمائها بحلول الفجر. وصعد السائق مطيعاً إلى المقصورة، ينتظر رئيس القطار.

ألقيا بحملهما على أرضية حجرة الوقود والماء في القطار، وتسلقا إلى جانب الحمل، على أكوام الفحم.

صاح دييف:

– إلى الأمام! كالطير، كالرصاصة، كشيطان على مكنسة – إلى الأمام! قبل أنْ يغيّر صاحب اليد الحديدية رأيه. قبل أنْ يلفّق حراس الدقيق المستائين حيلة قذرة. إلى الأمام!

تحرك القطار «الضفيرة» إلى الأمام. جلجلت القاطرة على قضبان السكة وفَرَقَت أغصان الصنوبر بصدرها الحديدي على الجانبين. وقف دييف وبوغ فوق حجرة الوقود والماء، أحدهما يمسك المسدس والآخر بقبضتيه المرفوعتَين، واستعدّا للدفاع عن القطار وعن غنائمهما. انهالت عليهما مثل البَرَد أكواز الصنوبر التي أسقطتها مدخنة القاطرة.

قرر دييف في حالة وقوع هجوم المضي قُدُماً –وكسر البوابة واختراق التحصين. فالسرعة القصوى بالنسبة للقطار– أمر تافه. ولذلك كان من الأفضل عدم التقليل من السرعة، بل الاندفاع بأقصى سرعة، محذراً عن نفسه بالصفير.

– وو، وو، وو! – عوى القطار «الضفيرة»، نشمر حتى الحاجز.

لم يفكر أحد في الهجوم على القطار. وقد فُتِحَت البوابة مُقَدَّماً، فاندفع القطار إلى القرية، وأغرق في سحب من البخارِ برجَ المراقبة مع الحارس، والبوابة نفسها، والجماجم المعَلَّقة عليها. ومضى عبر أرض مركز استلام المحاصيل الزراعية، مشتِّتاً ضباب الدقيق.

مرّت العنابر وحظيرة تجميع الماشية والأبقار والعربات البيضاء والخيول البيضاء التي تجرها والأجساد البشرية البيضاء (من الطحين) –كل شيء مر كأنه حلم، مثل ضباب ما قبل الفجر. نعم، ومرت الساحة الرئيسة نفسها، وأكداس الحبوب التي تنفث الطحين، وهذا الهواء الموحل الثقيل، والغربان التي تزعق في السماء– كل شيء كان ضبابيّاً، ضبابيّاً...

أفلتوا من البوابة الثانية المفتوحة، وتنفسوا نضارة صنوبر الصباح – وتبدد الضباب.

انطلق القطار «الضفيرة» كالطائر عبر الغابة. الخُضرة على الجانبين –ساطعة إلى درجة تبهر العيون. السماء في العُلا لونها لازورد مائل للزرقة الداكنة. بعض الطيور تزقزق. نظر دييف والمساعد الطبي بعضهما إلى بعض، وأخذا نَفَساً عميقاً– لم يكن لديهما ما يحكيانه، ولا حاجة بهما لقول أيّ شيء.

كان وجه بوغ أبيض مغطى بغبار الطحين! وجميع ملابسه مُتْرَعة بالطحين. وفوق الطحين –روث البقر، طبقة سميكة على جميع أجزاء جسده. وفوق الروث– فحم أسود. يا لجمال مظهرك، أيها الجد! أنتَ لستَ مساعداً طبياً، بل نصف منظف بالوعات، ونصف عامل منجم!

انتابهما ضحك مفاجئ. انفجر دييف في البداية، وكبح جماح نفسه، ثم ضحك بما فيه الكفاية. فنظر إليه بوغ وانفجر ضاحكاً أيضاً. ضحك طويلاً وبصوت جهوري عالٍ.

هل استعملت آلتك، يا جدي! كان جميع مَن في مركز تسليم المحاصيل الزراعية خائفين من آلتك التي في جيبك! وأردتَ أيضاً ارتداء المريول الأبيض، هل تتذكر؟ آه، كم ستبدو جميلاً الآن، في الرداء الأبيض!

ضحكا وهما ينظران بعضهما في عيني بعض. الرياح المعاكسة دغدغت خدودهما. وشعرا بألم في البطن والخدين من المرح المفاجئ.

وأنا نفسي يا جدي! انظر إليّ! لقد بلغتُ من القذارة إلى درجة يمكن أنْ يتساقط الروث مني على شكل قطع. أنا وأنت، كلانا مُنظِّفا بالوعات. كلا، لسنا حتى منظفَي بالوعات – بل شيطانان. أجل نحن شيطانان. اثنان من الشياطين خرجا من قِدرٍ مليء بالغائط!

بعد أن توقف بوغ من الضحك، مسح دموعه بأصابعه السوداء. أما دييف فاستمر يقهقه بصوت عالٍ – وهو يضيّق عينيه ويهز رأسه من شدة الضحك.

حقاً، كيف تعرف علينا السائق؟ وهل يمكنه أنْ يطرد من القطار مثل هذين الرجلين الوسيمَين. كان ينبغي عليه أنْ يضربنا بالمسعر على ظهورنا حتى لا نثير فزع الناس. فنحن على كل حال، لا يجوز أن نظهر بمظهرنا هذا

للأطفال - سوف يخافون حتى تتبلل سراويلهم. أما الممرضات فسوف يقفزنَ من العربات وينتشرن هاربات إلى الغابة، وسوف نبحث عنهنَّ إلى حلول الليل. كم سيكون ذلك ممتعاً!

الضحك يهزّ دييف هزّاً شديداً كأنه البكاء.

لماذا توقفتَ عن الضحك، يا جدي؟ انظر كم عدد الأشياء المضحكة من حولك. الأغصان تتمايل في مهب الريح -هذا مُضحِك! البخار يطير من المدخنة- هذا مُضحِك! العجلات تطرق، وتطرق، وتطرق - هذا مضحك أيضاً، مُضحِك!

أمسَك بوغ دييف بكفه الجبارة، وضمه إليه، وقال له:

- اهدأ.

إنّي بالكاد أستطيع الوصول إلى إبطك بأنفي، يا جدي! ولكنّي أشم منك رائحة كرائحة بقرة ولدت اليوم. وأنت القوي - لا تستطيع أنْ تفلت، ولا أنْ تتحرك. أليس هذا كله مُضحِك...

عندما تبدد الضحك، رفع دييف وجهه المُبَلَّل لسبب ما نحو بوغ وقال له:

- لم أطلق النار على النساء الحوامل - آنذاك، في التاسع من مارس (آذار).

فتح الجد ذراعيه وردّ عليه:

- أثق بك، يا حفيدي.

اندفع شيء ناعم على فخذ دييف - إنه أنف العجل.

نهض العجل، الذي قدّم نفسه بنفسه، على أرجله. لم يتعلم المشي الصحيح بعد، ولم يعرف حتى كيف يحني ركبتيه - تمايل على أطرافه المرتعشة من التوتر، كما لو كان يمشي على طوّالات (أرجل خشبية)، وباعد بينها كثيراً إلى الجانبين على الفحم المنثور. بادئ ذي بدء، مشى يعرج إلى دييف ودفن نفسه بثقة في الرائحة المألوفة له منذ ولادته.

جثا دييف على ركبتيه أمام العجل وقبّله بشدة على جبينه الملطخ بالفحم. ثم أدخل ماسورة المسدس في أذن العجل الدافئة وسحب الزناد.

***

في بلدة أورماري، أثناء التزود بالوقود بالماء والرمل، استغلا فترة التوقف واغتسلا.

سكبت فاطمة الماء على أكفِّهما الممدودة، فغسلا وجهيهما وعنقيهما، وجعلا يصفّران من الرضا. ثم سكبت الماء على رأسيهما، فصارا الآن يصفّران من البرد. بعد ذلك، خلعت عنهما ملابسهما كلها، باستثناء الملابس الداخلية، وخلعت جزماتهما ولفائف الجوارب، وأخذتها إلى مكان ما في الجزء الخلفي من المحطة لتغسلها في الجدول.

كان دييف مسروراً لأن فاطمة حمَّمَتهما. وأسَرَّه أيضاً أنَّ بيلايا كانت تنظر إلى هذا الغسل من النافذة. لم يعد يشعر بالحرج أمام النساء سواء من جذعه العاري أو من قدميه الحافيتَين: لقد ترك كل هذا الهراء وراءه. فأيّ حرج يمكن أنْ يكون أمام الرفاق!

ولكنّ المساعد الطبي على غير المُتَوَقَّع شعر بالحرج. فعندما اقتربت منهما فاطمة وهي تحمل في يدها دلواً ممتلئاً، وابتسامة على وجهها المستدير - احمرَّ خجلاً حتى ظهرت الحمرة من خلال طبقة التراب على خديه وجبهته. وعندما طلبت منهما أنْ يعطياها سرواليهما وقميصيهما لكي تغسلها، أخفى عينيه ورفض. لم يتوقع دييف مثل هذه العفة من الجد.

تبيّنَ أنَّ الكيس الذي أعطاه إياهما صاحب اليد الحديدية يحتوي على غربان مذبوحة -كانت الغربان طازجة، ومن دون أدنى رائحة. في البداية، اعتقد دييف أنَّ الطيور ذُبِحَت يوم أمس، لكنه تلمَّسَ الجثث الناعمة، فوجدها لم تيبس بعد، ولم تعد دافئة بعد- فأدرك أنها صيد اليوم. إذاً، أطلقوا النار عليها في الصباح - عن قصد، من أجل مَن في قطار دييف.

سمح بإضافة الغربان إلى العصيدة العامة. أما العجل - فللتغذية الخاصة حصرياً.

قطَّعوا العجل في حجرة الماء والوقود -أثناء السير، عندما غادر القطار المحطة وابتعدوا عن أعين المتطفلين. لم يكن دييف يعرف ما إذا كان الطبّاخ يستطيع سلخ العجل وإخراج أحشائه- فاتضح أنه يستطيع فعل ذلك، وأفضل من غيره: استطاع أنْ يهرق الدم ويخرج الأمعاء ويسلخ الجلد. جُمِعَ الدم لتغذية المرضى والعظام والحوافر للمرق.

طُهِيَ اللحم على الفور. لم تكن في المطبخ مصفاة لتمرير اللحم المسلوق، فَهَرسَ ميميليا لحم العجل المطبوخ ببلطة في نفس القِدر فاختلط اللحم مع الحساء. أخذ دييف بنفسه البطاطا المهروسة إلى عربة المستوصف، لكنه لم يمكث لإطعام المُقعَدين - فقد انهار تقريباً من التعب. بوغ، الذي كان يرتدي المريول الأبيض فوق جسده العاري وسرواله الداخلي، شرَعَ في العمل بمفرده. وذهب دييف إلى عربة الموظفين لينام.

سار دييف في القطار حافي القدمين، مرتدياً سرواله الداخلي فقط، وقطرات جافة من دماء العجل الداكنة على صدره. صمتَ الأطفال عندما رأوه وراحوا يرمقونه بنظراتٍ من عيونهم المستديرة من الدهشة: فقد انتشرت في جميع العربات أخبار اللحم وشوربة الطيور التي ستُقَدَّم على العشاء. ونظرت إليه الممرضات بإعجاب. انتظرت الممرضة الفلاحة مرور الرئيس من جانبها وهمست بحماس خلف ظهره النحيف مدة طويلة بعبارات - إما تعويذات أو دعاء.

في المقصورة، استلقى دييف على الأريكة وأدرك أنه لا يستطيع النوم - كان يتجمد من البرد من دون الملابس، لكن لم تكن لديه القوة كي ينهض ويأخذ شيئاً على الأقل ليتدثر به. لذا استلقى هناك، ولفّ يديه على نفسه، حتى جاء أحدهم وألقى عليه شيئاً دافئاً.

فتح عينيه قليلاً، فرأى أنَّ المفوضة بيلايا دثّرته بسترتها العسكرية. فابتسم، وشعر بسرور كبير من هذا الاهتمام، لكنه لم يستطع إبقاء عينيه مفتوحتين - فأغمض جفنيه، وغطَّ في سبات عميق.

قالت بيلايا، إما متسائلةً أو مؤكِّدةً:

- لقد سرقتما مزرعة تعاونية.

اعترض دييف بصعوبة من أعماق النوم:

- كلا، هذه فوائض.

- لا توجد هكذا فوائض.

إما فكَّر دييف أو قال:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- توجد، ويوجد غيرها أيضاً.

دثَّرته السترة العسكرية واحتضنته بشكل مريح أكثر من جميع لُحُفِ الريش الناعم. أم كانت هذه المفوضة بنفسها تحتضن دييف؟ احتضنته بذراعيها الطويلتين الدافئتين، وهزته برفق على إيقاع العجلات وهي تغني تهويدة. أم أنَّ فاطمة هي التي هزته على ثدييها الناعمين؟ لقد هزته وغنت، غنت بمودة...

صدح صوتُ بيلايا من مكان قريب:

- يا دييف، لقد أخطأتُ في تقدير قابلياتك.

لم يكن لديه الوقت لفهم معنى العبارة - فقد غفا.

وها هو الآن يُحمَلُ إلى مكان ما -عبر غابات الصنوبر والتلال المصفرة، على طول أنهار شفافة وعلى طول أراضي المزارع التعاونية، على قضبان سكة حديدية بيضاء وفوق جسور حديدية سوداء- يُحمَل بسرعة وباندفاع جامح -يهتز ويتأرجح ويُهَدهَد بحزم- والأرض كلها ترتجف من الحركة السريعة، العجلات تقرع، وهي تجتاز الطريق: طُق، طُق... طُق، طُق...

أم هذا قلب دييف ينبض وهو يجتاز الوقت المُحَدَّد؟ طُق، طُق... طُق، طُق...

أم هو طرق على الباب... من مدة طويلة وبلا انقطاع؟ طُق، طُق... طُق، طُق...

ولكن هذا صحيح - فعلاً ثمة مَن يطرق.

بصعوبة أدرك دييف أين مكان هذا الباب بالذات، جلس وعيناه مغمضتان يبحث مدة طويلة عن حذائه بقدميه العاريتين. ومع أنه لم يجد الحذاء بعد، نهض وشق طريقه إلى الباب. سحب المقبض وحاول رؤية الضيف من خلال جفنيه المُغمَضَتَين.

في المدخل وقف أحدهم، طويل وقوي يرتدي الأبيض.

إنه الرجُل الجبل، المساعد الطبي. الجد.

نظر إلى دييف نظرة غريبة وقال:

- لقد ماتَ سينيا.

الجزء الثالث

العدد المشؤوم

سيرغاتش -أرزاماس- بوزولوك

أدارت القملة العملاقة رأسها، ونظرت إلى العربة -ظهرت صورة ظلية لها على خلفية سماء المساء وسرعان ما ملأت النافذة بأكملها. استندت ببوزها إلى الزجاج، وهزت شاربها المفصلي- وتشَمَّمَت.

رآها على الفور - كان مستلقياً وعيناه باتجاه النافذة. انتظرها. انتظرها منذ انطلاقهما من قازان، في كل توقفٍ ليلي، لكنها لم تلحق بالقطار إلا الآن. زحفت على طول القضبان ببطء، وكانت مخالبها التي تشبه المناجل تنزلق فوق الفولاذ، لكنها تكيَّفت على التحرك على طول جوانب المسارات، على الأرض، متشبثة بعوارض السكة. وها هي قد وصلت إلى هنا.

كانت تتبع سينيا من مدة طويلة. لقد جاءت من التايغا، حيث يعيش شعب التشيريميس في أوكار الدببة ويمارسون طقوسهم الشامانية السحرية في الوديان. جرّت بطنها الكبير عبر القرية بأكملها، تاركة حفراً من ستة مخالب على الطريق الطيني، وفي أحد المنازل شمَّت رائحة نفس بشرية حية - شمَّت سينيا.

آنذاك كان راقداً على الموقد، ينتظر الربيع. لم يبقَ أحد في الكوخ -لا أمه ولا أبوه ولا إخوته الأكبر سناً، اختفوا في مكان ما منذ عدة أيام. واختفى الجيران والماشية والطيور. لكن سينيا بقي راقداً على الموقد. كان سيواصل

الرقود،- فهو لا يقدر على الحركة - لكنه رأى بدناً جسيماً رماديّ اللون متموجاً بحجم البقرة يزحف في الفناء، ففزع. تدحرج بصعوبة إلى خلف الفرن، ورفع ساقيه، اللتين لم تطيعاه منذ الشتاء، إلى بطنه وتجمد. بقي مستلقياً طوال الليل، وبقي ذلك البدن يزحف حول المنزل ولم يستطع العثور عليه. ابتعِد، عزَّم عليه وناشده مع نفسه. ارحل. لم يستمع.

وقُبيل الصباح فُتح الباب، لكن لم تكن القملة العملاقة، بل جنود الجيش الأحمر. كانوا يسيرون في الأفنية، ولسبب ما، كانوا يغطون أنوفهم بالمناديل. جاؤوا إلى سينيا. قال أحدهم: «يا أمي، إنه حي!». وأخرج سينيا من خلف الموقد. وضعوه على عربة، لكنه لم يعد بإمكانه الجلوس، بل الاستلقاء فقط، وبالتالي استلقى وذهب إلى مكان ما مع المفرزة. وخلف الضواحي، نهض ونظر إلى قريته: خلف سياج من أغصان مجدولة بعيدٍ رأى ظلاً كامناً - كانت تلك القملة تنتظر أنْ يبتعد الخيّالة، كي تتبع أثرهم بعد ذلك. أراد أن يخبر الجنود عنها، لكنه تعب ونام.

ومنذ ذلك الحين وهي تسير على أثره. أو بالأحرى تزحف. في كل مرة بالكاد تستطيع أنْ تلحق بسينيا، وفي كل مرة يتمكن من البقاء على قيد الحياة. بحلول ذلك الوقت، كان قد نسي تماماً كيفية المشي، وأصبحت ساقاه كالغريبتين عنه، ولكن لسبب ما كان يُنقَل من مكان إلى آخر، وهذا ما أنقذه. في البداية إلى مستشفى ريفي، ثم إلى مستشفى البلدة، ومنها إلى مستشفى المدينة، ومن ثم إلى دار الأيتام، ومرة أخرى إلى المستشفى الريفي، وفي النهاية -إلى مركز الإجلاء في العاصمة قازان. وبعد الانتقال إلى المؤسسة الجديدة، عاش سينيا بهدوء لبضعة أيام، ثم بدأ ينتظر- فكانت القملة تأتي إليه باستمرار.

كان أسوأ شيء في مستشفى المقاطعة -كان المستشفى يقع في كوخ منخفض، واعتادت القملة العملاقة على الصعود إلى السطح ليلاً، وكادت تقضمه وتُحدِث ثقباً فيه. والأفضل من ذلك كله- في مركز الإجلاء: فقد وُضِع سينيا تحت سقف القصر الضخم، فكادت القملة تشحذ مخالبها وهي تحاول تسلق الجدران الحجرية الملساء والأعمدة المستوية. وعندما أُركِبَ سينيا في القطار وأُرسِلَ في رحلة طويلة، أدرك: الآن لن تدعه يرحل وحده -

سوف تلحق بالركب. كان القطار يتدحرج على طول القضبان بتمهّل، لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات في اليوم، ويتوقف بقية الوقت. بينما القملة تزحف من دون كلل. وها، قد وصلت الآن.

عرف سينيا أنَّ العربة صُنِعَت من الحديد والزجاج السميك. وعرف أيضاً أنَّ القملة تقضم الحديد، وتكسر الزجاج وتفتته كالعصيدة. وليس عبثاً أنها الآن تدير رأسها الدرَني على طول الإطار - إنها تبحث عن ثقب أو صدع يمكنها أن تُدخِل خطمها منه. وإن لم تجده، ستبدأ بضرب النافذة بجبهتها. وتطرقها طرقاً، طاق! طاق!

لم تُسمَع ضربات، لكن راحت الدكة تهتز تحت سينيا والأدوات الطبية ترن على المنضدة. طاق! طاق!

الأطفال الآخرون نائمون -هؤلاء دائماً ما يكونون نائمين عندما يحتاج سينيا إلى المساعدة. والكبار دائماً يذهبون إلى مكان ما. وليس في هذا العالم مُدافعون عن سينيا- إنه وحيد.

طاق! طاق!

بقعة بيضاء من الشقوق تنمو وتنتشر على الزجاج. طاق! انفجرت على شكل شظايا وتفتتت، ولم تعد النافذةُ نافذةً، بل صارت خطماً بنيّاً يشبه حبة بطاطا عملاقة. كان جلد هذا الخطم الذي يشبه حبة البطاطا مليئاً بالتجاعيد، وشاربه كالأشواك. وكَفّاه الأماميتان، اللتان تشبهان الخطافات المسنَّنة، تتسلّلان إلى العربة المستوصف وتستندان إلى الجدران، وتتوتران، لتسحبا خلفهما الصدر والظهر، ثم البطن المضلع السمين.

حشر سينيا نفسه على الدكة - في الزاوية ذاتها، حيث الجدار. لا يزال لديه متسع من الوقت -للزحف بعيداً، والاحتماء،- ولكن في الأيام الأخيرة لم تعد لديه قوة متبقية على الإطلاق، وحتى إنه توقف عن التقلّب من جانب إلى آخر. وهو الآن ينزاح فقط تحت لحاف من أكياس الخيش، ويريد شيئاً واحداً فقط: أن يختفي تماماً، على الفور. لأنه اليوم لا يستطيع المغادرة.

اقترب الخطم أكثر، وجعل يحدق بعينيه العمياوين اللامباليتَين، وقد أظهرَ من مكان ما في أسفل بطنه خرطوماً يمصّ الدم وكشف عنه -لكنه

لا يستطيع الوصول إلى سينيا: البطن ضخم، عالق في فتحة النافذة. القملة لا تعرف كيف تصرخ أو تهرّ أو تصدر أصواتاً على الإطلاق- ولهذا راحت تتشنَّج بصمت وبغباء، وتتلوى... لكنها لا تجد سبيلاً لتحشر نفسها في النافذة الصغيرة الضيقة، فتحتَّمَ عليها أن تبحث عن فجوة أخرى. وبعد أنْ ضربت القملةُ العملاقة بغضب على الجدران المزخرفة بمخالبها، تاركةً عليها آثار شروخٍ، سحبت جذعها إلى الخلف تحت رأسها، ثم أخرجت رأسها من النافذة...

أو، ربما، لا يزال بإمكان سينيا الرحيل؟ يحتاج فقط إلى أنْ يزحف من على الدكة ويسحب جسده الذي لا يطيعه إلى العربة التالية. فمن المحتمل أنْ يجد هناك أحدهم؟ فلربما، هناك – مَن سيساعده؟

انزاح سينيا عن الحائط والتفَّ ببطء، بوصةً بعد بوصة، كالحزمة: من الأسهل أن تسقط على شكل كومة مما تسقط متناثراً. ثنى ظهره كالخطاف، وسحب بيديه ركبتيه المتيبستين إلى صدره. رأسه ثقيل، ورقبته تتعب على الفور من جره على طول الدكة، لكن هذا ضروري، ضروري!...

خدشَ بأذنه على المضجع الخشبي الخشن، وسحب رأسه الثقيل، ثم تدحرج على حافة الدكة –خفقت ألواح الأرضية المتكسرة أمام عينيه– فخرَّ ساقطاً إلى الأسفل.

حاول أن يزحف! استلقى ووجهه على الأرض، على مرفقيه ويديه وركبتيه المجموعة على شكل كرة. أجبر نفسه على الزحف! جبينه سليم، على ما يبدو، لكنَّ أنفه كُسِرَ – فشعَرَ في منخريه بشيء يطبطب ويبقبق. هل هو دم؟ هيا ازحف، أيها البليد!

فزحف سينيا – مستنداً إلى ألواح الأرضية الوسخة بعظام وجنتيه وكتفيه وأضلاعه وجميع عظامه البارزة، غارزاً شظايا الخشب في هذه العظام، وتاركاً وراءه آثار لطخات الدم.

الدم – أمر سيئ جداً. فالقملة ستأتي إلى الرائحة.

ها هي، جاءت. لقد تمكنت بالفعل من شم مكان الباب، وها هي تدق عليه، وتهز عربة المستوصف. فسقط الباب عن مفصلاته، وحشِرَ في الفتحة

المكشوفة مثل قبضة قوية، أصدر حفيفاً على طول الممر. طقطقت وتكسرت ألواح المذبح وانهالت على الأرض. تطايرت بعيداً الستارة المُمَزَّقة التي كان يتوارى خلفها سرير المساعد الطبي. فقعقعت القملة العملاقة بمخالبها العظمية التي تشبه المناجل، وزحفت خلف سينيا.

هو ذا، الآن عند الباب الآخر. فدفن رأسه فيه، وراح يخدش شقَّ الباب، محاولاً فتحه. لكنه مقفل. ينبغي سحب المقبض كي يُفتَح. المقبض في الأعلى، في مكان ما تحت السقف.

دفع سينيا الأرضية عنه -دفعها بقوة، حتى شعر بحرقة في قفاه. ثم تشبث بشيء- أَهُوَ السرير؟ خلف عضادة الباب؟ - اندفع، اندفع أكثر، دفع بظهره ورقبته نحو الأعلى. العربة تتأرجح كما لو كانت في حالة الحركة. أَم أنَّ هذا سينيا يهتزّ؟ أجل، هو يهتز، إنه يقف، إنه ينهض! لأول مرة يقف على قدميه منذ عدة شهور.

وقعَ على المقبض النحاسي بكل ثقله وسحبه بعيداً عنه -انفتح الباب. فسقط سينيا من عربة المستوصف على منصة العربة، لكنه تمسك بساقيه المرتعشتين وتمكن من إغلاق الباب خلفه. طَقْ، طَقْ، طَقْ!- خطم بُنّي يلطّخ بالزجاج على الجانب الآخر. طَقْ، طَقْ، طَقْ! - يدقّ بحماس، ولا يعرف كيف يفتحه.

لا ينبغي الوقوف، امشِ! أنا لا أمشي. هيّا، امشِ! طَقْ، طَقْ، طَقْ! فمشى سينيا -على رجليه اليابستين كالخشب، بالكاد يرفع قدميه عن الأرض ويتأرجح بجسده بشدة على الجانبين- لكنه يمشي. يمشي! يمكنه التمسك بالجدران ومساعدة نفسه. يمكنه رفع ساقيه الكسولتين بيديه - ويساعد نفسه مرة أخرى. هذا ممكن، إنه ممكن! إنه يستطيع المشي.

ترنَّحَ على طول الممر المفتوح فوق وَصلات الرَّبط. وتسلل إلى العربة التالية وسحب نفسه بتثاقل بين الصبايا النائمات حتى طرف العربة (وهنا أيضاً، لا أحد من الكبار!). أغلق جميع الأبواب خلفه بإحكام: القملة لا تعرف كيفية استخدام المقابض وستطرق على كل باب مدة طويلة، وبهذا تضَيّع الوقت. وسيكون لدى سينيا الوقت الكافي للاختباء. وقد توقف الدم عن التنقيط من أنفه. وصار يحرك ركبتيه ببساطة...

ابتعد سينيا عن الجميع مسافة عربة كاملة، ثم سمح لنفسه بالاستراحة – توقف في الدهليز واتّكأ على الحائط لبضع لحظات، ليستريح. نظر إلى قدميه اللتَين بالكاد أمكنه رؤيتهما في عتمة المساء الزرقاء: لقد بقيتا عاطلتين لمدة ستة أشهر، والآن تتحركان. هل حقاً يستطيع المغادرة؟ هل حقاً يمكنه أن يختبئ؟

الهواء الهادئ والبارد نفذ إلى فمه برشفات مُنعِشَة. لم يعد يسمع أيَّ أصوات جانبية غريبة – كما لو أنَّ القملة العملاقة لا تركض في القطار، وهي تطارد فريستها عبر العربات كلها.

بعد أن قطع سينيا أنفاسه، نظر من خلال الباب المزجج، بصعوبة من خلال عين واحدة. فرأى القملة العملاقة أنها بالفعل في عربة البنات. تهزّ بشواربها من الاضطراب، وتحشر نفسها بين الدكاك التي نامت عليها الصبايا -تقرّب خطمها من لوح سرير إلى آخر. تشمّ- لتختار بأيّ منهن تبدأ.

أحقاً نسيت سينيا؟ أحقاً أُنقِذَ؟

إنه لأمر غريب، غريب إلى أقصى حد: لم تلاحظ قط أطفالاً آخرين، برغم وجود المئات منهم في طريقها. كم مرة زحفت بلا مبالاة من جانبهم في المستشفيات ودور رعاية الأطفال، مسرعة نحو هدفها الوحيد – نحو سينيا. وفجأة لاحظته.

أُنقِذْتَ، أُنقِذْتَ! إذاً، اركض! طالما هي قد نسيَت أمركَ -للحظة أو إلى الأبد- اركض! طالما رِجلاك تمشيان وجسمك يطيع – اركض!

وقد توقفت القملة العملاقة، واختارت. تشبَّثت بمخالبها على الطبقة الأولى من الأَسِرَّة، وتسلَّلَت خِلسَة، وصعَدَت، وتدلَّت فوق صبية نائمة، وخيَّمت عليها مثل سحابة ضخمة متجعدة. سحبت ذراعها الملتوية من أعماق جسدها، نشرتها، وقطَّرَت اللعاب على شعرها الأشقر المتناثر فوق الأَسِرّة المكونة من طابقين، – الآن سوف تصرخ في وجهها الرقيق.

لا تنظري! ابتعدي! من العربة، من القطار، من القضبان – عودي من حيث أتيتِ! الآن، في هذه اللحظة بالذات!

جرَّ سينيا المقبض المرن على نفسه وفتح الباب المؤدي إلى عربة البنات.

استدارت القملة نحو الصوت، لكن نتوءَي عينيها الداكنتَين أعميان،

ولذلك فهي لا ترى سينيا، ولا تريد أن تراه: إنها قريبة من فريسة أخرى، وهي على وشك اقتناصها. والنتوءات القليلة على جسدها الذي يشبه البطاطا وقفت منتصبة، كالأجنحة الصغيرة الشعثاء- وجعلت تتطلَّع بلهفة وأمل.

ابتعد، أيها الغبي! انصرف، أيها الأحمق! لا يزال بإمكانك المغادرة. تركتَها دائماً، واليوم سيكون لديك الوقت لتتركها!

قال سينيا، اتركي الطفلة، أيتها، الشنيعة. وانهمرت الدموع على وجهه. ولسبب ما، كانت معدته ترتجف وتختلج، وشعر بضربات على ضلوعه مثل ضربات الخشخيشة، وبرجفة في صدره وفي ساقيه. اتركي الطفلة.

هزَّت القملة العملاقة رأسها، غير راغِبَة في الانصراف.

جمعَ سينيا في قبضته الدم الناجم عن الجرح من منخريه المتورمين ومدّه بكفّه المفتوح: ألا تريدين أن تذوقي هذا؟

أحمق! أحمق!

راحت ترتجف كلها من رائحة الدم الطازج. تردَّدَت للحظة، وحرَّكَت خطمها إلى اليمين وإلى اليسار، ثم رفعت مخالبها المنجلية عن لوح السرير الأمامي الخشبي، وطقطقت على الأرضية، واندفعت مسرعةً إلى سينيا. هرشت بطنها السمين بألواح الأرضية وكادت تصدم في طريقها الدكاك.

ضرب سينيا الباب، واندفع إلى الخارج. لا يمكنه أنْ يركض داخل القطار، وأنْ يُري الوحش للأطفال الآخرين. إذاً، سوف يركض على السطح؟

تشبَّثَ بأصابعه ببعض النتوءات والمسامير البارزة، وشدّها إليه. تلوى على المنحدر الحديدي، ثم استند إلى مرفقيه، وصعد إلى الأعلى. تدلّت رِجلاه خلفه مثل جذعَي شجرة: لقد تعلمتا المشي، لكنهما لم تتعلما بعد أنْ تتسلّقا وتزحَفا. ولكنه في نهاية المطاف صعد على السطح.

لم يستطع سينيا النهوض من دون مسند، ولكنه راح يزحف، ويترنَّح بعموده الفقري جارّاً خلفه ساقيه اليابستَين كالخشبة.

ازحف الآن، أيها الأحمق! تلوَّ كالثعبان، ارقص مثل الدودة – انصرِف! لن تذهب بعيداً، ستصِل طرف العربة قريباً. أيها الأحمق! أيها الأحمق!

قعقعت القملة العملاقة بمخالبها خلفه. الحركة على سطح أملس أمر صعب عليها: فأنشبت مخالبها التي تشبه الخطافات في الحديد بالتناوب -من اليسار إلى اليمين، ومن اليمين إلى اليسار- وسحبت نفسها بصعوبة، كما لو كانت تجدف على السطح. خفق بطنها الجلدي على الأنابيب البارزة - فتتدحرج الصئبان الكبيرة التي يمكن رؤيتها من الخارج.

ولكن لم يعد أمام سينيا سوى الفراغ: فقد انتهت العربة. لا يمكنه القفز أو الاجتياز إلى العربة التالية. إنها النهاية.

وانتهى كل شيء في سينيا -الارتجاف والدموع. كل ما بقي لديه- صمتُ الليلِ ونبضُ قلبِه في هذا الصمت: إنها النهاية! إنها النهاية! فاستدار متدحرجاً على ظهره، واستند بكعبيه إلى الفتحة البارزة وراح ينتظر متى يتدلى فوقه الخطم العريض ذو الشارب.

إيه، أين أنتِ؟

فظهرت، هي، على خلفية السماء الرمادية وهبطت على سينيا - مثل السحابة. ولكن لمّا كان سينيا لا يتوقع أن تغرز القملة العملاقة مخالبها فيه لفَّ يديه حول رأسه الخشن، ودفع بكل قوته ساقيه اليابستين كالخشبة. كلتاهما انزلقتا من على السطح وسقطتا إلى الأسفل. كان سينيا يعرف أنه من خلال اصطدامه بالأرض، سيتمزق الجسد العملاق إلى أشلاء. وها هو يطير ويسحبه بإحكام إليه، ويفكر مع نفسه: أنا لست خائفاً منكِ.

***

دُفِنَ سينيا ليلاً، في غابة صنوبر في الفناء الخلفي من المحطة، حتى لا يراها الأطفال الآخرون.

حمل دييف جثمان الصبي، وحمل المساعد الطبي المجرفة. كان سينيا أخف بكثير من العِجل، إلى جانب ذلك، أنْ تحمل جسداً خامداً أسهل بكثير من أنْ تحمل جسداً حياً، فلم يتعب دييف من الحمل على الإطلاق. ولهذا حفر القبر بنفسه.

وعندما صارت الحفرة أعمق من البانيو الموضوع في عربة الموظفين، قال بوغ:

- يكفي هذا.

لكن دييف استمر يحفر ويحفر، كأنهم يدفنون عملاقاً ذا بطن ضخم، وليس طفلاً نحيفاً. لم يشعر بالتعب مهما حاول جاهداً. هذا مُؤسِف.

قال بوغ وهو يخلع قميص الصبي:

- لم يمكن ثمة سبيل إلى إنقاذه، يا حفيدي.

يعترض دييف قائلاً:

- كلا. اترك الملابس. دعها تبقى عليه.

لم يستطع ترك الطفل عارياً - ليتجمد في الأرض. لقد ترك ذات مرة زملاءه الجنود، لكنه لم يستطع أنْ يترك سينيا هكذا.

جثا المساعد الطبي على ركبتيه عند سينيا المُمَدَّد على الأرض، وبدا له أنه يقف أمام قميص أبيض متروك وحده. إلى هذا الحد كان جسد الصبي مفلطحاً. ثم نظر إليه وقال:

- لدينا خمسمائة طفل في القطار. إنهم بحاجة إلى القميص أكثر من حاجته إليه.

لم يستمع إليه دييف، وألقى المجرفة الملوثة بالطين وخرج من الحفرة ورفع سينيا بين ذراعيه. ونزل مرة أخرى ووضعه في القاع الطيني - اختفى تقريباً الجسد الصغير الذي يرتدي الملابس البيضاء في الظلمة البنيّة. وأخذ المجرفة من جديد وبدأ يهيل التراب في القبر.

ساعده بوغ، من دون أن ينهض من جلسته على ركبتيه - وجرفَ أكوام التراب بكفيه.

طمرا الحفرة، وصفقا كتلة التراب بأيديهما - تركا خلفهما المكان مستوياً: لم يكن كثيباً، ولا حتى حدبة صغيرة بارزة على القبر، هكذا كان الصبي صغيراً. قريباً لن يُعثَر على القبر على الإطلاق: الثلج سيغطيه في الشتاء والعشب في الربيع. سوف يتوارى سينيا عن الجميع، سوف يختبئ. وهذا حسنٌ، ظل دييف يردد مع نفسه. هذا حسنٌ.

مَن أردت أن تخدع بكلمة «حسَن»؟ هل تخدع نفسك؟

أمره بوغ بالقرب من القطار:

– اذهب إلى النوم. إننا نتسكع لليلة الثانية على التوالي.

ليست الليلة الثانية، ولا الثالثة – لم يعد دييف قادراً على عدِّ تلك الليالي. لكنه لم يذهب إلى النوم. صعد إلى سطح العربة وجلس مدة طويلة، متكئاً بظهره على أنبوب التدفئة.

كان سينيا أول من دفنه دييف بعد الحرب. وأول من دفنه دييف بملابسه التي كان يرتديها. وأول من غادر القطار.

وماذا لو حدث أنْ يدفن الثاني والثالث؟ ماذا لو تبين أنَّ المساعد الطبي على حق –وسيصبحان هما حفّاري قبور للأطفال؟ ماذا لو تبين أنَّ بيلايا كانت على حق– وسوف يُوصِلون عربة المستوصف فارغةً إلى سمرقند؟

لكنه وجد الطعام والأدوية. وحتى إنه حصل على اللحم، الذي ليس للأطفال في مركز الإيواء في المدينة إلا أن يحلموا به. لقد فعل ما لم يستطع الآخرون فعله، وجرح نفسه في الوحل، ولكن كل ذلك لم ينفع.

وبعد ذلك سيفعل كل شيء: سيحصل على المؤن والفحم والصابون. ولكن ماذا لو لم ينفع ما يحصل عليه؟ ماذا لو لم تجْدِ نفعاً اللحوم الطازجة وأدوية الصيدلة؟ ماذا لو عجز دييف أمام ما حدث للأطفال في وقت سابق، في السنوات الأخيرة؟

لا يمكن للنَّفس الأكثر إصراراً وعناداً أن تحصل على ماضٍ جديد لأطفال القطار. لا يمكن لدييف أنْ يعيد الوالدين المفقودين. لا يمكنه أنْ يزرع ذاكرة جديدة أو صحة جديدة. وكل ما يستطيع دييف فعله الآن – أنْ يجني ما زرعه الجوع والدمار والحرب.

نعم، يستطيع أنْ يصطحب الأطفال ويوصِلهم إلى الحرارة والشمس. نعم، يستطيع أنْ يطعمهم، ويعالجهم ويحميهم. سوف يفعل ما بوسعه كي ينقذهم – لكن في الوقت نفسه يجب الإقرار بأنَّ الكلمة الفصل دائماً ما تقع على الماضي. وفي أيّ لحظة سيأخذ هذا الماضي أيَّ طفل.

ماذا يمكن أن يقدم في المقابل؟ بأيّ شيء يمكن أنْ يفتدي؟ بليالٍ من دون نوم؟ بالصلبان الفضية في وشاح مجعد؟

ولكن الآن ليس لديه أحد في العالم كله أغلى من هؤلاء الأطفال. حتى وإن كانت مجرد مشاعر، لكنها مشاعر حقيقية.

لم يكن لدى دييف في أيّ وقت مضى إنسان قريب، ولا حتى كلب أو حصان. وفجأة -خمسمائة. خمسمائة طفل سقطوا عليه بين عشية وضحاها- وإن لم يكونوا من أقربائه فإنهم أطفال على كل حال! وإنْ كانوا مشلولين سقماً، ورائحتهم نتنة، وأسنانهم منخورة ومتعفنة - فإنهم أطفال! إنهم يعتمدون عليه، وبقوة إرادته سيبقون سالمين مُعافين. وفي غضون أسبوع، أصبحوا بالنسبة إليه ليسوا بمنزلة أبنائه وبناته الذين من صُلبِه، لأنه كان لا يزال شاباً، بل بمنزلة إخوته وأخواته الأصغر سناً. فما عسانا أنْ نسمي هذا، إن لم نُسمِّه قرابة؟ وإذا ما كان مستعداً من أجلهم لفعل شيء. كما يفعله لنفسه. وأكثر مما يفعل لنفسه.

ستكون هذه القرابة قصيرة الأمد، حتى سمرقند فحسب. وبمجرد وصولهم إلى هناك، سينسى الأطفال في اليوم الثاني اسمه، وسرعان ما ستفقد ذاكرته أسماءهم. ولكن الآن، أثناء ما ينقلهم في القطار، هو بالنسبة لهم -الأكبر والأكثر شأناً، وهم بالنسبة إليه- الأقرب على وجه الأرض.

هذه ليست رحمة عمياء كما تتهمه بها بيلايا. وليس تكفيراً عن الذنب الذي اقترفه بحق أولئك الذين قُتِلوا في مركز استلام المحاصيل الزراعية، كما يعتقد بوغ. هذه أخوَّة إنسانية أقوى من الشفقة ومن الشعور بالذنب...

سيموت من الأطفال عدد آخر. أدرك دييف ذلك، الآن وهنا، وهو يجثم على حديد الكوة البارد ويحدق في الليل الصامت. سوف يقاتل من أجلهم، ولكنهم مع ذلك سيموتون. واحد، اثنان أو خمسة - كم منهم سيغادر القطار، كما غادره سينيا اليوم؟...

***

مكث فوق القطار حتى الفجر. لم تَرَ عيناه الكرى طوال الليل: كانت الأفكار تضطرب في رأسه اضطراباً شديداً ومتواصلاً. وعندما أُحضِرَت القاطرة، التي باتت في مرأب القاطرات، انتقل إلى مقصورة السائق وأخذ المجرفة من المساعد: أنا سأجرف الفحم بنفسي. قرر أن يُتعب يديه وظهره بالعمل - ليحرّك دمه، ويكبح عقله.

لقد جرف بمهارة: الدفعات غير الكبيرة في وسط الفرن، ولكن الرشقات الصغيرة وفي الزوايا البعيدة - لم يكدّس الوقود، بل نثره في حجرة الفرن كلها. لقد عمل على نحو سريع وفعّال، مثل وقاد ذي خبرة. مثل شيطان يوقِد تحت قِدر في الجحيم.

طلب منه السائق:

- تمهل، أيها الرفيق رئيس القطار.

ملأ اللهب مساحة الفرن بأكملها، وانتصب على طولها وعرضها، حتى كاد يحطّم الباب، وراح يطن ويصفر. وتناثرت شرارات من النيران على الصفائح المعدنية تحت قدَمَي دييف. لكن دييف لم يستطع التوقف، كانت يداه تغرزان شفرة المجرفة آلياً في كومة الفحم المتناثرة وترشقان الفحم في الفرن. تغرزان وترشقان كأنهما مستمرتان في حفر قبر سينيا.

- تَمَهَّل، إنكَ لا تهيل الفحم كي تُسَخِّنَ حمّاماً! وها نحن نطير، بالكاد نلامس القضبان.

كانت أشجار التنوب الخضراء تومِض على جانبي القاطرة كأنها لطخات على سواد الحقول. وواصلت يداه الغرز والرشق. تغرزان وترشقان. تغرزان وترشقان...

- هل أنت مجنون، ماذا جرى لك!

وعلى الفور، كما لو أنَّ شيئاً ما، بارداً ورطباً، تصدّع في رأسه: فقد ألقى المساعد نصف دلو من الماء على دييف. فوقف دييف متجمداً عند حجرة الاحتراق، وكان المساعد قد سحب مقبض المجرفة ببراعة من أصابع رئيس القطار، وأغلق بركلة من حذائه باب حجرة الاحتراق: اتركها مشتعلة من تلقاء نفسها في الوقت الحالي.

ضاق نفَسُه، فتساءَل دييف مع نفْسِه، بهذه السرعة بدأتَ تلهث؟ ثم مشى بصعوبة وتثاقلٍ إلى النافذة المفتوحة وأخرج من خلالها رأسه المبلل. وقبل أنْ يجف شعره، زفر الهواء بصعوبة من صدره ضد الريح التي راحت تضرب في حلقه، وصاح:

- مائة رجل يسيرون على الطريق!

بدأت القاطرة تصرف وتصر بصوت عالٍ ونفثت البخار وقذفت الشَّرَر، ثمّ بطّأت من سيرها مدة طويلة وتوقفت أخيراً، قبل أن تصل إلى كومة من الخِرَق تكاد تلتفّ بين القضبان. شخص ما كان يرقد هناك فعلاً - هل هذه فزاعة أَم إنسان، أحيّ هو أَم ميت؟

دييف أول مَن قفز إلى الأرض وركض نحو هذه اللُّقطة ليستجلي أمرها.

إنه صبي يبلغ من العمر ما يقرب من سبعٍ أو عشر سنوات - نحيف وأشعث مثل قطة سائبة؛ رِجلاه الحافيتان مُمَدَّدتان على عوارض السكة، وذراعاه ممتدّتان على طول جسمه، ووجهه الكبير الأنف يحدق إلى السماء. تطفو الغيوم في عينيه الكبيرتَين غير المتحركتين. هل هو حي؟

انحنى دييف على الصبي، وسأله:

- ماذا تفعل هنا، يا أخي؟

رمش الصبي وأدار عينيه إلى دييف. إنه حيّ!

كان وجه اللقيط مُتَجهِّماً، ومحيط محجرَي عينيه متورماً، وتجاعيد حول فمه كتجاعيد وجه رجل عجوز. وكانت نظرته بعيدة بشكل غريب: وما إنْ رأى الصبي الرجل أمامه حتى راح ينظر باهتمام ومن دون انقطاع - لقد التهم دييف بعينيه، من دون أنْ ينتبه إلى السائق الذي ركض مع مساعد.

تحسَّر الرجلان، وقال السائق:

- آخ منك، أيها المؤذي! كيف يمكننا دفع القاطرة الآن إلى التلة؟! هلّا، رقدتَ على المنحدر، أيها القبيح!

لم يولِ الصبي أيَّ اهتمام لما قيل، وكأنَّ الأصوات العالية لهذين الرجلين اللذين تفوح منهما رائحة الدخان لم تكن لتوبيخه.

أمره دييف:

- هيّا، تحرَّك من هنا.

بقي الطفل مستلقياً بلا حراك، واستمر يحدّق إلى دييف ردّاً عليه، ولكنّ الرياح حركت خصلات شعره الرمادي على جبهته والخِرَق على جسمه النحيف العظمي.

- ربما، هو أصم؟

انحنى سائق القطار عن قرب وصفق بأصابعه، ولكن من دون جدوى.

قال له دييف:

- هل تسمعني؟ هل يمكنك أنْ تحرّك ذراعيك ورجليك؟

ثم جلس دييف القرفصاء بجانبه؛ نظر اللقيط كأنه على وشك الرد، لكنه لم يُجب، وحتى لم يحرّك شفتيه.

- كيف يمكننا أنْ نزيحك عن القضبان، وأنت لا تتحرك كأنك خشبة.

قال المساعد:

- الآن سأجرفه بالمجرفة.

وتهيّأ لجلب الأداة. لكنَّ دييف أوقَفَه، وقال:

- لا حاجة. أنا سأرفعه بنفسي.

التقطَ الصبي بكفيه من تحت رقبته ومن تحت ركبتيه ليحوله ويضعه على جانب الطريق. لكنه لم يضعه على الأرض - أبقاه على ذراعيه الممدودتين قليلاً، كما لو أنه نسي السبب الذي دعاه إلى أنْ يرفعه. كما لو كان يحمل سينيا التشوفاشي مرة أخرى.

قال السائق بقلق:

- ماذا لو كان معدياً؟ انظر إليه فحسب! وحتى إنْ لم يكن معدياً، يكفي القمل الذي يتساقط منه.

وبالفعل كان شعر الصبي ليس مجرد أشعث فحسب، بل كأنه دغل متشابك. والبثور منتشرة على وجهه الأسمر الداكن.

مشى دييف من عوارض السكة إلى الأرض، وقال:

- لدينا في القطار من دونه جيش كامل من القمل.

طين رمادي مائل للزُّرقة تَمطَّقَ تحت حذاء دييف - لن يرغب المرء حتى في البصق في مثل هذا الوحل، ناهيك عن وضع طفل عليه. فقرر أن يحمله بضع أبواع أبعد، إلى حيث يكون المكان أكثر جفافاً.

راحَ الصبي يتلوّى كأنه يطلب شيئاً أو يسأل عن شيء.

لم يتمالك دييف نفسه، فسأل الطفلَ:

- لماذا أنت هنا؟ ومن أين أنت؟ هل لديك أب أو أم؟

أنّى له أب أو أم! يكفي النظر إلى أسماله الممزَّقة. وإلى قدميه، قدَمَي المتشرد، المملوءتَين بالدمامل. لقد نسي هذا الصبي متى كانت آخر ليلة أمضاها تحت سقف. ونسي متى كانت آخر مرة أكل فيها.

سمع دييف صوت بيلايا إلى جانبه:

- إلى أين تأخذه؟

نظر دييف مِن حوله، فأدرك أنه يقف عند القطار، قرب سلَّم العربة، وهو يحمل ثقلاً بين ذراعيه. وسائق القطار في الحجرة يُذكي النار، ويقعقع بعتلات التثبيت. نفثت القاطرة بخارها، وستتحرك الآن.

دييف لم يحمل الصبي إلى أي مكان! كان يبحث فحسب عن مكان يابس يمكن له أن يُجلس الإنسان فيه. لا أنْ يرميه هنا في البِركة. ولا هناك، في مستنقع الطين. ولا هنا...

صفَّرَت بيلايا وصاحت من على منصة الصعود:

- يا دييف، لا يجوز!

استمر يسير على طول القطار «الضفيرة»، يترنَّح في الطين الموحِل بحثاً عن مكان.

ثم صاحت مرة ثانية من بعيد:

- اترك الصبي واركب القطار!

لم يسمع دييف صوتها.

بدأت وصْلات الرَّبط تصلصل وتوترت. وقعقعت العجلات على قضبان السكة، وزحف القطار، وصرَّ صريراً شديداً من خلال المعدن والخشب.

ولكن دييف لم يجد قط مكاناً جافاً يمكن له أنْ يضع فيه الطفل من دون أن يشعر بتقريع الضمير. وهكذا صعد على درجات صعود الركاب التي مرت من جانبه واللقيط بين ذراعيه.

أسرعت بيلايا تركض من باب العربة - شعثاء وتلهث، إما من الركض عبر القطار، أو من السخط.

- هيّا، أنزِل الطفل المشرد من القطار! اقفز إلى جانب الطريق فوراً وضعْه على الأرض!

طفت الأرض إلى الخلف، ملطخة بالبِرك والأوراق نصف المتعفنة. وطافت بعيداً عنهم أشجار البتولا البيضاء وأشجار الزيزفون السوداء - ببطء، ثم أسرع.

- لقد كان اتفاق بيننا، يا دييف! أنت تقود القطار، وأنا أقود الأطفال! وأنا أغلقتُ باب الركوب إلى سمرقند!

فقال دييف:

- هذا بدلاً من سينيا.

قال هذه العبارة أولاً، وعندها فقط فهم معنى ما قيل.

- لا يوجد «بدلاً من»!

- ولكن عندي.

وقفت بيلايا عند مدخل الركاب وسدَّت الباب بجسدها الطويل العريض الكتفين. فنظر دييف إلى المفوضة من الأسفل إلى الأعلى وسار إلى الأمام، كما لو أنه لم يرَ العقبة. دفن نفسه فيها من خلال الطفل وتلمَّسَ مقبض الباب. بيلايا لم تتراجع، وهو أيضاً لم يتراجع. لذا تدافعا - بالمرفقين والصدرين والركبتين، وخاطرا بسحق الصبي الصامت، ومع هذا حاولا ألّا يراهما أحد من الآخرين.

تمكن دييف من إدخال جزمته في شقّ الباب، ثم أدخل ركبته، ثم حشر نفسه في العربة.

استسلمت بيلايا، وقالت وهي تلهث:

- حاول أنْ تفهم! الإنسان ببساطة يموت، بشكل نهائي، إلى الأبد، ولن يحل محله أحد!

لم يسمعها دييف، وشق طريقه على طول الممرات إلى عربة الموظفين. فلحقت به بيلايا في المقصورة، وقالت له:

- أنت مثل المرأة، يا دييف. بل أسوأ من النساء! ما إنْ ترى طفلاً بلا

مُعيل حتى تأخذه على الفور بين ذراعيك! (لم تكن بيلايا تريد الآخرين أن يسمعوا شجارهما، فأغلقت الباب بإحكام أكثر، لكنها رفعت صوتها إلى درجة لم يعد معه الباب ينفع في منعه). -أنت تلتقط الأطفال مثلما يلتقط كلب الصيد الطيور التي يهدّف عليها الصيّادون! لا يمكنك أن تخطو خطوة من دون أن تلتقط أحدهم! لا إرادة ولا إدراك- مجرَّد شفقة عادية مستمرة!

وضع دييف الطفل على أريكته: الآن عثر على مكان جاف. ما إنْ شعر الصبي بمكان يابس تحته، حتى سقط على الأرض رأساً على عقب وانزوى تحت رف الأريكة.

جلس دييف على الأريكة وانحنى إلى الخلف ونظر إلى بيلايا. لأول مرة رآها غاضبة، لا ساخرةً أو متهِمةً إياه، بل مجروحة من تصرفه حتى النخاع. وبدت الآن جميلة جمالاً مُذهِلاً. والأكثر إثارة للدهشة أنَّ المفوضة غاضبة، ودييف هادئ تماماً.

فقالت واندفعت خارجةً:

- سنحل المشكلة حلاً جماعياً.

***

ما إن رأى بوغ الصبي حتى قال قاطعاً:

- كلا!

أخرج دييف الولدَ بطريقة ما من تحت الأريكة وأظهره للمساعد الطبي، لكن الفحص الشامل لم يُجرَ - فقد راح الطفل يتخبَّط بين يدي دييف مثل حيوان وحشي صغير، على نحو يائس ومن دون إصدار صوت. لم يجِب على الأسئلة، وحتى لم ينظر إلى الكبار نهائياً، بل طفِقَ يرفس برجليه تحت الأريكة، بعد أنْ اندفع إليها هارباً في نهاية المطاف.

- إنه متشرد حقيقي. لن آخذ مثل هذا من دون الحجر الصحي. سوف يصيب مَن في القطار كلهم بالتيفوس. أو بالحمى القرمزية. أو الدفتيريا. أو حتى أسوأ من ذلك.

وقفت بيلايا في المدخل صامتة، لكن مظهرها كله يؤكِّد أنها تتفق مع رأي المساعد الطبي. لم تشارك في الحوار، وأظهرت رباطة جأش.

قال دييف:

- سوف يوضَع في الحجر الصحي. سيبقى هنا، معي.

- وهكذا، أنت نفسك ستكون أول مَن يمرض!

- وأنتَ، ما عملك؟ سوف تعالجني.

لم تتمكن المفوّضة من كبح جماح نفسها، فرفعت صوتها مُجمِلةً الموقف:

- نحنُ بشكل جماعي ضد وجود الوافد الجديد!

جلس دييف على الأريكة ووضع ساقاً على ساق (لم تكن لديه مثل هذه العادة مِن قبْل، لكنه لاحظها عند بيلايا وأعجبته) وقال:

- الشكل الجماعي سيكون بعد الوصول إلى سمرقند. وحتى يحين ذلك الوقت، أنا وحدي بصفتي رئيس القطار - قررت ترك هذا الطفل.

- عندما يصاب خمسمائة طفل بالعدوى بسبب واحد، ولا يصلون إلى سمرقند، هل تتحمل أنت وحدك المسؤولية؟

التفت دييف إلى النافذة:

- سأتحملها.

إذا ما أبلغت المفوضة المركزَ بالحادثة، فلن يسلَم دييف: شيءٌ أن تساعد مُرضعَة بالغة وتسمح لها بالصعود في القطار لعدة محطات، وشيء آخر تماماً أنْ تُركِب صعلوكاً مشرداً، ماضيه المليء بالقذارة يُقرأ على وجهه، مثلما تُقرأ اللافتة في المظاهرة. يبقى لدى دييف أمل واحد، هو ألا تريد بيلايا أن تفقد دييف المعيل، وبالتالي تغمض عينيها عن اللقيط.

خفضت المفوضة صوتها وتحولت إلى نبرة المدعي العام:

- إنه كلام فارغ. هذا ليس تحملاً للمسؤولية، بل على العكس تماماً، عدم مسؤولية صارخ.

نظر دييف إلى الأشجار تمرّ من جانب النافذة كأنها تطير، وتساءل مع نفسه عما إذا كان يمكنهم إبعاده عن المسار. أجل، يمكنهم: في ضواحي

أرزاماس، وفي سامارا، وحتى في أورينبورغ يمكنهم ذلك. ولكن عندما يخرجون إلى سهوب تركستان - آنذاك، ربما، لن تكون الفرصة مواتية لهم: ستصبح المسافات بين المحطات طويلة، وستصبح مكاتب التلغراف قليلة. ولكن إلى أنْ يصلوا إلى تُرْكِستان لا تزال المسافة بعيدة جداً.

جلس بوغ إلى جانب دييف، وسأله بصوت منخفض:

- ما حاجتك إليه، يا حفيدي؟ يبدو أنّ الصبي أصم وأبكم. وبشكل عام، متوحش نوعاً ما.

ردَّت بيلايا:

- إنه ليس متوحشاً. هو ذو نقص عقلي وأخلاقي. بعبارة أخرى، أبله.

***

وبعدما بقي دييف واللقيط وحدهما في المقصورة، سأله دييف: - هل أنت حقاً أبله؟ لا بأس، تعال إلى هنا!

لم يرُد الصبي، واضطر دييف إلى البحث في ظلام الأريكة وسحب الصبي من هناك من ساقه. في غياب الآخرين، لم يعد الصبي يعربد، وسمح بطاعة لنفسه أن يزحف إلى منتصف المقصورة وأنْ يُفحَص من جميع الجوانب.

كان كبير الجبهة وذا وجه عريض، مثل طفل من التتار، وكان أسمرَ مثل سمار التتار. ودميم الخلقة جداً: منخاراه وشفتاه عريضة، ومقلوبة للخارج؛ فمه مقوَّس ويثير الشفقة؛ تراكمت الأوساخ في تجاعيد فمه وجبينه وتحت العينين، ولهذا بدا وجهه مثل وجه امرأة عجوز. الخرقة ملفوفة ومطوية حول جسمه النحيف ومربوطة بحبال بحيث لا يمكن للمرء في بعض الأماكن أنْ يحدد أين تنتهي الملابس وأين تظهر من خلال الشقّ ركبته أو كتفه الداكنة من الغبار.

- ما اسمك؟ هيّا، تكلم! من أين أتيتَ؟ لماذا كنتَ مستلقياً على قضبان السكة؟ مَن كنتَ تنتظر؟ هيّا، تكلم! تكلم!

راح اللقيط يتخبّط على دييف من دون عناد أو غطرسة، بل بحزن وجدية وتفهم - وبقي صامتاً.

- تعال، هيّا، افتح فمك!

من دون أنْ ينتظر الرد، أمسك دييف الطفل من ذقنه وفتح فكه السفلي قليلاً بأصابعه: لمع شيء وردي ورطب بين الأسنان - إذاً، اللسان سليم.

سمح الصبي لدييف -لم يعضه، برغم أنه كان بإمكانه فعل ذلك. واستمر في التحديق إلى دييف- كما لو كان يلتصق به من خلال عينيه.

أخرج دييف، على كل حال، قلمَ رصاص ولوَّح به أمام الضيف الجالس على الأرض: ماذا لو تبين أنه يعرف القراءة والكتابة ويريد أن يكتب شيئاً ما؟ لكن الصبي لم ينظر إلى القلم الرصاص، ربما لم يدرك ماهية هذا الشيء.

استسلم دييف:

- لا بأس، اجلس هنا الآن. سوف نُحَمِّمك في محطة التزود بالماء والوقود.

ولكن تبيَّن أنَّ الصبي لم يكن يريد الجلوس فقط: بمجرد أن خرج دييف من المقصورة، تبعه على الفور. كان يمشي على قدميه، لكن عاداته كانت أقرب إلى عادات الحيوانات: لم يمشِ في منتصف الممر، بل يضغط نفسه على الجدران، ويقفز قليلاً على ركبتيه نصف المنحنيتين بعد أنْ يسحب رأسه إلى كتفيه، كما لو كان يتوقع هجوماً في كل لحظة؛ لم يتحرك حركة منتظمة، بل على شكل دفعات -من باب إلى آخر، من نافذة مفتوحة إلى أخرى- ويتجمد، ويختبئ مدة قصيرة بعد كل شوط.

التفت دييف إلى الصبي الذي تبعه:

- هيّا، عُد إلى مكانك!

حدق الصبي فيه، وتشبث باللافتة المغسولة حديثاً والمسمرة على الحائط («الموت للبرجوازية وأتباعها!») - ولم يرجع.

- تعال! - فتح دييف باب المقصورة وأشار للقيط بإصبعه إلى الاتجاه. ولكن من دون فائدة.

أخذ دييف الطفل العنيد من كتفيه، ودفعه إلى الداخل، وصفق الباب - فارتجف الباب على الفور من الهزات والضربات: اندفع الصبي إلى الخارج.

دفع دييف الباب بكتفه وانتظر إلى أن يهدأ الصبي. انتظر دقيقة ودقيقتين -ولكن الصبي استمر في الضرب. فجاء أطفال آخرون على صوت الضوضاء، وجاءت فاطمة لتنظر- فقد وجدوا تسلية لأنفسهم! ولهذا لم يعد بإمكان دييف الاستسلام، وليس أمامه سوى أنْ يرغم الطفل المعانِد على أنْ يهدأ ويتخلى عن عناده.

بدا لدييف أنه أفلح في ذلك، فقد هدأت الضربات أخيراً، ولم يعد الباب يهتز... لكن بعد لحظة انفتح الباب المجاور - فبعد أنْ وجد الباب المُنزلِق، خرج الطفل إلى الممر عبر مقصورة المفوضة. وشقَّ طريقه إلى القرب من دييف، كما لو لم يلاحظ هؤلاء المتجمعين، وجلس على الأرض بجوار جزمته.

أشارت بيلايا إلى الطفل وقالت لدييف:

- هل هذا ما تسميه حَجْراً صحياً؟

من دون أنْ يرد عليها دييف، أمسك الطفل من تلابيبه وسحبه إلى قن الدجاج: كانت على الأبواب براغٍ، وهي قوية جداً.

أجملت المفوَّضة:

- بلاهة كاملة ومُطلَقة.

ردَّت فاطمة:

- أو نوع من التعلّق؟

لم تعترض على بيلايا، بل فكرت بصوت عالٍ.

***

لم ينفع قن الدجاج: ظلَّ الصبي يرفس محبوساً كالمجنون - ففزعت الدجاجات البيّاضات وقاقت بأعلى أصواتها، وفرَّت من الخوف في الفضاء الضيق، حتى تطاير ريشها. فاضطرَّ دييف إلى إطلاق سراح السجين. لم تكن ثمة أماكن أخرى في القطار «الضفيرة» يمكن فيها حبس الطفل العنيد.

في بلدة شوميرلي غُسِلَ الطفل -في الشارع، تحت الماء البارد من مضخّة المياه للقاطرات. فركته فاطمة عارياً بخرقة، وحلقت رأسه إلى حد

الصلع وسكبت السائل المُعَقِّم عليه بسخاء- طوال هذا الوقت كان دييف يقف بالقرب منها حتى لا يفلت الطفل. وشُطِفَت أسمال الطفل وسُخِّنَت فوق مدفأة حديدية، حتى تُنَظَّف من القمل، وأُعيدَت إلى صاحبها - لم يعد هناك قميص أبيض للراكب الجديد.

أثناء الاستحمام، فحص بوغ بعناية بدن الطفل الجديد العظمي ولم يجد أيَّ علامات خطيرة: مجرد دمامل وقروح وإنهاك - جسد صبي عادي، من دون حمرة التيفوس وزُرقة الكوليرا. بالطبع، لا يمكن أن يحل الفحص الطبي محل الحجر الصحي الكامل. ولكنه يمكن أنْ يهدّئ من قلق المساعد الطبي والمفوضة قليلاً.

لم تُتَح معرفة اسم الصبي الصموت، لذا، قرروا أنْ يمنحوه اسماً من جديد. بعد أنْ تطلّع دييف في الخريطة، اكتشف بالقرب من مكان العثور على الصبي اللقيط قرية تحمل اسم زاغرييفو؛ ربما، هذا المكان الذي جاء منه الصبي. لذلك بدأوا ينادونه - زاغريكا.

ومع ذلك، لم يستجب للنداء عليه بالاسم الجديد، مهما حاول بوغ وفاطمة أنْ يعلّماه. وبشكل عام -لم يستجب للنداء من أيّ شخص إلّا من دييف. ولم ينظر إلى أحد إلّا إلى دييف. وعندما كان يصادف أشخاصاً آخرين في الطريق- سواء أكانوا من الكبار أم من الأطفال - لم يلتفت زاغريكا بوجهه، بل كان كأنه ينظر مباشرة من خلالهم أو من جانبهم تماماً. ولم ينصت إلى الأحاديث، ولم ينتبه إلى الأسئلة، ولم يلاحظ الأيدي الممدودة إليه. وإذا ما لامسه أحد، يتصلّب ببساطة، في انتظار أن يهدأ الاهتمام المفرط. وإذا ما مسّوه، يتنحى جانباً. وإذا حاولوا الإمساك به، أفلتَ. لم يلدغ أحداً قَط، ولم يخدش، ولم يزمجر أو يكشّر بأنيابه على أيِّ شخص. كما لو لم يكن ثمة أناس آخرون معه.

بالنسبة له ليس هناك أناس سوى دييف. أيّ نوع من التعلق الغريب هذا؟ لماذا لم يختر المفوضة المستبدة أو فاطمة الرقيقة بل اختار رئيس القطار؟

قالت بيلايا:

- إنه ينظر إليك كما ينظر المتوحش إلى إله.

فأوضحت فاطمة:

- بل، كما ينظر الغريق إلى الأرض اليابسة من بعيد.

وهكذا صار لدى دييف ظل يتبعه. سار زاغريكا خلف سيده في كل مكان، والتصقَ به بإحكام، ولم ينفصل عنه. لم يزعجه ولم يتدخل في شغله، وإنما كان يركض إلى جانبه مثل جرو وفيٍّ. في المباني يجلس على الأرض في مكان قريب منه؛ وإذا ما كانت ثمة دكة قريبة، اختبأ تحتها. وفي الشارع يمشي خلفه -وسط الوحل والبِرك والحصى الحاد- غير مهتم بعدم وجود حذاء لديه.

في بلدة كامينيشي، بعد شجار عنيف مع السلطات المحلية، تمكن دييف من الحصول على عدة دلاء من الحنطة المسلوقة في مطعم المحطة. اندفع زاغريكا وراءه على طول المسارات، في المطر والرياح، ذهاباً وإياباً، عدة مرات - حتى وصلت العصيدة اللذيذة إلى القطار «الضفيرة». ظل الولد غير مبال بالطعام، ولم يحاول حتى لعق الدلاء الفارغة عندما أعاداها إلى غرفة الطعام. ولكن بمجرد أن توارى دييف في مطعم المحطة، كاد يكسر الباب الذي أغلق بوجهه.

بالقرب من بلدة كيماري، ذهب دييف إلى الغابة، وتوجه مسرعاً إلى المنحل، الذي كان يعرفه من مدة طويلة، على أمل الحصول على شيء من العسل للطفلة النحلة. فشلت المحاولة: لم يجد أيَّ خلايا نحل في المرج المألوف له، ولم يجد حتى منزل مربي النحل. رافق زاغريكا دييف في جولته: انطلق حافي القدمين، بخفة فوق مخاريط الجذور والأوراق الشائكة للأغصان المتساقطة، من دون أن يتخلف عنه خطوة واحدة.

وفي بلدة شيدروفكا، حاول دييف إرسال الغسيل لتنظيفه في مركز التطهير - ولكن من دون جدوى أيضاً. وأيضاً بصحبة ظله الأمين.

في أي مكان وفي أي لحظة، عندما يلتفت دييف يصطدم بصره بنظرة الصبي اليقظة والودية: بمعنى، أنا هنا.

لم تكن تلك نظرة غبية. ولا نظرة أبله.

بمثل هذه العيون المركِّزة يحلّ الطفل الأمثلة على السبورة في المدرسة.

ويحفظ القصائد عن ظهر قلب. ويفهم اللغات الأجنبية؛ وبمثلها تعلم (دييف) الصبي الصانع في مرأب التصليح المشي مزهواً.

ولكن ما عدا تلك النظرة البارزة، نحو دييف وحده فقط، لم تكن لدى الصبي علامات أخرى على الذكاء. عاش هذا الصموت المُحِب للعزلة حياة حيوانية: كان ينام على الأرض، ولا يعرف الفراش؛ يأكل من راحة يده، بعد أنْ يسكب الطعام من القدح إلى يده؛ ويتحرك بحذر يشبه حذر الحيوان، وغالباً ما يحرك أنفه أو أذنيه - ليلتقط الأصوات والروائح.

وسرعان ما اعتاد مَن في القطار على رؤية جسد يتلوّى خلف ظهر الرئيس أو عند قدميه. ودييف نفسه اعتاد على ذلك: الطفل يتبعه يجول على أثره - وليكن الأمر كذلك، فهذا ليس أمراً مؤسفاً؛ وحتى إنه لم يعد يلاحظ رفيقه الدائم. لم يكن هناك سوى إزعاج واحد في هذا الموقف، وقد أدركه دييف في الليلة الأولى.

قضوا الليلة في بلدة سيرغاتش. مر اليوم بأكمله في الانشغال بشأن زاغريكا -وطوال اليوم شعر دييف بغضب المفوضة. لم تهرع بيلايا إلى مكتب التلغراف للإبلاغ عما حدث ولم تدخل في أي مشاجرات أخرى- هل تحملت اللقيط؟ -ولكنه جعل يشعر ببرودة مشاعر مَن خلف الباب المنزلق المُغلَق تجاهه. لم يهتم بمشاعر المرأة الغاضبة. لكنه يهتم بمشاعر رفيق السلاح. مع رفيق السلاح، لا يزال أمامه طريق طويل وقتال شديد. وفي المساء، قرر دييف أنْ يذهب إلى بيلايا- ليصالحها.

قرر أن يقول لها، أنتِ على حق. بل، إنكِ محقة جداً. وأنتِ تخشَين من الأمراض في القطار، وتقتصدين بالمواد الغذائية الخاصة بالأطفال -فأنتِ محقة في كل شيء. لكنني محقّ أيضاً. إذا ما فشلنا في إنقاذ أحد الأطفال، فما المانع لنا من إنقاذ طفل آخر بدلاً عنه؟ فبعد كل شيء، في قطارنا «الضفيرة» هناك خمسمائة مكان- لماذا نترك أحد تلك الأماكن فارغاً؟ أليس جريمة، أنْ نوصِل أحد الرفوف فارغاً إلى تركستان؟ أنت وأنا، كلانا، على حق، أيتها المفوضة. يحدث ذلك. نحن نسعى نحو الهدف نفسه، ونفعل الشيء نفسه، على الرغم من أننا ننظر إليه من زوايا مختلفة. ولذلك لا تغضبي.

قرر دييف كل شيء وفكر في كل شيء. وعندما توقفت أصوات الأطفال في الممر، واشتدّ ظلام الليل خارج النافذة، وبات الصمت أعمق وأطول، نهض بعزم من الأريكة وفتح الباب المنزلق.

لمعت التفاحتان الذهبيتان في الظلام. تدحرجت قطرات ذهبية شفافة فوقهما وسقطت في مكان ما برنين، وكانت الأصابع الذهبية الرفيعة تعانق وتغسل هاتين التفاحتين.

فقد وضعت المرأة دلواً من الماء على منضدة النافذة وانحنت عليها، واغتسلت -كانت تغترف الماء وتفرك نفسها بكفيها. سقطت خصلات شعرها على جبينها وعلى خديها- وجهها لم يُرَ. بل لم يُرَ كل شيء -لا عنقها ولا كتفاها- فقط الثمرتان اللتان انسكب عليهما الضوء الساطع. عمَّ السكون، ولا يُسمع سوى صوت القطرات ترنّ والماء يرذّ، ويخشخش على طست القصدير.

الفتيل النفطي يطقطق، يحترق...

سمع دييف من الظلام صوتاً مألوفاً:

- ما لكَ تحدّق.

دخل إلى هذا الظلام وأخذ التفاحتَين الذهبيتَين بين يديه. كانتا ثقيلتَين ودافئتين. وحول التفاح -شيء دافئ أيضاً. ومِن حول دييف نفسه أيضاً، تحول كل شيء فجأة إلى دفء وثقلٍ لطيف. والتفَّ عليه، وسحبه إلى مكان ما- وبعد أنْ أغمض دييف عينيه وفتح فمه حتى لا يختنق، غاص في هذا الظلام.

اختلجَ الوهج الخافت المنبعث من المصباح وأوشكَ أنْ يخمد - فقد بدأ النفط ينفد. في هذا الوهج الخافت، بالكاد سطع الجانب المستدير من الدلو على المنضدة. وبالكاد تلألأت القطرات التي رذَّت على سطح الطاولة المطلي. بالكاد لمعَ رأس حليق لشخص ما، قريب جداً.

جاء الصوت من الظلام مرة أخرى:

- الولد هنا.

سحب دييف نفسه بجهد شديد، كما لو كان من نوم ثقيل، إلى مكان ما في النور، إلى الأعلى، ورأى النظرة الفاحصة الموجهة إليه: كان زاغريكا جالساً على الأرض ويحدق بإخلاص إلى سيده.

همس دييف:

– اخرج، من هنا.

تعثَّر في الفراش، وأنزلَ كيفما اتفق قدميه العاريتين على الأرض –ولكن متى تمكن من خلع جزمته؟– وأمسك الطفل من مؤخرة عنقه، وألقاه في الممر. وبينما كان يغلق المزلاج، عاد الطفل مرة أخرى –من خلال الباب المنزلق– وصار بجواره من جديد.

ألقى به دييف مرة أخرى في الممر وأغلق بابه الآن أيضاً – دقَّ الصبي من الخارج مطالباً بالسماح له بالدخول. وقد أحدث ضوضاء عالية، وبعد لحظة استسلم دييف حتى لا يوقظ مَن في العربة جميعاً.

– اجلس هنا، أيها الأحمق! –أقنعَ زاغريكا، وغرز إصبعه تحت رفّه، لكنّ الصبي بقي يحدق بمودة، ويجلس عند قدمي السيد الحافيتَين.– ابقَ هنا، نصف ساعة على الأقل! اجلس على الأقل ربع ساعة!

دقَّ صوت عالٍ في مكان قريب – فقد ألقت المفوضة في حجرة دييف جزمته التي أضاعها. وانسحبت مصاريع الباب المنزلق مُحدِثَةً صدعاً، فقسَّمت المساحة إلى قسمين.

تنهّدَ دييف بتجهّم:

– إنكَ وغد، يا أخي.

وبعد أن أدرك زاغريكا أنَّ سيده لن يذهب إلى أي مكان بعد الآن، تثاءب وزحف تحت الأريكة.

***

في اليوم التالي لم يتذكرا ما حدث، كأنَّ تلك الليلة المظلمة السوداء لم تكن ولم يكن فيها ذلك الجسد الذهبي المتلألئ.

نظرت المفوضة نظرة صارمة وجديّة. وشنَّت منذ الصباح الباكر، وحتى

قبل الإفطار والمغادرة، غارة تفتيش في جميع عربات الركاب -بعد البحث في الزوايا تحت المقاعد وخلف البطاريات، اكتشفت كومة من الأشياء التي لا أحد يعرف من أين جاءت والتي هُرِّبَت إلى متن القطار في الأسبوع الماضي. ما عثرت عليه لم يكنِ ضاراً البتة: أوراق لعب، وبطاقات بريدية إباحية، وكتب تفسير الأحلام المطبوعة على ورق رخيص- لم تجد حشيشاً، ولا كحولاً، ولا قبضات حديدية ذات شفرات. أعادت كل الأشياء التي عُثِرَ عليها إلى أصحابها.

ساعدها دييف: فقد فتَّشَ معها ألواح الأرضية وأركان المراحيض. ومن وقت لآخر كان ينظر إلى المفوضة، لكنه لم يجد أي علامة على حادثة الليل على وجهها الهادئ. وحتى عندما عثر في شقّ تحت السقف على كومة من البطاقات الفاحشة -ملابس داخلية، رُكَب ذوات غمّازات، وأرداف وصدور مُكتنزة- لم يلاحظ في نظرة المفوضة أيَّ أثر لذكريات مما جرى الليلة البارحة.

فكر في الأمر طوال اليوم. وشعر أنَّ رأسه انفطر إلى نصفين. نصف قلق بشأن نقص الصابون والنظافة في القطار، ومشغول بنقص الوقود، وحساب حصص الإعاشة للأسبوع المقبل، وبذكرى سينيا. والنصف الثاني مشغول في الظلمة الشديدة والدافئة التي أحاطت بجسده الليلة البارحة.

وفي المساء -ليس بالضبط في المساء، بل في الليل، بعد أن انتظر حلول الظلام الحالك- دفع الباب المنزلق، على أمل تكرار حكاية البارحة واستمرارها. لكن هذا لم يحدث: لم يكن في مقصورة المفوضة وميض ذهبٍ ولا رنين قطراتٍ، ليس سوى الظلام وصمت النوم - كانت المرأة نائمة.

تمنى لو يذهب إلى سريرها ويجلس إلى جانبها. ويزيح اللحاف - السترة العسكرية التي تدثر جسمها. ويزيح كل ما يمنع الذهب من اللمعان والتلألؤ بالدفء. ينبغي فعل ذلك... ولكنه لم يستطع بأي حال من الأحوال!

لم يجرؤ دييف على الاقتراب من بيلايا أو إغلاق الباب المنزلق، وظلَّ يراوح مدة طويلة في المقصورة الضيقة، تارة يخلع قميصه العسكري، وتارة

يعيد ارتداءه من جديد ويشد جميع الأزرار. وفي الأسفل تحرك زاغريكا الذي لم يَنَم بعد، ومستعد لاتباع سيده.

أخيراً استلقى دييف. لم يستطع النوم - رقد وعيناه مفتوحتان، يستمع إلى تنفّس الصبي تحت الأريكة والحركات القليلة لجسد الأنثى خلف الحائط. تقلَّب على أمواج الوسَن، ينتقل من فكرة إلى فكرة. عندما سئم من تذكر جسد سينيا الصغير العظمي أو الوقواق العاري الممدَّد على هذه الأريكة بالذات، تذكر الجسد الأنثوي المنسكب عليه الضوء. وعندما سئم من إحصاء دلاء الفحم القليلة المتبقية أو حُزَم الحطب لتدفئة العربات، أحصى القطرات الذهبية الرنانة... وتقاسم الليلة مع بيلايا. أو ربما، تقاسم الليل ثلاثة: رجل وامرأة وصبي تحت الأريكة.

***

في مدينة أرزاماس، غادرت المُرضِعَة القطارَ. أرضعَت الطفل الكتكوت إلى حدّ الشبع آخر مرة، وصبَّت الحليب المتبقي من كلا الثديين، فملأ قدحاً ونصف قدح فحسب! وسارت على مسارات السكة إلى مبنى المحطة المظلم، للبحث عن زملائها المسافرين إلى موسكو. وبقيت فاطمة، والطفل بين ذراعيها، في القطار. أو بالأحرى، دييف هو الذي بقي - كان عليه أن يبحث عن طعام للطفل.

هنا استدار القطار «الضفيرة» استدارة حادة وتحوَّلَ إلى الجنوب -عبر بلدة لوكويانوف وسارانسك وتدحرج إلى مدينة سامارا، لكي يصل في القريب العاجل إلى مدينة أورينبورغ. وإذا ما كان قبل ذلك ينتقل مع تيار السائرين- إلى موسكو وحدها! فإنه الآن يتجه عكس هذا التيار. الآن، اهتز دييف في عربة الموظفين ونظر عبر الحقول والغابات، فلم يرَ أقفية الناس الذين يسيرون بتثاقل على طول السكة الحديدية، بل رأى وجوههم.

التتار -حُمرٌ من الشمس والغبار، يعتمرون طاقيّات ممزقة وأغطية فراش بالية فوق ملابسهم. والموردوفيّون ذوو الوجوه العريضة. والقرغيزيّون الحفاة الأقدام مع أمتعتهم المربوطة على ظهورهم. والأودموريّون ذوو

البشرة الداكنة. والغجر المتزاحمون في الحشود- هؤلاء كانوا يمشون أسرع، وبدوا أكثر الجميع بهجة، فهُم معتادون على حياة التشرد. والألمان الشُّقر من سهول ساراتوف السفلى.

كان بعضهم لا يزالون يسحبون أمتعتهم المكوّمة في العربات؛ وقد نُشِرَت جلود البقر المدبوغة فوق العربات لحمايتها من أشعة الشمس ومن المطر، ولاحت كلّ عربة كأنها تنظر إلى الأمام من رؤوس بقرون عالية -فصار يتراءى للناظر أنَّ حيوانات غير مألوفة تتحرك جنباً إلى جنب مع الناس في التيار القادم. كان بعضهم قد تركوا أمتعتهم وساروا خِفافاً يتكئون على العِصي والعِكّازات. الجميع- من دون أطفال. كان الناس يمشون بتثاقل على طول خط السكة الحديد، وهم يرمقون القطارات التي تمر من جانبهم بنظرات كئيبة ويأملون بحدوث معجزة: ماذا لو أركبوهم لمسافة محطة أو محطّتَين؟

لم يشيّعوا القطار «الضفيرة» بنظراتهم -فهو لا يسير إلى العاصمة. لذلك، لم تكن هناك فرصة للعثور على مُرضِعَة أخرى. سيكون من حسن حظ دييف لو عثر على أيّ امرأة- قيرغيزية، أو كالميكية، أو موردوفية زرقاء العينين، لكن تيار الناس كان يتطلع نحو الشمال -بلا هوادة، مثل النبات نحو الشمس. كلُّ هؤلاء الرجال والنساء، الهزيلين الذين أضناهم الإملاق، الذين فقدوا أطفالهم على طول الطريق، والذين غمرهم الغبار أياماً عديدة، ما عسى أنْ يجد هناك؟ لقد زار دييف موسكو هذه وعرف: أنهم لن يجدوا شيئاً، وسيفقدون قوَّتهم فحسب. موسكو الآن خبيثة، لا قوت فيها. تطحن الناس مثل حجر الرحى. تدخل إليها فقيراً- فتخرج منها متسوّلاً. وإذا ما دخلت إليها متسولاً، فسوف تُدفَن فيها.

لكنهم ساروا وساروا - تدفق نصف سكان روسيا إلى العاصمة، كما لو وُعِدوا بشيء ما هناك. وكلما تحرك القطار إلى الجنوب أكثر، زادت كثافة التدفق القادم.

في كل محطة -في بلدة شاتكي، وفي لوكاياتوف، في بلدة كراسني أوزيل- فتَّش دييف في الأسواق الشعبية وفي الدكاكين: كان يبحث عن

معزى. كان الناس ينظرون إليه كمجنون: لم تعد في المزارع معزى اليوم، لقد سيقت إلى مكان ما. وحتى لو وِجِدَت واحدة، فمَن هذا الأحمق الذي سيبيعها؟ لذلك كان دييف يساوم ليس مقابل المال، بل مقابل صليب فضي كامل أو حتى الصليبَيْن كليهما. فكان الناس يهزّون أكتافهم لا مبالاة ويقولون: الفضة لن تُشبع الإنسان.

في سارانسك، لاحظ شيخاً يبيع لحوم الكلاب. كان يبيع الذبيحة الواحدة بثلاثة روبلات، والرأس بروبلين. الذبائح والرؤوس كانت صغيرة جداً ولحمها قليل. لم يكن لحم كلاب، بل لحم جراء.

سأل دييف البائع:

- هل الكلبة الأم على قيد الحياة؟

اتضح أنها على قيد الحياة. فساوم مقابلها على صلبان الفضة. وأحضرها إلى القطار: نحيفة، بلا أسنان، لكن ذات حلمات جلدية طويلة. كانت الكلبة وديعة ومُستَسلِمة، على ما يبدو، تعرضت للضرب المبرح ذات مرة. سمحت بأن تُمَدَّد على الخِرَق المفروشة على الأرض وأنْ يوضع الرضيع على بطنها.

في البداية، جمحَ الطفل وامتنع عن الرضاعة، لأنه لم يتعرف على رائحة الكلبة. ثم جاع فكفَّ عن ذلك: رضع حليب الكلبة، عن طيب خاطر وبشراهة، حتى أفرغ كل الحلمات بالدَّور في جلسة واحدة. وتعود على الرائحة. وكان يشدّ المُرضِعَة الجديدة من شعر جسمها، ويلف ساقيه حولها - ورداً على ذلك، لعقت الكلبة رأسه الأصلع، الذي كان يخفق فيه يافوخه الرقيق الذي لم يشتد عوده بعد.

كان لابد من وضع حصة للكلبة في الجراية. اتضح أنها كانت قنوعة في الطعام: لقد كانت تتغذى بشراهة على الحساء والهلام، والنخالة المخففة في الماء المغلي. لم تكن قادرة على المضغ، لذلك سحقوا طعامها الصلب وخلطوه بالماء.

دعت فاطمة المُرضِعَة الجديدة باسم غريب: ذئبة كابيتولين (الذئبة المُرضِعَة). لم يوافق دييف مع نفسه على هذا اللقب. أيّ ذئبة هذه، إذا ما

كانت الكلبة بائسة ولطيفة؟ ولماذا باسم أجنبي معقد، وليس من أسمائنا، مثلاً، ذئبة ساران؟ لكنه لم يجادل المرأة.

***

كانت الألقاب أكثر أهمية من الأسماء.

ما يخبرنا عن الصبي أو الصبية الاسم المكتوب في المستندات الرسمية بخط يد المديرة شابيرو؟ كوليا، بيتيا، دونياشا، محمود أو زيفا - مجرد عدد قليل من الحروف بالحبر على الورق.

وما يخبرنا اللقب المستعار عن الإنسان؟ يخبرنا عن الكثير. يخبرنا عن والديه أو عن وطنه. عن أمراض الماضي التي أصابته أو الأحلام الدفينة. ما الكتب التي قرأها الشخص أو الأفلام التي شاهدها. ما يأكله، أين كان، وأين تجول. في بعض الأحيان يخبرك عن حياته كلها.

استُخدِمَت الأسماء في القطار لتعداد الفريق، تماماً مثلما تُستخدم الأرقام التي على المقاعد المحجوزة لتوفير الراحة للركاب. أما الألقاب - فللتواصل.

في البداية، لم يفكر دييف حتى في حفظها. يوجد في القطار طفل -هذا يكفي، ويرتدي ملابس، سواء كانت جيدة أو رديئة، ويُطعَم- هذا حسنٌ. ما يهم دييف اصطحاب الطفل وإيصاله إلى تُرْكِستان. أما ما اسمه، في الوثائق الرسمية أو فيما بينهم، فهذا من عمل الممرضات أو الرفاق في العربة.

لكن اتضح أنَّ الأمر بشكل مختلف. فبعد أنْ كان يركض في القطار «الضفيرة» طوال اليوم، بحلول المساء يكتشف أنه يعرف عشرات الألقاب الإضافية: أذنه اختطفتها من تلقاء نفسها. وعندما وصلوا إلى أرزاماس، عرف نصف الأطفال في القطار، وبعد أسبوع عرفهم جميعهم تقريباً.

تحدثت بعض الألقاب عن نفسها. إذا كان الصبي اسمه فوفكا السمبيري - فما الشيء غير المفهوم هنا؟ ألا يدل ذلك على أنه جاء من سيمبيرسك، موطنه الذي يبعد مائتي ميل عن قازان. الألقاب تشير إلى الكيفية التي جاء بها النازحون إلى القطار ومن أيّ الأماكن قدِموا: كان هناك جورا من

جيغوليفسكي، وهو حدث نحيف متخلف عن أترابه وآثار بثور الجدري في جميع أنحاء جسده. وكان هناك أبجورا من كليازنسكي الذي لا يعرف الكلل، والذي دبغت الشمس جسمه إلى حد السواد وصاحب الابتسامة الشنيعة السوداء. وكان هناك سبيركا من أختوبا ويوليك أورينبورغ. انعكست منطقة الفولغا بأكملها في هذه الأسماء المستعارة، من مراكز الأقضية إلى المستوطنات الصغيرة: ديوما من كوستروما، أوغليش لا تطلق النار، يهوذا شوباشكار.

جغرافيا المنشأ خُمِّنَت في الألقاب والكُنى، حتى لو لم تُذكر. نيكا الألماني -من الواضح أنه من المستوطنات الألمانية على نهر الفولغا، من بالقرب من ساراتوف (لم يستطع التحدث عن نفسه، لأنه كان يتحدث الروسية بشكل سيئ، لكن الكلمتَين «ساراتوف» و«فولغا» بدتا متماثلتين في جميع اللغات). إبراهيم القازوق- من الواضح أنه من قازان (غالباً ما يُسَمى الناس المنحدرون من هذه المدينة استهزاءً -قازوقون). فوتياك الأعور- من منطقة كاما (كان بصر الصبي على ما يرام، لكنه كان يعرف كيف يدير عينيه ويلوي جفنيه حتى لا يُرى منهما سوى البياض، ولهذا أطلق عليه لقب الأعمى). غالي الباشكيري - من جبال الأورال، مسقط رأس الباشكيريين.

تحدثت بعض الألقاب عن الأمراض. لم يستطع دييف أن يفهم لماذا يحتفظ في ذاكرته بهذه الأسماء، وعلاوة على ذلك، يضفي على الاسم -ذكريات عن أشياء صعبة، ومميتة في بعض الأحيان. خاريتوشا المسلول، يوسيا تراخوما، لوشا تيفوئيد ثلاثي- من يريد أن يُسمى هكذا؟ هؤلاء -أرادوا. هكذا عرَّفوا أنفسهم: «أنا فينيا إنفلونزا»؛ «أنا سونيا إسقربوط»؛ «أنا غريشكا تشنّج». وكلما كان الاسم مثيراً للاشمئزاز أكثر، زاد اعتزاز صاحبه به. شانكار قرحة السفلس، غوشا سيَلان، أوسيا الزهري، توليا التهاب جلدي- في البداية كان يختلج عند سماع هذه الأسماء. ثم اعتاد على ذلك.

«هل تعرف، على الأقل، معنى مامو؟» -سأل دييف ذات مرة طفلاً صغيراً ذا عيون منغولية، يُلقَّب جنكيز مامو. «وكيف لا!» ابتسم الولد ابتسامة عريضة. وصفع صدره ذا الأضلاع البارزة، مثل المبشرة: ليس أعرف فحسب، بل وأفتخر به! الجمرة الخبيثة كانت تُسمّى «مامو». وأحياناً

تُسمّى- «النار المقدسة» أيضاً، لأنها تقطع دابر الناس والماشية بسرعة، مثل الحريق. من غير المحتمل أن يكون جنكيز الصغير وقع في أتون تلك النار وخرج حياً. على الرغم من أنَّ دييف لا يجزم بثقة: فهؤلاء الأطفال كانوا حقاً- غير قابلين للحرق.

مَن كانت من المفترض أن تخيف الألقاب المشؤومة؟ هل تخيف الأطفال الآخرين؟ أم تخيف أمراضاً أخرى؟ أم تخيف الموت؟

كان هناك أيضاً مَن لم يخشوا ذكر الموت في ألقابهم. ليس الأطفال الأطول، ولا الأكثر صخباً ولا أصحاب النشاط المفرط - بل الأولاد العاديون الهادئون، مِن أولئك الذين يقفون في الصفوف الأخيرة في الدور للحصول على حصص الإعاشة. من أمثال: فاديا مُت غداً، وماركيل التوابيت الثلاثة، وكيكا الميت، كاراتشون موت الفجأة، وهو طفل رث ونحيل ذو عظام منحنية من الجوع.

كلا، أحبَّ دييف الأسماء الثقافية المشرقة. اسم الطفل باستر كيتون -واضح على الفور: إنه يحب السينما. وعلى الفور تنظر إليه بابتسامة، والدفء في قلبك، وغالباً ما تريد نطق كنيته. وفيما يخص ميتيا ماين ريد وديكنز المتوحش الأمر واضح أيضاً- طفلان متعلمان. وواتسون القطني، وأراميس البلاعة، وبينكرتون. يريد الرجال أن يصبحوا مثل أبطال الكتب والأفلام: محظوظين، وأذكياء. لقد احترم دييف مثل هؤلاء.

صحيح، من بين هذه الكُنى، كانت هناك أيضاً أسماء مُعقَّدة للغاية -تعبق بالرفعة والسمو، على طريقة الكتب، لكن لا يمكنك فهم المعنى. كوليا جبن كاممبرت- يا ترى، هل سُرِقَ الاسم من رواية فرنسية؟ وماذا بشأن سيوما سِباحة الفراشة؟ وفديا فرويد؟ نونكا بوفاري -من أين اختُلِسَت هذه الإضافة إلى الاسم؟ وجولييت المهلبية؟ لن تفهم أي شيء عن هذا الاسم على الإطلاق- الاسم نفسه طويل، وليس من أسماء الغجر، ولا من أسماء المولدافيين، والإضافة زائدة وثقيلة على اللسان... وهوغو عديم الحواجب -ما كل هذا؟ «هوغو»- كما لو كنت لا تنادي طفلاً، بل تسعل أو تغصّ...أما بخصوص بروفيترول وباغنيل - فأيّ نوع هما من أبطال الروايات الفرنسية العاشقين؟

إذاً، من الأفضل، أن يُدعى المرء باسم قصير رجالي، مثلما يفعل الأولاد في عربة الكبار: سميث آند ويسون (مسدس) أو قبضة البوكس يفريميتش. هؤلاء على الأقل لم يخفوا جوهرهم، بل صرحوا به بشكل مباشر: لن نستسلم. لم يوافق دييف على العدوان، لكن الموقف الصريح يُقبَل أفضل من التحذلق.

كما أنه لم يوافق على استخدام مهن التسكع في الكُنى: إذا ما انتهت حياة التجوال، فلماذا تجر الماضي معك إلى الحياة الجديدة؟ ذات مرة، كان أحد الشباب يشاكس الناس في الشوارع، ابتزَّ المارة، ونزع معاطف الفراء من السيدات، والساعات من الرجال. لماذا نستمر بمناداته بوغداشا قاطع الطريق وعدم تركه ينسى ذلك؟ أو أنَّ أحد الصبيان يدفع عربات الأمتعة في المحطة، وفي الوقت نفسه ينشل ويضع في جيبه كل الأشياء الصغيرة. لماذا نُذَكِّره في كل دقيقة وندعوه سافكا الحمّال؟ وفوما صاحب الفأس، وأوريست السوقي، وسازون السليط – انطلق الكثيرون في مهنهم السابقة كذكرى لسيرتهم الذاتية العملية.

وأكثر الألقاب في القطار –تلك المعيبة والمخزية. كان دييف في أوائل العشرينيات من عمره، وقد عاش في العالم ثلاثة أضعاف أو حتى أربعة أضعاف أعمار الركاب الذين بمعيته. لكن، كما اتضح، يعرف أسوأ بكثير منهم الكلمات التي تصف قسم الخطيئة من الحياة. كل ما يتعلق بالخبيث والسافل- سواء بالنسبة للجزء الأنثوي أو الذكري –قد تجسَّد في ألقاب رنانة. كان في البداية يخجل منها حتى يحمر وجهه. لكن فيما بعد اعتاد على ذلك، لا سيما أنَّ بيلايا كانت تصيح بصوت عالٍ بهذه الكُنى والألقاب، شأنها شأن الآخرين. ولكن الممرضات- لم يستطعن، وسعينَ لتجاوز ذلك من خلال مناداة المعني بكلمة «صبي» من دون تحديد هويته أو يناديه ببساطة بالاسم فقط، متجاهلات الكنية المعيبة. لكن أصحاب تلك الكنى لم يتنازلوا عنها: إذا ما كان هو، ميشكا الدُّبُر، نادِه هكذا. أو إذا إيسيا الأير. أو الليّة. أو قضيب الرجل.

أيّ بهجة هذه، أنْ تُدعى طرف الجسد القذر؟ وأيّ متعة من أن تسمي نفسك نزار المُستَمني (ممارس العادة السرية)؟ ولكن، حقاً، كان هناك

فرح وسرور. فهؤلاء الأولاد، القصار القامة بسبب نقص التغذية الأبدي، ومقوسو السيقان وذوو الأذرع الدقيقة، وذوو الآباط الطفولية العارية والأعضاء المعيبة، أرادوا أن يصبحوا رجالاً -على الأقل من خلال الألقاب. فوكا صاحب غلفة القضيب (بعد ذلك بكثير، أثناء الاستحمام، نظر دييف إلى فوكا هذا صاحب غلفة القضيب- صغير يتمايل، شاحب مثل يسروع على ملفوف). كوليا الآلة (هذا لديه آلة صغيرة تماماً وزيادة على ذلك مختون وفقاً لعادات المسلمين، لذلك شكَّ دييف في أنه من التتار أو الباشكيريين، على الرغم من أن كوليا تحدث باللغة الروسية فقط وأكد أنه يتذكر والديه، اللذين تحدثا معه أيضاً باللغة بالروسية، عندما تركاه في دار الأيتام). وغورا الخليع. والقضيب المنتصب ذو العينين الخضراوين والنمش...

لم تتخلف الفتيات عن الركب: ليلكا البظر، لاركا الزانية، جانكا فِراش -المناسب أنْ يُفتَح بيت دعارة بهذه الأسماء! (جف جلد ليلكا وتساقط طبقات، مثل لحاء أشجار البتولا؛ ولاركا كانت تتبول في الليل، وجانكا تريد دائماً تناول الطعام ويمكنها التحدث فقط عن الطعام.) اقترحت الممرضات أن تبتكر الفتيات ألقاباً جديدة- جميلة، رنانة، من الكتب أو الأغاني. فرفضنَ رفضاً قاطعاً - فقد كنَّ يثمنَّ عالياً ألقابهنَّ القديمة والجوهر الأنثوي الكامن فيها أكثر من الجمال.

كانت بعض الألقاب غير مؤذية وحتى مضحكة - بعر الغنم أو يغور آكل طين الغور. وفي وقت لاحق، أدرك دييف أن وراء هذا البهجة تكمن قصة حياة ليست بهيجة على الإطلاق.

وِلِد بعر الغنم في الوقت غير المناسب، في عام المجاعة الأول، ومن باب الشفقة، غسلته والدته في روث الأغنام حتى يموت عاجلاً. ولكن لم يَلحَق - فقد ماتت الأم وأُخِذ إلى الملجأ. لقد تذكر شيئاً واحداً عن الحياة في منزل والده: كيف كانت والدته تجمع كريات بعر الغنم ذات الرائحة الكريهة من حظيرة المزرعة التعاونية، وهو يزحف بالقرب منها على الأرض. وعندما كبر قليلاً، أدرك سبب جمعها (شرح له ذلك الأطفال في دار الأيتام)، لكنه لم يغضب على والدته، بل، على العكس، أراد أن يُدعى

فحسب بعر الغنم، وحدَّث الجميع عن طيب خاطر ومرات عديدة عن تلك الدقائق في الحظيرة.

استمع يغور آكل طين الغور منذ الطفولة إلى قصص عن جبل الطين، حيث كان الناس خلال سنوات المجاعة يجمعون الطين ويأكلون منه بدلاً من الخبز. عندما حلَّ عام الجوع ومرض الجد والجدة مرضاً شديداً بسبب العجز، ذهب يغور للبحث عن الجبل، وعثر عليه. غَرفَ دلواً كاملاً من الطين وسحبه إلى المنزل. وراح أفراد الأسرة الثلاثة كلهم يأكلون منه، لكنَّ مذاقه مقرف، ولا يُغني من الجوع. ثم بعد ذلك مات الجد والجدة. وهكذا قتل يغور عائلته كلها. أقنعته الممرضات أنه ليس هو من قتل العجوزين، بل الجوع، لكن الصبي أصر: لقد قتلتهما...

كانت هناك مثل هذه القصص - خمس عربات. نعم، العربات الست جميعاً، إذا ما حسبنا عربة المستوصف معها. لو كان الأمر بيد دييف، لكان قد ألغى عند ركوب القطار جميع الألقاب والكُنى القديمة، ولأجبر الأطفال أن يتخلّوا عنها بأنفسهم، في اللحظة التي نزعوا فيها الملابس والأحذية التابعة لمركز الإيواء في محطة قازان. لكنَّ الأمر لم يكن بيديه.

***

كانت لغة القطار ملونة وغريبة. مَلَأها خمسمائة فم بمثل هذا التنوع لدرجة أنه كان من المناسب أنْ تُعَد قواميس منها. اللهجات الروسية كلها، واللغات التتارية والبشكيرية والتشوفاشية والمارية والأودمورتية، ولهجة سيبيريا وأوكرانيا –مختلطة مع لغة الشوارع والمكبات ولغة حانات اللصوص والمجتمعات الكنسية: فوضى عارمة، استطاع دييف التعامل معها بصعوبة بالغة. لم تزعج هذه الفوضى الأطفالَ– فقد كانوا يفهمون بعضهم بعضاً بسهولة، ويستقبلون على الفور كلمات المحاور ويعطونه كلماتهم الخاصة.

كان للمفهوم الواحد نفسه خمس تسميات وعشر تسميات - حيثما تجاوز دييف إحدى الكلمات، ذكر الأولاد دزينة أو دزينتين من الكلمات.

إذا ما كان الشخص يكذب، على سبيل المثال، فإن دييف سيقول ذلك:

إنه يكذب. أو يخدع، إذا ما أراد أنْ يعبّر بصيغة أكثر ثقافة. أما الأطفال فلديهم دورة من الأفعال والعبارات على أهبة الاستعداد: *أَفَكَ، أَفِكَ، ابْتَدَعَ، اخْتَرَصَ، إِخْتَرَعَ، اخْتَلَقَ، ادَّعى، افْتَرَى، تَخَرَّصَ، خَدَعَ، خَرَصَ، دَجَّلَ، زَوَّرَ، زَوَّقَ، زَيَّفَ، عَضِهَ، غَشَّ، فَجَرَ، فَرَى، كَتَّلَ، كَوَّمَ، لَفَقَ، لَفَّقَ، مانَ، مَوَّهَ، نَمَّقَ، وَحَّدَ، وَشَى، وَلَس*... وما إلى ذلك، وحتى أكثر.

إذا كان هناك فشل، سيقول دييف مرة أخرى مباشرة وببساطة: *لقد حدث فشل*. أو حتى، *لم يحالفه الحظ*. فماذا عن الأطفال؟ سيقولون: *أَخْفَقَ، اسْتَسْلَمَ، انْدَحَرَ، انْهَزَمَ، انْكَسَرَ، خابَ، عَجزَ، غُلِبَ، وَفَرَ، عَيّا، قَنَطَ، وَسِعَ، يَئِسَ، أَخْطَأَ*...

لماذا مائة كلمة، إذا كان يمكنك أنْ تتجاوزها بواحدة؟ لماذا تلف وتدور وتربط الكلام البسيط في عقد وتحوك زخارف بالكلمات؟

تبيّن أنَّ الأولاد يجيدون الحياكة! ولأنَّ الأطفال اعتادوا على الحياة الحرة، فقد تعاملوا مع اللغة بحرية تامة - شوَّهوا القواعد أشنع تشويه، وركَّبوا الجمل في تراكيب غريبة. التهديد، على سبيل المثال، قد يبدو كالآتي: *سأعلمه كيف تُحَمَّص البطاطا*! ويمكن كذلك أن يكون بالشكل الآتي: *سأناطح الكسول حتى أصنع من جلده حذاء*!

علاوة على ذلك، اخترع الأطفال كلمات من خلال جمع كلمات معروفة أو ابتكار كلمات جديدة تماماً. هنا ضاع دييف تماماً. فمثلاً، هناك حجرة الغلّاية، الموجودة في كل محطة والمتشابهة: وهي عبارة عن حجرة فيها نافذة صغيرة وزوج من الصنابير يبرزان من الحائط، حيث يُصب الماء المغلي في أباريق الشاي والدلاء لمن يرغبون. ولطالما كانت التسمية موجودة -حجرة الغلّاية- والجميع يعرفها، والجميع يستخدمها. لماذا تجادل لمدة ساعة، في عِراك وصراخ، تبحث عن اسم جديد؟ لتختار اسماً لها من بين أربعة خيارات -*سَمّوطة* (من الفعل *سَمَطَ*)، *سَخّونة* (من الفعل *سخَّنَ*)، *صَنبورة* (من الكلمة صنبور)، *غَلّوية* (من الفعل غلى)،- استقر الأطفال على الخيار الأخير. وسرعان ما اكتشف دييف نفسه أنه يسمّي

حجرة الغلّاية بهذه الكلمة المبتكرة، الدقيقة إلى أقصى حد. فقد أصيب بالعدوى من الركاب.

لم يكن الأولاد يسمّون القمصان التي يرتدونها قمصاناً على الإطلاق، بل أطلقوا عليها اسم *بَيّوضات* (من الكلمة «بياضات») و*كَيّوسات* (من الكلمة «كيس»). ويسَمّون أقداح القصدير التي يستعملونها للطعام - *كَرّوشات* (من الكلمة «كرش»). ويسمّون الممرضات الاجتماعيات - *الأُخَيّات*. والعربات - *أغوار*. وقد اخترع الأطفال للمطبخ الميداني، وهو موضوع المشاعر الأكثر رقة وعاطفة بالنسبة لهم، العديد من الأسماء: *مكان الحلم والمَطهى* وحتى *السَّلّاق الملّاق*.

صحيح، أحياناً بَسَّطَ الأطفالُ الكلمات وقطعوها: بدلاً من الكلمة «مرحباً!» دَرَجوا على استعمال الكلمة «مرحى!» القصيرة، بدلاً من الكلمة «أتأخذ!» الكلمة «خذ!»، ولكن مثل هذا التبسيط كان نادراً.

كان الموضوع الوحيد الذي لم يُسمح فيه بممارسة إنشاء الكلمات هو الطعام. لا توجد حريات مسموح بها هنا! وقد عرف الأطفال عن الطعام -البسيط والمعقد، الحضري والريفي، المُعَد في المقاصف العامة والمطاعم الراقية- ليس أكثر مما يعرفه دييف فقط، بل وحتى أكثر من جميع الكبار كلهم في القطار. عرفوا عن كل شيء: عن حقيقة أنَّ حساء سمك الراف النهري أو سمك الفرخ يقدَّم مع الفطائر ذات الحشوة المكشوفة، وحساء السمك الملكي يُقَدَّم مع الفودكا. والنطق الصحيح لهذا الحساء «كونسوميه» و«غلياسيه». وأنَّ حساء الكرنب يتناسب بشكل أفضل مع الفلفل الحار، بينما يتناسب سمك الترس مع الفطر بشكل أفضل. وأنَّ الذرة الأمريكية تسبب الإسهال أسوأ من البازلاء. وإنْ أكلتَ عظاماً مشوية، قليلاً وببطء، فلابد أن تقضُم معها سيقان عشبة الخنزير بكثرة، ولكن من دون القشر. وإنْ أردتَ دجاجة مُسَمَّنَة، إذاً، بالتأكيد من مدينة روستوف، وإنْ أردتَ سمك السلمون المرقط، فمن مدينة غاتشينا فقط، مع صلصة النبق. دييف لم يسمع بمثل هذه الكلمات حتى مجرد سماع! بينما الأطفال سمعوا بها وتحدثوا عنها. من غير المحتمل أنْ يكونوا قد تذوَّقوا طعمها، لكنهم تمكنوا من الحديث عنها بالتفصيل. وتحدثوا عن كيفية التمييز بين

كافيار سلمون كامتشاتكا وكافيار السلمون النرويجي. وكيف تسْلق الغراب المتعفّن قليلاً مع الفحم حتى لا تكون رائحته نتنة. ووصفوا حلوى بودينغ نيسلرود واختلافها عن حلوى بارفيه ومعجنات بوشيه.

حتى إن البعض ابتكروا ألقاباً لأنفسهم وفقاً لأطباقهم ومشروباتهم المفضلة: غليبا شحّاذة الخبز، فطيرة الزبيب، وشمبانيا أبراو ديورسو، زينكا نبيذ بورتو، ملبّس الأسنان المتعفنة.

في كثير من الأحيان كانوا يتفاخرون بالمأكولات الشهية التي تناولوها مؤخراً، التي لم تكن من أوراق الدرنيات المتعفنة، بل من اللحوم والخبز. لم يكن لدى دييف أدنى شك في كونهم يكذبون. ثم أصبح واضحاً له: كلا، إنهم لا يكذبون -بل مجرد أنهم يسمون الطعام البديل بكلمات «مغذية». *حلوى الهلام الخفيف*- فضلات أحشاء السمك. *الزبيب* -القشور. *لحم الجداء الصغيرة*- عظام الأسماك. *لحم الخنازير الصغيرة* -السناجب الأرضية المشوية. *بقسماط* - القواقع. *الفطائر* - أوراق الجزر والبنجر. كانت الكلمة التي تسمي نوعاً من الطعام مقدسة ولا يمكن تغييرها، وتتلاءم مع المادة المُسمّاة كل التلاؤم. الْتَهَمَ الأطفال هذا الذي أطلقوا عليه اسم الخنازير والماعز الصغيرة مع الفطائر، وأكلوا منها الكثير، ولا يزال منها الكثير...

لم يستأثر الأطفال بأيّ ممتلكات ولا حتى بملابس وأحذية، ولم يظفَروا بوالدين ومنازل، وغالباً ما حُرِموا حتى من ذكريات الطفولة، لكنَّ الشيء الوحيد الذي استحوذوا عليه -اللغة. كانت اللغة- ثروتهم ووطنهم وذاكرتهم. هم ابتدعوها بأنفسهم. وأضافوا إليها كل ما وجدوه في الطريق. ومن خلال الكلمات النادرة احتفظوا بذكريات لقاءاتهم مع الوافدين الجدد من مناطق أخرى. ولم يسمحوا للكبار أنْ يلجوا في نطاقها.

اللغة لا يمكن أنْ تضيع في التجوال. لم يكن بمقدور سَليطي اللسان من الكبار أنْ ينتزعوها منهم ولا أنْ يسرقها لصوص الليل. فاللغة لا تبلى كالجزمة، ولا تقمّل كالملابس الداخلية، بل تزداد ثراءً وإشراقاً كل يوم. وتنصاع لصاحبها وتطيعه. والأهم من ذلك كله - لا تخونه، وتظل دائماً إلى جانبه.

***

أحب الأطفال الشعر. كلا، لم يحبّوا الشعراء، بل أحبّوا القوافي التي اخترعوها بأنفسهم. أولئك الذين هم أكثر فطنة نظَموا مقاطع شعرية. ومَن هم أكثر خجلاً ردَّدوا المقاطع المختلقة. كل موقف وكل حدث بسيط، سواء كان ذلك أثناء الوقوف في طابور العشاء أو عند عدِّ القمل على القميص، يمكن أن يتحوَّل على الفور إلى تناغم رنان.

التهديد بضربة في الأنف -شيء. وشيء آخر تماماً- إعلان التهديد على شكل بيت شعري: «سألكمك على خَطمك حتى يطير الشرر من عينك». إنَّ عدم الثقة في كلام شخص ما والإبلاغ عنه -شيء. وشيء آخر تماماً- أن تستخلص ذلك بازدراء، وتخزه في عينه: «قلل الكلام. فإذاعة كلام الحافي مثل الدواء الشافي...». شيء أن تطلب من رفاقك التزام الصمت، وشيء آخر أن تزعق في وجوههم وتشتمهم: «ربَّ قول أشد من صول!»

ردَّ الأطفال مقابل أيَّ كلمة من الكبار بمقاطع شعرية. وتناثرت القوافي من أفواه الأطفال، مثل البصاق، عند أول حاجة لها.

فعندما كان دييف يحيي الأولاد: «طاب نهاركم!» -يأتيه الرد على الفور: «أطعموا صغاركم!» أو «ألا تعطوني ناركم؟». تعلن الممرضة بصوت عالٍ: «نحن نمر على بلدة أوجوفكا!»- فتنهال عليها اقتراحات الطهي على الفور: بجميع الأطعمة الروسية التي تنتهي بـ «...وفكا».

عزَّزَ الإيقاع الواضح المعنى البسيط للعبارات: فقد أصبحت الكلمات المقفاة تعويذة، واكتسبت خصائص سحرية. وأولئك الذين يعرفون سجع القوافي يتمتعون بهيبة ووزن.

كان غريغا ذو الأذن الواحدة شاعراً بلا شك. ذات مرة، نقلت الممرضات لدييف، بعد أنْ احمرَّت وجوههنّ من الخجل وخفضن أصواتهن إلى الهمس، سردَ قصائد غريغا (لم يكن من الصعب تذكرها، نظراً لأنها كانت بسيطة جداً وخارجة عن العرف اللغوي، وتنطبع في الذاكرة على الفور). مخصصة - حصرياً للمفوضة.

كانت ثمة أشياء بسيطة من بينها:

بيلايا، أيتها البيضاء،

غبية أنتِ، وحمقاء.

كان منها ما هو أصعب:

بيلايا – امرأة ناضجة،

لكنها مجنونة، مضطربة ومائجة.

في البداية، انفجر دييف ضاحكاً، كانت المقطوعات دقيقة جداً، ثم أطلق العنان للجدية، وهز رأسه على نحو الإدانة. وسأل: «وماذا يقرض من الشعر عني؟». اتضح أنه لم يُنشئ شيئاً. رئيس القطار حصل على ألقاب ذات قافية فحسب –رتيبة وغير لائقة في الغالب: دييف الحريف، دييف العِرّيف، دييف الخفيف... وقد نالت الألقاب شعبية– وكان الأطفال يدعون دييف مع الإضافة في غيابه.

قفّى الأطفالُ العالمَ، ووضعوه في سطور إيقاعية، كما لو كانوا بهذا يريدون إخضاعه. ولهذا تكللت بالنجاح فكرة قراءة ليرمونتوف في ساعات المساء بشكل غير متوقع. بدأت أمينة المكتبة بقصائد قصصية مستوحاة من الفلكلور. كانت تلك القصائد بسيطة ومتاحة لعقول الصغار –عن السفينة الطائرة، وعن الحورية، وعن العملاقين العجوزين. لكن اتضح أنَّ الحبكات لم تكن ذات أهمية قصوى– لم يستمع الأطفال إلى القصص، بل إلى موسيقى الشعر: من دون فهم حتى نصف الكلمات –فما تعني *صراعات الروح*، و*الأنبياء غير المرئيين* و*الأمواج اللازوردية* و*الكهوف المرجانية*؟– لم يسعوا على الإطلاق لمواكبة الحبكة، لكنهم استمتعوا بالإيقاع والقوافي. أو ربما، رسمها الأطفال في الورشة الشعرية؟

***

لم يُقفِّ الأطفال الكلمات فحسب، بل قفّوا أيضاً حوادث حياتهم الخاصة. لم يصادف دييف في أي مكان آخر مثل هذا العدد من الطقوس والمناسك كما في القطار «الضفيرة». الإيماءات الخاصة، والغمزات، وحركات اليدين والفرقعات، وحركات الرجلين الشبيهة بالرقص، والتعاويذ، والكلمات المتكررة – كل هذا شكّلَ لغة تواصل موازية للكلام العادي ومفهومة للأطفال فقط. وكذلك للمفوضة بيلايا.

سأل دييف:

– لماذا يبصقون باستمرار على الأرض من درجات عربة النقل؟ ويدفعون البصاق بعيداً وبانحراف حتى يوشكوا على السقوط من القطار.

فأوضحت بيلايا:

– إنهم يبصقون المصائب. وإذا كان البصاق المصيبة لا تسقط على الأرض بل على جانب العربة – فما الفائدة منه؟

– لا بأس، لماذا يلفّون الطفل على الأرض مثل الشوبك (المِرقاق) على العجين: ذهاباً وإياباً، ذهاباً وإياباً؟ والأرضيات لم تُغسَل منذ أنْ خرجنا من قازان، وحتى إنها باردة. أنّى دخلتَ إلى العربة، فستجد بكل تأكيد أنَّ شخصاً ما يدحرج شخصاً آخر على الوساخة، وتجد الآخرين ينظرون باندهاش.

– إنَّ أطفالك يطلبون ذلك بأنفسهم. فَهُم يعتقدون أنَّ الأمراض تتدحرج وتخرج منهم هكذا.

– ولماذا يشربون بعضهم من أقداح بعض؟ في البداية، يتناولون حصص الإعاشة، ثم يسكبون الماء في الأقداح الفارغة ويتناوبون الشرب منها.

– إنهم لا يستعيرون القدح من الجميع، بل من أكثرهم حظاً فقط: إذا شربتَ من هذا، ستسقط لك قطعة من حظ شخص آخر...

في الليل، يلطّخ الأطفال كعوبهم بالتراب (ليس في كل ليلة، بل فقط إذا ما صادفهم أسود وبدين في الطريق). وفي الصباح، عندما يحيّون بعضهم بعضاً، يلمسون بعضهم بعضاً أولاً بمفاصل أصابعهم (لمسة واحدة على مستوى العين، والثانية عند مستوى الصدر، والثالثة عند الخصر)، وبعد ذلك براحات أيديهم (صفقتان برنين ومصافحة واحدة). ويكدسون أظافرهم التي تُقضَم في شقوق الدِّكاك. قبل الأكل يرسم الكثيرون منهم شارة الصليب على أنفسهم أو يمسحون خدودهم بأيديهم حسب العادات الخاصة بالمسلمين من شعوب روسيا؛ والبعض يفعل الحركتين كلتيهما. جميع الأشياء المعدنية (صواميل، شظايا أدوات، قِطَع الأسلاك) التي يُعثَر عليها تُلتَقَط وتُعَلَّق على الجدران أو على رؤوس الأَسِرَّة... سرقوا الإبرة من الخياطة وتناوبوا على وضعها في زاوية منعزلة –على الرف الثالث، تحت

السقف- حتى خلال الغارة التالية، لا تعثر المفوضة على أداة الخياطة وتعيدها إلى صاحبتها.

تدريجياً، استوعب دييف عالم طقوس الأطفال المتنوع ولكن غير المعقد عموماً. كان هناك مفهومان رئيسان فيه، ركيزتان بُني النظام بأكمله عليهما.

الركيزة الأولى كانت تسمى *الحظ* -أو البخت، أو النَّصِيب، أو الحُظْوَة. أما المكونات الممتعة الأخرى للحياة- فهي الصحة، والصداقة، والشبع والسرور، والسعادة بشكل عام - مشتقة. ومن أجل جذب الحظ السعيد بالذات (أو لإخافة الحظ السيئ) نُفِّذَت جميع أنواع الحركات البهلوانية المثيرة، ووجِدَت الأشياء المعدنية وجرى الاستيلاء عليها (كان الفولاذ ذا قيمة عالية، وكان البرونز والنحاس الأصفر والحديد أقل قيمة)، يُضَحّى بالطعام، وتُختَرَع الألقاب. كانوا يطاردون الحظ، حلموا به، تفاخروا به. أصبح المحظوظون محبوبين، وغير المحظوظين منبوذين.

الركيزة الثانية كانت تسمى **نحن**. لمّا كان الأطفال محرومين من العائلة، وفي الواقع محرومين من أيّ مجتمع آخر منظم وفقاً للقواعد -من المدارس والجماعات- ابتكروا بأنفسهم قواعد لأنفسهم وأصبحوا جميعاً أُسرة. وقد عزَّزَت الصيغ اللفظية، والإيماءات المكتسبة، والطقوس المُمارَسة ورابط هذه القبيلة غير المتجانسة والمتنوعة، ومنحتها لحظات من الشعور المشترك.

فعندما يُعطي أحدهم وعداً جاداً، ينبغي عليه أن يضع قطعة من الطعام في كوعه المحني (الأفضل أن تكون قطعة من الخبز، ولكن بسبب نقصه، فإن قبصة من العصيدة أو بضع قطرات من الهلام تفي بالغرض) ويتناولها، وهو ينظر في عَينَي رفيقه.

وعند تقسيم الطعام، كي يكون متساوياً وعادلاً، يمسّه جميع المشاركين في العملية بالدَّور ويرددون العبارة: «ستُعطى قريباً، ليس للشرطي ولا للسافل، بل لك».

قبل أن تبدأ لعبة الورق -لتجنب الغش- أمسك يدك اليمنى وقل ثلاث مرات بصوت واحد: «شاهر ماهر، اذهب للهر!»

عندما تُقسِم صادقاً- أخرج لسانك ودع المحاور يلمسه بعناية بل يسحبه.

لاستعارة أشياء ثمينة -بطاقة بريدية إباحية أو كعب قلم رصاص- طُوِّرَت فعالية كاملة، بقدر ما يكون الأمر جدياً ومحفوفاً بالمخاطر. المالك -أمام الشهود، والأفضل أنْ يحضر أكبر عدد منهم- يسَلِّم الشيء على راحة يده مع عبارة: «ستكون مسؤولاً عنه». الطرف الثاني في المعاملة -قبل أنْ يلمس الشيء، ولكن فقط لتأكيد نيته الصادقة في استخدامه والتأكيد على إعادته- ينطق عبارة الرد: «أنا بالذات – متى ما أريد، وكيف ما أريد، وأين ما أريد وبأيّ شيء أريد». فيعزز المالك ما قيل بصيغة شفهية أخرى: «ليس من ذبابة، لا من بعوضة، بل منك». فيؤكد صاحب الالتماس: «أُعلِنُ، أنَّ الكلمة لا تتغير!». فيومئ الشهود برؤوسهم إيماءة وقار، وبعد ذلك فقط يُسمح له أنْ يأخذ الشيء...

وحتى أولئك الأولاد الذين جرى إجلاؤهم مؤخراً وقضوا وقتاً قصيراً جداً بصحبة أقرانهم المشردين من ذوي الخبرة، واستوعبوا هذه القواعد على الفور واستعملوها بكل بساطة: التعاويذ والكلمات السحرية والاحتفالات والطقوس كانت أكثر عدوى من التيفوئيد، وانتشرت أسرع من الكوليرا.

وهكذا، من خلال الهمس والبصق، حاول الأطفال السيطرة على العالم، أو على الأقل تهدئة روحه العدائية تجاههم.

***

كان الأطفال يرون أنَّ بيلايا ليست من جماعتهم، ولكنها في الوقت نفسه ليست غريبة عنهم. وعدّوا الكبار الآخرين غرباء (أو لصوصاً مغفَّلين، كما يسميهم الأولاد بازدراء): بمن فيهم دييف، والممرضات، وحتى الطباخ الصغير، الذي كان أكبر من الركاب بسنين قليلة. كانت المفوضة في مكان ما على الحدود بين عالم الكبار وعالم الأطفال.

لقد فهمت بيلايا خطاب الأطفال المشردين في القطار. وعرفت طقوسهم وممارساتهم المضنية بما فيها الليلية. ولم تكن بحاجة إلى شرح أهمية العادات الراسخة أو عدم انتهاك حرمة اليمين الذي يقسم به طفل لآخر. وكانوا يتبادلون معها النكات الخارجة عن اللياقة وحتى يطلبون النصيحة منها.

بين الحين والآخر، يأتي سعاة من عربات الركاب إلى مقصورة المفوضة،

مع أسئلة واقتراحات. لقد كانوا يطرقون بابها في أي وقت، أحياناً في وقت متأخر من الليل أو في الصباح الباكر، قبل الفجر -على ما يبدو، يأتون إليها وهم يركضون بمجرد أن تضيء فكرة مضطربة في رؤوسهم. بيلايا من طرفها لم ترفض الزيارة قط- لقد سمحت للضيوف بالدخول، حتى لو كانت قد هجعت إلى النوم في ذلك الوقت أو لم تكن قد استيقظت بعد.

حاول دييف ألا يفوِّت هذه الزيارات: فكان يفتح الباب المنزلق قليلاً ويستمع إلى هموم الأطفال ومخاوفهم وشكاويهم وأفكارهم. وطوال الوقت كان يسأل نفسه: كيف يجيب، دييف، على هذا السؤال أو ذاك، لو كان في مكانها؟ وفي كل مرة كان يضيع، لم يكن يعرف ماذا يقول: بدلاً من الإجابة، تراوده الكلمات البذيئة على اللسان فقط.

زارتها الفتاة الحامل تبروسيا - وسألت عما إذا كان من الممكن ربط بطنها التي بدأت تكبر من أجل تأخير لحظة الولادة حتى تصل إلى سمرقند من دون متاعب.

جاء إليها عباس الأشعث، وهو صبي بشكيري بلا أسنان تقريباً، وأوضح، من دون أيّ نوع من التباهي، أنه يمكنه سرقة كل ما يحتاجه في السوق - سواء المال أو الطعام. وقدم خدماته، لقد أراد حقاً أن يكون مفيداً لمن في القطار.

وأطلّ عليها الشقيقان التوأم بورزا وبورليلو - طلبا إبلاغهما بموعد الانعطاف إلى بلاد فارس. فقد هاجر والداهما إلى هناك منذ عام، وتركا الوَلَدَين في المنزل، على الموقد البارد، مع رغيف واحد من خبز البلوط لكليهما. ومنذ ذلك الحين، يحلم الوَلَدان بالوصول إلى البلد البعيد والعثور على والدهما ووالدتهما.

وفي الليل، جاءها طفل صغير اسمه القُزَيم، ذو ذراعين وساقين قصيرة وجبين كبير، في مظهر يشبه حقاً ناقصي الخِلقَة. وطلب أن يُشار له على كوكب المشتري بين النجوم: فوالداه، بالاتفاق مع الكبار الآخرين، انطلقا مع جميع أهل القرية وذهبا إلى المدينة، حيث وِعدوا بقطارات تذهب إلى كوكب المشتري. لقد تركوا الأطفال في الأكواخ - لم يأخذوا الصغار معهم إلى كوكب المشتري...

عرفت بيلايا الإجابة على جميع الأسئلة: حول المشتري وبلاد فارس ووصول القيصر الصيني وقيامة ولي العهد من الأموات والعثة البشرية وعن موت ديكة هيرودس، وحتى عن إبليس في الهاون.

وذات مرة جاء إليها بيتكا بومبادور، وهو طفل صغير كئيب ذو ساقَين منتفختين من داء الاستسقاء ودمامل في جميع رأسه. وقال من عتبة الباب:

- أريد الزواج.

فحبس دييف أنفاسه: حتى الصغير لديه الجرأة ليعلن حلمه بصوت عالٍ ومن دون مُسحَة من الحرج!

سألت بيلايا الطفل بهدوء:

- متى؟

- اليوم.

- تتزوّج مَن؟

- أنا لا أعرف بعد. هل تسمحين؟

هزّت بيلايا كتفيها وقالت:

- أنا موافقة.

فأومأ الولد برأسه على نحو جديّ وخرج، وراح يجرّ ساقيه المتورمتين ويتمايل قليلاً مثل البطة. وقال من الممر:

- إذاً، قولي للممرضات أنْ لا يعاندنَ. فهُنَّ طوال الوقت يثرثرنَ...

لم يستطع دييف أنْ يمسك نفسه فأخرج رأسه من المقصورة خلف الصبي وسأله:

- قُل لي، يا بومبادور، لماذا تريد الزواج؟

فالتفت الولد ونظر إليه بصرامة، ومن الواضح أنه يدينه على السؤال الغبي وغير اللائق. وأشار برأسه نحو عربة البنات، ثم مشى بعد أنْ قال:

- لماذا عليَّ أنْ أبقى عازباً؟

وقد عرف دييف وبيلايا تكملة القصة من الممرضات. عند وصوله إلى العربة، سار بيتكا ببطء عبر المقصورات: تجول بصمت ونظر في الوجوه، دافعاً الفتيات إلى الخجل. بحث عن عرائس محتملات -جميعهن المائة

راكبة، بمن فيهن صبايا تتراوح أعمارهن بين أربع وخمس سنوات- وعاد إلى دكة الوقواق. وسألها بكل صراحة من دون مقدمات:

- هل ستتزوجينني؟

أطرقت البنت برأسها، وقالت:

- أنا ابنة محطات القطارات...

اعترض قائلاً:

- لننسَ. ما فات مات.

أومأت برأسها بالموافقة.

جلس بومبادور على مقعد قريب وأخذ العروس من يدها. وهكذا نجح الأمر.

فركضت الممرضة على الفور إلى مقصورة المفوضة وأبلغتها عن «الزفاف» الذي جرى. أعطت بيلايا الأمر «بعدم الثرثرة». والمراقبة.

جلس العريسان بقية اليوم ممسكين بعضهما بيدي بعض. وقرب المساء بدآ يتحدثان -بصوت منخفض، في همس لا يسمعه أحد؛ ربما، آنذاك كانا يتعارفان. تناولا العشاء، جالسيَن جنباً إلى جنب: كان لابد من فك اشتباك الأصابع من أجل تناول قدح العصيدة، ولكن بعد كل رشفة كانا يرفعان أعينهما بعضهما على بعض فتلتقي نظراتهما. لم يكمل بيتكا حصته: احتسى المرق، وأعطى التلذذ والمذاق- ثفالة الحبوب ومهروس البطاطا - إلى «زوجته»، وهي أعطت ثفالتها إلى «زوجها».

ذهب بومبادور إلى فراشه لينام، لكن عند الفجر جاء مرة أخرى إلى عربة البنات. كانت الوقواق تنتظره، بعد أنْ استيقظت وغسلت وجهها قبل الجميع... واستمرا على هذا المنوال: عاشت «العائلة» على دكة الوقواق، لا يفترقان إلا في الليل؛ جرت حياتهما المشاركة على نحو هادئ - ينظران من النافذة، ويهمسان، ويرقدان جنباً إلى جنب. وكان كفَّاهما متشابكَين على الدوام. من جميع النواحي الأخرى، تبين أنَّ هذا «الزواج» عفيف تماماً، الأمر الذي طمأن الممرضات والمفوضة.

***

وسرعان ما اجتاح وباء التزاوج القطار، مثل الكوليرا. فقد «خطب» غيلاسكا المشاغب فيرا الباردة -على الرغم من حقيقة أنه أقصر منها بنصف رأس وأصغر منها بعامين. رفُّ فيرا في طبقة الرفوف الثالثة، تحت السقف مباشرة، فتعيَّن على «العريسَين» أن يعيشا الحياة العائلية مستَلقِيَين: لا يمكن في مكان فيرا أنْ يجلسا جنباً إلى جنب ولا أنْ ينظرا من النافذة. لكن الرفاق تركا غيلاسكا وفيرا يجلسان في المقاعد السفلية- «يجلسان كضيفين».

اختار مصطفى الشُّح صالحة العوراء برغم أنَّ عينها اليسرى شبه عمياء. ساراتسين المتلعثم الصامت اختار موخا لوكسمبورغ الثرثارة.

«تزوج» يروشكا الثفل من ياسيا الطفلة، لكنه لم يكن «زوجاً» مثالياً، ونادراً ما يزور الصبية التي اختارها. وصارت ياسيا تنظره يوماً بعد يوم، لكنها لم ترغب في الركض وراء يروشكا - بدافع الفخر.

تقدم حميد صاحب الضجيج لخطبة الجميلة مانانا المشمشة، لكنها رفضت، علاوة على ذلك، رفضته مرتين وأمام الجالسين في العربة كلهم. فوجد حميد العزاء في التوجه إلى فتاة أخرى، وهي أيضاً فتاة بارزة تحمل لقباً صارماً، تاسيا غير العاهرة، لكن ارتباطهما لم يدُم طويلاً وانحلَّ في غضون يومين.

تسكع كليوكا في عربة البنات لساعات، من دون أن يجرؤ على اختيار فتاة له. فاختارته إحداهن بنفسها: إنها الصبية الهادئة ذات اليدين المثقوبتين بحُقَن المورفين، إميليا غالوتي، بدون كلمة واحدة وبدون أنْ ترفع عينيها إلى «العريس»، أخذت بكل بساطة كليكا، الذي كان يمشي من جنبها، من يده وأجلسته على رفها - وبذلك قطعت الثرثرة الشديدة. فسمح لها بطواعية وبارتياح.

واختارت جمال النحيلة «زوجها» بنفسها. فبمجرد أن رأت مرشحةً أخرى على العتبة، قفزت من على الدكة وهرعت نحوه، وطلبت منه بصوت خشن: «خذني». فوافق بيب الحديدي وقال على نحو جِدّي: «سوف آخذك». وأخذها بالفعل.

إيسيا القليل النفع اختار نوتيا سامحني يا رب. شامل إبلاس اختار ألكا المساهمة. بولات الوسخ اختار إلكا اليابسة.

وراحت الأزواج تتشكل واحداً تلو الآخر، وبالكاد يكفيك الوقت لملاحظة ذلك. وبدأت الفتيات في تلطيخ حواجبهن بالفحم، وبدأ الأولاد يزيلون القمل من شَعرهم بالتمشيط بجدية أكبر.

حَجي مراد وناستيا المدعي العام. تشاتشا نبيذ تسيناندالي وسيما اشرب النفط. كوستيا المَلَكي وديلار من بوغولما...

ومثلما بدأ وباء الزواج باندفاع عنيف، سرعان ما خفتت حدته وانتهى. ظل بعض الأزواج مخلصين ويتوقون إلى البقاء بعضهم إلى جانب بعض. وأصيب قسم منهم بالملل بعضهم من بعض وأنهَوا «الحياة الأُسَرية». لكن الحالة الزوجية اعتز بها الجميع.

الأولاد، من منطلق نفورهم من الكلمة «زوجة»، يقولون عنها بكل بساطة «صاحبتي»، مع تشديد مُعَيَّن. في عربات الأولاد، تصدح في جميع التوافقات: «لكن لا تخبر صاحبتي عن ذلك -سيتكدر عيشها حتى تهلك!»- «صاحبتي جنَّ جنونها يوم أمس...» - «انطلق، وإلا صاحبتي ستنهال علينا بالشتم...»

ولكن في عربة البنات تتردد الكلمة «زوجي» (لا الكلمة «صاحبي»، ولا أيّ تعبير آخر، ولكن فحسب وبالتأكيد «زوجي»، بصوت عالٍ وبكل فخر): «سأطلب من زوجـي». «زوجي لن يسمح لي». «أوه، هذا لن يعجب زوجي...»

وحتى الأولاد الساخرون والمشوِّهون للسمعة في العادة كانوا لطيفين في تعاملهم مع مسألة الزواج. فلم تُسمَع نكتة واحدة في القطار حول «المتزوجين». فقد نظر إليهم «العزاب» باحترام وحسد طفيف يعترفون بحقهم في أن يكونوا معاً.

***

كانت فاطمة تنادي جميع الأولاد باسم إسكندر: الشباب من طاقم العمل، الصبيان البالغين في عربات الركوب. ليس مع نفسها، وليس بصوت منخفض ولا جانباً، بل جهراً وبصوت عالٍ. وكذلك كانت تعانقهم وتقبّلهم.

بغض النظر عمن يمر من جانبها -حدث متخلف عن أقرانه جاء إلى بيلايا للحصول على المشورة، أو طفل يبلغ من العمر ثلاث سنوات يسير خلف الكبار- لابد أنهم جميعاً يبطئون من حركتهم بجوار فاطمة. فتترك عملها على الفور وتُربِّت للضيف على رأسه المحلوق أو على خديه، وفي أغلب الأحيان تحضنه على صدرها وتخفض شفتيها إلى هامته الشائكة التي تمسك بها: «أنت إسكندر، ابني إسكندر...»

فيتجمد الأولاد الخشنون، الذين يحيط بهم الجسد الأنثوي الناعم المَهيب. لم يفلت أحد منها، ولم يطلب أن تدعوه بكنيته: وافقوا على أن يكونوا إسكندر مقابل مداعبة وقبلة لمدة ثانية. وهرع البعض إلى عربة الموظفين من دون سبب، وأحياناً عدة مرات في اليوم - من أجل الحنان، مثلما يهرعون من أجل الخبز.

غضب منها دييف وقال لها:

- لا ينبغي لكِ أن تعانقيهم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

فردت بابتسامة:

- لِمَ ذلك؟

- ولا تقبِّليهم أيضاً!

فسألت مرة أخرى بابتسامة

- ولماذا هذا؟

- لن يكون بمقدورِكِ أنْ تقبّلي الجميع.

لم تعد تبتسم، بل ضحكت بصدقٍ وعلى المكشوف:

- كيف تعرف؟

ولم يكن لدى دييف ما يرد به عليها. وشعر بالخجل من الاعتراف بأنه في بعض الأحيان يود أن يقف، مثل الأولاد، ويدفن وجهه في هذا الصدر الناعم.

قرر دييف ذات يوم أنْ يجرؤ ويسألها:

- هل اسم ابنك إسكندر؟

أومأت برأسها ببطء وأضافت بغرابة:

– لم يكن الأمر يستحق أنْ أسمّي الطفل على اسم الفاتح العظيم.

فبقي دييف حائراً لا يعرف ماذا تقصد!

نادراً ما كان دييف يفهمها. من المفترض أنها أجابت على سؤاله، ومن المفترَض بكلمات روسية. لكنه لم يفهم.

– لماذا التحقتِ بالقطار، يا فاطمة؟

هزت كتفيها واحتضنت رؤوس الأطفال، الذين لابد أنْ يكونوا بالقرب منها كما في العادة، بمجرد أنْ تمد يدها إليهم.

تنهدت وابتسمت كأنها تعتذر:

– ما أكثرهم. وما أكثر البهجة...

هناك بالضبط خمسمائة طفل في القطار «الضفيرة». لا بأس، ما أكثرهم، ولكن أين البهجة هنا؟

ربما كانت فاطمة، الوحيدة من بين الكبار، التي أحبّت التواجد في القطار «الضفيرة» حقاً. الباقون –دييف نفسه، وبيلايا، والممرضات الكادحات– كانوا يتململون في العمل بوظيفتهم، وكانوا يرغبون بصدق في الوصول إلى سمرقند في أسرع وقت ممكن. لكن فاطمة لم تكن في عجلة من أمرها للوصول. كانت تستمتع بحصص نخالة الإعاشة السائلة في القطار. وترعى الرضيع بكل سرور. وتقضي الليل على السرير الخشبي المسيج بقماش الشيت المجعَّد، وهي تهزّ الكتكوت الصغير هزّاً متواصِلاً. ناهيكَ عن غسيل الثياب والتنظيف وغسل الأرضية... لم يستوعب دييف ذلك على الإطلاق وهو يقارن: الدراسة في جامعة زيورخ بالخارج –وشطف الملابس؛ كلامها الذي كأنه مُستَل من كتاب– وشغفها بالطفل اللقيط.

– هل يعجبك المكان هنا، يا فاطمة؟

ومرة أخرى أجابت كما لو كانت ترد ببيت من الشعر:

– أود لو نسير إلى ما لا نهاية.

استشاط دييف غضباً على الفور، وسأل:

– كيف يمكن أنْ نسير إلى ما لا نهاية؟ من أين يمكنني الحصول على هكذا كمية من الطعام؟...

إلى جانبها، شعر دييف كأنه صبي. لم يكمن الأمر حتى في إجاباتها الغريبة ولا في علامات التقدم في العمر، التي برزت بشكل أوضح بسبب طول الطريق: التجاعيد حول العينين، والخصلات البيضاء في الضفائر. عاشت فيها قوة ما جبارة وناعمة، أخضعت كلاً من الأولاد الخشنين، وميميليا الأحمق، وحتى المساعد الطبي العجوز.

حتى إنه اعتاد النظر إلى عربة الموظفين - ليس أثناء النهار، بل بالتأكيد في المساء، عندما كانت العربات تستعد للنوم. تارة يستعير شفرة حلاقة من دييف، وتارة يطلب من بيلايا قلم رصاص، وتارة يواصل الحديث الذي جرى في الصباح ثم انتهى. ولم يكن يستعجل العودة إلى المستوصف. فما الذي ينتظره هناك؟ في البداية لم يستطع دييف أنْ يفهم سبب حضور بوغ، لكنه فيما بعد خمَّن: كان بوغ ينتظر التهويدة. الرجل ذو الشعر الأبيض، واليدين اللتين انتثر عليهما النمش مثل حبات الحنطة السوداء، الذي نبتت خصلات من الشعر الأبيض من أذنيه الكبيرتين، ينتظر تهويدة.

وصار دييف يضيّفه الشاي: أجلسه في مقصورته وسكب له قدحاً من الماء المغلي مع حفنة من العشب المفروم. جلس إلى جانبه.

كانا يجلسان في صمت، ممسكَين بالقدحين الساخنين في يديهما وبالكاد يتبادلان بضع جمل. عَلِمَ كلاهما أنه لا ينبغي الحديث الآن عن شؤون المستوصف، ولم يتكلما - لقد حرسا الدقائق القصيرة من الفرح القادم. علِمَ كلاهما أنَّ محادثة الشاي هذه لم تكن محادثة شاي البتّة، بل ليست محادثة على الإطلاق، إنما هي ترقّب، لكن كان من المحرج لهما الاعتراف بذلك بعضهما لبعض. وعندما انطفأت جميع المصابيح في عربة الموظفين وامتلأ الظلام بالصوت الأنثوي الهادئ، تبدد الإحراج.

ليتني أرقد كذرة غبار على حذائك،

وكقطرة مطر على كتفيك، وكالرياح على وجهك -

كم يصعب عليَّ أنْ أفتح أحضاني وأتركك ترحل.

لكني لا أريد أن أثقل طريقك.

امشِ وحدك، امش بحرية، يا إسكندر.

شعرَ دييف بالأسى بعض الشيء على الأمسيات التي استمع فيها إلى التهويدة بمفرده - آنذاك خُيِّلَ إليه أنَّ فاطمة كانت تغني له وحده. لكنه تغلب على نفسه، ونهاها عن الطمع: لقد كانت الأغنية من الحُسن أنها لا يمكن أن تكون من نصيب أيِّ شخص بمفرده، حتى في الأحلام.

هذه الأغنية غيرت كل شيء. وغطّت على حقيقة أن خمسمائة طفل تخلت عنهم أمهاتهم: أُلقُوا في الثلج، أو تُرِكوا على درجات مأوى الأطفال المشردين، أو نُسُوا في محطات السكك الحديد. وحقيقة أنَّ بانتظار القطار سهوبُ الجياع والصحراءُ. وأنَّ مخازن المطبخ خاوية، وحجرة الفحم فارغة. وأنَّ أولئك الذين ما زالوا يتنفسون في عربة المستوصف بالكاد يمكن مساعدتهم... ألغت الأغنية كل هذا، حتى ولو لبضع دقائق.

لا تتذكرني.
لا تدع الذاكرة تسحبك إلى المنزل - كالحجر إلى القاع.
انسَني مدة طويلة -
كي تذكرني في نهاية الطريق.

جلس العجوز واتكأ على ظهر الأريكة، بعد أنْ أغمض عينيه. كان ضخماً جداً لدرجة أنه كاد يشغل بجسده جميع المقصورة، فحشر دييف نفسه في ركن الأريكة، خوفاً من الإساءة للضيف عن غير قصد. أمسك كلاهما القدحين الممتلئين بالشاي غير المشروب في يديهما - الماء المغلي برد، لكن الدفء المتلاشي دخل راحة يديهما وظل هناك.

أنا سوف أتذكر - بدلاً عنّا، نحن الاثنين.
سأبكي - بدلاً عن سبعة.
سأنتظر - بدلاً عن جميع أمهات العالم.
نَمْ، يا بُنَي، ليلتنا هذه الأخيرة،
نَمْ - واستيقظ رجلاً.

***

تحولت العشرة أيام في الطريق من أرزاماس إلى بوزولوك بالنسبة لدييف إلى يوم واحد، تكرر عشر مرات -دار مثل العجلة من الساعة الأولى إلى الساعة الأخيرة. كانت تلك عجلة ملعونة- لا يمكن كسرها أو تمزيقها.

في الصباح كان يستيقظ - لا ينهض، بل ينتظر حتى يتحول لون هواء الليل الأسود إلى اللون الرمادي (يبدو أنه نسي كيف ينام على الإطلاق، لكنَّ هذا لم يعذبه، فقد اعتاد على ذلك). يغلق الباب المنزلق، الذي صار يتركه مفتوحاً الآن طوال الليل، بعناية، حتى لا يوقظ بيلايا. في كل مرة تنتابه الرغبة في أنْ يدسَّ رأسه من خلال فجوة الباب وينظر إلى المرأة النائمة، لكنه لم يسمح لنفسه: فالصباح ليس وقت رفع الكلفة.

بعد لحظة، يزحف زاغريكا شبه نائم من تحت الأريكة.

فينظر دييف إلى عينيه الخَدِرَتَين ويقول:

- لا بأس، مرحباً، يا أخي.

فتضيق عيناه ثم تصحوان تدريجياً. ويتثاءب الصبي، ويمطّ ذراعيه وساقيه، الخاملة من النوم، في جميع الاتجاهات، وسرعان ما يتخذ هيئة رباطة الجأش الوحشية المعتادة.

فيسأله دييف:

- ألا نذهب؟

لم يتوقع دييف إجابة منه، لكن العبارات القصيرة خلقت مظهر التواصل. لقد تعود بالفعل على إلقاء الكلمات على الطفل: الكلمة الأولى، والثانية، والعاشرة - وكأنهما يتكلمان.

وقد رأى دييف بوضوح في نظرة الطفل الثاقبة أنَّ الطفل فهم الخطاب الموجه إليه، وأراده، وابتهج به، برغم أنه لم يكن يعرف كيف يعبر عن فرحه: كان وجهه غير المعبّر وبالتالي الباهت دائماً كئيباً.

غادرا المقصورة. خَطَوا بهدوء، وتسلَلا على طول العربة التي لا يزال أهلها نائمين، واندفعا عبر الباب الأمامي، وبعد أنْ تشبثا بمساند تعليق الفوانيس، صعدا إلى السطح. استقرا بين الفتحات والمداخن، وولَّيا وجهيهما شطر الشرق، وجعلا ينتظران.

من خلال لون السماء، كان واضحاً ما إذا كانا سيريان شروق الشمس هذا اليوم. إذا ما ارتفعت سحابة داكنة ممطرة فوق رأسيهما، فإنهما ببساطة سوف يشاهدان كيف تتوهج الغيوم من الضوء الذي يغمرها. في الصباح الصافي، كانا يستمتعان بالنظر إلى قرص الشمس نفسه – القرمزي، الأحمر، الأصفر، الذي يرتفع من خلف الأفق أو من الغيوم الملتهبة، وهي تنثر الشرَرَ والوميض عبر السماء.

عرَّض دييف وجهه للأشعة الوردية، بينما زاغريكا كان يحدق أكثر إلى وجه سيده.

فكَّرَ دييف في أنَّ هذه الصورة الممتعة لن تكون آخر حدث جيد لهذا اليوم، وقال متنهداً:

– انظر إلى الشمس، أيها الأحمق.

عندما طلعت الشمس تماماً من تحت الأفق، نزل دييف مع الطفل الذي يسير خلفه كظله إلى عربة الموظفين وراح يطبطب بقدميه في القطار، إذ لم يعد يخشى إيقاظ الناس، وأعلنا عن قدوم الصباح. تحت وقع أنين الأولاد وأصوات الممرضات الصارمة، استيقظ القطار «الضفيرة». تلقى دييف وهو يمشي تقارير الممرضات حول الليلة الماضية، وزغريكا يدبّ خلفه؛ لم يلمسه الأطفال بل تجنبوه قليلاً.

وأخيراً كان ينتهي بهما المطاف إلى عربة المستوصف. خلال الرحلة، ذهب دييف إلى هناك ما يقرب من مائة مرة وفي كل مرة يندهش من جديد من الصمت الذي ساد هناك. كان الصمت خارج النافذة، حتى في المحطات الصغيرة في السهوب الصحراوية، مُفعماً بالأصوات: حفيف الأعشاب ورفرفة أجنحة الطيور، وصفير الريح. لكنَّ الصمت في المستوصف -سُكُون مُطبِق؛ ملأته حركة جسد المساعد الطبي الكبير فقط. السقم المُقعَدون الراقدون لم يصدروا أصواتاً- لم يتكلموا ولم يتحركوا، وبدا أنهم لم يعودوا يتنفسون.

لقد اختفوا. كلا، كانت أجسادهم لا تزال راقدة على الأَسرّة، مدثَّرة في أكياس الأمتعة، لكن علامات الحياة كانت تغادر هذه الأجساد ببطء:

العيون غارت بشكل أعمق، وصارت عبارة عن ثقوب داكنة على الوجوه؛ رَقَّ الجلد وأصبح شفافاً، ولم يعد يخفي تقريباً الأوردة التي تشابكت على الجسد؛ وتلاشت الحركات الصغيرة التي لاحظها دييف في بداية الرحلة، -ارتعاش الجفون، وتجعدات الوجه التي تعبر عن الاستياء، والتقلبات بحثاً عن وضعية مريحة. الطفل ضحكة الصرصار توقف عن الضحك. البندول- توقف عن التأرجح في السرير، وإسقاط البطانية الكيس مكوّمةً. المبحوح -كفَّ عن التمتمة بالصلوات بصوت مزكوم. والطفل المَدفَن- لم يعد يتأوه في المنام. والطفل ليسيا بين الحياة والموت - لم يعد يكرر بشكوى أنه «بين الحياة والموت».

من دون أن ينبس المساعد الطبي ببنت شفة، كان بإمكان دييف أن يرى من وجهه ما إذا كانت هناك أي أخبار أثناء الليل - عمّا إذا كان أحدهم يرقد في المستوصف ووجهه مغطى. والمثير للدهشة أنَّ الأخبار كانت قليلة الحدوث في الليل. عادة ما يموت الكثير من الناس في المستشفيات ليلاً، لكن الأجساد الطريحة الفراش هنا لم تعد تميز الليل من النهار. وإذا ما كانت ثمة أخبار، فإنَّ الجثة تُترك على السرير حتى المساء: في الصباح لم يكن هناك وقت لدفن الميت.

أولاً، يطعمون الأطفال. (يستيقظ ميميليا مبكراً، وبحلول الفجر يكون قد طهى طعاماً ساخناً؛ وبناءً على تعليمات دييف، أحضر الإفطار أولاً إلى المستوصف وبعد ذلك فقط إلى بقية العربات). كان دييف وبوغ يُطعمان السقم المُقعَدين معاً؛ ويستلقي زاغريكا تحت المقعد ويتجمد في الانتظار، مثل جرو وفيّ.

لم يكن دييف نفسه يعرف لماذا يُغذّي المُقعَدين الراقدين بالهلام أو بمخفوق البيض كل صباح؛ ربما، كان يشعر بالارتياح لرؤية الطعام الذي يختفي في أجساد الأطفال.

في وجبة الإفطار كانا يناقشان ما ينقص المستوصف. توقف المساعد الطبي منذ فترة طويلة عن الطلبات، وتوقف دييف عن الغضب رداً على ذلك: تحدثا بهدوء، كما لو كانا يتحدثان عن أيّ نوع من الهراء.

صبَّ بوغ السائل اللزج قطرة تلو الأخرى من القدح في فم الطفلة النحلة نصف المفتوح أو في فم ذي الأنف الطويل، وقال:

- ليتنا نجد العسل. العسل لقرحة الفراش - العلاج الأول. أو: ليتنا نجد الصابون. ليس ثمة شيء أفضل منه لعلاج الجروح المتعفنة. أو: نجد وسائد طرية وناعمة، كي توضع تحت الظهر وتحت الأرداف. وبخلاف ذلك، فإنَّ العمود الفقري سوف يمزّق الجلد. فها هي، جميع الأَسِرَّة ملطخة بالدم.

أومأ دييف برأسه موافِقاً: العسل والصابون والوسائد ضرورية جداً - سنحاول أنْ نعثر عليها.

هذا الوفاق الذي ساد بينهما كان مطمئِناً أيضاً. كما لو كان يمكن شراء العسل والصابون من أقرب سوق بثلاثة كوبيكات. كما لو أن العسل والصابون يمكن أن يساعدا.

بعدما يُطعَم الأطفال، تكون الشمس قد ارتفعت، فيُحمل الجميع ويؤخَذون في «نزهة». هذه البدعة ابتكرها المساعد الطبي. حاول شرح الفكرة وتحدث لمدة طويلة عن الركود في الرئتين، ودوران الأوكسجين في الدم والالتهاب الرئوي المحتمل، لكن دييف لم يكن قط بحاجة إلى كلمات غير ضرورية: طالما أنَّ الأمر مطلوب فليكن كذلك.

لم تكن العملية سهلة. احتاج الجميع إلى أنْ يُقَمَّطوا وأنْ يُلَفّوا بعناية، من دون الإضرار بالقرحة - في تلك الملابس الدافئة القليلة التي كانت في القطار: سترة المفوضة العسكرية، ومعاطف الممرضات، وسترة الطباخ. ووضِعَت على رؤوسهم قبعات وبيريّات، أُخِذَت كذلك من الممرضات. ولُفَّت فوقهم البطانية الكيس وأُخِذوا إلى الخارج.

ارتأى المساعد الطبي أنْ يكون المكوث في الهواء الطلق لمدة ربع ساعة على الأقل. في البداية قرروا أن يمشوا حاملين المرضى على الأيدي مثل الأطفال الرُّضَّع، لكن هذا استغرق الكثير من الوقت. فعَزَموا على وضعهم على منصات العربات، لكن المشابك المعدنية كانت باردة وتسمح للريح بالمرور. وبقوا مدة طويلة يبحثون عن شيء يكون بديلاً عن كراسي

الاستلقاء للتشمس، وفي النهاية توصّلوا إلى وضع الحُزَم التي فيها الأطفال على أجنحة القاطرة. ما المانع من جعلها مكاناً للحمامات الشمسية؟

بحلول ذلك الوقت، تكون القاطرة قد شُغِّلَت وصارت على أهبة الاستعداد للانطلاق في الرحلة. استلقى الأطفال على الكتلة المجلجِلَة والنّافخة كالحقائب الثابتة الملفوفة في أكياس عليها نقوش رسمية أرجوانية. ارتجفت الماكنة قليلاً من اضطراب الحياة الآلية بداخلها، وانتقل هذا الارتعاش إلى الأكياس - كان من الضروري مراقبتها حتى لا تُرمى عن غير قصد على الأرض.

لم يوافق سائق القطار على فكرة القيام بجولات على ظهر القاطرة البخارية، لكنه لم يجادل الرئيس؛ لاحظ دييف أنه عندما يقع بصره على الأطفال المُقعَدين يُعرِض بوجهه عنهم.

في الطريق -في بعض الأحيان كانوا يزحفون على القضبان لبضع ساعات فقط، وفي بعض الأحيان كان هناك وقود كافٍ لرحلة نصف يوم- فكَّر دييف في أنه ينبغي عليه أنْ يسعى للغنيمة. أنْ يحاول الحصول على الصابون والمؤن. ولم يكن الفحم اللازم لإشعال القاطرة البخارية لديهم بالقدر المطلوب. بيد أنَّ دييف تذكر قانون الصياد الرئيس: أبقِ عينيك وأذنيك مفتوحة - دائماً.

انظر من النافذة إلى كل شجيرة تَمُر من جانبكَ، وإلى كل حجر على طول الطريق، بل اجلس على السطح وافحص المناطق المحيطة من الأعلى حتى لا يفوتك أي شيء. وانظر إلى كل طريدة تصادفك أو طائر يطير من جانبك، على أنه فريسة يجب اقتناصها. استمع إلى النازحين في المحطات الصغيرة، وإلى حراس المحطات، وإلى الأطفال المشردين المنتشرين حول جدران المحطة. أصغِ إلى ما تحتاجه فقط. الحظُّ لا يختبئ حيث تنتظره.

في بلدة روزايفكا (وهي مركز تقاطع كبير، فيها محطة سكة حديد ومستودع لتصليح القاطرات) طمحَ دييف إلى الحصول على الكثير وراح على الفور يبحث عن كل شيء في وقت واحد: الطعام أو الحطب أو المِغسَل الذي يوافق على غسل بياضات أسِرَّة القطار خلال ليلة. ولكنه لم

يجد أيَّ شيء. بيد أنه أثناء ما كان يجوب المنطقة بحثاً عن ضالته، رأى في أفنية الخَزن الخلفية صهريجاً فارغاً، متسخاً ومغطى ببقع الزيت؛ عادة ما يُنقَل شحم الحوت في مثل هذا الصهريج. اتضح ذلك بالفعل. فقد جُلِبَ فيه ذات مرة دهن الحوت، لكنهم لم يعرفوا ماذا يفعلون بالحاوية الفارغة بعد ذلك، فتركوها هنا حتى تصدر الأوامر بخصوصها. طلبَ دييف من رئيس المحطة: «دعني أكشط البقايا من القاع». فابتسم الرجل وسمح: «اكشط إذا وجدتَ قطرة». وعبثاً ابتسم ابتسامة ساخرةً: زحف دييف وبوغ طوال المساء في الخزان البارد، وكادا يختنقان من رائحة السمك الكريهة وهما يمسحان الجدران بزغب القصب؛ وخرجا من الخزان بدلو من الكتل الناقعة بالدهون - كي تُستعمَل لتليين قرحات الفراش.

في بلدة سيزران، ركض في المدينة يبحث عن المستحيل -عن وسائد الريش. ذهب إلى إدارة التجهيزات في المدينة، وإلى مجلس المدينة وفي قسم الشرطة. في كل مكان كانوا ينظرون إليه مثل ما ينظرون إلى الأبله، ويكاد كل واحد منهم أن يلفّ سبّابته على صدغه (كعادة الروس عندما يصفون المعتوه). قال دييف بفظاظة في مركز الشرطة: «أين، برأيك، يجب أن أبحث عن الوسائد؟ في السهوب؟»، عندما رأى بالصدفة كيف أُحضِر صانعو الكحول المقطَّر في المنازل (الساموغون) الذين قُبِض عليهم متلبسين. واستجدى مُتوسّلاً جزءاً من الحيثيات المادية- ثلاث زجاجات من المشروب الكحولي العَكِر الناتج في بداية عملية التقطير المنزلي: حتى وإنْ لم يكن كحولاً، فإنه سيكون مناسباً تماماً للتطهير في عربة المستوصف.

وفي مدينة سامارا، تصرف بوقاحة: لم يذهب إلى إدارة التجهيزات، بل ذهب مباشرة إلى مصنع الصابون -لطلب الصابون. لم يُعطه المدير وقال: البضائع للتخصيصات الطبية، والمساءلة صارمة، ولا يمكننا العبث بها. وعندما غادر دييف خالي الوفاض، لاحظ وجود عربة من محطة التطهير في الفناء- جاءت من أجل المُنظفات، التي تُغلى فيها البياضات المتسخة بشكل خاص. فقام برشوة السائق: مقابل زجاجة ساموغون من احتياطي المستوصف، فوافق الرجل على أخذ خمسمائة قميص وتهريبها لتطهيرها -في النوبة الليلية، عندما يكون أرباب العمل نائمين، والعمال لا يمانعون

الحصول على كأس من الكحول المجاني. لقد فعلوا كل شيء بعد حلول الظلام: أخرجوا القمصان من القطار «الضفيرة» عند غروب الشمس، وأعادوها في الصباح- مبتلة، معصورة للتو، لكن تفوح منها بصدق رائحة الصابون والمواد الكيميائية السيئة الأخرى.

بالقرب من بلدة كينيل لاحظ دييف قافلة للدعاية السياسية تمتد على طول القضبان: جمل يجر عربة كبيرة مسقوفة، مصبوغة بألوان براقة وعليها شعارات، لاحت منها عدة وجوه شابة ومرحة. صاح دييف من درج العربة: «هل عندكم كتب أطفال؟». ابتسم الشباب وردّوا عليه: «الأغاني فقط!». فاتفق معهم على الأداء للأطفال في القطار. وبينما كان القطار «الضفيرة» يتزود بالماء والرمل، هرع فريق الدعاية عبر العربات: على أنغام آلة الهارمونيكا وجلجلة الملاعق، وغنوا في كل عربة أغنية بكلمات لاذعة، تتكون بالكامل من مفردات مخترعة، نوع من صلصة الخل المبهجة التي أذهلت دييف، وأشاعت البهجة لدى الأطفال. وعندما وصل الشباب الدعاة إلى عربة المستوصف ارتبكوا وأرادوا إنهاء الحفل، لكن المساعد الطبي والسقم المُقعَدين أيضاً طلبوا منهم أنْ يغنوا، فغنوا. فصدحت في عربة الكنيسة السابقة مقطوعات خفيفة بكلمات مبتدعة. ربما، استمع إليها الأطفال الذين كانوا يرقدون بلا حراك على الأَسِرَّة...

لم يصبح دييف مجرد صياد، بل كلب صيدٍ يشم رائحة الفريسة على بعد فرسخ ويسارع إليها عبر الغابات والمستنقعات. أصبح دييف مفترساً: أمسك بكل ما يمكن إطعام الأطفال به أو تدفئتهم أو إثارة البهجة في أرواحهم، وجره إلى القطار «الضفيرة».

كان يعلم أن وراء هذا البحث اللامتناهي -الشم والتتبع والمطاردة والتسول- يخفي الخوف: بعد النهار، سيأتي الليل دائماً. لذا، مرة أخرى سوف يحتاج إلى الذهاب إلى السقم الطريحي الفراش.

سقط الغسق وتكثف واستحال ليلاً. ذاب القطار «الضفيرة» تقريباً في هذا الظلام، وتوهجت النوافذ بضوء المصابيح النفطية، وحامت كالمربعات الصفراء فوق الأرض. في ساعة النوم الزرقاء هذه، رقد الأطفال الأكبر سناً

على الأَسِرَّة، يستمعون إلى قصائد ليرمونتوف، وغنت فاطمة للأطفال، وجاء بوغ إلى عربة الموظفين - من أجل أنْ يسمع التهويدة. ثم عادا معاً إلى المستوصف.

اتجه بوغ مباشرة إلى السرير الذي جرت فيه الأخبار الحالية. وضع الفانوس النفطي على رأس السرير وأزاح الخيش من على وجه الراقد. نظر دييف إلى الوجه المتيبس، وفي كل مرة كان يتعرف بصعوبة على الطفل -الأنوف الرقيقة والعيون الزجاجية حوَّلت الأطفال إلى دمى، بالكاد تشبه ذواتهم السابقة. لسبب ما، لم يُغمِض بوغ جفونهم، لكنه في المقابل رسم ابتسامة من شفاههم قبل أنْ تتصلَّب العضلات- كان الموتى جميعهم يبتسمون.

أومأ دييف برأسه. فلفَّ المساعد الطبي الجثة في الكيس؛ ورفعها، بسهولة، مثلما يرفع رضيعاً، وناولها إلى الرئيس؛ أخذ الفانوس النفطي وسار في الأمام مضيئاً الطريق. وعند المخرج، أمسك بمجرفة كانت دائماً منتصبة في ركن عربة المستوصف. وحمل دييف الطفلَ؛ كان دائماً يحمل الأطفال بنفسه، لأنه لم يستطع أنْ يتصرَّف بشكل مغاير.

هبطا من سلّم العربة بصمت وبسرعة، ونظرا مِن حولهما إلى العربات الصامتة، وأسرعا بعيداً. منذ النهار، تمكن دييف من ملاحظة موضع بعيد عن قضبان السكة، في مكان ما خلف بنايات المخازن أو خلف الشجيرات على جانب الطريق. واتجها صوبَ ذلك الموضِع. انزلق من الخلف ظل دييف الصامت - زاغريكا.

حفر دييف القبر بنفسه. لم يعمل طويلاً -كانت الجثث صغيرة، ولم تكن بحاجة إلى حُفَر عميقة. بينما كان يلقي التراب، أخرج بوغ الطفلَ من البطانية: كانا يدفنان الأطفال بالقمصان، ويعيدان الأكياس إلى القطار. وضع دييف الجثة الخفيفة في القاع. نظر الطفل إلى السماء بعينيه الساطعتَين الجامدتَين وابتسم. هالا التراب على الحفرة كالعادة: دييف يجرف الأرض بالمجرفة وبوغ يساعده بيديه. لم تبقَ هناك كثبان فوق القبور: اختفى الأطفال على الأرض- كأنهم لم يكونوا على الإطلاق.

عادا إلى القطار وافترقا. مشى المساعد الطبي يجرّ رجليه بتثاقل إلى عربة المستوصف، وصعد دييف إلى سطح عربة الموظفين. هذا هو المكان الذي أمضى فيه ليلته. أو بالأحرى، أمضيا فيه ليلتهما، معاً، هو وزاغريكا.

ربما، هذا كان سراً مُخزياً، يتحدث عن ضعف الروح، أو ربما، لا -لم يعرف دييف كيف يقيِّمه. وحتى إنه لم يفكر في الأمر مدة طويلة، بل حمل الصبي بين ذراعه ببساطة وجلس على الفتحة، وأسند ظهره إلى أنبوب التدفئة. جلس هكذا، ينظر إلى السماء- حتى ظهرت نجوم الصباح. رقد بين ذراعيه طفل دافئ وحيّ. نام الطفل، وإن كان نوماً مضطرباً: يهز كتفيه، ويرمي رأسه من جانب إلى آخر، ويدس أنفه في دييف ويتنفس تنفساً متشنجاً... تعبت كتفاه وظهره، لكن التعب كان لطيفاً، غطّى على الكآبة والخوف من الغد. لم يفكر دييف في أولئك الذين بقوا راقدين تحت الأرض في الأفنية الخلفية للمحطات والمحطات الفرعية. يحمل بين ذراعيه طفلاً حيّاً – هل هو، سينيا؟ النحلة؟ المكواة؟ وعرف أنَّ هذا الطفل لن يموت.

قُبيل الصباح، خدرت أعضاء دييف بسبب الجمود. وبدأ زاغريكا النائم يرتجف من البرد. للأسف، سمح دييف للصبي بالاستيقاظ والوقوف على قدميه. ونهض هو أيضاً، يتلوى على رجليه المتشنجتَين، كما لو كان يمشي على عكازين، ويشتت الإبر الحادة التي تملأ عضلاته من خلال جسده. لقد نزل بطريقة ما من السطح وراح يعرج إلى عربة الموظفين -ليس من أجل النوم، ولكن فقط لتدفئة جسده المرتعش بشدة. ولمّا دخل إلى المقصورة، فتح الباب المنزلق- فشعَّ الدفء من حجرة المفوضة. تهدَّل على المرتبة ذات النوابض واستلقى، منتظراً سواد الليل حتى يتحول إلى اللون الرمادي...

خلال عشرة أيام دفنوا ثلاثة عشر طفلاً. سينيا التشوفاشي، والبهلوان، وذو الأنف الطويل، والعفن، واللامبالي، والمكواة، وعريض الجبين، وذو البطن، والمتكبر، وضحكة الصرصار، والبندول، والمَدفَن، وقطعة الطبشور. ثلاثة عشر طفلاً -العدد المشؤوم. وبعدها توقفت عجلة الشؤم عن الدوران: لعدة أيام، كان دييف يدور، ويدور بجنون، ثم يسقط ويتحرك- لقد تحطّم.

حدثَ ذلك في بلدة بوزولوك. في تلك الليلة دفنوا ثلاثة أشخاص. آنذاك لم يذهب دييف إلى المقصورة وبقي جالساً على السطح طوال الليل. ولم يأخذ زاغريكا بين ذراعيه - ما كانت لديه قوة. جلس فحسب ينظر إلى السماء.

تسلل قمر أحمر عبر السماء. وعمَّ السكون، كما تحت الماء. أو كما هو الحال في المستوصف. أو كما في المقبرة. لم ينبح كلب، ولا زعق طير في السهوب. لماذا ماتوا جميعاً هنا، في بوزولوك هذه الملعونة؟!

كان ثمة طَرْق رتيب في الصمت. استمع دييف وأدركَ: كان هذا، هو الذي يطرق -بقبضته على صفيح سقف العربة. وكذلك تطرق فكرة في رأسه، فكرة وحيدة: أنْ يرحل... أنْ يرحل... في أسرع وقت، في الساعة الأولى من الصباح، أنْ يشعل النار في حجرة الاحتراق في القاطرة ويندفع بعيداً- أنْ يهز نفسه أثناء السير، أنْ يملأ أذنيه بهدير العجلات، وأنْ يملأ عينيه بوميض السهوب خارج النافذة، وأنْ يغوص في المشاغل المعتادة... وأنْ لا يفكر، ولا يتذكر -بل يسير فحسب. يسير إلى تُرْكِستان- إلى الدفء والخبز. إلى الحياة. إلى تُرْكِستان. إلى تُرْكِســ... تان. إلى تُرْكِـ.... ســ... تان...

لم يستطع التماسك حتى الفجر: بمجرد أن تلاشى القمر وأضاءت حافة سماء الليل، ركض لإيقاظ السائق. لم يكن لديه صبر حتى يتسلق من السطح بالطريقة المعتادة -ويتمسك بالحواف وأعمدة الإنارة- قفز مباشرة إلى الأرض، وكاد يكسر ذقنه على ركبتيه، لكنه لم يشعر بالألم.

دفع السائقَ النائمَ:

- أوقد الماكنة! سوف نغادر عند الفجر. هيّا!

اعترض السائق بصوتٍ غلبَ عليه النعاس:

- ليس لدينا ما نوقِد به. لم يجلبوا لنا الفحم بعد.

ذهب دييف إلى حجرة الماء والوقود: إنها فارغة حقاً، ليس فيها حتى قبضة من الفحم. وعِدوا بتسلّم الفحم يوم أمس. أو على الأقل خشب. اتضح أنهم لم يُعطَوا. مدير المحطة، وغد!

هرع دييف إلى مبنى المحطة الخشبي، وسأل:

- أين الفحم؟

ركض وتعثر فوق أجساد النازحين الذين انتشروا كالمخيّم حول مباني المحطة. استيقظ الناس، وملأوا الصمت السائد بالتنهدات والتمتمات الخاملة من النعاس.

في الظلمة بالكاد وجد باب غرفة المدير وطرق عليه بقبضتيه وقدميه: أين فحمي؟!

لم يرَ دييف هناك سوى النوافذ السوداء: لا أحد في المكاتب. نظر إليه النازحون الذين استيقظوا، والذين بالكاد يمكن تمييزهم في عتمة الصباح الباكر. كان القمر شفافاً وعلى وشك الاختفاء من السماء. سيحلّ الصباح قريباً.

عاد أدراجه إلى القطار وضرب بقبضته على باب عربة المطبخ. وعندما ظهر ميميليا الخائف في الشق المفتوح، أشعثَ من النوم ويمسك الفأس في يديه تحسباً لكل طارئ، أخذ الفأس منه. وجاء إلى الشجرة الوحيدة في المنطقة بأكملها -شجرة حور سوداء كبيرة، وِضَع تحت ظلها مقعدان من مقاعد رصيف المحطة للانتظار- وراح يقطعها.

لا يوجد فحم -سنسخن بالحطب. لم يُعطوا الحطب- سآخذه بنفسي. الآن مباشرةً.

طُق! طُق! - صدحت الضربات بصوت عالٍ، وانعكس صداها على جدران المحطة الخشبية.

النازحون النائمون على المقاعد انتشروا خائفين مثل الصراصير. وحتى جميع من كانوا راقدين على الأرض في مكان قريب هبّوا وانتشروا أيضاً: فشجرة الحور كبيرة ومتفرعة، إذا ما سقطت على أحدهم لا بد أنْ تصيبه بجراح.

طاق! طاق!

ساق الشجرة ناعم كأنه من الطين. الفأس يضرب بكثرة ويدخل في العمق. تتناثر جذاذات الخشب من تحت النصل.

سوف نغادر! سوف نغادر!

لوَّح سائق القطار الخائف في الأفق على قضبان السكة، ممسكاً بسرواله

بشكل يبعث على السخرية (لم يتمكن من ربط حزامه في الظلام، سحب سرواله من دون عناية، لكن لم يكن لديه وقت لارتداء السترة، وركض في القميص الداخلي وحده).

– أيها الرفيق رئيس القطار. لقد وعدوا أنْ يُحضِروا الفحم في الصباح، ربما سيحضرون المزيد...

الممرضات اللواتي يرتدين معاطف فوق قمصان النوم قفزن على طول القضبان.

سمع دييف صوت بيلايا بالقرب منه:

– كُفّ عن السرقة حالاً!

سوف نغادر! سوف نغادر!

استيقظت الكلاب، في البداية الكلاب القريبة ثم البعيدة. نبحت نباحاً شديداً، وراحت تثير بعضها بعضاً أكثر فأكثر.

حارس المحطة الليلي، وهو رجل عجوز يرتدي سترة رسمية، طفقَ يراوح في حيرة على طول رصيف المحطة، يهز شعره الذي غزاه الشيب.

طُق! طُق!

احمَرَّ طرف السماء، وامتلأ بضوء الصباح. وها قد طلعت الشمس.

– خذ الفأس منه!

– حتى يقطعك إلى نصفين بنفس الفأس؟ لستُ أحمق!

– اركض ونادِ مدير المحطة! هذا المريض النفسي سوف يقطع الآن كل شيء كالملفوف.

– يا رب! أيتها السيدة العذراء!...

سوف نغادر! سوف نغادر!

شعر دييف بالحَر، إما من حرارة الشمس وإما من العمل. حوَّل الفأس من يد إلى يد، ونزع سترته العسكرية وجعل يشتغل في القميص وحده – يقطع شجرة الحور السوداء من الجانب الآخر.

طُق! طُق!

سمع صوتاً من بعيد:

- توقف أيها الأحمق!

جاء من جانب المدينة مدير المحطة يركض ويتعثر، محاطاً باثنين من فاعلِي الخير المزعومين كانا قد أبلغاه بالحادث.

لكن دييف لم يصغِ له. ارتكز على ساق الشجرة المطوَّق بالقَص بظهره وعلى الأرض بقدميه. ثمّ وتَّرَ عضلاته ودفع الشجرة بأكتافه. انشقَّت شجرة الحور السوداء وسقطت - تقريباً تجاه المدير المسرع.

سقطت الشجرة بدقة: بين مبنى المحطة وأكواخ التخزين من دون أن تلمس السياج والمقاعد. ارتفع الغبار الداكن الممزوج بالقمامة على الجانبين، وانهال على المتفرجين الذين تراجعوا.

- إيه! - هذا فقط ما أمكن مدير المحطة أنْ يصرخ به.

شَرَعَ دييف يقطع الأغصان من ساق الشجرة: طُق! طُق!

سوف نغادر! سوف نغادر! - رنَّت الأغصان وتساقطت من شجرة الحور الواحد تلو الآخر.

أمر دييف سائقَ القطار:

- هيا اجمعها! وأوقد الماكنة. وسأقطع واحدة أخرى.

هذا الغبي! - يتردد، لا يجرؤ أمام الناس على التقاط الغنيمة.

دفع مدير المحطة الناس المتجمهرين وخاطب دييف:

- ماذا تفعل، أيها المجنون؟ هل تعتقد لمجرد كونك تنقل أطفالاً جياعاً، أن كل شيء مسموح لك؟

ولكنه لم يجرؤ على الاقتراب من دييف، لأن الفأس تصفّر في الهواء، مثل منجل مشحوذ أثناء حَشّ القش.

قال دييف حانقاً أثناء التوقف بين الضربات:

- ليس لدي وقت للتحدث معك. إذا كنت لا تستطيع المساعدة، فلا تزعجني.

- بسبب أطفالك، قلبت المدينة بأكملها رأساً على عقب! نصف منتسبي دائرة اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب في المدينة لم ينم الليلة، لقد وفروا لك الوقود!

أمسك الفأس بإحدى يديه، والتقط الأغصان المقطعة من الأرض باليد الأخرى ودفعها في يدي سائق القطار المرتبك:

- ألم آمرك أنْ تجمع، هيّا، لا تتردد!

صغَّرَ السائق وجهه، لا يجرؤ على عصيان القائد ولا يجرؤ على حمل الحطب إلى القطار.

أشار مدير المحطة بيده في اتجاه منازل المدينة، التي جاءت منها عربة محملة تجرّ بصعوبة وتهتز.

- ها هو ذا وقودك، وإنْ كان تصرّفك غير لائق!

جرَّ كدساً ضخماً -ليس من القش، بل قُطَع من الألواح والعصي التي تبرز في جميع الاتجاهات في كومة شعثاء، يزداد ارتجافاً كلما تقدم أكثر، يكاد يسقط من العربة. الفرس تسير ببطء- بالكاد تسحب الحمولة، يسير الحوذي بجانبها، ويقودها من اللجام.

- لولا الأطفال، لما أعطيتك شظية من الخشب! ولكنتُ اقتدتك إلى مركز الشرطة، أيها المخرّب!

ألواح وعصي من أثاث ثمين سابق: كُسِّرَت على عَجل كي تستوعبها العربة. تألقت أرجل الأرائك المنحنية في أشعة الصباح، وتلألأت أبواب الخزانة المكسور زجاجها. الكثير من الأثاث - لم تُصادر أملاك غني واحد هذه الليلة، ولا اثنين، بل العديد من الأغنياء.

كان من الضروري لو قال دييف بضع كلمات إلى الشخص الذي أجهد نفسه أكثر من اللازم، وأنْ يعتذر عن شجرة الحور التي قطعها، أو ببساطة أنْ يقدّم الشكر. أو على الأقل أنْ ينظر إليه كما يفعل البشر. لكنَّ دييف لم يتوقّف بأيّ شكل من الأشكال واستمر يقطّع الأغصان، وينثر لب الخشب من تحت الشفرة - طُق! طُق!

صافحت بيلايا مدير المحطة بحزم، كما يفعل المفوَّضون، وقالت له:

- شكراً لك، أيها الرفيق. سوف نُفَرِّغ العربة الآن.

أشار سائق القطار برأسه إلى الأغصان، وقال مُذَكِّراً بوجل:

- ماذا نفعل بهذا؟

لوَّح مدير المحطة بيده بمرارة: خذها، ما عسانا أنْ نفعل بها هنا...

سحبت الممرضات كِسَر الأثاث عبر السكة. أمسكت كل واحدة منهن على نحو أخرق بقطعتين أو ثلاث من قطع أبواب خزانات الملابس أو الطاولات المكسورة إلى النصف، ودلفنَ عبر عوارض السكة، يتعثَّرنَ بين الحين والآخر ويلقين حملهنّ. وفجأة أصبحن متشابهات جداً -نساء عجائز نحيفات، متجمدات بسبب الريح- كأنهن أخوات حقاً.

سوف نغادر! سوف نغادر!

حمل مدير المحطة الحطب الذي قطعه دييف إلى القطار «الضفيرة»- يسحب وحده قطع الخشب إلى حجرة الوقود والماء في القطار وقد انتفخت أوداجه من الحنق وراح يشتم من دون انقطاع.

نفثت القاطرة البخار والشرر.

ولكن دييف لم يترك التقطيع...

لقد خشي ألا يجد في الطريق ما يقطعه! نظر مِن حوله مشتتَ الأفكار: في الواقع، كانت هناك شجرة، لكن تبيّن أنه لم يبق منها شيء. ومن بين الأشخاص المحيطين، لم يبق أحد، سوى العجائز النازحات يزحفن على الأرض، ويجمعن حفنة من رقائق الخشب المتناثرة حول دييف وينظرن بحذر إليه.

اندفع إلى القطار «الضفيرة» والفأس بيده في وضعية الاستعداد.

كيف لا يجد في الطريق ما يقطعه؟! ها هو ذا - نثار خردة الأثاث، بإمكانك أنْ تقطّع منه حتى الليل! شعر دييف بالارتياح وهو يقفز إلى منصة حجرة الماء والوقود وغرز الشفرة بكل قوته في الخشب المنضود: طُق!

سمع صوت بيلايا من خلفه:

- توقف عن قتل نفسك بالعمل!

لم يكن لديه وقت للالتفات -عليه أن يعمل. وبالفعل راح دييف يعمل. لم يعد يشعر بظهره ولا بيديه- حَقوه ينحني وينثني، وكتفاه تهتزان اهتزازاً شديداً- على الرغم من أنَّ هذا الأمر مؤلم لكنه طَيِّب! جسمه رطب لسبب ما، كما لو كان يستحم في العرق. ووجهه مبلل ويقطر إلى حد ما، وعيناه تقدحان بالشرر.

سمع صوت المساعد الطبي يأمره:

- أعطني الفأس، يا حفيدي.

لن تحصلوا جميعاً على ما تريدون إطلاقاً! كلما قطعنا المزيد - سرنا أسرع!

- يا دييف، أنت تنزف! لقد حطمت جبهتك بالفأس.

شعرَ بظلمة حقيقية تغشى عينيه. فلمس جفنيه بكفه لمحو هذا الظلام غير المناسب - شيء مبلل أحمر على أصابعه. وبينما وقف دييف ينظر إلى أصابعه في حالة من الدهشة، أخذ شخص ما الفأس منه بحذر.

- سأضمدها، يا حفيدي.

غطّت كَفّا الجد الضخمتان عليه من جميع الجوانب. حاول دييف أنْ يفلت من يَدَي العجوز، مثل ذبابة اصطيدت، واختلج جسده كله، لكن من دون جدوى: الضمادة الضيقة ضغطت رأسه على شكل حلقة - لفّة واحدة، ثم ثانية، ثم ثالثة... أخيراً، أطلقته الكفّان القويتان.

صرخ دييف في وجه الجد الصارم:

- هل رضيتَ الآن؟ هل فعلتَ كل شيء كما ينبغي؟ هل ضميركَ مرتاح؟

نزع الشاش الملفوف حول رأسه (وفكَّرَ: متى تمكن الدم من التخثّر؟) وطوَّح به تحت قدمَي المساعد الطبي، وابتعد جارّاً قدميه بتثاقل، ومُخَشخِشاً بالأثاث المكسور تحت قدميه...

وفجأة وجد نفسه في عربة الموظفين، في مقصورته. جلس على الأريكة، بعد أنْ تلوّى وضغط يدَيه بين ركبتيه.

قعدت بيلايا بجانبه، ونشَّفت جبينه بخرقة. نظرت إلى الخرقة، وإذا بها ترى نصفها أحمر، فقالت:

- لا تلُم نفسك، يا دييف. هذا الأمر قُدِّرَ منذ البداية. منذ اللحظة التي وعدتَ فيها بأخذ السقم الطريحي الفراش إلى القطار، كان واضحاً أنه لن يكون بمقدورك أنْ توصِلهم أحياءً. وكان واضحاً لي ولمديرة المأوى. تلك العجوز القبيحة الشريرة لم تقل كلمة واحدة، بالرغم من أنها كانت تدرك كل شيء. كانت سعيدة للتخلص من عهدة الأطفال.

آه، ليتها التزمت الصمت! ابتعد عنها، واستدار، ولكن أنّى له الهرب ما دامت المقصورة ضيقة. وحيثما استدار، تنظر إليه بيلايا من جميع الجهات. أمسكوا بدييف مرة أخرى! في البداية، أمسكه بوغ، وعذبه بالضمادات. والآن المفوضة تعذبه من جديد...

– هل تعرف كم مُقعَداً سقيماً قتلتُ؟ قطاراً، قطاراً كاملاً، يا دييف. مائتَي طفل. كنتُ حمقاء، لم تكن لديَّ الخبرة بعد. لقد رفضتُ الجميع –أطفالاً أصحاء، مرضى، أمهات مع الرُّضَّع– أخذتُ السقم الطريحي الفراش فقط. اعتقدتُ أنني سوف أُوصِلهم بأسرع وقت، فالمسافة من أستراخان إلى موسكو فقط... وصل عشرون من أصل مائتين.

لماذا لا تمسكين لسانكِ المؤذي؟!

– لكن لا ينبغي تذكّر هذا، يا دييف. ولا ينبغي كذلك أن تحرق نفسك بالأفكار. لا تفكر، لا تتذكر، اترك كل شيء خلفك وامضِ قُدُماً – هذه هي الطريقة الوحيدة. وبخلاف ذلك، سوف تصاب بالجنون.

تمنى دييف لو سد أذنيه لكن يديه مشبوكتان بين ركبتيه، ولا يمكنه أنْ يسحبهما. وتمنى أنْ يغمض عينيه ولكن جفنيه لا يطيعانه.

قالت بيلايا على نحو التطمين:

– سأساعدك الآن.

نهضت وأقفلت باب المقصورة. وأقفلت باب مقصورتها وسحبت الباب المُنزلِق. وأسدلت الستائر المخملية، فعمَّ الظلام.

سمع دييف رنين الحزام، وحفيف القماش، ثم حفيف القماش الثاني. والآن تجلس بيلايا بجانبه، وليس عليها من الثياب شيء.

تأخذ كفَّ دييف –أولاً، تنتزعها طويلاً من ركبَتيه المشدودتين بإحكام، ثم تفتح الأصابع المشدودة على شكل قبضة– وتضعها على صدرها. وتأخذ كفّه الثانية وتضعها أيضاً. وقالت:

– هيّا.

ولكنَّ أصابع دييف سوداء ملطخة بالدماء. إنه لأمر مؤسف أن تُوسِّخا

جسد الأنثى النظيف. يحاول سحب كفيه، لكن بيلايا تمسكهما بقوة، حتى لا تفلتا. وشددت قبضتها على يديه، وكررت قائلة:

- هيا، يا دييف. هل تعتقد أنني لا أعرف عن الباب الذي يُفتَح في الليل؟ لا أرى كيف تنظر إلي؟

اقشعرَّ جسد الأنثى الرقيق ببطء واكتسى بالبثور من البرودة. مثلما فعل جسد الوقواق ذات مرة - هنا، على هذه الأريكة.

فكَّت بيلايا حزامه -ببراعة، في لحظة واحدة. وفكَّت أزرار قميصه العسكري، وسحبته من رأسه- يدا دييف ترفرفان في الهواء، مثل يدي الدمية. وخلعت عنه جزمته ونزعت لفافات الجوارب من رجليه. وأسندته على الأريكة (اهتزَّت النوابض تحت ظهر دييف، ووخزته في أضلاعه) واستلقت بجانبه. جسدها على جسده. وجهها على وجهه. شفتاها على شفتيه: بيلايا تُقَبِّل دييف، طويلاً وبشغف. مثل ذلك المتين الأصلع في مكتب اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب في بلدة سفياجسكي. وهمست:

- سوف أساعدك. أنا سوف أساعدك.

شيء ما انقلب فيه رأساً على عقب (أم أنَّ هذا، العالم انقلب رأساً على عقب؟ أم هو، يتقلّب على الأريكة الضيقة؟) وانحدر إلى الأسفل بشدة.

شفتا المرأة تتنفسان في أذنه:

- يا لهذا اللطف. يا للطف، أنت ولد طيب.

فتنفَّسَ هو في تينك الشفتَين.

وشخص آخر يتنفس في مكان قريب، قريب جداً. شخص ثالث.

أمسكت بيلايا وجه دييف في راحتيها، ولم تدعه يلتفتَ وينظر. وقالت:

- دع الولد، ليذهب إلى الجحيم. دعه ينظر.

أيّ ولد هذا الذي تدعه؟ مَن يتنفس في العتمة من تحت الطاولة؟ هل هو، سينيا التشوفاشي؟

مد دييف يده نحو النافذة وسحب الستائر:

- سينيا!

كلا، ليس سينيا – هذا شخص آخر.

سينيا لم يعد موجوداً.

على الأريكة جسد أنثوي شاحب. الترقوة مثل سنارات الحياكة. الضلوع مثل لوح الغسيل.

سينيا لم يعد في الوجود.

نهض دييف، وزرَّرَ سرواله وهو يمشي، وخرج يجر رجليه بتثاقل من المقصورة.

سار إلى مكان ما، مشى يصفع بقدميه الحافيتَين على الحديد البارد – وهو نفسه لا يفهم كيف انتهى به المطاف على سطح العربة. جلس بين الفتحات والأنابيب، ثم استلقى.

والآن، بدأت القاطرة تهدر بصوت جهير، والعجلات تدق –فقد تحرك القطار «الضفيرة» وغادر بلدة بوزولوك. وتمنى دييف أنْ يفرح لأنهم غادروا، أخيراً، غادروا! لكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً. شيء ما يخدش في صدره، كأنه يقطع ضلوعه، وليس جبينه، بالفأس. ويخدش في حلقه وفي عينيه. انتابته رغبة شديدة في أن يبكي، لكنه لا يجد إلى ذلك سبيلاً– لقد جفّت عيناه. وأراد أن يتنفس، لكن الألم لا يدعه. ضغط بجبهته على السقف الزلق، ولطَّخ القصدير بالدم، ويخرج هذا الألم من نفسه من خلال فمه وأنفه، ثم راح يجأر. وعندما ينتهي الهواء في رئتيه، لم يعد يعرف كيف يستنشق – يرقد من دون أن يتنفس.

شيء دافئ ومبلل يلامس ويدغدغ بلطف باطن وكعب قدميه الحافيتين. من البغتة، نشجَ دييف والتفتَ: هذا زاغيركا الوفي زحف بحذر وراح يلعق قَدَمي صاحبه الحافيتَين.

الجزء الرابع

واحد

يا ناسي، أيها الناس! أين أنتم؟ أنا هنا.

أنا أزحف، أعرج، أركض على الأرض. لديَّ ساقان ويدان، وفم. أصابع لأمسك بها. وأسنان لأعضَّ بها. عينان وأنف ودم تحت الجلد - لديَّ كل شيء. كل شيء، مثلما لديكم. ولكنكم غير موجودين. أنا موجود، بينما أنتم لم تبقَوا في الوجود. أقلّب وجهي في جميع الاتجاهات: أين الناس، أين هم؟ اختفوا منذ زمن بعيد.

الأرض لم تختفِ. والسماء لم تَتَوارَ. الأرض سوداء، حمراء، شقراء، فضفاضة. السماء رمادية، زرقاء، مائلة للخضرة والصُّفرة. كل شيء بين السماء والأرض - موجود. أشياء كثيرة موجودة. وأنا موجود أيضاً. أنا لن أختَفي.

كان ثمة ذات مرة كوخ. الموقد فيه خشن ويلفح، لفحاً شديداً. الراتنج يخرج من بين جدرانه الخشبية، في كل مكان، أكشط منه وأمتص. النوافذ عبارة عن ثقوب صغيرة. الباب مثل ثقب كبير. تنبعث منه رائحة التراب من تحت ألواح الأرضية. النمل يزحف على الأرض. تزحف أختي. طعم النمل أفضل من الراتنج.

جسد النملة يلمع مثل حبة التوت. ولكن التوت قليل، والنمل كثير. آكل من كل ما هو كثير، وفي الشتاء -لا توت ولا نمل. ليس سوى الثلج والأخت- تصرخ، تصرخ، تصرررررررخ...

كانت ثمة أُم ذات مرة. غنت بالليل: «ناموا عاجلاً، موتوا عاجلاً». لم أستمع إليها. أنا غير مطيع. أنا لستُ جميلاً، هي قالت بنفسها. أنا أخرق. لن أموت.

ولم تسمع أختي. لديها بطن كحبة القرع، ورجلاها ملتويتان، مثل غصنَين. وشعر مثل عش الغراب. لا تستطيع المشي -تزحف. لكنني أستطيع. أنا ماهر. أنا أستطيع أن أفعل كل شيء: أقضم، أمص، أقرض. لأنَّ لديَّ أسناناً. لكن أختي ليس لديها- لا تنمو.

أمي لديها أسنان، ظهرت منذ زمن بعيد. بدأت تتساقط. أمي عجوز. شعر أبيض -صقيعي. لو كان لدي مثل هذا الشعر لتجمدت، لكنها لا تتجمد. إنها تمشي في العاصفة الثلجية من دون معطف من جلد الغنم- لا تتجمد. وتشطف البياضات في النهر - لا تبرد. هي قوية. لا يمكن أنْ أرحل عن أمي.

أختي ضعيفة. والنمل ضعيف، ويسهل الإمساك به. العشب ضعيف، ويسهل قطفه. الأشجار قوية. الحجارة في السهوب قوية. النار، إذا كانت صغيرة في الموقد -ضعيفة؛ وإذا ما اشتعلت في كانون هرمي- فهي قوية. الثلج في اليد -ضعيف ويذوب بسرعة؛ وإذا كان الثلج في العاصفة- فهو قاتل. الحمى كذلك تقتل لا يمكن هزيمتها.

أنا هزمتها ذات مرة. قالت الأم: أصابتني الحمّى لمدة أسبوعين، ومن ثم رقدتُ أسبوعين آخرين في الفراش، وحتى لم أفتح عينيّ، ثم تعلمت المشي مرة أخرى. لذلك فأنا ضعيف وقوي في الوقت نفسه. كالثلج أو النار. وهذا جيد.

أنا أحب الثلج، ففيه الكثير من الألوان والضوء. وأحبُّ النار لأنها حية. الناس في الغالب يفنون، ولكن النار دائماً حيّة.

وكذلك أحبُّ كيف يذوب الجليد -أنظر إليه في الربيع. وكيف يمد العنكبوت الخيط- هذا أنظر إليه في فصل الصيف. لا يجوز أكل العنكبوت، يجوز النظر إليه فقط. ويجوز أكل خيوط العنكبوت. وأكل الجليد يجوز أيضاً. أمي نهتني، لكني كنتُ آكل منه. فأنا غير مُطيع. كل شيء

قوي -غير مطيع: الرياح والرعد والمطر. أنظرُ إلى الأقوياء، أستمعُ إلى الأقوياء- قوّتهم تدخل إلي.

قالت أمي: لا تستمع إليهم. أي إلى الناس الآخرين. إنهم يهمسون بأشياء سيئة عنك، فليكن ذلك. وبالفعل، لم أستمع إلى الناس. أستمع أكثر، إلى أوراق الشجر أو الطيور. أو إلى الطين كيف يصْفق تحت العجلة. أو كيف تطلق المدافع الرشاشة.

عندما لم تكن أختي قد ولدت بعد، أُطلِقَت النار كثيراً. وبعدما وِلِدَت، توقفوا. شيء مؤسِف. المدفع الرشاش له صوت رتيبٌ، مُدَوٌّ، جميلٌ. للبندقية صوت قصير حاد وجميل أيضاً. الأجمل -صوت المدفع؛ حينئذ يمكنك الاستمتاع أيضاً بالانفجار. الانفجارات- زهور، أبهى من أيّ مرج، إلا أنها تتلاشى بسرعة.

وِلِدَت هذه الصاخبة - فجاءت المجاعة. كان من الأفضل لها ألا تولَد. هذا ما قالته والدتي أيضاً. إذا ماتت أختي، هل ستعود الإطلاقات؟ وهل ستنتهي المجاعة؟ لا أعرف.

لا أعرف الكثير. هل كان لي أب، وأين ذهب؟ لماذا النمل لذيذ والقمل ليس كذلك؟ إلى أين ذهبت الأبقار والماعز؟ ما طعم الزبدة؟ لماذا تتسرب عصارة البتولا من الشجرة في الربيع فقط، وفي الصيف يجف الخشب ولا يمكن مضغه؟ وما «المزرعة التعاونية» و«الضريبة العينية» اللتان تُخيفان أكثر من الموت؟

والأهم أين اختفى الناس كلهم؟ الآن سأكون سعيداً لقدوم أيّ شخص -حتى وإنْ جاء رئيسنا الأعرج، حتى لو جاءت امرأة الجيران العجوز، وحتى لو جاءت أختي. لكن الجميع اختفوا. أنظر نظرة سريعة- إلى هناك. أنظر نظرة سريعة - إلى هنا. لا أحد.

كان ثمة الكثير من الناس ذات مرة -في القرية التي يقع فيها الكوخ وأمي وأختي. كان الناس يمشون، ويأكلون، ويحرثون، ويزرعون، ويركبون الخيول، وينامون على الأَسِرة، ماتوا، ودُفِنوا. كانوا صاخبين وتفوح منهم رائحة العرق. وأمي كانت لها رائحة، وأختي كذلك. لم تفُح منّي رائحة-

كنتُ أستطيع الاختباء ولا يشمني أيّ كلب. والآن اختفت رائحة البشر من العالم، بقيتُ أنا فقط على الأرض وليس لي رائحة.

لن أتكلم بعد الآن: ليس ثمة مَن أتكلم معه. أنا لا أحرث ولا أزرع: لا يوجد شيء. تقدير الضرائب أخذ كل شيء (لا أعرف ما «تقدير الضرائب»، لكنه أخذها). أنا لا أركب الحصان، لأن هناك القليل من الخيول متبقية في العالم. أنا لا أنام في السرير، بل أنام في أيّ مكان كيفما اتفق. أنا لا أموت. لا أدفن أحداً. أنا لست مثل الآخرين. أنا لستُ بشراً.

وحتى جارتنا العجوز وصفتني بأني لستُ بشراً. لديها تجاعيد -شبكة صيد على وجهها. وأمي لديها تجاعيد- حبال، على خديها وجبينها. لديَّ أيضاً، ولكن فقط على راحة اليد. وأختي لديها واحدة. والصفصاف على جانب الطريق لديه تجاعيد عميقة جداً. ولدى جذوع الأشجار التي بُني منها الكوخ. وحتى لدى الأرض، عندما يكون الصيف بلا مطر - تجاعيد ضخمة، أطول مني.

وهكذا كان ذلك الصيف بالذات - جافاً متجعداً. مثل جارتنا العجوز.

الحقول جرداء عارية. لا يوجد شيء. في الصباح -لا شيء. خلال النهار- لا شيء. في المساء -لا شيء. في الليل- لا شيء. أختي عارية أيضاً: حاولَت النهوض على قدميها، لكنها لم تكن ترتدي ثوباً. جمَلُ الجيران سقط وبره من الحر وتجرَّدَ. الحقول لم تتجرَّد: فقد خرجت عارية من تحت الثلج، وبقيت بهذا الشكل. طوال الربيع، والصيف، والخريف -انتصبت هكذا، من دون قمح وحتى من دون عشب. أكلنا الغبار والطين والنمل. الجيران أكلوا الجمل الذي تساقط وبره: في البداية أكلوا اللحم، ثم الجلد مع بقايا الوبر. طلبت منهم أمي الحوافر من أجل أنْ تحضّر منها شوربة- لم يعطوها. إنهم بخلاء.

أنذَرَتهم أمي بأن الله سيعاقبهم. وفعلاً عاقبهم: جُنَّت المرأة العجوز. صارت تهاجم الجميع وتعضهم مثل الكلب، أرادت أن تقضم قطعة من اللحم لنفسها. وقد طاردتني - فهربتُ. جُنَّت لمدة أسبوع حتى أطلق الرئيس عليها النار. كنت حينها في الغابة ولم أسمع صوت إطلاق الرصاص. إنه أمر مؤسِف. أنا حقاً أحب إطلاق النار.

الجار الآخر انتظر موت عائلته: زوجته وطفله حديث الولادة. أراد أنْ يهاجر وحده، من دونهم، إلى بلاد فارس، بملابسه الخفيفة ومن دون عفش. وقد أعدَّ بالفعل العربة وربطَ الحصان. وكان طوال الوقت يأتي إلى زيارتنا ويشتكى لوالدتي من أنهم لا يموتون. وأخيراً ماتوا. لكن في نفس اليوم، هلك الحصان أيضاً، فلم يذهب إلى أي مكان.

الجار الثالث كان يمشي في القرية مع قطة ميتة ويصرخ في كل فناء أنه يأكل الجيف، وأنه افتقر إلى هذا الحد. وسرعان ما تعفنت القطة وتفتّتت إلى أشلاء، وصار من غير الممكن أنْ يحملها معه ويسير. وفي فناء أحد الجيران وجدوا فخذ بقرة مطمورة في الحائط، متعفنة أيضاً - لم يبق على العظام سوى الوحل، الذي لا يمكن سلقه.

أمرتني أمي أنْ أذهب إلى طشقند من أجل الحصول على القمح. كانت آنذاك ترقد في الفراش لعدة أيام، ولا تستطيع النهوض. وأختي أيضاً رقدت. لم أكن أعرف أين تقع طشقند، فلم أذهب. كنت أعرف نهر الفولغا فقط، ولا توجد طشقند فيه.

قالت لي أمي: إذاً، اذهبا إلى دار الأيتام. نهضت من السرير وربطَت أختي إلى ظهرها وقادتنا إلى المدينة.

مشينا، ومشينا. مشينا كثيراً. رأينا رجلاً ذا لحية صفراء ومجموعة من الأطفال - ليسوا أطفاله، بل غرباء، الأطفال صغار جداً. أعطني أطفالكِ أيضاً، قال الرجل، وسأصحبهم إلى المحطة وأرسلهم إلى موسكو بالقطار. هذا يكلفكِ خمسة روبلات.

أجابت أمي: اذهب من هنا، أيها اليهودي الملعون. إنك تكذب. سوف تترك الأطفال في الشارع وتهرب بالمال.

أجاب الرجل، أنا لست يهودياً، بل أعمل في الإخلاء، ولدي أيضاً ورقة عليها ختم تُثبت ذلك. لكن أمي لم تصدق ولم تنظر إلى الورقة، واقتادتنا هي بنفسها لنواصل الطريق. وأنا أيضاً لم أصدق. ولم تكن تعرف كيف تقرأ الورقة. ولا أنا أستطيع. ولم يكن لدينا خمسة روبلات.

واصلنا المسير. رأينا قرية فارغة، ليس في شارعها سوى عربات متروكة.

العربات من دون خيول ومن دون حوذيين، وليس ثمة أحد من الناس. في بعض المنازل، كانت الأبواب مفتوحة، والنوافذ وحتى البوابات الخارجية كانت مفتوحة، لكن لم يكن هناك ناس. قفز ثعلب من إحدى البوابات وهرب بعيداً. قضينا الليل في القرية الفارغة، وفي الصباح واصلنا المسير.

ومشينا بعد، لمدة طويلة. رأينا حقولاً، وفي الحقول -عظام الإبل. لم تكن والدتي تملك القوة للذهاب إليها في كل مرة، لكني كنتُ أجري لأرى إنْ كان فيها لحم على العظام. لم يكن فيها أيّ لحم. أردت أن تفهم والدتي مدى براعتي، كي لا ترسلني إلى المدينة- وأنْ تعطي أختي فقط إلى دار الأيتام، فهي لا فائدة منها، وتتركني معها.

وفي أحد الأودية صادفنا قطيع كلاب. راحت الكلاب تهرول خلفنا. أسرعت أمي. فأسرعت الكلاب. أسرعت أمي أكثر. فأسرعت الكلاب أكثر. قالت إمي، إنها ذئاب. نظرتُ إليها، فرأيتُ ذيولها كلها ليست على شكل حلقة، بل تشبه قرمة الخشب: إنها ذئاب حقاً.

ليس لدينا مذراة أو مسدس. لا توجد أشجار كبيرة حولنا، ولا منازل للاختباء فيها. لا يوجد سوى السهوب والطريق وحده. فراغ مطبق - لا يوجد بشر. ليس ثمة مَن ننادي عليه لنجدتنا.

في البداية ركضت الذئاب وراءنا، ثم إلى جوارنا، ثم حاصرتنا. لم يعد بمقدورنا أنْ نتقدم إلى الأمام أو إلى الخلف، فالأبواز الصفراء تكشّر في كل مكان مِن حولنا. وعددها كبير.

وحينئذ فكّت أمي رباط أختي عن ظهرها ووضعتها على الطريق. اتجهت الذئاب إلى أختي. فأمسكت أمي بيدي وركضت بأسرع ما يمكن. وركضتُ أنا -بأسرع ما يمكن. استدرت لألقي نظرة على أختي- فرأيتُ خلفي الحيوانات تزأر وتتقاتل، لكن أختي لم تكن موجودة. اختفت. يا ترى، هل زحفت بعيداً؟

ركضنا مدة طويلة حتى نفدت قوتنا. ثم سقطنا على الأرض. من بعيد، صار يمكن رؤية المنازل ذات الأسقف الحديدية - إنها المدينة.

استعدنا أنفاسنا. أردت الوقوف على قدمي، لكنني لم أستطع: ركبتاي ترتجفان، لا يمكنهما حملي. عندئذ وضعتني أمي على ظهرها، مثلما فعلت

مع أختي قبل مدة، وحملتني. أشعر بالخجل، ولكن ليس في اليد حيلة، فسرتُ راكباً على أمي.

دخلنا المدينة. وهناك، أيضاً، المكان فارغ، لا يوجد بشر. تسير العربات التي تجرها الخيول في الشوارع، وعربات الترام الغريبة تجلجل على طول القضبان، لكن لا يوجد بشر. تتسارع الأذرع الهزازة مع الدلاء على طول المنازل وحقائب السفر والمعاطف والقبعات. وليس ثمة إنسان واحد. لقد اختفوا.

لا تتركيني هنا، قلتُ لأمي، فهنا لا يوجد بشر. كيف لي أنْ أبقى هنا وحدي؟ فردت عليَّ، أحدنا يجب أنْ يبقى على قيد الحياة.

سرنا في المدينة. حشد من المعاطف والبدلات والسترات. وعربات تصرّ. ومكانس على الطرق تصدر حفيفاً، وغبار يرتفع. براميل تصخب على العجلات: من يحتاج إلى الماء! من يريد الماء! حَجَرُ الشحذ يدور ويصرخ: أشحذُ السكاكين! إنه أمر مخيف.

وصلنا إلى منزل حجري كبير، وطرقنا الباب، فَفُتِحَ لنا. فأنزلتني أمي من ظهرها وسلمتني إلى ذلك المنزل.

قال مَن كان عند الباب، نحن لا نقبل الحمقى. لديه نظرة ضبابية واللعاب يقطر منه. فاعترضت والدتي، أنه ليس أحمقَ على الإطلاق. هذا حدث بعد التيفوئيد. كما أنه يعرف كيف يمشي. الآن هو متعب للغاية، ولهذا السبب ارتخت ساقاه، وإنه عادة ما يركض. لكن الباب أغلِقَ.

عندئذ وضعتني والدتي أسفل ذلك الباب وقالت بصرامة: ارقد. ثم غادرَت.

بيد أنّي غير مطيع – استلقيت قليلاً ثم نهضتُ. ركبتاي لم تعودا ترتجفان. وعدتُ إلى المنزل.

عبثاً قال لي مَن كان عند الباب، إنّي أحمق – وجدتُ الطريق بنفسي. فأنا، إذا ما رأيت شيئاً مرة واحدة، لن أنساه. ومثلما مشينا أنا وأمي لمدة يومين في اتجاه واحد، سرت في الاتجاه المعاكس، على نفس الممرات والطرق، ولم أضل طريقي مرة واحدة. حتى إنني رتَّبتُ أمري لقضاء الليلة في نفس المنزل في القرية المهجورة.

لم أُصادف الذئاب في الطريق، ولم أسمع عواءهم. في ذلك الطريق الذي تركَت فيه أمي أختي، لم أجد شيئاً. ومع ذلك، في الليل، عندما كنتُ مستلقياً في حظيرة الغير على قش الغير، شعرتُ بخوف شديد. إنْ حفَّت الأغصان -أرتجف. إنْ قفزَ الجندب- أرتجف. ما إنْ أغمض عيني حتى يتراءى لي بوز أحمر يكشر عن أنيابه. إنه زعيم الذئاب. وليس بمقدوري أنْ أطلب النجدة - فالمكان مهجور، على امتداد فراسخ وفراسخ.

ثم فكّرتُ في أنَّ مسدس الرئيس، الذي أطلق منه النار على المرأة العجوز المجنونة، رمى على هذا البوز رصاصة ضخمة. فتحوَّل البوز - إلى أشلاء.

وفجأة بعد ذلك البوز، بوز آخر، وآخر، ثم آخر: قطيع كبير لا يُحصى. هنا بندقية واحدة لا تكفي. استدعيت في ذاكرتي البنادق التي رأيتها عند الجنود -منذ زمن بعيد، عندما كانت الحرب لا تزال مستمرة. أطلقَت تلك البنادق النار في الوجوه. رشقة!- وكل شيء يتحول إلى أشلاء. رشقة! - ويتحول هذا القطيع إلى أشلاء صغيرة.

لكن الجيش الأحمر عظيم. أين ما ذهبت تجد -ثعلباً يطوف القرية المهجورة. شعره الأحمر منتصب، وعيناه الكبيرتان- بيضاوان، مثل أولئك الراقدين قُبيل الموت. لمواجهة مثل هذا القطيع تحتاج إلى مدفع رشاش، بل إلى أكثر من مدفع. دُحرِجَ ذلك المدفع الرشاش: كان يهتز بشريط فيه خراطيش، ينفث تياراً من الحديد. فيسقط الثعلب على الفور!

وخلف شعر الثعلب المتطاير -تنتصب الغابة الصفراء، تقترب، الأشجار تلَوّح بفروعها الشعثاء. كلا، ليس الغابة- لحية اليهودي الأشقر. ضخمة، أعلى من المنازل. شعره يرفرف كالنار، يتسكع القمل فيه ويصلصل بمخالبه. أيها الترام ذو الجدران الحديدية، وذو الباب الحديدي، أين أنت؟ ها أنا ذا! بقرون فولاذية وشعر أحمر -طُق! العجلات الحديدية على الصئبان- تْراك! بالقضبان، مثلما بالمناجل -تْراك! تْراك! قدحَ حجرُ الشَّحذ بالشرر، وألقى مئات السكاكين اللامعة- فَحَلَقَت اللحية، وفتَّتها إلى غبار. النصر! مرحى! مرحى!

لقد حدثت في تلك الليلة معركتي الأولى: معركة الأشقر، الأشعث، الصوفي - ضد الحديدي. فاز الحديد. أنا مُتعَب جداً. لكني على قيد الحياة. في الصباح استيقظت وواصلتُ المسير.

وصلتُ إلى قريتنا. ولم أجد أحداً هناك -لا في الشارع ولا في مجلس القرية. المسجد- فارغ. المدرسة -فارغة. جميع الأفنية- فارغة. حتى في المستودع، حيث يقف هناك جندي دائماً في المناوبة يحمل بندقية، البندقية وحدها عند الباب.

وجدتُ كوخنا، فدخلت. الداخل خال من أي شيء، ولم يتبقَّ منه شيء. أُمّي مستلقية على الطاولة، بالضبط في منتصف الغرفة. كنت أخشى أنها ستبدأ في شتمي لأنّي غير مطيع لها، - تمددتُ بهدوء إلى جوارها، حتى أنها لم تلاحظ ذلك.

رقدنا، أنا وهي، مدة طويلة. شعرت بالجوع فأكلتُ النمل: كان النمل يركض من تحت ألواح الأرضية - فوق الطاولة، على ذراعَي أمي وعلى صدرها، وعلى وجهها. طعم النمل أفضل من خيوط العنكبوت.

وبحلول المساء شعرتُ ببرد شديد. فالتصقتُ على ساقَي والدتي، لكنهما لم يُسخّنا جسدي. ففكَّرتُ بأنْ أدثّرها بمعطف جلد الغنم - وتذكرتُ أنهم في الربيع استبدلوا به نصف دلو من البطاطا. دسَستُ نفسي تحت تنورة أمي، واحتضنتُ ركبتيها، كانتا صلبتَين وباردتَين مثل الحجر. أغمضتُ عينيَّ حتى لا تتجمدا.

سرت من جسد والدتي برودة شبيهة بتلك التي تسري من تحت الأرض، وحتى إنها تثير القشعريرة في البدن. تذكرتُ حينها كيف كان موقدنا الخشن يسخن، إذا رميت الحطب فيه -وتتصاعد شرارات بداخله، ويَؤُزُّ مثل أزيز البوق،- ومن هذا سرعان ما شعرتُ بتحسّن، وتجاوزتُ القشعريرة، وحتى عنقي تعرق من الحرارة. ونقّط العَرَق من قفا عنقي إلى ركبتَي أمي! نقَّطَ، وسال!

وتنورة أمي -كما لو لم تكن مَخيطة من القماش، بل من الصقيع، إنها جليدية الملمس. وسروالها جليدي، وكذلك لفافات الجوارب على قدميها. أدركتُ حينها: هذا الندى تجمّدَ على شعرها وانتشر على جسدها، واستولى على كل شيء مِن حوله ولفه بالجليد. وكان على وشك أن يلفَّني أيضاً. ولكن الآن لم يعد كذلك! ألستُ أنا مَن تغلب على حمى التيفوئيد؟ ألستُ

أنا من أشعل النار في عروقي في هذا الكوخ لمدة أسبوعين؟ إذاً، فأين أنتِ، أيتها الحمى، الشديدة التي تغلَّبتُ عليكِ؟ إنّي هنا! زَفَرَت، واشتعلَت- وفي الغرفة بدلاً من البخار الجليدي الأبيض، ارتجف الضباب، وقطّرَت الدموع على الزجاج. ولم أعد أرتجف من البرد - بل من الحمى الخبيثة.

وراح الشتاء يزحف من شقوق الأرضية إلى الكوخ -على الرغم من أنه يُفترَض ألّا يأتي في هذا الوقت بعد. والنمل تجمَّعَ في الزوايا مثل الحبيبات السوداء. وبعض الحبيبات البيضاء من تحت ألواح الأرضية تدق كالنوافير، تملأ الغرفة. وكثبان الثلج تنمو عند الجدران. زوابع العاصفة الثلجية تغطي أرجل الطاولة، وتتسلَّق عليها أعلى، وأعلى، الآن ستصل إلى أمي وإلَيَّ. ولكن أنّى للشتاء أنْ يأتي قبل صيف الفولغا القائظ! تذكرتُ الشقوق في الحقول الذابلة- وعلى الفور اصطدم الجحيم من السقف مثل مقلاة ساخنة في الثلج. فَحَّت كُثبان العاصفة، وراحت تذوب. دُقَّت العاصفة الثلجية على الأرضية، وتحولت إلى رذاذٍ خفيف. وكثبان الثلج غرغرت وغلَت مثل شوربة لحم الجمل ثم اختفت...

كانت هذه معركتي الثانية: معركة البارد مع الحار. في تلك الليلة شعرتُ ببرد شديد وتعرَّقتُ، ثم بردتُ وتعرقتُ من جديد مرات عديدة لا تُحسَب. لقد تعبتُ تعباً شديداً إلى درجة أنني بالكاد بقيتُ على قيد الحياة. وأدركتُ: هذه المعارك، برغم أنها خطيرة، فإنها وحدها القادرة على حمايتي. لأنه لا يوجد بشر بالجوار. وبدأتُ أقاتل كل ليلة. فأنا أريد أن أعيش.

لقد بحثتُ عن الناس بعد ذلك مدة طويلة. في الصباح أهرب من والدتي بهدوء حتى لا تستيقظ وتوبخني. تسكعتُ في القرية وحولها -لعدة أيام. وجدت الموتى- على طول الطريق، وكذلك في المقبرة، في قبور جماعية، غير مدفونين: يرقدون مثل جذوع الأشجار، وأذرعهم وأرجلهم مبعثرة... لا يوجد أحياء. في المساء بقيتُ أسأل والدتي: أين ذهبوا؟ صمتَت ولم تُجب. وذات يوم توارت هي كذلك. وبقيَت في الكوخ الفارغ الطاولة الفارغة منتصبة.

كلهم اختفوا.

أنا لن أختفي.

فكرتُ وفكرتُ - ثم غادرتُ تلك القرية التي يختفي فيها كل شيء.

والآن أمشي على الأرض وحدي. أمشي، أركلُ، أدوسُ. أحياناً أركض وحدي أيضاً. وأحياناً أسبح -إذا كان نهر في طريقي. كما أنني أزحفُ وأتسلقُ الأشجار للوصول إلى المكسرات والتفاح. أنا أستطيعُ أنْ أعمل كل شيء. أنا ماهر. أنظرُ، أخزرُ، أتطلّعُ. أنتزعُ، أختطفُ- أنا حاذقٌ. ألمسُ بلساني، أمصُّ. أصرخ وأُصفِّرُ، أتجشأ. أنا أستنشقُ وأزفر. وحدي.

أنا أقضم كل شيء: رؤوس أسماك الرمح، جوز البلوط، عشبة الهرقلية. جذر الشمندر البري، أعشاش السنونو الفارغة. القواقع مع الأصداف وجراد البحر الحي. لأنَّ لديَّ أسناناً. قشر البيض والحوافر وأكواز الصنوبر. لأن أسناني قوية. أقضمُ أظافري وأدفنها في الأرض. أقضم الجلد حول أظافري وأبتلعه. القمل -لا أبتلعه: لا طعم له. ولا أبتلع الدم أيضاً من الجروح- أنا ألعقه. وكذلك ألعق الراتنج من التنوب والصنوبر، والندى الحلو من البرسيم. أحجار النهر، إذا كانت جميلة، فأنا أحب الجمال. وأمصّ العصي من عش النمل وملكات النمل.

أشمُّ رائحة المرض - من بعيد. ليس عندما تجلب الريحُ الروائحَ، بل قبل ذلك بكثير. عندما أشمها، أهرب. هربتُ من قرية الكوليرا. أنا أهرب من رعام الخيل. وأهرب من السل، ومن الأمراض النارية، ومن حمّى الارتعاش. أنا لا أهرب من التيفوس، فهو لا يصيبني.

أمضغ الخياشيم وإنْ خدشت حلقي. أمضغ الثوم البري وإنْ خدش اللثة. أنا لا أمضغ أي شيء، إذا كانت أحشائي تؤلمني، أنتظر يومين، حتى تشفى من تلقاء نفسها.

أستطيع أنْ آكل غراباً ميتاً. أستطيع أنْ آكل سمكة متعفنة. أستطيع أنْ آكل ثعباناً، دبوراً، قرصَ عسلٍ. وكذلك آكل ظهر الفروة، والطحلب، والشعر أيضاً، وذيل السحلية. والعظام، والتبن الطازج، والقش الجاف. أنا أستطيع أنْ آكل كل شيء. فأنا ماهر.

أعرف كيف أقضي الليل في الثلج، محاطاً بإبر أوراق الشوح. وعلى

الشجرة بعد أنْ أربط نفسي بساقها. وأستطيع أنْ أدفن نفسي في الرمال وأنام فيها. وأستطيع أنْ أنام على الصخور بعد أنْ أحشر نفسي بينها.

أعرفُ كيف أبقى حياً. لن أتلاشى.

هناك حرب في داخلي. تجري كل ليلة. كل ما أراه وأسمعه وأتنفس منه وأبتلعه، يتقاتل مع ما أراه وأسمعه وأتنفس منه وأبتلعه. الذكريات مع الذكريات. الأفكار مع الأفكار. الأحمر والموبِر -مع الحديدي. البارد- مع الساخن. السريع مع البطيء. الصغير مع الكبير. الحاد والصلب -مع الناعم والرخو. رائحة الزهور- مع رائحة العفَن.

النهار يمدني بالطعام والليل يعطيني الحرب. الغذاء شحيح. الحرب غنية. الغذاء يغذي، الحرب تحمي.

الحرب -أقوى شيء في العالم. والأقسى من كل شيء. والأكثر حكمة- لأنني فيها أبقى على قيد الحياة دائماً. ولولاها لكنت قد متُّ منذ زمن بعيد - من الخوف في القرية المهجورة أو من البرد عند قدمَي والدتي.

كل ما أفعله -هو من أجل الحرب. أجمع الروائح والأذواق والألوان والصور والحركات والومضات والضوضاء- حتى يكون ثمة ما أغذي به الحرب في الليل. أحدقُ في سماء الغروب، وأتذكر احتراق الألوان وذوبان الغيوم -من أجلها. أشم الأوراق المتعفنة، وأستمع إلى كيفية مضغها، وأُدخل إصبعي في اللب الفاسد- من أجلها. أتذكر -طقطقة الأغصان تحت الأقدام. أتذكر- وزن الطمي في راحة اليد. أتذكر -ارتجاف الشمس على بيت العنكبوت. أتذكر- حفيف البردي في الريح. أتذكر -كيف أقطّع جيفة الحمار. وكيف تزهر الأعشاب في المستنقع. وكيف تموت الأفعى. وكيف كادت قدمايَ تتجمّدان في العاصفة الثلجية، في البداية أصيبتا بالخدر، ثم خرج الخدر من داخلهما كالإبر وتدفَّأتا. كل شيء- في الذاكرة. كل شيء - للمستقبل.

كي أتغلب على الليل: أجعل خرير الجدول -مقابل صراخ أختي الجائعة؛ تأرجحَ بوط البردي- مقابل سياج من الأذرع والسيقان من قبر جماعي غير مدفون؛ ازدهارَ السهوب -مقابل فراغ الطاولة الوحيدة في

منتصف الغرفة؛ أيلاً يرعى- مقابل فخذ بقرة مطمور بالجدار؛ سرعة طيور السنونو -مقابل المقعدين الذين يزحفون في الشوارع ليس أسرع من الحلزون؛ نعومة شعر السنجاب- مقابل رعب جسد أختي المليء بالبثور العاري المتروك على الطريق. أقِ نهَ يشْ قبتكه

وما زلت على قيد الحياة – وأنتصرُ.

الحرب تأخذ كل قوَّتي، وتمتصني حتى النهاية. ولا أستطيع الزحف بعدها إلّا بصعوبة. بيد أنّي ما زلت على قيد الحياة. ولكن في بعض الأحيان تخنقني الحسرة. فتنتابني الرغبة أن أعوي: أيها الناس، أيها الناس! أين أنتم؟ أنا هنا. تعبتُ من الوحدة. تعبت من القتال، أُنهِكتُ... هذه الحسرة ليس لها طعم، ولا لون ولا رائحة. ولا يوجد شيء مقابلها – لأتذكره.

***

قررتُ أن أتخلص من الحسرة بقاطرة بخارية: أنْ أستلقي بين القضبان وانتظر الماكنة الوحشية حتى تمر فوقي. لقد فعل الأولاد هذا، ورأيت في مكان ما منذ فترة طويلة – صرخوا بعد ذلك، مثل صراخ المحروقين، وضحكوا من دون توقّف. فلربما، ساعدني ذلك أنا أيضاً؟

جلستُ على العوارض الخشبية بين قضبان السكة، ورحتُ أنتظر. جرت الغيوم الشعثاء عبر السماء -وأنا أنتظر. رشقَ الرذاذ، وجففته الرياح- وأنا أنتظر. كانت الدوامات عالية في البداية، ثم كادت تلامس وجهي، وبعد المطر ارتفعت مرة أخرى إلى السحب. وأنا أنتظر، وأكابد.

وفجأة ارتجفت العوارض الخشبية تحتي، ورَنَّ الحديد -في البداية بالكاد كان ملحوظاً، ومع مرور كل دقيقة يعلو الرنين. تسير الماكنة البخارية، وتتدحرج! لم يمكنني حتى حفظ الأصوات ووضعها في الذاكرة- إلى هذا الحد نفد صبري.

ارتجفت العوارض، وكادت ترميني. واهتزت القضبان وجلجل الحديد. شيء ما يقترب، يرعد ويرن، ينفث ويطرق. ويلهث، يلهث، يلهههههث... وأنا ألهث -بشدة، كما لو كنت أركض إلى حد التعرق. فتحتُ عينَيَّ كل

الفتح، لا أريد أن أغمض عينَيَّ- حتى أتمكن من التخلص من حسرتي كلها تحت عجلات العملاق الحديدي، ولا أترك شيئاً في قلبي. إنّي أنتظرها، تلك الحمقاء الملعونة، أنا أنتظر، أنتظر، أنتظرررر... صليل الحديد اخترق أذني... وهبّت فوق رأسي ريح حارة ورطبة... وتدانى ظلٌّ... واقترب!

لم يحجب السماء عني بوز القاطرة - بل وجهٌ.

وجه إنسان.

وجه رجل عابس.

- ماذا تفعل هنا، يا أخي؟

ذُهِلتُ: إنه إنسان؟!

أمرني كأنَّ شيئاً لم يحدث:

- هيّا، تحرَّك من هنا..

تصرَّف كأنَّ مصادفة إنسان أمر شائع. كما لو أنَّ العالم يعجّ بالناس، كما لو كانوا منذ زمن بعيد.

ولكنني خشيتُ أن أتحرك حتى لا أخيفه. حتى لا يختفي هذا الشخص العابس، لا يختفي مرة أخرى.

بدأ يغضب:

- هل تسمعني؟

كيف لا أسمعك، أيها الإنسان؟! إذا كنت أنتظرك إما لأشهر طويلة أو لسنوات، وأتحسَّر، وأعوي. استلقيت على القضبان لمجرد أنْ تتحسن حالتي.

وها، قد ظهرتَ، أنت. كل شيء فيك يشبهني: الرأس والشعر والجلد من دون شعر والدم تحت الجلد. أنت تتحدث، تمشي، تغضب - مثلي تماماً. رائحتك قوية. لم أتعرف عليك حقاً بعد، لكني أحبك فعلاً.

- هل يمكنك تحريك ذراعيك ورجليك؟

أستطيع. ليس أن أتحرك فقط -بل حتى سأرقص لك. سأعمل من أجلك، سوف أحرث مثل الجمل. سأفعل كل شيء- فقط لا تختفي. كن معي، أيها الإنسان!

– ما عسانا أنْ نفعل بك؟ هل ندحرجك، مثل الخشبة، عن القضبان؟

افعل أي شيء معي –دحرجني على الأرض، اتركني في الوحل، اركلني مثل الكلب– سأحدق فيك بمحبة وأقبل باطن قدميك. فقط لا تضِع.

وإذا به يرفعني بين ذراعيه، ويحملني إليه. مثل أمي عندما كانت لا تزال دافئة. أشم رائحته القوية –رائحة العرق والفحم والحديد– وأفكّر: كم كنتَ صادقاً حين ناديتني – أخي، أخي!

– لماذا أنت هنا؟ ومن أين أنت؟ هل لديك أب أو أم؟

تحدث معي، يا أخي، تكلم! قد أكون نسيت كيف أتكلم، أو لربما، لم أعرف كيف أتكلم على الإطلاق. ولكن أنتَ – تكلَّم. أشعر بالسعادة من هذا الكلام العزيز، كأن ما يخرج من فمك ليس كلمات، بل أشعة الشمس.

وحملني الرجل –على طول رأس القاطرة المنتفخة، وعلى طول العربات الحديدية– جرى ذلك بعناية شديدة حتى عُصِرَت أحشائي في كتلة ساخنة وارتفعت إلى حلقي. أشعر بنشوة الوجد. إنها تقصف في رأسي: أنا مُلكك، يا أخي! ملكك للأبد. حتى لو رميتني الآن تحت هذه العجلات اللامعة، على هذه القضبان اللامعة – أبقى ملكك. حتى لو اختفَيتَ بعد لحظة ولم تظهر مرة أخرى، فأنا مُلكك.

لم يتركني، ولم يختفِ – حملني إلى الداخل ووضعني على السرير الذي يفوح برائحته. لكنني تدحرجت من السرير واختفيتُ تحته.

هنا مكاني –عند قدميك. تحت قدميك سأكون دائماً هنا الآن. ولا يمكن لأي قوة أن تسحبني من هنا– سأقضمها. لأنّ لديّ أسناناً، ولأنّ أسناني قوية. ولأنني ملكك إلى الأبد.

أخي يسحبني – أنا أطيعه.

يسألني:

– هل أنت حقاً أبله؟

ادعُني، كما تريد. حتى لو أبله. وحتى لو قلتَ عنّي إني لست من البشر، مثل ما دعتني جارتنا العجوز. وحتى لو أحمق، مثلما دعاني باب دار الأيتام. ولكنّ أخي دعاني، لست أبله ولا أحمقَ، بل أخ.

يأمرني:

– اجلس هنا الآن، يا أخي.

آسف يا أخي، لا أستطيع. أنا جروُك الوفي. خادمك الأمين. ظلك الأمين، الذي لا ينفصل، ولن يكون بمقدوركَ بعد الآن أن تفصلني عنك. لا أستطيع البقاء من دونك. الآن سأتبعك دائماً، وسأكسر أو أقضم أي جدار يعترض طريقك. لأنَّ لديَّ أسناناً. ولأنّي ملكك إلى الأبد.

مفهوم.

وأصبحنا – معاً دائماً. أنّى ما ولّى وجهه، أتبعه. أذهب إلى حيثُ يذهب.

يدا أخي خشنتان وساختنان. صوته –أعلى من قعقعة العجلات. طوله– بارتفاع كومة القش. خطوته من القوة يمكن سماعها على بعد عربتين. لديَّ أخ كبير، بالكاد يمكن أن يسعه القطار. وأقوى من الجميع – أقوى من أمي، وأقوى من الرئيس الأعرج، ومن اليهودي ذي اللحية الصفراء. لا ينبغي لي أنْ أترك أخي.

قاطرتنا البخارية تارة تسير ببطء على القضبان وتارة تتوقف. ونحن نسير إلى حيث هي تجرّنا. بغض النظر عن الاتجاه! مع أخي، الأمر سواء، وكل شيء على ما يرام. حسنٌ –إنْ سرنا. وحسنٌ– إنْ توقفنا. وحسنٌ –القفز في المحطات عبر الطريق ذهاباً وإياباً. وحسنٌ– عندما أزحف في الظلام من مخبئي وأستلقي بوجهي سراً على جزمة أخي. وحسنٌ –عندما، مرة أخرى، سراً، أعبُّ بفتحتَي أنفي من رائحته، وهو نائم، كلَّ عضو منه، من أصابع قدميه حتى أصابع يديه. وحسنٌ– عندما لا يجد أخي الراحة ويدور عبر العربات الفارغة، وأدور خلفه. وحسنٌ مرة أخرى – عندما يتسكع في الفجر على أسطح العربات. كل شيء حسنٌ، وأفضل منه لا يحدث.

وأعظم سعادة هي عندما يدسّ لي أخي قدح الفائض من الحساء، فآكله بعده: أرتشفُ العصيدة مع رائحة أخي، وأبتلع هذه الرائحة مع الطعام. في مثل هذه اللحظة، أكون مستعداً لأن أئن ويتفطّر صدري. لكني لا أئن – فمن العبث أنْ أزعجه. أنا أصطبر.

لكن أخي ليس لديه صبر، هو لا يحتاج إلى الصبر. إنه يقود القاطرات

فلماذا يصبر؟ عندما يصيح، «أعطِني ما لديك في القسم الفرعي، يا جرذ التموين، وإلا أقدم شكوى ضدك في اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب» -فيبدو ما حوله من الغضب كأنه أكثر إشراقاً. أنا لا أعرف معنى هذه الكلمات، ولا أفهم لماذا يصرخ بها أخي على الرفوف الفارغة في المستودع. وهي مشرقة بالنسبة لي، تكاد تعمى عيني. من غضبه- يشرق كل شيء.

لدى أمي، أي إثارة عاطفية -سواء كانت حباً أو خوفاً أو غضباً- كلها كانت تنشأ من التعب الشديد ويفتلها هذا التعب، مثلما يُفتَل اللباد أو نسالة الكتّان والقنَّب: لا يمكنك حقاً أنْ تعرف أين الأول وأين الآخر. أما أخي فشيء آخر. ما إنْ يغضب -يشتاط وينفعل. ما إنْ يحزن- يولول. يمكنه أن يبكي أو يقطع كل شيء إلى شرائح بالفأس. وإذا ما ضحكَ -ينفجر بالضحك حتى تبدو نواجذه. أخي ليس لديه مشاعر- بل نار. وهي أكثر سخونة من حجرة احتراق الوقود في القاطرة.

يحدث أنه يجلس في الصباح على سطح العربة ويحدق في شروق الشمس. فتنبض بداخله إثارة شديدة، وقلق شديد متواصل إلى درجة يبدو معها أنَّ العالم من حوله يطفح بالدم ويرتجف. ليس من الفجر، بل من مشاعر أخي. فأضيِّق عَينَيَّ من هذه الحمرة، لكنها تبقى تحترق تحت جفنَي لمدة نصف يوم.

أو يدخل إلى الحجرة المجاورة. يحدث هذا في الليل، نادراً. قلب أخي في تلك الحجرة المجاورة يدق دقّاً أعلى ويخفق خفقاناً أشد. فيتلألأ في قلبه فرح ذهبي. وحول هذا الفرح - وهجٌ واحد مستمر، مثل الشموع في الكنيسة الروسية. بدا الأمر كما لو أنَّ العربة مُلِئت براتنج أشجار الصنوبر الشفاف إلى النصف وبالعسل إلى النصف الثاني، فتهبط الشمس إلى الراتنج والعسل هذا. فأتمنى لو أُتيحَ لي أنْ أنظر إلى هذا الإشراق مدة قرن وأستمتع بالألق الذهبي.

ولكن الليالي الفحمية تحدث أكثر من الليالي الذهبية. يحصَل هذا عندما يدفن أخي الأطفال المتوفين. من أين أتوا، لا أعرف. يظهرون وهذا

كل شيء. كان أخي يحملهم بعيداً عن القطار ويدفنهم في الأرض. فينتابه الشعور بالحزن وبالذنب، وكأنه هو نفسه مَن يقتل هؤلاء الأطفال. ويمتلئ الليل حوله بسواد الفحم. بعد تلك الليالي، يبدو وجه أخي كئيباً للغاية كأنما لُطِّخَ بالحبر الأسود مدة طويلة.

أنظر إلى كل هذه المشاعر عن قرب، أنظر أياماً بكاملها - فأشعر أحياناً بالدفء، وأحياناً أحترق. أخي، أخي، رجل ناري.

***

ارحلي، أيتها الحرب، لا حاجة لي بكِ. لقد عثرتُ على مُدافعٍ آخر أقوى وأكثر لطفاً. إنه أخي. إلى جانبه لا يُخيفني شيء. ولن أطعمكِ - اذبلي، ارحلي، اختفي. الناس كلهم اختفوا، وأنتِ هيّا اختفي كذلك.

لكنها لا تريد ذلك.

لن أجمع الأصوات والروائح بعد الآن. لن أسمح بالمعارك في رأسي، لقد سئمتُ المعارك. وحتى لن أغمض عينَي - سأظل طوال الليل مفتوح العينين. هيّا، ارحلي.

كلا، لا تريد الرحيل.

اليوم -لا تريد أنْ تتوقف. واليوم التالي- لا تريد. وخلال أسبوع -لا تريد. بمجرد أن أغمض عينَي، يدقّ الصلب مع السائل؛ كلام أخي العالي- مع همس والدتي؛ النمل الأسود من كوخي - مع القمصان البيضاء، التي تركب في قطارنا على الرفوف. كل ذلك يتقاتل حتى تهتز جمجمتي وترن. وأنا بالكاد على قيد الحياة، أنا مُنهَك. أريد السلام، أريد السلام! توقفي، أيتها الحرب! توقّفي! كنت سأموت من التعب، لولا أخي.

يأخذني بين ذراعيه ويهزني مثل الطفل الرضيع. أمي لم تهزني -لم تكن لديها القوة. لم يهزني المهد- لم يكن هناك من يدفعه. أما أخي فيهزني. يصعد إلى سطح العربة ويجلس ويمد يديه. فأستلقي على تينك اليدين - أتجمد وأستمع إلى صمت الليل. وأطرد الحرب بعيداً عني. توقفي واختفي!

عنُقُ أخي في محاذاة القميص -أبيض. يزحف فوقه ظل في الليل- أسود.

وإذا ما ضيَّقتُ جفوني يبدو أحمر، مثل قطعة لحم في كشك في السوق: إما لحم كلاب أو لحم إبل. «لحم البشر!» -شفتا اليهوديّ تهمسان في مكان ما بالقرب من أذني. وتانك الشفتان حمراوان أيضاً. وعلى الشفتين- طفحٌ جلدي من الحمى، كحبوب القمح الكبيرة، وكلها بيضاء. تشبه البازلاء أو الفاصوليا التي أكلتها ذات مرة -أطعمني جندي من المارة من علبة من الصفيح. في البداية قضى في الكوخ مع أمي مدة طويلة، وآنذاك طرداني؛ ثم أعطاني هذه العلبة وغادر. جمعت تلك الفاصوليا الحمراء بأصابعي ووضعتها في فمي، فنظرَت أمي إليَّ وبكت. كان لدى الجندي نجمة من اللباد على قبعته، حمراء أيضاً. منذ ذلك الحين، لا أحب تلك النجوم. وبعد ذلك بوقت قصير، ازدهرت في القرية- في مجلس القرية، وفي الأكواخ، وعلى اللافتات. وإنْ كانت مغطاة بالثلج!

لقد وِضِع هنا موتى ذات مرة -كان ثمة الكثير منهم في ذلك الشتاء، واحتُجِزوا في مستودع، بجوار خزين المواد الغذائية، لدفنهم جميعاً، فسقط سقف المستودع من الثلج. وهكذا بقي الموتى، مغطّين، حتى دفء الربيع. هم أنفسهم بِيض، وإذا ما انقطع إصبع أحدهم، فإن الإصبع المكسور يبدو أحمرَ عند موضع الكسر. أحمر مثل الفراولة. «كُلْ حبّةً!»- تضحك جارتنا العجوز، وتخرج لسانها المحمر، الذي تتقشر منه رغوة. بيضاء، هل هي قشدة حامضة؟ لم أتناول القشدة الحامضة -سمعت عنها، لكن لم يحدث لي أن جربتها. أم سكر؟ أم ملح؟ أم طحين؟ كل شيء أبيض، كيف نميز أحدها عن الآخر؟ يصرخ رئيس مجلس القرية: «ألا يمكنكم التمييز بين الصالح والطالح؟ أم إنكم عميان؟ اليوم تعطون البقرة إلى المزرعة التعاونية، وستحصلون غداً مقابلها على السعادة للبشرية جمعاء! أليس هذا واضحاً؟» وجهه من الغضب- أرجواني. تبرز على وجهه شعيرات متفرقة - لونها أبيض.

يظهر العشب في الربيع أيضاً من تحت الثلج، فنجمعه. تأمرني أمي أن أحضره للمنزل ونطبخه، لكنني آكله نيئاً -ولا شيء. وأنا آكل الثلج- ولا شيء أيضاً. الأبيض دائما لذيذ. لحاء أشجار البتولا ونسغ البتولا -لذيذ. دمى النحل من الجحور- لذيذة. والأحمر أيضاً لذيذ -أحشاء الطير،

التوت، التفاح– لكنه قليل. العظام كثيرة: بيضاءٌ -عظام الجمل المسلوقة عدة مرات التي ترقد عند جارتنا في سقيفة المخزن. كان ينبغي تسخينها بالنار وقضمها حتى آخر قطعة– لكنها لا تعرف كيف. أما أنا فأعرف. لكنها لا تعطيني. يعطيني أخي: عصيدة، وكعكاً، وحساءَ سمك -أحياناً أحمر، وأحياناً أبيض، آكل كل شيء. لأنَّ لديَّ أسناناً. ولأنها قوية. وكذلك بيضاء. مثل القمصان التي تعيش على الرفوف في قطارنا. في نفس القمصان، في قريتنا، احتُجِزَ الرجال في المستودع وحُبِسوا هناك. هذا قبل موتى العام السابق. احتُجِزوا هناك مدة طويلة. أطلق عليهم «الرهائن». مَن وضَعَهم رهائن ولماذا وضَعَهم– لا أعرف. ولا أعرف إلى أين اقتيدوا فيما بعد، أنا ببساطة لم أرَهم مرة أخرى في القرية. لم يكن لدينا أيّ رجال في القرية منذ ذلك الحين. كان هناك شيوخ، لكن لم يكن ثمة شباب. حرثَت النساء. ليس على الخيول، لم يعد هناك خيول أيضاً، بل يَحرثنَ بعضهنّ على بعض. بعد الحرث، احْمَرَّ وجهُ أمي من الشمس. وذلك عندما بدأ شعرها يتحول إلى اللون الأبيض. وفي ذلك الحقل الذي حُرِثَ بالذات ولِدت أختي – أرجوانية، كما لو كانت مسلوقة.

قالت أمي: «لا تنظر». ولكني نظرت. ورأيت أنه داخل أمّي أيضاً، كان كل شيء مثل المسلوق. أخرجَت من ثوبها ثديها ذا الحلمة القرمزية وضغطَت على تلك الحلمة -فتدفق منه سائل أبيض! لكن هذا الحليب كان كافياً ليوم واحد ثم انتهى. أمرتني أمي: «اذهب واطلب من الجيران ولو غبار الطحين. وقل لهم، جف ثدياي من سوء التغذية، لا يوجد شيء لإطعام الطفل». لم يعطِ أحد أي شيء. زوجة رئيس مجلس القرية فقط قالت «لو أنكَ متَّ، أفضل لأمك من الاستجداء». بيد أنّي غير مطيع. ولن أموت. قالت لي أمي «اذهب إلى القرية الروسية، واطلب هناك» فذهبتُ. فرأيتُ الروس يمشون هناك عبر الحقول يحملون أيقونات حمراء ويتمتمون: «لسنا بحاجة إلى الشمس الجديدة، إنها تسخِّن كثيراً، فأعطنا الشمس القديمة...» إنهم في شأنٍ غير شأني. فعدتُ أدراجي. في الحقل المحروث، جفت البراعم الميتة كالخيوط البيضاء من الحرارة. والشوفان– كالخيوط البيضاء. الدخن -كالخيوط البيضاء. القمح– كالخيوط البيضاء. الرياح الجافة تعبث بهذه

الخيوط وتحملها بعيداً. أما الحمراء - فتجلب: راية عسكرية تشعث وتتفتت إلى خيوط. يصيح القائد الذي يرتدي سترة جلدية: «دعونا لا ننشر العار على رايتنا الثورية!»...

وهكذا أقاتل – طوال الليل. لا تتخلَّ عنّي، يا أخي!...

وها أنا أركب معه على طول القضبان. سرنا، وسرنا... السهوب تصبح أكثر جفافاً واصفراراً، وتكاد تشبه الصحراء. والليالي تزداد برودة. سرنا في البداية بسلاسة، لساعات عديدة متتالية، ثم بشكل متقطع: تارة نتحرك، وتارة نقف لبضعة أيام، ثم ننتفض ونتدحرج، أو نسارع، أو نقف مرة أخرى. اِكْفَهَرَّ وجه أخي. يبدو أنه قال لي نفس الكلمات الحنونة التي قالها لي مِن قبْل: «صباح الخير يا أخي!»، «ولكن ألم يحن الوقت لنتناول الغداء، يا أخي؟»، «كم جميل الهلال الذي وِلِدَ اليوم، انظر!»، ولكنّ الكلمات بدت بشكل آخر، مثيرة للقلق، لأن القطار تفوح منه رائحة المرض.

أنا أعرف رائحة المرض ودائماً ما أهرب منها. ولكن كيف تهرب من أخيك؟ فبقيتُ.

وقد غارت وجنتاه –لم يعُد خدّان على جانبي وجهه، بل أصبحا نقرتَين. والتجاعيد– حبال على الجبين مثل تجاعيد جبين أمي. والصقيع على صدغه، تماماً كما على صدغ أمي، بالكاد يمكن ملاحظته، لكن عينَيَّ حادّتا البصر، فرأتا كل شيء. لقد خفتُ آنذاك: هل مرضت؟ المهم ألّا تمرض، يا أخي! لا تفكر في أنْ تتعب أو تضعف، وتحدق في الفراغ من دون أن ترمش، وتستلقي على الدكة مدة طويلة من دون أن تتحرك. اليوم هكذا، ولكن غداً ستستلقي على الطاولة في منتصف الغرفة وتتوقف عن التحدث معي، وسوف تبرد وتتصلَّب.

أنا حزين. لم أكن أعرف ما الحزن، لكنني عرفتُه الآن. عندما فارقتُ أختي –لم أكن أعرفه. وعندما فارقتُ أمي– لم أكن أعرفه. بيد أنّي لا أريد أن أفارق أخي –وأحزن. صار لساني مراً وخشناً، إلى درجة أريد أن أبصقه. لقد أصبح لساني مثل حافة من رغيف من خبز الشيح، خُلِطَ من نصف حفنة من الطحين مع حفنة كبيرة من العشب. بصقتُ حافة الرغيف

الصغيرة المقرفة على الأرض، فأمسكتها أختي بسرعة خاطفة. فصرختُ بها، «أعطني إياها!». ولكنها دسّتها في فمها ومضغتها بلثة من دون أسنان. إنها تمضغ وتهرب مني في كل مكان، عارية- كي لا ألحق بها. «لقد لحقتُ بك!» -أتنفس بصوت عالٍ من خلف أختي. يكفيني أنْ أُربَط على هذا المقعد بالحبال. وكأنَّ أحدهم يقطّع فمي وحلقي بسكين؛ أختي تعرف مضغ لساني الذي سرقته بلا انقطاع، مثل العلكة. تقول الجارة وفي ذراعيها رضيع حديث الولادة يصوصئ: «أنت مريض جداً. بقي لديك وقت قصير. اسمح لنا أنْ ننام بجانبك لنصاب بالعدوى. زوجي يريد الموت لي ولابننا حتى يهاجر إلى بلاد فارس وحده، لكننا لا نموت بأي شكل من الأشكال. سأعطيك مقابل هذا قطعة من الطين ألذ من الخبز». إنها تكذب! مضغتُ هذا الطين- إنه مقرف، ثم تنتفخ معدتي منه، أسوأ مما تنتفخ من العشب. والجِفْتُ مثير للاشمئزاز! والجيرُ مع الجبس -مُقرِف أيضاً. يضحك رئيس مجلس القرية: «هل هذا مقرف؟ لقد شويتُ قبل عدة أيام حذاءً صغيراً. ليس حذائي، بالطبع، بل حذاء قديم وجدته على الطريق وشويته. مضغته طوال الليل- ولم أستطع بلعه. هذا هو المقرز!» فأخرج القائد الذي يرتدي سترة جلدية مسدساً من الحافظة وقال له: «هل تسخر، أيها الوغد؟ وأنت لم تنفّذ الثلث من خطة التزامات التموين! أين القمح المجهَّز؟» فردّ رئيس مجلس القرية: «وأين الشيوعيون الذين وعدت بهم للعمل الأيديولوجي؟ أنا أطالب باستقدام شيوعيين جدد! القدماء انتهوا -بعض منهم أُعدِموا رمياً بالرصاص على يد منتسبي اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب، وبعضهم ألقى بهم فلاحو المزرعة التعاونية تحت الجليد!». وصار لديّ ألم في صدري، كما لو كان ممزقاً إلى قطع، ويدايَ ورِجلايَ ترتعش. ربما، لم يعدموا أحداً رمياً بالرصاص، لكنهم قد يعدمونني؟ نعم، هذا صحيح. تقول أمي: «سأجمع الدم من جرحك وأخبز خبزَ الدم. على الأقل بعض الفائدة». «أعطني الخبز لأخي»، أريد أن أسألها، لكنني لا أستطيع- لساني لدى أختي. يتدفق الدم مني حتى آخر قطرة في الزجاجة التي وِضعَت تحت الجرح، ومعه يخرج الدفء أيضاً. أنا أتجمد. أنا مستلقٍ على طاولة في وسط غرفة فارغة وأرتعش. النمل يزحف على وجهي. يأمر الإله الروسي

من الأيقونة: «أعطه المزيد من الماء مع الملح والسكر!». أمي تأخذ إبريقاً وتسكب دمي فيّ، والرب يراقب. أشرب المالح والحلو في نفس الوقت. لا أستطيع أن أشعر بالدفء، الجو بارد. عندئذ سدَّت أمي المدخنة حتى يدخل الدخان إلى الكوخ -فأصبحَ الكوخ أكثر دفئاً. لكن التنفس يصعب- سنموت قريباً. في القرية الروسية، ماتت عائلات بأكملها على هذا النحو: في البداية جمعوا الطين ليأكلوه، لكن عندما أدركوا أنه لا طعم له، لطَّخوا الشقوق في الكوخ بهذا الطين وأغلقوا المدخنة. عُثِرَ عليهم في الصباح، العائلة بأكملها، أقدامهم إلى الأمام -نحو المستودع. وأنا أيضاً مُمَدَّدٌ على الطاولة- وقدمايَ إلى الأمام. الأمر مخيف. أريد أن أنقلب -لكنَّ الحبال تمسك بي، ولا تسمح لي بذلك. لكن هذه ليست حبال على الإطلاق- إنها ضفائر بيضاء من المشيب. تترنم همساً عند أذني جارتنا العجوز. «إنها ضفائري. ارحمني أيها الرب» الإله الروسي غاضب: «هل أتيتِ إلى هنا للصلاة أم كي تُنشِدي بصوت عالٍ؟ هدوء! هنا أناس يحتضرون». من هذا الذي يحتضر؟ هل هو أخي؟ أخي، أخي! من القلق الشديد، غلى دمي الذي شربته على شكل فقاعات وانسكب على جسدي -فملأني بالحرارة. انظروا، ملابسي مُبلَّلة تماماً من العرق، في رأسي مثل الماء المغلي يتناثر، وأشعر بالعمى تقريباً من تلك الحرارة. لكنني أتذكر أخي. فأُمزّق الأوردة- وأقطع الحبال المتشابكة مثل نسيج العنكبوت. يا أخي! أنا قادم إليك! أين أنت؟ ها هو ذا: يقف على جليد النهر، بملابسه الداخلية فقط، ودفعه فلاحو المزرعة التعاونية بالمزاريق إلى حفرة مفتوحة في جليد النهر، تحت الجليد. أنا قفزتُ! -من العربة. قفزتُ!- في تلك الحفرة. أمسكتُ بشعر أخي وسحبته إلى الثلج. لقد برد من الماء المثلج والثلج، وبرد رأسه المغلي. وهكذا أنقذتُ أخي...

ربما كنتُ مريضاً حقاً. أو لربما، كانت الحرب تقصفني من الداخل مثل المرض. كنتُ ضعيفاً مدة طويلة. أستلقي تحت المقعد ولم أركض خلف أخي، لقد كنتُ منهَكاً للغاية. وعندما استطعتُ المشي مرة أخرى، لم يمش أخي بسرعة - إنه، بكل تأكيد، يشفق عليَّ. أم إنه ضَعُفَ أيضاً؟ تحول وجهه إلى اللون الأسود تماماً. وصار أنحف. فليس ثمة غذاء.

كنت أتلقى قدحاً من العصيدة بانتظام. لكن هذه العصيدة تخفّ يوماً

بعد يوم. عندما صار القطار يسير عبر الرمال الصفراء، صارت العصيدة مجرد ماء. كنت على استعداد لإعطاء ذلك لأخي، لكنه جعل يشتم بشدة، وقال، لا تتدلل.

ليتنا ما سرنا في عمق الرمال، بل عدنا إلى السهوب والغابات. ما كنتُ أدعنا هناك نجوع! هناك كنت سأحصل على حصتين مع زيادة، ناهيكَ عن الاحتياطي: فهناك سناجب الأرض، والجراد، ونباتات البوط العريض الأوراق، وعشبة الحميض. هناك، يصبح وجه أخي مستديراً مرة أخرى، وتختفي تجاعيد جبينه. ولكن كيف ستخبره؟ فالقطار مستمر بالسير. وها قد مررنا ببحر آرال، الذي حكت عنه أمي حكايات خرافية. ونهر سيحون، الذي خلفه تقع الرمال الحمراء، صحراء كل الصحاري. لا تذهب إلى هناك، يا أخي! هناك -أرض ميتة، ورياح ميتة، ليس سوى الأشواك تتدحرج على طول الكثبان الرملية. لا تعيش هناك حتى السحالي، ولا أحد يعيش. ولكن أخي- يواصل السير إلى هناك. لولاه لما حجزني أحد من الفرار، ولا منعتني من الرجوع أيّ قاطرة بخارية مصنوعة من الحديد. لكن إلى أين، عساك، أنْ تفر من أخيك؟ فمصيرنا الآن واحد، حتى النهاية.

زحف بنا القطار على طول المسارات -مثل الحلزون: كانت المسارات مغطاة بالرمال، فجرف أخي تلك الرمال براحتيه من على القضبان، لكنها ملأت القضبان مرة أخرى. وسرعان ما راح أخي يزحف مثل الحلزون، بالكاد يحرك قدميه. وذات مرة تأخر عن القاطرة. بقي القطار واقفاً في وسط الصحراء، وأخي- إلى الجانب، بعيداً عند الكثبان الرملية. الجمل يبتعد قبل الموت في الرمال. وأخي أيضاً يبتعد، والانجراف الرملي يفرك آثاره. فسرتُ خلفه.

صرخَ: «لا تتبعني!» وراح يرمي عليّ الرمل. الرمال لا تؤذي على الإطلاق. وهو يصرخ بصوت أجش، بالكاد مسموع - حتى إنني لا أسمع. فأتابع الخطى نحوه. «ارجع إلى الباقين!» ولكني أستمر في المشي. نسير معاً. لوقت طويل... يصبح ظلّانا طويلين مثل الأشجار. والرمل لزج مثل المستنقع.

نسقط على هذا الرمل على وجهنا. تتحرك حبات الرمل -تدغدغ الجبين وتصعد إلى الأنف. لأنها حيّة. لأنها ليست حُبَيبات من الرمل. هل هي نمل؟ إنهم أناس صغار. فلماذا يتسلقون علينا؟ إنهم جائعون- يريدون أن يأكلونا. أسنانهم صغيرة، ولدغتهم ليست مؤلمة. لكن -حشدهم يصيح: أريد أنْ ألدغ، أريد أنْ ألدغ، أريد أنْ ألدغ، أريد أنْ ألدغ... اختفت مني ومن أخي أصابعنا، وخدودنا، وذقنانا- كأنما ذابت في الهواء. لا تلمسوا أخي! التهموني، لكن لا تقتربوا منه! سأحميه! أطرد الناس الصغار من أخي وأطحنهم -لكن إلى أين يمكنك الابتعاد في الصحراء عن الرمال؟ هي في كل مكان. يصرخ الناس الصغار: «لحم! خبز! اللعنة!» فتتوهج عظام أخي وثقوب جسده. هذا ليس أخي على الإطلاق- إنه فخذ من لحم البقر: يقفز على طول الكثبان الرملية على ساق واحدة، يقضم نفسه. ويتمتم: «لأني أعاني من مرض الزهري!». ويتفتت إلى عظام. أمي أيضاً كانت مصابة بمرض الزُّهري. لم تكن تعرف هذه الكلمة ولم تسمع بها، ولكن عندما انبلجت القرحات على جسدها، ذهبت إلى المستوصف وهناك عرفت. قال لها الطبيب هذه «هدية من المجاعة». يُزعَم، أنَّ في سنوات المجاعة، تتفاقم الأمراض السيئة بشكل أسوأ من الكوليرا. كان يمزح، بكل تأكيد. المجاعة لا تعطي الهدايا، بل تعرف كيف تسلب فقط. إذا مرضتَ، يا أخي، من مرض الزهري، فسأعالجك بالثوم، والبردي، وعشبة الأرقطيون المسلوقة. أنا أعرف كل شيء، وأعرف كيف يُحَضَّر ذلك، فقد كنتُ أسترق النظر إلى والدتي. يصرخ طبيب المستوصف: «لا تنظر! اخجل، عار عليك هذا!» نظرتُ، فرأيته يرتدي تنورة نسائية تحت مريول أبيض؛ في الحقيقة، قد جاع جوعاً شديداً، فانتفخت ساقاه، ولم يعد سرواله يستوعبهما. يزحف الطبيب على الأرض على أطرافه الأربعة، ويجمع كل أنواع القمامة في حفنات ويرسلها إلى نفسه. صرخ قائلاً: «لا أستطيع التوقف». وتتدلى عشبة الزُّغْل من فمه مثل خيوط وبر الجمل. فقلتُ: «ينبغي أنْ يُؤكَل العشب بجرعات قليلة، وإلا ستصاب بالديدان في معدتك. أنت طبيب، يجب أن تعرف هذا». يصرخ مرة أخرى: «لقد سبق أنْ فعلتُ هذا». فَكَّ أزرار ردائه، وبدلاً من البطن كان لديه كرة من الديدان، تتحرك. قالت زوجة رئيس مجلس القرية،

إنَّ الناس في القرية الروسية لم يتمكنوا ذات مرة من دفن ميت مثل هذا: أرادوا حمل التابوت إلى المقبرة، لكنه ينتفخ، بمجرد أنْ يُرفَع الغطاء! نظروا، فلم يَرَوا سوى الديدان في التابوت -لقد أكلت الديدان الرجل الميت من دون أن تترك أثراً ولم يعد التابوت يسعهم، فقد تكاثرت بشكل هائل. «أيها الطبيب، من الأفضل أنْ تلف الضمادة على معدتك بإحكام أكثر، وسوف يهدأ الجوع. أو مُصّ الصخر. جميع سكان القرية عندنا يفعلون ذلك». أومأ برأسه بسعادة، وأمسك بحزام مريوله وبدأ يشد خصره- شدّاً مُحكماً، وشدّاً مُحكماً -حتى انشطر إلى نصفين. فاندفعت منه الديدان بغتة وبسرعة!- في جميع الاتجاهات. إنها حمراء، شعثاء، ذات أنياب. وكبيرة جداً، كل واحدة منها أكبر مني. تجول في الجوار، وتمتص الرمال بمناخرها. هل تبحث عن شخص ما؟ عن أخي. فصرختُ عليها: «اخرجي من هنا! لا أريد أنْ أراك هنا!» فيعوي الرمل: «لحم، لحممممم!. -خبز، خبززززز!» تمسَّك بي، يا أخي! اختبئ خلف ظهري. سأحميك. سوف أعالجكَ. سوف أُطعِمكَ. سأحبك، يا أخي! أقوى من حب كل الأمهات، أقوى من حب الزوجات والأطفال! وسنعيش معاً، أنا وأنت- مدة طويلة جداً. بغض النظر عن المكان الذي سنعيش فيه معاً: حتى وإنْ في قاطرتك الحديدية، وحتى وإنْ وجدنا قريتنا، فلا يوجد أناس هناك -ستكون القرية بأكملها لنا، نحن الاثنين. وحتى بقية العالم كله- ظلَّ لنا، وحدنا فقط! سوف أطبخ العشاء لك في المساء. وفي الليل، سأغطيك في المعطف العسكري وسأحرس نومك تحت المقعد. في الصباح -سأُدَفِّئ حذاءك بوجهي حتى لا تبرد قدماك. وسوف أركض من الصباح حتى المساء خلفك وأستنشق رائحتك. سأفعل، سأفعل! وفجأة أشعر بالحلاوة من كلمة واحدة قصيرة: سأفعل! لم أمتلك قط أفكاراً عمّا ينتظرني في لحظة أو ساعة أو يوم. وفجأة- فكرتُ في المستقبل بعد شهور وسنوات. سأفعل، سأفعل! اعتدت أنْ أفكر «لن أهلك»، لكن الآن «سأفعل!»

أفتح عينَيَّ. السماء نارية، والرمل ناري -لقد بزغ الفجر. الصحراء قاسية والسماء ملساء. تنتشر أشعة الشمس عبر هذه السماء على قضبان السكة الحديدية في جميع الاتجاهات. ولا يوجد شيء آخر في العالم. السلام

والوضوح بسبب هذا الفراغ يجعلان الرأس شفافاً مثل الزجاج. ولم تعد هناك حرب في العالم. لا توجد حرب في داخلي. انتهت. لم تهدأ، لم تختبئ- بل انتهت. مدى الحياة. أفهمُ ذلك بوضوح.

أسمعُ، أرى، أتنفس. كل شيء حقيقي.

سأحبك، يا أخي!

التفتُّ إليه، فرأيته قد استيقظ، وينظر إليَّ. يضع يديه المتصلبتين على رقبتي ويضغط. هل تقتلني، يا أخي؟ هل تخنقني؟ لا أستطيع التنفس. دعني! يُخرِج مسدساً. طُق! طُق! - المسدس فارغ. يسحب بندقية، ويبدأ يلوّح. إنّي أحبك يا أخي...

الجزء الخامس

الطرح والجمع

أورينبورغ – آرالسك

عند مداخل أورينبورغ، أصبحت الأرض شبه جرداء عارية، وكان الناس يتجولون على طولها أيضاً.

كانت السهوب الداكنة تتدفق على جانبي قضبان السكة – إلى الأفق المنظور: بعض الأماكن شعثاء من الحشائش البرية، وأحياناً منتفخة من الأدغال. وتراءت أشجار قليلة وحداناً. وأقل منها تلألأت البقع الرمادية من بحيرات الملح الممتلئة بالحجارة.

على هذه الأرض الجافة المتشققة والأحجار المالحة، سار عابرو السبيل القليلون ببطء وبتثاقل. بقيت في الخلف حشود من اللاجئين ومجموعة متنوعة من الوجوه، التي يمكن تمييزها حتى تحت طبقة الغبار. الآن كان جميع الجوّابين ذوي وجنات عالية وعيون شرقية: من سكان السهوب. والجميع –تقريباً من دون ملابس: الثياب والأردية متدلية من أكتافهم العظمية، لكنها كانت متهالكة لدرجة أنها بالكاد تغطي أجسادهم. أرجلهم بدت من بعيد منتعلة أحذية، لكنها منتعلة الوحل فقط. لفَّ البعض أنفسهم في السجاد والمفارش. وذات يوم مرَّ رجل يعرج يرتدي برميلاً؛ أو بالأحرى، كان برميل يعرج من جانب القطار– على أرجل بشرية تبرز منه ويلتفتُ برأس بشري في قبعة من الفرو.

لأول مرة، لاحظ دييف سكان السهوب في مدينة سامارا: نساء نحيفات ذوات شعر أسود مع أطفال ذوي شعر أسود مربوطين إلى ظهورهن يُنَقِّبْنَ في مقالب القمامة ويترددن بكثافة على طول الأرصفة. وقد اشتكت منهم سلطات المحطة بصوت عالٍ: «هجمت حشود الأقوام الرحّل على المدينة». كان «الحشد» هادئاً وقليل الكلام، لسبب ما كان بينهم عدد قليل من الرجال. أُسكِنوا في اثنين من مراكز الإيواء والترحيل افتُتِحا على عجل، في كنيستَين سابقتَين، لكن اللاجئين لم يرغبوا في الجلوس مكتوفي الأيدي، فكانوا من الفجر يزحفون حول المنطقة بحثاً عن فريسة. ولاحوا أيضاً بالقرب من القطار «الضفيرة»، لكن دييف أبعدهم. وها هو الآن وصل إلى موطنهم السهوب.

لم تعجب السهوبُ دييف -لم يكن فيها جمال ولا سخاء ولا أيّ منفعة أخرى للناس. ولم يفهم دييف كيف يمكن العيش بين الرمل وأدغال العذم، في الرياح الجافة والرتابة الصحراوية التي لا نهاية لها. كان فيها بهجة واحدة فقط- السماء فوق رأسك عالية. ولكن منظر السماء وحده لا يُسمن ولا يُغني من جوع.

قلّما طُرِقَت هذه الأماكن: بالقرب من جبال الأورال، ظلت العديد من الطرق مدمرة بعد الحرب، ولم يكن لدى السلطات الوقت لتكملة مدّها. وحتى هم أنفسهم مذنبون، عصابات من مختلف المشارب، وفقاً للشائعات، لا تزال متجمعة في الجبال وعلى المداخل الجبلية، وحتى أبعد من ذلك، إلى رمال بحر قزوين: بكل بساطة يمكن للمرء أن يضيع في هذه الأماكن المهجورة. لذلك، كانت القطارات المتجهة إلى أورينبورغ نادرة، وأقل منها تماماً تلك التي تتجه إلى المناطق الأبعد من أورينبورغ.

قيل إنَّ المجاعة هنا أسوأ منها في مناطق نهر الفولغا. لم يصدق دييف الشائعات. نعم، لاحت البيوت السوداء الفارغة على طول حواف الطريق بزجاجها المكسور. نعم، لاحت الهياكل العظمية البيضاء للخيول والجِمال هنا وهناك. لكن مَن لم يرَ منازل هُجِرَت وعظاماً قُضِمَت؟

كانت هذه السهوب الجرداء مناطق حدودية. هنا، في المساحات الحجرية الصفراء، وتحت سطوة أنواع الرياح، بدأت أراضي قرغيزيا. تداخلت عاصمتها، أورينبورغ، مع الطرف الشمالي من الأراضي الشاسعة، كما لو

كانت تريد أن تكون أقرب إلى الغابات الخضراء وإلى نهر الفولغا المليء بالمياه – بعيداً عن الصحاري التي لا تنمو فيها سوى شُجَيرات الرِّمْث.

عرف دييف أنَّ أسماء المحطات والمحطات الفرعية، التي أَلِفَت عينه رؤيتها (مثل محطات أكتوبر، الينابيع الكُبرى، المدائن الحمراء) ستتحول قريباً إلى كلمات طورانية غير مفهومة. وستكون المحطات نفسها نادرة وصغيرة، وستكون المدن على طول الطريق مغبرة للغاية. وسوف يصعب الحصول على الطعام، والحصول على الوقود يكون أصعب. بعد عدة أيام، ستصبح مسارات السهوب جرداء وتتحول إلى صحراء، وسوف تعُمّ الزُّرقة الغامقة في الأفق، وعند اقترابها، سيُرى بحر آرال. وعند ذلك يكون القطار قد وصل إلى تركستان التي طال انتظارها. وبعد عدة أيام، بعد التغلب على الصحراء والجبال المجاورة، سوف يسير القطار «الضفيرة» في أرض دائمة الخضرة مليئة بالقمح والعنب، وأنواع الثمار.

«بعد عدة أيام» هذه، متى تحل؟ لم تكن لدى دييف أيام عديدة. لقد فقدَ لحد الآن ثلاثة عشر طفلاً من السقم المُقعَدين. والعشرات من الذين انتفخوا خلال هذا الوقت هزلت أجسادهم، كما لو ثُقِبَت بإبرة، وفقدوا القدرة على النهوض – فنُقِلوا إلى عربة المستوصف.

بدا بقية الأطفال سعداء بوجود سقف فوق رؤوسهم وجراية إعاشة مستمرة، ولكن أسابيع من الاهتزاز على طول القضبان أرهقت الجميع – فصدحت الأصوات في عربات الركاب بغضب أكبر وبنغمة أعلى، وازداد نطاق الشتائم والعراك، وبطريقة ما نشب عراك حقيقي، إلى حد تكسير الأنوف ونتفِ الشعر، وكادت بيلايا تطرد المحرضين من القطار في أقرب محطة. وفقدَ المساعد الطبي محاقن من حقيبته ولم يُعثَر عليها حتى أثناء تفتيش المفوضة الدوري. وتغوَّطَ أحدهم في الليل في حذاء إحدى الممرضات. وكان أحدهم يكتب بقطعة من الطوب على باب مقصورة دييف كل ليلة تقريباً لقباً من ألقابه غير اللائقة؛ وبعد بحث طويل، عُثِرَ على قطعة الطوب، لكن لم يتمكنوا من التعرف على الشخص الذي يكتب الألقاب.

تعبت الممرضات أيضاً. نظر دييف إلى النساء – ولاحظ كيف غارت

عيونهن وخدودهنَ، وأصبحت التجاعيد أعمق. لم يسمع شكوى واحدة منهنَ طوال الطريق، لكن وجوه الممرضات المليئة بالتجاعيد ونظراتهنَّ الكئيبة تحدثت عن نفسها. كانت فاطمة الوحيدة التي يليق لها الطريق: من قلة الطعام، ضَمُرَت ملامح وجهها المتكوّر وأصبحت أكثر حدة، وبدت عيناها كأنما اسودَّتا ووسعتا أكثر، ورسمت التجاعيدُ عظام وجنتيها بلطف، وأصبح عنقها أرقّ، كأنَّ التعب وسهاد الليالي جعلا هذه المرأة تبدو أصغر سناً.

أما بيلايا فبقيت على حالها. لم تؤثِّر فيها لا المسافات الطويلة بين المحطات (حتى دييف أراد أن يندفع إلى الكابينة ويهز سائق القطار من صدره حتى يُسرع ولا يتمهل)، ولا المواجهات التي لا نهاية لها مع الصبيان الذين يعانون من الملل (لو كان دييف في مكانها لضرب الأوغاد على أعناقهم، ومن دون تَهاوُن)، ولا الأَسرَّة في عربة المستوصف التي تفرغ يوماً بعد يوم. كانت بيلايا تنعس بسرعة في الليل وتنام بعمق وهدوء في الليل. وكل صباح تمشط تجاعيد شعرها الذي اخشوشنَ من دون الغسل. وتأكل حصتها من الجراية كاملةً وتمضغها في نفس الوقت مدة طويلة وبعناية. وحتى كل يوم تنظف حذاءها، الذي هو عبارة عن جزمة عسكرية لقوات المشاة كبيرة الحجم وذات مقدّم مربّع.

سألَت دييف بصرامة:

– لماذا توقفتَ عن الأكل؟ لقد أصبحتَ هزيلاً للغاية، حتى صرتَ تشبه الفزاعة.

وكيف يمكن للمرء أنْ يشرح لهذه المرأة الحديدية أنَّ جسده لم يعد بحاجة إلى الطعام؟ وقد تخلى عن النوم منذ مدة طويلة، والآن تخلّى عن الطعام، وكان هذا في محله تماماً.

– إذا عاندت، سأطلب من المساعد الطبي أن يطعمك بالقوة مثل المُقعَدين السقم. طالما أنك تتولى قيادتنا في القطار، فمن واجبك أن تأكل ولا تمرض.

دق دييف القدح بأسنانه بجدية، متظاهراً بأنه يحتسي ما فيه؛ والعصيدة الباقية كان يدفعها خفيةً تحت الأريكة – ويعطيها لزاغريكا.

- لماذا توقفتَ عن الحلاقة؟ أطلب منك أنْ تستجمع أمرك وتعيد نفسك إلى حالتها الصحيحة.

لم يمانع دييف في مسألة الحلاقة، لكنه نسي كيف يحلق ذقنه: لسبب ما بدأت يداه ترتجفان. ظهر هذا الارتعاش الخبيث من وقت لآخر، وكان قد أصاب وجنتيه بالشفرة في بضع مرات. كان يخشى من أن يقطع حلقه سهواً فأجّل الحلاقة إلى أوقات أفضل. كان يشعر بالحرج من الاعتراف بذلك.

ولم تكن هناك حاجة للاعتراف. نظرت بيلايا باهتمام إلى خديه الغائرتَين بجروحهما الجافة وشعيراتهما المتناثرة في الأعلى - وأمرته أنْ يعطيها شفرة الحلاقة.

- سوف أساعدك، - بدا الأمر كما لو أنَّ الذي قالت هذا ليست المفوضة، بل امرأة أخرى رقيقة المشاعر.

هزَّ دييف رأسه ورفض - لكنها أمسكت بالكيس الذي فيه أشياؤه وسحبت شفرة الحلاقة من الأسفل.

- لا بأس، اجلس!

أجبرت دييف على الجلوس على الكرسي الصغير، ووجهت ذقنه إلى الضوء، وبدأت في خدش وجهه بالشفرة الرقيقة على الخدين: من دون صابون، ومباشرة. وقالت له بصرامة كأنما تخاطب طفلاً مشاكساً:

- لا يمكنك أن ترسل شعرك، ولا أنْ تتصرف كما يحلو لك، لأنك تحمل الجميع على عاتقك. بعد سمرقند -افعل ما تريد، اسْكر عربد، افعل كل شيء. ولكن الآن، طالما نحن على الطريق- لا تجرؤ على ذلك!

أصابع المفوضة خشنة وباردة، والشفرة حادة، وبرُفع الشعرة، - لذا لم يعد بمقدوره التنفس أو الحركة.

- ما الشيء الأصعب، برأيك، الحصول على ما يكفي من المؤن، أَم الحصول على المزيد من الفحم؟ -(مشت الشفرة على خديه بنطاق أوسع، وأصدرت صوت حفيفٍ عالياً، كما لو أنها لا تقطع شعيرات، بل تقص عشباً كثيفاً).- لكن، كلا! من الصعب الحفاظ على هدوء الرأس عندما تبدأ الخسائر. لا تتبول ولا تئن ولا تدع الآخرين يفعلون ذلك. هو ذا المكان الذي تُختبَر فيه، رحمتك سيئة السمعة! اللطف يتطلب شجاعة. إنه بحاجة

إلى عمود فقري أقوى وأسنان أكثر حدة، وإلا فهو ليس لطفاً على الإطلاق، بل ضعف في الإرادة. إنَّ التقاط صبي مشرد من على قضبان السكة -ضعفُ إرادة. وعدم النوم، وعدم الأكل، وتعذيب النفس- ضعف إرادة. وهمر الدموع على كل طفل مفقود - ضعف إرادة أيضاً. الابتسام بدلاً من البكاء ومتابعة الأطفال الآخرين هو اللطف.

كان بودِّه أنْ يعترض، لكنه رأى أنَّ الاعتراض لا يعادل أنْ يفقد نصف أذنه بالشفرة.

- أنتَ أخذتَ خمسمائة طفل من منطقة الفولغا، بمن فيهم المُقعَدون الطريحو الفراش. إذا ما أوصلتَ الثلثين، ستكون بطلاً. سيكون هذا لطفاً حقيقياً -حتى النهاية. الثلثان- أكثر من النصف. الثلثان كثير.

أراد أن يصرخ: «أيّ ثلثين؟». إنَّ لطفكِ بطريقة ما تحول من الداخل إلى الخارج، رأساً على عقب! سأُوصِل الجميع! كلَّ مَن بقي.

- وخسارة ثلث الموجودين في القطار - ثَمَن معقول. يدفعه جميع مَن يعملون بإجلاء الأطفال.

- ثَمَن؟!

- وسوف تدفع هذا الثمن. أمامك نصف كامل من الطريق، وليس عبر مدن الغابات المعروفة لك، بل عبر السهوب والصحاري الغريبة عنك. لن يكون بمقدور أحد أنْ ينقذ الجميع. ولكن أنْ تنقذ الثلثين أمر لا بأس به.

فجأة، شعر دييف برغبة ملحة في الخروج من المقصورة، وأنْ يبحث عن فاطمة ويجثو بنفسه على ركبتيه أمامها - ويلف ذراعيه حولها، ويدسّ وجهه في جسدها الأنثوي الناعم... ولكن أنّى له ذلك! فرأسه في أصابع المفوضة الحديدية، تحت ضربات النصل الفولاذي.

- تسعة ملايين طفل يتضورون جوعاً في منطقة الفولغا. فهل قليل إذا ما أنقذنا ستة ملايين؟

- وماذا عن الثلاثة الملايين الآخرين؟

- نُنقذ ستة ملايين طفل - وبعد عشرين سنة سوف ينجبون أضعافاً مضاعفة. هكذا تنجو الأمم، يا دييف. وهذه هي الطريقة التي يعيش بها العالم. افهم هذا الآن، افهمه ووافق عليه عن حق. فتوقف عن قتل نفسك.

وبعدما انتهت بيلايا من الحلاقة، نفخت الشعر عن الشفرة وثبتتها مرة أخرى في المقبض.

لم يعد بمقدور دييف الاستماع بعد ذلك، فأغمض عينيه. وفي نفس اللحظة، شعر بحرقة في وجنتيه، فألقى برأسه للخلف والجوانب، وكاد يخلع رقبته – من صفعة قوية من المفوضة على وجهه.

قالت بيلايا كأن شيئاً لم يحدث:

– سوف أحلق ذقنك كل صباح. وإذا لزم الأمر، أضربك على خديك وأجعلك تستعيد شعورك. يمكنني المساعدة في هذا. الباقي عليك أن تتدبره بنفسك.

***

في أورينبورغ، أُقتيدوا إلى ساحة وقوف القطارات، ونُقِلَت القاطرة إلى مستودع الصيانة: وكان الجسر فوق نهر دونغوز، على بعد عشرين فرسخاً من المدينة، قد فُجِّر، فتحتم على القطار «الضفيرة» انتظار إصلاحه. لم يتعرض الجسر لأضرار بالغة، لكن المسارات تضررت، وانتظر دييف مدة يومين حتى تُمَد قضبان سكك حديدية جديدة، ولم يكن قادراً على الانتظار: كانت المدينة مشغولة بالقبض على مرتكبي الحادث – عصابة يابلوتشنيك.

«جماعة التفّاح» كما أطلق عليها السكان المحليون (نسبة إلى اسم زعيمهم يابلوتشنيك المشتقة كنيته من الكلمة «يابلوكو» التي تعني – تفاحة)، ظهروا في تقارير فرع اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب في المحافظة مثل الشظايا، أسوأ من عصيان الخبز وعمليات إعدام صانعي الكحول المنزلي (ساموغون). بحلول عام 1923، طُهِّرَت منطقة أورينبورغ في الجزء الأكبر منها من عصابات القوزاق[1]، ومشاكسي الفلاحين

1– القوزاق: مجموعة إثنية من السلافيين الشرقيين الذين يقطنون بجملتهم السهوب الجنوبية في شرق أوروبا وروسيا وكازاخستان وسيبيريا. بعد قيام الثورة البلشفية في روسيا عام 1917 وقف الكثير من القوزاق إلى جانب الحرس الأبيض المناهض للسلطة الجديدة، الأمر الذي أدى إلى ممارسة القمع والاضطهاد بحق الكثير منهم لمقاومتهم لإجراءات اتخذتها السلطة السوفيتية. وقد أُعدِمَ الكثير منهم. وهاجر قسم منهم إلى خارج روسيا. (المترجم).

المتمردين وغيرهم من أتباع الجنرال دوتوف، الذي حكم المقاطعة قبل عامين. وقد هرب الجنرال نفسه إلى الصين واختبأ هناك، حاملاً خططاً جريئة، لكنه فشل في الوفاء بوعده «بالخروج للموت على الأراضي الروسية» -فقد مات برصاصة من أحد منتسبي اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب التي أُطلقت في وجهه، في وسط القلعة الصينية التي كانت تحت الحراسة. ولا تزال شراذم الجيش الذي كان ضخماً في يوم من الأيام تتجول عبر الوهاد الصحراوية الممتدة من جبال الأورال الجنوبية إلى بحر قزوين، ومن بحر قزوين إلى بحر آرال- في بعض الأحيان تختفي لعدة أشهر، ويبدو أنهم يهاجرون إلى جبال تيان شان، ثم يعودون للظهور مرة أخرى. أُشيع أنَّ بوري بيك نفسه يطعم «جماعة التفاح»، لكن لم يُعرَف على وجه اليقين - لم يُستطَع القبض على اللصوص؛ إما أن يكون نجم السعد قد قادهم بعيداً عن الملاحقات والغارات، أو أنَّ السكان المحليين غير العقلاء ما زالوا يتعاطفون معهم ويؤوونهم.

كانت عمليات «جماعة التفاح» القليلة وقحة ولا معنى لها، أو بالأحرى، كان لها معنى واحد فقط: التخريب. فقد أحرقوا الآن عربة من الأسماك المملحة التي كانت تنتقل من بحر آرال إلى المركز. لم يحرقوها في الصحراء، وليس في المسافة الطويلة بين المحطات، التي لن تَرى فيها هذا الحريق سوى العُقبان الذهبية في السماء وثعالب الرمال في السهوب، بل أحرقوها على بعد ميلين من العاصمة أورينبورغ، التي تقع على مرمى حجر من تلال حوض الفولغا. وحتى لا يكون لدى سائقي القطار الوقت لتوصيل العربة المحترقة إلى المدينة وإطفائها هناك، دمّرَ قطاع الطرق الجسرَ -فقد حطموا السكة الوحيدة بعلبة واحدة من الديناميت وتركوا العربة مع المحرك البخاري مشتعلة أمام الجسر. لم يقتلوا سائقي القطار: بل أوثقوهم بإحكام وملأوا أفواههم بالكمامات- التي هي عبارة عن قطع من الأسماك المملحة. وأطلقوا النار على أيديهم: حتى لا يستطيعوا بعد الآن قيادة القطارات. ثم هربوا إلى السهوب.

عذب التوقف القسري دييف أكثر من ألم الأسنان. جاب المدينة، مُضنياً نفسه بالبحث الدؤوب عن أيّ شيء مفيد: أيّ مؤن وأيّ وقود أو دواء أو

شموع أو صابون. ولكن عبثاً فعَل: كانت مستودعات المدينة مهجورة ومتربة مثل الشوارع فيها.

وفي المقابل، حصل بشكل غير متوقع بالنسبة له على وسائد للمُقعَدين الطريحي الفراش. أو بالأحرى، عثر فحسب على المصنع -واستجدى من فرع المدينة للجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب لافتات من المخمل السميك التي صُودِرَت في وقت ما من فوج القوزاق البيض، وخاطت الممرضة الخيّاطة وسائد صغيرة من القماش. وحشوها بزغب القصب وبدأوا يضعونها للمُقعَدين تحت العظام البارزة في العمود الفقري والأرداف- بحيث يكون الاستلقاء على ألواح الأَسرَّة الصلبة أسهل. وفُكِّكَت الحبال الذهبية وهامش اللافتات ووِضِعَت في مستودع ميميليا: فلربما، تنفع في يوم ما.

وحقق دييف نجاحاً آخر في أورينبورغ: إنه الحمّام. سأل عنه دييف في كل مدينة وفي كل مؤسسة، ولم يعد يأمل في العثور عليه؛ وسأل هنا أيضاً. وفجأة سمع الرد -«سوف نحضّر لكم الحمّام». كانت حجرات البخار في المدينة وتلك التابعة للحامية العسكرية باردة في تلك الأيام، ولكن حمّامات السجن قد سُخِّنَت للتو: كانت تُسَخَّن مرة واحدة في الشهر، ولحسن الحظ، حدث هذه المرة في هذا الوقت بالذات. باقي الحرارة بعد استحمام المعتقلين كان يكفي. لم يكن ثمة صابون، لكن سلطات السجن سخت عليهم ببرميل من الغسول القلوي- لطَّخ الأطفال أجسامهم به بقطع من الحشائش الجافة، التي قطفوها على طول الطريق، ثم اغتسلوا بها. في البداية حُمِّمَ الرُّضَّع، وقد شُطِفَ هؤلاء بالماء الذي كان لا يزال ساخناً؛ ثم الأطفال الأكبر سناً، الذين حصلوا على الدفء فقط. للذهاب إلى الحمام والعودة، أُرسِلت من السجن مائة من أحذية السجناء -التي هي عبارة عن جزمات ذات نعال خشبية. وكان دييف والممرضات يجوبون طوال الليل من المحطة إلى قاعدة السجن وبالعكس، بالتناوب- في خمس نوبات - يجهزون الأطفال ويرافقونهم إلى الاستحمام.

وفي اليوم الثالث من ضياع الوقت بالانتظار في ساحة وقوف القطارات، كان دييف مستعداً للتطوع لإصلاح الجسر المنكوب بنفسه، حتى يتجاوز

العقدة التي طال أمدها ويواصل السير في طريقه. ولكن لم يكن الأمر يحتاج إلى ذلك: فقد أُصلِحَ الجسر. كانت مفرزة للشرطة مع مجموعة من المتطوعين قد عادت من رحلة تفتيش في السهوب، من دون العثور على عصابة «جماعة التفاح»؛ فعادت حياة المدينة إلى مسارها المعتاد، بما في ذلك عمل محطة السكك الحديدية أيضاً.

وعدوا بإطلاق القطار «الضفيرة» على الطريق حتى قبل الظهر. في المستودع شُغِّلَت القاطرة وسُخِّنَت تماماً، استعداداً لإحضارها إلى القطار، جاء أمر من قسم النقل لانتظار فحص ما قبل الرحلة. هذه علامة جيدة: فقد كانوا يفحصون القطارات قبل انطلاقها. سارعت بيلايا وميميليا إلى مركز التموين من أجل الحصول على الثوم البري وعشبة الراوند (لم تكن في المركز مؤن على الإطلاق، ولكن كان هناك الكثير من العشب البري الذي جُمِعَ في السهوب، ووعدوا بتقاسم المحصول مع الأطفال)، وبقي دييف في القطار - بانتظار المفتش.

اتضح أنَّ المفتش بشكيري هزيل، ذو عظام حادة على الوجنتين وكلام روسي خالص، يمكن أنْ تسمع فيه تنغيم منطقة الفولغا الرنان بوضوح. كان لديه ندوب غريبة قصيرة في وجهه كله -كما لو أنَّ مخالب مزّقت وجهه، لكنها لم تقطّعه حتى النهاية. قيل لدييف ذات مرة عن مثل هذه العلامات- يُزعَم، أنَّ أحد زعماء قوزاق سيبيريا يتركها على وجوه الضحايا أثناء التعذيب -لكنه لم يصدّق آنذاك بالقصة. فاتضح- عبثاً.

عادة ما يبدأ المفتشون من رئس القطار. ولكن هذا الرث لم يفعل مثلهم: دخل من الذيل وانتهى به الحال على الفور في عربة المستوصف، وسط صمت المستشفى والأَسرَّة التي استلقى عليها المُقعَدون الطريحو الفراش. غالباً ما سعى المفتشون الآخرون إلى التسلل بسرعة عبر عربة المستوصف، مدركين للوهلة الأولى أنه لا يوجد شيء يمكن التحقق منه بين الجدران والأَسرة المكشوفة؛ كثيرون في هذا الحال يديرون عيونهم نحو الزجاج حتى لا ينظروا إلى طريحي الفراش. ولكن هذا الرجل الرث لم يفعل مثلهم: مشى ببطء بين الأَسرة، واستشعر بعينيه كل زاوية وكل طفل. سار دييف خلف المفتش ولم ير وجهه، وعند الخروج من العربة فقط لاحظ

كيف تحول وجهه إلى اللون الرمادي وتجمد في الدقيقتين الماضيتين. بانت الندبات بيضاء على ذلك الوجه الرمادي، مثل الصقيع الكثيف على الزجاج.

وقف عند رصيف العربة، وسأل:

- هل مات منهم أحد؟

أومأ برأسه دييف فحسب.

- مات كثيرون؟

هز دييف رأسه مرة أخرى.

ثم واصلا المسير. وفي عربات الركاب سارا مسيراً أبطأ: كان الرجل الرث مُدقِّقاً إلى درجة الملل. فتش كل دكة ببطء -سواء من الأعلى، حيث يجد صاحب الدكة الحافي القدمين مستلقياً أو منحصراً في الزاوية خائفاً، أو من الأسفل. داس على الرفوف السفلية، وصعد إلى السقف، وكاد يدقّ رأسه بالسقف، ونظر إلى الرفوف العلوية. وفتَّشَ المراحيض. وفك الستائر التي حجبت دِكاك الممرضات، ومن دون حرج نظر إلى الملابس الداخلية النسائية التي تجف هناك. ونظر إلى قن الدجاج. ولمس اللافتة المعلقة على جدار عربة الموظفين، ورفعها ونظر خلفها. فعل كل شيء- من دون أنْ يوجّه سؤالاً واحداً ومن دون نظرة واحدة إلى رئيس القطار.

ومع الانتقال من عربة إلى أخرى يصير وجه المفتش المُشَوَّه أكثر صرامة. خمّن دييف سبب هذه الكآبة المفاجئة: كان القطار «الضفيرة» أول قطار إجلاء على سكة حديد تركستان، كان المراقبون المُنَعَّمون، الذين اعتادوا على التعامل مع الحبوب أو الأسلحة، يسرعون عند مرأى مئات من الأطفال المُنهَكين.

وبعدما اجتازا، في نهاية المطاف، جميع العربات وقفزا على الأرض عند رأس القطار، سأل الرجلُ الرثُ:

- لماذا لا توجد حماية؟

لم يطرح دييف هذا السؤال قط، ولم يسأل أيّ مفتش عن أيّ شيء من هذا القبيل.

هزَّ دييف كتفيه، وقال:

– وماذا سيأخذ منا في القطار؟ القمل؟

– الأَسرَّة الخشبية، إذا ما قطَّعتها، فسيكون لديك حطب يكفي لتشغيل القاطرة مسافة أكثر من مائة فرسخ. هذا واحد. الدجاج، دزينة ونصف. هذا اثنان. –(تحدث الرجل الرث بصوت منخفض ورتيب، كما لو كان يعد النجوم في السماء)– القمصان من القماش، ولم تُلبَس كثيراً، خمسمائة قطعة. هذا ثلاثة. ثم عدّ الباقي بنفسك.

– مَن يجرؤ على أن يرفع بيده المقاعد من تحت الأطفال الجياع ليقطعها إلى حطب؟!

– هذا السؤال وجّهه إلى يابلوتشنيك زعيم القوزاق عندما يطلق النار على سائقي قطارك، ثم يربطهم عراة ويطويهم في مجلس إحدى القرى مثل حزمة من الحطب. –(ظل المتحدث هادئاً وحتى بطيئاً، ولكنّ وريداً أرجوانياً منتفخاً راح ينبض تحت عينه اليمنى)– أو يمكنك أن تسأل بوري بيك، بعد أنْ تجتاز بحر آرال، عندما سيرميك أنت والمفوضة في بئر صخرية، ويبدأ في سكب التيزاب عليكما في الأعلى.

استشاط دييف غضباً على الفور (في المدة الأخيرة صار دييف يغضب على الفور، بمجرد أنْ تعطيه سبباً):

– مهلاً، مهلاً، لا تُثِر فزعي. فأنا من دون ذلك أشعر بالقرف. يا لهذا الفزع، يا ربّي...

– ليس العواطف، بل تقارير فرع تُركستان للجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب خلال الأسبوع الماضي والأسبوع قبل الماضي. الحرب انتهت هناك، عندكم، في الشمال. لكن في تركستان، لا تفكر في ذلك بعد.

– الحزب أرسل هذا القطار إلى سمرقند! والحزب يعرف كل شيء أفضل منك.

– بالطبع، الأمر من قازان يُرى أفضل.

– ماذا، برأيك، هل يجب عليَّ أن أستدير وأعيد الأطفال إلى مناطق الفولغا؟!

تخيل دييف كيف يلكم الرجلَ الرثَّ بقبضته في بطنه النحيف، المشدود بحزام أحمر ذي إبزيم رسمي، وكيف ينحني الرجل إلى وسطه، ويبحلق بعينيه المرتبكتين.

– لو كان الأمر يتعلق برأيي، كنتُ سأعيدهم.

– ولكنهم سيموتون من الجوع هناك!

– إنهم معك سوف يموتون في الطريق!

لا يمكن للمرء أنْ يعترض على هذا الكلام، ولا يمكن أنْ يبرر الموقف: لقد لَكَمَ المفتش خصمه في بطنه افتراضياً. واستمر بعناد يلكم دييف بالتوبيخ، مثل نقار الخشب الذي يدقّ على جذع الشجرة.

– لماذا تحضرهم إلى هنا، إلى زعماء القوزاق والبصمجية[1] الذين لم يُقضَ عليهم، وتقدّمهم بيديك لهم؟ سيقضون الشتاء معك في دار الأيتام، وبعد ذلك سيذهبون إلى تركستان يتسكعون، وستبحث عنهم من دون جدوى، وتعرضهم للرصاص. طالما أنّ إطلاق النار لم ينتهِ، لا يوجد مكان للأطفال هنا.

ولكن أين مكانهم، إذاً؟ وسط حشد النازحين والمتسولين، الذين يسيرون إلى موسكو مشياً على الأقدام؟ في الأسواق الشعبية على جانب الطريق حيث تُباع أوراق الجزر ولحوم الجراء؟ أم يُدفَنون في الأرض، في الساحات الخلفية من محطة بلدة بوزولوك؟

توتَّرت أعصاب الرجل الرث وفقد بالتدريج هدوءه، وقال بعصبية:

– ما أقوله ليس مجرد ثرثرة أثرثر بها. هل تعلم كم عدد الأطفال المشردين الذين يُعثَر عليهم في المنطقة، والرصاص في رؤوسهم، وبطونهم ممزقة؟ إنهم يتوافدون إلى تركستان هذه، مثل الذباب على العسل، من

1- البصمجية: حركة معادية للثورة البلشفية في آسيا الوسطى استمرت من عام 1917 إلى عام 1931. (المترجم).

جميع أنحاء روسيا. من أجل الخبز والعنب والثمار، وهذا خطأ مضاعف ثلاث مرات! إنهم يموتون هنا مثل الذباب! إنهم لا يعرفون حتى أنَّ الخبز والعنب لا يزالان على بعد ألف وخمسمائة فرسخ عبر سهوب الجياع وعبر الصحراء! -(تحركت الندوب التي على جبهته وخديه مع عضلات وجهه كما لو كانت حيّة).- وهل تعلم أنَّ العديد من الجثث فيها لحم مبتور؟ في أغلب الأحيان، تُقطع الأفخاذ والسيقان، وفي بعض الأحيان -الأحشاء. لأن المجاعة حتى هنا. هو ذا المكان الذي أحضرت إليه أطفالك- أحضَرتَهم إلى الحرب والمجاعة!

أدرك دييف أنه على وشك أن يضرب محاوره - ليس في بطنه ولا في صدره، ولكن مباشرة في شفتيه اللتين تتحركان من دون توقّف. ثم التفتَ وسأل:

- هل ستلقي نظرة على المطبخ الميداني؟ أم نقول بعضنا لبعض وداعاً؟

هز الرجل ذقنه: سأفعل.

عبث دييف بالمفتاح في القفل الموجود على باب مقطورة المطبخ ودفعه إلى الجانب من دون تسرّع، وكاد يسحبه من مفصلاته - فُتِحَ الباب بصرير على الجانب، وكشف عن المساحة الداخلية.

ولم تكن في عربة المطبخ مواقد وغلايات وأكياس مؤن. بل أرجل نحيفة وبطون منتفخة مغطاة بالطين، بالكاد تكسوها خِرَق - هذا ما كان هناك: كانت المقطورة ممتلئة بأطفال غرباء.

احتشد ما يزيد على العشرين، أو حتى الثلاثين من الصِّبْية الصغار على رقعة المطبخ، مضغوطين من جميع الجوانب بالصناديق والدلاء. تجمَّد الأولاد بسبب الضوء المفاجئ على الوضعية التي كانوا عليها: بعضهم كان داسّاً أصابعه في كيس الحبوب، والبعض يشرب الماء من القدح، وبعضهم يلطخون وجوههم في النخالة وأفواههم محشوة بهذه النخالة. كانت المدخنة، التي تبرز عادة من القُمَّرة، ملقاة على الأرض - من الواضح أنَّ الأطفال دخلوا إلى العربة من خلال هذه النافذة. كانت هناك رائحة كثيفة من الأجساد الوسخة ومن الدخان.

كان المفتش أول من تحدث:

- أي نوع من الضيوف هؤلاء؟

ردّوا بصوت أجش من أعماق المطبخ الصغير:

- مرحباً، بكم.

كان من بين الضيوف أولاد أكبر سناً، تبلغ أعمارهم ثماني أو عشر سنوات. وكذلك أطفال أصغر سناً، تبلغ أعمارهم ثلاث أو أربع سنوات. تمكن أحدهم من وضع وعاء المطبخ على رأسه - مثل الخوذة. والثاني تدلّت من فمه حزمة من الأعشاب التي لم يمضغها بعد، والتي عادة ما يغليها ميميليا في شكل هلام.

نظر الجميع إلى دييف، في انتظار إجابة. والرجل الرث كذلك.

انهالت بحفيف على الأرضية الخشبية حبوب الشوفان من يدَي أحدهم القذرتَين.

بعد أنْ سقطت الحبوب عمَّ الهدوء.

كان ينبغي على دييف أنْ يقول شيئاً الآن. فقال:

- هؤلاء أطفال القطار. أطفالي.

لوَّح الرجل الرث:

- امزح معي أكثر! دعنا نضعهم، سنرسلهم مع أول قاطرة بخارية إلى بوزوليك، إلى دار الأيتام.

رأى دييف مأوى الأطفال المشردين هذا قبل يومين: إنه كوخ به سقف متهالك وإطارات مقطوعة لاستعمالها بمنزلة حطب. حول الكوخ قطعان من الأولاد المشردين: يمسكون بأيديهم ويصرخون بنشيد «الأممية» من أجل أنْ يُسمَح لهم بالدخول. ولكن عبثاً يصرخون، لا توجد أماكن في الداخل.

وكرر مُشدِّداً:

- أقول لك، إنهم أولادي. كانوا يساعدون في المطبخ لأنَّ الطاهي ذهب إلى مركز التموين.

المفتش كان لا يزال يحاول الجدال:

- كيف هم «أطفالك»؟! أطفالك نظيفون وبيض الملابس، مثل مجموعة مختارة، لكنَّ هؤلاء يرتدون الأسمال ورائحتهم كريهة.

- لم تكفِ القمصان للجميع.

سقط الوعاء الخوذة من رأس الطفل العابث، وطقطقَ على الأرضية الخشبية.

أصر دييف:

- هناك خمسمائة طفل في القطار، بمن في ذلك هؤلاء. يمكنك مراجعة القوائم وعد الرؤوس.

إذا ما قام هذا المُزعِج وعدَّ الأطفال حقاً - ينتهي الأمر. الأطفال المشردون أكثر بثلاث مرات من الأطفال طريحي الفراش الذين ماتوا.

- أنت نفسك قلت للتو أنهم ماتوا!

- مات طفل - سينيا التشوفاشي من عربة المستوصف.

- أنت نفسك قلت مات الكثير!

- أنْ يموت طفل حي كامل - برأيك، هذا قليل؟

غضِبَ الرجل الرث:

- لا تجعل مني أحمق! هل تعتقد أنّي لا أستطيع التميز بين الطفل المشرد والطفل الجائع؟

- هل انتهيت من تفتيشك؟

- نظر دييف بصرامة إلى الأطفال ودفع باب المطبخ الصغير، وأغلق عليهم حتى لا يثير غضب المفتش.

خلف الباب المغلق - لا تنهد ولا حفيف، كما لو لم يكن هناك أحد.

استدار المفتش، وتوجه نحو المحطة، وهسهس بصوت منخفض:

- سوف يزيحونك من القطار في لمح البصر بسبب هذا الاستبداد.

وسوف يُخرِجونهم من القطار، وربما ستُحاكَم. التعسف على المسارات: التصرف غير المصرح به في ممتلكات الدولة، أيْ بالقطار، ناهيك عن العقوبة المناسبة من الأعلى. الإهمال باستخدام الذخيرة من المواد الغذائية بل وحتى تبديدها (على الرغم من عدم وجود تلك الذخيرة)... لكن ليكن

هذا كله، فهو سيحدث لاحقاً بعد الوصول إلى سمرقند. أما الآن، فليس أمامك سوى القفز من المدينة إلى سهوب أورينبورغ اللامحدودة، حيث لن يلحق بك أمر تلغرافي واحد ولا رسالة رسمية واحدة يحملها موفَد. المهم فقط أنْ توصِل الأطفال.

اندفع دييف خلف الرجل الرث:

- أطلِق القطار! لا يهم حتى لو حرَّرتَ مائة شكوى ضدي، ولكن أولاً - دعني أخرج! أطلق القطار!

لكنَّ الرجل دلف بسرعة، مثل الصرصور -يحني ساقيه النحيفتين نصف انحناءة ويحركهما بسرعة على عوارض السكة. والمحفظة المتدلية على جانبه التي فيها أوراق وأختام- تضرب على فخذيه. آه، ليته أنزلها بسرعة، وسحب ورقة الشحن المطلوبة وصفع الختم المطلوب عليها!

قفز دييف على طول المسارات خلف المفتش، لكنه لم يكن قادراً بأي حال من الأحوال على اللحاق به (الطفيلي يركض بسرعة!)، ثم صرخ خلف ظهر المفتش النحيف:

- هل تعتقد أنَّ الأطفال في إقليمكم وحدهم الذين يموتون؟ وحدهم الذين يُباعون ويُشتَرون ويُترَكون في المحطات؟ لقد جبتُ جميع أنحاء البلاد، من جبال الأورال إلى بطرسبورغ -الوضع هكذا في كل مكان! لا يوجد مكان للأطفال الآن- في أيّ مكان!

عَبَرا القضبان واندفعا متجاوزَين مبنى المحطة ووجدا أنفسهما في بلدة المحطة - وهي عبارة عن تناثر خفيف للمنازل الحجرية الممتدة على طول السكة الحديد.

لحق دييف بمحاوره الحصيف وراح يركض بجانبه، ويلهث محاولاً النظر في عينَيه البشكيريتَين الضيقتَين، لكن المفتش تعمد الابتعاد وتعجَّلَ بين المباني، مثل حيوان وحشي يركض إلى جحره. فقال له دييف:

- لأن هناك حرباً في كل مكان! في كل مكان -يقتل الناسُ بعضهم بعضاً، حتى أسوأ مما في الحرب الأهلية! عناصر جيش، مصادرة المحاصيل الزراعية، القادمون من المدينة يقتلون الفلاحين! الفلاحون يقتلون

الشيوعيين! الشيوعيون يقتلون الكولاك (الفلاحين الميسوري الحال)! والكولاك يقتلون عناصر اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب! وعناصر اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب يقتلون المخربين من أنصار الحرس الأبيض! والمخربون يقتلون كل مَن تناله سطوتهم. لأنَّ الحرب في القلوب! لا في تركستان ولا في أورينبورغ- إنها في القلوب. -(مرّا بسرعة بجدران المستودعات والمخازن وبعض مباني المكاتب المبنية بالطوب...)- ماذا يُفترض بنا أن نفعل الآن - هل نقاتل بعضنا بعضاً، وندع الأطفال يموتون في هذه الأثناء؟

وبعد أنْ سئم من المراوغة، سارع في الجري وسدَّ الطريق على الرجلِ الرث. اصطدم الرجل بصدره في صدر دييف -للحظة ومضَ وجهه المُحْمَرّ ذو الندوب البيضاء الصارخة- لكنه على الفور تملّص واستعجل أكثر. اللئيم، ابن الكلب! فصرخ دييف بأعلى صوته:

- انظر إلى نفسك بنفسك! -(وأدرك دييف فجأة أنَّ يده كانت تمسك بالمسدس، ولكن ليس في جيبه، بل سحبها إلى الضوء ولوّح به وهو يركض؛ فأجبر نفسه على حشر السلاح في مكانه، وشد أصابعه على القبضة).- انظر إلى نفسك بنفسك! هل تعتقد أنك عندما تحاول أنْ تبسط أساريرك وتخفّض من صوتك وتتكلم بهدوء، لا تبدو سريرتك للعيان؟ كل شيء واضح. أنت ما زلت تقاتل، ولن تتوقف عن القتال. لديك حرب في داخلك. وكيف لك أنْ تصمد في وظيفة المفتش فقط، ولا تجري مع عناصر اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب، بمسدس في يد وبندقية رشاش في اليد الأخرى. الناس أمثالك هادئون ولكنهم في حقيقة الأمر أشرس المقاتلين... ثم، ضد مَن أنت تقاتل؟ ضد الأطفال الصغار. أنت الآن لا تعيق مسيرتي، أنا شخصياً، بل تعيق مسيرة الأطفال.

فجأة، انقطعت المطاردة: اندفع الرجل الرث مسرعاً إلى أحد المنازل الذي عليه يافطة مائلة. وقعقع المزلاج في الداخل بسرعة.

ركض دييف نحو الباب المغلق:

- أوقِف حربك! وصدقني، ليس من أجلي، بل من أجل مَن أرسل

هؤلاء الأطفال إلى تركستان! إذا ما أرسلوهم في قطار الإجلاء، على بعد آلاف الفراسخ، فهذا يدل على عدم وجود وسيلة أخرى لإنقاذهم. -(لم يُفتَح الباب من الداخل، فبدأ دييف يركله، وضرب كتفه في فترات التوقف بين الكلمات).- إذاً، ليس لدي طريق آخر... سوى أنْ أُوصلهم... عبر جميع قطاع الطرق والمخربين البصمجية... إلى سمرقند! -(اهتزت اللوحة الخشبية وسارت بهدوء على مفصلاتها).- إذاً، وأنت كذلك، ليس لديك طريق آخر... يجب أن تساعدني، لا أنْ تقاتلني... ثق بي وساعدني!... دع القطار ينطلق!

وفي تلك الأثناء سُمعَت طقطقة وارتعاش، فقد انفلت المزلاج.

انتهى الأمر بدييف إلى الداخل.

-... إنَّ زعيم القوزاق حزَّزَ وجهك، وليس قلبك!

راح دييف يلهث ويتنفس بصعوبة، ووقف في مكتب ضيق، مقسوم إلى قسمين بستارة منقوشة بزهور مُبتذلة. كانت الطاولات والكراسي المكتبية مزدحمة عند المدخل، مليئة بالملفات وأكوام الأوراق، وفي النصف السَّكَني كان جانب الموقد يلمع وقد نُشِرَت على الحبال تحت السقف المنخفض بياضات صغيرة لأطفال كي تجف. وكانت رائحة حساء الكرنب تفوح في المكان.

سحب الرجل الرث الستارة على عَجل، لكن دييف تمكن من رؤية الطست المليء بالخِرَق، التي لم يكتمل غسلها، المُنتصب على كرسي بلا مسند، ومهدَين مرتبَين من حقائب كبيرة. ورأى الرضيعَين اللذين كانا قبل دقيقة يزحفان على معطف من جلد الغنم مفروش على الأرض، والآن تجمدا، وهما يحدقان في الضيف بعيون ممتلئة بالدموع وكانا على وشك الصراخ.

وجد دييف نفسه يمسك مرة أخرى بالمسدس من دون أنْ يعرف كيف خرج، يا لها من محنة! فدفع السلاح بعمق في جيبه مرة أخرى.

مدَّ أحد الأطفال يديه نحو المفتش، ونادى:

- ماما.

عدَّلَ الرجل الستارة الحاجز، وأخفى مسكنه والساكنين فيه عن الغريب - لكن الطفل لم يهدأ. وزحف من تحت الستارة إلى حذاء المفتش المغبر وراح يكرر بإصرار:

- ماما.

رفع الرجلُ الرثُ الطفلَ بين ذراعيه، وانكمش بثقة على قماش سترته الأسود، ولف ساقيه حوله بحركة معتادة - بالضبط فوق الحزام الأحمر ذي الإبزيم الرسمي.

هدّأ الرجل الرث أنفاسه السريعة من رحلته الأخيرة، وقال على نحو مُتعَب:

- اترك الأطفال المشردين. لن تستطيع أنْ توصِلهم، سوف تضيّعهم على طول الطريق.

هدّأ دييف من أنفاسه مثل المفتش، وأجاب على نحو مُتعَب أيضاً:

- هؤلاء أطفال القطار. أطفالي.

زحف الطفل الثاني، الأكبر قليلاً، من خلف الستارة وجلس القرفصاء بجانب الرجل الرث، وشدّه من ساقه النحيلة.

قال دييف:

- سوف أُوصِلهم إلى سمرقند. ليس الثلثين أو الثلاثة أرباع، بل جميع الأطفال.

بعيداً خارج النافذة، زأرت قاطرة من دون أن تستريح. أليست قاطرة دييف؟

تلمَّس الرجل الرث حقيبة الأوراق على فخذه، من دون أنْ يترك الطفل، وأخرج الورقة المطلوبة، وصفعها بالختم.

أخذ دييف ورقة التصريح بمواصلة الطريق. وعند الخروج، لمس المزلاج المكسور بارتباك، ونظر شزراً إلى صاحب الدار باعتذار - فلوَّح الرجل فقط بيديه: هيّا، أسرِع!

سيمع دييف صوتاً من النافذة المفتوحة:

- إيه، اسمع!

نظر دييف حوله.

برز الرجل الرث من فتحة النافذة، كما لو كان في إطار صورة، وهو يضم الطفل إليه. وقال بصوت منخفض:

– خارج المدينة مباشرة، في محطة دونغوز، هناك مفرزة حماية تُناوب. يُفتشون جميع القطارات. ويُنزِلون من القطار الأطفال المشردين الذين يعثرون عليهم ويعيدونهم إلى بوزولوك.

لم يصدّق دييف:

– مفرزة حماية؟ ضد الأطفال؟

– إنهم يبحثون عن قطاع الطرق. والأطفال – في نفس الوقت، حتى لا يذهبوا إلى تُرْكِستان ولا يموتوا في الطريق. الأمر من قائد جبهة تركستان.

نظر من النافذة وجهان: وجه أسمر بارز العظام ذو تجاعيد وندوب، والآخر وجه طفل رقيق.

الآن فقط لاحظ دييف أنَّ شعر الطفل ذهبي تماماً، وعينَيه زرقاوان شفافتان.

هز رأسه امتناناً وركض إلى القطار «الضفيرة».

***

دفع دييف الأطفال المشردين إلى طبقة الرفوف الثالثة لعربة البنات. أسهل طريقة هي إخفاؤهم في عربة المستوصف، حيث كانت العديد من الأسرّة ذات الطابقين فارغة، لكن هل يمكنك حقاً الاتفاق مع المساعد الطبي! لكن مع الممرضات ومع الفتيات أنفسهن –يمكن تماماً. ونظر إلى الجميع بصرامة أكثر، وصاح بقساوة أكبر: لا أريد حركة واحدة!– فهدأ الأولاد.

قال للركاب المتطفلين: إذا أردتم البقاء في القطار والذهاب إلى تُرْكِستان، فتحلّوا بالصبر. استلقوا تحت السقف واسحبوا أيديكم وأرجلكم، وحتى أنوفكم وألسنتكم، –وألا تصدر منكم أي ضوضاء أكثر من تلك التي تُحدِثها القواقع! لا تسعلوا ولا تعطسوا ولا تبحثوا عن القمل. تنفسوا فقط–

ولكن بفتور. إذا ما اكشفوا حتى واحداً منكم، فسوف يطردونكم جميعاً من القطار. وفعلاً خمد الأولاد في أماكنهم! بعد أنْ صعدوا إلى الأَسِرَّة واختفوا، كأنهم ما كانوا في الوجود. ولكن كانت تفوح منهم رائحة لفافات تبغ سجائر ماخوركا الرخيصة فقط.

رتَّبَ دييف المطبخ الصغير بأفضل ما يستطيع. جمع الحبوب المتناثرة وأعادها مرة أخرى إلى الكيس، ونشر الأطباق المتناثرة على رفوف الموقد، وجرف العشب المبعثر في كومة. وهكذا استقبل الطاهي العائد والمفوضة - وهو يزحف على أرضية المطبخ وينقب في الزوايا. ثم وقف على قدميه ونفض الغبار عن ركبتيه، وأوضح قائلاً:

- أدقق تدقيقاً استثنائياً.

نظرت بيلايا إليه نظرة استغراب، ولم تقل شيئاً.

كانت غنائمهما، هي وميميليا، ملحوظة - حزمتان من الثوم البري المجفف، بالكاد أوصلاهما إلى القطار. كانت رائحة الثوم البري نفاذة للغاية لدرجة أنَّهما كليهما كانا يذرفان الدموع أثناء حمل الحزمة.

أمر دييف بتوزيع الثوم البري على الأطفال الآن دفعة واحدة، وأمر بمضغه بجد ولمدة طويلة؛ وسرعان ما امتلأ القطار «الضفيرة» برائحة الثوم الكاوية، وانهمر دمع الممرضات على الفور. حمل دييف حصة عربة البنات بنفسه. وهكذا انطلق القطار من أورينبورغ، ورائحة الثوم تفوح منه على بعد فرسخ، ويهرّب في إحدى عرباته دزينتين من الأولاد الصغار الذين يختبئون تحت السقف، فوق رؤوس الفتيات المرتبكات...

سار القطار ساعة حتى وصل إلى محطة دونغوز - وقضى دييف تلك الساعة كلها في مقصورته، يستمع إلى الأصوات خلف الباب المنزلق. ولم يعرف كيف يوقِف المفوضة، إذا ما قررت الخروج من المقصورة والذهاب للتجول في القطار. كان من الممكن أن يسأل عن شيء ما (عن ماذا؟) أو يخبرها شيئاً (ماذا؟)، لكن دماغه لا يقدر أن يؤلف شيئاً. ولم يكن يعرف كيف يختلق الحكايات.

حالما صرَّ شيء ما في حجرة المفوضة، سحب دييف الباب المُنزلق؛

لكن هذا الصرير نتج لمجرد تعديل من بيلايا لجلستها على الأريكة حتى تشعر بالراحة أكثر وهي تتصفح كتاب - مجلد من أعمال ليرمونتوف الذي استعارته من عربة الركاب؛ نظر إلى الأسفل في ارتباك، وأغلق الباب. وعندما سمع الصرير مرة أخرى بعد دقيقة، اندفع من جديد.

لم تستطع المفوضة أنْ تمسك أعصابها:

- قل لي، ما خطبك؟

طلب منها أول شيء تبادر إلى ذهنه:

- احلقي لي.

امتدت خارج النافذة أرض رمادية لا نهاية لها، مغطاة بأعشاب جافة قليلة - لا توجد فيها مسارات مطروقة، ولا منازل، ولا توجد علامات أخرى لمحطة قريبة.

- حلقتُ لك في الصباح.

- احلقي لي مرة أخرى.

وضعت الكتاب جانباً، ونهضت وجاءت إلى حجرته. نظرت إليه بعناية وبصرامة، مثلما تنظر إلى طفل مؤذٍ.

- ماذا حدث، يا دييف؟

هنا أخطأ الأحمق! أراد أنْ يصرف انتباهها، لكنه بدلاً من ذلك جذب الانتباه.

- قل لي على الفور: ماذا حدث؟

حدّقَت إليه بنظرة ثاقبة - كما لو كانت تفتش فيه.

فكّر دييف مع نفسه، أنه لابد له من أنْ يجيب. أو أن يسأل، هو بنفسه، عن شيء. أو أنْ ينظر نظرة توحي بأنه لم يفهم شيئاً. ينبغي عليه أنْ يفعل شيئاً ما الآن - على الأقل أنْ يفعل شيئاً ما!

لا تزال السهوب ترتجف خارج فتحة النافذة.

- إذا لم تخبرني، فسأعرف ذلك بنفسي الآن...

أخذ دييف في يديه وجه المفوضة الصارم، الذي يتدلى فوقه مهدّداً، وقبّلها في شفتيها.

طالت القبلة واستمرت طويلاً.

وطالت السهوب الصفراء خارج النافذة، وامتدت حتى الأفق. وامتدت الأسلاك على طول مسارات السكة، عبر السماء الزرقاء. وامتدت قضبان السكة، وامتد على طولها القطار «الضفيرة» الأبقع، وامتدت خلفه سحابة بخار القاطرة البيضاء. وطال الوقت، وصار يُحسَب بالثواني والدقائق...

وفجأة – هدير القاطرة: فقد وصلوا إلى المحطة!

لمعت في النافذة شفرات الحراب مثل الإبر المائلة. وتعالت طبطبة الخطوات في القطار. أين رئيس القطار؟ هنا، أنا هنا... هكذا انتهت القبلة.

تتكون المفرزة من عشرة جنود. كل واحد لديه حربة، وزنار ذخيرة الإطلاقات على حزامه. القائد يشد على مَحزَمه طقم حميلة، وفي حزامه مسدسان. نظر إلى دييف كما لو كان مجرماً. وقال، هل لديكم ركاب غير مصرح لهم على متن القطار؟ هزَّ دييف رأسه فحسب: لا تضيع الوقت – اذهب وتحقق من ذلك بنفسك!

ساروا في القطار، من الرأس إلى الذيل: وفي الوقت الذي كان نصف المفرزة يتحقق من العربة من الداخل، كان النصف الثاني يُحدث جلبة في الخارج – يزحفون على القضبان، ويتحسسون بطن العربة، ويصعدون على الأسطح، ويحشرون أنوفهم في الأنابيب والفتحات.

في السنوات الأخيرة، غالباً ما كانت مفارز الحماية تعمل على خط المواد الغذائية –فقد كانوا يأخذون الأسماك والملح من الناس على متن القوارب البخارية، ويصادرون الحبوب في القطارات، وبذلك يساعدون الدولة في توفير الخبز– وقد رآهم دييف كثيراً. عملَ منتسبو مفارز الحماية بطرق مختلفة: البعض منهم عملوا بحنقٍ في قلوبهم، كأنهم لا يخلعون أحشاء الناس المسالمين، بل اللصوص، وبعضهم يتعاملون مع الناس بالنكات والعبارات الطريفة، وبمرح، كأنهم يدعون الركاب المسلوبين إلى هذه المتعة.

أولئك الذين جاءوا إلى القطار «الضفيرة» اليوم كانوا قساة، مثل قائدهم. ودقيقين، مثل مفتش أورينبورغ: لم يفحصوا العربة فحسب، بل كادوا يشمّون ويتذوقون طعم كل الشقوق وكل الزوايا. كانوا ينظرون بدقة إلى الرفوف الثالثة العالية، في جميع عربات الركاب.

لم يستطع دييف أنْ يمسك نفسه عندما حرّك أحد الحراس بالحربة خرقة المرحاض المنشورة لكي تجف، وسأله:

- هل تبحث عن أناس أم براغيث؟

وحتى لم يردوا عليه.

فكَّر دييف مع نفسه، لقد أُسقِطَ في أيدينا، وسننكشف. لابد أنهم يبحثون عن الركاب غير المصرّح لهم. وسوف يجدونهم ويُنزِلونهم من القطار من أجل إعادتهم - وسيهرعون كالأرانب في السهوب من دون انتظار الترحيل. كان المفتش على حق: لن يوصِلهم دييف، بل سوف يُضَيّعهم. ولن يستطيع حتى أنْ يوصِل أطفاله الذين جلبهم معه في القطار: سوف يجرّونه من ناصيته، مثل أيّ منتهك للقوانين خبيث ويعيدونه إلى أورينبورغ. وسوف تتولى بيلايا قيادة القطار، وسيأخذ دييف طريقه إلى السجن الذي اغتسلوا فيه بالأمس مع الأطفال: وسوف يقضي الوقت هناك، في انتظار صدور الحكم من قازان. آه، ما إنْ استطاع الوثوب نحو السهوب، حتى أمسكوا بالقطار «الضفيرة» من الذيل، في اللحظة الأخيرة.

اجتازوا عربات الأولاد كلها، واحدة تلو الأخرى. حدّق الأطفال إلى عناصر مفرزة الحماية وإلى حرابهم بفضول ومن دون ارتباك: لم يروا شيئاً من هذا القبيل. أما المفتشون، فعلى العكس من ذلك، راحوا يفركون أعينهم، وكلما توغّلوا أبعد، فركوا أكثر: فقد كانت رائحة الثوم تفوح في القطار من جميع الزوايا.

انتهى بهم المطاف أخيراً في عربة البنات.

بمجرد دخولهم، أدرك دييف أنَّ الفتيات يقفن إلى جانبه. لأنهنَّ لم يجلسن فقط على المقاعد وينظرن بارتياب إلى الأسرَّة التي عليها «الأطفال المُهَرَّبون»، وبذلك يُعَرّضنه لخطر الكشف عن السر، بل يجلسنَ بطريقة

ماكرة: تسلَّقنَ كلّ اثنتين معاً إلى الرفوف الثالثة العلوية وجلسن بالضبط على تلك الرفوف التي اختبأ فيها الركاب غير المصرَّح بهم. إذاً، غَطَّت الفتياتُ عليهم بأنفسهنَّ. تدلَّت أرجلهنَّ من الدكاك، وتناثرت القمصان على الرفوف - إذا نظرت من أسفل، فلن تخمن أبداً أنَّ شخصاً آخر يمكن أن يجلس خلف ظهورهنَّ.

ولكن عناصر المفرزة لا ينظرون من الأسفل، بل يقفون بأحذيتهم الضخمة عند الرفوف السفلية، يرتفعون حتى السقف - يجوبون بأعينهم على الرفوف العلوية، ويكادون يحشرون أنوفهم فيها.

مشّطوا القاطع الأول.

ثم مشّطوا القاطع الثاني.

ووصلوا إلى القاطع الثالث.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أدار القائد أنفه، وسأل:

- لماذا أشم رائحة لفافات تبغ الماخوركا في عربة البنات؟

لقد شمّ الرائحة، الثعلب الملعون! حتى إنه ميّزها من خلال رائحة الثوم الكريهة.

زمَّت بيلايا أنفها، وتشمَّمَت، لكن كان واضحاً من وجهها الحائر أنها لا تستطيع شم الرائحة. ولم يشمّها دييف نفسه، بسبب رائحة الثوم البري الكثيفة. فأوضح وهو ينظر إلى الأرض:

- الممرضات، لدينا، يَتَلَهَّيْنَ بذلك.

الممرضات -الخياطة السابقة وبديلتها الفلاحة البشكيرية- حدقتا فيه ومدّتا وجهيهما المجعدين، لكنهما تمكنتا من كبح جماح نفسيهما. وحدقت بيلايا فيه كذلك.

لم يكن اهتمام دييف في تلك اللحظة منصباً نحوهنَّ. إنه يعلم أنَّ في هذا القاطع، فوق رأس القائد الثعلب مباشرة، يرقد الآن أحد الركاب غير المصرَّح لهم (الذين يُدعَون الأرانب)، ويعصر نفسه في السرير. ومهما ازدادت حركة رموش ناستيا المدعي العام وجمال النحيلة، الجالستين على

نفس الرف، ومهما تدلت كعوبهما الحافية أمام أنوف الجنود - سيُقبَض على الأرنب (الراكب غير المصرَّح له). جعل دييف ينظر بحسرة إلى ناستيا وجمال، بمعنى لقد انتهى كل شيء، يا فتيات! وكذلك هما تنظران إليه النظرة نفسها.

وفجأة (لم يكن لدى أحد الوقت لفهم أيّ شيء) صعَّرَت ناستيا المدعي العام وجهها وأنَّت. لقد أنَّت أنينَ شكوى، بصوت عالٍ للغاية ورقيقٍ جداً لدرجة أنه يخترق الآذان. شفتاها ترتعشان وتنتشران على وجهها، ورقبتها تهتز في فتحة قميصها قليلاً، ويداها، اللتان هما عبارة عن براثن خشنة ذات أظافر قضمتها حتى اللحم، تنثنيان وتتقلصان على الفتحة الموجودة بين عظام الترقوة. وراحت تنظر إلى عناصر المفرزة ذوي الحراب، لم تكن نظرتها نظرة خوف، بل نظرة رعب - وانتحبت. الدموع في عينيها، كبيرة بحجم حبة الحمص، ترتعش، لكنها لا تتدحرج.

ذُهِلَ دييف. فهو لم يَر ناستيا المدعي العام من قبل، ليس فقط باكيةً، بل لم يرَها وجلةً أيضاً. لذلك، أُطلِقَت عليها كنية «المدعي العام»، لأن شخصيتها جريئة كأنها ولد: كانت تشتم بأفظع الشتائم غير المُحتَشِمَة، وتتعارك. كان لديها على صدرها، في المكان الذي تضغط فيه الآن بيديها المتجعدتين، وشم: ليس نوعاً من الصور ذات المعنى السري، بل كلمتين صريحتين «الموت للمدعين العامين».

وراحت جمال النحيلة تبكي أيضاً. وتحدق في الضيوف ذوي السلاح كما لو كانوا أرواحاً شريرة. حملت ساقيها العظميتين، وشبكت ركبتيها بيديها وبكت بكاءً متشنجاً، ولم تستطع التنفس - ولهذا السبب يخرج الأنين متقطعاً، مثل صرير التلغراف.

ولكنَّ دييف لم ينسَ أنه عندما صعدت جمال إلى القطار «الضفيرة»، لم تُصادَر منها شفرة واحدة، مثل العديد من الأولاد، بل شفرتان اثنتان. وإنَّ قصتها المفضلة عن نفسها هي كيف كانت هي وزُمْرَة من الأولاد الأكبر سناً يبتزّون النساء الوحيدات في الشوارع ليلاً.

ثم بدأت زويا الأفعى على الرف التالي تعوي: الدموع لدى هذه البنت

لا ترتجف على رموشها، بل تتدفق في تيارات على وجهها الأحمر من التشوّش. وتدحرجت دموع موخا لوكسمبورغ، وإن لم تكن بكثرة. وتجهّمَت سونيا إسقربوط وجانكا فِراش وأخذتا تنفخان فقاعات المخاط من أنفيهما. وصرخت تاسيا غير العاهرة بصوت جهوريّ عالٍ. وبكت تبروسيا الحامل، وقد تجمدت مثل الحمقاء في الممر وسدته ببطنها الكبير إلى حد ما.

وأخذت البنات كلهنَّ يبكين: كل الأفواه المائة ترتجف بشفاهها وتصرخ بصوت عالٍ، ومائة زوج من العيون تذرف الدموع على القمصان. هدرت العربة مثل جوقة ضخمة مجنونة.

فزِعَ عناصر المفرزة، وتراجعوا إلى الممر. فصلَّبَت الممرضة الخياطة بخوف من دون أنْ تنظر إلى الرؤساء: قدوس، قدوس، قدوس الرب الإله! الممرضة الفلاحة صارت بيضاء من الارتباك: هل هي دموع الثوم؟ حتى بيلايا راحت تنظر مِن حولها مذهولةً، غير قادرة على فهم ما يحصل.

دييف وحده الهادئ. قال باتزان وهو ينظر إلى القائد:

– لستم بحاجة إلى استعراض المسدسات والحراب أمام الأطفال.

لقد فهم الرجل كل شيء بنفسه، فأومأ برأسه لجماعته: هيّا بسرعة! وبوجوه غاضبة وإحساس بالذنب، اندفع الجنود في الممر، عبر البكاء والأنين، بالكاد ينظرون إلى المقصورات ويتعثرون في قصاصات السجاد المبسوطة على الأرض. سارت بيلايا بجانبهم، وهي تنظر في حيرة إلى البنات الباكيات وتلقي بنظرات مريبة على الممرضات.

دييف، هو آخر من غادر العربة. وانتابته رغبة شديدة بأن يلتفت إلى الفتيات، أو يبتسم، أو على الأقل ينظر بامتنان – لكن لا يمكنه ذلك، فالتفتيش لم ينته بعد. فأغلق باب العربة خلفه ومسَّدَ بشكل خفي على الزجاج الذي يواصل الباكيات النحيب خلفه.

***

بمجرد أن قفز آخر جندي من المستوصف إلى الأرض، لوح دييف بيده لسائق القطار في الكابينة: تحرَّكْ!

انطلق صوت القاطرة الجهوري، وهي تجر الوصلات. فَصَلْصَلَت العجلات على القضبان وهي تأخذ دورتها الأولي. فبدا مبنى المحطة الصغير يتأرجح ويطفو ببطء على الجانب، وحراب عناصر مفرزة الحماية تتأرجح من دون انتظام. هل فعلاً تمكّنوا من المغادرة؟ هل سينطلقون حقاً الآن إلى سهوب أورينبورغ اللامحدودة، حيث لن يلحق بهم المفتشون ذوو البنادق ولا المرسَلون بأوامر التوقف؟

ولكن لم ينتهِ الأمر بكل حال من الأحوال! إذ لم يكن عناصر مفرزة الحماية قد وصلوا بعد إلى المحطة، حتى اندفعت بيلايا إلى عربة البنات. وعندما أسرع على أثرها دييف، الذي تأخر قليلاً، وجدها تجوب المقصورات، وتقفز على رفوف الطبقة السفلية وتنظر إلى الجزء العلوي.

كانت الفتيات ما زلن ينشجْنَ، ويحاولن الهدوء بعد النحيب الجماعي، لكنهن كنَّ يعرفن: لا يمكنك أن تأخذ المفوضة بحِيَلٍ رخيصة. ولهذا تنحَّيْنَ جانباً صاغرات، ونزلنَ إلى الأرض، وكشفنَ لنظر المفوضة عن الأرانب (الركاب غير المصرَّح لهم) المرتبكين.

الراكب غير المصرح له الأول. الثاني. الثالث...

– يا دييف، أوقف القطار!

– أنا لا أظن ذلك.

فكَّرت بيلايا لمدة ثانية بالضبط في مكان الركض: اخرج من القطار «الضفيرة»، إلى بلدة دونغوز التي لا تزال قريبة، حيث بانتظارك كل من مكتب التلغراف العامل ومفرزة الحماية – أو إلى رأس القطار، إلى المحرك البخاري، من أجل طلب التوقف شخصياً.

وفكَّر دييف لمدة ثانية بالموضوع نفسه. وقرر: إذا ما دفعت المفوضة من القطار، فلا تنتظر. قف خلف السائق –وهدده سواء بالكلام الخشن، أو حتى بالمسدس– وأوقد في حجرة الاحتراق إلى أقصى حد. اهرع، وانطلق بعيداً مهما حدث – دعهم يبحثون عنك لاحقاً في السهوب!

ربما، فهمت المفوضة بنفسها أو قرأت شيئاً في عينَي دييف، لكنها لم تندفع إلى الخلف، إلى المحطة، بل تقدمت عبر العربات إلى القاطرة البخارية.

فتبعها دييف.

انطلقا مسرعَيْن على طول الممرات، متعثرَيْن بالأولاد الذين صادفوهما وحتى، على ما يبدو، بالممرضات. وهما يـرددان اعتذارات يصعب سماعها في الضوضاء. كانا يتعثّران ويبتعدان عن الأَسرّة التي كانت تتمايل أثناء حركتهما وتهددهما بالضرب. وكانت الأبواب تُصفَع خلفهما مثل أجنحة الطيور.

مرّا عبر عربة الركاب الأولى، والثانية، والثالثة...

في عربة الموظفين، شدَّ دييف عضلاته، وزاد من سرعة ركضه السريع أصلاً، وألقى يديه إلى الأمام وشبكهما على جسد المفوضة المندفع إلى الأمام.

قاوم جسد بيلايا وضرب ذراعيه، وأسرع مبتعداً، أما دييف فعصر الجسد إليه وجره إلى المقصورة. جرَّ بيلايا مدة طويلة، فتشبثت المرأة بالمدخل، وبالباب المهتز، -فسحبها دييف بعنف، وهزها إلى اليمين، ثم إلى اليسار، وأبعدها عن دعامة الباب. نجح أخيراً- انهار على الدكة، لكنه أسقط بيلايا أيضاً بجانبه.

لم يفصل بين يديه، وشدهما بإحكام حول حزام المفوضة. وبسرعة! شدّ ليس الحزام فقط، بل والمرفقَيْن أيضاً، بحيث لم يعد بإمكانها الإمساك بأي شيء. استلقيا هكذا لبضع ثوانٍ، ملتصقين بعضهما ببعض بشكل وثيق متشبثَين بمنحنيات جسديهما: ظهرُها إلى صدره. وقد دُفِنَ وجه دييف في خصلات شعر المفوضة المجعّدة. بقيت بيلايا مُمَدَّدة قليلاً بلا حراك – ثم اندفعت من جديد، مرة أخرى... ومرة... ومرة أخرى. كان الأمر كما لو أنَّ قلبَ وحش ضخم ينبض في يدَي دييف.

أُنهِكَت عضلات دييف وارتجفت، مثلما يحدث بعد عمل شاق. ولكن، على ما يبدو، أُرهِقَت بيلايا أيضاً، وأصبحت اندفاعاتها أضعف وخفَّت، ثم تلاشت... ولم تندلع بعد ذلك – بقيت بيلايا مستلقية وانتظرت.

ودييف أيضاً بقي راقداً وينتظر. مرَّ الوقت لمصلحته: مع كل قرقعة للعجلات ومع كل دفعة للعربة، ابتعدوا أكثر عن حراب عناصر مفرزة الحماية. وكذلك مع كل نَفَس، ومع كل حركة من حركات جسده أو جسدها.

لقد فهمت هذا بيلايا أيضاً. هل كانت تعلم أنَّ المحطة الآتية على بعد عشرات الفراسخ؟ وأنَّ السهوب المملة قد امتدّت خارج النافذة على مدّ البصر، ولا تتخلّلها أي علامات أخرى على الحياة البشرية؟

اهتزت العربة عند مفترق السكة الحديد، وفرقع القفل - وأُغلِقَ الباب. ظهرت قطعة من السماء الزرقاء في المرآة.

ببطء شديد، خفف دييف قبضته، وأطلق سراح الأسيرة من عناقه. فقالت بيلايا:

- سأُبلِّغ عن الحادثة، على أي حال. من المحطة القادمة.

أدارَ المرأة إليه ولأول مرة عانقها عناقاً حقيقياً.

***

اندمج كل شيء في وميض واحد ساطع.

العيون والحواجب والشفاه.

وهج البشرة البيضاء -قريب. ووهج السماء الزرقاء- بعيد في الأعلى.

شعاع الشمس على خصلات شعر المرأة المجعّد، الذي تفتت كل انحناءة منه إلى ألف شرارة.

تأرجُحُ الستائر المخملية. واهتزاز الجدران. وتأرجُح العربات، والقطار، والعالم. لن تسقط! كلا، لا تسقط -إذا ما تمسكتَ بإحكام- بما هو قريب.

إذا ما تمسكتَ بالرقبة وبالكتفين وبالذراعين.

هل توقفت العربة؟ أم توقف الزمن؟ لا تتوقف من فضلك.

ولنتدحرج مرة أخرى - ونبدأ من جديد.

أسمعُ العجلات، أسمعُ القضبان. اسمعُ قلبك.

ماذا كان هذا، على أي حال؟ هل هي المحطة؟

لا أعرف. ولا أريد أن أعرف.

الخد، الصدغ، الأذن.

ألم تُقَبِّل قط يا (دييف)؟

في مرآة باب المقصورة تطفو سحبٌ بيضاء متلألئة.

كانت الزهور المرسومة على السقف تبدو دائماً كأنها قمامة. لكنها الآن لم تعد كما كانت. صارت الزهور جميلة! لماذا لم أُلاحظ ذلك من قبل؟

وأنَّ السماء في المرآة تبدو أكثر إشراقاً، إلى درجة توخز العيون، لم تلاحظ ذلك. ويمكنك سماع الكلمات في دق العجلة -مثل ما تريد. إذا كنت تريد، فسوف تردد العجلات المنع: «لا تفعل أبداً!... أبداً!...» وإذا كنت تريد- فسوف تعدكَ: «افعل دائماً! افعل دائماً...»

ماذا بكِ، يا بيلايا؟ أيّ نوع من الهراء يصعد إلى الرأس ويخرج من اللسان؟

ربما، ليس هراءً؟ ربما، في الواقع -كما نريد، سنقلب هذا العالم؟ كما نريد- حتى نفهم؟

نعم، مات أطفال في القطار – لم أنقذهم، ولم أستطع أنْ أنقذهم. وأعتقد أنهم سوف يموتون أيضاً، وسوف يحدث ذلك مراراً وتكراراً. ويمكنني أنْ أقول، لن يموتوا، فالآن بقي أكثرهم قوة. هل يمكنني أن أظن ذلك؟ قولي؟

أجل، لا يجدي لي أن أكون إنساناً صالحاً -مهما حاولتُ، لن أُفلِح. أُعطي كل شيء، وأعمل فوق طاقتي إلى حد الإنهاك، أتشاجر في كل قضية، وأحاول أنْ أفعل كل شيء حتى النهاية. ثم أنظر إلى ما قمت به- وقلبي يتجمد: ماذا فعلتُ... يمكنني أن أقرر أنني سيّئ، وأن روحي عمياء، ليتني لم أولَد في هذا العالم على الإطلاق. بيد أنني يمكنني أنْ أقول، إنَّ كل ما فعلته أخطاء، ولكن الآن سيظهر شيء صالح أخيراً. هل يمكنني أن أظنّ ذلك؟ أنا أستطيع! أستطيع!

ما هذه الصرخات – هناك، بعيداً، في الخارج؟

إنها فرحتي التي تصرخ. لم أكن أعلم أنَّ في داخلي هذا المقدار الكبير من الفرح.

يبدو أننا نقف، يا دييف.

كلا، إننا نندفع، نندفع!

كلا، نحن نقف.

إننا نقف حقاً. لماذا نقف؟

في النافذة – فقط السهوب، السهوب. تتأرجح شجيرات الشوك.

وتحت النافذة، يمشي خيال صبي يرتدي قميصاً أبيض – ويتأرجح أيضاً.

من سمح لهذا الحافي، العريان، أن يخرج من العربة؟!

يسقط الصبي على ركبتيه –بقطعة القماش البيضاء على الأرض– وينغرز بيديه في نفس الأرض وينتفض بشكل غريب. هل يبكي؟

تظهر بقربه قامة صبي آخر، ويلتصق بالأرض أيضاً.

ثم يظهر صبي آخر أيضاً.

ركضت الممرضات نحوهم، وهن يصرخن بعنف.

ما خطبهم، يا بيلايا؟

يا دييف، هذه مصيبة.

***

قال المساعد الطبي: – إنها الكوليرا.

خمسة من الأولاد، جلسوا القرفصاء عند العربات، وراحوا يتقيؤون على الأرض. وجلس عدد آخر منهم في الجوار وأردافهم عارية.

– سأخبرك بالتأكيد في غضون ساعتين. لكن وفقاً للأعراض – هي الكوليرا.

كان البالغون قد قفزوا للتو من العربات وتجمعوا معاً في عربة الموظفين –بوضعيتهم التي كانوا عليها، بالكاد يلقون ملابسهم الخارجية على أكتافهم. الجميع– الممرضات وميميليا وحتى بيلايا – نظروا إلى بوغ ولم يرفعوا نظرهم عنه.

سأل دييف سائق القطار:

– أين نحن؟ وهل بعيدون عن بلدة يليتسك؟

كان السائق قد أوقف القطار قبل دقيقة ليهيل الرمل على القضبان في

المُرتَفَع؛ لم يلحق أن يتحرك - حتى رأى كيف سقط الأولاد من العربات وقمصانهم مرفوعة.

هز السائق كتفيه قائلاً:

- لقد اجتزنا يليتسك منذ زمن بعيد. ونحن الآن على مسافة عشرين فيريست منها. وتزودنا هناك بالماء وحصلنا على الفحم. هل أفرطت في النوم، أيها الرفيق الرئيس؟

مسَّدَ دييف خصلات شعره الأمامية بكفه فحسب وزَرّرَ ياقة قميصه - حتى العنق، حتى الزر الأخير.

إذاً، فإنَّ البلدة صارت خلفهم. إذا ما جُهِّزَ ساعٍ راجِل، فسيحتاج إلى يوم كامل للطريق وحده. وما الفائدة من الساعي؟ لن يستطيع الساعي أنْ يجر مستوصفاً عسكرياً على كتفيه، ولن يكون بمقدوره أنْ يقتاد دزينة من الأطباء أيضاً إلى القطار.

أمامهم -ليس حتى محطات، بل محطات فرعيةْ: تشاشكان، جينيشكي، الجان- مجرد أنْ تلفظ أسماءها تشعر أنْ الرمل يتكسر على أسنانك. وليتها تكون مسكونة.

ومِن حولهم - السهوب فقط: تلال ضاربة إلى البياض من الملح، وعشب ضارب إلى البياض من الشمس.

سأل دييف بوغ:

- ما هي الأدوية اللازمة؟

- مرضى الكوليرا لا يُعطَون حبّات دواء بل تنبغي رعايتهم. كثرة الشرب وكثرة الغسل -هذه هي الوصفة الكاملة. يُسقى المرضى- الشاي الثقيل بالليمون والسكر وكذلك الماء المالح. اغسل العربات بالصابون حتى تُدوّي ثم تُرَش بالمطهر: الزّاج الأزرق والخل.

- وإذا لم يكن ثمة ما يُستَعمَل للعناية؟ ولا يوجد ما يُغسَل به؟

- يموت واحد من كل اثنين من الكوليرا غير المعالجة. إذا ما كانت الأجساد مُنهَكة، فيموت اثنان من كل ثلاثة.

- هذا كل شيء؟

نظر دييف في الأفق الصحراوي ورفع عينيه نحو السماء - كان طائر كبير، عُقاب ذهبي أو ملكة العقبان الشرقية، يحلق هناك.

- هذا كل شيء.

صرخ دييف:

- لا بأس، لماذا أنت واقف؟ أصدر أوامرك، أيها المساعد الطبي! دعنا نرتّب - على الأقل شيئاً ما! إلى أنْ يسقط عليك الزّاج الأزرق والليمون من السماء...

عبثاً صرخَ في الجدّ - فقد تبيَّن أنَّه قائد من النوع الممتاز: هادئ وحصيف، ليس مثل رئيس القطار.

بادئ ذي بدء، أخرجوا المُقعَدين الطريحي الفراش من عربة المستوصف: ووضعوهم في عربة الموظفين. ثم دفعوا الأطفال الرضَّع وطرحوهم على المقاعد مثنى وثُلاث. لم يلاحظ السقم المُقعَدون التغيير، والأطفال الرُّضَّع وافقوا على ذلك بسهولة: كان «النازحون» هادئين ولم يطمحوا قط بالشيء الأكثر قيمة في العربة - أيْ باهتمام فاطمة وحنانها.

أيّ شخص ظهرت عليه علامات المرض: القيء والغثيان وسلس الأمعاء، أُرسِل على الفور إلى عربة المستوصف. وضِعُوا على المقاعد السفلية: المرضى بين الحين والآخر يسقطون من مقاعدهم ويهرعون من العربات إلى الشارع لقضاء الحاجة -كان يصعب عليهم الصعود والنزول على الأَسرَّة إلى ما لا نهاية. عمِلَ ميميليا الدؤوب، في كل رف سفلي، على قطعِ حفرة للنفايات وسكبَ الرمل والعشب الجاف تحت كل حفرة، بحيث يكون تنظيف الأوساخ أكثر ملاءمة- خشي المساعد الطبي من أنَّ المرضى قريباً سيفقدون القوة على الركض لقضاء الحاجة.

كان عدد المرضى يزداد في كل ساعة: ليس من عربة واحدة، بل من جميع عربات الركاب، كان الأطفال يهرعون كالمتسابقين إلى الخارج لقضاء الحاجة بين الحين والآخر. لم يتوقف الانطلاق: كان «المتسابقون» يتقاطرون حول القطار، يستبدلون بعضهم بعضاً من دون توقف.

أُرسِلَت الممرضات اللواتي أُصِبنَ سابقاً بالكوليرا (وكانت هناك اثنتان منهن) إلى المستوصف لمعاونة المساعد الطبي. مُنع الباقون تماماً من مغادرة العربات، وكذلك مُنِع الأطفال الذين ما زالوا يتمتعون بصحة جيدة: سرعان ما أصبح الفضاء القريب من القطار ملوثاً وبالتالي خطيراً.

أُحصيت جميع المياه المتوفرة في القطار. اتضح أنها قليلة جداً: في كل عربة كان برميل من إمدادات الشرب يُجدَّد بانتظام في المحطات، وكان هناك خزان آخر في المطبخ للطهي. أمرَ بوغ بغلي كل مياه الشرب، من دون أنْ يبخل بالوقود، وأنْ يُعطى بمواعيد دقيقة وفقاً لجدول، بمقدار نصف كوب. خُزّن القسم الأكبر من الماء لإسقاء المرضى؛ وكان يجب أن يُعطى هذا الماء ليس في الأقداح، بل في دلاء، ولكن أين عساهم أنْ يجدوا هذه الدلاء؟

لم يكن ثمة ماء لغسل القطار، منذ مدة طويلة. ولم تُرَ في الجوار بحيرة مالحة، يمكن أنْ يُجلَب منها محلول ملحي للتنظيف. وبالطبع، لا يوجد صابون أيضاً: خلال أسابيع الرحلة، لم يتمكن دييف من الحصول على قطعة واحدة من الصابون. ومن المطهّرات، لم يكن لديهم سوى زجاجة واحدة من الكحول الذي حصلوا عليه في بلدة سيزران، التي انخفضت إلى النصف في ذلك الوقت؛ أمرَ بوغ بمسح المطبخ الميداني والقدور والمغارف. حتى الملح، وهو ملح الطعام المعتاد الضروري لشرب المرضى، كاد يختفي في مخزون القطار. هكذا خرج المساعد الطبي ودييف لمواجهة الكوليرا: ببرميلين اثنين من الماء للقطار بأكمله وزجاجة غير مكتملة من الكحول الناتج في بداية التقطير المنزلي.

من أين أتى المرض إلى القطار؟ كيف دخل إلى العربات الخاضعة للحراسة؟ اعتقد المساعد الطبي أنَّ العدوى من مياه الشرب –على ما يبدو، في بعض المحطات تزوّدوا بماء ملوّث: إما في أورينبورغ، أو قبل ذلك، أو بعده– الآن لا يمكنك الجزم بذلك؛ كانت العدوى خبيثة، ويمكن أن تظهر في غضون نصف يوم وفي غضون يومين.

منذ عشرين عاماً، انتشرت الكوليرا في روسيا، ولم يُقض عليها. وساعدت المجاعة والحرب على تأجيج جيوب صغيرة من المرض أدّت

إلى انتشارها الواسع. قال بوغ: «الكوليرا – مثل حريق الخث: إما لا تُرى شرارة منه، أو تحترق بسببه غابة بأكملها، حيث تسري النيران فيها من تحت الأرض إلى العديد من الأماكن، ما عليك إلا أنْ تهرب منها!»

مع كل هذه الضجة المتعلقة بالمرض، لم يكن هناك وقت لمراجعة وضعية الأرانب (الركاب غير المُصَرَّح لهم). فبقي الأطفال المشردون، الذين التُقِطوا في أورينبورغ، يتمتعون بالضيافة في عربة البنات حتى المساء، وبعد ذلك أمرتهم بيلايا بالانتقال إلى عربة الصبيان الكبار. لم يكن ثمة مكان يمكن أنْ ينزلوا فيه من القطار: إلا أنْ يُطرَدوا إلى السهوب؟

لم يكن هناك مكان ولا شيء لتحميم الصعاليك. وفي غياب كل شيء، ابتكر بوغ طريقة جديدة لتطهير الملابس: بعد تجريدهم من ملابسهم تماماً، كدَّسَ القادمون الجدد أسمالهم على عجلات القاطرة، وغمر المحرك البخاري أكوام الخرق بنفاثات كثيفة من البخار. وبهذا هدأهم.

قال دييف لبيلايا، عندما هبطت شمس الأصيل خلف النافذة، وغرقت السهوب في اللون الأرجواني والأزرق:

– ليس لديك الحق الآن في طردهم من القطار. ربما التقطوا عدوى من أطفالنا؟ نحن الآن مسؤولون عن صحة هؤلاء الوافدين الجدد ولا ينبغي تركهم من دون إشراف طبي. نحن الذين نقلنا العدوى لهم – ونحن مَن يعالجهم. أَم لديكِ رأي آخر؟

صمتت المفوضة، وراحت تنظر إلى «الراكضين» الذين يجولون على جانب الطريق. كانت القامات البيضاء، التي بالكاد يمكن رؤيتها في المساء، تشبه قطيعاً من الحملان البيض، ترعى في الغسق لسبب غير معروف.

***

وفي الليل ظهر الخيّالة.

ظهروا من العدم –من هواء السهوب الجاف، ومن رائحة الشيح وأعشاب العَرن– وأحاطوا بالقطار، على شكل ظلال سوداء في الضباب الأسود، وبدبيب حوافر مهموس على الأرض الناعمة. هل هم ثلاثة؟ أَم أربعة؟

مدَّ دييف يده بالمسدس على الصوت، وصاح:

- مَن هناك؟

منذ غروب الشمس، اقتطف هو وبيلايا العشب من أجل المستوصف: لقد أُنهِكَ بعض المرضى تماماً وتوقفوا عن قضاء الحاجة في الشارع - كان لابد من تغيير فراش القش على الأرض باستمرار. أما أولئك الذين ما زالوا يتمتعون بالقوة فكانوا يتلَوّون في مكان قريب بقمصانهم المرفوعة. فلابد أنّ الخيالة تمكنوا من رؤيتهم وسوف يدوسونهم.

صاح دييف في الظلام:

- هيا، ابتعدوا! الآن سوف أيقظ الحراس!

لم يجيبوا ولم يقطعوا السير - قفزوا ببطء، تارة يقتربون من القطار عن كثب وينظرون في النوافذ، وتارة يبتعدون بضع خطوات. كانت الحوافر تدق بخفة على الأرض، فالخيول متغذية جيداً وسريعة: ليست من خيل الفلاحين ولا من خيل العساكر في السهوب. ربما، هم من قطاع الطرق.

- إذا لم تتحرَّكوا من هنا - فلدي فصيل كامل نائم في العربات!

كان ضوء الفوانيس النفطية متوهجاً في عربات الركاب وفي المستوصف - يمكن للضيوف بسهولة رؤية سكان القطار: ليس فصيلة أو حتى نصف فصيلة، بل مجرد أطفال، خامدين بسبب المرض الوشيك، تحت حماية دزينة النساء المسنات.

- لديهم المسدسات والحراب ومدفع رشاش! وصندوقان من أصابع الديناميت!

سقطت انعكاسات أضواء العربات على «الراكضين» الجاثمين في الشارع بمؤخَّرات عارية. فهؤلاء لم يتمكنوا من التوقف حتى عندما ظهر الضيوف غير المدعوّين، والآن يزحفون على الأرض بجوار العربات لكي يختبئوا تحت ظلِّها.

وأومضت كذلك أعجاز الخيل وملامح الخيالة في الانعكاسات، ولكن خطفت بسرعة كبيرة، لن تتيح للمرء أنْ يراها بوضوح. بدت اللحى والسترات الرسمية ذات الصف الواحد من الأزرار، والسيوف والجزمات. وبدت أردية

قيرغيزية مبطنة. خليط متنوع من الناس المتنافرين من أصناف شتّى. آه، كان المفتش في أورينبورغ على حق! كان علينا المغادرة بمعية حرّاس.

- هكذا قولوا لزعيمك!

اندفع الخيالة من جانب دييف، واحداً تلو الآخر، كما لو كانوا يقفزون عمداً بالقرب منه ويصبون أنفاس الخيل الساخنة عليه.

- ما إنْ يظهر أنفه فقط، حتى نشدّ الوثاق عليه ونرسله على عربة مقطورة إلى أورينبورغ، حيث ينتظرونه هناك!

لم يستطع أحد الخيالة أنْ يمسك نفسه، وضحك ضحكة ساخرة بصوت جهير، وتحت هذه الضحكة الصاخبة، قطع موكب الفرسان الطوق، وبعد أن احتشدوا بشكل أكثر إحكاماً، ابتعدوا في ظلام الليل...

فقال دييف مُقترِحاً:

- لنغادر الآن. هيّا نُشغّل القاطرة ونهرب بسرعة، ودعهم يبحثون عنا لاحقاً في السهوب.

فردَّ المساعد الطبي:

- كلا. إذا ما حبسنا المرضى في عربة المستوصف، فسنملأها بالبراز حتى النوافذ. وبمثل هذا التركيز من البكتيريا، سوف نُصاب بالمرض ونرقد كلّنا، إلى آخر فرد. وبالتالي، ما دام مريض واحد على الأقل يستطيع الركض بمفرده من قضاء الحاجة، فلن نتحرك من مكاننا.

وقالت بيلايا:

- إنهم ليسوا حمقى. صحيح أنهم قطاع طرق، ولكن ليسوا حمقى. لقد رأوا بأُم أعينهم ما يجري هنا، ولن يأتوا إلينا مرة أخرى.

كانت المفوضة على حق: لقد أوقفت الكوليرا حركة القطار، ولكن الكوليرا ستصبح أيضاً حصنهم الدفاعي.

وعندما قطفوا عشب السهوب، ظل دييف يردد مع نفسه، لن يأتوا مرة ثانية. قطفوا عشبة العذم، وعشبة المَرْدَقوش الإِفْرِيطِيّ، وعشبة العرن -كانت السيقان صلبة، كما لو كانت مصنوعة من الأسلاك، نضحت أكفّهم بالدم وفاحت منها رائحة المرارة. نُقلت حُزَم التبن إلى عربة المستوصف،

وأزاحَ ميميليا التبن الملوَّث بالبراز من هناك- ليس بيديه، بل بمزراق خشبي طويل؛ دفعه بعيداً وألقى به في أخدود على جانب الطريق.

لن يأتوا - عندما حَشوا الأكياس بذلك العشب وغطوا المرضى بهذه الأكياس: بعضهم ساءت حالتهم، وطرقتهم الرعشة.

لن يأتوا - عندما أحضروا الماء المغلي إلى عربة المستوصف ليسقوا المرضى: لم يحملوه عبر العربات، التي كان الأطفال فيها يئنّون بأعلى أصواتهم «نريد الماء!»، بل عبر الشارع، بعد أنْ دثّروا الدلاء التي يتصاعد منها البخار بغطاء.

لن يأتوا - عندما ازدادت حالات الإصابة بالكوليرا مع الفجر لدرجة أنهم قرروا منحهم عربة ركاب كاملة، وضغط العربات التي فيها الأطفال الأصحاء.

لن يأتوا...

ولكن اللصوص أتوا.

ما إنْ كادت الشمس الصفراء تطلع فوق السهوب المُحْمَرّة في الصباح الباكر، حتى ظهر جَمَلٌ من ضباب الصباح -ضخم وأصفر أيضاً، ذو شفاه ملتوية وخصلاتِ وبرٍ كثيفة في جسمه كله. جلس على ظهره رجل يرتدي معطفاً رسمياً وقبعة من الفرو، مطوية بشكل متقطع إلى أحد الجانبين، ولاحت خلفه في الأفق عربة خشبية. كان الجَمّال يسير بمفرده، وعلى العادة يتأرجح مع خطوات الجمل العريضة، ممسكاً في يديه الممدودتين بالعنان فقط. من بعيد، بسبب جلسته المريحة، يمكن أن يخطئ المرء ويتصور أنه من بدو السهوب الرُّحَّل، ولكن عن قرب، صار بالإمكان رؤية عينيه الزرقاوَين وشعره الأشقر- كان الرجل من القوزاق.

لديه على الحزام سيفٌ في غمد. وخلف الحزام سلاح ناري قصير، كان من الواضح أن عمْر السلاح أقدم من عمر صاحبه (كانت هذه المواسير تسمى احتقاراً مسدسات، ويمكن للمرء أنْ يصادفها بشكل أساس في تركستان، حيث جلبت أسلحة غير مهمة من دول الوفاق الثلاثي[1]).

1- الوفاق الثلاثي: كان اتحاداً عسكرياً بين بريطانيا وفرنسا وروسيا. تأسس عام 1907 من خلال معاهدة سانت بطرسبرغ. (المترجم).

صاح الرجل عندما اقترب من القطار:

– الزعيم يابلوتشنيك يتمنى لكم الصحة والعافية! ويطلب خدمة.

أجاب دييف من دون أن يرفع صوته ومن دون أنْ يهتم بما إذا كان المحاوِر قد سمع كلماته:

– وأنا أتمنى للزعيم أن يموت بأقرب وقت، ولن أقدّم له أيَّ خدمة.

كان دييف يقف على منصة العربة (لقد ذهب إلى هناك مع بوغ، بعد أن رَأيا ضيف الصباح من النافذة)، لكنه لم ينزل إلى الأرض، ولم ينوِ إجراء حديث طويل معه: كانت عربة المستوصف مليئة بالأطفال الذين انهارت قوتهم واستولت عليهم الرعشة، والذين يجب أنْ يُسقَوا الماء، أو على الأقل أنْ يُهَدَّأ من روعهم بسبب قلة المياه.

وتابع الضيف، وهو يقود الجمل بالقرب من عربة المشفى:

– إنه ليس طلباً كبيراً. لن يكون من الصعب تنفيذه. يريد الزعيم أن يصلي مع رفاقه في عربة الكنيسة.

نظر دييف إلى وجه الجمل ذي الشفاه الكبيرة كأنه يخاطبه، وقال:

– وأنا أريدكم أن تُوَلّوا من هنا! إنها ليست كنيسة، بل مستوصف. أو بالأحرى كوخ الكوليرا.

أومأ الساعي برأسه:

– الزعيم يعلم. ولهذا السبب أرسل برميلاً من جير التبييض لتطهير جميع العربات والقاطرة.

لم يلحق دييف أنْ يرمش –حتى انطلق المساعد الطبي من المنصة إلى الأرض، وكاد يخطئ في وضع قدمه من جانب درجات السلّم، وهرول بشدة إلى العربة الخشبية، التي كان عليها برميل حقاً. رفع الغطاء عن الحاوية– ورفع إلى دييف وجهه المستغرب، الذي تغيَّرت ملامحه من الرائحة النفاذة والبهجة الشديدة.

ابتسم القوزاقي ابتسامة ساخرة وقال:

– وسوف يرسل المزيد. أيَّ شيء تطلبون وبالكمية التي تريدون.

أجاب بوغ بسرعة بدلاً عن رئيسه:

- نحن موافقون. نطلب المزيد من الملح والصابون. الكثير من الصابون، الكثير جداً! -(للمرة الأولى، يرى دييف الجد بهذه العجلة من أمره).- والكثير من الماء أيضاً! أكبر كمية يمكنكم إحضارها.

هزَّ القوزاقي رأسه: طلبكم مقبول.

كان من الصعب تصديق الوعد (لا يوجد أفضل من دييف يعرف أنَّه من غير الممكن الحصول على الصابون هذه الأيام!). لكن برميل الجير كان بمنزلة معجزة كبيرة - كأنما سقط عليهم من السماء، خُذُوا! سحب بوغ المُستَعجِل البرميلَ إلى عربة المستوصف، ولفَّ ذراعيه حوله وضمَّه إلى صدره، مثل أيّ شخص عزيز.

سأل دييف بفظاظة عبثاً:

- ماذا تقصد، ألا توجد معابد كافية في أورينبورغ؟ أَم هل قليل ما شُيِّدَ منها أيام القيصر؟

قال بوغ وهو يمشي:

- أتمنى لو جلبوا برميلاً من الخل. أو برميلين.

أصبحت نظرةُ المساعد الطبي الصارمةُ في العادة نظرةَ ألم: فمن الواضح أنَّ الجد أدارَ في ذهنه كل ما يود أن يطلبه من ثروة من هذا الحظ الذي حالفه فجأة، وهذا الخيار سبب له الألم.

واصل القوزاقي ابتسامته العريضة، مستمتعاً بصراحةٍ باضطراب المساعد الطبي، وردَّ على دييف:

- لقد شُيّدَ من الكنائس ما فيه الكفاية، لكنها دُمِّرَت في السنوات الأخيرة. وفي مثل هذه الكنيسة المتنقلة على عجلات صلى الزعيم في عام 1915 عندما ذهب إلى الجبهة الألمانية. لذلك، فهي بالنسبة له ليست مجرد كنيسة مُتَنَقِّلَة، بل ذكرى.

- ألا يخشى الزعيم أن يأخذ الكوليرا من الكنيسة كتذكار؟

فجأة اتخذ القوزاقي هيئة الجدية، وقال:

– إنه مؤمِن. ولهذا السبب لا يخاف. كلنا نؤمن ولا نخاف.

ونظر إلى دييف كما لو كان يصوب إليه مسدساً.

لم يهدأ المساعد الطبي:

– وكذلك نريد حطباً أو فحماً. سنغلي الكثير من الماء لكن من دون الوقود...

هدرَ صوت دييف عالياً إلى درجة جعلت الجمل غير المبالي يهزّ رأسه، فرنَّت الأجراس المُعَلَّقة على عُدَّته:

– توقف عن المساومة! يوجد الكثير من المرضى في المستوصف. لا يهدأ زعيمك – دعه يجلس ويهمس بالصلاة في مكان قريب، ولكن بهدوء ومن دون إزعاج. لن نطرده.

ابتسم القوزاقي مرة أخرى: ربما، إنه لم يتوقع إجابة أخرى. كانت ملامح وجهه الذي سفعته الشمس تنتقل بسهولة من التجهّم إلى الابتسامة وبالعكس. ففكر دييف مع نفسه: آه، ليتني أسحبكَ من أجل تلك الابتسامة المتكلفة من الأعلى من رجلك وأُسقِطك من سنام البعير على وجهك إلى الأرض، وإلى قذارة الكوليرا! ثم قال:

– كل ما وعدتَ به، سوف تقدمه أولاً.

سوف تذهب كل محاولاتك سدى، أيها اللعين.

أصبحت ابتسامة القوزاقي أوسع:

– لقد أحضرناها بالفعل. كيسان من الملح. والباقي سوف نجلبه فيما بعد.

كان المساعد الطبي على وشك وضع برميل الجير على منصة العربة، عند قدمي دييف، لكنه عندما سمع عن الملح، عاد إلى الضيف. فابتسم القوزاقي باستحسان وكاد يضحك بصوت عالٍ: هيا يا جد!

هرع بوغ إلى العربة مرة أخرى. كان هناك بالفعل كيسان صغيران محشوان بإحكام. فكّهما، وأخذ قبصة من كليهما، ووضعها على لسانه: إنه ملح!

حرَّك القوزاقي حاجبيه وزمَّ أنفه، لكنه كبح جماح نفسه، ولم يضحك.

سأل دييف بكراهية:

- ماذا لو لم أوافق؟

- لكنك أعطيت كلمة!

- هل كنتم ستأخذون عربة المستوصف بالقوة، وتطردون الأطفال؟

تحولت ابتسامة الضيف على الفور إلى تكشيرة. من دون أنْ يترجل ومن دون أنْ ينظر إلى محاوريه، فكَّ القوزاقي بصمت نهايات العريشة من العربة وألقى بها على الأرض، ثم أدار الجمل وانطلقَ عائداً. كانت حركة الجمل لطيفة، وسرعان ما لم تَعُد تُسمَع قعقعة الحوافر ورنين العنان، فقط الغبار الأصفر يرتفع مثل الحائط. بقيت العربة بجانب الجد.

قال دييف:

- قاتلتهم، هؤلاء القوزاق. والآن أبيع نفسي لهم مقابل الصابون.

كانت في العربة بالإضافة إلى أكياس الملح حزمة مصنوعة من بطانية عسكرية قديمة. دسَّ بوغ يده إلى الداخل وأخرج حفنة من شيء صغير لامع -إنها حلوى في أغلفة. في حزمة ضخمة- خمسون رطلاً لا أقل.

لم يصدق المساعد الطبي عينيه:

- إنه كراميل. قند.

بصق دييف، وقال:

- لم أعد أستطيع تحمل الحلوى. صارت تثير اشمئزازي.

***

«جماعة التفّاح» لم يكونوا كثيرين، بضع عشرات فقط. في البداية، اعتقد دييف أنَّ هؤلاء مجرد جزء فحسب من المفرزة، لكنه أدرك لاحقاً أنَّ الصقور الصغار كلهم قد تجمعوا هنا.

كان الرجال متجهمينَ ولحاهم تمتد حتى عيونهم، مما جعل من الصعب تحديد أعمارهم. ولكن من بين اللحى الكثيفة، كان بعضٌ قد غزاها الشيب، وبعضٌ عليها علامات أُبّهة الشباب. على رؤوسهم قبعات من فرو

ضأن أسترخان، وقبعات مصنوعة من اللباد تتدلّى على الأذنين، وعمامات قرغيزية. وعلى الأكتاف معاطف رسمية، ومعاطف تترية مُبَطَّنَة بالقطن وأردية قطنية متهرّئة. بالإضافة إلى الأوباش.

كلهم خيّالة. جلسوا بحرية فوق السروج: لم يخرجوا من الركائب، مثل الفرسان المبتدئين، لكنهم بدوا كأنهم خرجوا من خناق الأحصنة ويتدفقون حولها -بأرجلهم وأذرعهم وبكل أجسادهم المرنة- يستجيبون لكل خطوة حصان وفي الوقت نفسه يوجهونها. تعلَّمَ هؤلاء ركوب الخيل قبل أن يتعلموا المشي: كلهم من القوزاق. أو بالأحرى من القوزاق أنصار الحرس الأبيض. أو بالأحرى، من قطاع الطرق.

وقف دييف على منصة العربة، وراح يراقب وصول العصابة. ووفقاً لعادته، عدَّ أيضاً أسلحة العدو -البنادق على الظهور، والخناجر والسيوف، والمسدسات في الحافظات- ولكن كان ثمة الكثير من الأسلحة التي لا معنى لها. وفي العربة المغطاة بالجلد، التي يجرها الجمل المألوف، يمكن إخفاء أي شيء على الإطلاق: حتى مدافع هاوتزر، وحتى قاذفة قنابل كاملة.

من الأفضل ألا يلتقي دييف بالضيوف ولا يتواجد في عربة المستوصف أثناء أداء الصلاة، فقد اشتد غضبه للغاية مؤخراً. ولكن كيف؟ لذا أمرَ المساعدَ الطبي مسبَقاً: «إذا ما بدأتُ في الصراخ والتلويح بالسلاح، فامسكني من ذراعي وجرَّني إلى السهوب. خذ المسدس. سأقاوم - اضربني بقوة، أسمح لك بذلك». فوعده بوغ بفعل ما أمره.

حتى من بعيد، عندما رأى الخيّالةُ الكنيسةَ المُتنقّلة، صلَّبوا. والآن، بعد أن اقتربوا ونزلوا، صلَّبوا مرة أخرى، هذه المرة صلَّبوا بشكل متكرر ومع الركوع (شعر دييف بالإحراج عند باب العربة -كما لو كانوا يركعون له شخصيّاً). لم يربطوا الخيول ولم يعقلوها، بل قاموا ببساطة بإلقاء اللجام حول أعناقها، فتنحَّت الخيول جانباً بطاعة- وراحت ترعى.

أيّهم زعيم القوزاق يابلوتشنيك؟ اعتقد دييف أنَّه الرجل الطويل القامة الذي يرتدي قفطاناً قصيراً وجزمة طويلة، لكن اتضح أنَّ هذا الكاهن: أخذ غفّارةً (رداء كهنوتي) مُتربةً من حقيبة مربوطة بالسرج وألقاها مباشرة فوق

القفطان القصير. ثم أخرج صليبَين (أحدهما على العنق والثاني في اليد) وحزمة مُجَلجِلة، من الواضح، فيها أوان كَنَسيّة.

أحدثَ الباقون جلبة من حولهم: بدأوا يمسحون الغبار بأكمامهم من وجوههم ونفضوه من على سراويلهم. ثم نزعوا قبعاتهم ومشطوا شعرهم بأصابع كفوفهم.

ما بهم، هل اجتمع الحشد كله لزيارة المكان المقدس؟

قالوا باقتضاب: - «الخل». وهم يُخرِجون من عربة مسقوفة إلى الأرض عدة قنان ضخمة من الزجاج السميك التي تُستَعمَل عادة لتخزين الكحول المنزلي التحضير فيها.

السائل بالداخل تلألأ صافياً، كالدمع - ربما، أنه خلّ حقاً. أو ربما، ماء عادي.

لم يركض دييف نحو الهدية ويلصق أنفه بها بفارغ الصبر، مثلما فعل المساعد الطبي في الصباح. وسأل بصرامة:

- أين الصابون؟

أجابوا بصرامة أيضاً:

- بعد أنْ نخرج.

وتوجهوا إلى الهيكل. سار القس أولاً، وتبعه الباقون. صعدوا درجات سلَّم العربة -اندفعوا بسهولة مثل الشباب- وتوقفوا للحظة أمام المدخل، ووضعوا الصليب على أنفسهم، ثم غاصوا عبر الباب المفتوح. لم يلاحظوا دييف - ساروا من جانبه، اصطدموا به بأكتافهم ومرافقهم، ولكن ليس بنظراتهم. كما لو أنهم جاءوا إلى منزلهم، يا لهم من وقحين. واحد فقط نظر إلى دييف وسأل: «هل هناك أطفال قوزاق في القطار؟» فردَّ عليه دييف: «اذهب وابحث بنفسك!». فكشَّر الرجل بفظاظة.

الوجوه -صلبة، مثل نعل الأحذية، بعد أن جرَّبَت كلاً من شمس السهوب الحارة وشمس الصحراء القاتلة. الشوارب والحواجب- مثقلة بالغبار. العيون - تتلألأ من الترقب.

ما هي إلا دقيقة، وإذا بالجميع قد حُشِروا في الداخل، ولم يبقَ بجانب القطار أحد. بقيَت العربة فقط تصرّ في مهب الريح، واثنان من «الراكضين» يلهثان على جانب الطريق، من الذين، بعد ليلة من الأرق، لا يزالون يتمتعون بالقوة الكافية للمشي على أقدامهم. هل أغفل دييف زعيم القوزاق، أم أنَّ الرجل لم يكن من بين الوافدين؟

دخل إلى عربة المستوصف، أو بالأحرى، حشر نفسه من خلال الباب، الذي صار بالكاد يُفتَح، لأنَّ الرجال الأقوياء دعموه بإحكام من الداخل.

مساحة الكنيسة السابقة، التي أُلحِقَت فيها بشكل كثيف أَسِرَّة من ثلاثة طوابق، لا تكاد تستوعب مثل هذا الحشد -لكنها فعلت: فقد حشر الرجال أنفسهم بين الدكاك وعلى طول الممر الضيق، ولم يتركوا حتى بوصة واحدة خالية. مدَّ الجميع رقابهم إلى الأمام- إلى المذبح السابق، الذي شقَّه النجارون في قازان إلى نصفين، وظل نصفه سليماً، مع الإطارات واللوحات الجدارية التي غطت الجدار الخلفي للعربة. وقد سُحِبَت الستارة، التي عادة ما تخفي بقايا المذبح، وسُحِبَ كذلك سرير المساعد الطبي: كان الإله الرقيق ذو الشعر الطويل ينظر إلى الحشد، رافعاً أصابعه، والدة الإله تنظر إليهم وهي تحمل الطفل (لقد تمكن النجارون في قازان من إسقاط الإطارات المعدنية التي تُزيّن الأيقونات، لكنهم لم يتمكنوا من التخلص من الجداريات، فخدشوها قليلاً بالسكاكين وتركوها هكذا بخدوشها).

بالقرب من الأيقونات، خشخشَ الكاهن بلوازمه ولاح رداء صوفي سميك بلونه الأبيض الصارخ على الكتفين العريضتين لأحدهم. وفوق الكتفين انتصبَ رأسٌ كبير ذو شعر مجعّد قد غزاه الشيب، وكان المكان من حوله فسيحاً - فقد ازدحم القوزاق في الخلف ولم يجرؤوا على الاقتراب من العباءة. يا ترى، هل هو الزعيم؟

كان دييف يعرف على وجه اليقين: لم تمر من جانبه مثل هذه العباءة، ولا مثل هذا الرأس ذي الشعر المجعد الشائب - ولكن، هاك، تفضّل، هو ذا يابلوتشنيك يقف في المعبد في الصف الأول. وكاهن الفوج يوزّع الشموع للصلاة القادمة، ويلوح بالمبخرة كصاحب الدار في جميع الاتجاهات،

ويملأ العربة برائحة البخور الحلوة. والقوزاق يمررون الشموع بعضهم لبعض، ومرَّرَ أحدهم، إما عن طريق الخطأ أو عن قصد، شمعة إلى دييف.

فقال له دييف:

- اتركها لنفسك.

كاد دييف يدفع الرجل الذي ناوله الشمعة بكتفه، واندفع إلى الحشد وشق طريقه في عمق العربة: الصلاة صلاة، ولكن الكوليرا لم يُلغِها أحد في عربة المستوصف، وسيفعل دييف الآن ما قد فعله طوال الليلة السابقة -سوف يعتني بالمرضى. وسيأتي المساعد الطبي والمفوضة والممرضات- ليس ثمة وقت لديهم للركوع ولا داعي للتوبة من الذنوب.

تمتمَ الكاهن وردد عويلاً خافتاً، وراوَح برجليه عند المذبح مدة طويلة ولوَّح بالمرشّة فوق رؤوسهم -ينثر الرطوبة بسخاء، محاولاً الوصول إلى أبعد أركان الحجرة. سقطت بضع قطرات على وجه دييف- فتحتّمَ عليه أن يمسح جبهته بكُمِّه حتى تجف. وأنْ يمسح وجوه الأطفال والدِكاك القريبة منه. سوف تنتهي هذه المسرحية - وسوف يغسل كل شيء، على الأقل، بالجير!

ها هي الشموع تُضاء. فاختلطت رائحة الشمع المذاب مع حلاوة البخور، ومع رائحة العشب الذي تناثر على ألواح الأرضية تحت المقاعد، ومع رائحة أجساد الذكور ورائحة نَفَس الرجال القوية. الجو في المكان خانق للغاية، لكنه دافئ.

الدفء جيد. المصابون بالكوليرا يحتاجون إلى الدفء. فالكوليرا تزيل القوة من الجسم وتبرِّد الأطراف حتى يشعر المريض بالصَقْعَة باستمرار. يا ترى، هل يمكن أنْ يشعروا بالدفء من حرارة الشموع ومن نَفَثِ الأفواه الكثيرة؟

يطلب أحد الأطفال (في كيس مملوء بالعشب) من على الدكة:

- دثّرني.

تحت هذا الكيس يرقد طفل صغير، بالكاد يمكن ملاحظته، يرتجف من القشعريرة: إنه جنكيز مامو.

- دثّرني، يا دييف، دثِرني!

جلس دييف بجانبه، مُتكئاً بركبتيه على رِجلَي أحدهم. ولفَّ الصبي في الكيس بإحكام، وثنى الحواف. أليس هكذا أفضل؟ كان بوده لو يعطي جنكيز سترته العسكرية، لكنها منذ مدة طويلة تدفئ إحدى الفتيات.

تهدَّل على الكيس شيء كبير. هل هو، شال؟ إنها قلنسوة رثة –خلعها أحد القوزاق وأعطاها للطفل المتجمد. لو حدثَ ذلك في غير هذا الوقت، لرمى دييف الصدقة وأعادها إلى صاحبها، لكنه الآن أخذها. ضغط على أسنانه من الحنَق، ولكنه أخذها. ولفَّ جنكيز باللباد الناعم– هل أنتَ أفضل الآن؟ ورفع عينيه ليعرف صاحب الشيء. لكن كان ثمة الكثير من الرجال من حوله، والجميع ينظرون باهتمام إلى المذبح، حيث يُنشِد القسُّ ويتلو الصلوات – لا يمكن للمرء أن يعرف مَن المانح.

لِيَتَقَدَّسِ مَلَكُوتُكَ! – يردد القس بصوت عالٍ.

ففُتِحَت أفواه القوزاق فجأة –في الحال، مثل فم واحد– وتنفجر الموسيقى: آميييين!

ومرة أخرى يتلوى الكاهن ويغمغم، ومرة أخرى يرد القوزاق إنشاداً: ارحمنا، يا رب، تذكر وتذكر! ما إن يتمكن المُنشِدون من إنهاء العبارة، حتى يلتقطوا أصواتاً عالية – ويكرروها على شكل نوتات: يا رب، ارحمني، ييييي!

قفز دييف ونظر مِن حوله. ولا يفهم كيف يوقف هذا الغناء الغريب وغير اللائق. لكن المكان ضيق جداً لدرجة أنك بالكاد تستطيع التحرك، والمحرِّضان الرئيسان –الكاهن ذو الرداء الأسود والزعيم ذو الرداء الأبيض– متقدمان كثيراً، وبالكاد تمكن رؤيتهما. وفُتِحَت الشفاه من جميع الجوانب، وصدحت الأصوات الهادرة للمرة الثالثة: يا رب، ارحمني، ييييي!

خاطبَ دييف الجمهور:

– ما هذه الصلاة؟

لم يسمعه القوزاق – أو أنهم لا يريدون أن يسمعوا؟ ردَّت عليه بيلايا فقط (كانت تقف عند الدكة المجاوِرة، وتسقي من قدحٍ بيدها الطفلة نونكا بوفاري)، قائلةً بهدوء:

– هذه ليست صلاة، بل قداس كامل. القداس الإلهي.

توقف الإنشاد فجأة وتلاشى في الهواء مع آخر نغمةٍ رنينٍ. الكاهن، الذي تمكن من ارتداء الرداء الكهنوتي الذهبي، قبّلَ الإنجيل الموضوع على العرش (سابقاً –طاولة الجراحة؛ وحتى قبل ذلك– طاولة عادية في حانة)، وبدأ القراءة مرة أخرى: راح يتمتم بكلمات كنسية غير مفهومة بصوت جهير. وصار يرفع صوته تارة بصرامة وتارة بوداعة.

– وكم سيستمر هذه القداس؟

– لقد بدأ للتو.

استمر القس يتلو ويقرأ. القوزاق في فترات توقفه – ينشِدون ويكررون.

بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ، وَكُلُّ مَا فِي بَاطِنِي لِيُبَارِكِ اسْمَهُ الْقُدُّوسَ...

كانت الأصوات قوية لدرجة بدا أنَّ المقطورة الضيقة ستتَصَدَّع الآن إلى أشلاء وتنتشر عبر السهوب.

من هذا الإنشاد الجبار، ارتعشت ألسنة الشموع في قبضات القوزاقيين بين الحين والآخر، فتأرجحت الظلال الملقاة على الجدران. الجو في الخارج غائم، ولهذا بدا لمعان ضوء الشموع في العربة أكثر إشراقاً: فهو ينعكس على الوجوه المُتَجَهِّمة، وفوق بقايا النقوش الذهبية، مُحَوِّلاً الهواء إلى ضباب كثيف يرتجف. البعض لديه تحت الأردية التترية أوسمة صلبان القديس غيورغي على شرائط ملونة متلألئة.

أُسَبِّحُ الرَّبَّ فِي حَيَاتِي، وَأُرَنِّمُ لإِلهِي مَا دُمْتُ مَوْجُودًا.

نهضَ أراميس الزبّال كيف ما اتفق من على الدكة وأمسك بطنه من الأسفل، ودسَّ رأسه في الحشد – يريد الخروج. الرجال، من دون أنْ ينقطعوا عن الإنشاد تفرَّقوا على الفور، مثل الجنود في التدريبات، وشكّلوا ممراً ضيقاً سار الطفل فيه إلى المَخرَج. واستمرّوا ينشدون...

استدار الكاهن في مواجهة الرعية وصلَّبَ بحركة واسعة، فلاحظ دييف، في أكمامه المطرزة بالضفيرة وجود ثقب غير مرقوع ذي حواف ممزقة. يا ترى، هل هذا الثقب من رصاصة؟

كل شيء لديهم هكذا، قطاع الطرق هؤلاء! تظنّه كاهناً، لكنك ما إنْ تنظر إليه عن كثب حتى تراه سفاحاً يحمل مسدساً تحت الرداء الكهنوتي. تظنّهم من رجال الأورال الأقوياء (اللحى فقط التي تشبه لحى الجبابرة تستحق شيئاً!)، لكنك ما إنْ تنظر إليهم عن كثب حتى تراهم لصوصاً بقلوب فاسدة. تظنّهم طلبوا أنْ يُصَلّوا، لكنهم جاؤوا - ليصخبوا ويعربدوا. ليس بمقدورك أنْ توقفهم الآن، ولا أنْ تطردهم. الشيء الوحيد المتبقي هو التحلي بالصبر.

ابْتَلَّ وجهه إما من حرارة الشموع أو من الغضب الخفي. والتصق القميص على ظهره.

تمتمَ بجانبه هوفر الجائع:

- الجو بارد. هل حلَّ الشتاء؟

مسَّد دييف بيديه الساختنين على وجه الطفل البارد وأصابعه الباردة، وقال له:

- لا يوجد أيّ شتاء، لكن لا يمكنك مشاركة الدفء، ولا أنْ تسكبه من راحة يد إلى راحة أخرى.

غمغم الكاهن بلا انقطاع، وراح القوزاق يكررون عبارة «يا رب، ارحمني!» أما دييف فجعل يكرر مع نفسه، «تَحَلَّ بالصبر. من أجل الصابون والخل -تحلى بالصبر!» وفجأة، ما الأمر؟!- صوت أنثوي نقي يقطع الأصوات المتعدد. يا رب، ارحمني! يا رب، ارحمني، نيييي!

مَن هذه؟ ومِن أين؟

تركت إحدى الممرضات، وهي زوجة الكاهن السابقة، واجباتها ووقفت وسط حشد المصلين. وقد أعطاها أحدهم شمعة، وألقت على رأسها منديلاً لا أحد يعرف من أين أخرجته. لم يتمكن دييف من رؤية وجه الخائنة، رأى قفاها وكتفيها فقط، ولكن حتى من هاتين الكتفين المستقيمتين بفخر يمكن رؤية: أنها قررت الوقوف حتى النهاية.

- لا تجرؤ!

اندفع دييف إلى المرأة، لكن يد أحدهم الثقيلة جثمت على كتفه: إنها يد الجد.

قال بوغ بشفتيه فقط:

- دعها. ساعدها، أفضل، يا حفيدي.

بعد أن حشر الجد نفسه بين أجساد القوزاق التي تتصبب عَرَقاً، جرَّ دييف معه - بين القواطع، من أحد طرفي عربة المستوصف إلى الطرف الآخر: فقد حان الوقت لتقليب المرضى. أصبح العديد من الأطفال ضعفاء لدرجة أنهم لم يعودوا قادرين على أنْ يقلبوا أجسادهم؛ يجب أن يُوضَعوا على جانبهم حتى لا يختنقوا إذا ما نزل الماء في حلوقهم، ويجب أنْ يُقلَبوا من حين إلى حين إلى الجانب الآخر لتجنب تقرحات الفراش.

طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ، لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ...

كلهم، جلودهم باردة كأنهم مستلقون ليس في عربة دافئة، بل في ريح باردة. بشرة بعضهم - زرقاء ومتجعدة، مثل بطن السمكة.

طُوبَى لِلْحَزَانَى، لأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ...

بعضهم ذابل بسبب بوادر الإصابة بالمرض حتى قبل ظهور الأعراض، كأنه ينام بعينين مفتوحتين، وبعضهم لا يريد أن يفتح عينيه من التعب. الكوليرا سريعة في التعامل: فهي ترهِق المريض في غضون ساعات قليلة، ويمكن أن تقتل في غضون يومين، أو حتى في يوم واحد.

طُوبَى لِلْوُدَعَاءِ، لأَنَّهُمْ يَرِثُونَ الأَرْضَ...

يبحث دييف بخوف عن الزرقة في أجساد الأطفال الشاحبة، ولكن في عتمة ضوء الشموع المرتعش لا يستطيع المرء أن يميز لون الجلد.

طُوبَى لِلْجِيَاعِ وَالْعِطَاشِ إِلَى الْبِرِّ، لأَنَّهُمْ يُشْبَعُونَ...

بعضهم يفتح فمه مثل الكتكوت: عطشان! تتجول بيلايا والممرضة الخياطة باستمرار حول القواطع، وهما تحملان قدح الماء إلى الشفاه العطشى، لكن عطش الكوليرا لا يُروى.

طُوبَى لِلرُّحَمَاءِ، لأَنَّهُمْ يُرْحَمُونَ...

الأنوف مدببة، مثل أقلام الرصاص.

طُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ، لأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللهَ...

يتنفسون بضعف، ويلهثون.

طُوبَى لِصَانِعِي السَّلاَمِ، لأَنَّهُمْ أَبْنَاءَ اللهِ يُدْعَوْنَ...

البعض يتمتم بشيء، لكن صوتهم أجش، مثل أصوات الشيوخ.

طُوبَى لِلْمَطْرُودِينَ مِنْ أَجْلِ الْبِرِّ، لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ...

الآلام واضحة على وجوه الجميع.

طُوبَى لَكُمْ إِذَا عَيَّرُوكُمْ وَطَرَدُوكُمْ وَقَالُوا عَلَيْكُمْ كُلَّ كَلِمَةٍ شِرِّيرَةٍ، مِنْ أَجْلِي، كَاذِبِينَ...

عندما مال دييف إلى الطفل كاراتشون[1] ليعدّل غطاءه، الذي هو عبارة عن كيس محشو بالعشب، قال الطفل:

- من هؤلاء، الذين يُنشِدون؟ هل هم الملائكة؟

ردَّ عليه دييف:

- كلا. ليسوا الملائكة. أبداً ليسوا ملائكة.

فتح الكاهن الإنجيل وراح يقرأ من الكتاب. نطق الكاهن بصوته الغليظِ النصوصَ نطقاً واضحاً وبصوت عالٍ، لكن دييف لا يعرف كيف يتعمق في المعاني، لغة الإنجيل معقدة للغاية. إنه لا يفهم سوى بضع كلمات -عن الإعدام الذي نُفِّذ، وعن اللصوص الذين صُلِبوا، وكيف سقاهم شخص ما من النبيذ مع المرارة والخل. القوزاق يصغون- إنهم بالكاد يتنفسون، كما لو كانوا يفهمون كل شيء حتى النهاية. ترقرقت الدموع في عيون الكثيرين منهم.

فكّرَ دييف في أنَّ الأطفال يحتضرون. وها هم يموتون، بجوار هؤلاء الناس الذين يستمعون إلى موت شخص غريب ويذرفون الدموع عليه. كيف يمكن تفسير هذا؟

بعد تلاوة الإنجيل، بدأ الكاهن يتلو صلوات عن المُعَذَّبين -في القائمة

1- مُنِحَت لهذا الطفل الكُنية كارتشون - التي تُشير في الأساطير السلافية إلى روح شريرة تقصِّر الحياة وتجسد الموت في سن مبكرة، وكذلك تشير إلى إله العالم السفلي، وهو رب الصقيع والبرد والظلام. (المترجم).

الطويلة، لاحظ دييف ذكر الأطفال المرضى في القطار أيضاً. وفي هذا الوقت بالذات استولت الحازوقة على غايانا كومونارا- طويلاً، وبألم؛ وقد تخللت الصلوات الحازوقة والبكاء.

تواصل الإنشاد، نشيداً بعد نشيد. واستمر القداس وطال.

دخل ميميليا إلى العربة بين الحين والآخر: يندفع عبر الحشد المُنشِد ويغير الحشيش الذي تحت المقاعد بحشيش جديد.

هليلويا! - أصوات الرجال تنادي بتجهّم.

هليلويا! - ترد الممرضة زوجة القس بصوت رفيع.

انتابت دييف رغبة لا تطاق لأن يصدح بنشيد «الأممية»، أو على الأقل أنْ يصرخ بأعلى صوته -ويقاطع أولئك الذين ينوحون. دقيقة أخرى لا تطاق- وسيصرخ دييف، سيصرخ بالتأكيد... لكن سونيا إسقربوط سحبت يدها من تحت الخرقة ومدتها إلى الأعلى - لم تمد يدها لشيء ما، لكنها حركت راحة يدها في الغيبوبة بالهواء. فأخذ القوزاقي الواقف إلى جانبها هذه الكف العديمة الوزن، وعصرها بيده على سبيل التشجيع، وحتى من دون أنْ ينكّس بصره نحو الفتاة ومن دون أنْ يقطع صَلاته. ولسبب ما لم يصرخ دييف.

وعندما بدأت الأفواه تُنشِد «أبانا الذي في السماوات» أنشَدَ بوغ مع الآخرين.

لم يصدق دييف:

- يا جد، حتى أنت معهم أيضاً؟ إني سأضربك الآن!

جلس المساعد الطبي بجوار المقعد، الذي يرتعش عليه الطفل بعر الغنم من قشعريرة الحمى. وضغط الصبي إلى السرير بقوة ولكن بحذر، وهو يفتح شفتيه على إيقاع كلمات الصلاة. ولم يرد على الرئيس.

أخيراً، انتهى إنشاد الرثاء. فرفع الكاهن فوق رأسه كأساً كبيرة وثقيلة وأظهرها للجميع، ودعا الرعية إلى تناول القربان المقدّس.

يبدأ الحشد بالتحرك: صار الناس يمرون بين الأسرّة، ويشكلون تدفقاً

بطيئاً إلى المذبح ثم يعودون – واحداً تلو الآخر، بدءاً من الزعيم في ردائه الصوفي الأبيض وحتى آخر قوزاقي، يقتربون من الوعاء ويشرب منه رشفة، ثم يقبّلون الوعاء. ومن بين المُقَبِّلين الممرضة الخائنة.

فكر دييف بصوت عالٍ:

– سأُنزِلها من القطار. سأطردها في أول محطة فرعية تصادفنا.

ردَّت عليه بيلايا من مكان قريب:

– لا تُقلِق نفسك، لم يتبق الكثير.

– هل تعرفين كل شيء عمّا يجري هنا؟

– سأُنشِد لك ترانيم هذه المزامير لاحقاً عن ظهر قلب، بدلاً من التهويدة.

قال القس فجأة بلغة روسية بسيطة ومفهومة:

– اقتربوا منّي، أيها الإخوة، الأعزاء.

فَهِمَ دييف أنَّ القداس قد انتهى. وتحقق ما كان ينتظره بصبر، بعدما أُنهِكَت قواه.

اصطفَّ القوزاق في صفوف مُتراصَّة، بعد أنْ قرّبوا رؤوسهم الشعثاء بعضها من بعض بشكل كثيف. ومع أنَّ الكاهن يتحدث بصوت منخفض، لكن صوته عميق وقوي لدرجة أنه لا يزال يُسمَع في جميع أرجاء العربة بأكملها:

– اليوم أدينا صلاة غير عادية، بحضور الشهود لأننا نودِّع بعضنا بعضاً. قريباً سنفترق في اتجاهات مختلفة ومن غير المرجح أن نرى بعضنا بعضاً مرة أخرى في هذا العالم.

صرخ بعر الغنم:

– يا أمي! يا أمي!

اندفع دييف إلى بعر الغنم الذي لا يزال بوغ يمسك به، لكن جسد الصبي صار يتقلّب على الدكة بشدة ولم تعد يَدا المساعد الطبي كافيتَين للإمساك به. فجلس دييف على ركبتيه عند الدكة ليساعد الجد.

وتناهى إلى سمعه من جهة المذبح:

- سمعتم كلمة الرب. وسمعتم كيف تألم ربنا، وهو يحتضر على الصليب، وكيف هرب جميع تلاميذه، وكيف قذفه اللصان الآخران اللذان صُلِبا إلى جانبه بالشتائم، وكيف استهزأ به رؤساء الكهنة وسخروا منه. كان المهم بالنسبة لهم ليس أن يقتلوا المسيح فقط، بل أن يحدث هذا الموت أمام الجميع ويصبح علامة لعنة، بمنزلة أنَّ الله لم يرغب في إنقاذ حياة ابنه ورسوله. لقد صُوِّرَ موت المسيح ونُفِّذَ ليس فقط من أجل المسيح، بل من أجل الشهود أيضاً.

اِلتوى جسم الصبي النحيل كالقوس، وتدفق الماء من حلقه مثل النافورة. وكانت عيناه مُغمَضَتَين. مدَّ دييف صدره على ركبَتَي المريض - وإلا ما كان بإمكانه أنْ يمسكه: ظلَّ بعر الغنم يهز أطرافه بقوة لدرجة أنه كاد يزيح عنه دييف بكل حجمه.

واصل الكاهن كلامه:

- حتى لا يهلك الرب فحسب، بل أنْ يهلك في هالة من اللعنات، وأنْ يشيح الجميع عنه بوجوههم ويمحوه من ذاكرتهم. وقد تحقق ذلك. صرخ ابن الله وهو يحتضر بكلماته الأخيرة بأعلى صوته: «إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟» ولكن لم تأتِه إجابة. كان يحتضر على الصليب ورأى كيف تحطمت قضية حياته، وانتصر الشر. ورآه الشهود.

أمرَ المساعد الطبي:

- اربط رجلَي الصبي.

أمسك دييف بالقلنسوة التي دفّأت الصبي، وفكّر: يا ترى، من أين أتت؟ هل أعطاها القوزاق أيضاً؟ - ولفَّها حول فخذَي وركبَتَي بعر الغنم. كانت رِجلا الصبي صلبتَين، كأنهما من الحجر. لم يعد بعر الغنم يرتعش ولا يتحرك، بل يرقد مثل جذع الشجرة. هل خمد؟

- دعونا ننظر مِن حولنا. ماذا يحدث لأرضنا؟ كل مَن في هذه الدائرة فعلَ كل شيء للحيلولة دون انتصار الشر في روسيا. ولكن الشر لم يقتصر على التغلب علينا فحسب، بل إنه يضحك علينا، ويقضمنا ويعذبنا. وها نحن، نرى هنا، في الهيكل، أطفالاً مرضى بمرض رهيب. نحن ننظر إليهم

ونفهم: ليس المسيح فقط صُلِبَ، بل حتى شعبنا صُلِبَ أيضاً. أولادنا صُلِبوا. إننا لسنا ننزف كلنا فحسب، بل قلوبنا وأرواحنا تنزف. إننا نتعذَّب، بينما الشر يمدّ لنا الخمر الممزوج بالمرارة ليروي عطشنا. يمدّ إلينا إسفنجة مبللة بالخل. فنشرب الخمر مع المرارة ونشرب الخل. أسوأ من هذا لن يحدث. روسيا المسيحية كلها تتغذى اليوم بالخل وبعصارة الصفراء.

قال بوغ:

– دعنا نربطه إلى السرير. حمى الكوليرا قد تعود.

يصدح صوت الكاهن بنغمة عالية عاطفية صادرة من القلب:

– ماذا بقي لنا، في هذه الأيام التي جفت فيها الآمال والتطلعات، وتحول نضال حياتنا كلها إلى عبث؟ –ويجيب على تساؤله بنفسه:– لم يبق سوى شيء واحد: أن نكون مخلصين للرب ولأنفسنا وبعضنا لبعض.

ثبَّتَ دييف والجد الطفل بعر الغنم على المَضجَع الخشبي باستخدام حبال شدّ الخيول، التي صارت بمنزلة أحزمة ربط على جميع الأَسِرَّة في عربة المستوصف. الحبل سميك، يكاد يكون أكثر سمكاً من مِعصَمَي بعر الغنم.

– في الأيام الخوالي، لم نكن نعرف المشاكل. كنّا نذهب إلى الكنائس في أيام الأعياد، وكانت الصلاة بحد ذاتها بمنزلة عيد لنا. الآن تغيَّر الزمان. لم نعد نقف فحسب أمام المسيح المصلوب، بل أصبحنا استمراراً له. الآن تظهر عملية صَلبه في كل واحد منا – الآن هو معنا وفينا، نحن الآن معه وفيه. أنفاسه تصبح أنفاسنا وصلواتنا.

هل يتنفس بعر الغنم؟ انحنى دييف على وجه الصبي – يبدو أنه يتنفس.

– إننا لم نستطِع ولن نستطيع إيقاف الشرّ الذي ينتشر في أرضنا. لكن يمكننا أنْ نكتفي بأصغر شيء، أيْ ألّا نسمح للشر أن يستولي علينا من الداخل، ويستحوذ على قلوبنا. وهذا ما لم يحدث للمسيح. فليكن من شأننا ألّا يحدث هذا لأيٍّ منا.

من الواضح أنَّ دييف يفهم أنه سيخرج المسدس ويطلق النار في الهواء – ويفرّغ مخزن الإطلاقات في السقف، حتى آخر خرطوشة. فشبك راحتيه أمامه، نهض من على دكة بعر الغنم وشق طريقه على عجل نحو المَخرَج.

– والأطفال الموجودون هنا، بجانبنا، الذين يرقدون ويتألمون ويعانون، هم شهود صلاتنا. فليكونوا شهوداً على خدمتنا اللاحقة للمسيح.

التحمت أجساد القوزاق بإحكام، إلى درجة يصعب على المرء فيها أنْ يحشر نفسه بينهم، ولكن دييف مع هذا راح يعمل بكتفيه، ويعمل بمرفقيه. وتوجه نحو الباب بسرعة أكثر!

– لترافقنا عيون الأطفال البريئة في التجوال والصراعات القادمة. دعهم يرون ما يعنيه أنْ تعيش على الطريقة المسيحة وتموت على الطريقة المسيحة. وماذا يعني أنْ تحمل روسيا في القلب وتخدمها، حتى لو كنت بعيداً عنها. عندها لن تكون حياتنا ومماتنا من دون فائدة.

وصل إلى الباب، لكن لسبب ما لم يخرج، بل توقف واستمع إلى النهاية.

– الله يحيا فينا. وروسيا تعيش فينا. (عندما أنهي الكاهن خطابه، رفع يديه، وأكمام ردائه الكهنوتي الأسود، فصار يبدو مثل طائر أسود كبير). – وشهود هذه الكلمات من الآن فصاعداً معنا حتى النهاية.

قال دييف، بشكل غير متوقع لنفسه، وبصوت عالٍ، كما لو كان يردّ على كلام القس عبر عربة المستوصف كلها:

– إنكم تمسكون بالشموع. وتُنشِدون بصدق. وفي الوقت نفسه تُطلِق أيديكم النار على سائقي القطارات!

قال أحد القوزاق ليقطع التهجّم الوقح:

– يا أبانا، باركنا!

قبّل الكاهن الصليب في يده، ثم التفت إلى الرعية وعرض الصليب للتَّقبيل العام – ومرة أخرى انجذب القوزاق إلى المذبح، من أجل تقبيل الصليب.

صرخ دييف بأعلى صوته:

– وأحرقتم السمك المملح، عربة قطار كاملة! كان يمكن لذلك السمك أنْ يطعِم ألفاً. لكنكم أحرقتموه! مسيحكم لم يحرق السمك، بل وزعه على الجياع. هل نسيتم ذلك؟

دفع دييف الحشد جانباً، واندفع أيضاً إلى المذبح لكي يلقي اللوم في وجه أهم شخص، في وجه القس الأسود والزعيم الأبيض.

لم يستطع الوصول إلى هناك: تلقّفته يدان قويتان من الخلف وكادتا ترفعانه عن الأرض. اتركني، يا جدي! تحسّسَ الجيبَ بأصابعه، فوجده فارغاً. ماذا، هل تمكنت من أخذ المسدس؟ يا لك من خائن! الجميع اليوم خونة! كل شيء ضدي!

صرخ دييف:

- وفي قرية تمار أوتكول أحرقتم مجلس القرية مع رئيس المجلس! وفي قرية دييفنوبل، قطعتم آذان الشيوعيين. أيها المصلّون!

سحب المساعد الطبي الرئيس إلى خارج العربة على عجل. وجرّه إلى أسفل الدرج. وسحبه من القطار فأخاف الأطفال الذين كانوا قد هرعوا وجثموا على العشب لقضاء الحاجة.

لم يستطع دييف الإفلات من يَدَي المساعد الطبي اللتين تشبهان يدَي الدب، فزمجر من بعيد:

- هل تعتقدون أنكم اشتريتم الصلاة في الكنيسة السابقة مقابل بضعة أرطال من الصابون وبرميل من الجير، وتستطيعون بذلك التكفير عن ذنوبكم؟ إني أعلم أنكم في بلدة بوراني أهلتم مثل هذا الجير على رئيس المزرعة الجماعية ودفنتموه فيه حيّاً! لم يبق منه حتى الآن سوى بقعة رطبة. لقد عرفتُ الكثير أثناء إصلاح الجسر في أورينبورغ، الذي فجرتموه! أيها اليسوعيون! أيها التماسيح! إنّ ما فعلتموه لا يُكفّر عنه بالصلوات ولا يُنَظّف بالصابون!

بدأ القوزاق يتدفقون إلى الشارع بعد القداس ويتجمعون حول عربة المستوصف، ويستعدون للذهاب.

- ما قيل لكم، لا يكفي، يا أبناء العاهرات! لقد جرى حلّ تشكيلات القوزاق في مناطق نهر الكوبان، وفي حوض الدون، وحوض نهر تيريك! وفي أستراخان، وفي جبال الأورال، وما وراء بحيرة بايكال! وأنتم ما زلتم هنا، تجوبون البلاد، وما زلتم تؤذون الشعب السوفيتي!

عندما ودَّع القوزاق بعضهم بعضاً قبّلوا بعضهم بعضاً على الشفاه: واحداً واحداً – ثلاث مرات.

وقبَّلَت الممرضة الجميع -على الجبين، مثل قبلة الأم. وقبَّلها الجميع- على يدها، كما يوقِّر الأبناء أمهم.

– حسنٌ، إنّكم قررتم المغادرة. اخرجوا من روسيا! ولا تعُد أقدامكم إلى هذا الوطن! لا أحد بحاجة إليكم هنا! أنتم فائضون عن الحاجة! هيا، اخرجوا! اخرجوا!

جاءت الخيول بنفسها إلى أصحابها مع أول نداء عليها. قفز القوزاق إلى سروجهم وانتشروا عبر السهوب، مثنى وثلاث، فتفجّرَت السهوب هنا وهناك بزوابع من الغبار الأحمر. حلَّقت الغيوم الداكنة من جميع الجهات، كما لو كان القطار وسط إعصار مغبر، وسُمِعَت من جميع الجهات قعقعة الحوافر المبتعدة. وأومض وبر الجِمال الأصفر، فقد ركب اثنان من القوزاق على الجمل، تاركين العربة المغطاة بالجلد قرب القطار «الضفيرة».

صاح دييف في إثرهم:

– أين ما وعدتم به؟ أين الحطب؟ أين الماء؟ أين الصابون الذي من أجله تحملنا هذا الصخب كله؟

زوجة الكاهن السابق ذات الوجه المتجمد مشت بعيداً عن القطار – إلى السهوب. توقفت على مسافة، نصفها مخفي بالسحابة المغبرة. وقفت وراحت تُصَلِّب لهذا الغبار، ثم ولَّت وجهها شطرَ الشمال، ثم إلى الشرق، ثم إلى الجنوب، ثم إلى الغرب.

أخيراً فتح بوغ قبضته، وترك دييف يذهب.

فركَ دييف جَنبيه المجعدتين وكتفيه، واندفع إلى عربة المستوصف -لم يبقَ أحد من الضيوف هناك، بقي المرضى فقط يرقدون على الدكاك، والهواء المشبَّع برائحة الشموع الثقيلة. دُثِّرَ الكثيرون منهم بمعاطف القوزاق وقلانسهم وأوشحتهم على الأغطية. لم يكن الزعيم الذي يرتدي الرداء الصوفي الأبيض موجوداً في العربة، ولم يودع ناسه، بل اختفى أيضاً- تماماً كما جاء بشكل غامض.

أومأت بيلايا برأسها إلى العربة المسقوفة التي تقف بجانب القطار، وقالت:

- هو ذا حطبنا. والماء في المحطة الفرعية التالية، عبارة عن برج ضخّ كامل. كل الأشياء الموجودة في العربة الخشبية هي هدية للأطفال من القوزاق. هكذا قالوا.

فهم دييف كل شيء، ثم سأل مرة أخرى:

- وماذا عن الصابون؟

هزّت بيلايا كتفيها، بمعنى: لم يقولوا شيئاً عن الصابون.

شعرَ دييف بنظرة شخص ما موجّهة إليه، فاستدار، ورأى من جدار عربة المستوصف صورة المسيح المخدوشة والعذراء شبه الممسوحة ينظران إليه باهتمام. سار دييف إلى المذبح وسحب الستارة بكراهية.

***

كان في العربة المسقوفة الكثير من الأشياء المختلفة – منها المفيد ومنها ما لا فائدة منه تماماً.

كان هناك سجاد من الحرير، الباهظ الثمن؛ هذه حُدِّدَ على الفور أنْ تُفرَش في عربة الموظفين، لتغطية الأرض الباردة، حتى تكون أكثر دفئاً كي يزحف عليها الرُّضَّع.

وكانت ثمة أوان: سماور[1] فضي، وأطباق خزفية عليها ختم المصنع الإمبراطوري، وكؤوس شمبانيا في صندوق خشبي ملمع. لم يكن هناك مكان لوضع الأواني الخزفية، فوضِعَت في مستودع ميميليا (ربما تنفع في التبادل؟)

وكانت ثمة ساعة شغّالة محمولة على قاعدة تُوضَع على الأرض (لم يجرؤوا على تثبيتها في أي مكان، لأنها تدقّ بصوت عالٍ وتوقِظ الركاب

1- السَّماوَر أو السمافار: وعاء معدني لإعْدَاد الشَّاي يستخدم لغلي الماء وتحضير الشاي، يُستَعمَل في روسيا وأوروبا الشرقية وبلدان الشرق الأوسط. (المترجم).

في الليل؛ فأُرسِلَت كذلك إلى مخزن ميميليا بوصفها حاجة غير ضرورية). وطقم زينة لشجرة عيد الميلاد - راقصات باليه وملائكة مصنوعة من الصوف القطني على اختلاف أشكالها (قُطِعَت أجنحة الملائكة ووِزِّعَت التماثيل التي طُهِّرَت من الدلالات الدينية على الأطفال الأصغر سناً). وحتى كانت هناك لوحة في إطار: تصور منظراً طبيعياً لغابة خالياً من الجمال. كان اسم الفنان، الموقع في الزاوية، إيفان شيشكين، فلّاحياً تماماً[1]. فقرر دييف تعليق اللوحة في عربة الفتيات - وإن كانت ساذجة، ولكنها زخرفة على كل حال.

احتوت العربة المسقوفة كذلك على كتب -مطبوعة باللغة الروسية، لكنها بعناوين أجنبية، لا يقدر على فهمها كل من هبّ ودَبّ: «القبطان نيمو»، «عشرون ألف فرسخ تحت الماء»، «الكونت دي مونت كريستو». التهمت أمينة المكتبة هذه المجلدات مثلما يلتهم الجائع اللحم، وكادت تختنق من الإثارة. وقالت إنها ستقرأ الآن بصوت عالٍ للأولاد طوال اليوم- وسيصبح الطريق أقصر. تنهد دييف فحسب: آه، ليت الكتب تقرِّب المسافة إلى تركستان!

سُلِّمَت جلود الأغنام والماعز التي كانت تكسو العربة المسقوفة إلى عربة المستوصف: كان مرضى الكوليرا يرتجفون باستمرار، فجاءت العشرات من أغطية الفراء في وقتها. لم يكن هناك طعام، ناهيك عن الصابون، في عربة الهدايا. وكان الخل الموجود في الزجاجات حقيقياً.

من الواضح أنَّ الحاجيات المُتبَرَّع بها كانت ملكاً للزعيم شخصياً: فالقوزاق الذين نشأوا في السهوب لا يُحتَمَل أنْ يأكلوا بأواني الخزف -إنهم على الأغلب يأكلون مباشرة من القِدر؛ ومن غير المُحتَمَل أن يحددوا الوقت بالساعة- بل بالشمس؛ ولا يمكن تصوّرهم ينغمسون في زينة الشجرة في عيد الميلاد. ولكن حقيقة تخلي رئيس العصابة عن أشيائه الشخصية

1- لا بد من الإشارة هنا إلى أنَّ هذه مجرد كناية عن سطحية دييف والبلاشفة وعدم تقديرهم للفن الرائع، لأنَّ الرسام الروسي إيفان شيشكين (1832–1898) أفضل من صوَّر جمال الطبيعة الروسية. (المترجم).

العزيزة على قلبه قد تعني شيئاً واحداً: بداية حياة جديدة. سواء في روسيا أو في الخارج.

قطَّعَ ديف العربة المسقوفة والعربة الخشبية، كي يُستعمل خشبهما حطباً - لقد قطعهما بكل سرور، وكسر الجدران والقاع والعجلات إلى قُرَمٍ صغيرة. كان يود تقطيعها إلى قطع أصغر، لكن حان الوقت للذهاب: لم يتبقَّ ماء في القطار على الإطلاق، ووفقاً للحسابات، كانت أقرب محطة فرعية فيها برج الضخّ الموعود تقع على بعد ساعتين فقط.

تحرّكوا بعد الظهر. وقد قرروا تسخين المحرك البخاري إلى الحد الأقصى والاندفاع بأقصى سرعة، ثم عدم التحرك إلى أي مكان بعد ذلك - وأنْ يقضوا ليلة، أو حتى عدة ليالٍ، في المحطة الفرعية: أعلن الكثير من الأطفال المرضى الجدد الذين تضطرهم الضرورة للركض إلى الخارج من أجل قضاء الحاجة، أنَّ من الأفضل أن يظل القطار «الضفيرة» ثابتاً في مكانه.

بحلول ذلك الوقت، كانت جميع العربات قد جُليت بالجير حتى أصبحت ألواحُ الأرضية والجدران فيها بيضاء، وأصبح الهواء بداخلها لاذعاً إلى حد ذرف الدموع: احمَرَّت عيون الكثيرين، وانتفخت أنوفهم وتوقفوا عن التنفس. فاضطُرّوا إلى دفع الركاب إلى الأسطح، وفتحِ أبواب العربات على مصاريعها كي يدخلها الهواء؛ وإلى إخراج المرضى مؤقتاً إلى حجرة الماء والوقود، ووضعهم على الحطب وتغطيتهم بالجلود. بهذا الشكل تدحرج القطار «الضفيرة» عبر السهوب، فارغاً من الداخل ومليئاً بكثافة بالأطفال في الأعلى. ولحسن الحظ، كان الجو قد دَفِئَ بحلول ذلك الوقت: إذ كان الليل في المنطقة بارداً، والنهار لا يزال دافئاً كما في الصيف.

الأطفال الذين اشتاقوا إلى الهواء الطلق صخبوا للغاية: فقد غنّوا أكثر الأغاني فظاظة بأعلى أصواتهم، وصرخوا في السماء، وصاحوا في كل نسر ذهبي قابلوه في المرتفعات وكل جربوع رأوه في السهوب.

صاح يوشكا الدّبّوس مُردداً العبارة نفسها مراراً وتكراراً:

- عِيشُوا وابتهجوا، يا سادتي ذوي الكروش! عِيشُوا وابتهجوا!

فصرخوا إليه من السطح المجاور:

- سوف نعيش، لن نموت! سنعيش!

وفي محاولة للتغطية على الأصوات الأخرى، هدرَ لافروشكا الجهيض بأغنية بذيئة:

- أنتِ، أيتها الشابة، هبةٌ لي من السماء، لو أنكِ ناوَلْتِني الفودكا.

فردَّ عليه صوت آخر:

- نحن لسنا لصوصاً، ولا قَتَلَة، نحن معربدون!

وراح بوديا العفريت يضرب أنبوب المدخنة بقطعة من الحديد، ناقِراً إيقاعات وحشية وبدأ يرقص عليها.

خلع فالستاف قميصه ولوَّح به مثل العلم، وكشف للريح جسده العظمي المنحني بالكساح. وما إن شاهده الآخرون: بلياشا الحمّص، وإيشاول، وجابريه، فومكا الراقص - حتى صرخوا جميعاً وأطلقوا صيحاتهم وخلعوا ملابسهم الداخلية ولفوها فوق رؤوسهم. وعندما شاهدت الفتياتُ الصبيانَ العُراة صرخنَ من الضحك، ومن فرط الفرحة.

قالت بيلايا، دعوهم يلعبون ويمرحون. المهم ألّا يسقطوا من فوق الأسطح، اتركوا الباقي.

كان ثمة شيء قاسٍ وفي نفس الوقت له ما يُبرِّره: بعضهم صرخوا بالأغاني وضحكوا إلى حدّ الفَواق، مبتهجين بالشمس والرياح والحركة السريعة للأمام، بينما استلقى آخرون في حجرة الماء والوقود، وبالكاد يتنفسون. وعندما كان دييف جالساً بجوار المرضى استمع إلى الصخب الذي لا يمكن تصوره فوق رأسه - فشعر بقلبه يغمره الدفء. لم يستطع الابتسام، لكنه تمنى أن تستمر هذه الدقائق مدة أطول.

وحتى السائق، الذي كان شحيحاً جداً بالمشاعر، استسلم للمرح العام: بين الحين والآخر كان يطلق صافرة طويلة، مما رفع الابتهاج إلى أعلى درجة.

في ظل الانشغال بالكوليرا، كاد دييف وبيلايا ينسيان أمر الركاب غير المصرَّح لهم الذين صعدوا إلى القطار في أورينبورغ. والآن تذكّرا: لاحت أسمالهم الرثة داكنة بشكل واضح وسط قمصان الأطفال في القطار، وكانت

وجوههم سوداء من الأوساخ، وشعرهم الأشعث الوسخ بدا فوق رؤوسهم مثل القرون. كان الأطفال المشرّدون مثل الحروف السوداء المطبوعة على الورق الأبيض. مثل بقع الحبر على الورق النظيف.

قال دييف للمفوضة:

- سوف نحممهم في المحطة ونحلق شعرهم.

خلال اليوم الماضي التحق اثنان من الوافدين الجدد بأولئك الذين «يركضون» لقضاء الحاجة ومرضا فيما بعد - فقد أُصيبا بالكوليرا. كان هذا، بالطبع، أمراً سيئاً. لكنه في الوقت نفسه جيد: الآن بيلايا لن تجرؤ على إنزال أيّ شخص من القطار، وربما لن تبلِّغ حتى عن الحادث. بالطبع، لديها الكثير من الحنق، ولكن أيضاً لديها مسؤولية تجاه حياة العشرات.

وهكذا اندفع القطار «الضفيرة» عبر السهوب -يغلق أبوابه المفتوحة بصوت عالٍ ويهز فوق كل عربة من عرباته الأطفالَ مثل قبّعة حية. وسرعان ما تحولت قعقعة العجلات إلى خشخشة، وانفجرت رياح معاكسة دافئة في وجهه، مما أجبره أن يهدأ ولا يصفّر. وسرعان ما هدأ الأطفال أيضاً- فقد استعروا وغنوا ورقصوا بما فيه الكفاية. فتحولت المسرات العنيفة في الدقائق الأولى في البرية إلى نعيم هادئ: أذهلتهم نضارة الألوان وإشراقها الذي انسكب على السهوب، فصمت الأطفال ولم يحدقوا إلا في الامتداد الشاسع.

إذا نظرتَ إلى الأسفل، ستندفع من جانبكَ شُجَيرات الأشواك الزرقاء في العشب الأصفر مثل الحيوانات الرشيقة. وإذا ما رفعت بصرك إلى الأفق -المسافة لا حدود لها ولا تتحرك، هي نفسها الآن، وبعد دقيقة وبعد ساعة؛ كما لو أنَّ القطار لم يندفع كالطائر، بل تجمّد في وسط العالم، المكوَّن من كيانين فقط- الأرض الحمراء التي لا نهاية لها والسماء الزرقاء التي لا نهاية لها...

وصلوا إلى المحطة الفرعية بسرعة. كان من المؤسف أنَّ حركة العجلات بدأت تتباطأ تدريجياً، وكذلك وميض الأرض تحت العجلات، وأنَّ أصوات الأطفال راحت تصرخ من السطح، معلنة الوصول الوشيك،

ومن وراء الأفق قفزت المباني الملطخة بالطين: زوج من المباني الواطئة الارتفاع وبناية واحدة مرتفعة أكثر - إنه برج الضخّ.

ومع ذلك، لم يقتربوا من المكان تماماً، بل توقفوا قبله بقليل.

قفز دييف إلى الأرض، ودار حول القاطرة وفهم السبب: كانت القضبان مغطاة بأشياء ممدودة غريبة. هل هي جذوع أشجار؟ ركض أقرب. كلا، ليس جذوع أشجار - بل مغطاة بالأسماك المملحة.

كُبَّت كومة الأسماك المملحة على القضبان. أسماك الفَرخ، والأسماك الجارحة، وأسماك الأبراميس والفوبلا، بلونها الأصفر والأخضر والفضي والذهبي. آلاف الأسماك، عدة آلاف: لم يُقلَب صندوقان في الطريق ولا حتى عربتان - بل مقطورة كاملة. كانت تفوح من المكان رائحة السمك المُجَفَّف القوية والملح.

أسرعت بيلايا خلفه، وقالت:

- فعلَ هذا القوزاق.

كيف تمكنوا من سرقة السمك من المقطورة المحترقة؟ وأين كانوا يخزنون هذه الكمية الهائلة من الطعام؟ وكيف أوصلوها إلى المحطة الفرعية؟ لماذا لم يسلموها مثل البشر، بل ألقوها بطريقة استعراضية في الطريق؟

هرع دييف في الجوار بحثاً عن إجابة. لكن عشب السهوب كان قاسياً في الخريف، وحتى إنْ داسته حوافر الخيول أو عجلات العربات قبل مدة، فلن تترك أي أثر. وإنْ تركت؟ فهل يمكنك أنْ تقتفي أثر المتبرعين غريبي الأطوار؟

فركض إلى المحطة الفرعية، ولكنه لم يعثر على أحد. أكواخ المحطة - مهجورة ولا أحد فيها.

رجع دييف إلى كوم السمك وهو يردد:

- ألقوا به مثلما يُلقى العظم للكلب.

تجمَّعَ الكبار في المكان - وقفوا، ولم يجرؤوا على لمس الثروة المبعثرة على القضبان.

ابتسم بوغ ابتسامة ساخرة وقال:

- ليس للكلب، بل لكَ، يا حفيدي. -وأضاف بجدية:- يا إلهي، يا لهم من أناس طيبين!

***

سوف يتعثر القطار «الضفيرة» مرتين أُخريين بالمفاجآت التي خلّفَها جماعة زعيم «جماعة التفاح».

في محطة جولدوز الفرعية، المهجورة أيضاً، سيجد القطار على القضبان كومة من الصناديق الضخمة التي تفوح بروائح زنبق الوادي والخزامى والياسمين واليوسفي، -فيكاد دييف يختنق، عندما يفتح الطرود. وبالكاد يصدق عينيه: إنه صابون- في قوالب تزن خمسة كيلوغرامات، لونها أخضر فاتح، وتحمل ختماً من مصنع للصابون بلغة أجنبية. «عطر فرنسي»، هذا ما ستحدده المفوضة. لن يصدق دييف ذلك، لكن الختم على الصناديق لا يترك مجالاً للشك: الصابون حقاً من مرسيليا.

عند مدخل بلدة جامان سو، سوف تنتظرهم هدية من نوع مختلف. طاولة أنيقة على ساق واحدة - بين القضبان بالضبط، مغطاة بمِفرش من الدانتيل؛ عليها صندوق من خشب الأبنوس مع ملاحظة مثبتة: «شخصياً ليد الطبيب صاحب الحكمة البالغة». يفتح بوغ الصندوق: فيجد زجاجة كونياك من الكريستال الثقيل، أيضاً من منشأ أجنبي. يعبَس دييف باشمئزاز: «اسكبه، يا جدي». سيبتسم المساعد الطبي ويأخذ الهدية إلى عربة المستوصف: «الحكمة لا تسمح».

بعد بلدة أكتوبنسك، ستتوقف المفاجآت - سوف يُقتَل زعيم القوزاق يابلوتشنيك.

سيعرف دييف بهذه الوفاة لاحقاً، من الصحف: ستكتب العديد من الجرائد والمجلات عنها - بعناوين جذابة، تختلف في التفاصيل وفي طريقة عرضها، ولكنها تتوافق في الجوهر. ستكون القصة غريبة، تكاد تكون خيالية، وسيعتبرها الكثيرون مجرد حكاية أو كذبة اختلقتها الجرائد. ولكن دييف لن يراها كذلك.

كل شيء سيحدث في غضون أسبوعين بعد القداس الذي جرى في مقطورة الكوليرا في قطار دييف. في إحدى كنائس أورينبورغ، سوف يُفتَتح متحف للدعاية المناهضة للدين، مع شعارات تُدَقّ على الزخارف الذهبية وشخصيات خشبية للكهنة تُعرَض في الزوايا. وسوف تُعَلَّق الأيقونات التي ستُنتَزَع من الجدران رأساً على عقب، وسوف يوضع ضريح مفتوح فيه رفات القديسين على منبر الوعظ لعرضه. وستكون الاحتفالات بهذه المناسبة ممتعة، وسوف تتخللها أغنيات للشبيبة الشيوعية وحرقُ كتب الكنيسة.

وفي اليوم التالي سيدخل المتحف رجل يرتدي رداءً أبيضَ من الصوف. وسيقتل بطلقة عن قُرب الناظرةَ، ومن دون أن يولي اهتماماً بالزوار الفارين، سيذهب إلى المذبح. سيخرج أيقونة سيدة قازان من حضنه، ويضعها على المنصة، ويركع ويبدأ بالصلاة. وخلال ذلك سينزع الرداء وسيظهر أنه ملفوف كله بأصابع من الديناميت، من الرقبة إلى الركبتين.

لن يجرؤ الشرطي الذي جاء يركض في وسط الجلبة على إطلاق النار على القنبلة الحية (الرجل المُفَخَّخ) - وسوف يستدعي جنود الجيش الأحمر، وحتى هؤلاء سيترددون عند أبواب المتحف الجديد في حيرة من أمرهم. وسوف يُفَرِّقون المتفرجين الذين يأتون راكضين، لكن هذا لن يؤدي إلا إلى زيادة الحشد. وسوف يطوّقون المبنى. وسيحاولون دعوة الإرهابي إلى الحوار، لكنه لن يرغب في قطع الصلاة.

سيخرج كاهن من بين الجموع ويدخل الكنيسة، وسوف يسمح له الطوق بالمرور. وعلى عكس التوقعات، لن يقطع الكاهن صَلاة اللص المسلَّح، بل سيصلي معه.

في غضون ذلك، سيُستَدعى بسرعة من الحامية القنّاصُ الأكثر دقة -ويُؤمَر أنْ يرمي الرجل المُفَخَّخ في رأسه من دون لمس الذخيرة. وما إنْ يتقدّم القناص ببطء إلى باب الكنيسة، ويُسَدد الإطلاقة، ستنتهي الصلاة الطويلة وسيدوّي انفجار- سيُفجِّر الإرهابي نفسه. وسيؤدي الانفجار إلى تدمير الكنيسة إلى أشلاء، ومعها القنّاص حسن التصويب، وسرية الجنود في الطوق، وعدد من المتفرجين من الصفوف الأمامية من الحشد...

لن يكون بالإمكان تحديد هوية المُفَجِّر - لن تبقى قطعة واحدة من جسده. وبعد استجواب الشهود، سيتوصل ضباط الأمن إلى استنتاج مفاده أنه ليس سوى زعيم القوزاق يابلوتشنيك الشهير بعينه.

لن يصدق الكثيرون هذا أيضاً - وسوف يُزعَم، لم تكن ثمة حاجة له لارتكاب حماقات، فقد هاجر منذ زمن بعيد إلى مكان ما في بلاد فارس أو تحت جناح أمير بخارى الدافئ.

ولكنَّ دييف سوف يصدِّق.

***

كان برج الضخ مليئاً بالماء -يكفي لتعبئة العربات وتجديد إمدادات الشرب وتحميم الأطفال الذين تبناهم دييف مؤخراً. كُشِطَت الأوساخ من الأطفال المشردين بأربع أيادٍ: كانت ممرضتان تضعان الطفل الوسخ بينهما، وتفركانه بلا رحمة بحزمة صغيرة من العشب- إحداهما تتحرك من يافوخ رأسه إلى الأسفل، والثانية من الكعب إلى أعلى - حتى تلتقي أيديهما في مكان ما في سُرة الطفل، فتتقشر جميع طبقات الأوساخ التي تراكمت لأشهر وطبقات الجلد المحترق، وتظهر بشرة الطفل وردية تماماً. ثم يُحلَق شعر الطفل إلى حد الصلع؛ وبسبب عدم وجود السائل المُطَهِّر، ويُشطَف الطفل بنقيعٍ من عشبة العرن، التي أعدها مميليا بناءً على طلب من المساعد الطبي. وبُخِّرَت ملابس الوافدين الجدد بنفثات من بخار صمام القاطرة.

خلال يوم واحد في القطار «الضفيرة» لم يعُد الركاب الجدد جديدين بالنسبة لأطفال القطار. فقد تبادلوا الألقاب واللكمات والحكايات الطريفة والكلمات المفضلة - وصاروا جزءاً منهم. فمن المثير للدهشة أنَّ هؤلاء الأطفال تعرفوا بعضهم على بعض وأبدوا إعجابهم بعضهم ببعض: لأنهم حُرِموا من حب الوالدين، فقد قدموا عن طيب خاطر المودة والحماية لنفس أولئك المهجورين مثلهم.

وحتى دييف نفسه صار الآن يفهم الكثير عن الأولاد: فمن خلال الكُنى المستعارة حدد اهتمام المتشرد السابق، وباختصار تصوَّر مصيره اللاحق

كذلك. لقد اندهش من نفسه، لكنه فهمَ - اتضح أنَّ كل شيء لم يكن بتلك الصعوبة.

لاريك خلّاط ورق اللعب وليسيا صاحب البطاقات الموسومة. مفهوم لأيّ شخص أنهما كانا لاعِبَي ورق حقيقيّين، من أولئك الذين يكسبون خبزهم من خلال لعب الورق، ويمكنهما صنع مجموعة أوراق من أي شيء. (وهذا ما حدث. في غضون يومين، كان الأولاد في القطار «الضفيرة» كلهم تقريباً، الذين علَّمهم لاريك وليسيا، يصنعون بطاقات اللعب: بسبب قلة الشعر على رؤوسهم المحلوقة، كانوا ينتفون الشعر من الحواجب ويحوكون منه فُرَشاً صغيرة، ومن شظايا الطوب المحروق يذيبون باللعاب طلاءً أحمر، ومن الفحم -طلاء أسود، وينقشون قصاصات الورق بزخارف ليصنعوا منها بطاقات ورق اللعب!). كلاهما قصير القامة، ونحيف تماماً من سوء التغذية- والأكثر إهانة أنْ يخسر المرء لمصلحة هذين الضئيلَين، اللذَين يشبهان الديدان المعوية. وقد خسر أمامهما الجميع: الأطفال، الممرضات، وحتى سائق القطار، الذي قرر ذات مرة أنْ يلعب بحماس مع الصغار، ثم ظلّ يشتم طوال الليل من الانزعاج، فمنعَ مساعده من النوم.

السحلية، بالطبع، سُمِّيَ بسبب جلده القبيح -المتجعد، الرمادي بصورة غير طبيعية، المتصلّب في بعض الأماكن- كما لو كان هذا الجلد يعود حقاً إلى عضاءة أو ثعبان من صحاري تركستان. تذكر المساعد الطبي اسم المرض الذي عانى منه الصبي، لكن دييف لم يستطع الاحتفاظ بالاسم في رأسه.

مكاكا من المُعتَقَل. هذا الطفل بالفعل كان في مركز الاحتجاز. لم يستطع دييف أنْ يفهم كيف انتهى الأمر بالطفل إلى هناك. لكن من الواضح أنه كان فخوراً جداً بهذه الحقيقة الحياتية، طالما أنه اتخذها لقباً له.

دروشا اللحاس، من الواضح أنه لم يكن ينفر من لعق - النبيذ، والفودكا، والكحول المُحَضَّر منزلياً. ومن الواضح أنَّ هادي المُتَبَجِّح كان يحب التباهي. ولافروخا المُلَمِّع كان، على ما يبدو، طفلاً متحمّساً، بمجرد أن يشرع بالتنظيف، لن يقدر على التوقف في الوقت المناسب. وفيلون المتقاعس سُمّيَ هكذا، لأنه يجيد التكاسل ويتظاهر بالمرض.

كان الوافدون الجدد جوّالين ذوي خبرة ويعرفون كيف يطعمون أنفسهم -وكانوا كلهم تقريباً «يمتلكون حرفة». لقد أدرك دييف منذ مدة طويلة أنَّ «المهنة» التي يختارها الطفل ليست مجرد مهارة خاصة أو براعة ماكرة، بل مرآة للشخصية: لا توحي كُنى «العمل» المستعارة عن تجربة حياة صاحبها فحسب- بل تتحدث عن روح الطفل.

بالنسبة «لماراثون» -تشير هذه الكنية إلى الجري المتواصل حول محطات الترام بحثاً عن الكوبيكات التي أسقطها الركاب- وتتطلب الصبر والمثابرة والقدرة على الاكتفاء بالقليل. وتشير كذلك إلى الاجتهاد (كي يحفر لساعات طوال في التراب والقمامة). وكذلك إلى اللطف (حتى لا يكون قاسياً في التعامل مع العالم فيُجبَر على أنْ ينتقل إلى مصدر آخر للرزق). من الواضح، أنَّ فينيا ماراثون كان يتمتع بكل هذه الصفات.

وبالنسبة لكنية «السّلّاب»، على العكس، تتطلب الغطرسة والثقة بالنفس. وإلا كيف يمكنك أن تسرق تفاحة أو نصف فطيرة من بائع في السوق -ليس خفيةً، بل علانية، تسحب بوقاحة العنصر المطلوب من دكة البائع وتهرب على وقعِ صرخات الحشد الغاضبة؟ المطلوب- الاندفاع والشجاعة، سرعة النظر وسرعة التفكير، اليدين والقدمين. وكل هذه الصفات كان يتمتع بها كوسكا السلاب بوفرة.

الهدوء الذي لا يتزعزع واللامبالاة حتى الموت مهمان «لحفاري القبور» -لأولئك الذين يقضون ساعات طويلة وأياماً في المقابر، ويجمعون القرابين التي يتركها الأقارب للموتى: الزهور والأكاليل، والحلويات. لكي تأكل رغيفاً مخبوزاً لرجل ميت ومتروكاً على قبره- عليك أن تكون فيلسوفاً. وهذا ما كان عليه إيليا حفار القبر - فهو شجاع وصامد، مثل الحجر.

لكن القضم -التسول من أجل بقايا الطعام في البوفيه- ممكن فقط لمن يحبه الناس. مَن يعرف كيف يتزلّف إلى شخص غريب وفي اللحظة الأولى يثير عطفه: هنا عليك أنْ تبتسم، وهناك عليك أنْ تشكو، وأنْ تذكر هنا الله أو الشيوعية القادمة، من أجل أنْ تحصل في النهاية على فضلة من الطعام أو وعاء تلعقه. العارفون بنقاط ضعف البشر، الخبراء في علم الفراسة، والعارفون

بطباع الناس -أولئك هم مَن «يقضمون». أذهانهم مرنة، ووجوههم متحركة، وأصواتهم- تتفوق على أيّ ممثل. مع أمثال هؤلاء، تحتاج إلى إبقاء عينيك مفتوحتين -سوف يكتسبون ثقتك ويغشونك في أي وقت من الأوقات. كان هناك الآن مثل هذا الخبير الماهر في القطار- إنه لوقا العضّاض.

أكثر المتسولين نزاهةً - هم «عازفو الملاعق». لا يذهب الناس إلى هذا التخصص بدافع الحاجة، بل بدافع نداء الروح الحقيقي فقط: يجب على المرء أن يحب الموسيقى بصدق، لكي يجلس طوال اليوم، ويضرب إيقاعات بالملاعق التي يصنعها بنفسه من الخشب ويغني معها. فمن دون حسٍّ موسيقي مُرهَف وإنشاد في الروح، لن يفلح بشيء. وهذا ما قاله ميتيا عازف الملاعق الخشبية: الأغنية لا تُغنّى بالشفاه بل بالقلب. عازفو الملاعق الخشبية أناس رقيقون...

الأولاد الذين اختارهم دييف جاءوا من أماكن مختلفة من البلاد - احتشدت الجغرافيا بشكل غير متجانس ولا يمكن تفسيره دائماً. على سبيل المثال، جوب من مايكوب[1]، فتى مغرور وصاخب يرتدي قميصاً مُخطّطاً من النوع الذي يلبسه البحارة طوله يصل إلى الركبة: لماذا زحف حتى أقصى الشمال، إلى مدينة أورينبورغ بالذات، ولم يشق طريقه من مدينته التي يسكنها إلى تركستان بالطرق القصيرة، على طول شواطئ بحر قزوين؟ ردَّ جوب نفسه بإيجاز على سؤال دييف المباشر: «كنتُ أتنزّه». غير أنَّ هذا الجواب لم يُوَضِّح شيئاً لدييف.

أو، خذ مثلاً، فرانغيل من أوديسا، الذي يرتدي كنزة قصيرة من الفراء وسروالاً قوزاقياً متهرّئاً كالمنخل. من المفترض أن يتسكّع هذا الصبي في موطنه، حيث المحار، وأسماك البوري، ولحوم الدلافين - كل شيء يولد بسخاء في البحر ويُستَخرَج بوفرة، وإن لم يكن بإفراط كما كان في الأوقات السابقة. ولكن، هيهات، فقد سار الصبي مشياً إلى جبال الأورال تقريباً.

1- مدينة مايكوب: وتعني باللغة الأديغية "سهل التفاح"، عاصمة جمهورية أديغيا ذات الحكم الذاتي في الاتحاد الروسي، وهي أكبر مدن هذه الجمهورية، التي تعد واحدة من الجمهوريات الشركسية. وتقع المدينة على الضفة اليمينية لنهر بيلايا (أحد روافد نهر الكوبان)، حوالي 1,600 جنوب موسكو. (المترجم).

ربما، الأمر واضح بخصوص الأولاد القادمين من الشمال الجائع. فإلى أيّ مكان آخر يمكن لسيلفا من مدينة بسكوف أو لرود من أرخانغيلسك أنْ يسيرا نحو إقليم تركستان، إن لم يكن عن طريق مدينة أورينبورغ؟ سألهما دييف: «كم من الوقت استغرق الطريق؟» ابتسما ابتسامة ساخرة وردّا عليه: «نصف العمر». ربما، لم يكذبا.

وبخصوص السيبيريين -الأمر مرة أخرى ليس واضحاً. تحيَّر دييف في أمره عندما سأل طفلاً مُمتلئ الخدين يُدعى سورغوتيشكو: «مدينة سورغوت- أبعد أرجاء المعمورة! فكيف سرتَ عبر التايغا، وعبر جبال الأورال؟ أجاب بجدية: «لديَّ رِجلان. ثم نحن لا نسكن في أبعد أرجاء المعمورة على الإطلاق، بل في سيبيريا، بالضبط في وسطها!» أما صديقه ورفيقه، أمبو من مدينة تومين، فلم يعذب دييف بالحيرة - من الواضح أنَّ هذا الصبي أيضاً «لديه رِجلان»، طالما أنه الآن في القطار.

على خلفية المشاة السيبيريين، تلاشت أيّ جغرافيا أخرى: ولم يعد يثير دهشة دييف أيّ شخص، لا سبيرت من بلدة رجيف، ولا كوندراشكا من مدينة تفير، ولا تشاتشا تسيناندالي. وليس هناك ما يقال عن النازحين من كالميكيا المجاورة ومن بحر قزوين القريب.

وحينما كانت فاطمة تساعد في تحميم طفل آخر مُتَبَنّى علَّقت بطريقة غير مفهومة:

- ليس قطاراً، بل سفينة نوح.

صغَّر دييف وجهه على نحو كئيب من دون أنْ يوافق أو ينكر. لقد تعلم أن يفهم الأطفالَ المشردين، لكنه لم يتعلم بعد أن يفهم هذه المرأة الغريبة.

***

تبارى دييف مع الموت.

لقد فهم هذا في إحدى تلك الليالي الطويلة بشكل لا يُحتَمَل، عندما جلس بعينين مفتوحتين على سطح عربة الموظفين ونظر إلى السهوب. كان زاغريكا النائم يتنفس عند صدره، وعلى طول القطار كان اثنان من الذين

أجبرتهم الضرورة لقضاء الحاجة على «الركض» يخشخشان على العشب. كان ظهره وكتفاه لا تزال تؤلمه من العمل الأخير -فالتربة القرغيزية قاسية مثل حافر الحصان، فصار حفر قبور الموتى عذاباً طويلاً. لم يعد أيّ تعب منذ أسبوع، لكن نوبات الارتعاش الصغيرة في الأصابع التي بدأت مؤخراً أصبحت متكررة- صارت يداه ترتعشان مثل يدَي رجل عجوز، حتى الآن، في لحظة الهدوء، وهو يحتضن الطفل النائم. ضرب القمر من السماء مثل ضوء الكشاف، محوِّلاً الأرض إلى فضية لامعة والظلال الموجودة عليها إلى ثقوب سوداء. وفي هذا الضوء الأبيض، الشبيه بضوء النهار، أصبح واضحاً بالنسبة لدييف: هذه حقيقة مُسَلَّم بها.

جثم الموت في القطار من مدة طويلة، مثل راكب غير مُصَرَّح له. انتظر قليلاً، مهدّئاً يقظة القائد، ثم بدأ بعد ذلك يختطف الأطفال. في البداية، تحول إلى إرهاق نهِمٍ وأخذ المُقعَدين طريحي الفراش. والآن تحول إلى كوليرا ويأخذ المرضى. فقد دُفِنَ اليوم أربعة أشخاص. هذا أكثر من أمس. والأمس كان أكثر من اليوم السابق. ماذا سيحدث بعد ذلك؟

رفع زاغريكا الساكن وأزاحه عنه، ووقف على قدميه، وسأل بصوت عالٍ:

– أين أنت، أيها الموت؟

لم يرد الموتُ عليه، فهو يختبئ.

في مثل هذه الليلة المنيرة – لن يبتعد.

وراح يقفز من سقف إلى آخر، ونظر من فوق مواسير التدفئة ورفع أغطية الفتَحات:

– أين أنت؟ هيّا، اظهَر!

استَلَّ المسدس تحسباً لكل طارئ.

أمر زاغريكا، الذي كان يتخبط بجانبه، ويفرك عينيه:

– ابق بالقرب مني، يا أخي. اختبئ خلف ظهري.

لا يوجد أحد في الفَتَحات. ولا خلف الأنابيب أيضاً. ولا هنا. ولا هناك. امتدت الأسطح الفارغة على نحو متماثل مغمورة بضوء القمر مثل

الطلاء الأبيض. دوّى القصدير تحت وطأة جسد دييف - كانت خطواته ثقيلة حقاً، ويمكن سماعها في العربات. قفز ظله وظل زاغريكا الطويلان متعرجين من تحت جزمتيهما وسقطا في السهوب.

ارتجفت أصابعه اللعينة، لكنها تمكنت من تحريك الزناد:

- إيه؟! لماذا تختبئ، مثل آخر مخلوق؟ هيّا، اخرج!

ومَن قال إنَّ الموت سوف يتحرك على السطوح بجانب دييف المُعافى؟ إنَّ مكانه بجوار المرضى، في مقطورة الكوليرا. على ما يبدو، جلس هناك، مثل العاهرة.

هرع دييف إلى طرف القطار، وقفز على المنصة (لوى ساقه، لكنه لم يشعر بالألم) وسحب باب عربة المستوصف إلى جهته. ضربت رائحة الجير والعَرَق غير الصحي وقذارة الكوليرا أنفه.

- أعرف أنَّك هنا!

كانت الستائر في الغرفة مسحوبة طوال الليل، فبدأ يفتحها، ويقفز من قاطع إلى آخر. لسبب ما، لم يطِعه القماش -لقد تمزق وسقط على الأرض. هذا جميل! الضوء أكثر- وسوف يسهل البحث. التصقت الستائر المتساقطة بجزمته، وشبكت ساقيه، وأعاقت حركته - فركلها جانباً برجله، مثل قطيع من الكلاب الشرسة.

هل حددتَ الثمن؟ هل تريد ثلث الأطفال؟ خذ، هذا الثلث لك! -(داس على كل قطعة قماش ممزقة- ودقَّ بكعبه على ألواح الأرضية، من أجل تهدئة الوضع بالتأكيد). - إنه لك! خذه!

لقد ركل كل شيء، وتغلّبَ على كل شيء - انتشر الضوء في المقطورة كضوء النهار. وسحب الستارة الأخيرة، من خلالها يحدق الناس: الرب مع والدته والمساعد الطبي في رداء على جسده العاري، وشعره المنتصب.

صرخ في وجه يسوع غير المبالي:

- أين هو؟ أين اختبأ؟

بقي صامتاً.

- أي إله أنت، إذا كنت لا تعرف مثل هذا الشيء الصغير؟! -(أوغلَ

دييف أصابع يده في عَينَي الرب، لكنه، على ما يبدو، غرز شظايا في كعبه، لكنه لم يلاحظ الألم).- سأجده بنفسي من دونك!

- أعطني المسدس، يا حفيدي.

طوى دييف راحة يده الجريحة ووضع إبهامه بين السبابة والوسطى ومدّها نحو بوغ؛ ومدّ إليه كذلك يده الأخرى، التي تمسك بالمسدس، وقال:

- لن تحصل على شيء إطلاقاً، يا جدي! هذه المرة إذا تدخلت لن تلومْ إلا نفسك. وابعِدْ أدواتك من هنا، إنها ترنّ في رأسي. خذ هذا! -(وأشار إليه بالإبهام الذي وضعه بين السبابة والوسطى وراح يوجّهه تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار، نحو ظلال الليل الكثيفة في أركان عربة المستوصف).- لن أعطيك، أيها الموت، أحداً من الأطفال بعد الآن! من الأفضل أن تخرج أنتَ. على أيّ حال، سأجدك بنفسي.

الموت غير موجود على سرير جولييت المهلبية. ولا تحت السرير أيضاً. ولا تحت غطاء ليوشا صاحب الأمراض الثلاثة. ولا تحت مقعد نونكا بوفاري. الأطفال راقدون، بالكاد يتنفسون، يتوهجون باللون الأزرق. والموت ليس بجوارهم.

- لا تلمس المرضى، يا حفيدي، وضعُهم سيئ من دونك!

وليس موجوداً عند هوفر الجائع. لا عند جنكيز مامو. ولا عند بعر الغنم أيضاً.

- لا تقترب، يا جدي! أنا أعرف كل حيلك -سوف تُنشِب أسنانك في مؤخَّرَتي، مثل الدب، وسوف تأخذ السلاح. واليوم عليَّ أن أفعل شيئاً- أنْ أجده.

إنه ليس بالقرب من بينكرتون. ولا بالقرب من كوزيتا...

- يحتاج إلى هواء نقي. افتحي الباب، أيتها الممرضة!

- ابقي حيث أنتِ، أيتها الممرضة! لا تفتحي الباب. سأفتحه بنفسي! وإلا سوف يهرب.

خرج من الباب إلى المنصة. وصفق الباب! ثم دخل مرة أخرى عبر باب آخر، وصَفَقَهُ!

ثم دخل إلى العربة المجاورة.

وتظل الأدوات الطبية ترن كالأجراس، مرة في هذه الأذن، ثم في الأذن الأخرى – لم يرمِها الجد، العاصي، قط. واليدان المرتجفتان كادتا تسقطان المسدس.

أين تختبئ أيها الجبان؟ اخرج!

مَن ذا، الذي يصرخ؟ ألستَ أنتَ؟ كلا، إنهنَّ الممرضات الحمقاوات.

من ذا الذي يهرب، مرتدياً ملابس بيضاء؟ كلا، مرة أخرى، ليس أنت، بل أحد الأطفال.

ما هذه الضوضاء؟ ها أنا ذا. لقد أطلقتُ النار للتو على السقف.

– أين أنتَ، أيتها العاهرة؟!

صوت قريب من دييف:

– أنا هنا.

ها هو الآن يقف – طويلٌ ومستقيم، بالجوار، وينظر.

قرَّبَ دييف وجهه، لكنه لم يرَ شيئاً، كأنَّ عينيه سُدَّتا بصوف. هل ذلك لأنَّ ضوء القمر ساطع، أم لأنَّ دخان البارود كثيف؟

قال لدييف:

– هيّا، تعالَ معي.

غرز دييف المسدس في صدر الموت، تضغط فوهة المسدس على شيء لدن، قوي، جسماني.

وضع أصابعه الباردة على قبضة سلاح دييف وشده بقوة، وقال:

– ليس الآن.

أطاعه دييف: الآن ليس لديه مكان يذهب إليه، دعه يأمر قليلاً. أخذه من يده -كما يُؤخَذ الطفل اللعوب، ليخرجه من الغرفة- ويقوده خلفه. يمشيان معاً -عبر العربات، وعبر المنصات، وعبر العربات، وعبر المنصات- وسرعان ما يجدان نفسيهما في غرفة مألوفة جداً. مرآة كبيرة تزحف إلى الجانب، وتحجب الفراغ وتملأه بضوء القمر. وينقر القفل.

دفع المسدس إليه مرة أخرى:

- الآن.

يسمَع:

- انظر إليّ، يا دييف. هل تعرفني؟

فرأى امرأة مألوفة تقف أمامه - مرتدية سترة عسكرية فوق ملابسها الداخلية. فوق يافوخها شعرٌ خشن مجعَّد. أحد خدّيها مدعوك من النوم.

فأومأ برأسه، أعرفك. أنا أعرفك، يا بيلايا. وأعرف كل شيء: حجرتنا التي في عربة الموظفين، والأريكة ذات الألوان الغثّة، والباب المنزلق. أنا أعرف كل شيء.

ثمة طَرْقٌ خفيف على الباب.

يسأل صوت المساعد الطبي:

- كيف حالكِ، أيتها المفوضة؟

ترد بيلايا بصوت عالٍ، من دون أنْ تفتح المقصورة:

- كل شيء على ما يرام. على الجميع أن يأووا إلى الفراش.

تُسمع خطواته مبتعدة في الممر، ليس على الفور، بل بعد بضع دقائق. لم تعد الأصوات تُسمَع، من الواضح أنَّ الناس تفرقوا في صمت وهم يتبادلون النظرات فحسب.

يأتي الخجل بشكل حاد - مثل الألم من الشظايا في راحة اليد، مثل الألم في القدم الملوية. الخجل والألم قوتان متساويتان.

آه، ليت فاطمة كانت بقربه! لجثا آنذاك على ركبتيه، وشبكَ ذراعيه حول جسدها الأنثوي الناعم ولدفنَ فيه وجهه المتوهج، ودفن هذا الخجل الذي لا يطاق - ولتنفس بتشنج، أو بأنين من الحرج أو حتى لبكى. ولكن، ما عساه أنْ يفعل الآن؟

وضع دييف المسدس على الطاولة -فرنَّ المعدن على السطح المصقول. ثم جلس على حافة الأريكة، ونظر إلى الأرض، واستخرج الشظايا من راحة يده بأسنانه- فانتفخت قطرات حمراء في الجروح. ولا تزال أصابعه ترتجف، قبَّحها الله!

جلست بيلايا بجانبه، وأمسكت بيده المرتجفة، وقالت له:

- دعني أستخرجها بنفسي.

وجعلت تزيل بأسنانها الشظايا التي خرجت من تحت الجلد. تسرب الدم - فلعقته. وراحت تقبّل رأسه، مراراً وتكراراً، مدة طويلة.

لا يجوز، غير ممكن - وهكذا ازداد خجله أكثر حتى شعر بحرقة في قفاه!

الأمر ممكن ولا يثير الخجل.

فيما بعد - عندما يهدأ الخجل!

كلا، الآن، حتماً.

لا أريد ذلك ولن أفعل!

سوف تفعل. سوف تنفّذ. الآن.

التصقت به بشدة، فأطاعها مرة أخرى - من جديد، للمرة العاشرة، وللمرة المائة...

في وقت لاحق، عندما كانا يستلقيان جنباً إلى جنب بتعب، وبالكاد تسعهما الأريكة، سألها دييف:

- هل تفعلين ذلك معي من باب الشفقة؟

خفّ ألم يده كثيراً، وساقه الملتوية لم تعد تؤلمه على الإطلاق - لقد راحَ الألم. وراح معه الشعور بالخجل على نحو مدهش. وانزاح الهمّ عن صدره. ولم يعد يفكّر في شيء.

نهضت بيلايا وبدأت تمشّط خصلات شعرها المتجعد المتشابكة بأصابعها بنشاط، وقالت:

- وفقاً للحسابات، أريدك أن تُوصِل القطار إلى تُرْكِستان. وسوف أساعدك، بكل ما أستطيع.

ليتها ظلّت صامتة!

- أليس من المحرج الاعتراف بشيء؟ -أراد دييف أن يشعر بالإهانة، لكنَّ الشعور بالإهانة لم يغلِ في صدره على الإطلاق- كان قلبه هادئاً ونقياً، مثل الجسد بعد الاستحمام بالماء الساخن.

بدأت بيلايا تفرز الملابس الداخلية المبعثرة على الأرض بحثاً عن ملابسها، وقالت:

– المُخجِل أنْ توقِظ الأطفال في منتصف الليل وتثير فزعهم بالمسدس. والمخجل أن تفقد عقلك في منتصف الطريق.

كلا، لم تأخذ الكلمات الساخرة اليوم مأخَذَها من دييف. وحتى المفوضة المُزعِجة لم تستطع زعزعة السلام الكامن في روحه.

– لم أفقد عقلي. بل على العكس، الآن فقط فهمتُ كل شيء على أرض الواقع.

– ماذا فهمت؟

– سنأخذ كل الأطفال الذين يطلبون الركوب في القطار –هذا كل ما في الأمر!– (من بساطة وصحة هذا الفكرة، اندفع دييف، وجلس، يفرك ناصيته). – وليس من يطلب ذلك فقط. كل شخص نصادفه على طول الطريق. كل شخص نجده. سنأخذ الجميع!

جلست المفوضة، التي كانت شبه عارية، على الأريكة وحدقت إلى دييف:

– وماذا ستفعل بهم في سمرقند؟ لن يُقبَلوا في دار رعاية الأطفال المستهدفة.

أجاب بنظرة مباشرة على نظرتها المباشرة:

– سيفعلون. سوف نمرِّرهم في الأوراق بصفتهم أطفال المجاعة من منطقة الفولغا. وإذا ما استلزم الأمر، فسوف نضيف عدة أسماء، فهُم على كل حال لن يتحققوا.

– ألم تُبلِّغ قازان عن الوفيات بعد؟

هزَّ دييف رأسه فحسب: لم أبلغ. بمخالفةٍ لجميع التعليمات وتجاوزٍ على الفطرة السليمة، بسبب ضعف الشخصية أو لسبب آخر – لكنه لم يبلغ. إنه لم يستطع أنْ يكتب بيده في الرسالة الرسميةِ الكلمةَ المبهمةَ «النقص»، وأنْ يضع مقابلها الرقم المبهم لعدد الموتى! لم يكن بمقدوره أنْ يفعل ذلك.

أصبحت نظرة المرأة الصارمة نظرةً سلطويةً:

– هذا تزوير يا دييف.

– والآن أنتِ شريكة في هذا التزوير.

- لا تخِفني!

- لا أريد أنْ أُثير ألمك. لقد وصلنا الآن، أيتها المفوضة، إلى هذا الحد الذي لم تعودي في ظله تأمرينني. إذا رغبتِ، يمكنك أنْ تشتكي: حتى وإنْ تشتكي إلى السَناجيب في سهوب الجياع، أو إلى السحالي في رمال بحر آرال.

نظرا بعضهما إلى بعض من دون أن يرمشا أو يرفعا بصرهما، كما لو كانا يتناطحان بالنظرات. شعر دييف أنه سوفِ يفوز.

- سأنتظر حتى نصل إلى طشقند أو سمرقند، وسوف نعثر على تلغراف هناك.

وافق دييف ببساطة:

- اتفقنا. سأُسرع هناك بالأطفال إلى دار الأيتام لترتيب إسكانهم، وأنتِ

- أسرعي لتقديم الشكاوى ضدي.

- لن يُقبَلوا، يا دييف! -(من خلال النغمة التي تكلمت بها بيلايا، أدرك دييف أنه فاز).- على وجوه الأطفال الوافدين الجدد الذين التقطتهم في الطريق مكتوب أنهم متشردون من ذوي الخبرة وليسوا من منطقة الفولغا على الإطلاق! سهوب كالميكيا وقرغيزيا، البحر الأسود، بحر قزوين – هذا ما مكتوب على وجوههم! لن تساعدك أيّ أوراق مزورة. فالموظفون في سمرقند ليسوا أغبياء.

- سيُقبَل هؤلاء الأطفال. بالتأكيد سوف يُقبَلون! -(أمسك وجهها بين يديه وقبل جبينها بقوة).- المهم، يا بيلايا، ألّا تتدخلي.

الآن فقط لاحظ أنَّ أصابعه توقفت عن الارتعاش.

***

أودت الكوليرا بحياة أربعين طفلاً.

إبراهيم القازوق، وبادي شاه، ورراديشيف، وأبو ذقن، وسونيا إسقربوط، ومصطفى الشُح، وهوفر الجائع. ويلدار الجرّاف، وجولييت المهلبية يعسوب السكّير. كلهم دُفِنوا في محطة أكبولاك.

تيلدا جُذام، وفاديا من سيزران، وستسوبا، وقاسم محطة، ومرزوق الضال، ونونكا بوفاري، وماجان، وحازق آمين، وأوغليتبش لا تطلق النار، وليوشا صاحب الأمراض الثلاثة، وليوشا بِرْكة، وتوبا من سارابول، ونرجس من أغريز. كلهم دُفِنوا في محطة كورانلي الفرعية.

فينيمور كوبر، وآخما، وحميد صاحب الضجيج، وزينب ذات الأسنان الكبيرة، وجيكا من إيجيفسك، وحبيبة السمينة، والمبراد، وبينكرتون. هؤلاء دُفِنوا في محطة بيش تاماك الفرعية.

كوزيت فحم الكوك، وموسى التتري المُعَمَّد، وتروتسكي ذو الحظ السعيد، ونوهرت الصمّاء، وإبليس أنا أيضاً، والبليل، وقيّوم الأعور، وديما من كوستروما، والداحوس. دُفِنَ هؤلاء في بلدة كوك بيك.

خلال هذا الوقت استقبل دييف في القطار ثلاثين من المشردين. إذا ما حسبناهم مع أولئك الذين أركبهم في أورينبورغ، فعندئذٍ يكون المجموع خمسين طفلاً.

في بلدة جامان سو، التي تزوّدوا فيها بالماء، وقف بالقرب من القطار «الضفيرة» زوج من الصعاليك الشباب. على ما يبدو، جَوّابان من ذوي الخبرة: لم يشتكيا بشأن الحاجة إلى الطعام، ولكن وفقاً لآداب التشرد المعمول بها، جلسا بالقرب من عربة الموظفين وحدقا ببلاغة في عيون جائعة –ليس إلى السائق ومساعده، ولكن إلى المفوضة ورئيس القطار فقط. لم يتردد دييف، ودعاهما على الفور:– هيّا، اصعدا معنا! –وبمجرد أن جلسا على وسادة الفرامل. حذرهما من أنَّ هناك كوليرا في القطار. ابتسما فقط بتسامح: وماذا، ألم نَرَ الكوليرا؟ تحت قبعات الفراء المتهرّئة، أظهرا شعراً أشقرَ ساطعاً، وفي كلامهما– نبرة شمالية مميزة.

في محطة كارا تورغاي الفرعية (المهجورة، مثل الكثير من المحطات في هذه المنطقة) خُيِّلَ لدييف أنه سمع بعض الأصوات في منزل مدير المحطة الفارغ. نظر في النوافذ المكسورة، وركض عبر الفناء الخلفي، فوجد في القبو ثلاثة أطفال كأنهم حيوانات برية داكنة اللون من الوسخ، وتبين أنهم صبيّان اثنان وصبية واحدة. لم يكونوا يتحدثون اللغة الروسية،

ولم يفهموا اللغة القرغيزية (للتواصل مع السكان المحليين، كان دييف عادة ما يأخذ معه الممرضة البشكيرية، لغتها تشبه إلى حد بعيد اللهجات القرغيزية والكازاخية). إذا ما حكمنا من خلال العيون السوداء الكبيرة تحت الحواجب السوداء السميكة، التي تكاد تلتحم عند جسر الأنف، فإن هؤلاء الأطفال كانوا من مكان ما في القوقاز. أخذهم دييف إلى القطار أيضاً.

اعترض المساعد الطبي:

- كلا! ألا تكفينا الكوليرا؟ هل تريد أنْ تجمع كل العدوى من حولنا؟

لم يرد دييف بكلمة، بل أمر جميع الأطفال الذين تبنّاهم بأنْ يجلسوا في حجرة خزن الوقود والماء، فوق الحطب والفحم مباشرة - حتى انتهاء أيام الحجر الصحي التي حددها المساعد الطبي.

قضوا الليل في بلدة أكتيوبنسك، وتمكن دييف من الذهاب إلى دار الأيتام المحلية: فقد اصطحب جميع الأطفال الذين وقفوا في الشارع على أمل الدخول، وأخذهم معه إلى القطار «الضفيرة». كان هناك ما لا يقل عن دزينة من هؤلاء الكتاكيت. كان الجزء الأكبر منهم من ذوي العيون الآسيوية والوجوه الواسعة، لذلك اعتقد دييف في البداية أنهم من السكان المحليين. لكن اتضح أنَّ ليس جميعهم من القرغيزيين: من بينهم نازح من السهول المنغولية، بل حتى نازح من مكان ما من الأراضي الشمالية البعيدة، التي لم يسمع بها دييف من قبْل. كان مفتش أورينبورغ على حق: فكل روسيا تسعى الآن باتجاه تركستان، أرض الحبوب.

وفي بلدة كانداغاتش جرت محاولة لسرقة دييف. في سوق شعبي صغير يتكون من صف ونصف من دِكاك البيع، الذي كان فيه ما يقرب من خمسة عشر شخصاً يتسكعون، احتشدت عصبة من الأولاد بجانبه: لم يقتربوا منه، نظروا بجدية إلى الجانب، لكنهم كانوا يدورون في الجوار، مثل أسماك الكراكي الصغيرة الجائعة، من دون أنْ يجرؤوا على الهجوم أو ترك الفريسة المغرية. لقد صوبوا أعينهم على المسدس -رأوه في الجيب، أدرك دييف. سوف يقفزون عند صافرة القائد: اثنان سيتعلقان بيديه حتى لا يتمكن دييف من الإمساك بالسلاح، والثالث سيسحب المسدس في نفس الثانية- ويهرب بأسرع ما يمكن.

فصفّر لهم، هو، أولاً: هيّا، تعالوا إلى هنا! اسمعوا ما أقول لكم، أيها الماكرون. لن تستطيعوا المساومة معي. ولكن تستطيعون الذهاب معي إلى سمرقند بكل هدوء. سأُدفئكم في القطار. وسأُطعِمُكم بالقليل الذي معنا إذا ما تصرفتم بحذر. ولن أترككم تهربون. ولكن إنْ تصرفتم أيّ تصرّف غير لائق سأعرف كيف أتعامل معكم. قرروا الآن.

من أين جاءت كل هذه الكلمات على لسانه، لم يكن لدى دييف نفسه الوقت الكافي حتى لفهم ما قال، ولكن في نفس اللحظة فقط فتح الأولاد أفواههم من الاحترام وتجمعوا حوله بأعين مخلصة: وقرروا كل شيء في ثانية. فعاد دييف من السوق بلا طعام، ولكن مع زيادة أخرى.

عندما اقتربوا من بلدة إمبا، التقوا بعصبة من الأولاد الذين نشب بينهم عراك في السهوب في اللحظة التي مرَّ القطار «الضفيرة» من جانبهم. تعاركوا بشراسة، وطرحوا بعضهم بعضاً على الأرض وعضّوا بعضهم بعضاً حتى نزفت دماؤهم، - فقرّر دييف القفز من القطار وفصلهم. فتبين أنَّ المتشاجرين كانوا فتيات. فأخذهن معه في القطار، بشرط الهدنة الصارمة خلال المدة المتبقية من الرحلة.

وفي الطريق الممتد بين بلدَتَي كولاما وألاباز، صادفوا فتاة أخرى: كانت مستلقية تحت شجرة دردار وحيدة، متدثِّرة بشبكة صيد ممزقة، ولم تكن تتحرك. في الجوار، كانت الغربان تندفع إليها جشعاً، منتظرة حلول أجلها. طرد دييف الغربان، وأحضر اللقيطة إلى عربة الموظفين. قدموا لها الشراب وتحدثوا معها، لكن من دون جدوى: ثرثرت اللقيطة بلغة غريبة جداً، لا تشبه أياً من اللغات العديدة في القطار.

أوضحت فاطمة لدهشة الجميع:

- إنها اللغة اليونانية.

أستوضح دييف بغباء:

- اللغة اليونانية القديمة؟

- لماذا القديمة؟ اللغة اليونانية الحديثة بكل تأكيد.

خمّنت بيلايا:

- لقد جاءت من شبه جزيرة القرم.

لم يكن بالإمكان معرفة المزيد عن الطفلة اليونانية: لا كيف وصلت إلى ذلك المكان تحت شجرة الدردار، ولا لماذا كانت ترتدي شبكة صيد.

وبعد محطة تشيلكار حدثَ الفرح: انحسرت الكوليرا.

لم يعد «الراكضون» بقمصانهم المرفوعة يزحفون على طول القطار. ولا المرضى السقم في عربة المستوصف يختلجون من القشعريرة والتشنجات، بل رقدوا بهدوء في انتظار الشفاء. واستقامت من جديد كفوفهم وأقدامهم التي كانت مجعّدة ذات مرة بسبب المرض، وامتلأت حيويةً ومرونةً وجوهُهُم التي غضَّنتها الكوليرا. وزالت الزرقة من شفاههم ومن تحت عيونهم، وتوقفت أفواههم عن التشقق من الجفاف، وصار بإمكانهم التحدث مرة أخرى. وصار المساعد الطبي في كل يوم يطلق سراح المتعافين الجدد من تحت إشرافه ويدعهم يعودون مرة أخرى إلى بقية الأطفال. فقد انتقلوا من المرض إلى الحياة.

لم يعد القطار «الضفيرة» يتأرجح على طول المسارات، تارة ينطلق على عجل على الطريق، وتارة يتباطأ منتظراً أنْ يأخذ «الراكضون إلى قضاء الحاجة» قسطاً كافياً من النوم أثناء التنقل، ولم يتوقف لعدة أيام في المحطات الفرعية المهجورة. ولم تعد ثمة حاجة لتغيير فراش الحشائش في العربتَين، اللتين يرقد فيهما المرضى، عدة مرات في اليوم، بل غُيِّرَ مرتين فحسب. وسرعان ما بقي عدد قليل من المرضى، وصارت عربة المستوصف تسعهم جميعهم، كما في أوقات ما قبل الكوليرا.

كان لابد من تنظيف العربة التي أُخلِيَت بالكامل وكشطِها -أولاً الأسقف، ثم الجدران، ثم المقاعد والطاولات في المقصورات، وأخيراً ألواح الأرضية- ثم تبييضها بعدة طبقات من الجير حتى يتمكن الركاب الأصحاء من الاستقرار مرة أخرى فيها. اقترح بوغ فِعْلَ ذلك من دون تأخير في محطة ساكساول، التي عُثِرَ فيها على برج ضخّ للماء كبير إلى حد ما. فاعترض دييف قائلاً:

- سننتظر نصف يوم آخر. وبعد ذلك سنغسل القطار بأكمله، حتى الزاوية الأخيرة - بماء البحر.

***

بمجرد أنْ أَطَلَّ بحر آرال في الأفق، تراءى لدييف أنَّ البحر ينسكب على الأرض من السماء. فقد انسابت زرقة السماء على زرقة الماء.

لم يقل شيئاً -لا للكبار ولا للأطفال- بل نظر ببساطة إلى الزرقة البعيدة، مما أعطى الفرصة لشخص آخر ليرى أولاً ويصرخ بحماس:

- البحر! إنه البحر!

فاشرأبّت الأعناق وتعالت الصرخات والهتافات -في البداية بالقرب من دييف، ثم أبعد وأبعد، وانتقلت من واحد إلى آخر. وراحت الحناجر ترتجف من الابتهاج، وتصرخ بكل طرق الكلام المُعجِز- لا يكفي أن تسمع، ولا يكفي أن تهمس أو تتكلم، يجب أن تغني، أنْ تصرخ، أنْ تخرج عن طورك:

- البحر! البحر! البحر!

انسكب سطح الماء على نطاق أوسع وأوسع على سهوب الخريف الحمراء -غمر الأفقَ المنظورَ وغمر كلَّ شيء. فتدفقت الزرقة على الأرض- أقرب إلى السكة الحديدية، أقرب وأقرب- كما لو كانت القضبان تنجذب إلى الماء. وسرعان ما قطع القطارُ العالمَ إلى نصفين: على جانب بقيت اليابسة، وعلى الجانب الآخر تقدّم الماء.

- البحر! البحر! البحر!

سار القطار «الضفيرة» ببطء على طول الشاطئ، فكادت الأمواج الشفافة تزحف تحت العجلات، تارة تخرج من الأعماق وتنتشر فوق الرمال الداكنة، وتارة تبتعد زاحفةً إلى الخلف، تاركة وراءها رقائق من الرغوة.

الأطفال -عند زجاج النوافذ، وعلى منصات العربات وعلى أسطح العربات- تابعوا حركة الماء الرتيبة: عدة أمتار إلى الأمام... وعدة أمتار إلى الخلف... ثم إلى الأمام... ومن ثم إلى الخلف... وخشعت الأصوات، لم يعد ثمة صراخ، بل زفير من أعماق الجوف، على نغمات إيقاع الموجات المتدحرجة:

- البحر! البحر! البحر!

لم يكن هناك أيّ أمر للسائق بالتوقف، ولكن عندما تباطأ القطار وتجمد

على القضبان، لم يتفاجأ أحد. إذ لا شيء آخر يمكن أن يحدث للقطار وسكانه الآن، سوى هذا التوقف عند البحر.

أحسَّ ديف بشدة أنَّ جميع مَن في القطار: الأطفال، والممرضات، وحتى السائق الذي لم يكن مرئياً لأيّ أحد - قد أحسّوا في تلك اللحظات جميعاً بالشعور نفسه. ذلك الشعور لا يوصف بالكلمات. ولا ينتقل عن طريق أي شيء، إلا عن طريق الصمت في مواجهة هذا الامتداد اللامحدود، الذي كان لعدة أسابيع حلماً بعيد المنال، والآن أصبح حقيقة واقعة.

نظر الأطفال بصمت إلى مياه بحر آرال الأبدية. كانت هذه الدقائق كثيفة وحلوة -لا تُنسى، مهما كان الشخص صغيراً أو ضعيفاً. إذ كان البحر يخاطب الناس- يخشخش بالموجة على الموجة، وبالموجة على الرمال. وينادي...

عرف ديف أنَّ الجميع سوف يلبّون نداءه، قبل ذلك لم يكن هناك سوى تنهد أو تنهدين. لكن لم يجرؤ أحد على أن يكون أول من يقفز إلى الشاطئ ويكون أول من يكسر حاجز الصمت. جاءت المساعدة مرة أخرى من كابينة السائق: هدرَ صفير البوق من دون انقطاع - إلى الأمام، إلى الأمام!

سقط الأطفال من الأبواب، كما لو أنَّ العربات انقلبت -قفزوا مثل البازلاء على الرمال، وألقوا القمصان البيضاء في الهواء. لقد سقطوا في البحر عراة- بعد أن مدّوا أذرعهم، وهم يصرخون ويحدقون، متناسين كل أنواع الإحراج أمام الممرضات. وتطايرت القمصان مثل الطيور نحو القطار، وهبطت على عوارض السكة وغطت عليها كالثلج. ومن أدغال الشاطئ، ارتفعت طيور حقيقية خائفة إلى السماء - اختلطت صرخاتها الخائفة مع صرخات الأطفال المجنونة، مما زاد من البهجة العامة.

ذهبت الممرضات إلى الماء بملابسهن: خلعن أحذيتهن ومشينَ في الأمواج -بعضهنَّ إلى الركبة، والبعض الآخر أعمق، ثم توقفنَ ومكثنَ مدة طويلة، يضحكن على الأطفال الصاخبين. اشتبكت التنانير المبللة بأرجل الممرضات النحيفة، وبلل الرذاذ شعرهن، مما أضفى على النساء مظهراً أخرق وغير مرتب- ولم يعد الآن ثمة شيء بالنسبة لدييف أجمل من هذه الوجوه المتعبة المغمورة بالماء وبدموع الفرح. صرخت الخياطة مثل خنزير صغير. وزوجة الكاهن مدت يديها إلى السماء، وألقت وجهها

للخلف، وتجمدت مثل العمود -أصبحت مثل فزاعة حديقة. ألقى الأولاد المشاغبون أمينة المكتبة في الماء، فراحت تصرخ من غير انقطاع، ثم نهضت على قدميها وهبطت مرة أخرى بفعل طاقة الأطفال التي لا تقهر. فأدرك دييف أنه يحب الجميع. ويسامح الجميع: زوجة الكاهن الخائنة، المفوضة المزعجة، الجد الرافض- كلهم.

سطعت تجاعيد شعر المفوضة من بعيد في البحر - فقد سبحت بيلايا بسرعة وبشكل متوازن، بحركات يديها الدقيقة وجَّهت جسدها أكثر فأكثر إلى الأعماق. أما بوغ، فعلى العكس منها، جلس بالقرب من الشاطئ ومد ساقيه. اصطدمت الأمواج بجسده الضخم مثلما تصطدم بالصخرة. واندفعت خلفه، على طول حافة الماء، ذئبة كابيتولين (الكلبة المُرضِعَة)، ملقية نوافير من الرذاذ وتُمسكها بحماقة بفمها الخالي من الأسنان. تدلَّت حلماتها الطويلة وكادت تصل إلى الأرض، ولاح في عينيها فرح الجراء.

الآن، عندما صار طاقم القطار بأكمله وجميع الركاب في البحر، وكلهم سعداء، كان بإمكان دييف أيضاً الغطس. مشى على طول الشاطئ باحثاً عن مكان لا يفور فيه الماء من أجساد الأطفال التي يعج بها، وعندما وجده خلع حذاءه وملابسه وألقى بنفسه في الأمواج.

كان الماء شديد البرودة وشفافاً جداً: رأى دييف كيف تناثرت، مِن غطسِ جسده الكبير، أجسام الأسماك على الجانبين على القاع الأخضر. لقد غطسَ تماماً في هذه المياه، فغسلت المياه جسده حتى آخر ثنية، وغسلت وجهه وجذور شعره. فتح شفتيه ليُدخل إليه هذه البرودة - فراح ملح آرال يطبطب في فمه. غاص في الطبقات السفلية الأكثر برودة، وغسل كل شيء مر به في الأسابيع الأخيرة ولم يرِد أن يرتفع. سبح مدة طويلة، وعيناه مفتوحتان، يراقب حركة الأعشاب البحرية في القاع، حتى دفعه البحر وقفز إلى السطح، وهو يلهث بسعادة، بعيداً عن الشاطئ.

هرع زاغريكا على طول الشاطئ وهو يتأوه. كانت عيناه تحدقان بثبات إلى سيده، ووجهه الذي لا يتحرك عادة يتلوى من الألم. عجنت قدماه الرغوة، تارة تتبعان أثر الموجة المتراجعة، وتارة تتراجعان عن التقدم.

ضحك دييف، وقال له:

- اسبح باتجاهي، يا أخي!

تعالت صرخات الأطفال وضحكاتهم فوق الماء وفي الماء، وغطَّت على جميع الأصوات الأخرى. توهَّجت شمس الظهيرة في عينَي دييف، وامتلأت شفتاه بمرارة الملح. فاندمج هذا كله (الضحك والملح وأشعة الشمس المبهرة) معاً في شعور بهيج غير مسبوق، لم يختبره دييف من مدة طويلة.

تناثر شيء ما بصوت عالٍ. استدار نحو الصوت ووجد أن زاغريكا لم يكن على الشاطئ، واضطربت المياه القريبة من مكانه بأمواج صغيرة وفقاعات: كان واضحاً أنَّ الصبي لم يستطع تحمل الفراق - اندفع إلى البحر نحو سيده وغرق إلى القاع، لأنه غير قادر على السباحة.

اندفع دييف إلى هذا الفوران، وألقى بيديه إلى الأمام، وغطس ونقَّب في الأعماق الباردة. فقبض على جسم صغير يرتجف وسحبه. وانسحب إلى اليابسة.

سقط زاغريكا على الرمال وراح يعوي ويسعل، ويدفع الماء الذي ابتلعه إلى الخارج.

ابتسم دييف، وقال:

- ها، قد سبحنا.

استلقى على الرمل -الساخن من الأعلى والبارد في الأعماق- وأغمض جفنيه.

سرعان ما هدَّأ الصبي أنفاسه، وزحف عن قرب وينفخ في مكان ما عند قدمي سيده، ثم هدأ أخيراً.

وجاء شخص آخر إليهم -هادئ ورشيق الخُطى- وجلس أيضاً بجانبهم. من خلال رموش نصف مُغمَضَة، رأى دييف رأس امرأة وضفيرتين طويلتين على كتفيها: إنها فاطمة.

قال لها دييف شيئاً لم يكن يجرؤ على إخبار شخص آخر به:

- ها قد وصلنا إلى بحر آرال. في بعض الأحيان لم نكن نصدق أننا سنصل إلى هنا. ولكننا وصلنا.

أجابت بغرابة، كما هو الحال دائماً:

- هنا تتواجد الفلامنغو الوردية. لونها مثل لون الفجر. هل يمكنك تخيل هذا؟

لم ير دييف وجهها، لكنه أدرك من صوتها أنها كانت تبتسم.

لم يعرف دييف ما إذا كانت هذه أسماكاً أم حيوانات أم حشرات. ولم يستطع تخيل حيوانات بلون الفجر. كل ما يمكنه فعله الآن هو الاستلقاء على الرمال الساخنة والاستماع إلى تنفس زاغريكا من جانب وصوت فاطمة من الجانب الآخر. كانت تقول شيئاً آخر، على ما يبدو، لكن دييف انجذب إلى النوم بشكل لا يقاوم، وبسبب ذلك بدا العالم كله محاطاً بغشاوة، أصبحت الأصوات بالكاد يمكن تمييزها.

خشخشَت حشائش الساحل في مهب الريح. وفي مكان ما من بعيد، صدحت أصوات الممرضات، وهنَّ ينادين من دون جدوى على الأطفال المرتجفين الذين يسبحون كي يخرجوا من الماء. وأبعد من ذلك، في القطار «الضفيرة»، رنَّت القدور - كان ميميليا يقلي السمك المملح المقطَّع.

والقطار «الضفيرة» نفسه منتصبٌ على القضبان، في انتظار أنْ يُغسَل. امتدت القضبان على طول حافة البحر كالخيوط الفضية. وفي الأمام، عبر مسافات بعيدة، ابتعدت هذه الخيوط عن زرقة البحر وامتدت إلى رمال صحراء قيزيل قوم البرتقالية. كانت تلك بالفعل أراضي جمهورية تركستان السوفيتية. بعبارة أخرى، تُرْكِستان.

الجزء الخامس

خمسمائة من جديد

كازالينيسك – آريس

امتدت الصحراء مثل المحيط. سار القطار على طولها لأيام وأيام – أيام بطيئة وطويلة بشكل لا يُطاق.

امتد أمام الأبصار في الصباح، وعند الظهر، وفي المساء، الأفق البعيد الذي يقسم السماء والأرض. كانت الشمس تتحرك في السماء، وعلى الأرض تتحرك الظلال. ولم يكن ثمة شيء آخر في الصحراء.

الرتابة اللامتناهية لهذه الأرض، التي لم تصبح رمالاً بعد، ولكنها أوشكت أن تصبح رمالاً، كانت مُتعِبة لدرجة الذهول: المناظر الطبيعية الداكنة، هي نفسها بالأمس، واليوم، وربما لمدة طويلة قادمة. نعم، كانت ثمة أعشاب هنا: في بعض الأماكن خيطت التربة بها مثلما تُخاط بالأسلاك (والأماكن التي لم تكن كذلك، تشققت فيها التربة وفاضت بالملح). كانت ثمة أشجار: شُطَب الطَّرَقَة وعَثَاكِيلُ الرِّمْث. وحيوانات وحشية أيضاً: أثناء التوقف، كان الأولاد يمسكون بالسحالي ويأكلونها؛ وكانت تومض أحياناً على الجذامير البارزة من الأرض ظلال سريعة لطيور أبو زُرَيْق والعصافير؛ وظهرت نسور –كانت تشاهد من الأعلى كيف يزحف القطار «الضفيرة» بعناد على القضبان، وتطير مبتعدةً مُحبَطة. ولكن حتى هذه الأعشاب والأشجار والحيوانات– كلها صغيرة، بالكاد يمكن تمييزها على اللوحة الواسعة للمنظر الطبيعي، الذي بدا كأنه رُسِمَ بلا مبالاة بقلم رصاص.

في كل مكان -غبار، وغبار، غبار داكن لامتناه: في العيون، وفي الشَّعر، وعلى الأسنان، وفي ثنايا الجسم، وبين أصابع الأقدام، على سطح الطاولة وعلى وجوه المُعاقين السقم الراقدين في عربة المستوصف. في بعض الأحيان لا يكون غباراً، بل رملاً- ليته كان على الأحذية فقط، بل كان في بعض الأحيان ينهال على القضبان، ثم يزحف، فيتطلب الأمر أنْ يُزاح بالمكانس اليدوية الصنع وبراحات الكفوف، حتى يُمَهَّد الطريق للقاطرة. غالباً ما كانوا يتنقلون على المسارات بهذا الشكل: الناس في الأمام، يَحْبُونَ على أربع، والعملاق الميكانيكي في الخلف - باعاً بعد باع، عارضةً من عوارض السكة بعد عارضة، حفنة من الرمل بعد حفنة.

حركة الحياة في اتساع هذا العالم الفارغ كانت صغيرة لدرجة أنَّ القطار «الضفيرة» وسكانه، الذين انتهكوا جمودها، بدا تعدّياً على الأبدية.

كان ثمة القليل من الألوان: مَلْوَنُ المنظرِ الطبيعي حدَّدَته مواقع النجوم والغيوم. عند الفجر، يتحول لون الأرض السوداء من الليل إلى اللون الأزرق ويتخلّله اللون الوردي، وأثناء النهار تتحول الأرض إلى اللون الأحمر في الشمس الساطعة، وعند غروب الشمس تنسكب عليها الزُّرقة - لكنها ظلت دائماً أرضاً داكنة اللون ومغبرة. كان دييف يتمنى أنْ يرى غابة: بقمم أطراف أشجارها الخشنة، وباضطراب الخُضرة فيها. أو أنْ يرى نهراً: بانحناءاته، وبتألق الموج فيه. أو يرى قرية صغيرة بها منازل مطلية، وقطيع من الأبقار، وشجيرة غُبَيْرائيَّة الورق!... ولكنه رأى فراغاً داكناً، أحياناً يرتفع قليلاً من خلال تل أو ينحني إلى أرض منخفضة، برتابة وسلاسة دائمة.

منذ الطفولة، شعر دييف بالمسافات البعيدة -لقد حددها بدقة متناهية، كما لو كان يقيس بمسطرة- وكان دائماً يعرف عدد الفراسخ التي اجتيزَت أو ظلَّت حتى نهاية الطريق. لكن في الصحراء، تعطل الجهاز الداخلي: فقد تخبطت عيناه من دون جدوى، بحثاً عن المعالم ولم يعثر عليها، كانت سرعة الحلزون محيرة. كان من المفترض أنْ يتحرك القطار إلى الأمام، ولكنه في الوقت نفسه بدا كأنه مغروز في مكانه، غير قادر على الاجتياز، والناس كأنهم عالقون في هذه الرحلة التي لا نهاية لها.

الخلاص، في المحطات الفرعية. أجل، غالباً ما كانت مهجورة. أجل، لا يمكن تمييزها بعضها عن بعض: زوج من الأكواخ، أحياناً رمادية اللون، وأحياناً مُبيَّضة، وبرج ضخ الماء مبني من الطوب الداكن والباب أزرق دائماً. ولكن على كل محطة -الاسم بالأحرف الروسية. وفي كل مرة اسم جديد. هذا يعني أنَّ القطار «الضفيرة» يشق طريقه إلى الأمام- فهو يخوض في الصحراء، ويتشبث بهذه الأسماء، مثلما يتشبث الغريق في المستنقع بحثاً عن نتوءات كي يمسك بها. أسماء المحطات: تشوميش، كاميشلي باش، كاراكووس، بدت مثل حفيف الرمال على الجذامير. وأسماء المحطات: باي خوجا، تيورا تام، خورخوت -مثل أفعى الجلجلة ذات الجرس عندما تنبض بذيلها. والمحطات: بيك باولي، دجوسالي، تشييلي- مثل صرير حشرة الزيز.

كل الأشياء غريبة.

جرى تسخين القاطرة البخارية في البداية بالحطب، الذي خُزِّنَ في بلدة أرالسك بوفرة. ثم بدأوا في جمع الرِّمْث على طول الطريق: تبين أنَّ هذه الشجرة المُلتوية صلبة ولا تصلح للتقطيع بالفأس، ولكنها تنكسر تحت الضغط الشديد، لذلك لا يمكن للأطفال ولا للنساء أنْ يجمعوها، ولا يمكن أنْ يفعل ذلك سوى دييف والمساعد الطبي وسائق القطار ومساعده. وخوفاً من اختفاء شُجيرات الرِّمْث قريباً، أعطى دييف أمراً بالتوقف وجمع الحطب في كل مكان يلاحظ فيه شجيرات متشابكة - وقد أدى ذلك إلى إبطاء تقدم القطار الحلزون البطيء حتى من دون ذلك. ولكن في المقابل امتلأت حجرة الوقود بالحطب بوفرة وارتفعت أكوام الأغصان شاهقة.

كما خُزِنَ الماء للقاطرة البخارية للاستخدام المستقبلي. لا يثق دييف كثيراً بناظري المحطات المحليين -خاصة أن نصف المحطات كانت غير مأهولة وقد لا يكون ثمة ماء في أبراج الضخ على الإطلاق. ولهذا استعار دييف في بلدة كازالينسك خزاناً صدئاً للنفط على عجلات. أو بالأحرى، استأجره من مدير المحطة- مقابل كؤوس الشمبانيا والأطباق المذهبة الأخرى التي تكثّف عليها الغبار في المطبخ الميداني منذ بلدة سفياجسكي. وقد وعد بإعادة الخزان في طريق العودة. فسكب المدير، الذي طمع

بالأواني الخزفية المُزَخرَفة وبالملاعق الفضية، لدييف بضع حفنات من الصودا لإزالة الصدأ من العجلات، التي ظلت ثابتة من دون حراك من مدة خمس سنوات إنْ لم تكن من عشر سنوات كاملة. كانت تنبعث من الصهريج رائحة النفط الفاسد والبول لسبب ما، لكنه احتفظ بالماء بشكل صحيح: لقد ملأوه حتى الفتحة وربطوه بنهاية القطار، وأغلقوا الفتحة بإحكام -ليكون بمنزلة احتياطي مصون. أصبح القطار «الضفيرة» أطول، وصار دييف- أكثر اطمئناناً.

الماء الصدئ والرِّمْث -هذا كل ما كان موجوداً بكثرة. لم يكن هناك طعام. كان من السخف السؤال عن المؤن في المحطات نصف المغطاة بالرمال، التي حبذا لو عُثِرَ فيها على رجل ضئيل كئيب، مع زوج من الأغنام الجرباء في الزريبة وخمسة من الديوك الرومية النحيلة تعيش في المنزل. كان الطعام الرئيس عادةً عبارة عن خبز يابس لا يمكن أنْ يأكله البشر، والجبن القريش المجفف المتحجر ولحم الضأن المجفف في العصي- اشتُرِيَ كل شيء للاحتياط، قبل شهر، في أسواق البلدات المجاورة، وحُفِظَ في صناديق، قَفَلَها أصحابها على الفور بالقفل والمفتاح عند رؤية الأطفال يتدفقون من القطار.

أما المدن فلا تحمل سوى مُسَمّى المدينة، لكنها في الحقيقة مجرد محطات أكبر، يأتيها من وقت لآخر مختلف الناس من الصحراء، يضربون الخيام أو ينصبون الفساطِيطَ المخططة ويتجولون لمدة يومين، يبيعون ويشترون، في كثير من الأحيان يتقايضون، وفي أحايين أكثر يحدّقون فقط. في أكثر الأحيان لم يكن في مثل هذه الأسواق سوى قبعات رثة من جلد الغنم، ووسائل قديمة لشدّ الدواب، ووبر إبل منفوش. ولم يكن فيها طعام يُباع. تماماً مثلما لم يكن في المدن مجلس مدينة، ولا شرطة، ولا فرع من اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب، الذي يمكن لدييف أن يذهب إليه حاملاً تفويضه المتهالك تماماً ويطلب على الأقل شيئاً ما. وحتى إنه أحياناً لم يلتقِ في المحطات بأناس يمكنهم قراءة هذا التفويض.

لقد أكلوا منذ مدة طويلة الدجاجات اللاتي حصلوا عليها في بلدة

سفياجسكي، ولم تبقَ منها سوى المجاثم في زوايا عربة الموظفين. وفي صناديق المطبخ، تلاشت ببطء بقايا الأسماك المجففة -هدية القوزاق: في البداية خصصوا نصف سمكة لكل فم كل يوم، ثم ربعاً، ثم أقل. كان ميميليا المُقتَصِد يخلط كل شيء في الحساء: القشور، والخياشيم، وزعانف الذيل، ويطحن عظام السمك ويسلقها عدة مرات لكي يضعها في الحساء. رائحة الحساء الدائمة (رائحة الملح والماء العفن وزيت السمك) الذي تناولته الممرضات لمدة أسبوعين جعلت بعضهن الآن يشعرن بالغثيان. لكن دييف لم يشعر بالغثيان- فقد توقف منذ مدة طويلة عن الشعور بمذاق الطعام. وراح يفكر: عندما ينفد السمك، ستشتاقون إلى رائحته النتنة. وسرعان ما نفد السمك.

جرَّ القطار «الضفيرة» نفسَه على القضبان المغطاة بالرمال -متقدماً إلى الأمام في أعماق الصحراء أكثر فأكثر- من دون رطل من المؤن ومن دون حفنة من الملح. كان الماء يطبطب في براميل الشرب، ولكن صار يُقاس في نصف كوب ويُعطى وفقاً لجدول زمني دقيق. كان الجميع يعلم أنه لا يوجد مكان هنا يمكن الحصول منه على الطعام. وعد دييف الأطفال: «سوف يُوَفَّر الطعام عندما تتراءى لكم الجبال». ما الذي يجعله يعتقد أن الجبال أكثر سخاء من الرمال؟ ولكن كان لابد من الوعد بشيء.

كان هذا الطريق كأنه منقرض. لم يجرِ قطار واحد على طوله، ولكن أحياناً كان مسافرون قليلون يطفون كظلال خافتة على طول المسارات. مهما أبطأ القطار «الضفيرة» من زحفه، ومهما طالت المدة التي وقف فيها في المسافات بين المحطات، في انتظار الرجال الذين يكسرون شُجَيرات الرِّمْث، لم يلحق به قطار واحد ولم يلتقِ به في الطريق قطار واحد. كانت تظهر على طول الطريق شجيرات، مزروعة للحماية من الرمال -لا هي من أشجار الشيح، ولا الأكاسيا، ولا الأَرْطَاة، وحتى ليست من النباتات على الإطلاق، بل مجرد هياكل لنباتات في نُثار من الأشواك السوداء. وكانت أحياناً تتراءى عظام بيضاء لحيوانات بين هذه الشجيرات. ولو لم يكن دييف يعرف على وجه اليقين أنَّ هذه القضبان تؤدي إلى طشقند- إلى «مدينة الخبز»، كما صارت تُدعى في روسيا الجائعة، إلى «المدينة السماوية»،

إلى «أرض الميعاد»، التي يسعى إليها، في الحلم واليقظة، مئات ومئات من الجوّابين، - ولو لم تمتد هذه القضبان إلى طشقند الرائعة، التي تتوارى خلفها في الجبال سمرقند الأكثر روعة، لما قاد دييف القطار على طول هذا الطريق الميت.

وحتى الجوّابون عرفوا أنَّ القضبان تؤدي إلى طشقند -فقد صدَّ دييف الكثيرين منهم في المحطات، حين حاولوا التمسك بالقطار، بطلب صادق أو خفيةً. أكثرهم يأساً ساروا مشياً على الأقدام عبر الصحراء، على عوارض السكة- وكثيراً ما كان القطار «الضفيرة» يتجاوز هؤلاء المجانين، شبه الأموات من الجوع والعطش. دييف لم يأخذ معه الكبار في القطار. فقد كان يأخذ الأطفال فقط. وبيلايا لم تعارض: إذ لم يتبق طعام، وليس بمقدور القادمين الجدد أكل حصة أي شخص.

هذه الأماكن التي تواجد فيها -الأطفال المشردون الذين تحدث عنهم مفتش أورينبورغ! بلدات تورمين توبي، تارا أوزياك، ساوران- في كل مكان كان هناك أطفال، وأطفال، وأطفال، فُرادى وزُرافات، ما زالوا يمشون أو مستلقين من شدة الإرهاق. أخذ دييف الجميع. لم يكن بالإمكان إطعام الأطفال الذين قُبِلوا في القطار، ولكن كان بالإمكان سقيهم الماء ووضعهم على الدِّكاك، وتشجيعهم بوعد بعدم التخلي عنهم.

في بلدة جالغاشا رأوا عائلة: أباً وأماً كانا مستلقيين على جانب الطريق في ظل عربة خشبية، ورضيعَين توأمين يزحفان بالقرب منهما على طول القضبان. أراد دييف أن يوبخ الوالدين بسبب الإهمال، لكنه لم يستطع -لأنه وجدهما كليهما ميتَين. فنُقِل الرضيعَان إلى عربة الأطفال الرضّع، وأخذ العربة إلى حجرة الوقود- بمنزلة احتياطي من الخشب.

وبعد ذلك بمسافة بعيدة، خلْف بلدة «كزيل أوردا»، التقوا عائلة أخرى: كان يجلس على القضبان شيخٌ آسيوي وزوجاته الأربع، الملتحفات بالسواد، تحت أغطية شعر سوداء. عندما رأى العجوز القطار يتأرجح من بعيد، نهض بصعوبة -لم يكن قادراً على الوقوف على قدميه من الإرهاق- وبدأ يدفع النساء بعيداً عن القضبان بعصا. لسبب ما، عاندت النسوةُ، ولم يرغبن

في النهوض، لكنهنَّ أطَعْنَه في الآخر، وابتعدن بضع خطوات وتجمدنَ مثل الأعمدة.

عندما نظر إليهم دييف من سطح عربة الموظفين، لم يستطع التخلص من الشعور بعدم الارتياح: كان ثمة شيء غريب في هذا المشهد، المعتاد في المناطق المحلية. ليس لأن الآسيوي ضرب نساءه؛ وليس لأنّ أولئك الزوجات كُنَّ مربوطات معاً بحبل سميك يمتد من خصر إلى خصر -فقد كانت قسوة الأزواج المحليين معروفة. لكن، ربما، لأن هؤلاء النساء، الأربع جميعاً، عندما رأين القاطرة البخارية، وقفن ورؤوسهن مرفوعة- وهذا ليس مألوفاً بين النساء الآسيويات. إمّا لأنهنَّ كُنَّ صغيرات القامة جداً. أو لأن ساق إحداهن خرجت عن غير قصد من تحت حافة الثوب - لم تكن تنتعل قبقاباً خشبياً أو جلدياً، بل حذاءً مُحاكاً من الحبال...

قفز دييف من سقف العربة وذهب إلى العائلة الغريبة، وأخرج المسدس وهو يمشي. لوَّح العجوز الخائف بعصاه، دافعاً النسوة إلى مسافة أبعد في الصحراء، لكنهن سقطن على الأرض وصرخن -بأصوات توسلٍ رقيقة، باللغة الروسية. قتل دييف الرجل الآسيوي. فخلعت النسوة أغطية الرأس فاتضح أنهن فتيات يبلغن من العمر حوالي اثني عشر عاماً، ذوات ضفائر بشعر أشقر، وخدود غائرة. جميعهنَّ من سكان الأورال، وكلّهنَّ اشتُرِينَ من آبائهنَّ في السوق في بلدة أورسك مقابل الزبيب والمشمش المجفف. وكنَّ متجهات عبر بخارى إلى مدينة مشهد- لِيَكُنَّ بمنزلة حريم (إماء).

أُلحِقَت الفتيات بعربة البنات في القطار. وقد عُثِرَ عند الرجل القتيل في حقيبة كتفه على أرغفة من الخبز وقطعة من لحم الحصان المجفف. فوزّعَ الخبز على الأطفال الصغار واللحم -لم يكن سوى قطعة صغيرة بحجم الكف!- فأعطوه إلى الكلبة المُرضِعَة: كان دييف يخشى كثيراً من نضوب الحليب من الكلبة المُرضِعَة بسبب سوء التغذية.

***

الركاب الجدد لم يكونوا أطفالاً، بل مجرد ظلال أطفال. سلبهم التجوال

الطويل كل قوَّتهم: كان اللقطاء ضعفاء ووديعين، سعوا للاختباء في مكان ما في الأركان، أو استلقوا على الأرضية، أو حتى على وسادة الفرامل، مُحرَجين من شَغلِ مقاعد الركاب. لم يرفعوا أصواتهم، ولم يطلبوا الطعام، وحتى الماء كانوا يشربونه بالكمية وفي الوقت الذي يُعطَون - باختصار، لم يسببوا أي مشكلة. لكنَّ منهم مَن كانوا يموتون في بعض الأحيان.

أخطأ دييف في حساب عدد الأشخاص الذين قبلهم في القطار وعدد الذين ودَّعَهم. كل يوم كان يستقبل عدداً من الركاب -مرةً يستقبل واحداً فقط، ومرةً حتى عُصبة. وفي كل يوم كان يأتيه خبر بغيض عن موت أحدهم- سواء من الركاب القدامى في القطار «الضفيرة» أو من المستوطنين الجدد.

وباتَ حفر القبور نشاطاً يحدث كل ليلة، وحسنٌ أنَّ تربة الصحراء رخوة: يختلط فيها الرمل مع الحصى. كان العمل يُنجَز بسرعة، ويمكن للمرء حتى أن يقول إنه أُنجِزَ بسلاسة، فقد اعتاد دييف وبوغ على ذلك العمل ليالي كثيرة. كانا أحياناً صامتَين، وفي بعض الأحيان يتحدثان، بل حتى كثيراً - ولكن ليس على الإطلاق عما كانا يفعلانه.

تحدَّث المساعد الطبي أكثر: فقد استذكر الحالات الصعبة أثناء ممارسة عمله، أو كيف قاتل مع الجيش ضد الأتراك («حينما كان بعدُ شاباً بلا شارب»)، أو ضد اليابانيين («هذا بعدما غزا الشيب شاربه»)، أو خلال الحرب الأهلية الأخيرة. أكثر أحاديثه كانت عن الخيول: عن كيفية علاج أمراض الخيل، وعن كيفية مساعدة الفرس أثناء الولادة، وحول أوجه القصور لدى الخيل الأصيلة، وكيف قابل ذات مرة قطيعاً من الخيول الشعثاء الصغيرة في السهوب المنغولية وأطعمها الملح بيديه، فكانت الخيول تأكل من يديه بلا خوف، ولهذا حصل بوغ على لقب شامان الخيل.

في هذه الأحاديث لم يكن ثمة ازدراء للعمل الذي كانت أيدي المتحاورَين مشغولة به. على العكس من ذلك: فلو لم يكن فماهُما ورأساهما مليئة بالحديث عن الأشياء البسيطة والمبهجة، لما تمكّنا من إكمال الشغل الصعب المُلقى على عاتقيهما. استمع دييف إلى أحاديث الجَدّ بامتنان: السعادة التي لا يمكن للمرء أن يفكر فيها ليست متعلقة بالجسد الصغير الهامد المُمَدَّد

على بعد خطوتين وينتظر الدفن، بل متعلقة بالحيوانات ذات الشعر الغريب، وأنْ تتخيل كيف تصل أبوازها المستديرة المنفوشة إلى يد الجد وتنتزع منها بعناية حبّات الملح اللامعة... هذه الأحاديث كانت مثل كأس من الفودكا، الذي يمكن له أنْ يخفف أيَّ ألم. ومثل المورفين للروح أحياناً.

في لحظات الصراحة الخاصة، كان شيء ما يدفع دييف إلى السؤال عن فاطمة: هل حقاً تعشقها، يا جدي، أم أنَّ ذلك يُخَيَّل لي بسبب عينَيَّ المُتعَبتين؟ فشَعرُك من الشيب مثل لون القمر! وهي أصغر منك بمرتين! ولكنه لم يسأل، رَفقَ بِحالِ صاحبه. وفَهِمَ: إنَّ هذه الغيرة الغبية تنتابه وتشده من لسانه. فالموضوع حساس للغاية.

ذات مرة سأله عن شيء مهم:

– هل أنت غاضب مني فعلاً لأنني أصطحب الأطفال في القطار؟

لم يجب بوغ مدة طويلة.

آه، عبثاً أثار دييف الموضوع! ولكن العمل بالمجرفة في صمت كان أكثر صعوبة. فقرر الإجابة:

– أنا أشفق عليك، يا حفيدي.

– وهل أنا مريض، حتى تشفق عليَّ؟

– المرضى لا يُشفَق عليهم، بل يُعالَجون. وهذه أول وصية للطبيب. ولكنك، أنت، لا يمكن معالجتك. فأنت مشلول.

– بمَ أنا مريض؟

إما أنَّ دييف لم يفهم، أو أنه شعر بالإهانة، وحتى توقف عن الحفر. فهزَّ بوغ كتفيه، وقال:

– أنت مريض بمرض الحرب. مريض بهذا الزمن الذي يطحن اللحم. كيف يمكنني أن أعرف؟ أنت لا تقول أي شيء عن نفسك. فأنا بطبيعتي إنسان غير ثرثار، ولكنّي خلال هذه الأسابيع حدَّثتك عن كل شيء: عن خدمتي، وعن حلمي في أن أصبح طبيبَ خيول. لأننا، أنا وأنت، بشر ولسنا ساقي شجرة مُلقاتين بعضهما بجانب بعض في كومة من الأخشاب. وأنت

-على ما يبدو بسيط، مثل عشبة على جانب الطريق- ولكنك في الواقع معقّد للغاية! لم تقل كلمة واحدة عن نفسك.

هذه حقيقة. كم مرة حاول دييف أيضاً أن يحكي شيئاً عن ماضيه وأعد بداية صادقة للحوار: «هل تتذكر، يا جدي، كيف كان الشتاء في عام تسعمائة وعشرين ثلجياً؟» أو «لم أرَ قَط مثل ذلك العدد الكبير من الأشخاص كما في أغسطس (آب) من عام واحد وعشرين. هل كنت تسكن في قازان وقتها، يا جدي؟» لكن في كل مرة كأنّ شفتيه تلتصقان بعضهما ببعض، ويشعر بالرعب من التحدث عن نفسه.

فتابع المساعد الطبي، قائلاً:

– الإنسان الطيب لديه روح مثل التفاحة الطازجة، قوية وذات صدى. والوغد روحه مثل تفاحة فاسدة من جهة، لكنها في الحقيقة مُتَعَفِّنة كلها. وروحك ليست تفاحة، بل ملفوف (لهانة): من أيّ جانب اقتربت منها، لا تجد سوى الأوراق، والأوراق، فلا تستطيع أنْ ترى أهم شيء فيها، الجوهر.

ضرب دييف الكتل الترابية المرنة بشفرته، فانهالت كالدقيق. فدفعه الشيطان ليسأل! من الأفضل التحدث، كما في السابق، عن ترويض الأمهار الصغيرة وتقليم حوافر الخيل. وفجأة انتابته رغبة بأن يُلقي بالمجرفة ويهرب بعيداً، ويغوص في الظلام ويختفي قبل أن ينطق بكلمات أخرى، أكثر صدقاً وأكثر إيلاماً.

– أنظر إليك، فأراكَ فتى. ومع أنك خضتَ الحروب واستنشقتَ رائحة البارود، لكنك ما زلتَ فتى -مُتَوَقِّداً، صادقاً، أحمق قليلاً. وأحياناً أنظر إليك، فأراك- رجلاً عجوزاً. أنت لا تعرف وجهك، عندما نعمل، أنا وأنت، حفارَي قبور. في الجيش رأيتُ ما يكفي من الجنائز وما يكفي من وجوه دافني الجنائز أيضاً. الإنسان العادي -سواء كان جندياً أو حتى مدنياً- يخاف الموت ويرفضه، وهذا الخوف وهذا الرفض دائماً ما يكونان واضحين في عينيه. الشيوخ الهرمون فقط، الذين سئموا العيش، لا يخافون. وأنت أيضاً لا تخاف. إنك عندما تُنزِل الأطفال في القبر، تبدو كما لو كنت تضع نفسك معهم.

تحدث الجد ببطء، وكشف أفكاره بعناية أمام محاوره.

– أو عندما أنظر إليك من الجانب الآخر، أراكَ لطيفاً طيباً، ليس ثمة مَن هو أطيب منك: تُسقي السقم المُقعَدين الهلام في الصباح، وتؤوي الصغير الأحمق تحت سريرك، وتحمل الأولاد المشردين في القطار لكي تنقذهم من الجوع. يسع لطفك ثلاثة. ولكن الكراهية فيك، يا حفيدي، ليست تَسَعُ حتى ثلاثة، بل تَسَعُ أكثر من عشرة. إنك تحتفظ بهذه الكراهية في داخلك، وتعصرها، لكنها على كل حال تتسرب إلى الخارج. فيتضح أنَّ لديك: تحت الحب –غضباً؛ وتحت الفتوة– شيخوخة؛ وتحت القوة والقدرة على القيادة – ضعفاً واضطراباً نفسياً. كأنك أوراق ملفوف (لهانة)، لا تعد ولا تحصى.

وبدا لدييف للحظة أنه يقف عارياً ويخجل من هذا الموقف بشدة.

– حسب رأيك، أنا مزدوج الداخل، أليس كذلك؟ شخص سيئ؟

أمسك بجثة الطفل وبدأ يُنزِلها في الحفرة المُعَدّة، لكنه أمسكها بارتباك، وأسقطها، فاضطر إلى التوقف قليلاً، ثم وضَعَها بإتقان أكثر.

– لا أعلم. إنك ترى داخلك بشكل أفضل مما أره أنا.

– ماذا ترى من الخارج؟

– من الواضح، أنَّكَ كنت ستَطردنا، أنا والمفوَّضة من القطار، ولن ترمش لك عين، لو لم نسمح لك أنْ تُركِب الأطفال المشردين. وأنك كنتَ مستعداً للموت في سبيل الحصول على اللحم في مركز استلام الحبوب والمحاصيل الزراعية. وكنتَ على استعداد لأن تخنق مفتش أيّ محطة إذا ما منع القطار «الضفيرة» من مواصلة السير. وكل هذا ليس مدفوعاً من الشعور بالواجب، ولا بالفكرة، ولا بالعمل الخيري، بل مدفوعاً من الشعور باليأس الشديد والألم الشديد. أنت في هذا القطار، لا تنقذ الأطفال، بل تنقذ نفسك. إنقاذ الأطفال يحصل اتّفاقاً فحسب. هذا بالذات ما أراه.

باشر دييف باستعمال المجرفة ليهيل التراب في القبر. تخبَّطَ يائساً، مثلما يتخبّط المرء أثناء الحريق: جعل يغرف كُتَلاً أكبر ويرميها، ويغرف ويرمي – كانت الأرض الجافة تخشخش بصوت عالٍ.

– وكذلك يمكن للمرء أنْ يرى فيكَ، أنك اليوم تقود قطاراً مُحَمَّلاً

بالأطفال إلى تُركستان، وغداً ستُعدم فصيلاً من القوزاق رمياً بالرصاص. تُنقذ بيدٍ وتقتل باليد الأخرى.

- أنا لا أقتل بل أعاقب أعداء الثورة! الآن الجميع يعيشون بمثل هذا الشكل.

وافق بوغ:

- كثيرون يعيشون بهذا الشكل. ولكن ليس الجميع. من يعيش بهذا الشكل، إنما يقول عن نفسه إنه مشلول. وهؤلاء مَن أشعر بالشفقة تجاههم.

لم يتمالك دييف نفسه، فسأل:

- والرفيق دزيرجينسكي؟

كان الجميع يعلم أن رئيس اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب، الرفيق دزيرجينسكي، الرهيب كان مسؤولاً أيضاً عن لجنة الأطفال التابعة للجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا، والتي جرى بموجبها تشكيل قطارات الإخلاء وتسييرها في جميع أنحاء البلاد. بما في ذلك القطار «الضفيرة».

جثا بوغ على ركبتيه وساعد دييف بيديه على جمع التربة، وأجاب بشكل غير لائق:

- لن أشترك لاحقاً بأيٍّ من قطارات الأطفال. عندما نصل إلى سمرقند، سأعود على متن أول قطار إلى قازان - إلى الأكاديمية العسكرية، إلى الخيول.

***

صار «الضفيرة» قطاراً هادئاً. ذات مرة تفاجأ دييف بالصمت في عربة المستوصف، الآن حلَّ الشيء نفسه في القطار بأكمله. وكادت الأصوات الوحيدة فيه تقتصر على قعقعة المعدن في باطن الماكنة وصفير البخار من المدخنة، وصليل العجلات وصدمات العوائق عندما يتدحرج القطار على القضبان. ولكن بمجرد توقّف المحرك البخاري وانقطاع الحياة الميكانيكية، يخدَر القطار «الضفيرة». لم تصدح أصوات الأطفال في العربات - لم يعد

الأطفال يغنون ولا يشتمون ولا يصرخون بقصائد مضحكة. ولم تعد الممرضات يلعَنّ، ولا القدور في حجرة المطبخ تجلجل. ولا فاطمة تنشد في الليل تهويداتها للرّضَّع. خيَّم الوجوم والصمت على سكان القطار، اقتصاداً بالطاقة حتى في الحديث، وحتى في الابتسامات والنظرات.

لم يأكلوا شيئاً منذ ثلاثة أيام.

كان معظم الأطفال يرقدون على المقاعد، وينظرون إلى الحائط أو إلى السقف: المنظر من النافذة (أرض جرداء لا حدود لها) يبعث على السأم والكلل. لا يزال الكبار يجدون القوة في أنفسهم لأداء الأمور العاجلة -لتنظيف القضبان من الرمال، وتكسير الرِّمْث، ونقل دلاء الماء من الصهريج إلى القاطرة البخارية- ولكن هذه القوة كانت على وشك النفاد.

الممرضة الخياطة أغمي عليها مرتين. وأمينة المكتبة السابقة تعاني من الألم. وراحت زوجة الكاهن السابقة تردد الصلوات، في كثير من الأحيان وبصوت عالٍ – لم تُثنها عن ذلك تهديدات بيلايا ونصائح دييف. ومرضت الفلاحة: استلقت على المقعد مثل جذع شجرة، بصمت، لكنها كانت تتنفس بصعوبة مما استُدعي نقلها إلى عربة المشفى حتى لا تثير الرعب لدى الأطفال.

قرر الأولاد أن يأكلوا العشب: اقتطعوا حُزَماً جافة من تلك التي توجد على طول القضبان، ومضغوها، وحوّلوها إلى عصيدة، ثم ابتلعوها. نهاهم المساعد الطبي عن ذلك، لكنهم ظلوا يمضغونها. مضى أقل من يوم، حتى أصيب ثلاثة منهم بالمغص. لم يأخذ بوغ المرضى إلى عربة المستوصف؛ وقرر أنْ يُترَكوا في العربات، حتى يثني منظرهم البائس الأطفال الآخرين عن مضغ الأعشاب.

غادر غريغا ذو الأذن الواحدة القطار مع خمسة من رفاقه في الليل –من دون أن يخبروا أحداً ومن دون أن يقولوا وداعاً. لقد غادروا بالقمصان التي تعود ملكيتها للحكومة، لكنهم لم يأخذوا أي شيء كتذكار، لا من المطبخ ولا من المستوصف. وفي الصباح، بحث دييف وبيلايا في المناطق المحيطة، لكنهم لم يتمكنوا من العثور على آثار لهم على الأرض الممتلئة

بشجيرات الشيح. بعد يوم واحد، تم العثور على الهاربين على رفوفهم- قذرين تماماً وعلى أجسادهم خدوش، وقمصانهم ممزقة؛ على ما يبدو، لحقوا بالقطار، في الليل أيضاً، على عوارض السكة، وشقوا طريقهم إلى الداخل بشكل غير محسوس.

البنات بدأنَ يتكتّلنَ في مجموعات: استلقين على المقاعد ثلاثَ ورُباع، والتصقنَ بعضهنَّ ببعض ليتدفّأنَ جميعاً. لم يتكلمنَ، غَفونَ أكثر، لم يبكينَ.

وحتى الرُّضَّع لم يبكوا. مصّوا أصابعهم، ووضعوا أكفّهم بالكامل تقريباً في أفواههم. ومضغوا أطراف قمصانهم. وبإذعان بليد التصقوا بفاطمة، وتشبث بعضهم بجلد الكلبة المُرضِعة الدافئ. كانت الكلبة مستلقية على الأرض مثل الجيفة، من دون حركة واحدة، بعينين مغمضتين. ومن وقت لآخر كانت فاطمة تسقيها الماء وتقلبها من جانب إلى آخر. وغالباً ما تلصق الرضيع الكتكوت إلى الكلبة: ليمتص شيئاً ما ينزف من حلماتها المتهالكة، فيتغذى به. لاحظ دييف هذه الصورة، وهو يغادر المقصورة أو يعود إليها.

في الآونة الأخيرة، شعر دييف كيف أنَّ جسده، المحروم من الطعام، يغدو بسرعة أكثر خفّة. والمثير للدهشة أنه أصبح يصعب تحريك هذا الجسم الخفيف. وصعُبَت عليه الحركة في القطار أثناء الجولة التفقدية. وصعُبَ عليه الذهاب لتكسير الرِّمْث، وجرف الرمل من المسارات. والوثوب إلى سطح العربة. كل شيء أصبح صعباً.

كان التفكير أصعب شيء بالنسبة لدييف: لم تعد جمجمته جمجمةً، بل برميل من العجينة، تتقلب الأفكار فيه بشكل أخرق، وتلتصق بعضها ببعض، قبل أنْ تخرج الفكرة حتى النهاية. كان التمسك بالأفكار القديمة وغير المفحوصة أسهل بالنسبة إليه من ابتكار أفكار جديدة. وقد فعل ذلك، فأنقذ قوته. ولكن في بعض الأحيان لم يكن هذا كافياً، لذا تحتَّمَ عليه أن يعصر ذلك البرميل ذا العجينة في راحة يده ويهزه هزّاً شديداً، ليفصِل المخاوف والمتاعب والرغبات عن الواقع.

الفكرة الرئيسة: نحن ذاهبون إلى سمرقند. وأنّها موجودة.

وثمة فكرة أخرى مهمة: سيظهر الطعام عندما نرى الجبال. وعد أحدُهم

دييفَ بهذا، شخصٌ ذكي وواسعُ المعرفة. مَن هذا، يا ترى؟ ذلك غير مهم. المهم: رؤية الجبال. الوصول إليها، والزحف نحوها. ألا تُرى الجبال في النافذة؟ كلا، لا تُرى.

وهذه فكرة جديدة، وبالتالي ليست سلسة وممتعة مثل الأفكار القديمة: ينبغي الاقتصاد بالحطب. الحطب -لتسخين القاطرة البخارية فقط. ولهذا السبب من اليوم سوف نوقف تسخين البطاريات (المُشعّات) في العربات. ولكن، ماذا لو كان الجو بارداً في الليل؟ هل تريدين، أيتها الأخت، أن تنعمي بالدفء، أم تريدين الوصول إلى سمرقند؟ لذا آمُرُكُم بالاقتصاد بالحطب. قاعدة رئيس القطار- القاعدة رقم... نسيتُ رقم القاعدة.

بدأت تقلصات في معدته. لم يخبر أحداً عن ذلك. وعندما صارت التقلصات تحت الأضلاع، استدار وانتظر. وجعل يحدث نفسه: إذا كان ثمة شهود، حاول ألّا تلتوي كالقوس ولا تشد قبضتيك. لم ينجح الأمر دائماً.

لم يعد الوقت يتدفق مثل الدفق، بل انقسم إلى أحداث، ومحادثات في بعض الأحيان، وشظايا من الأفكار. قبل قليل كان جالساً على السطح، وينظر إلى الخطوط العريضة للقمم البعيدة، وإذا به في عربة المستوصف، مع بوغ يسقيان المقعَدين الماء، ويغسلان الغبار الداكن من وجوههم. قبل قليل كان يتجادل فحسب مع سائق القطار ألا ينبغي للقطار «الضفيرة» أن يتحرك في الليل، ثم إذا به في مقصورته مستلقياً بلا حراك ويحدق في تنجيد السقف، كما لو لم تكن هناك أشياء أكثر أهمية كي يفعلها. تومض أجزاء من الحياة مثل نوافذ قطار سريع الحركة. بين المسافات - فراغ.

ومضةٌ واحدة. ظهر أحد الأولاد الجدد: دعونا نأكل الكلبة التي تعيش مع الرّضّع، إنها عجوز. لا بأس، وافق ديبف على الفكرة، لكن قبل ذلك سوف نأكلك. اسمعني جيداً، يا صاحب الاقتراح. إذا ما حدث حتى خدش واحد للذئبة المُرضِعَة أو سقطت خصلة واحدة من شعرها، فلن نبحث عن المذنب، وسوف نطردك من القطار، وحتى... هرب الناشط، ولم يستمع لخطاب القائد البطيء.

ومضةُ أخرى. «هل صحيح أنَّ البرجوازيين يسخّنون القاطرات

بالقمح؟» (هذا ما سألته الطفلة النحلة عندما مرَّ دييف من جانبها.) فأجابها دييف معترفاً: «لم أرَ ذلك بعيني، ولكن، ربما، كان ذلك صحيحاً». -«هل ستقتلهم عندما تقابلهم؟»- «سأقتلهم، أعدُكِ». وللتأكيد، أخرجَ المسدس من جيبه، وفتح البكرة، ولفها أمام عيني الطفلة: انظري - إنها ممتلئة، بسبع رصاصات. فيلاحظ أنَّ السلاح يرتجف في يده.

وهذه ومضة أخرى. «يا دييف، هل أكلت عنباً ذات مرة؟» -«لم يحدث لي ذلك». (هذا ما تحدث عنه مع يوسيا تراخوما.)- «يُقال إنها ثمرة معجزة. حبة العنب الواحدة تشبع ليوم كامل». «إذا قيل ذلك، فهو صحيح. لذلك، أولاً وقبل كل شيء، سنبحث عنه في سمرقند. فنحن، على كل حال، ذاهبون إلى سمرقند. إنها...»

وفقاً لحسابات دييف، سار بهم القطار من بحر آرال ما لا يقل عن ثمانمائة فرسخ. لذا يجب أن تظهر الجبال اليوم أو غداً. قريباً جداً. خلال ساعة واحدة. أو اثنتين. أو بحلول المساء. لكن لم تكن هناك جبال.

سخرت الصحراء: لم تنحنِ التضاريس -ولو قليلاً!- كي تعد بسفوح الجبال، بل امتدّت منبسطة إلى ما لا نهاية، على مَدّ البصر. تبرز منها نتوءات صغيرة مغطاة بالحصباء ومكسوة بشجيرات الشيح، بعيدة كل البعد عن أنْ تُسَمّى تِلالاً. وتلمع فيها مستنقعات ملحية كالأطباق الضخمة. كانت الأرض حول هذه المساحات خشنة بعض الشيء، ودفعتها الرياح الهابّة مثل الثلج المنجرف. لم يكن ذلك تراباً، بل رمل.

ولم تصادفهم أيّ بنايات منذ مدة طويلة: بقيت المحطة المسماة أريس بعيدة في الخلف، ولم تظهر غيرها حتى الآن. ساروا فرسخاً بعد فرسخ، ولكن ليس ثمة محطات.

- أيها الرفيق، رئيس القطار، الحطب آخذ في النفاد.

- سخّن القاطرة إلى أنْ ينفد!

لا توجد حتى أجمات من شجيرات الرِّمْث.

فرسخ، وفرسخ آخر...

أخرَجوا كل شيء وقطَّعوه: مجاثم أقفاص الدجاج السابقة، السلال التي

كان فيها الدجاج، الصناديق المتراكمة وعُلَب المؤن، الساعة التي أهداها القوزاق، غَلايين التبغ، الكتب جميعها (بكت أمينة المكتبة، لكنها أعطتها)، إطار اللوحة في عربة البنات (أراد دييف إلقاء اللوحة نفسها في النار، ولكن أمينة المكتبة آنذاك أمسكت قماش اللوحة كما لو كانت من الذهب، فاستسلم دييف، ولم يأخذها). كل ما يمكن أن يحترق ويعطي دفئا أُلقيَ به في حجرة الاحتراق.

فكر دييف في كآبة، هو يمسك بفأسه: سوف أقطِّع الأبواب. وسأقطِّع جميع الدِّكاك. وحتى لو كانت هناك سمكة مجففة متبقية - سوف أُلقي بها في حجرة الاحتراق.

- ماء الصهريج ينفد.

- لقد أمرتُكَ أنْ تسخّن القاطرة!

فرسخ آخر. فرسخ ونصف...

لم يعد هناك ماء. ولم يبقَ حطب أيضاً، في حجرة الاحتراق ليس سوى الجمر يتوهّج بلونه الأحمر.

العجلات تدور، ولا تزال مدفوعة بآخر نبضات القلب الميكانيكي، ولكن مع كل دورة تندفع بشكل أبطأ. يتنفس العملاق المعدني ببطء، وبهدوء، وسرعان ما سكت - توقّف القطار «الضفيرة»، ولا يدخن من أنبوب مدخنته سوى بخار خفيف.

في الجوار ليس سوى المساحة الصحراوية الناعمة - محيط داكن اللون.

هل يبعثون مرسالاً إلى آريس؟ لقد ابتعد القطار عنها مسافة نصف يوم - أربعين أو حتى خمسين فرسخاً، وكانوا طوال الوقت يجرفون الرمال التي تغطي القضبان. وكيف سيساعدهم مدير المحطة المُنهَك في المحطة المُنهَكَة، من دون تلغراف وعموماً من دون أيّ وسيلة اتصال بالمدن الكبيرة؟ كلا، الخلاص ليس في الخلف، بل في الأمام فقط.

قفز دييف على الأرض وانطلق يجري على طول المسارات.

صرخت بيلايا بشيء ما، لكنّ دييف لم يسمعها: وراح ينقل جزمته

بين عوارض السكة -يسار- يمين، يسار - يمين، كما لو كان في ساحة العرضات أيام الخدمة في الجيش.

مَن ذا الذي يسير على أثره، قريباً منه؟ هل لحقت به المفوضة؟

إنه زاغريكا.

لا تتبعني! غرف دييف بكفه قبضة من الرمل وألقى بها على زاغريكا الذي لحقه. عُد إلى الباقين! لكنه عاند. فليذهب إلى الجحيم، هذا الأحمق!

فرسخ. وفرسخ آخر.

أين أنتِ، أيتها الجبال الملعونة؟!

متن السكة الحديدية انقطع تحت قدميه - لم تعد قضبان السكة تمتد.

كيف هذا؟

لم يصدّق دييف ما رآه، فجثا على ركبتيه وراح يزحف على الأرض، متلمّساً آخر عوارض السكة البارزة وأطراف القضبان، الخشنة من جرّاء الصدأ القديم. ثم زحف أكثر، لمدة طويلة، بحثاً عن استمرار المسارات. لكنه لم يجد شيئاً.

وهكذا لم يعد هناك خط سكة حديد.

***

كانت الرمال حمراء وحيوية. أحياناً تنفصل عن الأرض وتُجر على طولها مثل عاصفة ثلجية، وأحياناً تصبح هي الأرض. وتختفي كلياً -إذا هدأت الريح. وترتفع بمهابة- إذا ما اشتدّت الريح.

لعبت الرمال مع دييف: أولاً، أخفت عنه قضبان السكة التي تؤدي إلى الجبال، ثم أخفت حتى تلك التي أتى على طولها دييف إلى الصحراء. أَعِيدِيها، كرر دييف، وهو يجر نفسه جرّاً إلى الأمام. أَعِيدِيها! في بعض الأحيان كان يضرب الزوابع الرملية بمقدم حذائه للتحذير، لكن الركلات أخذت الكثير من قوّته، ولذلك سرعان ما توقف. لم يكن من السهل فك ركبتيه مع كل خطوة - كان يمشي وينحني قليلاً ولا يقوِّم ساقيه. كان يتشبث بجذور الشجيرات بجزمته، أو ربما تتشبث الجذور نفسها بالجزمة.

لا يمكن أنْ تكون قضبان الحديد قد انقطعت، مثل أحزمة بالية لربط الجِمال، كان دييف يعلم هذا علم اليقين. ويعلم أنَّ القطارات المتجهة إلى طشقند وما بعدها إلى بخارى تغادر بانتظام محطة قازان وتصل إلى وجهتها. وكان يعلم أيضاً أنه هو نفسه يقود القطار إلى سمرقند. وأنَّ سمرقند موجودة. هذا يعني أن الأمر صغير: أن يجد في طيات التربة وفي تشابك الحشائش قضبان الحديد المخفية عن الأنظار، والممتدة على طول العوارض الخشبية.

يا ترى، أين القضبان؟

مشى عدة ساعات. يأمل أنه يسير جنوباً: كانت الشمس غارقة في الغيوم التي تشبه الصوف السماوي، ولا يمكن تحديد اتجاه السير بظلها. حاول الحفاظ على اتجاه حركته. -كان من المفترض أن تظهر الجبال من الجنوب- لكن الرمال اللعينة تدور تحت قدميه، مثل كلب يعبث، فتُسقِطه وتُخرِجه من الطريق.

كانت الرمال هنا صاحبة المكان: على يمين دييف امتدت مساحات حمراء من صحراء قيزيل قوم، وعلى يساره صحراء موينقوم، التي تتحول إلى سهوب الجياع (ميرزاشول) الشاسعة. أجل، في مكان ما هنا يجري نهر سيحون الواسع، وترتفع سلاسل الجبال التي تقطع المنظر الطبيعي وتمنع الصحاري من الاندماج في محيط رملي واحد. أجل، التربة مطرَّزَة بالأعشاب ومَخيطة بجذور الشجيرات - لم تتحول إلى كثبان، بل انتشرت بكثافة، متظاهرة بأنها تراب. لكن ما إنْ تقضي ساعتين على الأقل في هذه المنطقة، وتمسح الغبار اللامتناهي عن وجهك وتحاول ألا تضل في الدوامة الرملية، ستفهم على الفور من يتحكَّم بكل شيء هنا.

ماذا أفعل هنا؟ - أبحث عن سكة الحديد التي تؤدي إلى سمرقند.

لِمَ؟ - أنا أستقل القطار مع الأطفال إلى هناك.

أين هذا القطار؟ - حقاً أين، هو؟...

أَعِيدِي لي السكة! أعطيني القطار، أيتها الرمال!

وخلفه تخبَّطَ زاغريكا الملازم له على الرمال. أصبح الصبي نحيفاً للغاية خلال الأسبوع الأخير من الجوع لدرجة أن خطواته الخفيفة لا تكاد تُسمَع،

وانكمش جسده إلى حد النحافة المرَضيّة. كان دييف يتذكر أحياناً أمر تابعه ويلتفت نحوه - ينظر إليه مشجِّعاً، ويومئ برأسه: تمسَّك، يا أخي. الأفضل لو قال ذلك بالكلمات، لكن شفتَيه أطبق عليهما الغبار وحال دون انفراجهما.

إذا ما سقط الولد ولم ينهض، فسيتعيّن عليه أنْ يجرّه. لو كانت بيلايا في مكانه لتركته في الصحراء، لكن دييف لم يستطع. هذا يسلبه قوَّته ويبطئ حركته.

انهال التراب في عَينَي دييف فسقط وتمدد وكاد يصيب أنفه وذقنه - نشر أطرافه مثل النجم، كأنما يعانق الصحراء. فدبدبَ زاغريكا بقدميه عند جزمة دييف وراح ينشج كأنما يريد أنْ يساعده.

انهض! - لا أستطيع، رجلايَ ويداي لا تطيعني.

انهض وانطلق! الآن! - لا أقدر.

في الوقت الذي تزحف فيه ببطنك على الأرض الأطفال يموتون. فأنت بالنسبة لهم قاتل، قاتل!

قام ومضى. ومنذ ذلك الحين، صار دييف يتعثر ويسقط كثيراً بجذور الأدغال والشجيرات، فالصحراء المسطحة سابقاً لم تعد كذلك: إذ أخذت ترتجف تحت جزمته، في محاولة منها للانحناء حتى تُشكّل تلاً أو أرضاً منخفضة.

في واحدة من تلك السقَطات وقع دييف وتدحرج رأساً على عقب. كانت العثرة صغيرة، مثلما تحدث في وادٍ ضيّق في غابة من غابات ضواحي قازان، لكنه هبط لوقت طويل لسبب ما، متقلباً على طول المنحدر وتعثّر بأنفه على شُجَيرات الأَرطَى البارزة. وعندما صار في الأسفل، لم يرغب في فتح عينيه المغلقتين - لقد تجمد مدة من الوقت، ليستجمع قواه. بدا له أنَّ ذلك استغرق دقيقة أو دقيقتين، ولكن عندما فتح عينيه، كان الليل قد حل.

اهتزَّ جسده، وخرج من فتحتي أنفه بخار أبيض. كان ضوء القمر الصدَفي الثقيل منسكباً على أحد جانبي المنحدر المنخفض، وكان الجانب الآخر أسود -بدا جسد دييف، الممدد على القاع، كما لو كان مقطوعاً إلى نصفين بواسطة هذا الضوء الساطع. هبّت الرياح هبوباً يُسمع بصعوبة، واندلعت

تيارات من الرمال على طول جدران المُنخَفَض، وارتفعت. فقد تشبث شخص دافئ وصغير بقدميه، ولم يتركه يتجمد تماماً- هذا صحيح، إنه حيوان بري.

أين أنا؟ - لا أعلم.

ماذا أفعل هنا؟ - أنا أبحث عن شيء. أو شخص ما.

عَمَّ يمكنك أنْ تبحث؟ ليس لديك أحد. -لديّ أحد! امرأة تغني لي تهويدة. ورجل أقوى وأعقل من أي شخص في العالم. وهناك أطفال أحبهم- هم إخوتك؟ - نعم وأنا مسؤول عنهم. إني آخذهم إلى سمرقند. آخذهم في القطار، على قضبان سكة حديدية. وأنا أبحث عن ذلك القطار وعن تلك القضبان.

أعطني القضبان! أعطني القطار!

ضرب دييف الرمال المتدفقة لأعلى وتسلق المنحدر. صعد لمدة طويلة: عضلاته تخذله بين الحين والآخر، واستولت الرجفة على حلقه، كما لو أنَّ هواء الليل الذي استنشق منه ليس هواءً، بل ماء مثلج يدخل الحلق والرئتين. لم تكن الأرض حتى باردة -بل متجمدة؛ لا يمكن النوم على مثلها- لن تستيقظ. ملمَس حبيبات الرمل البيضاء في ضوء القمر - مثل ملمس حبيبات الثلج.

هل تذكر، يا جدي ما حدث ذات شتاء ثلجي من عام تسعمائة وعشرين؟

تومض العبارة في رأسه كمصباح كهربائي. ما هذه الكلمات، ومن أين؟ مَن قالها ومتى وأيّ جدٍّ خاطب بها؟ غير مهم. الشيء الوحيد المهم هو أنَّ هذا المصباح المبهر يتوهّج في دماغه -ولا يدعه يغمض جفنيه مرة أخرى ويغوص في أعماق الليل. ولمّا تشبّثَ بهذا التوهّج بكل إرادته، وبكل القوى العقلية المتبقية له، تسلق فوق التربة المتجمّدة المفتّتة، ثم فوق التربة القاسية والكثيرة العُقَد- وزحف خارج المنخفَض.

وحاول الاستمرار في الزحف، لكن جسده لم يعد يستطيع الزحف - فهل يتجمد ويلتصق بالتربة؟ بعد أن استراح من مجهود الدقائق الأخيرة، جثا على ركبتيه ثم وقف على قدميه. ومشى.

يمين -يسار... يمين- يسار... فرسخاً، وفرسخاً آخر. أين الجبال

الملعونة؟ أو السكة الحديدية؟ أو القطار؟ ما الذي أبحث عنه طويلاً وبهذا الألم في هذا الحلم اللامتناهي؟

قُسِّمَت الصحراء بفعل القمر إلى الأسود والأبيض: إلى كتل مشرقة من الضوء وإلى ظلال فحمية. أوراق الشيح في هذا الضوء - كأنها في الصقيع. يشع الرمل بالشرر إلى درجة تؤذي العينين. أَم أنَّ هذا ثلج؟ إنه كثير، من الأفق إلى الأفق. أجل، أجل، حدثَ شتاء ثلجي في العام تسعمائة وعشرين، وهذا ما نتحدث عنه!

هل من الممكن أن تكون القضبان التي يبحث عنها دييف مغطاة بالثلوج؟ وماذا عن القطار؟ يوجد أطفال بالداخل لا يرتدون سوى الملابس الداخلية، -سوف يتجمدون! وهو، الأحمق، منع الممرضات من تسخين البطاريات. لأنه لا يوجد ما يمكن التدفئة به- لا يوجد حطب. كيف لا يوجد، فما أكثر جذوع الأشجار هنا - كسِّر منها بقدر ما تريد!

جذوع الأشجار -غابة الرِّمْث. انتشرت في الجوار كحشد ضخم لا يتحرك- من المشوَّهين أو الراقصين المجانين، المتجمدين في رقصة مستديرة برية. كل شجرة ليست أطول من الإنسان، نشرت أغصانها وفروعها كالسيقان والأذرع، وتقوس ظهرها بشكل قبيح. أطرافها الخالية من الأوراق لا تتحرك، كما لو اندمجت في الهواء، وحتى هبوب الرياح لا يحطِّم شللها. فالريح تصفر بين الأغصان، لكنها لا تهز الشجرة.

ذُهِل دييف وجرَّ نفسه مُتثاقلاً عبر الغابة الخدِرة. إذا ما عدَّل قامته ورفع ذقنه، يمكنه رؤية الغابة من الأعلى. وإذا ما تقوَّسَ ظهره من الإرهاق، فسوف يخترق ببصره تقاطع الأغصان. تقاطع الأسود والأبيض يطفو أمام عينيه، ومن كثرة الأغصان شعر رأسه بالدوار. فكرر دييف طلبه، أعطِني، ولم يعد يفهم ما يطلب ومِمَّن يطلب.

تعثَّرت قدمه أو انزلق، يا ترى، بغصن؟ أَم بالجليد؟ وراح يسقط على الأرض مرات لا حصر لها. ضربت جذور الرِّمْث المتحجرة وجنته وصدغه وصدره. قماش مُمزَّق يتشقق، يا ترى، هل هو سرواله؟ أم أنَّ هذه أحشاؤه تتشقق وتتمزّق من الألم؟

انهض وانطلق! الآن! - لن أنهض أبداً.

قاتل، قاتل! - ليكن.

الإقناع والتهديد لا يجديان نفعاً: جسد دييف ملقى كالكيس بين الأشجار، ووجهه غارق في الرمال. وكل ما يمكنه الآن فعله - أنْ يفتح جفنيه في بعض الأحيان، وينظر إلى أشجار الرِّمْث التي ارتفاع الواحدة منها بطول قامة ونصف. أحشاؤه متجمدة ومتصلبة مثل ماء نوفمبر (تشرين الثاني).

حلّ الصباح. وانزلق ظل طير رمادي فوق الجذوع.

حلّ النهار. أرنب منسل الشَّعر يركض من جانب دييف وينظر إليه شزراً بعينه الكهرمانية اللون.

هل تذكر، يا جدي، ما حدث في الشتاء الثلجي من سنة تسعمائة وعشرين؟

أَم أنَّ هذه هي السنة تسعمائة وعشرون؟ والآن -هو ذلك الشتاء الثلجي- لهذا السبب يرتجف دييف من البرد. ولهذا جسده مدفون في ركام ثلجي، ولهذا لا يستطيع الزحف.

نعم هو ذا الوقت. أجل، إنه كذلك: كل ما حدث لك -قبل مدة قصيرة أو قبل مدة طويلة، في أي عام من حياتك- لا يختفي بدون أثر، بل يحدث مرة أخرى، اليوم، وغداً، ودائماً.

***

في عام تسعمائة وعشرين، عندما التحقتُ لأول مرة بإدارة النقل، كنا نحرس أكثر مما ننقل. هل تتذكر، يا جدي، كم هطل من الثلج في الشتاء في تلك السنة؟ آنذاك كانت سكة الحديد هامدة، غطَّتْ عليها رُكَم الثلوج. البضائع -الثمينة جداً: القمح والحمّص. وكل ما تراكم على طول المسارات، وفي الخزّانات، كان في انتظار الشحن. ينتظر شهوراً- إذ لم يكن ثمة ما تُسَخِّن به القاطرات، لا يوجد حطب، ناهيك عن وجود الفحم. ولا يوجد أناس يمهدون الطريق من تحت الأنقاض، ليس أمامك إلا أن تأخذ مجرفة في يديك وتجرف السكة بنفسك - لكن العواصف الثلجية كانت من الشدة، لا تكفي معها مجرفة واحدة، بل مائة مجرفة لكل قطار.

والأهم من ذلك كله، لم يوجد سائقو قطارات، لقد قتلوا في الحرب. أما اللصوص من الكثرة، فحدّث ولا حرج.

مهما كان الليل، كان بعض الجرذان يزحف على السكة، يحمل كيساً فارغاً على كتفيه وعتلة في يده لطرق أقفال أبواب العربات. يأتون فُرادى، وزُرافات. لم ننادِ عليهم حتى: ما إنْ نرى الظل يتسلل بين عربات القطارات، حتى نطلق النار على الفور. في ذلك الوقت، لم يكن عامة الناس العاديين يغيرون على القطارات: أيّاً كان من ينتهك، بانتظاره السجن في معسكرات الاعتقال، أو رصاصة منا.

لم يتبقَّ طعام لدى الناس في قازان في ذلك الوقت - على الإطلاق. لا يمكنك رؤية الناس في الشوارع، جثث الموتى فقط تبرز من بين الكثبان الثلجية، وليس ثمة مَن يُزيلها. وهكذا تقف طوال الليل قرب العربة، التي فيها طن من الحنطة السوداء أو الدخن، وتفكر: لماذا لا يُوَزَّع هذا الدخن في المدينة؟ إذا ما تبين أنه لا يمكن أنْ يصل إلى وجهته، ولماذا لا تطعم القريبين منك؟ لكن لم نتلقَّ مثل هذا الأمر.

أشعر بالخجل من الاعتراف، يا جدي: لقد كنا نتغذى من تلك العربات. كان الحارس يحصل على حصص الإعاشة من القطار الذي يحرسه. وكذلك يحصل عليها مَن رافق هذا القطار بعد ذلك - سائقو القطارات والوقّادون والعمال الذين يجرفون الثلج عن القضبان. حتى لا يسرقوا.

لم أقدر على السرقة مثل الجرذ، حتى لو بقيت بدون طعام. ولم أشفق على أولئك الذين كانوا يتسللون ليسرقوا في المحطات: فقد استحقّوا الرصاصات في ظهورهم، بما كسبت أيديهم.

وبحلول الصيف أصبح الأمر أسهل قليلاً -ليس بشأن الطعام، بل بشأن الطقس: فقد ذاب الثلج، وظهرت قضبان السكة الحديد، وبدأت القطارات تتفرّق إلى وجهاتها. فكنت أنظر إلى كل قطار من تلك القطارات التي زحفت من مسارات الانتظار إلى السكة الرئيسة وانطلقت في طريقها- فيدفأ قلبي. إذاً، هذه الحنطة السوداء أو هذا الدخن يذهب الآن - لإنقاذ الناس. إذاً، لم يكن عبثاً أن حرسناها طوال فصل الشتاء: نهاية الربيع وبداية الصيف

هما أكثر الأوقات جوعاً، حينما تكون جميع المواد الغذائية المخزونة قد نفدت، ولا سبيل للحصول على مواد أخرى جديدة، لذا تكون الحاجة الآن للمساعدة في تقديم الطعام أشد.

ولكن، حتى في قازان نفسها، بدأ أكثر الأوقات جوعاً. وهكذا تُشيّع بصرك هذه القطارات التي تنتشر في كل الاتجاهات، تحصي العربات المحشوة بالذرة واللحوم، وتفكر: لماذا لا تُترَك عربتان للمدينة؟ لماذا لا يُوَزَّع الطعام هنا؟ على أولئك الممدَّدين حول ساحة المحطة مثل القمامة. وعلى الأطفال الرضَّع في دور الأيتام. وعلى الصبيان المشرَّدين بلا مأوى، الذين يوجد منهم في المدينة أكثر من عدد سكانها. لكن لم يُستَلَم مثل هذا الأمر.

ثم حدث ذلك في القطار المنشود. فقد اقتيد في المساء - ورُكِن في أبعد مكان في ساحة الانتظار، وأُخفيَ بين القطارات الفارغة، ووعِدَ بأن يُؤخذ في الصباح. كان ذلك قطاراً للدعاية، متكوّناً من خمس عربات فقط. عربات لنقل قطعان الماشية، من دون نوافذ، وجدرانها مطلية بالصور: صور رايات، وسنابل، وأشعة الشمس. وكتابات كثيرة تتموج في العيون.

لا أحد يعرف ماذا كان بداخله. ولم نكن نعلم، لكننا خمّنا أنَّ ما فيه ليس منشورات أو ملصقات دعائية عليها شعارات. فقد تدحرجت تلك العربات على القضبان من ثقلها بصعوبة شديدة -كما لو كانت محملة إلى أقصى حد. وإلا فلماذا خُصِّصَ لحراستها مثل هذا العدد من الحماية؟ أربعة مرافقين من إدارة النقل وأنا إضافة إليهم. أُمرنا بالنظر في كلا الاتجاهين، كي لا تمر حتى الذبابة من جانب العربات. فنظرنا: حارسان على أحد جانبي القطار واثنان في الجانب الآخر، وأنا- دورية لوحدي، في المنطقة وحول القطار.

حرسنا طوال الليل. وقُبَيل الفجر، في أحلك الساعات وأشدّها نُعاساً، بدا لي أنَّ شخصاً ما كان يتحرك في إحدى العربات. ورحتُ أتلمّس جدران العربة، وأسحب الأقفال -كل شيء في محله، كل شيء في مكانه. هدوء بالداخل مرة أخرى. ربما، خُيِّلَ إليَّ؟ فصعدتُ إلى السطح، وفتشتُ في الأسطح- لا يوجد شيء أيضاً. وفجأة خطر في بالي: إذا ما كان ثمة

دعاة يركبون تلك العربة، فلا بد من وجود فتحة مرحاض مقصوصة في أرضية العربة.

فقفزتُ على الأرض، ثم حشرت نفسي تحت القطار -وفعلاً وجدت الحفرة! ألصقتُ يدي بها- كانت غير مغطاة بأي شيء من الداخل. ومَن قال إنه يجب تغطيتها؟ فالمرحاض -مرحاض. دع البورجوازيين يغطون المراحيض بغطاء، الداعية السوفيتي- رجل بسيط، لا يحتاج إلى الترف. وربما، لم يكن لهذا المرحاض أيّ غطاء من قَبْل، لذا فإن كل مخاوفي لا داعي لها. وحتى إنَّ هذه الفتحة ضيقة لا أحد يستطيع الدخول منها.

وددتُ لو أهدأ، وأبتعد -لكني شعرت بالقلق، لا أستطيع أن أهدأ. أمسكتُ بحواف الفتحة- كانت الأرضية من الخشب، عبارة عن اثنين من الألواح موضوعَين بشكل غير متناسب. فأسندتُ قدمَيَّ على الأرض، ودفعتُ بكتفي اللوحَين، ثم ضغطتُ وكسرت أحدهما. وفكّرت مع نفسي، لا يهم، سوف نصلحه في الصباح، ولن يلاحظ أحد.

اضطرب الحراس المرافقون لي، وركضوا نحوي. فطلبت من اثنين منهم أنْ يعودوا إلى الحراسة، عند طَرَفي القطار المختَلِفَين (ماذا لو كانت كل هذه الفوضى طُعماً ليصرف انتباهنا؟)، وطلبت من اثنين البقاء معي. وقررت أنْ أتسلل إلى الحفرة بنفسي. في كل واحدة من يَدَيَّ -مسدس. وفي كل مسدس- سبع إطلاقات، بكرة مملوءة بكامل.

تسلّقتُ بحرص -الظلام الدامس مُطبِق في الداخل. وتفوح من المكان رائحة نتنة. كما تفوح منه رائحة شيء حلو، يخنق النَّفَس، حتى يلتصق بالفم، والصمت يعمّ المكان كأنك في قبر. أشعر أنَّ شخصاً ما بالداخل. لا أسمع، ولا أرى، مجرد إحساس. إنهم يسمعونني- كيف كسرت الألواح، وكيف تسلقتُ إلى الداخل الآن، وأخدش الألواح بسروالي. وأنا لا أسمع مَن في الداخل ولا أراهم. إنهم يعرفون أنني وحدي، وقد خرجتُ من حفرة القذارة الآن، مثلما ينبت اللفت من الأرض. ولا أعرف شيئاً عنهم. ففكّرتُ، كم عددكم، يا فئران المراحيض، الذين تمكنتم من الزحف إلى داخل العربة؟ لقيط واحد؟ أم خمسة؟ وكيف تسلَّلتم هكذا إلى هذه الحفرة الضيقة، أيها الثعابين؟

لو كنت مكانهم، فلن أتردد: كنت سأضرب المُفتِّش غير المدعو على رأسه بعقب السلاح أو أطعنه بسكين قبل أنْ يتمكن من الصعود إلى العربة. ولكنّ هؤلاء الجبناء اختبأوا في الزوايا -ولم يتحركوا. وقفتُ على الأرضية الخشبية، وعدَّلتُ قامتي. بالكاد أستطيع أن أتنفس، حتى لا يصدر الهواء في أنفي حفيفاً، ولكن قلبي الأحمق يدقّ على ضلوعي بشدة- لا بد أنه يُسمَع من الخارج. عدتُ إلى الوراء خطوتين، ببطء، حتى لا يحفّ سروالي ولا تصرّ الألواح تحت حذائي. ورحتُ أفكّر: إذا ما هرع اللصوص الفئران إلى المخرج -وسوف يهرعون إلى هناك بكل تأكيد، إذ لا يوجد طريق للخروج من العربة غيره- عندها ستقابلهم رصاصتي.

الظلام من حولي مثل الظَلاَم الذي حلَّ على أَرْضِ مِصْرَ بدعوة موسى: ماذا وأين ومن أي جانب -لا شيء يُرى. أقف وأستمع إلى الصمت. الرائحة كريهة- لا يمكنني التنفس، كدتُ أتقيّأ ما في معدتي. لكني أتحمل. وفكَّرتُ، الآن بالتأكيد لن أتحرك: لو أحدثتُ صوتاً واحداً على الأقل -لصوَّبوا نحو هذا الصوت على الفور. فالآن، أنا واللصوص متساوون: لا أعرف مكانهم، ولكني في الوقت نفسه أختبئ عنهم في الظلام. الآن- مَن سيتحمل الآخر.

وكَّرَ طائر على سطح العربة، وراح يقفز على طول منحدرات القصدير ويطرق بمنقاره. ولكنّي أشعر بأنه يدقّ على يافوخي: طُق -طُق... طُق- طُق... -ليته توقف ونقر على يافوخي من خلال ألواح السقف. كبحت نفسي: الوقت ليس في مصلحتي، الصباح قريب. راح الطائر تارة يقفز، وتارة يتوقّف- مرة تزداد سرعة الطرق الملعون ومرة تتباطأ. تارة إلى هنا وتارة إلى هناك. ذهاباً وإياباً... وفجأة – انقطع. ومرة أخرى، حلَّ الصمت. هل طار بعيداً؟ اطرق، أيها الطائر الملعون، لم يعد لديّ مزيد من القوة لتحمل الصمت! هيّا، تعال!

وفجأة -صرير!- على طول الأرضية باتجاه الحفرة.

أطلقتُ النار على الصوت – فأصبته: وقع أحدهم على الأرضية قبل أن يصل إلى المرحاض.

فبدأ: يخشخش من جميع الجوانب، يرتجف، ويصرخ – كما لو أثرتَ عش فئران. كرَّرتُ إطلاق النار.

ولكنهم لم يردّوا عليَّ. لم يهجموا عليَّ بسكين، ولم يضربوني بعتلة – بل هربوا طلباً للنجاة بأنفسهم. الجبناء!

اطلقتُ النار.

المكان الأكثر ضجة – عند حفرة المرحاض. يبدو أنها سُدَّت بجسد أحدهم، فتناوب اللصوص على الجسد الذي صار بمنزلة سدَّادة في محاولة لسحبه، لكنهم هم أنفسهم راحوا يسقطون من إطلاقاتي في المكان نفسه، فازداد الانسداد.

واطلقتُ النار.

فنقرت البكرة فارغة – في إحدى يَدَي، ثم في اليد الأخرى: فقد نفدت الخراطيش.

وقفت أنتظر.

ومرة أخرى، عمَّ الصمتُ من حولي – حتى الطائر اللعين لم يعد يطرق في يافوخي. ولم يعد الهواء يفوح لرائحة الحلاوة بل برائحة البارود.

جعل الحراس المرافقون لي يساعدونني من الخارج – جرّوا جميع الجثث إلى الشارع واحدة تلو الأخرى.

شَرَعْتُ في عتمة عربة القطار أحشو المسدَّسين – بلا رؤية، فقد تعلمت ذلك منذ وقت طويل.

ناداني أحدهم من الخارج:

– أيها القائد.

فأمرتُ:

– اجلبوا المصباح إلى هنا! ربما، لا يزال شخص آخر في الداخل.

يكررون بإصرار:

– أيها القائد.

ماذا يريد الأغبياء!

خرجتُ فرأيتُ: الجثث مكدسة على طول القطار، رؤوسهم إلى العربة وأقدامهم إلى المحطة. لا يزيدون عن عشرة. كلهم جثث خامدة: ليس بينهم جرحى.

صحتُ بصوت عالٍ:

— ما لكم تحدقون؟ هاتوا المصباح!

وسرعان ما جلبوه. لكنهم لم يعطوني المصباح بيدَيَّ، بل لسبب ما وضعوه عند رؤوس القتلى.

كانت وجوه القتلى ملطخة بالقذارة، كأن رؤوسهم مغموسة بالطين، ووجوههم لا يمكن رؤيتها. وراح الحراس يحدقون بي كأنهم ينتظرون شيئاً. الحمقى!

أمسكت بالمصباح وعدتُ إلى العربة. أبحث في الزوايا، وفي الأركان، أتحقق من كل زاوية وركن - لكن لم يتبقَّ أحد هناك، جميع اللصوص الفئران يرقدون في الخارج، خامدين. والعربة، بالفعل، مليئة بالصناديق، زوجان منها فتحهما اللصوص. لم أنظر حتى إلى ما كان بداخل الصناديق: وظيفتي كانت الحراسة، وليس أنْ أحشر أنفي في الأحمال.

عندما خرجت، كان النور قد أسفَرَ. فأمرتُ:

- ناولوني مطرقة ومسامير. ألم تخمنوا بأنفسكم؟ يجب إصلاح اللوح المكسور، وإلا فإنّ الأمر سيكون مُحرِجاً.

نفّذَ الحراس بطاعة: جلبوا الآلة وأصلحوا فتحة المرحاض. وهم يحدقون في وجهي كأنني شبح.

جلستُ في الجهة المقابلة، على المسارات المجاورة، أراقب عملهم -- أنظر كيف يصلح جنودي ممتلكات الدولة المتضررة. ولم أنظر إلى جثث اللصوص الجرذان الممدَّدة هناك.

جاء مدير المحطة راكضاً، ووعد بإرسال عربة يجرها حصان في أقرب وقت لرفع جثث القتلى. وراح كذلك يحدق بي مثلما تحدّق سمكة الرمح في صرصور. فشعرتُ بالغضب من هذه النظرات المُمَيَّزة، لكني لم أرِد أن أكون أول مَن يسأل.

وسرعان ما انتشر الضوء –فقد حلَّ الصباح. وهنا لاحظتُ أنَّ أحد القتلى لديه قدم حافية– على ما يبدو، فقدَ جزمته أثناء الجلبة. وهذه القدم غير صحيحة إلى حد ما وغريبة. لم أستطع أن أُدرِك ما الغريب فيها.

اقتربت وجلستُ القرفصاء بجانب الجثة ورحتُ أنظر. خمس أصابع، كعب واحد - كل شيء في مكانه، كما ينبغي أن يكون. القدم متسخة وخشنة. وصغيرة. هو ذا الشيء الغريب فيها! أنها صغيرة جداً. مددتُ يدي إليها، ويدي بجوار تلك القدم مثل يد العملاق.

والكاحل الشاحب الذي ينمو من تلك القدم يختبئ تحت بنطلون متسخ وضيق. والساق التي في داخل البنطلون رفيعة، كالعصا. والسترة فوق البنطلون -بالكاد ترتفع فوق الأرض، إلى هذه الدرجة كان الجسد الذي في داخلها مسطحاً. والرقبة التي تخرج من السترة رفيعة، مثل رقبة الدجاجة، بقَدَر محيط راحة اليد. والوجه فوق العنق صغير جداً. وجه طفل. مَن يرقد على الأرض ليس حتى مراهقاً- بل طفل.

والجثث الأخرى التي إلى جانبه - جثث أطفال أيضاً. الثاني والثالث... الرابع... التاسع. تسعة أطفال...

تسعة أطفال يرقدون أمامي. وفوقهم، على جدار العربة، هناك شمس مرسومة بألوان زاهية وكتابة بأحرف بطول الباع: «التعليم مجاني!» وفوق السيارة -تشرق الشمس الحقيقية. رحتُ أنظر إلى هذه الشمس- حتى من دون أن أضيّق عَينَيّ، أنظر عن كثب - وأنا مندهش من أنَّ عينَيَّ لا تؤلمانني.

وعندما نكّستُ بصري، لم يعد ثمة أطفال. قيل لي، أخذوهم بعيداً. كيف أخذوهم بعيداً، وهُم للتو كانوا بجانبي، وحتى قبل أنْ أرمش؟ فقيل لي، أخذوهم منذ مدة طويلة. وتلك العربة المرسومة عليها الشمس، غير موجودة أيضاً. وقطار الدعاية غير موجود. قيل لي، غادر منذ مدة طويلة. فسألتُ ماذا كان فيه. فأُجِبتُ، فيه الشوكولاتة. خمسة أطنان. إذاً، كانت وجوه الأطفال القتلى ملطخة بهذه الشوكولاتة. فسألتُ، إلى أين أخذوا كل هذه الأطنان من مدينة جائعة؟ لماذا لم يُوَزَّع جزء منها على الأقل هنا؟ ولماذا نُقِلَت سراً، وخُبّئت مظلّلة؟ على هذا السؤال لم يجبني أحد.

اكتشفت الشرطة فيما بعد: كانت هذه عصابة أطفال. يعيشون في دور استراحة مهجورة تعود لأساتذة جامعيين، وزعيم العصابة - عجوز شحاذ مسلول. لم تكن لديه رِجلان، بل قطعتان من الخشب، وحتى العربة

التي كان يركبها، سُرقت في أول عام المجاعة. التقطه الأطفال وجعلوه أباً لهم. أطعموه، وزودوه بالتبغ. وفي المقابل قادهم: علمهم كيف يسرقون ويستجدون.

وبعد ذلك، قال تشايانوف إنني أعدمتُ في تلك الليلة قطاع طرق ولصوص المستقبل رمياً بالرصاص. وقال لي، حسناً فعلت أنْ أطلقت النار: فهُم على كل حال يكبرون ليصبحوا مجرمين ثم يُلقى بهم في معسكرات الاعتقال، لكن قبل ذلك، كم من الضرر الذي قد يلحقونه بالأشخاص الطيبين. وبالتالي – حسناً فعلت أن أطلق النار عليهم. حسن جداً.

أجل، أجل، قال ذلك. كل شيء صحيح!

هذا صحيح، يا جدي.

لم أتمكن من تناول الحلويات منذ ذلك الحين. ليس الشوكولاتة فقط، بل أيّ حلويات، حتى السكر – أتقيأ منها على الفور. آكل الطعام المالح فقط.

***

أنتِ فاطمة، أليس كذلك؟

أحدهم يمسّد على خد دييف النائم، ويدفئه براحة يد دافئة. مسِّدي، يا فاطمة! كم من الوقت كنت أتردد في طلب هذا. وها هو يحدث من تلقاء نفسه.

يرقد دييف في أدغال الرِّمْث، رقبته ملتوية، وخده في الرمال. ترفع الريح حبات الرمل التي سخنتها الشمس وتذريها على وجنتيه.

كلا، ليس الريح على الإطلاق –بل فاطمة. هي، وحدها التي تعرف كيف تمشي على الأرض بصمت، كما لو كانت تمشي في الهواء. وتهدئه– بأيِّ لمسة، من دون كلمات. وها هي قد أتت بهدوء، بينما هو نائم، وراحت تهدئه. لم يفهم دييف كلماتها قط، ومن غير المرجح أن يتعلمها، ولهذا، هي الآن تفعل كل شيء في صمت – تبتسم فقط وتداعب.

كم أنا متعَب، يا فاطمة. لا أتذكر لماذا. ما فعلتُ، إلى أين ذهبتُ، ما أردتُ – لا أتذكر أيَّ شيء. كيف انتُزِعَت أحشائي. لكنني أتذكركِ. فأتسلّى.

رفع رأسه ليقترب من وجهها المستدير الجميل. فنظرَت إليه بحنان: ارتَح، إذا كنت متعَباً. كم كانت عيناها مُفعَمَتَين بالدفء لدرجة أنَّ هذا الدفء تدفق إلى دييف، وملأ بالقوة أطرافه التي فقدت الحركة. فاتّكأ على غصن من شُجَيرة رمث بإحدى يديه، ثم بيده الأخرى. وشد عضلاته، ومد نفسه إلى الأعلى -نحو الشمس، التي تتوهج بقوة، ونحو فاطمة، التي تنظر إليه بلا انقطاع- ونهض. رفعت فاطمة حاجبيها، وقالت: هيا، انهض أكثر! فأعاد ترتيب ساقيه المتيبستين مثل العكازات. مراراً وتكراراً، وسار عبر الغابة.

فخذاه ورُكبتاه مثل فخذَي ورُكبَتَي رجل عجوز، وعضلاته بالكاد قادرة على الاقتران، وحسنٌ، أنها لا تُسقِط جذعه. لقد نسيت ركبتاه كيف تنحنيان. لكن دييف يتأرجح - مثل خشبة خشنة، مثل لحاء شُجيرة رمث، لكنه تأرجح على كل حال. الأجساد الخشبية بقيت ميتة، لكنه عاد إلى الحياة.

قوَّمَ دييف ظهره بجهد، وراح ينظر إلى قمم الأشجار: غيضة بلا نهاية ولا طرف، في كل الاتجاهات. كم مشى بالأمس حتى انتهى به الأمر إلى مثل هذه الأجمة الكثيفة؟ وكم سيتعيّن عليه أنْ يمشي حتى يعود؟ لا يهم مهما كان يتعيّن عليه أنْ يمشي! ما دامت فاطمة معك، لا يهم حتى لو مشيت مدة قرن.

يومض جسدها الممتلئ والمرن أمامه -يتلوى مثل جذع شُجَيرة الرِّمْث، ويختفي خلف سيقان الأشجار الخشنة ويعاود الظهور. لا تتعجلي، يتوسل إليها. يمسك ضفائرها الطويلة بأصابعه- قوية مثل الأغصان -كان يريد ذلك دائماً ولم يجرؤ، لكنه الآن تشجَّع فجأة. الرأس الرشيق لا يلتفت، ولا ينتظر حركة مشي دييف العرجاء- فتنزلق الضفائر من أصابعه الخرقاء.

هل تعتقدين أنني لا أستطيع اللحاق بك؟ إذاً، انتظري! هو أيضاً زاد من سرعته -فقدماه المفترقتان تحرّكتا بثقة أكبر وحملتاه، وسارتا به خلف المرأة ذات القدمين السريعتين. وأخيراً، مَشَيا على مستوى واحد- مدة طويلة، في صمت، وهما ينحرفان من جانب الجذوع المقطوعة ويبتسمان أحياناً بعضهما لبعض.

إنَّ صاحبنا الجَد يعشقكِ. هل تعلمين ذلك، يا فاطمة؟ هو، عندما يتحدث معك، يبقى محتفظاً بطبعه الصارم. ولكن بمجرد أن تستديري

وتغادري -ينظر خلفكِ ويحمرّ خجلاً مثل تلميذة في الصف الأول. حتى عنقه يحمَرّ- ليس حمرةً صارخةً، بل حمرة لطيفة، لا تكاد تُرى من تحت السمرة. وإذا ما سألته عن شيء ما في تلك اللحظة، فسوف يرتجف بالتأكيد ويسأل مرة أخرى: لا يسمع أي شيء عندما ينظر إليك. لقد راقبته عدة مرات...

وجه المرأة ناعم وهادئ - لا يمكنك أن تفهم على الفور ما تفكر فيه. وبشرتها الملساء، السمراء قليلاً، مثل لب الخشب، تتلألأ في الشمس. فتتلألأ سيقان شجيرات الرِّمْث أيضاً بتناسب مع بشرتها.

إني كأخ، أشفق عليه، يا فاطمة. أنّى له أن يحب، ليس شعر رأسه فقط قد غزاه الشيب - بل حتى شعر أنفه أدركه المشيب! صارت أذناه، بعد سن السبعين عاماً كبيرتَين، مثل حبات الفطر. أو، لربما، عبثاً أشفق عليه. ربما، يكمن سبب قوته في أنَّ الحب يمسكه. إنه لم يأكل ولم ينم منذ أسبوع، لكن قوته كسابق عهدها. فهو أقوى الجميع في القطار...

يمشي دييف بخفة. الحطب القشاش فقط يخشخش تحت جزمته. من هذه الحركة السريعة ومن الشمس الساطعة، ومن قرب الإنسان العزيز منه، تكوّنت هذه الشجاعة لديه فجأة من الداخل لدرجة أنه صار يتحدث من صميم قلبه - يقول كل شيء، حتى النهاية.

ربما، أنا أيضاً أحبكِ. لكن هذا الشعور نقي - لا يوجد أنقى منه، صدقيني. أود أن أسميه بكلمة أخرى، لكنّي لم أعثر. أريد أن أجثو على ركبَتَيَّ أمامكِ وأعانقكِ. أريد أن أدفن وجهي فيك وأشمَّكِ، وأود أنْ تمسِّدي لي على رأسي، مثلما فعلتِ في هذا الصباح. ولا أريد منكِ أكثر من هذا...

تيجان شجيرات الرِّمْث مائعة، مثل المقشّات، ولهذا فإن الظل في الأجمة مائع أيضاً - يسقط على وجه المرأة كضربات فرشاة رسم رمادية فاتحة ويختفي على الفور. استمتعَ دييف بهذه اللعبة العابرة وهو يمشي، من دون أنْ يرفع بصره عن وجه فاطمة، فقد أصبح جريئاً للغاية. ورجلاه صارتا تحملانه، من غير أن تتعثرا ولا تنزلقا.

أنظر إليك -فأشعر بالراحة، يا فاطمة. عندما تربِّتين على رأس طفل،

أشعر أنكِ تربتين على رأسي. وعندما تحتضنين الرضيع الكتكوت وتضمينه إلى صدركِ– أتخيّل أنك تحتضنينني. كل ما تفعلين وتقولين – أشعر بأنه لي. وعندما تميلين برأسك، فأرى الشيب في مفرق شعرك، ما أجمله، فأتمنى أن ألمسه بإصبعي.

أنتِ صغيرة. ومهما كنتُ أنا قصيراً، فأنتِ بالنسبة لي قصيرة. فأتمنى أن أرفعكِ وأحملك وأمشي. الجد أيضاً، على الأرجح، يحلم بالشيء نفسه، عندما تتابعك نظراته: تبدين بجانبه مثل عصفورة صغيرة بجانب دب، يحملك على إحدى كتفيه ويمشي...

تقلص حشد شجيرات الرِّمْث وقلّ عددها – صارت الشجيرات أصغر وتناثرت مبتعدة بعضها عن بعض، أبعد وأبعد. الآن يمكن رؤية طرف الأجمة.

هل تعتقدين أنني زير نساء ووغد حقير، إذا ما تقلّبت في السرير مع امرأة، وتحدثت مع امرأة أخرى بكلمات رقيقة؟ كلا، الأمر ليس كذلك، يا فاطمة. لستُ وغداً، لكني أحمق جداً. عندما أعانق بيلايا، فإني أفكر فيها وفيكِ في الوقت نفسه. أفكر في امرأتين في وقت واحد. وفي أشد لحظاتي حرارة لا أستطيع أن أجد أيّ شخص آخر في قلبي – فقط المرأة التي أحتضنها، وأنتِ. أنتما الاثنتين.

المفوضة – إنها مثل سكين، أو شفرة حلاقة: ما إنْ تغفَل حتى تجرحك إلى حد النزف. لا يمكن للمرء أن يحبها، يمكنه أنْ يرغب بها فقط.

أما أنتِ، يا فاطمة، فمثل الماء. يمكن السباحة فيكِ. ويمكن للمرء أنْ يشرب منك. وبكِ يكون أكثر نظافة. لا يمكن الابتعاد عنك، لأنك في كل مكان...

لم يعد دييف قادراً على كبح جماح نفسه، فتوقف وأمسك بفاطمة من كفها، وقبَّل راحة يدها.

أريد أن أنظر إليكِ. أريد الاستماع إلى صوتك. أريد أنْ أسمع غناءك. غنّي، يا فاطمة! غنّي لي، وحدي. ليس لإسكندر، ابنكِ، ولا للكتكوت، ولا للجد – بل لي.

ابتسمت فاطمة ووافقت -إنها على وشك الغناء. ولكن في تلك اللحظة فقط لاحظ دييف أنه لا يمسك بيد امرأة- بل يمسك بشجرة، قديمة وخرقاء.

مثل هذه الشجرة تصلح للكسر.

فصرخ بسعادة: إيه! اسمعوني، هيّا، إلى هنا! إليَّ! هنا الكثير من الرِّمْث يكفينا طوال الطريق إلى سمرقند! سوف يمكننا أنْ نملأ حجرة الوقود ببساطة في بضع ساعات!

لم ينتظر المساعدة، وراح يكسر الحطب بنفسه -طالما لديه القوة الكافية. لكنها لا تدوم طويلاً- سرعان ما يتعب ويتراجع، لأنه لا يقدر أنْ يتغلب على الجذع. ولكن، ما حاجته إلى الحطب؟ فالقطار غير موجود. والقضبان أيضاً غير موجودة. فقد أخذت الرمال اللعينة كل شيء.

أعطني القضبان! أعطني القطار!

تشققت شفتاه من الصياح، ونزف منهما الدم. فشعر بالعطش إلى درجة صار لسانه مثل ورق الصنفرة. ترك دييف وراءه الشجرة التي لا تنكسر ومشى إلى الأمام...

أخرجه شخص ما من الغابة المذهِلة واقتاده إلى طرف الغابة. مَن، يا ترى؟ أم خرج بمفرده؟

***

لم أرَ قَط مثل ذلك العدد الكبير من الناس، الذي رأيته في أغسطس (آب) من عام تسعمائة وواحد وعشرين. هل كنتَ آنذاك تسكن في قازان، يا جدي؟ هل تتذكر كيف كانت الشوارعَ ممتلئة وليس فيها موضع قدم فارغ: لاجئون، نازحون، عربات محمولة بالبالات، أطفال... أُزيحَت مناطق بأكملها من أماكنها وتوجّه أهلها إلى العاصمة. تراءى للناس أنَ الغذاء في قازان أكثر وفرة. يا لهم من حمقى.

توقفت الشرطة عن القبض على الأطفال المشردين واللصوص -لم تعد هناك أماكن سواء في مراكز إيواء الأطفال المشرَّدين أو في السجون. ولا توجد أَسرَّة في المستشفيات. ناهيك عن النُزُّل وملاجئ المُعدَمين. في الليل

تذهب إلى السكن الجماعي، فتجد الشارع كله أبيض، كأنه مغطى بالثلج، من الملصقات الممزَّقة. وتحت تلك الملصقات- الناس: غطوا أنفسهم ببطانيات الورق وناموا.

توجد طوابير على مدار الساعة حول مراكز الإطعام. لا يوجد طعام في تلك المراكز، فقد أصبح الطعام أثراً بعد عين، ومع ذلك اصطفّ الناس في طوابير الانتظار – فلربما، يحصلون على شيء ما. كان الناس يقضون الليل في تلك الطوابير: في المساء يستلقون على الأرض، واحداً تلو الآخر، مثلما وقفوا، ويظلون راقدين حتى الصباح. ومن حسن حظهم أنَّ الصيف حار.

وبسبب هذه الحرارة انتشرت في المدينة رائحة نتنة لا تُطاق. إذ، ليس مزحة، أنْ يستقر الآلاف من النازحين ويعيشون على الأرصفة. وكيف يتسنّى لك أنْ تطردهم؟ وإلى أين تطردهم؟ وسرعان ما تفشّى التيفوس. ثكنات التيفوئيد ليست كافية لمثل هذا الحشد – بعض المرضى نُفُوا خارج المدينة ووضعوا في غابة الصنوبر، تحت الأشجار.

على أعمدة الجامعة، كتب رجل حكيم بالفحم: «أعطني خبزاً!» الأحرف بطول الإنسان، بالضبط حرف واحد لكل عمود، وفي العمود الأخير –علامة تعجب. مدة طويلة لم يتمكنوا من طلائها– لم يكن هناك جبس للتبييض أو عمال. كل صباح كنت أمشي على الطريق من السكن الجماعي وأنظر. طوال شهر أغسطس (آب)، كانت الجامعة تصيح: «أعطني خبزاً!»

وكان الناس يصرخون. احتشدوا تحت نوافذ المؤسسات –عند مجلس سوفيت المدينة، وعند الأكاديمية العسكرية، حتى عند قسم الإطفاء– وصرخوا في انسجام: «الخبز!» في ذلك الوقت، غالباً ما كانوا يتجمعون معاً كالقطعان: عندما يكونون معاً، يكون تحمّل الجوع أسهل.

والتجمّع الأكبر كان في محطة القطارات. آنذاك توجه إلى تتاريا (تتارستان) القليل من قطارات الطعام –من مفوضية الشعب للأغذية، ومن الصليب الأحمر، ومن الرحالة النرويجي فريتيوف نانسين– وكان الجميع ينتظرون «الشحنات». كانت هذه الكلمة بمنزلة صلاة مشتركة بين الجميع: التتار، التشوفاشيون، الألمان. ما إنْ تمشي من باب إلى آخر، حتى تسمع

هذه الكلمة مائة مرة، نفس الكلمة في جميع اللغات: *الشحنات، الشحنات، الشحنات...*

وحتى المُقعَدون جاؤوا إلى المحطة. لم يكونوا قادرين على المشي، لكن بطريقة ما انتهى بهم المطاف في ساحة المحطة الأمامية. يا ترى، هل جلبهم أقاربهم إلى هنا، ليلاً؟

على حافة الساحة ازدحمت عربات خشبية وحناطير فارغة، تُركت بدون خيول في الشتاء. وقد وضِعَ المُعاقون المُقعَدون على هذه العربات كتفاً لكتف. وكانوا يجلسون في النهار ويتمايلون مثل العشب في الحقل من جانب إلى آخر. لقد نسوا كيف يتكلمون، وهمسوا بكلمة واحدة: *الشحنات، الشحنات، الشحنات...*

كنتُ أنا أستقبل تلك الشحنات. فقد أُصيب تشيانوف آنذاك بمرض التيفوس ورقد، فصرتُ أُدير دائرة النقل مدة شهر كامل –طوال شهر أغسطس (آب). حُرِمتُ حينها من النوم تقريباً، لكنّي نجحتُ في مهمتي. الشيء الرئيس– عدم التفكير في الناس، بل في العمل فقط. كانت المهمة تنحصر في توزيع الشحنات بين البلدات، إذاً، عليَّ أنْ أوزّعها: أنْ أُرسِل الحمولات كلها، حتى آخر رطل، إلى خارج المدينة. وألّا أهتم بالحشد الذي سيتجمع بالتأكيد أثناء التفريغ ويبدأ في الشكوى. وأنْ أستعمل الحرّاس والحراب، وإذا اقتضى الأمر – إطلاق النار على الحشد حتى الموت. وهذا كل شيء.

كلا، ليس هذا كل شيء. بدأتُ ألاحظ أفكاراً سيئة تراودني –وكلّها تخالف ما كنت أفعله. تارة أتذكَّر قطار الدعاية الذي نُقِلَت فيه الشوكولاتة سراً– مَن الذي أُطعِم تلك الشوكولاتة؟ وأين؟ وتارة ألاحظ أنني أحصي اللاجئين في المحطة من رؤوسهم – أسيرُ على طول رصيف المحطة، وشفتاي تهمسان، إنهما تواصلان العد من تلقاء نفسيهما، وقد تجاوز العدد الألف... بشكل عام، كان تشوّش كبير في روحي، لم تكن شخصية كافية لعمل المسؤول. شخصيتي ضعيفة جداً.

بطريقة ما، عرف الناس أنني «المسؤول عن جميع الشحنات»، – ليس أولئك الذين يتسكعون في المحطة، بل بشكل عام جميع الناس في المدينة.

نظروا إليَّ مثلما ينظرون إلى إله. ما إنْ أذهب إلى مكان ما في السوق أو إلى حِصن المدينة لشؤوني، أجد الناس يحدقون إليَّ إما بنظرة خوف أو بنظرة توسل. الجميع يحدقون: الفلاحون النازحون، الأولاد المُشَرَّدون، عابرو السبيل من أهل المدينة. أيّ إله أنا؟ فأنا نفسي في ذلك الوقت كنت أعاني من تقلصات في معدتي بسبب الجوع: كان رأسي صافياً، ولكن معدتي تنبض مثل القلب.

وصار الناس يتحدثون معي: أوقفوني في الشارع أو طرقوا مكتبي وتحدثوا. ما يثير الدهشة، يا جدي: لم يطلب أحد الطعام، ولم يقل «أطعمني!» لقد طلبوا النصيحة فقط.

الرجال – يسألون حول ما يمكن وما لا يمكن وضعه في الطعام: نشارة الخشب والورق ونفايات الفراء. أما النساء فأسئلتهنّ أكثر حول الأطفال.

قالت إحداهن إن ابنها البالغ من العمر سنة واحدة قضم إصبعين من أصابعه من الجوع. وسألت: إذا ما قضم الأصابع الباقية فهل يبقى على قيد الحياة؟

وسألت امرأةٌ أخرى: إذا لم نستطع إنقاذ الأطفال - فكيف يمكن التعجيل بموتهم، حتى لا يتألموا؟

وجاءت الثالثة لتطالب بشهادة مختومة تؤكد أن لها الحق في أكل طفلها. وكانت تقول، إنه، طفلي، أنا أنجبته بنفسي.

كنتُ أطردهم، لأني لم أكن أعرف ماذا أجيب. ذات مرة أردت أن أهرب بنفسي – أنْ أغادر المكتب وأبتعد عن المدينة فحسب، طالما أني ما زلت أمتلك القوة. لكني لم أهرب.

اشتقت إلى تشيانوف كثيراً، كنت أزوره بين يوم ويوم. بدأت صحته تتحسَّن، لكنَّ جسمه أُنهِكَ وهزُل، وصار بالكاد يقدر على الحركة. وعندما يراني، كان يبتسم دائماً، ويقول: لقد أصبحنا، أنا وأنت، فزاعتَين، ولن تفهم أيّ منا المريض بالتيفوس. أراد أنْ يشجّعني فحسب.

في نهاية أغسطس (آب)، كان من المتوقع وصول قطار آخر يحمل المواد الغذائية: الدقيق والبازلاء والسكر والزبدة، بحمولة يصل وزنها

الإجمالي إلى ألف رطل. انتشرت الشائعات على الفور بأنَّ: القطار قد تحرك بالكاد من موسكو. فسال لعاب سكان قازان كلهم. أنشد المشردون في جميع الشوارع بصوت عالٍ أغنية عن البازلاء، وازداد عدد الجوّابين الذين ارتحلوا إلى المحطة، قرى بأكملها - لم تعد ساحة المحطة مجرد ساحة، بل صارت عبارة عن مخيّم غجرٍ ضخم، لا تمر من خلالها عربات الخيول إلا بصعوبة بالغة.

جلست في المكتب مثل فأر في حفرة - لم يعد بإمكاني تحمل نظرات الناس. إذ صاروا يحملقون إليَّ أكثر! لقد أحرقوني بهذه النظرات، التي أثارت دهشتي. وعندما عرفوا أنّي لا أخرج إلى الشارع، صاروا يحدقون إليَّ من النوافذ. فاضطررت إلى تغطية زجاج النوافذ بالجرائد.

في صباح اليوم الذي كان من المفترض أن يصل فيه القطار المعجزة، تدفق الناس على أرصفة المحطة عند الفجر وجلسوا منتظرين. ففكرتُ مع نفسي، أنه إذا ما جاء الأمر مرة أخرى بإرسال الشحنة إلى البلدات، فستحدث أعمال شغب. الناس يتضورون جوعاً وضعفاء، ولن يتسببوا في الكثير من الأذى، لكن الشرطة ستطلق عليهم الرصاص عبثاً. وحتى أنا نفسي لم أعد أمتلك القوة كي أُمَرِّر الزيت والسكر من جانب الأفواه الجائعة ولا أحد يعرف إلى أين أرسله.

ولكن جاء الأمر أسوأ من ذلك: أوقِف القطار على المسارات الاحتياطية وانتظر حتى إشعار آخر. فأسرعت إلى مجلس سوفيت المدينة. ورحتُ أصرخ، ما هذا الأمر. إنَّ قطاركم المُحمَّل بالأغذية لن يقف مدة ساعة في ساحة الانتظار -سوف يهبّ الناس كالعاصفة وينهبونه. هل تريدون إشعال انتفاضة في المحطة ضدي- إنكم توقِّعون أمراً على موت المتمردين الجوعى والجنود على حد سواء الذين سيسقطون صرعى أثناء الهجوم. وصرختُ: الناس عندي يموتون هكذا من دون تدخّلكم - كل صباح تغادر المحطة عربة يجرها حصان مليئة بجثث المعاقين المُقعَدين.

فردّوا عليَّ: أوقف الهستيريا. الحمولة كبيرة جداً، القرار بشأن توزيعها تتخذه المراجع العليا. وحتى الآن لم يتخذوا القرار اللازم. المسألة سياسية.

هم أنفسهم يقولون، إننا ننتظر الأوامر. وحتى ذلك الحين، نأمرك بتأمين الحماية، التي تقع على عاتقك وعاتق مدير دائرة النقل. إذا ما كانت هناك حاجة إلى تعزيزات، أخبرنا، وسنرسل خيّالة من الأكاديمية العسكرية، حتى وإن تطلب الأمر دزينة لكل عربة من العربات المحروسة.

فقلت لهم: عن أيّ خيالة تتحدثون؟ انتهت الحرب منذ مدة طويلة. إننا نريد إطعام الناس وليس قطع رؤوسهم. لديَّ أطفال يركضون حول المحطة، ما لا يقل عن ألفي طفل.

فقالوا، هو ذا مربط الفرس. لديك هرج ومرج من مختلف الأجناس في المحطة. الوضع لديك خالٍ من الترتيب. طالما أنك تركت هذا يحدث، فراوغه. افعل كل ما بوسعك من أجل حماية القطار.

فسألتهم، وإلى متى أفعل ما بوسعي؟ متى ستأتي أوامركم السياسية؟

فقالوا، لا يمكننا أن نعرف. لكننا سنخبرك على الفور.

أما أنا فأُخبركم الآن. لن أضع القطار في ساحة الانتظار وأثير شغب الناس. إذا لم يصدر قرار قبل وصول القطار، فسوف أتخذ هذا القرار بنفسي: سأفتح العربات وأوزع الطعام على الناس.

فراحوا يصرخون، ستذهب مخفوراً إلى المحاكمة على الاستهتار الإجرامي والتخريب أثناء تأدية الخدمة الرسمية.

فأجبتهم، سيأتي القطار في المساء (أجبتُ بهدوء شديد، وصوتي لا يرتجف، برغم أنَّ كل شيء في أحشائي يخفق، كما لو كان من الصقيع الشديد). عجِّلوا مَراجِعكم العليا.

قلتُ ذلك وخرجتُ.

في الساعة السادسة بعد الظهر وصل قطار المواد الغذائية والصحية إلى قازان. ولكن الأوامر اللعينة لم تصدر.

وقفت العربات على المسار الأول (عربات الدرجة الثالثة مغطاة بالقصدير، وتحمل علامة الصليب الأحمر على الجانبين) إنه قطار طويل. حول القطار جنود يحملون بنادق ذات حراب. وحول الجنود - جياع،

يشكلون حلقة كثيفة. ينظرون إلى نوافذ عربات القطار. ومن تلك النوافذ، تنظر إليهم الممرضات في أرديتهنّ البيضاء خائفات. والجميع يترقّبون.

وأنا أترقّب - عند التلغراف. لكن لم يأتِ القرار السياسي من مجلس المدينة، ولا أيّ خبر على الإطلاق. ليس هناك شيء.

كنتُ أنظر إلى الشارع -في البداية كل خمس دقائق، ثم كل دقيقة: الناس قلقون. في البداية، كانوا يصرخون فرادى، ثم بدأوا يولولون جمعاً. سرى هذا العواء عبر الحشد مثل الريح- على طول القطار، ذهاباً وإياباً. نظرتُ، وإذا بي أرى العصي والحجارة تومض في الأيدي. فما إنْ يُقذَف الحجر الأول في النافذة - فأحسب أنَّ كل شيء سيتحرك من تلقاء نفسه، ولن يكون بمقدورك أنْ توقفه.

لكن لم يأت شيء من المسؤولين.

ثم غادرت المكتب وأخبرت رئيس الممرضين بالعكس: زعمتُ أنَّ التعليمات قد وصلت أخيراً - بأنْ توزَّع المواد الغذائية على الناس مباشرة في المحطة ويُنَظَّم إطعام عام للجياع اليوم.

أُعلِن ذلك للناس. وعلى الفور توقفت الصرخات -كما لو قُطِعَت. واختفت العصي والحصى من المكان. واصطف طابوراً جميعُ مَن عاشوا في المحطة- وكان عددهم بالآلاف: من دون صخب أو عراك، وقفوا بعضهم خلف بعض، وضمّوا الأطفال إليهم ووقفوا مطيعين.

بدأ ذلك الطابور عند عربة القطار الأولى، حيث وِضِعَت طاولة التوزيع، وامتد على طول القطار بأكمله عبر المحطة كلها، إلى الأفنية الخلفية، ثم انحنى على شكل حلقة وعاد إلى المحطة، وسار على طول ساحة المحطة وتدفق إلى شوارع المدينة باتجاه حصن المدينة. لم تكن له نهاية - كان يقف باستمرار في ذيل الطابور أشخاصٌ جدد، الذين هرعوا مسرعين من المدينة على أثر الشائعات حول الإطعام القادم.

هرعت الممرضات على طول المسارات: جلبنَ الماء والحطب والأواني من مركز الإطعام المحلي. وطَهَينَ في القطار من البازلاء التي أُحضِرَت عصيدةً - بالملح والزبدة والسكر. تعالت الرائحة لدرجة أن رأسي

بدأ يدور. ناهيك عمّا حدث للناس في الطابور، فقد كاد لعابهم يسيل على أرصفة المحطة.

طُهِيَت العصيدة لمدة ساعتين، والناس يقفون من مدة ساعتين كما لو نبتوا من الأرض. إنهم، يا جد، حتى لم يتحدثوا فيما بينهم -لقد وقفوا وانتظروا مطيعين حتى يمكن إطعامهم. صلى بعضهم. أين ذهب كل غضبهم ذاك؟ كنت أخشى شيئاً واحداً: أن تصل خلال هاتين الساعتين الشائعات إلى مجلس المدينة، ويهرع المسؤولون إلى المحطة ويمنعون تقديم الطعام؛ وحينذاك ستبدأ الفوضى- ولا أحد يعرف ما ستكون عواقبها... ولكنهم لم يهرعوا إلى المحطة ولم يمنعوا تقديم الطعام للناس.

وها هي العصيدة جاهزة. فسألتني رئيسة الأخوات الاجتماعيات هل نقدّم الحصة بكمية كبيرة أم صغيرة. كان الأمر بالنسبة لي سواء، فأنا على كل حال المسؤول عن هذا التصرف الاعتباطي وسأتحمل نتيجته. فقلت، اجعلوا حصة الفرد أكبر. أكبر كمية يسعها الطبق.

وهكذا أطعمنا الناس – بأوعية ممتلئة. وأُعطيَ الأطفال الذين لم يتجاوز طولهم ارتفاع الطاولة نصفَ حصة، ومَن هم بطول الطاولة أو أطول حصلوا على حصة كاملة. لم يكن لدى أحد ملاعق، فشربوا الحساء من الحافة. ثم لعقوا الأوعية بعد أن ارتشفوا ما فيها إلى درجة لم تعد بحاجة إلى أنْ تُغسَل.

أثناء ما كان أحد القدور يوَزَّع، كان القدر التالي يقرقر على الموقد -وهكذا واحداً تلو الآخر، حتى حلول الظلام. ومع حلول الظلام، أمرت بإضاءة الفوانيس الموجودة على أرصفة المحطة (عادة لم تكن تُضاء، اقتصاداً بالنفط)- ثم استمر الطعام حتى الفجر. بحلول الصباح، لم يقل الطابور، ولكن كان هناك الكثير من الأخوات الاجتماعيات في القطار – ذهبت النوبة الأولى للراحة، واستلمت النوبة الثانية محلها.

لم أنم في تلك الليلة ولم أرغب في النوم. وحتى لم أرغب في تناول ذلك الحساء، يا جدي. كنت أسير فحسب من جانب الناس المصطفين من أجل التوزيع وأنظر إليهم -لأول مرة في شهر أغسطس (آب)، نظرت في أعينهم من دون حزن وغضب، كما لو أنَّ شوكة قد انتُزعت مني. كنت أرغب

في معانقتهم جميعاً- الجميع حتى آخر مُقعَدٍ طريح على عربة. جثا رجل عجوز أمامي على ركبتيه، واندفعت امرأة لتقبيل جزمتي - لم أغضب منهم حتى، هل تصدقني؟ في تلك الليلة لم أستطع أن أغضب.

اعتقدتُ أنها كانت آخر ليلة لي حُـرّاً: غداً سوف يكتشفون الأمر -ويقبضون عليَّ. لا أمل لي في دخول السجن- فالسجون ممتلئة إلى درجة لم تعد تستقبل المزيد. إذاً، ليس أمامي سوى معسكرات النفي والأشغال الشاقة. هل تصدق، يا جدي، لم يعتَرِني أيّ خوف. استولت على قلبي سكينة وبهجة كأنَّ غداً العيد. بيد أنَّ يدَيَّ ورِجلَيَّ فقط لسبب ما تجمدت، على الرغم من حرارة الجو. ولكن لم يكن ثمة خوف.

وفي الصباح، جاء الأمر الذي كنّا ننتظره: أنْ تُترَكَ شحنة القطار كاملة في المدينة. وأنْ توَزَّع على مراكز الإطعام لتأمين الغذاء للناس.

فابتسمتُ ابتسامة ساخرة وألقيتُ بالورقة في الدلو: فقد أمّنّا الغذاء للناس بالفعل. كنت أبتسم، والدموع تتدحرج على خدّيَّ، مثل المرأة. لحسن الحظ، نوافذ المكتب كانت مغطّاة بورق الجرائد، فلم يَرَني أحد.

وسرعان ما جاء المسؤولون من مجلس المدينة مسرعين (فقد وصلتهم، أخيراً، أخبار ما يجري في المحطة). صرخوا وهددوا، ولكن ليس بشدة: فما عساهم أنْ يقولوا، لمّا كان أمر المَراجِع العليا قد نُفِّذ - حتى لو كان قبل يوم واحد من استلامه، وليس في جميع مراكز الإطعام، بل في مركز واحد فقط. لقد حالفني الحظ.

أطعمنا المدينة طوال أسبوع -من دون توقف لمدة دقيقة، حتى نفد آخر كيس من البازلاء وآخر كيس من السكر. وأرسلنا جميع القطارات القادمة إلى المسارات الخلفية، وأصبح المسار الأول في ذلك الوقت غير سالك- تحول إلى مقصف. وزّعنا تسعين ألف وجبة طعام. بقي الطابور، كما كان، بطول فرسخ، وظلَّ على هذا النحو حتى الساعة الأخيرة: بعد أنْ يتناول الناس ما في الوعاء، كانوا يذهبون ليقفوا مرة أخرى في ذيل الطابور، حتى يكونوا بعد يوم مرة أخرى في مكان التوزيع. متى وكيف كانوا ينامون، لا أعرف. أعتقد أننا أطعمنا عشرة آلاف أو اثني عشر ألف شخص بهذه الطريقة.

خلال هذا الأسبوع، مات مائة وخمسون شخصاً: فُطمت مِعَدُهم عن الطعام ولم تستطع تحمل البازلاء. ربما، كانت ستستطيع تحمّل البازلاء لو أُعطوا حصصاً أصغر. أو ربما، لا. قطَعْنا الحصص الغذائية من اليوم الثاني، لكن الناس ماتوا. مات جميع المُقعَدين. مائة وخمسون من الموتى مقابل اثني عشر ألف من الذين أُطعِموا – هل هذا كثير أم قليل؟ ما رأيك؟

امتلأت محطة القطار بالقيء حتى النوافذ. وكل ذلك لنفس السبب: لقد نسيَت البطون تقبّل الطعام. كان من المؤسف أن تضيع العصيدة عبثاً، ولكن ما عسانا أن نفعل. ثم انتشرت الكوليرا بسبب القذارة، وعمَّت المدينة – لم تتمكن الجهات الصحية من القضاء عليها مدة نصف عام. كم من الناس ماتوا في الوباء، لا أدري. ولكن حتى هناك تجاوز الحساب المئات. فهل هذا كذلك خطأي؟

قدِم سكان ثلاث قرى أخرى إلى قازان عندما سمعوا عن العصيدة التي تُوَزَّع بلا انقطاع ليلاً ونهاراً في المحطة. وتجمع حشد كامل من الأطفال المشردين من المناطق المحيطة، ما لا يقل عن خمسة آلاف – مدة طويلة بعد ذلك الوقت، تجولوا في المدينة ورقدوا في ثكنات مرضى التيفوئيد. أنا بالتأكيد لستُ مِن ترك هؤلاء بدون سقف فوق رؤوسهم. لكني أنا مَن استدرج الكوليرا إلى المدينة.

حملت الأمهات الأطفال الرّضَّع إلى المحطة: تركنهم ليلاً عند العجلات أو على درجات قطار المعجزات، وهربن بأنفسهن. ستون رضيعاً خلال أسبوع. في الصباح كنت آخذهم إلى دار رعاية الأطفال الرضَّع. كانت المديرة تشتمني وتأخذ الأطفال؛ في كل مرة أعطيتها رشوة –وعاءً من الشوربة. ستون طفلاً تُركوا من دون ثدي أُم– هل، بسببي أيضاً؟

أفكر في هذه الأرقام كثيراً، يا جدي. ربما، لم يجدر بي أن أتصرَّف بطيش وأبدأ في إطعام الناس؟ ولكن لولا ذلك لأثار الجياع أعمال شغب، ولَقَمَعَهُم الجنود. كان من الممكن أن يُطلق عليهم الرصاص – ولَقُتِل منهم دزينة أو دزينتان، لا أكثر. وليس مائة وخمسين! ولا خمسة آلاف!

وبعد ذلك أفكر: كلا، لم يكن بمقدوري أنْ أتصرَّف بشكل آخر. أنا

لست صديقاً للأرقام -لا يمكنني التضحية بواحد لإنقاذ مائة. باختصار: شخصيتي- ضعيفة.

***

سار دييف في الصحراء لمدة أربعة أيام. لم يكن يعرف أنها كانت أربعة. كان يمشي فحسب، ويسقط، وينهض ويسير مرة أخرى، ويسقط من جديد.

رأى عصفوراً أصفر يقفز على جذمور، فأطلق النار عليه - أطلق ثلاث رصاصات، لكنه أخطأ.

ورأى سحلية، فأطلق عليها النار - فاختفت في الرمال.

رأى حقلاً طينياً يابساً متشققاً إلى شظايا صغيرة. لسبب ما، أحصى هذه القطع، ولكن قبل أن يصل إلى الألف ضل العدّ وتوقف.

رأى قاع مجرى نهرٍ جاف - على ما يبدو، أحد روافد نهر سيحون الجافة. أراد النزول والسير على طول القاع الرملي، لكنه خاف ألّا يتمكن من الصعود مرة أخرى.

ورأى فاطمة مرة أخرى.

على منحدر تلة وجدت قشرة ملحية ولحسها.

ذهب جنوباً، بحثاً عن الجبال، لكنه لم يَرَها.

ذهب باتجاه نداء يمامة حلقت فوقه وزعقَت، لكنَّ اليمامة خدعته، ولم تقُده إلى أي مكان.

وجد آثار أقدام شخص ما - ففرحَ، لكنها كانت آثار أقدامه.

وجد جملاً ميتاً، قد تحول تقريباً إلى رمل - كان لا يمكن أكله.

رأى مرتين امتداداً أزرقَ لامعاً بعيداً - لم يتمكن قط من الوصول إلى الماء، في كلتا المرتين فقد رؤيته.

شعر في الليل ببرد شديد جداً. أحياناً كان الجد يأتي، ومن خلال الحديث جرى وقت الليل الأسود أسرع.

في الصباح لعق الندى: كانت المادة الخام تظهر بشكل عابر عند الفجر

على الصخور الملساء، وكان دييف يتحيَّن اللحظة العزيزة، ويستيقظ في وقت مبكر.

ذات صباح فتح جفنيه ورأى الموت. التقيا هنا.

كان الموت صغيراً، بحجم طفل، لا أكبر، تشبث بساقَي دييف ونظر إليه - وحدق بلا انقطاع، كما لو كان يأكله بعينيه. شفتاه مقلوبتان مثل شفَتَي الجمل ومنخرا أنفه مقلوبان. واسع الجبين، مثل الخفاش، وكذلك متجعد. تجاعيده مليئة بالغبار، ولهذا السبب يشبه وجهه حبّة الفطر. إنه قبيح.

وضع دييف يديه على حلق الموت النحيل وبدأ يخنقه. لم تبقَ قوة في أصابعه، لكن دييف كان يعلم أنه لا يخنقه من أجله شخصياً -لم يكن لديه خوف على الإطلاق- بل من أجل كل شخص أخذه الموت أو كان على وشك أنْ يأخذه. فجاءته القوة من مكان ما.

من أجل سينيا التشوفاشي، الذي هرب من الكوابيس طوال حياته القصيرة، لكنه لم ينجُ منها قط.

من أجل السقم المُقعَدين الثلاثة عشر.

من أجل الأربعين الذين ماتوا بالكوليرا.

من أجل الأولاد التسعة، الذين أرادوا فقط معرفة مذاق الشوكولاتة، لكن بدلاً من الحلو، أخذوا رصاصة في البطن.

من أجل المائة امرأة اللائي احترقن في مركز استلام المحاصيل الزراعية.

من أجل الأربعين الذين ماتوا تحت مراوح الزوارق العسكرية.

من أجل المائة والخمسين. والستين. والخمسة آلاف...

من أجل المائتين والعشرين. والسبعين. الثمانمائة.

من أجل الستمائة. من أجل الدزينة. من أجل مائة أخرى.

من أجل الأربعمائة. والسبعمائة والتسعين.

من أجل الألف وخمسمائة. ومن أجل التسعمائة وواحد.

من أجل السبعة عشر ألفا وثلاثمائة وستين.

من أجل الثمانية آلاف. من أجل الخمسة عشر وسبعة عشر.

شعَر بالاختناق.

من أجل أمهات الرضع الكتاكيت اللائي يتركن أبناءهن على درجات القطارات المغادرة.

من أجل الآباء القوادين الذين يبيعون بناتهم بصفة حريم للغرباء.

من أجل الأطفال، الذين يرضعون حليب الكلاب والذين يأكلون الطين، والذين يرتدون البراميل والملصقات القديمة، والذين ينادون والدهم بالتبني بصفته الأم. والذين منزلهم الطريق، وأصدقاؤهم الكوليرا والإسقربوط. والذين كانوا رهينة لزمن طحن اللحم - بالجوع والدمار والحرب. من أجل ثلاثة ملايين من هؤلاء الأطفال، الذين يستعد «المنقذون» من أمثال بيلايا للتضحية بهم بكل بساطة.

ومن أجل «المنقذين»، الذين تصلبت أرواحهم وتحولت إلى حديد بسبب مثل هذه القرارات...

عندما توقف الموت عن الارتعاش، أخرج دييف المسدس من جيبه، وأدخله في فمه المفتوح الذي تدلى لسانه منه وسحب الزناد. فنقرَ السلاحُ بصوت جاف - لأنّ البكرة كانت فارغة.

إنها غلطته: لقد أطلق الإطلاقات كلها على السحالي.

وعند ذاك سحب السبطانة ولوَّحَ بها ودفعها، مثل السكين، في مَحْجَر عين الغريب الناعمة.

***

استيقظ من طعم الماء على شفتيه. تدلّى شيء أسود وكثيف أمام عينيه. فأغمض جفنيه، وسقط مرة أخرى في الدوار - هرب من السواد، واستيقظ مرة أخرى. فرأى الشيء الأسود مرة أخرى. هل هو سحابة؟ ضيَّق عينيه، لكنه لم يستطع الخروج من الإغماء. خيّم عليه الشيء الأسود وسقاه ماءً. فاصطكّت أسنان دييف على حافة الجرة الفخارية. وبعد أن شرب حتى آخر رشفة، فتح عينيه: ليكن ما يكون، فما عسى أن يحدث. لكنّ هذا السواد تحرك مبتعداً، فقد سمع دييف طرقاً رتيباً. هل هو قبقاب خشبي؟

امرأة، مكللة بالسواد. تضع عباءة من الشعر الأسود على رأسها.

في الزيارة التالية، استطاع أنْ يرى يديها اللتين مَدّتا إلى شفتيه وعاءً من مرق اللحم – يدَي امرأة عجوز، بجلد مرقط وأصابع مجعدة. بسبب المرق، الذي كان أول طعام خلال عدة أيام، انجذب إلى النوم بشكل لا يقاوم، ولم يستطع معرفة أي شيء آخر.

أتت إليه مرتين في اليوم: عندما يخفّ الظلام من حوله بسبب ضوء النهار وعندما يتكلل الظلام مرة أخرى – أي في الصباح والمساء. وسرعان ما صار دييف قادراً على أنْ يتلمَّس المساحة المحيطة به: كان مستلقياً على حزمة من العشب الجاف، مغطاة ببساط من اللباد، على أرضية صخرية في قبو. الضوء يخترق من فوق، من علو درجات كثيرة مبنية من حجارة كبيرة مثبتة بالطين. يبدو أنه كان هناك ساكن آخر في الملجأ: أثناء الزيارات، انطلق الضيف الأسود أولاً إلى الزاوية البعيدة، حيث كان هناك شخص ما يتقلب ويتنهد أحياناً، وبعد ذلك فقط تأتي إلى دييف.

وعندما توقف الحلم والواقع عن التداخل في رأسه، ولم يعد جفناه ملتصقَين بعضهما ببعض من التعب، انسلَّ دييف من مربضه وصعد الدرج، وعدَّ السلالم أولاً بمرفقيه، ثم بأضلاعه وركبتيه. أخيراً دفن وجهه في ألواح سميكة مشوهة من القِدَم: إنه باب. تصاعدت رائحة البرد والدخان والطعام من تحت الباب.

كان هناك ناس، كثير من الناس – يطقطقون بقباقيبهم على الأرض، ويصرخون بعضهم على بعض، ويصلصلون بالحديد. صهل حصانٌ، فأجابه آخر، في مكان ما قريب. وفي مكان ما بعيد، ثغت خرفان، بصوت عالٍ وبكثرة. هل هذه قرية؟ أم مدينة؟

بدأ دييف يثغو على نحو أرقّ وأضعف من ثغاء الخرفان. أراد أنْ يهز الباب، بعد أنْ دفن جبهته فيه، لكنَّ الباب كان ثقيلاً جداً. وبعد أنْ أُنهِكَت قوته وأدرك أنه لا يستطيع التغلب على طريق العودة إلى المضجع، ألصق أنفه على شقّ الباب واستنشق بسرعة كل روائح سكن الإنسان: رائحة الرز المسلوق، وماء الغُسالة، والجلد، روث الخيل، والشاي والنفط، حتى غلبه النعاس.

استعاد وعيه على فراش القش المألوف. فرأى يدَي المرأة العجوز تمدّان إليه وعاء المرق. فنهض على مرفقيه وجلس. أخذ الوعاء وبدأ يشرب بنفسه – ارتشف من الحافة، فسقطت رقائق الحبوب الممزوجة في الحساء من شفتيه العاقَّتَين فالتقطها بأصابعه.

قالت المرأة السوداء شيئاً باستحسان، بصوتها الأجش من تقدم العمر، الذي يشبه صرير الخشب. لم يفهم دييف كلمة واحدة.

وبعد أنْ أجهد حلقه ولسانه وشفتيه وحتى أحشاءه، قال:

– أين أنا؟

ردت عليه المرأة باختصار بذلك الصرير غير الواضح مرة أخرى.

– أين قطاري؟

صرير آخر، ولكن أطول.

– من يرقد في الزاوية؟

أخذت المرأة العجوز الوعاء الفارغ وصعدت السلَّم.

– ينبغي عليَّ أنْ أخرج من هنا، على وجه السرعة! الأطفال ينتظرونني – جائعين في الصحراء. أنا آخذهم إلى سمرقند...

أُغلِقَ الباب.

وبهذا انتهى الحوار.

ثم توجّه دييف صوب الزاوية البعيدة وصاح:

– إيه، أنتَ، هل تسمعني؟

يقع مضجع دييف عند أسفل الدرج، والمضجع الثاني أعمق، في الظل. لم يكن بعيداً عنه، بضع خطوات فقط، لكن الإضاءة في القبو رديئة جداً لدرجة تبدو الزاوية الأخرى سوداء تماماً.

منحت عصيدة العجوز دييف القوة. فانقلب على بطنه وتوجّه في السواد على أطرافه الأربعة. تلمَّسَ التبن، هناك الكثير من التبن – نفس الحزمة الكبيرة التي لديه. ولحاف من اللباد. تحتها جسم صغير وساخن: الإنسان الصغير مصاب بالحمى.

مَن هذا الطفل؟ لماذا انتهى به المطاف في القبو مع دييف؟ ودييف نفسه ماذا يفعل هنا، هل هو محبوس، في هذه الحفرة الحجرية الغريبة (من مكان ما في أعماق الذاكرة ظهرت على السطح كلمة نادرة «زنزانة»)؟ وكم من الوقت مرّ عليه راقداً هنا؟

تذكَّر دييف بجلاء أيام المجاعة الأخيرة في القطار. وكيف أنَّ الجميع كانوا ينتظرون ظهور الجبال في الأفق. وكيف شربوا الماء الفاسد من الصهريج -نصف قدح لكل نَفْس، وللذئبة المُرضِعَة قدح كامل. وكيف نفد الحطب، وبعد بضعة فراسخ انقطعت حتى القضبان. وكيف أنه هو نفسه، في حالة من اليأس، اندفع يبحث عن طريق- وضلَّ.

ما حدث بعد ذلك لم يتذكره جيداً. أرض حمراء ذات شقوق كثيفة. ورواسب ملح على شكل نتوءات. ومغارس بلور على منحدر رملي. وسيقان شجيرات الرمث -كثيرة، غابة كاملة. صور، وصور- كالومضات، كما هو الحال في شاشة السينما: تكون مرئية بوضوح، لكنها لا تضيف أي قصة بأي شكل من الأشكال.

نعم، سار إلى ما لا نهاية: بحث، وبحث، وبحث... تجمد من البرد... وسار باتجاه صوت شخص ما... صوت مَن؟ صوَّبَ على طير. هل أصابه؟ (مدَّ يده بجيبه: لا يوجد مسدس ولا تفويض، لقد أخذوا كل شيء، الحقيرين!) يبدو أنه كان يهذي من الجوع، مُستحضراً معارفه في ذاكرته ومتحدثاً معهم- تذكر الكثير وفكر بالكثير. بدا له، أنه دفّأ زاغريكا الأحمق، الذي تبع دييف، بدافع العادة، ثم اختفى لاحقاً في اتساع الصحراء.

وربما، هو ذا زاغريكا، الذي يرقد الآن في الزاوية المظلمة؟

أمسكَ دييف بارتياح بالجسد الصغير المحموم، محاولاً التعرف عليه عن طريق اللمس. الشفتان -نعم، نعم، على ما يبدو، مقلوبتان من الداخل إلى الخارج، مثل شفتَي الجمل. الجبين والهامة- نعم، نعم، على ما يبدو، محدبان، ومليئان بالدرنات. والأذنان- على ما يبدو، منتصبتان.

- أنتَ، أخي، زاغريكا؟

السعادة أنْ يعثر على صبي - وإن كان مريضاً ومُنهَكاً، لكنه على قيد

الحياة. على الرغم من أنه لم يكن خطأ دييف في أنَّ هذا المجنون قد قاومه واختفى، لكنه تصور الأمر كذلك. وعلى الرغم من أنَّ دييف ليس مسؤولاً عن التعلق الغريب لهذا المخبول به، فإنه حسِبَ نفسه مسؤولاً.

كان يرغب في إخراج الصبي إلى فتحة الباب ورؤية وجهه، لكنَّ الصبي تأوه من الألم – فترك دييف المريض في مكانه.

صعد دييف الـدرج وطـرق الباب، أو بالأحرى خدشه، بيديه الضعيفتين، وصاح:

- أعطوني ماء، أسبرين، ثلجاً! الطفل مصاب بالحمى!...

لم يرد عليه أحد. هكذا أمضى دييف ذلك اليوم: تارة ينزل إلى الظل، إلى الصبي الفاقد للوعي، وتارة يتسلق الدرج إلى الضوء الذي ينضح من الشقوق ويطلب (مِمَّن؟) الدواء للمريض والحرية لنفسه. إنَّ الاهتمام بشخص آخر أنعشه أفضل مما ينعشه الحساء: وهكذا لم يرقد على مضجعه قط.

لم يُفتَح الباب إلا في المساء. دخلت المرأة العجوز. وأومضت خلفها صورة ظلية كبيرة لرجل يضع بندقية على كتفيه. لم يحاول دييف حتى القفز إلى الشارع، بل بدأ يثرثر من خلال الشق المفتوح: حول الصحراء، والقطار، والأطفال... لم يسعفه الوقت لقول الكثير: فقد أُغلِق الباب.

عندما رأت العجوز دييف قادراً تماماً على الكلام ولا يرقد بلا حراك، تكلمت باستحسان مرة أخرى، في لغتها الخاصة، بصوتها الذي يشبه الصرير. بالكاد فهمت حديثه الساخن. فأحضرت الطعام للرجل والطست والماء للطفل. كان الماء ذا لون أسود كثيف، يبدو أنه مشبع بالأعشاب.

مسح دييف الصبيَّ بهذا النقيع –طوال الليل، وأحياناً يقطع المسح من أجل النوم. فجسد دييف الضعيف لا يزال بحاجة إلى الراحة، لكن دماغه النشط لم يسمح له بالراحة: كان يوقظه كل ساعة ويقوده إلى جاره– ليجسَّ جبينه الساخن، ويغسل العرق من جسده ويدثّره بإحكام أكثر باللحاف – وقد أعطى دييف لحافه اللباد للصبي.

من المثير للدهشة أن المرأة العجوز لم تكن بحاجة لمصباح: نزلت بلا خوف على الدرجات الشديدة الانحدار، وسقَت المريضين المسجونين

وأطعمتهما، واعتنت بالطفل، على الرغم من أنَّ الظلام ساد في القبو وليس العتمة. هل ترى في الظلام؟ دييف لم يرَ، ولم يتمكن من النظر إلى وجه جاره خلال الأيام القليلة التي قضاها معه.

هذا ما قرره دييف: أنْ يقضي يوماً آخر يأكل في الزنزانة، ويستجمع قوته، ويهرب في بداية الليلة القادمة. يختبئ عند المدخل، وينتظر صوت الترباس، وبمجرد أن يُفتح الباب قليلاً – ينغمس في الفجوة. وأنْ يحاول ألّا يضرب المرأة العجوز ويسقطها أرضاً حتى لا يؤذيها. وأنْ يتعامل، على العكس من ذلك، مع الحارس الذي يحمل البندقية، ويجب أن يسقطه. وأنْ يندفع إلى البوابة الأولى التي تصادفه، ثم يواصل طريقه في الأرض الواسعة.

خلال الأيام التي أمضاها دييف في القبو، درس الحياة في هذا المكان عن طريق حاسة السمع: في الصباح وبعد الظهر كان الناس مزدحمين دائماً خارج الباب، لذا كان من غير المحتمل أن يستطيع الهروب من خلال الزحام. وأثناء مجيء المرأة العجوز في وقت متأخر، تخمَد الجلبةُ في الخارج، ولا يُسمَع سوى صهيل الحصان في مكان قريب -إذاً، ينبغي عليه الهرب في هذا الوقت. أولاً، يبحث عن مركز الشرطة. وإذا لم يكن في هذه القرية المهجورة مركز، فسيبحث عنه في أقرب بلدة أكبر. فدييف، على كل حال، ليس في بعض بلاد فارس في العصور الوسطى، بل في تركستان السوفيتية! بمساعدة الشرطة، سيُجَهِّز حملة للبحث عن القطار، وسيأتي أيضاً مع الحملة إلى هذا القبو- ويرسل الصبي إلى المستشفى، بغض النظر عن هويته، ويقدّم أصحاب المنزل إلى المحاكمة. وهذا كل شيء.

***

اقتربت الخطوات خارج الباب.

وقف دييف على درجة السُّلَّم العلوية، رابضاً مثل الملاكم، ومحدقاً في الشّق من الأرضة -كانت الفجوة تتألق بضوء المساء الهادئ، الذي يَعِدُ بغروب الشمس الوشيك. الأربطة مشدودة بإحكام ومغروزة بالحذاء حتى لا تعرقله أثناء الجري. والسترة العسكرية- زرَّرَها حتى الحلق.

اقتربت الخطوات خارج الباب، لكنها لم تكن خطوات المرأة العجوز الخفيفة، ولا صندلها الخشبي. دَبَّ عدة رجال -ولا حتى اثنان، بل أكثر- باتجاه القبو، وهم يتبادلون الحديث ويقعقعون على الحجارة بحَذْوات أحذيتهم.

لا يمكنه التعامل مع عدة أشخاص كلا، لا يستطيع أنْ يتغلب عليهم بدون مسدس، ووحده، وبعده ضعيف من الإرهاق.

صلصل المزلاج الحديدي.

فُتحَ الشق على مستوى فتحة الباب كلها. ظهرت فيه ثلاث صور ظلية: بدت - برؤوس عملاقة، اتضح أنها بقبعات من فرو الثعلب. ثلاثة كلهم لديهم بنادق موجهة نحو دييف. بدأوا يصخبون على طريقتهم الخاصة، ويحرّكون تلك البنادق، ثم التفتوا إليه.

هل غضبوا لأنه يقف عند الباب؟ رفع دييف كفيه على نحو مسالم، وهبط السلم عائداً إلى الوراء، لكن الرجال راحوا يصخبون بصوت أعلى. هل يدعونه إلى التقدم إلى الأمام؟ صعد عائداً إلى المخرج وسار فوق العتبة.

حركوا مواسير البنادق، وأشاروا له بها إلى الاتجاه، وصاحوا على نحو آمر - فسار، محرِّكاً ساقيه ببطء، ونظر إلى مرافقيه وإلى المناطق المحيطة به.

مبنى منخفض من طابقين يحيط بفناء مربع. فوقه، في المربع نفسه، توهّجت سماء ما قبل الغروب. في إحدى الزوايا منارة مسجد. وبدت الزاوية الأخرى قد التهمها انفجار قوي أو قصف: لم يعد هناك ركن، بل مجرد أطلال، وفجوة كبيرة واحدة، وخلفه تمتد إلى الأفق أرضٌ جرداء - إنها الصحراء.

هذا المنزل بأكمله -بدون نوافذ، وبأقبية مقوسة، لاحت منها ثقوب مظلمة بدلاً من الأبواب، مبنية من الطوب الأحمر المسطح، نصفه سقط من البناء، ذات مرة كان مغطى بالبلاط والفسيفساء، والآن يغشاه الغبار والشقوق فحسب- هذا المنزل بأكمله عبارة عن حطام كامل. ليس انفجاراً ما شوَّه الامتدادات ودمر عوارض الأرضية، بل فعل ذلك بها الزمن. وليس انفجاراً ما أزاح الطلاء الفيروزي من الجدران، بل فعل ذلك بها الزمن. الزمن أنبت

أشجار الشيح في الفناء المرصوف، وملأ الغرف بالرمل وقضم المسجد البَهِيّ ذات يوم، فلم يتبقَّ منه سوى هيكل ميت. كان ذلك خاناً لمبيت القوافل مهجوراً، ولا يقاس عمره بالسنوات، بل بالقرون.

عاش أناسٌ في الخان. بدت علامات سكنهم غريبة في هذا المشهد المهجور والهادئ إلى الأبد تقريباً. أُشعِلَت عدة نيران على الحجارة وجلس حولها رجال مسلحون ببنادق. واصطفّت عدة عربات خشبية وعربات مسقوفة ذات أعمدة بارزة، رُصَّت بصناديق وأوانٍ فخارية (تسد العربات الساحة إلى قسمين، وتفصل نصفها بمنزلة حقل للرعي تقف فيه خيول محلولة من عدّتها). ونُصِب زوج من الخيام الملونة في أقواس الطابق الأرضي. وفي الطابق الثاني –نُشرت سجادات وملابس لتجف بعد الغسيل. كلا، لم يعِش الناس هنا– بل لجأوا. لم يكن هذا منزلاً، بل ملجأ. مخيم للبدو الرحّل.

وهؤلاء البدو لم يكونوا رعاة مسالمين بل محاربين. على صدورهم تقاطعت أحزمة الخراطيش والمناظير. وعُلِّقَت على محازِمِهم الخناجر. وثمة بنادق تتكئ على الجدران وعلى الأرض... لم تُرَ تقريباً أي امرأة –إما أنهنَّ غير موجودات على الإطلاق، أو يختبئنَ. لكن دييف لاحظ ذات مرة كيف مرقت قامة ذات وجه مغطى على شرفة الطابق الثاني– ربما كانت المرأة العجوز التي يعرفها.

اقتيدَ دييف على طول محيط الفناء. طفت أقواس لا حصر لها مثل الثقوب السوداء، ومداخل مساكن الطبقة الأولى. فاحت رائحة عفنة من الثقوب. في أحدها، تجمعت كومة من الكباش، حيثُ تعالى من هناك ثغاء الغنم النعسانة. وفي الثقب الآخر، شيء يلمع بلا حراك – جسد معلق يرتدي رداءً مبطَّناً. لم ينظر أحد إلى المشنوق.

حتى من بعيد، فهم دييف إلى أين يقوده حاملو البنادق مخفوراً. كان أحد جوانب الفناء أكثر إشراقاً من الجوانب الأخرى، حيث توهَّجَت المشاعل المتدلية في جرار خزفية في الأقواس. توجد فوق الجزء المطروق من الشارع منصة طويلة فُرِشَت بحصيرة مخطَّطة بخطوط كبيرة. كان رجال

جالسين على الحصيرة ويأكلون. جلسوا القرفصاء في صفّ واحد بعضهم بجانب بعض وقعدوا بشكل مريح، يلتقطون الطعام من الأطباق المسطحة أمامهم بأصابعهم. ثلاثة عشر رجلاً - ليسوا بسطاء، بل من الناس المهمين جداً: كل واحد ينضح بالفخر والقوة، كما لو كان ثلاثة عشر ثوراً أصيلاً أو ثلاثة عشر نمراً احتلوا المنصة.

ولم يكن ذلك مجرد عشاء، بل كانت مائدة خاصة. كانت أصوات الرجال كأصوات النمور عالية جداً. وضحكاتهم رنانة بشدة. يصرخون بحماسة شديدة بعبارات لبقية الجنود، الذين جلسوا حول النيران، فيردّ عليهم أولئك بغيظ مُفرط. لم تكن هناك رائحة خمر أو فودكا في الفناء، ولكن كانت رائحة زيت محترق من المشاعل ولحم الضأن المسلوق -كان الناس سُكارى ليس بالكحول، بل مُنتَشين من فرحهم الشخصي. وكلما اقترب دييف من رفاق المائدة، ازدادت الإثارة المنبثقة عنهم وصارت ملموسة أكثر- كان الجو يغلي بالبهجة.

انحنى أحد الحراس باحترام، واندفع إلى وسط السُّفرة وهمسَ بشيء لرئيس الاحتفال. فلوَّح الرجل بيده، فاقتيد دييف إلى النور، أمام أعين المجتمعين.

ذات مرة كانت النوافير محفورة في الفناء، والآن لم يتبقَّ منها سوى قُمع ضحلة مع آثار الطلاء الأزرق. لاحت إحداها بلونها الأزرق أمام المنصة مباشرة. فدسَّ الحارس المرافق ماسورة البندقية نحوها. لم يعرف دييف ما أرادوه منه، فتردد قليلاً، فتلقى وخزة في ظهره هذه المرة. إلى هناك؟ فمشى نحو الأسفل.

وجد نفسه في قاع النافورة الجافة وغاص إلى كاحليه في الرمال والقُراضة المتعفنة وعظام السمك. من جانب وجِّهَت إليه نظرات المشاركين في المأدبة بدهشة، ومن الجانب الآخر وجِّهَت إليه بنادق الحراس.

استقام دييف - وصل وجهه إلى مستوى الحصيرة المخططة. لم يستطع النظر إلى أطباق الذين يتناولون العشاء، لكنه كان يرى الأشخاص أنفسهم رأي العين: لم يكونوا بعيدين عنه، بل على مسافة قامتين فقط. لكنهم إلى الأعلى قليلاً.

أسنانهم كلهم كانت قوية، ومن النوع الممتاز. كشّرت أنيابه السوداء منها والرصاصية والصفراء بابتسامات عريضة من كل مكان، وبرزت أكثر افتراساً من بين الشوارب واللحى الداكنة. ملابسهم كانت متنوعة: من الأردية الصوفية إلى السترات العسكرية الإنكليزية التي ارتدوها فوق قمصانٍ حريرية مُقَلَّمة. جميعهم يعتمرون أغطية الرأس، بعضها قبعات مزدوجة: طاقيات على الأوشحة، وعمامات، وطرابيش. كلهم طوال وضخام الجثة وأقوياء: بالكاد تسعهم المنصة ولا يدفع بعضهم بعضاً إلى الأرض. كانوا يثرثرون بلغتهم الخاصة، ويضحكون وينظرون إلى الزعيم بتساؤل: كما يُقال، ماذا يفعل غريب الأطوار هذا في البِركة؟

الزعيم لا يضحك. إنه واحد من أولئك الذين يضحكون قليلاً. له نظرة من حديد وشفتاه مُطبَقتان كأنهما ملحومتان. رداؤه الأكثر تواضعاً، ووجهه نحيف، ولحية خفيفة –ومع ذلك يخشى رفاقه أن يرفعوا بصرهم إليه: عندما يلتفتون في اتجاهه، يغضّون من أصواتهم العالية وينكسون أبصارهم باحترام إلى الحصيرة. هذا الشخص لا يبتهج مع الجميع– لقد سئم المشاعر من مدة طويلة. لم يبلغ من العمر أكثر من أربعين سنة، لكنه يبدو رزيناً مثل شيخ وَقُور.

خُيِّلَ إلى دييف – أو سمع الآخرين ينادونه بوري بيك؟ كلا، لم يُخيَّل إليه.

أخذ شيئاً من الطبق وألقى به في النافورة. فسقط عند جزمة دييف كتف ضأن، مقضومة تقريباً. فدوّى أصحابه: «أوه!». بمعنى، هذا المهرج الذي نحتاجه! فانتُزِعَت من المائدة الضلوع والفقرات التي لم تُقضَم، ولُوِّحَ بها، لكن البيك رمى شيئاً قليلاً فأعاد الرجال العظام بطاعة.

كان ينبغي على دييف النظر إلى الجانب، لا أنْ ينظر عند قدميه، اللتين تأتي من جهتهما رائحة الطعام الدهنية، ولا إلى الأعلى، مثل المؤمنين في لحظة الخوف، ولا في وجه البيك الساخر. أجل، عليه أن ينظر إلى الجانب، هذا هو الشيء الأكثر منطقية الذي سيتيح له الصمود مدة أطول. ولكن دييف ينظر – إلى وجه البيك.

في عَينَي البيك، تينك العينَين الباهتَين اللتَين تشبهان عَينَي رجل عجوز على وجهٍ شابٍّ لا يزال أملس -لا يوجد فرح، من ذلك النوع الذي يشعر به الناس الوضيعون في لحظة إذلال شخص آخر، بل فيهما لامبالاة وحزن. لقد بدأ هذه اللعبة ليس من أجل متعته الخاصة، بل من أجل إمتاع الآخرين- وبالتالي سيكملها حتى النهاية.

رمى في النافورة مرة أخرى - ليس عظماً، بل لحماً خالصاً.

لم يرَ دييف قطعة اللحم التي صُفِعَت على ساقه مباشرة وانزلَقَت الآن على حذائه تاركةً أثراً دهنياً، ولكن شمَّ رائحتها فقط - رائحة لحم الضأن الطازج، المسلوق جيداً مع التوابل.

وهذه قطعة أخرى تطير باتجاه دييف - لم تقع هذه المرة تحت قدميه، بل على صدره.

ثم قطعة أخرى، وقعت على وجهه.

أكثر ما أهمَّ دييف الآن، أنه أراد أنْ يلتقط هذه القطعة الكبيرة من الأكل وأنْ يرميها على مَن قذفها. ولكن ربما، سيكون هذا آخر شيء يفعله دييف في حياته. ولكنّه يحتاج حياته لإنقاذ الأطفال.

مسح البقع الدهنية عن وجهه، وقال بوضوح:

- إذا التقيت بك في معركة، فسوف أقتلك.

قال ذلك بصوت منخفض، بحيث يصعب سماع كلماته على خلفية ضجيج الأصوات الأخرى.

ولكن، كلا، لقد سُمِعَت كلماته - بعد أن اكتشف أعداء الثورة أنَّ المهرج قد رفع صوته، زعقوا بحماس: يا له من تحول! راحوا ينقّون، وينقّون كثيراً، ويصرخون بعضهم لبعض، ويصفعون بعضهم على أكتاف بعض بقبضات أيديهم السمينة. يا ترى، هل يراهنون؟

انسحب المتفرجون من حول النيران لمشاهدة العرض عن كثب. واحتشدوا على الحافة الترابية للنافورة بجانب الحراس، وهم يقرقرون بلغتهم الخاصة.

رفع دييف كفه -رفعها عالياً، لكنه لا يزال لا يصل إلى الجمهور من القبو- وللحظة هدأ الصخب في ذهول. فواصَلَ دييف كلامه وسط الصمت:

- لكنني اليوم لست محارباً. اليوم أصطحِبُ خمسمائة يتيم إلى سَمَـ..

من دون الاستماع إلى النهاية، عاد الجمهور يصخب مرة أخرى.

والبيك أيضاً لم يستمع. فقد أوعز لشاب بإصبعه أنْ يقترب منه، وأمر بشيء ما، فأومأ الشاب برأسه بجد، حتى كاد رأسه يسقط من عنقه.

أحد الرجال الثلاثة عشر، ويرتدي قفطاناً من الصوف على الطراز الفارسي وعمامة مربعة، صرخ بصوت عالٍ في الحشد المتجمع - فأجابوه بصوت ودود. مثل سرب من الطيور تنادي بعضها على بعض في الجو. أو مثلما ينفخ عازفو الآلات النحاسية في الأوركسترا. لكن ما الذي يتحدثون عنه؟

كل ما تبقى لدييف أنْ يستمر في الحديث، على أمل أن يلتفت البيك الماكر بوجهه الشارد نحوه، فهو في الحقيقة يفهم على الأقل القليل من اللغة الروسية. فاستعجل دييف، بالكلام، قبل أنْ يأمر الرئيس بإحضار برميل من روح الملح (حمض الهيدروكلوريك) أو أي شيء آخر مثير للاشمئزاز لإسكات الأسير الثرثار:

- هؤلاء الأيتام يموتون من الجوع. نصفهم من المسلمين مثلك تماماً. يمكنك رفع قمصانهم والنظر إلى موضِع الختان. النصف الآخر من الفلاحين مثل...

مرة أخرى هدير الفرح: مسح البيك بالمنشفة يديه الدسمتين بعد اللحم، والمنشفة ليست منشفة على الإطلاق، بل راية حمراء!

- والنصف الآخر من الفلاحين مثل الفلاحين الذين بمعيّتك. ويتحدث الكثيرون منهم لغة مشابهة للغتك. وكلهم أنجبتهم نساء...

وبعد أن جعَّدَ بوري بيك قطعة القماش بخشونة، ألقى بها أمامه. فمدَّ الباقون أيديهم إلى الراية، وكادوا يمزقونها إلى قطع صغيرة - ومسحوا بها أيديهم، ومخطوا بها بسرعة؛ وهم يضحكون، ويبتهجون.

- لقد ولَدَتهم جميعاً نساء مثل زوجاتك تماماً. وهؤلاء الأطفال بعمْرِ...

حلَّقت الراية مرفرفةً باتجاه النافورة، إلى اللحم الذي لم يؤكَل وإلى العظام تُقضَم.

كان على دييف ألّا ينظر إلى الراية التي دُنِّسَت! وأنْ يستمر في الحديث!

– وهؤلاء الأطفال بعمرٍ يمكن لهم أن يكونوا جميعاً أطفالك.

ماذا يريد المستهزئ منه؟ ما الدور الذي يسند إلى دييف في هذا المسرح البدائي؟ من الواضح أنه دور من دون كلمات.

اهتاج الجالسون على السُّفرة من الفرح بعد أنْ أثارهم التشفّي من الراية. وقد رفع واحد من الأشخاص الثلاثة عشر، يرتدي قفطاناً تركياً أسود وعمامة صفراء، يديه وصرخ بكلمات حماسية – فردَّ عليه الحشد مرة أخرى بصوت هادر.

هل يحتفلون بمعركة ناجحة اليوم؟ هل حصلوا على هذه الراية في تلك المعركة؟

تمتم دييف بإصرار من الحفرة، مثل رجل مجنون يتحدث إلى نفسه:

– فكرتُ لوقت طويل وفهمتُ كل شيء. لقد ضللنا طريقنا في مكان ما في منطقة أريس، وسرنا على الفرع الخطأ. أنت تعرف بالتأكيد أين أخطأنا، يا بوري بيك، لقد أبلغك رجالك الإنكشاريون بكل تأكيد. وأنت تعلم أيضاً أنه لا يوجد شيء تأخذه منا. لا يمكنك أن تأخذ أي شيء، يا بوري بيك. يمكنك فقط أنْ تعطينا. فأعطنا! في السنوات الأخيرة، سلبتَ حياة الكثير من الناس. والآن يمكنك أن تهب الحياة. فأنقذ الناس...

لكن كل شيء غرق مرة أخرى في قعقعة الابتهاج: بعد إشارة قصيرة من البيك، اقتاد الشاب السابق كلباً كبيراً إلى السُّفرة. وكان الكلب قد أُلبِسَ قميص جندي سوفيتي بخطوط حمراء على الياقة ونجمة حمراء على الكم. وعلى رأس الكلب طاقية ذات نجمة، مربوطة بإحكام بحبل حتى لا تسقط. وحتى بطنه النحيلة ملفوفة عدة مرات بحزام ذي إبزيم – أي أنَّ الكلب يرتدي الزي الرسمي، ولا ينقصه سوى السروال والحذاء. نظر الكلب إلى الناس الصاخبين من حوله، وراح يضرب بذيله الأشعث مبتهجاً بالفرح العام الصاخب.

- إنقاذ اليتيم عمل خيري. وإنقاذ خمسمائة يتيم بمنزلة خمسمائة عمل خيري. متى ستتاح لك مثل هذه الفرصة مرة أخرى، يا بوري بيك؟

سئم الكلب من الملابس التي لم يعتَد عليها، وجلس على رجليه الخلفيتين، وحاول بقائمتيه الأماميتين أنْ ينزع قبعته عن رأسه الأشعث.

عوى البصمجية أعداء الثورة من الضحك:

- أوه، أوه، أوه، أوه!

وألقى البيك قطعة من اللحم إلى الكلب - ليس في وجهه، بل بعيداً، إلى جانب النافورة. فاستحوذ الكلب على الصدقة تقريباً قبل أنْ تسقط، ثم شمَّ رائحة اللحم الكثير تحت قَدَمَي دييف. فقفز إليه وراح يبتلع بشراهة قطع اللحم المغطاة بالغبار.

تراجع دييف -وعلى الفور قرقعت أَزْنِدَة البنادق خلفه: لا تتحرك! كانت جزمة دييف وسرواله وسترته العسكرية، ووجهه- كل شيء ملطخ بدهن الضأن، فمدَّ الكلب الجائع بوزه على طول السترة العسكرية بعد أنْ وقف على رجليه الخلفيتين، ووضع قائمتيه الأماميتَين على كتفَي دييف، وراح يلعق بلسانه خديه الدافئتين.

التفت دييف عن أنفاس الكلب الحارة، لكنها موجودة في كل مكان. وصار لعاب الكلب في كل مكان، وسد خياشيمه وغمر شفتيه وألصَق رموشه. فخاطب البيك قائلاً:

- من السهل إنقاذ الأطفال، لقد فكرتُ في كل شيء. نحتاج إلى أن تطلب من جماعتك إعادة مدّ القضبان ووضع الحلقات حتى تُوصَل مرة أخرى بالفرع. ليس أكثر من يوم عمل لجماعتك الإنكشارية.

يبدو أنَّ الكلب وحده مَن ينصت إلى دييف.

أُرهِق أولئك الجالسون عند السُّفرة، لم يعودوا يضحكون، بل راحوا يتأوهون بغضب ويضربون راحات أيديهم على الحصيرة، ويقلبون الأطباق. وتلوى المتفرجون أيضاً بضحكات صامتة، وأمسكوا بعضهم ببعض حتى لا يسقطوا بسبب المرح. سدد الحراس على السجين، لكنهم بالكاد يمسكون بنادقهم - لأنّ جذوعهم وبطونهم تهتز اهتزازاً شديداً.

بعد أن لعق الكلبُ دييف، اكتشف كتف الضأن عند قدميه فأراد أن يأخذها، ولكن في هذه اللحظة دوّت طلقة! فوقع على الأرض. تشنج قليلاً. فامتلأت القبّعة الفاتحة اللون التي أصابتها الإطلاقة بالدم.

وضع بوري بيك مسدسه جانباً.

على الجانب الآخر من الفناء، صهلت الخيول ودبدبت في الحظيرة. وثغت الأغنام في الركن.

جسد الكلب نفض أقدامه للمرة الأخيرة وتجمد تحت قميص الجيش.

توقف أصحاب المائدة عن الكلام وراحوا يلتقطون الطعام المتناثر على مفرش السُّفرة. الشجعان الذين تجرأوا على الاقتراب من وليمة الرئيس تراجعوا بسرعة إلى نيرانهم.

لم يعد أحد ينظر إلى دييف - يبدو أن المسرحية قد انتهت. أو ذلك الجزء منها الذي أُعطي فيه دور للمهرج.

ثم هبّت ريح عاصفة مفاجئة من الصحراء، ممزوجة بالرمل بشكل كثيف، على فجوة في زاوية الخان، وملأت الغرف الفارغة وعوت في كل واحدة منها - فتنهد المبنى بأصوات كثيرة. إذ راح المسجد المُخرّم يصفر كصوت الناي. وامتدت نيران اللهب والمشاعل في ألسنة رقيقة، وانبعث منها الدخان. وبعد لحظة هدأت العاصفة.

أدرك دييف فجأة أنَّ الليل حان - فقد أظلم الجو منذ مدة طويلة، وما كان يحدث ظهر على الضوء المضطرب المنبعث من الزيت المشتعل مع النسالة.

والآن، في هذه الساعة الجدية والمظلمة، حان وقت الحفلة الأهم. نهض بوري بيك على قدميه وألقى نظرة على مقاتليه، وطالبهم بتلك النظرة الصارمة إعارته الانتباه. فاستكان المقاتلون واشرأبّت أعناقهم نحو القائد، ومسَّدَ أحدهم على الخيول الخائفة لتهدئتها... أخيراً، صرخ البيك، الذي أرضاه الصمت الذي حل، صرخة استدعاءٍ. فجاء من تحت القوس الأسود خلف السُّفرة ثلاثة أشخاص - الشاب المألوف لدييف واثنان آخران، لا يزالان صبيين تقريباً. يحمل كل منهم صينية كبيرة بحواف عالية على كتفه. هناك شيء ما في كل صينية. هل هو بطيخ أحمر؟ كلا، رؤوس بشر.

ثلاثة رؤوس في خوذات مدببة من اللباد عليها نجوم لاحت من الظلام وهبطت ببطء على السّفرة.

بعد أن انتظر بوري بيك مدة دقيقة ليسمح لجماعته أنْ يرَوا ما أُحضِر، بدأ يتكلم. صوته ليس عالياً، لكن بسبب انعكاسه على الجدران، يسمَعه جيداً حتى أولئك الجالسون عند النار البعيدة. عيناه كالسابق لا مباليتان، لكنهما تلمعان على ضوء المشاعل -وتبدوان ملتهبتَين. حركاته قليلة، لكن تكررها الظلال السوداء، فتبدو كاسحة. كان يلفّ شاحاً حول أسفل الظهر- على ما يبدو، من آلام الظهر (أو من موضع طلقة). وهذا التفصيل غير الرجولي -اللامبالاة الكاملة بآراء الآخرين- يعطي شخصيته أهمية أكبر من كل أردية رفاقه الثمينة.

بدأ بوري بيك يتكلم.

نظر دييف إلى الرؤوس الثلاثة الميتة الموجودة على الصواني على مقربة من رأسه. وكانت الرؤوس تنظر إليه. حدَّق دييف باهتمام من دون أن يفهم: كيف جرى ذلك؟

كلا، هذا لا يمكن أنْ يفهمه دييف. ولا يمكنه أن يفهم كلام الغريب الذي يزقزق فوق رأسه، ولا أن يفهم هؤلاء الناس.

وبعد أن أنهى البيك حديثه أشار بإصبعه الجاف إلى السماء وسأل عن شيء ما.

فأجابه المقاتلون بالإيجاب - جوقة كشخص واحد:

- إي!

فسأل سؤالاً آخر، فردّوا عليه:

- إي!

ثم سؤالاً آخر.

- إي!

ثم صمت الجميع.

أدار دييف بصره ببطء إلى المكان الذي كان يقف فيه بوري بيك. فلم يجده. لقد ذهب الرجل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

هل يضربونه، أم لا؟

فكَّر دييف في هذا الأمر طوال الليل، وهو يجلس على درجات القبو:

لو أراد البيك، لكان قد أطلق النار عليه مع الكلب. نعم، ولما أنفق الطعام والشراب على السجين. ولما كلّف لرعاية هذه العجوز، التي هي أمه أو مرضعته أو خادمته. ولما وضع حارساً على الباب.

لذلك فهو بحاجة ما إلى دييف. يا ترى، ما تلك الحاجة؟ إذ، لا طائل منه كرهينة - فحياة دييف لا تساوي فلساً واحداً. كل قوَّته وقيمته (المسدس والتفويض) قد انتُزِعَتا من جيبه. ليس لديه منصب أو سلطة. وليس لديه معلومات قيّمة. وليس لديه راعٍ ولا ظهير. دييف عبارة عن صفر على الشمال، إنه مجرد دمية بلا وزن.

لماذا لم يترك البيك رفاقه يسخرون منه يوم أمس؟ هو نفسه ألقى العظام على دييف، ولكنه لم يسمح لرفاقه بذلك. لقد قتل الكلب بنفسه، وأمر بإخراج الرؤوس في صوانٍ -لكن هل نسي أمر دييف؟ هذا يعني أنَّ البيك يحتاج إلى دييف- على الرغم من أنه لا يفهم اللغات المحلية ولا يفقه شيئاً، وعلى الرغمِ من أنه ضعيف بعد أنْ قطع الصحراء، وبالكاد يستطيع تحريك ساقيه - فإنَّ البيك في أمس الحاجة إليه. إنه بحاجة شديدة إليه لدرجة أنه أمر المرأة العجوز أنْ تطعمه المرق الثخين مع اللحم والحبوب السميكة.

كلا، لن يقتلوه.

ربما، أنَّ كلب الأمس قد فكر في ذلك أيضاً، عندما أكل لحم الضأن ذا الرائحة الزكية...

في الصباح جاء نفس الأشخاص الذين يرتدون قبعات فرو الثعالب. وثرثروا مدة طويلة بغضب، وهم يشيرون ببنادقهم، حتى أدرك دييف أنهم يطلبون منه الخروج مع الصبي. فجَسَّ في الظلام الجسد الصغير، الساخن من عدة أيام، وحمله إلى الخارج.

نعم، إنه زاغريكا. ولكنه ليس زاغريكا صاحبه الذي يعرفه من قَبْل والذي كان يهزّه ليلاً، بل صورة قبيحة من جسد ذلك الصبي الذي عرفه: الرقبة منتفخة ومملؤة ببقع أرجوانية؛ والرجلان واليدان، على العكس من ذلك،

هزُلت إلى درجة عُدّ من المُعاقين المُقعَدين. لكن الشيء الرئيس -الوجه. لم يعد وجهاً، بل بيضة مسلوقة: الأنف والشفتان والحواجب- كلها متورمة، ومنتفخة كعجينة أرجوانية، وبدلاً من العينَين - قطعتان من الدم الجاف.

من فعل، ذلك بك، يا فتى؟

لهذا السبب أنت تتصارع مع الحمى من عدة أيام وأنَّ جسمك الصغير لا يستطيع التغلب على الإصابة. إنّك بحاجة ليس إلى البقاء بالقبو المظلم ولا إلى النقيع الأسود الذي تجلبه العجوز، بل أنت بحاجة إلى المساعد الطبي بوغ، المعالج الحقيقي والأفضل من بين الأطباء، صاحب أكبر قلب في العالم.

حمل دييف الطفلَ المُعاق وشعر بالغضب يتصاعد فيه كالأمواج الحارة. وفكَّر بعجز: لا أعرف الجاني ولا أعرف كيف أُعاقبه. نظر دييف بتجهّم إلى الحراس: ألستم مَن فعل هذا؟ أليسوا رفاقكم؟ فنظروا، هم أيضاً، إليه شزراً، مندهشين من منظر الطفل بدا كأنما أُحضِرَ من ساحة المعركة.

أرْكبوا دييف على عربة، والصبي بين ذراعيه. لم يكن لديه وقت لينظر من حوله - فقد وضعوا كيساً في رأسه وشدّوا حبلاً فوق الكيس حتى لا ترفعه الرياح عندما تهب.

سارت بهم العربة، مدة نصف يوم أو أكثر. العربة بها الأسيران ومعهما مرافقان على الخيل. استمع دييف إلى صرير العجلات على الأرض وحفيف الصحراء: حفيف الرمل على الرمل، والرمل على الشيح، والرمل على الحجارة. كان دييف يحمل على ركبتيه زاغريكا، الذي بالكاد يتحرك من الضعف. فكر دييف في شيء واحد: فقط لا تمت.

بما أنهم أخذونا، يا فتى، وسرنا مدة طويلة على عربة وخيول سريعة، ربما، لن يقتلونا. ربما، يأخذوننا إلى مخيّم آخر من مخيمات الرُّحَّل، أو إلى قرية، أو إلى مدينة، وحتى لو أخذونا إلى الجبال، لا يهم إلى أين يأخذوننا، المهم ألّا تموت...

وعندما شمَّ روائح النار وسمع أصواتاً بعيدة أدرك أنهم قد وصلوا. كانت تلك الأصوات كثيرة، كثيرة جداً - رقيقة، ورنانة. يا ترى، هل هم أطفال؟

هل هم أطفاله، أطفال دييف؟

ولأنه نسي أمر الحراس المرافقين الذين يحملون البنادق، بدأ يتلمس خيش الكيس ليزيحه عن رأسه. لم يمنعه أحد، ولم يصرخ عليه بغضب. كان الحبل ملفوفاً حول رقبته بشدة حتى كاد يخنقه، لكنه مزقه في كل الاتجاهات، مثل بعوضة عالقة في شبكة، وراح يمزقه مراراً وتكراراً، ومزَّق العقد بأظافره، وأخيراً ألقى به بعيداً. وألقى الكيس عنه - فوخز الضوء الساطع عينيه، ورنَّت الأصوات أعلى في أذنيه.

أين؟ ماذا؟

في وسط الصحراء.

في الأمام شريط داكن -إنه القطار. وحوله قطيع من النمل- الناس.

إنه القطار «الضفيرة».

لم يعد بمقدور دييف الجلوس في العربة بعد الآن، فقفز وركض. ترك زاغريكا والحراس المرافقين خلفه في العربة، وركض، أسرع قليلاً من العربة.

كان لا يزال أمامه بضعة فراسخ حتى يصل إلى القطار «الضفيرة»، ولكن صار بإمكانه أنْ يرى نثاراً أبيض واضحاً بالقرب منه -إنهم الأطفال يرتدون القمصان. تحرَّك دييف بصعوبة، بالكاد يرفع جزمته عن الأرض ومن دون أنْ يقوِّم ركبتيه- سعياً منه لعدم تبديد قوته. ومع ذلك، سرعان ما نفدت قوته، لكنه لم يعد قادراً على التوقف: ركض جسده بنفسه إلى الأمام كما لو أنه مشدود بنابض.

راح يلهث ويتعثَّر. ولكن لم يسقط. ظلَّ يركض، ويركض، حتى سمع صوتاً ينفطر له القلب:

- دييف! دييييييييف! آه!

وتدفق المدّ الأبيض نحوه: كل مَن كان بالقرب من عربات القطار، وبعيداً عن العربات، وداخل العربات - ركضوا نحوه في البداية ببطء، ثم أسرعوا، وعندما اقتربوا دوّوا:

- دييف! آه!

فركض دييف أيضاً، حتى اصطدم به التيار الأبيض المتدفق نحوه بعشرات الوجوه، وعشرات الوجوه الأخرى، والأخرى، والتصقوا به -باليدين والرجلين وبالأجساد وبالقمصان- وداروا حوله كالدوّامة، وتوسعت الدوامة وفارت، وراحت تهدر بصوت أعلى مع كل ثانية:

- دييف!

ذُهِل دييف وغرق في هذه الدوامة. وكان الجميع من حوله يتكلمون ويضحكون ويتحركون وينادون:

- دييف!

لاحت قامات داكنة على طول الحافة -إنهنّ الممرضات. لم يندفعنَ مع التيار المتدفق- لأنه يصعب الخوض فيه، فكان عليهنَّ الانتظار حتى يهدأ -وصحنَ له ببعض الكلمات، وأغلقنَ أفواههنَّ بأيديهنَّ. هل يبكين؟ كانت إحدى القامات أكبر- إنه الجد.

- يا دييف!

راح دييف يعانق ويمسّد على الأيدي والوجوه والأكتاف والرؤوس المحلوقة، الصغيرة كلها! ويحتضنها ثم يتركها ويحتضن أخرى جديدة، مدة طويلة -حتى تركوه يذهب. خفَّ التيار وبدأ يتبدد، ولا يزال يصرخ باسمه، ويصفّر ويضحك ويقفز ويلوح بالأذرع. وبعد ذلك فقط اندفعت إليه الممرضات. والتصقنَ به من جميع الجوانب بخدودهنَّ المُبَلَّلَة بالدموع وبجباههنَّ وبخدودهنَّ النحيلة- على كتفيه وصدره وظهره.

- أنت رجُلُنا العزيز، الطيب! يا إلهي، يا لها من سعادة! إنه حي وسالم! لقد انتظرناك، كنّا نعرف أنك ستأتي! يا بني، أيها الرفيق، العزيز!

بَكَينَ ولم يخفينَ دموعهن ولطَّخن بالدموع سترته العسكرية.

عانق دييف مرة أخرى -الأيدي والوجوه والرؤوس- التي لا تعود للصغار بل للكبار الذين غزا الشيب نصفهم.

وعانق فاطمة.

واحتضن الجد. بل، الأصح، الجد هو الذي عانقه –وعصره مثل الدب، وضغطه إليه واحتجزه لمدة نصف دقيقة أو حتى دقيقة كاملة. كان دييف يرغب بالوقوف هكذا حتى الغد– لكنه بدأ يختنق فأطلقَ نفسه. وقال للمساعد الطبي:

– زاغريكا هناك.

وقاده إلى العربة التي وصلت إلى القطار. انتظر الحراس بالجوار.

نظر بوغ إلى الجسد المشوه الممدود على العربة التي يجرها الحصان وشعر بالفزع.

– من فعل هذا به؟ هل فعله الأغراب؟

اعترف دييف بصدق:

– لا أعرف.

حمل بوغ الصبي ونقله إلى عربة المستوصف.

– يا لهم مِن وحوش!

***

لم يتعانق دييف وبيلايا، واكتفيا بالمصافحة، بصمت وبشدة. وظلّا يحدقان بعضهما في بعض طويلاً. لم يسمحا لنفسيهما بتصرفات حرة أخرى –لم يتبادلا قبلات سريعة، ولا حتى ابتسامات– بالرغم من أنهما كانا وحدهما في المقصورة. وحدهما حقاً: لم يكن زاغريكا مُختَبئاً كعادته تحت الأريكة، بل يرقد على سرير المستوصف.

بدأت المفوضة على الفور بإبلاغ رئيس القطار بما حدث أثناء غيابه – لكنها أبلغته بشكل غريب: باختصار شديد وحذفٍ للتفاصيل، كما لو كانت تقدم محضر جلسة مُختَصَراً. كما لو أنَّ دييف نفسه يعرف كل شيء.

– الأطفال والكبار يشعرون بالشبع. وكما ترى، إنهم مُبتَهِجون للغاية. نطعمهم الرز مرتين في اليوم. استلمنا الحبوب من البصمجية، خمسة أكياس، وعربة أخرى محملة بالعنب. كما قاموا بتوصيل مياه الشرب والماء للقاطرة البخارية.

تلت بيلايا الكلمات مثل آلة التلغراف. بالكاد تمكن دييف من ترتيب الحقائق في ذهنه.

– وبُدِّلَت قضبان السكة. وأُعيد توجيه القطار باتجاه بلدة أريس.

متى استطاعوا فعل ذلك؟ حتى مساء الأمس، وقف دييف أمام بوري بيك متوسلاً به من أجل المساعدة. فهل أُنجِز كل شيء الآن؟ لم يكن لدى دييف الوقت لطرح السؤال: المفوضة كانت في عجلة من أمرها لإكمال التقرير.

– دُفِنَ جميع الموتى. وازداد عدد المرضى الطريحي الفراش، ولكن عن هذا سيبلغك المساعد الطبي بشكل أفضل. لم تكن ثمة أوبئة في القطار، المستوصف يعمل بشكل طبيعي. كما لم تحدث حالات هروب أو حالات طوارئ أخرى. العدد الإجمالي للأطفال هذا الصباح هو خمسمائة شخص، بالتمام والكمال. وإذا ما أضفنا إليهم الرضيع، سيكون العدد خمسمائة وواحداً. من هؤلاء، ثلاثمائة وثمانية وتسعون من أطفالنا، الواردة أسماؤهم في القوائم. والباقون – من الذين ركبوا في القطار في الطريق. القطار جاهز للانطلاق.

انتهت بيلايا من النقيق.

كان دييف جالساً على أريكته، واضعاً مرفقيه على الطاولة وغارزاً جبهته في راحة يديه. بآخر ما لديه من قوة، ركّزَ دماغه المشوّش من التعب، لكنه لم يستطع أنْ يرتِّب ما سمعه في صورة واضحة. فسأل أخيراً:

– متى جاء البصمجية؟

هزت بيلايا كتفيها في حيرة، وقالت:

– في نفس اليوم الذي هرعتَ فيه إلى الصحراء طلباً للمساعدة، في البداية جلبوا الماء والطعام. ثم بدأوا يغيّرون المسارات. لم يستمر العمل مدة طويلة، إذ لم يتمكنوا من ثني القضبان لحلقة المفصل. وبعد يومين، جاؤوا من مكان ما بقضبان منحنية – واستطاعوا مدّ السكة. وبعد يومين أحضروك. هذا كل ما في الأمر.

بينما كان دييف يجوب الرمال، سقى بوري بيك أطفاله وأطعمهم الرز

وحتى الثمار المعجزة. وحفرَ رجال بوري بيك الرمال لعدة أيام ووضعوا عوارض السكة حتى يتمكن القطار «الضفيرة» من العودة إلى المسار الصحيح. ومن ثم هزموا الجيش الأحمر في المعركة وقطعوا رؤوسهم. ثم أحضروا دييف إلى القطار - من دون أنْ يعرّضوه إلى خدش واحد، بعربة شخصية.

هكذا بالضبط.

نظرت بيلايا باهتمام، كما لو كانت على وشك طرح سؤال لطالما عذبها:

- أخبرني، يا دييف، كيف تمكنتَ من إقناع هؤلاء المتوحشين وشرحت لهم كل شيء؟ فأنت، على كل حال، لا تتحدث اللغة القرغيزية. وهم لا يتحدثون اللغة الروسية - ولا يعرفون كلمة واحدة.

- ليس أنا، مَن فعل ذلك.

غضبت بيلايا:

- توقف عن المزاح! الأمر غير مضحك.

والحقيقة هي: كيف خمَّن بوري بيك ما الذي سيساعد به بالضبط؟

وكيف لا يستطيع التخمين؟ إذا كانت قاطرة بخارية واقفة في الصحراء من دون ماء وفحم، ووجهها مدفون في مسارات مقطوعة، فما الذي لا يمكن فهمه؟ وإذا كان الأطفال يرقدون على المقاعد في العربات وتحولوا من الجوع إلى أطفال سقم طريحي الفراش - فما الذي لا يمكن فهمه هنا؟ كل شيء واضح، وليس ثمة ما هو أكثر وضوحاً. كل شيء واضح من دون كلمات.

ومن الواضح أيضاً أنَّ بوري بيك من أجل الأطفال عفا عن دييف، حتى يكون هناك من يأخذهم إلى مُبتغاهم. كان الأطفال الآن بالنسبة لدييف -قوته وقيمته ومعرفته وثروته، ورعاته الكبار. في صحراء تركستان، ليس دييف مَن أنقذ الأطفال- بل الأطفال أنقذوا دييف.

قالت بيلايا بنبرة صارمة ونهائية:

- هذا كل شيء. في سمرقند، سأقدم التماساً لأن يُسمَح لفريقك

بممارسة عملية الإخلاء من دون إشراف من لجنة رعاية الأطفال. أنت، يمكنك ممارسة مهمتك بمفردك، من دون مفوض.

طرق أحدهم بحذر على باب المقصورة.

- أيها الرفيق، رئيس القطار، لقد جلب الأغراب الوقود.

الصوت منخفض ومبحوح من التدخين - إنه السائق. ولكن بدت فيه نبرة الخوف، كما لو لم يكن البصمجية المألوفون قد جلبوا خشب الرِّمْث، بل جلبه فصيل من الأشباح.

تبع دييف السائق إلى القاطرة. (كانت عينا السائق طائشتين حقاً، كادتا تخرجان من محجريهما).

حجرة الوقود مليئة بالحطب -ليس حتى الحافة، بل أكثر من ذلك بكثير: قِطَع رمادية ترتفع مثل الجبل. ليس من خشب الرِّمْث، ولا فحم. هل هذه خِرَق؟ كلا، إنها معاطف، مقطعة إلى قطعٍ صغيرة، ولكن لا يزال من الممكن التعرف عليها تماماً: ياقات ذات خطوط حمراء، وأكمام مزينة بالنجوم، ولصقات حمراء على الصدور، وأكتاف، وأذيال، وظهور. إنها معاطف الجيش الأحمر، نُتِفَت إلى أكداس من الصوف. هل هي تجهيزات كتيبة؟ أَم تجهيزات فوج كامل؟ لقد قطَّعَتها السيوف تماماً، بعد أن نُزِعَت من القتلى،- خصّيصاً من أجل القطار، أو بالأحرى من أجل دييف. ومعها نفس العدد من القبعات، التي قُطِعَت إلى قطعَتَين وثلاث.

قال السائق:

- ما عسانا أن نفعل؟

وقف السائق في مكان قريب، ونزع قبّعته الرسمية من رأسه. فأمره دييف:

- سخّن القاطرة بها.

***

الجزء السابع

الثلاثة

سمرقند

يا لها من جبال، وجبال! من صخور، وصخور. إنها صخور عملاقة مجعدة ترتفع من جميع الجوانب، وتحيط بالمكان. السماء معلقة فوقهم -بعيدة وزرقاء، تكسوها سحب خفيفة معلَّقة. فكلما ازدادت الصخور قساوة وظلمة، ازدادت قبة السماء شفافية وإشراقاً. فالجبال والسماء- نشيد مشترَك على مدى الدهور.

في الأسفل المنحدراتُ مغطاة بعشب أصفر وبأشجار حمراء، وفي الأعلى -جرداء ورمادية، وفي بعض الأماكن مغطاة بالثلج. ما إنْ يلقي المرء نظرة فاحصة، حتى يميّز في هذه الصبغة الرمادية كل ألوان العالم، ويرى في الهندسة الصارمة للمنحدرات- خطوطاً لطيفة من الغابات والشجيرات.

عند الفجر، تتوهج القمم الحادة مثل النيران عبر البحر الصخري الأزرق، وعند غروب الشمس تلتهب من جديد. والبحر الصخري نفسه يتحول إلى لون ذهبي في ضوء الشمس الدافئ، وإلى لون فضي في نور القمر البارد. ووحدها الشقوق العميقة في النهار والليل تظل سوداء أرجوانية، تنضح برداً أبدياً وظلاماً سرمدياً.

قعقعَ القطار مثل الخشخيشة على طول المنحدرات. فقفز صداه المدوّي على طول المنحدرات، بين الحين والآخر يسعى جاهداً لتجاوز القطار والوثوب من حول الزاوية للقاء به. لم يصادف القطار على هذا الطريق

متفرجين متسكعين ولا عابري سبيل ولا حتى كلاباً ضالة. لم يصادف سوى الصخور والحجارة. وبعيداً، فوق الوديان الضيّقة، حامت في الجو عُقبان ذهبية. كانت تلك العُقبان المتفرج الوحيد على القطار «الضفيرة» المتمسك بطريقه بثبات.

من سطح عربة الموظفين نظر دييف إلى البحر الحجري الذي شق القطار طريقه من أسفله.

حتى نهاية الطريق - مائة فرسخ. اليوم سيصل القطار إلى سمرقند.

أمضوا يوماً تقريباً في طشقند. فقد أبطأ دييف انطلاق القطار، على أمل العثور على مائة أخرى من القمصان البيضاء. ولكنه لم يعثر عليها.

قال له رئيس حامية طشقند: «أنت تفهم، أيها الرفيق. ليس لدي الحق في أنْ أُعَرّي الجيش. فبعد نصف شهر بالضبط سيحل الشتاء. ولا يزال يتعين على جنودي القبض على بوري بيك في هذا الشتاء، بعد مطاردته في الجبال، وفي الثلج. فهل تريدني أنْ آمرهم بالخروج من دون ملابس داخلية؟ لم يتبقَّ لأطفالك سوى يوم واحد فقط حتى يصلوا إلى دار رعاية الأطفال المستهدف حيث عصيدة الحليب. وسوف يصلون إلى هناك بطريقة ما».

نعم، سوف يصلون. وعند ذلك سيبقى أربعمائة منهم فقط تحت السقف، حيث تُجرَف عصيدة الحليب هذه، وسيبقى مائة - في الشارع. وبعد نصف شهر بالضبط سوف يحل الشتاء.

راودت دييف فكرة الحصول على قماش، فتوجَّهَ إلى مصنع للنسيج. لكن ذلك المصنع كان بالاسم فقط مصنعاً للنسيج، إذ اتضح أنه معمل للندافة: فقد كان يجري هنا نتف القطن من جوز القطن وندف الألياف، وإرسال تلك الألياف في بالات إلى مدينة ياروسلافل البعيدة.

وذهب إلى الشرطة، وإلى دائرة الجمارك، وإلى فرع اللجنة الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب - لم يجد شيئاً: في طشقند الثرية كلها لم يكن ثمة مئات من الملابس الداخلية للأطفال المشردين.

بقي حتى سمرقند - تسعون فرسخاً...

لقد فقدَ المشردون أثناء تواجدهم في القطار كلّ مظهر من مظاهر التسول. إذ نظَّفت الممرضات أجسادهم حتى صارت وردية مثل أجساد

صغار الخنازير وحُلِقَت رؤوسهم حتى صارت لامعة. ونُظِّفَت آذانهم وكُشِطَت. وقُلِّمَت أظافرهم. وتقرّحاتهم دُهِنَت باليود. باختصار، صاروا ليس مجرد أطفال، بل كالدمى الجميلة. ولكنهم بقوا يرتدون الأسمال التي جاؤوا بها.

لم تكن هذه الأسمال قابلة للرقع والغسيل، ولا يمكن قلبها أو إعادة خياطتها. كانت عبارة عن ثقوب وخيوط وأوساخ لا تزول. على خلفية قمصان القطار البيضاء، بدت كأنها مجرد قذارة.

لولا التزوير في القوائم، لما فكر دييف في الملابس حتى مجرد تفكير. إذ لا أحد يعرف ما نوع الخِرَق التي تُسَلَّم للأطفال في مراكز إيواء الأطفال! في بعض الأحيان حتى من دون أيِّ خِرَق. ولكن التزوير موجود، وأسمال المُشَرَّدين تدل عليه بشكل فاضح.

ربما، كان قلق دييف عبثاً؟ فقد تكون المديرة في سمرقند لطيفة وتثق بالناس بسهولة، مثل شابيرو - وسوف تقبل الجميع ولا تلاحظ الخداع. ماذا لو تبين أنها مثل بيلايا؟

بقي إلى سمرقند - ثمانون فرسخاً...

هل يعترف بكل شيء؟ هل يرسل رسالة توبة إلى قازان - يخبر فيها عن مائة من الذين ماتوا في الطريق ومائة التُقِطوا؟ لن يطردوهم إلى الشارع، بل سوف يُؤوونهم في مكان ما. دعهم لا يُؤوونهم في دار الأيتام المستهدفة، القائمة على ميزانية تجهيزات خاصة وتشبه إلى حد كبير المصحة. ولكن أين سيؤوونهم؟ لا مكان. لا توجد دور أخرى لرعاية الأطفال في سمرقند، ولم تصل أيدي السلطات السوفيتية إليها بعد.

ولكن حتى لو لم يكن هناك مأوى للأطفال المُتبَنّين، فلن يضيعوا في تركستان الوفيرة الغذاء. وسيجد المشرّدون والجَوّابون ذوو الخبرة كل ما يبحثون عنه! فقد قادهم دييف عبر سهوب الجوع، وعبر رمال الموت والجبال إلى أرض مزارع الكروم وحقول الرز - قادهم من حيث البرد والثلج، وأفلح في فعل ذلك. أليس هذا كافياً؟ كلا، لا يكفي.

إلى سمرقند - سبعون فرسخاً...

ستون...

وعندما بقي ما لا يزيد على خمسين فرسخاً، دار دييف في العربات وأمر الممرضات بجمع كل ملابس الأطفال - لغسلها وتطهيرها. فاندهشت النسوة: «أيّ غسل؟» فالجبال من حولهم. ولم يبق حتى نهاية الطريق سوى بضع ساعات.

أمَرَهُنَّ بإيجاز أنْ ينَفِّذن ما أراد. القاعدة رقم أربعة - قاعدة رئيس القطار.

فجمعن القمصان ووضَعنَها في عربة الموظفين. وألقَينَ بها على شكل بالات بيضاء عالية حول الحمام، وكوَّمن أسمال الأطفال المشردين في أكداس بجانبها.

وسرعان ما قفز القطار «الضفيرة» من الوادي واندفع على طول حافته. فسحب دييف إطار النافذة وبدأ يلقي أكداس الملابس الداخلية في الحفرة التي انفرجَت أمامه. فهبّت الرياح والهدير إلى داخل النافذة. ومن داخل النافذة طارت القمصان.

فشاهد الصغار في عربة الموظفين وفاطمة والرضيع الكتكوت وحتى الذئبة المُرضِعة بذهول كيف كان رئيس القطار يقاوم الريح. ألقى دييف البياضات كالعبء عن متنه، وشد كل عضلاته -جاهدت زوابع الريح كي تعيد الأكوام مرة أخرى. الكومة الأولى، الثانية، العاشرة- خرجت كلها من النافذة!

وحدَّقَ مَن في العربات الأخرى مذهولين من النوافذ. هناك، احتجب المنظر الطبيعي الجبلي، إذ اندفع سرب عملاق من الطيور البيضاء حوله. أم هذه القمصان تحلّق؟ رفرفت بأجنحتها وضربت القطار -عند النوافذ، وعلى وجوه الأطفال المتشبثين بزجاج النوافذ- ثم غطست في الهاوية، ولم يعد ممكناً العثور عليها وجمعها، حتى لو فكر أحدهم في إيقاف القاطرة ونقض ما فُعِلَ.

***

قال دييف للأطفال:

- سيروا حُفاةً وعراة. ومَن يخجل سيقضي الشتاء في الشارع.

وأضاف كي يكبح الاعتراضات: لا تَنسوا القاعدة الرابعة.

لم يعترض أحدٌ، لأن الجميع يدركون لماذا فعل دييف ذلك.

عثر دييف على دار رعاية الأطفال وأخبرهم بضرورة الاستعداد لاستقبال

المُجْلَين الذين على وشك الوصول. المديرة -ليست ساذجة، مثل شابيرو، ولكنها ليست أفعى مثل بيلايا- أرادت الذهاب معه إلى المحطة ومساعدته في جهوده، لكن دييف رفض: سنأتي بأنفسنا.

كانت الأرض هنا لا تزال جافة، ولم تبرد بعد الصيف الحار. وحتى الهواء يتنفس بدفء الخريف، والشمس أطلَّت بلطف من السماء - باختصار، إنها سمرقند! فكان دييف يأمل ألّا يمرض أحد.

وهكذا في 15 نوفمبر (تشرين الثاني) من عام 1923 نزل خمسمائة طفل من القطار المشفى إلى رصيف المحطة عراة من دون خيط واحد على أجسادهم. لفّت أكبر الفتيات، وهي تبروسيا الحامل ذات الثلاثة عشر عاماً، نفسها في شال قوزاقي. وظلَّ الباقون عراة كما ولدتهم أمهاتهم.

اصطف الأطفال على الرصيف، كما جاؤوا - حسب العربات التي كانوا فيها. أجسادهم بارزة الأضلاع ومسطحة، أيديهم وأرجلهم بنفس السماكة تقريباً، بمقدار محيط كفّ واحد، رؤوس الجميع حليقة. لا يمكن تمييز الأولاد عن البنات إلا بصعوبة، ومن الخلف ولا يمكن تمييزهم تماماً. كان الجميع ينتظرون إشارة الانسحاب.

جاء إلي هنا، بالقرب من القطار، حَنْطُور اسْتَكْراه دييف في ساحة المحطة، وأُركِبَ فيه الصغار الذين كانوا في عربة الموظفين ووضَعوا فيه السقم المُقعَدين. نظر سائق العربة إلى جيش الأطفال العراة وصَلَّبَ بصمت.

كان جيش الأطفال وديعاً بشكل مدهش: لم يرددوا القوافي ولا النكات، ولا حتى أقصر الضحكات -فقد أنهكَ الأطفال طولُ الطريق وأضناهم الفراق القادم. قَبْلَ هذا بمدة طويلة قبَّلَتهم جميعاً الممرضاتُ- مرّة ومرتَين وثلاث مرات. وتُلِيَت عليهم التعليمات والرغبات والوعود. لكنهم وقفوا على منصة المحطة -ولم يتمكنوا من رفع بصرهم عن العربات التي صارت منزلاً لهم لمدة شهر ونصف. كان بانتظارهم الآن منزل جديد، ووعد رئيس القطار بأنه سيكون فيه مكان لكل فرد منهم (وإنْ أكذب، لتكن سكين في قلبي، مسامير في عيني!)- ومع ذلك، لسبب ما، شعروا بألم لمغادرة القطار «الضفيرة».

في الأعلى، بدت سماء ساطعة غريبة بلونها الأزرق، وأشرقت شمس غريبة ساخنة حتى في نوفمبر (تشرين الثاني). وامتدت أرض غريبة تحت

الأقدام، تصاعد منها الغبار، وغطّى الأقدام والسيقان. لكنه لم يستطع أنْ يدثّر الأجساد الشاحبة.

أُمرت الممرضات بالبقاء في القطار وعدم ذرف الدموع -فبقين مطيعات، لكنهنَّ لم يستطعنَ الكفّ عن ذرف الدموع التي كانت تنهمر باستمرار: فكُنَّ يَجُلنَ على طول الصف الواقف، ويمسحنَ أنوفهنَّ ويفركنَ أعينهنَّ من دون انقطاع. فهددهنّ دييف: سيطرد أكثرهنّ بكاءً من المسار. وكان يدرك أنّ التهديد بلا معنى- فالمسار قد انتهى.

قرر دييف أن يقود الأطفال في المدينة بمفرده من دون المساعد الطبي والممرضات وحتى من دون المفوضة. ينتظره حوار مع مديرة دار رعاية الأطفال. وهو حوار صعب. أم معركة؟ أم حصار؟ مهما كان الأمر، لن تتمكن النسوة من مساعدته، بل سيُعِقنَ عمله، وحتى يُعِقنَه كثيراً. لهذا السبب يمكنه أن يفعل ذلك بنفسه. فليُحالفه الحظ مرة أخرى اليوم – للمرة الأخيرة والمهمة جداً.

وها قد بدأت المسيرة: رفع دييف يده وصفَّرَ قليلاً معطياً إشارة الانطلاق «هيّا». مشى، هو، في الأمام. وخلفه الأطفال كالقطعان الكثيفة. سار في آخر الموكبِ الحنطورُ الذي يحمل المُعاقِين المُمَدَّدين وخلفه الكلبة العجوز تركض وحلماتها تجرّ على الأرض. خمسمائة صبي وصبيّة يمشون في صمت على طول منصة المحطة. ألف قدم حافية -خمسمائة على اليسار وخمسمائة على اليمين- تخطو بصمت على الأرض، مبتعدة.

خطت الممرضات عدة خطوات وتوقَّفنَ، كأنهنَّ مقيَّدات إلى القطار بسلسلة غير مرئية. امتدّت أيديهنَّ على إثر المبتعدين، امتدت ولكنها لم تستطع الوصول. ابتعد الأطفال عن النساء، وتركت النساء الأطفال، بعد أنْ أدركنَ أنَّه من غير المحتمل أن يروا بعضهم بعضاً مرة أخرى.

وقف القطار «الضفيرة» على المسارات -صامتاً، بعربات فارغة. النوافذ والأبواب مفتوحة في حالة من الفوضى، والريح تهب من الداخل. أراد السائق أن يعطي آخر إشارة ودية فسحبَ مقبض الصافرة. لم تُدَوِّ صافرة الوداع- فقد بردت القاطرة ولم تستطع النَّفخَ إلا بشكل تشنّجات.

همست زوجة الكاهن طويلاً بصلوات على التراب الذي ارتفعَ من

كعوب الأطفال. وجلست الفلاحة على درج العربة مثل دجاجة على مجثم، ساقاها متقاطعتان ومتجهّمة بحزن. وأخذت الخياطة دلاء مليئة بالماء لغسل الأرض، ولكن لسبب ما تمددت على سريرها وأنصتت إلى الصمت.

وفي المطبخ الصغير، تذمر ميميليا من الحزن. لم يوبخه أحد على مشاعره، وبالتالي كان يصرخ على ما يرضي قلبه. لكن الكآبة التي أحاطت به كانت خاصة إلى حد ما - لا يمكنه ذرف الدموع. حنى ميميليا وجهه على صدع الباب، ونظر إلى سحابة التراب التي اختفى فيها أطفال القطار، وتذمر فقط.

***

قال المساعد الطبي لبيلايا:

- اسمحي لي أن أعود إلى المنزل. أنا عجوز، لا يمكنني البقاء بعد الآن مع الأطفال.

وصل على الفور حالما فرغت العربات والمستوصف، وبعد ذلك بدقائق قليلة فرغ رصيف المحطة. لم تجف بعد وجوه الممرضات المبتلة من دموع الوداع الأخير، حتى وقف بوغ عند باب مقصورة المفوضة.

- لماذا لا تنتظر رئيس القطار؟

كانت بيلايا تجلس على الأريكة وتفرز القمامة على الطاولة. دخل المساعد الطبي إلى الغرفة وأدرك أنَّ هذه أشياء مأخوذة من الأطفال أثناء الرحلة - قطع حديدية صدئة، وشظايا شفرات وزجاج.

- سيقنعني وسوف أوافق.

كان الجميع يعلمون أنَّ القطار «الضفيرة» لن يُفَكَّك: فقد خُصِّصَ ليكون قطار إخلاء منتظم لسكة حديد قازان. وبانتظاره العديد من رحلات الأطفال الجديدة في المستقبل.

فقالت بيلايا:

- أما أنا فلن أُوافق؟

ثم نظرت نظرة شاردة بعيدة وفي الوقت نفسه متوترة، كأنها تفكر في شيء آخر، وواصلَت الحديث بجهد كبير.

- وحتى لو وافقتَ، سأرفضك.

وأومأت برأسها لبرهة: مفهوم.

– هل تريد أن تهرب إلى قازان على الفور؟

لم يفهم بوغ إنْ كان هذا سؤالاً أو موافقة.

– قطار أورينبورغ يغادر الليلة. ومن هناك أتنقّل على عدة مراحل.

ألقت بيلايا في حقيبة كتفها مساميرَ اختارتها من الطاولة، وتنهّدت بحسرة، وبعد وقفة قالت بصوت منخفض:

– لا يمكنني تقييدك إلى عربة المستوصف. وأود أن أقيدك! سيواجه دييف صعوبة من دونك.

ثم جرفت النفايات الباقية بباطن كفّها نحو الجدار.

أخرج بوغ التفويض ووضعه على الطاولة التي فرغت وقال: وقِّعيه.

فأضافت بيلايا برجاءٍ:

– سيكون الأمر من دونك صعباً حتى على الممرضات.

كأنها لم تلاحظ الورقة، فرزت محتويات كيس القماش الخشن. ثم جيوب السترة العسكرية. ثم حقيبة الأوراق.

وقف بوغ عابساً ومنكّساً رأسه ونظر بصمت إلى سطح الطاولة المطلي بالورنيش، حيث تتألق الورقة المجعدة.

نظرت المفوضة باهتمام إلى المساعد الطبي لأول مرة في هذه المحادثة، وقالت أخيراً:

– اسمع، يا بوغ. كل شخص لديه لحظات ضعف. وهذا ليس عيباً.

وانتظرت لحظة، ثم أخرجت قلم رصاص من جيبها. ووقّعت على التفويض:

– إذا غيرت رأيك، عُد إلى القطار. عند الفجر، يغادر القطار متوجهاً إلى بخارى لجلب الزبيب والمشمش المجفف إلى منطقة الفولغا. ثم نعود إلى قازان من أجل جلب الأطفال الجدد.

لم يرد عليها بوغ، أخذ الورقة من الطاولة، وأومأ برأسه بامتنان وخرج.

وفي الممر فقط أدرك أنَّ بيلايا كانت تحزم الأشياء طوال هذا الوقت، كما لو كانت ستغادر أيضاً.

***

في الممر التقى بوغ بفاطمة.

لم تلاحظ بوغ، بالرغم من أنها مسَّته بكتفها، وهي تمرّ من جنبه. ولم تلاحظ حتى أنَّ شعرها أصبح في حالة يُرثى لها -فقد سقطت إحدى الضفائر من العُقَد الملتوية على قفاها وانفصلت إلى قسمين. رمت فاطمة معطفها الرث البالي على مرفقها، وخرجت من العربة بوجه هادئ مُكفَهِر- من دون أن تنظر تحت قدميها، ولا أنْ تنظر إلى النوافذ، بل حتى من دون أنْ تنظر إلى أي مكان.

- أيتها الممرضة!

تجنب بوغ حتى الآن مناداتها باسمها، على الرغم من أنه منذ فترة طويلة ينادي النساء الأخريات في القطار بأسمائهنّ.

لم تسمعه فاطمة.

لحق بها عند الباب. لم يجرؤ على أنْ يلمسها من كتفها -بل مسَّ المعطف المتدلي من مرفقها، وفجأة صار المعطف في يده. لم تلاحظ فاطمة ما فقدت أيضاً، ونزلت إلى رصيف المحطة- طقطقَ حذاؤها على الدرجات الحديدية باتّزانٍ، مثل الساعة. وسارت بعيداً.

هل تعلم إلى أين؟

سارت بثبات، وأبقت ظهرها مستقيماً، ورقبتها مرتفعة، كأنها مقيدة في مَشَد. الجديلة الهابطة فقط كانت ترفرف بهدوء في الريح، وراحت تنحلّ أكثر فأكثر، ولا يزال كوعها منحنياً، كما لو كان يحمل ثوباً غير مرئي. سارت على طول الأرض القاحلة المتربة المجاورة للسكك الحديدية إلى مكان ما في الساحة الخلفية من المحطة -عبر المطبات والأخاديد، من جانب الكلاب التي ترقد في الخنادق وعند أسوار المستودعات. قفز أحد الكلاب ونبح وراءها- لم تلتفت إليه.

ألقى بوغ المعطف في عربة الموظفين وهرع على أثر المرأة المغادرة. ظلت سترته الرسمية ذات الصف الواحد من الأزرار في عربة المستوصف، وبقي يرتدي القميص وحده، مشدوداً تحت البطن بالحزام الرسمي. لحقَ بفاطمة، لكنه لم يجرؤ على تجاوزها أو لمسها - بل سار بجانبها، وحاول من ارتفاع قامته الطويلة أنْ ينظر في عينيها الجامدتين، وظل يردد: أيتها الممرضة، ما بكِ، أيتها الممرضة...

وسرعان ما وجدا نفسيهما في بعض الشوارع. تمتد جدران الطين التي لا نهاية لها إلى اليمين واليسار، ومن خلفها تبرز قمم أطراف الأشجار، وتناهت إلى أسماعهما أصوات الحياة الهادئة. فنظر بوغ من حوله -وتذكر معالم الطريق المعقَّد؛ لكن الشوارع كانت تتعرج مثل السكارى، والظل تحت الأقدام إما يجري إلى الأمام أو يتراجع إلى الوراء- فاستسلم.

أدى زقاق آخر إلى طريق مسدود -فاستدارت فاطمة وعادت بنفس ملامح الوجه الجامدة. كلا، هذه المرأة لم تكن تعرف إلى أين هي ذاهبة- لقد أعادت ببساطة ترتيب حركة رجليها، مبتعدة عن القطار «الضفيرة» الفارغ، الذي كان يصعب عليها البقاء فيه.

نظر إليهما المارة شزراً بغضب. بدأت امرأة عجوز، مُكَلَّلَة بالسواد من رأسها إلى أخمص قدميها، بالشتائم من تحت ردائها الصوفي، وهي تهز قبضتها. لم يدرك بوغ على الفور أنها كانت توبّخ فاطمة -فقد كانت فاطمة تمشي ورأسها مكشوف. انضم شيخ نحيف إلى المرأة العجوز، وهو يثرثر بغضب- فأخذ بوغ فاطمة من مرفقها للمرة الأولى: دعينا نخرج من هنا قبل أن يضربونا. أخذت فاطمة يده وواصلت المسير.

راح بوغ يلهث من المشي السريع، وأخبره قلبه -عندما بدأت الحيطان الطينية فجأة تقلّ وتتباعد: أنَّ المدينة قد انتهت. اندفع الطريق الصخري إلى الأعلى، ثم هبط، ومن ثم اندفع مرة أخرى إلى الأعلى،- ولكن المرأة واصلت المشي بشكل أسرع وأسرع.

لم يستطع بوغ أنْ يمسك نفسه، فسألها:

- لماذا لم تأخذي الرضيع الكتكوت لنفسك، أيتها الممرضة؟ فقد اقترح عليك ذلك رئيس القطار. وعرض عليكِ البقاء في سمرقند مع الأولاد. لكنكِ لم ترغبي في ذلك. وبما أنكِ اتخذتِ قرارك، فلا داعي لأنْ تعذّبي نفسك.

كلا، لم يقل أيَّ شيء من هذا القبيل. ولم يفعل هذا – ليس لأنه لا ينبغي الآن توبيخها ولا الأسى عليها، بل يجب أنْ يحتضنها من كتفيها حتى تبكي وتُخرج الحزن من داخلها. لكنه لم يفعل، لأنه لم يجرؤ.

خشخشت الحجارة وانهالت تحت أقدام المساعد الطبي الثقيلة، وكان

هو نفسه ينزلق بين حين وآخر على المُرتَفَع، ولكن المرأة لم تنظر حتى تحت قدميها. فهي بكل تأكيد لم تدرك أنها تسير إلى الجبال.

وكانت الجبالِ تتلألأ في الفجوات بين التلال المغطاة قليلاً بالعشب الأصفر، وفي بعض الأماكن تناثرت الصخور الضخمة. وفي مكان ما في الأسفل، سُمِعَ خرير الجداول، وهناك، بالقرب من النداوة، لاحت الشُجيرات بلونها الأصفر والأخضر بكثافة أكثر.

تنفس بوغ بصعوبة وقال ببطء شديد:

– هل تعتقدين أنني لا أفهم لماذا تهربين؟ ولماذا اختبأتِ في عربة القطار عندما غادر الأطفال، وحتى لم تنظري إليهم من النافذة. أفهمُ كل شيء. لقد بدا لكِ قبل أنْ تودّعيهم – أنهم ملكك، ولن تتخلي عنهم وسيظلون لك.

عندما لاحظ بوغ أنَّ حذاء المرأة يدقّ على الدرب بنشاط أكثر يكاد يقترب من الركض أدركَ أنه على حق. وأدركَ أيضاً أنها تستطيع سماعه. الآن لم يعد يرى وجه فاطمة – لا يرى سوى قِذالها ذي الضفيرة الواحدة وظهرها المستقيم. وفطنَ إلى هذا الظهر، فحاول إيجاز أفكاره، لأنه لم يكن ثمة ما يكفي من الهواء للعبارات الطويلة، فكان يتكلّم ويلهث:

– هم بالفعل أطفالك! فأنتِ أطعمتِهم ليس الخبز، مثل ما فعل دييف، بل الحُبَّ. لقد أنقذتِهم! بحبك. وبقبلاتك لهم، وبابتساماتكِ. لذلك، هم أطفالك... حتى لو نسوكِ... ونسوني... ونسوا دييف، والقطار بأكمله... وكل طفولتهم الملعونة... يبقون، على كل حال، أطفالك، يا فاطمة!... لا يمكنك تغيير ذلك.

وهكذا دعاها بالاسم – وهو نفسه لم يفهم كيف حدث ذلك.

الأهم من ذلك كله أنه رغبَ في الجلوس على إحدى الصخور السوداء التي امتدت على طول الطريق. أو حتى يتكئ بيديه عليها ويقف بجانبها، ويستريح. أو على الأقل أنْ يتوقف لبضع ثوان.

– وكم بقي منهم يا فاطمة! كم منهم بقي... في قازان... في تتاريا... في جميع مناطق حوض نهر الفولغا... في جميع أنحاء البلاد... صغار، خائفون، من دون أمهات... من سيساعدهم؟... من سيحتضنهم؟... مَن

سيقبِّلهم؟... مَن سيعزّيهم؟... مَن سينشد لهم التهويدات؟... إنهم بحاجة إليك... أنتِ!

.أثَّرت فيها الكلمة «أنتِ» الأخيرة كثيراً إلى درجة أنها شعرت كأنَّ قضيباً حديدياً سُحِب من عمودها الفقري - فتهدَّلَت كتفاها واتّخَذتا من جديد شكلهما الطبيعي، ورأسها مالَ قليلاً إلى الأمام. ظلّت المرأة تمشي بسرعة، لكنَّ حركتها لم تعد حركة ميكانيكية لدمية، بل صارت مشية بشرية حيوية.

- كيف ستقابلينهم، يا فاطمة! تخيَّلي فحسب! كيف ستحمّمينهم في الحمام... وتُشرِّبينهم الماء المغلي... وتمسحين الدموع عن خدودهم...

- (ازدادت ضربات قلبه وخفق خفقاناً شديداً). قولي، يا فاطمة؟ كيف سيحتشدون جميعاً تحت يديكِ... مثل الكتاكيت تحت جناحَي الدجاجة... وكيف سيمسكون بأذيال تنّورتك، ولن تُبعديهم!... وسيكونون مرة أخرى أطفالك... حتى تطعمي هؤلاء أيضاً وتطلقيهم إلى العالم... مثل الطيور...

هزَّت الأشجار على طول الطريق أغصانها المستقيمة. أم أنها اهتزَّت أثناء السير؟

- وكيف ستغنّينَ لهم، يا فاطمة، كيف؟ سوف تغنين: نَم، يا ولدي، نَم... واستيقظ رجلاً...

انتهت الأفكار، وانتهى الهواء في صدره، ولكن لم يستَطِع الصمت - كان عليه أنْ يتحدث، وأنْ يُشغِلها كي لا يدعها تغرق في الاكتئاب مرة أخرى. أو أنْ يغني. وفعلاً غنى بوغ.

- الحصان قد أُسرِجَ... ووتر القوسِ شُدَّ...

لم تكن لديه قابلية للغناء، وكان اللحن يخونه، وحتى لم يتذكر النص بالكامل، ولم يكن يعرف اللغة التترية بشكل جيد بما فيه الكفاية، لكنه مع ذلك ظلّ يمدّ المقاطع والكلمات، وهو يتسلق المنحدر.

- الزمن يناديك... والناس بانتظارك...

هسهسَ صدر بوغ، وصار الهواء يخرج منه بصفير مثل إطلاق النار مختلطاً مع الغناء.

- كل شيء ممتلئ بك... مثلما أنَّ قاع البحر... ممتلئ بالماء.

رافق غناءه الصدى، فخرج الصوت كثغاء ضعيف وغير متناغم.

- أنا سمكة زاحفة على الرمال... أنا... طائر غارق في أمواج البحر...
غنى بوغ كل ما تذكره من الأغنية، وانتفل حول الدائرة الثانية.
- نَمْ، يا بُنَي... ليلتنا هذه الأخيرة... سأنتظر... بدلاً عن جميع أمهات العالم.

راح الشيخ الشائب الشعر يلهث من ضيق في التنفس ويعرج على الدرب الجبلي ويغني. لقد أدرك أنه لا يوجد شيء أكثر عبثية من هذه الصورة وأكثر إثارة للاشمئزاز من صوته المتقطّع. لكن فاطمة كانت تصغي إليه، وكان هذا الشيء الوحيد الذي يهمه. لقد عرفَ على وجه اليقين أنَّ فاطمة تسمعه، لأنّه مع كل مقطع، ومع كل خطوة، كان جسد المرأة المتحجر ينتعش: أصبحت حركات جسدها سلسة وأخذت شكلها المعتاد، وصار مشيها أكثر نعومة وهدوءاً.

اندهشَ بوغ عندما وجد أنها تمشي ببطء وبالكاد تتحرك، ولكنه مع ذلك لا يلحق بها وتأخّر عنها، فقال:
- هكذا الأمر، يا فاطمة. أنت في هذا القطار... بدلاً عن جميع أمهات العالم... لهذا السبب تشعرين بثقل العبء.

لم يعد قلب بوغ قلباً، بل قبضة من حديد تطرق أحشاءه من الداخل، فأدرك أنه على وشك السقوط. وإنْ سقط لن يقدر على النهوض. فأمرَ المرأةَ التي أمامه:
- توقفي الآن.

وتوقفت فعلاً.

وقفت، صغيرةً، مُنكِّسَةً رأسها وكتفيها.

نظر إليها بوغ -وهو يلهث بشدة ويريح كفيه على ضلوعه ليهدّئ قلبه المُندفع إلى الخارج- نظر إليها ولم يعرف ماذا يفعل بعد.

صعد وأخذها بين ذراعيه - فقط حتى لا تهرب مرة أخرى إلى الجبال.

لم يعد قادراً على الكلام، ولا يستطيع الغناء، وراح يتنفس بهدير وصفير مثل حيوان جريح. لكنه استطاع أن يقف ويمسك هذه المرأة بين ذراعيه. وهكذا وقف دقيقة أو عشر أو مائة، إلى أنْ كفَّ حلقه عن الحرقة واستعادت شفتاه القدرة على الكلام مرة أخرى. وعندئذ طلب منها:

– ابكي. ابكي، يا فاطمة. لن أخبر أحداً.
لكن فاطمة لم تبكِ.
– كل شخص لديه لحظات ضعف، (يبدو أنَّ هذه الفكرة لم تكن فكرته، بل سمعها) وهذا ليس عيباً.
استلقت بين ذراعيه وعيناها مفتوحتان ولم تبكِ.
استدار بوغ وحمل المرأة الصغيرة وسار بها إلى المدينة.

***

وقف الأطفال في فناء المبنى الكبير ذي الجدران المدببة وشغلوا المكان كله – الساحة الترابية في الوسط والمحيط العريض المرصوف بالحجر. وقف الأطفال حتى على الدرج الخشبي الذي يقود من كل زاوية إلى الطابق الثاني: صبيّات وصبياناً، من عمر سنتين إلى اثنتي عشرة سنة.

بالكاد دخل الحنطور الذي ركبه السقم المُقعَدون إلى الفناء – انزوى في قوس البوابة، وسدَّ المدخل. وراح الحصان يدسّ بوزه بلا انقطاع على رؤوس الأطفال المحلوقة ويصهل، لكنَّ الحوذي لم يتركه يتحرك من مكانه، وانتظر بصبر.

من الدرابزين الخشبي المحيط بالطبقة الثانية كلها للمدرسة الدينية السابقة نظرت إلى المتجمعين مديرة الدار، دافيدوفا. مديرة الدار هذه، امرأة طيبة ودميمة، ذات أنف مُكتَنِز، وشعر خفيف، تضع نظارة أنفية قديمة ذات حواف قرنية بارزة من جيب صدرها. كانت النظارة الأنفية والبلوزة الجوخ، والصدرية الجوخ أيضاً التي فوق البلوزة -كلها قديمة وأُصلِحَت مرات عديدة، وبالتالي فهي متلائمة معها جداً. ربما، تبلغ من العمر أربعين عاماً، أو حتى ستين عاماً– فهي من أولئك الذين لا يعني لهم السن شيئاً.

وقف دييف بجانب المديرة ونظر باهتمام بعيداً.

ونظر خمسمائة طفل إلى دافيدوفا بألف عين -بُنّية وحمراء وسوداء وزرقاء وخضراء– من الأسفل إلى الأعلى. بالإضافة إلى الكلبة التي بهت لون عينيها بفعل الزمن (حملها أحد الأطفال بين ذراعيه حتى لا تسحقها الأقدام في المكان الضيق).

قبل دقيقة، عندما فتح دييف البوابة للتو وتدفق الأطفال العراة إلى الفناء في تدفق لا نهاية له، تمكنت دافيدوفا من نطق كلمة واحدة فقط مُذهلة – «يا إلهي!» في البداية وقفت في الأسفل، تبتسم في ذهول لمن جاءوا، ثم صعدت الدرج لتتمكن من رؤية الصورة بشكل أفضل وإفساح المجال للأطفال، ثم صعدت تماماً إلى الطابق الثاني.

عندما وصل الحنطور يحمل آخر الوافدين إلى البوابة، وتوقف تدفق الأطفال عن اللغط ووقفوا جامدين تحيط بهم الجدران من الجوانب الأربعة سألت دافيدوفا:

– كم أحضرتَ من الخمسمائة؟

أخذ دييف نفساً عميقاً وأجاب – كما لو كان يغوص في الماء:

– أحضرتُ الجميع.

ازداد ذهول دافيدوفا أكثر:

– لا يحدث مثل هذا. على مسافة يبلغ طولها أربعة آلاف فرسخ وعلى امتداد ستة أسابيع – لا يحدث ذلك.

نظرت إليه نظرة ثاقبة، فكان عليه أن يردّ عليها النظرة. كانت عيناها مثل صَحنَي فنجان مليئَين بالماء، مستديرَتَين ومشرقَتين. ومع ذلك كانتا ساذجتَين على الرغم من تجعد وجه وجسد المرأة العجوز الكبير.

– ولكنّ هذا ما حدث لي. الآن سيحدث لك أيضاً.

– ما قطاركم هذا – هل قُرئت عليه رُقيات وتعاويذ؟

ظلّت تنظر إلى دييف من علوّ قامتها الطويلة، وبدا أنه هو مَن ينظر إليها من أعلى – إذ صدح صوتها مُحبَطاً للغاية وصوته قاسياً جداً. لكنَّ دييف كان يعلم أنَّ كلماته لم تكن هي التي أذهلت دافيدوفا المسكينة، بل مشهد الخمسمائة طفل الذين من دون شيء من الملابس يسترهم.

– حدث ذلك لمجرد أنَّ الحظ حالفنا. لقد صادفنا أناساً طيبين في الطريق – فساعدوا.

– دعكَ من هذا! فحتى رجال الإخلاء الأكثر خبرة كانت لديهم دائماً خسائر بالأرواح. كم عدد رِحلات الأطفال التي قمت بها؟

– هذه أول رِحلة.

ازدادت عتمة عينيها الشبيهتَين بصَحْنَي فنجان مليئَين بالماء، وأصبحت نظرة المرأة أكثر صرامة.

فهم دييف أنها لا تصدّق. فكرر بعناد، محاولاً الحفاظ على نبرته الواثقة:

- أقول لكِ، الخسارة صفر. وحتى إنَّ هناك ربحاً: تم العثور على طفل رضيع في الطريق. يوجد حليب له، لا تقلقي، لقد أحضرناه مع المُرضِعَة.

تغيَّرت ملامح وجه دافيدوفا المذهول بسرعة: أُغلِقَت شفتاها بإحكام أكثر، وارتفع ذقنها أعلى.

لم تصدق.

أخرجت النظّارات الأنفية من جيبها، ووضعتها على أنفها ودرست حشد الأطفال من خلال العدسات لبضع ثوان. ثم رفعت تنورتها -في إيماءة خرقاء من الطراز القديم لا تراها إلا في الأفلام- ونزلت الدرج.

اندفع دييف على أثرها (لحماية الأطفال! والتغطية عليهم من النظرة الحادة الجامدة!) ولكنه أدرك عبثية نيته فبقي على الدرج.

سارت دافيدوفا وسط الحشد الصامت وهي تنظر إلى الوافدين. لم تكن هناك حاجة للضغط - الأطفال أنفسهم افترقوا أمامها. مسّدت يدا دافيدوفا الكبيرتان على الرؤوس والأكتاف التي كانت تطفو من جانبها وربَّتت على خدود البعض. إنها امرأة لطيفة، لم يلاحظ دييف طيبتها في البداية. وسوف يكون الأطفال على ما يرام معها، أي أولئك الذين تقبلهم.

قامت بالتفافة، ودارت حول الفناء. قالت بهدوء شديد:

- أنت تخدعني، يا رفيقي. جئتني بمن؟ دار الأيتام - للأطفال من منطقة الفولغا. (مررت يدها على قفا الحاجب تشاتشا نبيذ تسيناندالي) هذا من القوقاز. (وابتسمت لجابريه): هذا من الطاي. وهؤلاء من الشمال... وهؤلاء بشكل عام من السكان المحليين! هل تتوقع أنّني لم أرَ الأطفال؟ لقد كنت أعمل مع الأطفال طوال حياتي!

قال دييف بشفتين جافتين:

- هؤلاء كلهم أطفال من منطقة الفولغا. بالضبط خمسمائة حسب القوائم. لذلك لا داعي للعبارات الغوغائية - واقبليهم.

لم يتخذ وجه المديرة ملامح الصرامة فحسب، بل اتخذ طابع الشدة والحزم. (في تلك اللحظة بدت تشبه بيلايا، كأنها أختها الكبرى) لم تجب، واكتفت بأنْ رفعت ذقنها بغضب، ثم انحنت نحو تشاتشا، التي كانت تقف بجانبه، وقالت له:

- ما اسمك يا فتى؟

تكلمت المديرة مع الطفل بشكل معبِّر، ولكنها في الوقت نفسه نظرت بهدوء ونفاذ إلى داخله - كما لو أنها لم تصفق رموشها على دييف مثل بقرة منذ دقيقة.

ولكن هذه الأشياء الصغيرة كلها لن تساعد: فقد منع دييف الأطفال بشدة، وهم بعدُ في القطار، من الكلام إلى أنْ يُقبَلوا بشكل نهائي في دار رعاية الأطفال ويستقرّوا في الغرف.

ولهذا بقي تشاتشا صامتاً، يحدق في دافيدوفا بعينيه السوداوين الخائفتَين ولم يرد عليها.

فالتفتت إلى جابريه:

- وأنت، ما اسمك؟

وواصلت السؤال:

- وأنتَ؟ وأنت؟...

صمت الجميع ولم يردّوا عليها، فكلهم يريدون العيش تحت سقف.

وفي محاولة يائسة للتغلب على هذا الصمت الجامع، انتقلت دافيدوفا إلى الحنطور الذي يحمل الصغار - عرفت أين تجد نقطة الضعف. فأدرك دييف بحسرة أنها بعد كل شيء ستعثر على ضالتها. فالصغار عموماً أناس غير موثوق بهم، وسوف يبيعون أنفسهم مقابل كلمة طيبة.

ابتسمت لطفل يبلغ من العمر عامين كان جالساً على حافة العربة، مُدَلّياً ساقيه ويمضغ قبضته بصبر - في انتظار نهاية الفحص:

- حسناً، يا حبيبي الصغير، هل تجيبني؟

كان الصبي من شعب كالميكا، من الأطفال الذين التقطهم دييف في الطريق. كانت عيناه المنغوليتان ضيقتين للغاية لدرجة أنهما بدتا مثل الشَّرطتين المزدوجتين، وكان وجهه مسطحاً مثل فطيرة. لم يعرف دييف ما

إذا كان الصبي قادراً على التحدث قبل أنْ يركب القطار. لكنه بدأ يتكلم في القطار «الضفيرة» باللغة الروسية.

ردَّ على ابتسامة دافيدوفا –على الفور. فمدت يديها إليه، فمد يده في المقابل. أخذته بين ذراعيها– فتشبث بها في نفس اللحظة.

كيف أمكن لهذه المرأة أن تحمل طفلاً بين ذراعيها! فما إنْ حملت هذه المرأة (الخرقاء وغير الجذابة التي من المستبعد أنْ تكون قد عرفت ذات مرة حب الرجل وسعادة الأمومة) الطفلَ على صدرها حتى بدت أسمى من كل عبثية وشهوانية. فمع وجود الطفل على صدرها صارت هي نفسها – أمومة حكيمة وأبدية.

واصلت الابتسام:

– ما اسمك؟

فابتسم الطفل بخجل وبأمل وظلّ يقضم أصابعه من الارتباك والخجل.

أدرك دييف أنَّ الطفل سيخذله.

شجَّعت دافيدوفا الطفل:

– قُل، ما اسمك؟

أخرج الصبي يده من فمه وأجاب بصوت منخفض:

– إسكندر.

شكرته دافيدوفا بإيماءة حنونة، ومن دون أنْ تتركه التفتت إلى طفل آخر جالس أيضاً في العربة ذي شفتين جنوبيَّتَين ممتلئتين وعينين مثل ثمرتَي برقوق.

– وأنت، ما اسمك؟

– إسكندر.

فتوجهت إلى الثالث:

– وأنت؟

– إسكندر.

– إسكندر.

– إسكندر.

– إسكندر...

مكتبة
t.me/soramnqraa

أعادت المديرة الكالميكي الصغير إلى مكانه في العربة وتوجّهت إلى دييف، كان وجهها شاحباً بسبب السخط.

- يا للعار، ألا تخجل! حتى الأطفال أقنعتهم!

قال دييف بصدق:

- لا أخجل، لأني لم أُقنِعهم.

أرادت المديرة الاستمرار بالحديث من دون شهود، فأشارت برأسها نحو أقرب باب، وقالت لدييف:

- دعنا نذهب لمدة دقيقة، أيها الرفيق.

كشف الباب عن إحدى غرف النوم: بين الجدران الطينية الناعمة، المفصولة بنوافذ قليلة، ارتفعت أَسرَّة مكونة من ثلاثة طوابق بكثافة مثل الغابة. الطبقات السفلية من الخشب، والطبقات العليا من القماش، مثل الأراجيح - لم يكن هناك ما يكفي من الخشب لكل شيء. لم يكن ثمة موقد يُرى، لكن الغرفة كانت دافئة. تفوح منها رائحة الصابون ونشارة الخشب.

قالت دافيدوفا مُشَدِّدَةً:

- كان الأطفال يموتون على طول الطريق، وأنت تضع الأطفال المشردين في المقاعد الشاغرة.

شعر دييف بالارتياح، وقال:

- أركبتُ طفلاً واحداً، رضيعاً مولوداً للتو. وقد أخبرتك بهذا.

- إنك ما تزال تكذب! لكن لا أستطيع. ولا بد لي من تقديم تقرير إلى لجنة رعاية الأطفال.

فردَّ دييف مُشَدِّداً:

- قدّمي التقرير! كيف ستفحصينهم، يا عزيزتي؟ هل ستكتبين إلى أهلهم في مناطق نهر الفولغا حتى يأتوا من قراهم إليك في سمرقند ويؤكّدون هويات أبنائهم؟

وقفت دافيدوفا وضغطت ظهرها على الباب المغلق، وقد أنارها ضوء المساء المائل. قرأ دييف الانزعاج والغضب على وجهها المُحْمَر من القلق. وكذلك الشك. لقد فهمت أنّها يجب أنْ تقْبَل الأطفال لديها في الدار، فَهُم على كل حال لا يستطيعون مغادرة سمرقند في الشتاء، وأنَّ قضاء الشتاء

في الجبال ومن دون سقف فوق رؤوسهم بمنزلة الموت. كانت تخاف من شيء ما، وتوبّخ وتهدد - لكنها كانت تعلم أنه يجب عليها فِعل ذلك. وهي الآن لا تتجادل مع دييف، بل تتجادل مع نفسها. ولم تعد تُهاجم، بل تُدافع، وقالت على نحو كئيب:

- سوف يُكشَف غشّك على أي حال. أثناء إخلاء العودة، في الربيع.

اقترب دييف منها بشدة لدرجة أنه استطاع أن يشم رائحة جسدها: العشب الجاف والصابون الأسود الذي غُسِلَت به الستائر في الغرفة، وقال:

- لا يوجد غش! ولكن حتى لو حدثَ من خلال هذا الخداع أنْ يقضي خمسمائة طفل الشتاء في الدفء والشبع، فهل يُسَمّى هذا بمثل هذه الكلمة السيئة؟

ضغطت على الباب كأنها سقطت من دون أنْ تستند إلى شيء، وراحت تتحدث بيأس وبكلمات قاسية:

- هذا بالذات ما يسمى الكلام الديماغوجي! لجنة رعاية الأطفال لا تؤمن به. والسلطات القضائية لا تصدقه.

أخذت تتلوى عند الباب مثل محكوم عليه بالإعدام عند حائط تنفيذ الحكم.

ففهم دييف أنَّ المديرة الآن بحاجة إلى القشة الأخيرة - إلى بعض الكلمات الصحيحة أو نظرة توسل أو إلى دفعة روحية أخرى، حتى تستسلم. فقال بهدوء وبصوت منخفض، كما لو كان يسرّ في أذنها:

- وحتى لو كان ثمة هذا الغش، فهو على كل حال غشّي أنا، وأنا مَن يتحمل المسؤولية عليه. أنتِ لا تغشّين أحداً. لكن يمكن أن تقعي في الخطأ.

لم تقل شيئاً بعد ذلك، لكنها هزت رأسها قليلاً: لا، لا!

انتابت دييف رغبة جامحة لأن يمسك المرأة من كتفيها المتراخيتَين ويهزها بأقصى قوة حتى يتشقق رأسها هذا الذي يرتجف عند الباب وتكف عن ترديد كلمة «لا»! لكن الآن لا ينبغي له الاستسلام للغضب، بل عليه أنْ يقنعها بلطف، مثل طفل خائف، ولهذا استمسك بكل قوته.

بيد أنه استمسك بشكل سيئ.

- لماذا تشتغلين مع الأطفال؟ -(أراد أن يضيف إلى العبارة «أيتها

الدجاجة» أيضاً، وبالكاد استطاع أنْ يكبح جماح نفسه).- فهل بمثل هذا القلب الجبان المرعوب يمكن رعاية الأطفال؟ العمل معهم يتطلّب شخصية قوية، أصلب مما تتطلب الحرب. بينما أنتِ تخافين حتى من ارتكاب خطأ.

أجابت بقسوة غير متوقعة:

– أنتم، أيها البروليتاريون، مسموح لكم بارتكاب الأخطاء. أما أنا، فغير مسموح لي. أصلي لا يسمح لي.

مرت لحظة الشك، فقررت كل شيء: لن تأخذ الزائدين.

وقرر هو، أنه لن يغادر من دون موافقتها على قبول الجميع.

صفق يديه على الباب (بالضبط على جانبي وجه المرأة الخائفة) وقرَّبَ وجهه من وجهها. وهمس بشفتيه المرتجفتَين بوضوح، وعلى شكل مقاطع:

– يا عزيزتي، لقد أحضرت لك أطفالاً، لا حملاناً ولا ثعابين – أطفالاً. هؤلاء هم الأطفال الذين كنتِ تنتظرينهم. إنهم جوعى ويشعرون بالبرد. هيّا دفّئيهم وأطعميهم. اقبليهم، من فضلك، هم أطفالك الآن.

لاحظ ديبف تحت أنفها شواربَ خفيفة غزاها الشيب، وعروقاً أرجوانية تحت عينيها... وبياض عينيها من خلف الزجاج السميك لعدسات نظّاراتها الأنفية أصفر اللون...

الكلمات انتهت. ولم يعد هناك المزيد من الكلمات التي يمكن أن تخبرنا بما بداخله. كل الكلمات كانت عبارة عن قشور ورماد. ولأنَّ ديبف لم يعرف ماذا عليه أنْ يفعل، وكيف يقنع هذه المرأة ويهزمها، فقد ضغط على رأسها، كما لو كان ينوي أنْ يفلطحه في كفيه، وقبّل شفتيها المرتعشتَين. أحسَّ بطعمهما مثل طعم الأوراق المتساقطة الجافة والذابلة. وقبّلهما كما لو كانت أمامه المرأة الأقرب والأعز – كلا، بل كما لو كانت أمامه في وقت واحد جميع النساء اللواتي أحبهن ورغب فيهن: كل من بيلايا وفاطمة والمُرضِعَة الوقحة التي صادفها في بلدة توروليما والعاهرة الطيبة من شارع موكرايا في قازان التي زارها في صباه وزوجات العمال من مستودع القاطرات اللاتي تجسس عليهن أثناء السباحة.

أخيراً رفع شفتيه عنها. وتراجع. وراح يفكر: ماذا فعلت. كم أنا أحمق. خطا خطوة أخرى إلى الوراء، ثم خطوة أخرى. كان من الضروري أن

يقول شيئاً للمرأة التي أساء إليها -لكنه ببساطة جلس على السرير وأخفى وجهه بين يديه. كان عليه أن يخجل من فعله الحقير- لكنه لم يشعر بالخجل. كان يشعر فحسب بإرهاق كبير، بحجم الهواء - ليس من هذا اليوم الطويل، بل من التعب طوال شهر ونصف من الرحلة. وبعد أن سحقه هذا التعب، جلس دييف على المقعد ولم يعرف كيف يتحرك.

وقفت دافيدوفا بجانب الباب ومسحت فمها بظهر كفّها. وفي الوقت نفسه، تجعد خداها على شكل طيّات كبيرة.

قال دييف:

- أنا آسف. اعذريني... سآخذ جميع مَن أركبتهم في الطريق. مائة وثلاثة أشخاص، سآخذهم جميعاً.

كان على دييف أنْ ينهض من مكانه، فالأطفال الذين يرتجفون من البرد ينتظرون خلف الباب، والحوذي مع الحصان، ومجريات الحياة الأخرى كلها، - لكن دييف استمر في الجلوس، شابكاً أصابعه الملتوية على جمجمته.

بقيت دافيدوفا واقفة. التقطت نظارتها الأنفية المتدلية على خيط، ووضعتها على أنفها وفي نفس اللحظة سحبتها مرة أخرى ووضعتها في جيبها.

قرر دييف أن يرفع بصره إليها، فرآها تنظر إلى مكان ما في الجانب، إلى النافذة أو ليس إلى أي مكان آخر. فقال لها:

- كلّ ما تقولين صحيحٌ. مقابل مثل هذا التزوير يمكن أنْ يتعرّض المرء إلى العقوبة في معسكرات الأشغال الشاقة على أقل تقدير. ليس لدي الحق في إجبارك. وزيادة على ذلك إجباركِ من خلال الغش. آسف جداً. ولكن عندما التقطتهم على طول الطريق، اعتقدت أنكم سوف تستقبلونهم هنا بالتأكيد. قال لي الرفاق الأذكياء «كلا» لن تقبلوهم. وأنا الأحمق، اعتقدتُ «نعم»، سوف تأخذونهم. كل مَن التقينا بهم خلال هذا الشهر ونصف الشهر (وكانوا كثيرين، كجيش جرار) - جميعهم قالوا «نعم». ليس لأنني عنيد جداً أو محظوظ، بل لأننا بشكل أو آخر يجب أن نظل بشراً. أجل أنْ نبقى بشراً برغم وجود هذه الفوضى الطاحنة للأجساد.

لماذا حدَّثها بشيء رفضَته مِن قبْل؟ لكن الآن، عندما كُشِفَ عن الخداع،

أصبح من المهم للغاية، لسبب ما، أنْ يقول الحقيقة - وليس أنْ يقولها فقط، بل أنْ يخرجها من أعماق نفسه.

- وكذلك قال الرفاق الأذكياء إنني في هذا القطار لا أنقذ الأطفال، بل أنقذ نفسي شخصياً. لا بأس، فليكن ذلك. بالنسبة لي، من الأفضل ألّا أجد طريقة للخلاص. فوفقاً لما أرى، فإنَّ كل من التقينا به خلال هذا الشهر ونصف الشهر فَعلَ الشيء نفسه. لقد سعوا إلى إنقاذ أنفسهم. بينما أنتِ امرأة جليلة، وإن كنتِ ذات أصل، ليس لديك خطايا كبائر - أنتِ لستِ بحاجة إلى الخلاص.

لم تنظر دافيدوفا إلى دييف على الإطلاق، تماماً كما لو لم يكن في الغرفة.

في مكان ما في المدينة، ارتفعت أصوات المؤذنين داعين إلى صلاة العصر. كانت أصواتهم ممدودة وحزينة.

تغلَّب دييف على التعب، ونهض من السرير، وقال:

- دعينا نقسِّم الأطفال. إنهم هناك حفاة ويرتجفون من البرد.

فسألته دافيدوفا في الفراغ، بصوت متجمد:

- ماذا ستفعل بأطفالك؟

- سأعيدهم إلى المكان الذي جلبتهم منه. أنا محظوظ بالعثور على الطعام، وسأكون قادراً على إطعامهم في الطريق. وفي قازان، أعرف إحدى مديرات دور الأيتام، سألجأ إليها، وسوف تؤويهم.

- لا حاجة لأن تعيدهم. سآخذ الجميع.

مسَّدَت دافيدوفا على شعرها، وعدَّلَت الخصلات المنحرفة، وقوّمَت ثوبها. ومرَّرَت راحة يديها على وجهها، لتمسح ذهول الدقائق المنصرمة. إنها امرأة قوية. عبثاً دعاها دييف في ذهنه «دجاجةً».

فحذرها دييف قائلاً:

- إذا ما أخذتِهم اليوم، وغداً تغيّرين رأيكِ وتطردينهم، فمن الأفضل ألا تتعبي نفسكِ. لن أُعطيكِ إيّاهم.

نظرت إليه بصرامة، على نحو تربوي، وقالت بصوت لم يعد متجمّداً، بل حازم تماماً:

- حتى إخلاء العودة سيكون منزلهم هنا. الخمسمائة كلهم. ورضيعك

هذا الزائد أيضاً. لدينا ثلاثمائة وخمسون سريراً. سنوزّعهم فرادى في الأماكن العليا، ومَثْنى في الأماكن السفلى.

عادت إلى هيئتها، متماسكة وجدّية، مثلما كانت خلال الجولة الأخيرة في الفناء. وقد خرجا بالشكل الآتي: دييف مكتئباً مُنهَكاً، ودافيدوفا، على العكس من ذلك، مبتهجةً وآمِرَةً.

لم يسأل عن سبب انخفاض عدد الأسرة بمقدار الثلث لمن يصِلون إلى سمرقند عن عدد أولئك الذين يغادرون قازان. هزَّ رأسه فحسب: موافق.

وذهبا إلى الأطفال.

لقد تجمد الأطفال حقاً وهم واقفون. إذ حلَّ المساء. وكانت أشعة الشمس المائلة تدفّئ جزءاً فقط من الفناء، بينما خيَّم الظل الأزرق على الجزء الآخر. احتضن الأولاد والبنات أنفسهم وبعضهم بعضاً بأيديهم، وضغطوا بعضهم على بعض وانتظروا وهم يهتزّون من البرد كأنما يرقصون.

صاحت دافيدوفا بصوت عالٍ وواضح:

- أيها الرفاق! مرحباً بكم في بيتكم الجديد! غرف النوم في الطابق الثاني. أدعوكم لتصعدوا وتشغلوا مقاعدكم.

لكن الأطفال لم يتحركوا - كانوا ينتظرون الأمر من رئيس القطار.

فطلبت دافيدوفا من دييف بصوت منخفض:

- قل لهم أنْ يصعدوا.

من الدرابزين، بدت وجوه الأطفال المتجهين إلى الأعلى صغيرة، كما لو أن جميع الأطفال أصبحوا فجأة أصغر بسنتين. نظر دييف إلى هذه الوجوه وأدرك أنه يعرف كل واحد بالاسم. أسماء الموجودين في القائمة من قازان، وأولئك الذين أركبَهم في القطار في الطريق - كلهم على حد سواء.

البروفسور الصدئ، بيب الحديدي، الوقواق، غريغا ذو الأذن الواحدة، جمال النحيلة، بيتكا بومبادور، بعر الغنم، هرَقل، كازانوفا، ليلكا البظر، الحرشف، لاركا الزانية، فيديا فرويد، بولات الوسخ، غاينو العش، يوزكا العربيد، حساء الكرنب الحلو، غُلام الدين، محمود الصيني، إيفا الحمامة، التوأمان بورزا الصلف وبورليلو الخفيف، شمبانيا أبراو ديورسو، قيصر الغائط، ياشكا القذر، غوغا الثور، غيلازي، اللورد فونتلروي، شاكر،

صدري، كوديا الطلائعي، غرينكا البصل الأخضر، حجي مراد، سيوما سباحة الفراشة. سيف الله. دورفي بدون أصدقاء، ميشكا مورفين، ياميل الجميل، كوركا، يفغيني أونيغين، يوشكا المُخبِر، إيسادورا دونكا، أوكسانا، تريشكا مونتي كريستو، بيرم ديلي روفنو، سيغفريد، هيرا تشايكوفسكي، رايسا، يركيا الفودكا، فيلياس فوغ،

فيرا الباردة، شنياغا شاكر، فانكا، إيسيا الأير، الذئب الجائع، أنور الموت للجميع، بهمار، كلافا كابل. ميشكا الدُّبُر، موسيا ابنة بوبوفا، فيكونت براغيلون، الجرو، ستيوبا الخنزير، تريشكا الطلقة، دوديك بدون يقظة، ألكا المساهمة. يولدوز، رحيم، الحرامي، سلطانة، إميليا غالوتي، روما كيكر، جاسور، سيلديكونو الأذن، السحلية، الرجّاف، عبدجان الرهيب، زيكا ذو الأنف، حقيقة ابن غيورغي، هادي المُتبَجِّح، لافروخا المُلَمِّع، مجيد، موخا لوكسمبورغ، فتح الله، قادر، أوتابيك، مها مُخاط، ديلدا القصيرة، فتح الله، قادر، دوسيا حليب، عباس الأشعث، جنكيز مامو، غولفيا الصلعاء، فانيا بيكويك، يولكا الطيبة، سانيا من أستراخان، نويانا ثلاثة عناكب، توسيا ديرجيموردا، واتسون صاحب القطن يحمل الذئبة المرضعة بين ذراعيه.

جينيا نظافة، يوروك المجذوب، زينكا القرحة، فيلكا الفائر، أصلان الموصلي، بيتيشكا الزب، دولا التافه، زويا الأفعى، بريس الجلد، رُغَيِّف، نابليون المساعد، بانو الغبية، غوشا المُقَمِّل وغوشا النظيف، مقسوم الأبكم، زيغا، مونيا بلا قانون، درانيك بالزبيب، هاريتوشا المُسعِل، غيان كومونا، باجانيل، أرخميديس، كيرا اليسروع، زوليا العصبية، ماشكا الخبيثة، سانيا الشخاخ، أيفينغو الموسوم، تمارا، غولتشيخرا، بلوط المسحوق، لينوشكا، تسيتسا، كابتن نيمو، ميشكا موريارتي، كارليونوك، تانيا، فارلام الأعمام، باستر كيتون، سافكا الحمّال، الملبّسة، سازون السليط، يوسيا تراخوما، غيلاسكا المشاغب، فورونكول، ناستيا المدعي العام، غوردي صديد، كايوم بلا عيون، لافروشكا الجهيض، غريشكا تشنج، الملك آرثر.

شارلوك هولمز، تشاتشا نبيذ تسيناندالي، كليوكا المعجزة، فولكا الخنفساء، تفرسكوي كوندراشكا، روديا أرخانجيلسكي، بيلاغيشا خمر، سيلفا البسكوفي، الثقب، جوب من مايكوب، أثوس الثقيل، روستوف

على الدم، لاريك تاسوي تشاشي، مَحَبّات، فاسر العاري، الخيط الناعم، يانيس بالمرصاد، علي شير، الرصاصة، غوغول موغول، فوفكا إجهاض، الثومة، كُساح ابن الكساح، فريدة، ليلى، سارانسكي المِزراب، أزاليا وأماليا، كيكا الميت، يهوذا شوبشكار، أبولو بدون بنطلون، بازانكا القنينة، الأحدب، فوكا صاحب غلفة القضيب، غريلياج ذو الأسنان العفنة، فوتياك الأعور، أمبا من تيومين، يوشكوف، سورجوتيشكو، تشورا، شوكت، أنور، غولشات، ماركيل التوابيت الثلاثة، تيوريابيك. نيكا الألماني، آيكا، جايدماك اللص.

تشيجيك الجشع، إلكا سوكوليادا، جانكا الفِراش، أغافون، بلاتوشا السجين، التهاب اللوزتين، ريغوليتو. ليدا العاهرة، غولجا البسمة، أوسيا الزهري، موديا بروجكتر، جنغاتار السيف، البرغوث، كلافا من الحفرة، آنيا قسّم على اثنين. سيريوجا، كوليا جبن كاممبرت، دوفليت الضّيِّق، ياغميز الأعـور، فوما صاحب الفأس، بولونيز، ريتا الطفح الجلدي، زنوبيخا المحمومة، سونيا الشمس، دونيا أعطني السكَّر، عسكر المفطوم، اللِّيَّة، بينيا طرطِش، تيبون المنفوخ، فولفغانغ الأعرج، تشيريميس، جوفا، ستيفان بافاريان، هيرمان شيدروتا، التلميذ، فينيا أنفلونزا، فرول الغاضب وفرول الذي لا يغضب. ديوما – صديق الجميع، تيسكالو الكذاب، فينيا المحظوظ، أبجورا كاليزينسكي، فاديا الجوعان، فيما شارب الغُسالة، غوغا، مملوك، زينا العفنة، جون الأحمر، أراميس القذر.

ياقوت القضيب الواقف، إيغناشكا أنام، يونس، ياكوبينيتس، ليشاي، غليبا شحّاذة الخبز، شيفوروت نافيفوروت، باي الفخور، تيوما ظلام، سوفو، منتظر القبر، ماركيشا المرعوب، بغداسر، كالميكي، روكفورد، جيغوليفسكي جورا، توشا تشيري، لوقا ملاريا، إبراهيم القازوق، رشيد دفتيريا، أريك بلات، عزة، بودوغشا بيتوك، أوريست السوقي، سرور لُقُم، شيرماتش الغشاش، غريشكا الأعمى، المشلول، يوليك أورينبورغ، أشخين، جورا كاجور، إيرما، جالو المثير للشفقة، إيغور غلينوزغور، أرداتوفسكي بيتيا، كوكليفانيتس السام، ذو الكرش، الحمّى، مراد من القرم، ساراسين البدوي، بروفيترول، ساشا الأثول، بوديا العفريت، عيسى قليل النفع،

الزَّعّاق، إيشاؤول المتكلّف. راعي الحمام، بلومبير على الطاير، كريست يفريميتش، لوديك الضَّرّاط.

شاهر ماهر المُخادِع، جدان لص القطار، شاغاني، سميث وويسون، لوسيا الورقة الممسوحة، أفوشا الأجرب، الكرش الصارخ، الحصبة، يوسوب، يغور آكل طين الغور. يوناني بطرسبورغ، سبيركا من أهتوبا، القرقيزي ذو الخطمين، زينكا نبيذ بورتو، غالي الباشكيري، الصابونة، كاراتشون موت الفجأة، فوفا سيمبير، كوريخ وقواق الدود، فيرا الشعلة، بانيا المدلل، جورا بورنوخفات، ستيندال، السَّعّال، أود الوسخ، بيتكا بيتيفور، فاديا مُت غداً، كولتشاك الأجرب. أولفت من أوفا، صالحة العوراء، فردوس في إستها حَوس، لوليك ذات البراغيث، ساكا المنهوكة، مريم، هوغو عديم الحواجب، فالوس، ابن العاهرة، جابريه. ديفيد كوبرفيلد، الشحيح، نوهرت الصماء، منصور عاهة، كلب التفتيش، دريستا المذعور، إيلسا غيلزا، حواء مغنية الجوقة، آسيا الصبية، الكمأة، بيتكا الصاخب، حارث العابد، ديكنز المتوحش.

تيمبا السّكّين، ناصر الميت، تاراسكا، البديل، خريستا، مراد، الكحول من رزيف، زاغيت بريبادوك، بونيا مساء، الحشاش، لانسيت، غيلبيري، ميتيا ماين ريد. غوشا سَيَلان، عمر أسفلت، أفونيا ذو النهج، تانيا الشيوعية، دروشا ليزالا، آركا فيرتي فولا، بن غانا من شيخران، توليا التهاب جلدي، رمسيس الثاني، بايزيد البلغاري، أودمورد الأعمى، حَسن فلوس، ماكاكا السجين، جورا شبار، غيدار العازف، ديلار من بوغولما، غيرا بدون قضيب، ديوما القوطي، زورو، أبو ماسوني، البوكر، براندي، لافرينتي القط، خمر هانجا، لاريك بوليتورا. تاسيا غير العاهرة، إيرا سيجارة بابيروسكا، يروشكا الثفَل، غجيكا بيتوشنيك، أورينا، إيا دوا كيا، شاراشيك بنزينسكي، ياكوب فيكيشا، سانيوك ديناتورات، فايا جوفنو، تشيخون ذو الرأس الكبير، أوفيليا بقصة شعر.

غوروشك الراقص، ريابي شورس، شامل إبلياس، فورديباخ العنيد، تيما مؤتمر، شنكر، دورا بابورا الغبية، فيديا جريان، كوناكاراد جعفر، نزار المُستَمني، فرانغيل من أوديسا، بورا، بينكا كلَبشات، ليزا الطريحة، فينيا

ماراثون، موتيا الحراميّة، ترافياتا تبغ الماخوركا، نيوتا يا ربّي غُفرانك، مانانا المشمشة، كوليا حكّة، يوردون نصف الزجاجة، كوستيا المَلَكي، هيرومانت، ايليا سارق القبور، فينيا الطفل المجرم، مختار ديجينيرات، كورنيلوف كتيبة ستة وعشرين، زوسيا العبثية، تبروسيا، أوليا لصّ الكنيسة، بوسيا المال الكثير، تيمور، بوريا عِراك، بوغدان الضنين، نانسين، سيسكا النشّال، كوندرات متتبّع الأثر، لوكا أوكوسيفالا، كوليا الآلة، بيبي نور، كلارا مقطوعة الرأس، آسيا قنبلة، موسى المُعَمَّد، فاليا كارمن، حليمة التركية، لوفا القائد، بوديني، ميتيا عازف الملاعق الخشبية، كوسكا السلاب، سيما – اشرب النفط.

بوبيك الكلب، حمزة، شنابس إيفانوفيتش، ليزا، الجدة، ياشكا المسيح، أُلفَت، سلافا إيجيفسكي، مشنيا باسطرما، فيتيا الهارب، بوغوداشا، فيكا ذات الملابس الجميلة، بخيت، كوسيا ذات البنطلون، كليم شكوتنو، إديا السارق، أخاتكا قيوم، جاتسبي، دانكا رُفات، فيلون المتقاعس، محمود الأحدب، توما الجهول، سليم، كيم الخفيف، كوسيا البولوني المتسوّل، أوسيا اللُّصَيْص، موردفين، قدير الكذّاب.

وفي الحنطور المُقعَدون السقم والرّضّع: النحلة، السنجاب، الورقي، سيبوك المبحوح، ليسيا بين الحياة والموت، تشارلي شابلن، القميء، الهندباء، الذهب، مورليكا، غلينا الطين، إسكندر الكتكوت، تونيا، مانوسيا، غلانيا، مَرهود، بَير، ديديم، فيسا، يانغول، ستوبا، يوريك، لينكا المقاتل، مكاريك، ميروشا، وزاغريكا الذي لم يعد يعاني من الحمّى...

– هيّا، قل لهم! من فضلك قل إنّ بإمكانهم الدخول إلى بيتهم.

أدرك دييف أنه لا يزال يقف على الدرابزين بجانب دافيدوفا وينظر إلى الأطفال. والأطفال – ينظرون إليه.

لم يستطع أنْ يقول لهم أيَّ شيء، فأومأ برأسه فقط: أسمح لكم بالذهاب.

فاندفع الأطفال على السلالم إلى غرف النوم الدافئة التي تنتظرهم...

عاد دييف إلى محطة القطار بعد أنْ حلَّ الظلام. ولسبب ما، جلسَ مدة طويلة متجمّداً على إحدى المصاطب في الحديقة المجاورة للمحطة، يستمع إلى نباح الكلاب البعيد. ثم تسكّع بلا هدف على طول المسارات

محدّقاً إلى القمر الباهت. وفي نهاية المطاف وجد نفسه فجأة عند رصيف المحطة الذي رُكِنَ إليه القطار «الضفيرة» الليلة.

سار على طول القطار الفارغ على غير العادة. كان الرصيف عالياً، فاستطاع دييف من دون صعوبة أنْ ينظر في نوافذ العربات – ولكنَّ تلك النوافذ كانت مظلمة. لم يكن هناك أحد في عربة المستوصف (آخ، يا للأسف، كان بإمكانه أن يتحدث إلى الجد الآن!). لم يكن ثمة أحد في عربات الركاب الأربع، ولم يتوهّج ضوء إلا في العربة الخامسة.

نظر دييف إلى هناك. كانت الممرضات يجلسن على مقاعد الأطفال (كلهنّ جميعاً، على شكل دائرة مريحة) ويتحدثن. لابد أنَّ حديثهنَّ عن شيء طيّب: فعيونهنّ مشرقة ووجوههنَّ وديعة، والطاهي الجالس إلى جنبهنّ أحياناً يندفع بتشوّش وتتدلّى شفتاه.

ثم واصل السير. لم يكن ثمة أحد في عربة الموظفين أيضاً. فدخل إلى مقصورته وجلس على الأريكة من دون أن ينزع سترته العسكرية.

انسكب ضوء القمر الواهن على النافذة، فلم تعد ثمة حاجة لإضاءة المصباح. كان هناك كيس على المنضدة. فلَّ دييف الخِرَق التي دثّرت الكيس بعدة طبقات – فوجد قدراً فيه عصيدة رز، لا تزال دافئة. فشكر ميميليا مع نفسه.

كان هناك في القدر حتى ملعقة. أخذ الملعقة وواصل الجلوس، فسمع نباح كلب في الشارع، في مكان ما بعيداً.

طُرِقَ الباب طَرْقاً خفيفاً.

لم يُجب.

فُتح الباب – فإذا بها فاطمة.

سألت بلطف:

– لماذا لا تأتي إلينا؟ ومَضتَ من خلال النافذة واختفيتَ مثل الشبح. لا تفكر، لم نعد نبكي بعد الآن، المزاج مبهج – كل شيء كما طلبت.

لم يَرُدَّ عليها.

فطلبت منه بإصرار:

– كُل وتعال.

غرفَ دييف بطاعة من القدر ودسّ الطعام في فمه. لكنه لم يكن يعرف كيف يبتلعه، لذلك ظلَّ جالساً وقطعة زلقة من العصيدة على لسانه، ممسكاً بالملعقة مثل السكين.

ثم دخلت فاطمة وجلست على الأريكة وعانقته بيديها الناعمتين. فدفن رأسه في صدرها وراح يبكي، وألقى العصيدة التي لم يمضغها من شفتيه المرتعشتين.

***

وقف القطار «الضفيرة» مدة طويلة على أهبة الاستعداد، جاهزاً للانطلاق – في انتظار الأمر بالمغادرة إلى بخارى. لكن بيلايا لم تعط أيّ إشارة: إذ فُقِدَ المساعد الطبي بوغ.

إنه لم يغادر يوم أمس، كما وعد، بل ترك كل أغراضه في المقصورة: حقيبة الأدوات والمريول الأبيض وكيس القماش الخشن وحتى السترة الرسمية ذات الصف الواحد من الأزرار، أما هو فقد اختفى. كما ترك على طاولة الجراحة زجاجة الكونياك الفرنسي فارغة. التقطت بيلايا غطاء الزجاجة المضلَّع من الأرض.

كان جميع فريق قطار الإخلاء في أماكنهم. خزَّنَت الممرضات الماء المغلي للرحلة ورحن يتحركن في ساحات العربات، في انتظار الانطلاق. وتصاعد الدخان من مدخنة المطبخ –فقد أعدَّ ميميليا الإفطار. وغطَّ دييف في نوم عميق في مقصورته في عربة الموظفين، ووجهه مدفون في جسد فاطمة الجالسة على الأريكة وهي غافية،– من خلال الباب المنزلق، سمعت المفوضة كيف غنت فاطمة التهويدة طوال الليل، والآن فقط تغلب عليها النوم. ولكن بوغ فقط لم يكن هناك.

بانتظار بيلايا أمر عاجل في مدينة شهرسبز: إذ اكتُشِفَ وكر سرّي به أطفال وينبغي عليها معالجة الوضع هناك. إذ قُرِّرَ إرسال القطار «الضفيرة» في الرحلات القادمة من دون مفوض. بقي أمام بيلايا أنْ تعطي الأمر فقط بالانطلاق وتترك القطار. لكن بوغ لم يكن موجوداً.

وقفت بيلايا عند القطار واستمعت إلى نداء المؤذنين الصباحية على

المآذن: طلعت الشمس. عندما انتُهِيَ من رفع الأذان، أرادت أنْ تُرسِل أشياء الرجل المفقود كي تودَع لدى مدير محطة القطار - لكن بوغ ظهر بنفسه.

الأصح، ظهر جسده الجبار. كان يطفو على رصيف المحطة، ويحمله أربعة جنود -مثل جذع شجرة ثقيل، لم يكن بإمكانهم طرحه على أكتافهم، بل جرّوه، وبالكاد رفعوه عن الأرض. كان الجنود يلهثون، لكنهم نقلوا الثقل بحذر- ساروا ببطء وسلاسة، محاولين عدم التأرجح.

خاطبها الأقدم من بينهم من بعيد:

- أيتها الأخت! أين يمكنني أن أجد دييف، رئيس القطار؟

- لا يمكنه الآنْ أنْ يأتي إليك.

اقتربت بيلايا من الحمالين ونظرت في وجه المساعد الطبي - كان الرجل يتنفس بصعوبة وبصوت منخفض، مُحرِّكاً شاربه أثناء نومه. حتى من دون أنْ تنحني شعرت بيلايا برائحة الكونياك القوية. فقالت للجندي الأقدم بنبرة اعتذارية:

- الأمر متروك لدييف... لقد وصل.

وأشارت إلى عربة الموظفين:

- احملوه إلى هناك.

أمرت بوضع بوغ على أريكته السابقة. كان جسد الرجل العجوز ضخماً لدرجة أنَّ الأريكة بالكاد استوعبته. فتحت بيلايا الباب المنزلق، استعداداً لكل طارئ، فالمرء لا يعرف أبداً ما يمكن أن يحدث للمخمور، دعه يكون تحت المراقبة. لم يستيقظ دييف ولا فاطمة.

سألت الأقدم وهي تشيّع الجنود إلى الشارع:

- هل أنتم أسكرتموه بهذا الشكل؟

راح الرجل يعتذر لبيلايا، كما لو كانت زوجة بوغ أو واحداً من ذويه:

- لقد جاء إلينا بهذا الشكل! لكنه كان قادراً على أنْ يحرك ساقيه ولسانه. وبمجرد أن توقف عن الحركة، جئنا إلى هنا على الفور.

- كيف عرفتم أنه ينبغي جلبه إلى هنا؟

هز الجندي كتفيه في حيرة وأخرج من جيبه ورقة مجعدة مطوية أربع طيات، وقال:

- هكذا. كيف يمكن للمرء أن يخطئ؟

فتحت بيلايا طيات الورقة، فاكتشفت أنها نفس التفويض الذي وقعته في الصباح. على ظهر التفويض كُتِبَت بخط يد المساعد الطبي الكبير ملاحظة: «يُرجى نقل جسدي المخمور بشدة وغير القادر على الحركة إلى محطة السكة الحديد، إلى القطار الطبي. وتسليم الجثة لرئيس القطار دييف».

صافحت بيلايا الجميع:

- شكرًا لكم أيها الرفاق.

قال الجندي الأقدم بشكل غير متوقع وبمشاعر صادقة:

- شكراً له منا، لن ننسى أبداً هذه الليلة.

- هل عربدَ؟

نظر الأربعة بعضهم إلى بعض بغرابة.

- هل تشاجر... أم ماذا؟

تلعثم الجندي الأقدم وهو يبحث عن الكلمات المناسبة، لكنه لم ينجح في العثور عليها - ثم حكى الواقعة كما هي:

- قبَّل الخيول. كان طوال الليل في الإسطبل -يقبّل أخطام الخيل ويردد كلمات حنينة وحميمة للغاية... لا يجد الفرد منّا مثلها ليخاطب بها خليلته، بينما هو- خاطب بها الخيول. اجتمع نصف أفراد سريّتنا للاستماع إليه. وراح قائد السرية يكتب ما يقول في دفتر الملاحظات لديه. والطباخ يبكي ويمسح دموعه. هكذا كانت كلماته... إنه شاعر!

قالت بيلايا بجفاف:

- إنه مساعد طبي.

فكرر الرجل بابتسامة:

- وشاعر أيضاً. - يحدث هذا أحياناً...

غادر الجنود.

التقطت بيلايا حقيبة القماش الخشن التي كانت تنتظرها من مدة طويلة من على مسند الأقدام في عربة الموظفين، وألقتها خلف ظهرها ولوحت للسائق بيدها من بعيد: انطلق!

أطلق القطار صفيراً مدوّياً معلناً المغادرة. نفخت مدخنته وصلصلت

عجلاته وتحرك إلى الأمام. من دون أن تُشَيِّع القطار المغادر ببصرها، مشت بيلايا مبتعدة -كانت عربة يجرها حصان تنتظرها عند المحطة. الممرضات لوَّحنَ لها وصرخن بشيء من منصّات العربات- لم تودعهنَّ بيلايا، وحتى لم تلتفت.

غادر القطار «الضفيرة» مدينة سمرقند التي صحت لتوّها.

ثلاثة ركبوا في مقصورة واحدة. نام دييف نوماً عميقاً لم يَنَم مثله قط خلال الرحلة، وفاطمة، التي استيقظت، مسَّدَت على شعره واستمعت إلى شخير المساعد الطبي. ركبَ الرجل والمرأة والشيخ العجوز في المقصورة العائلية - وكان كل منهم قريباً وعزيزاً على الجميع.

ثلاثة توزَّعوا في العالم في اتجاهات مختلفة - رجل وامرأة وصبي. دييف سار بالقطار متجهاً إلى الغرب. وبيلايا ركبت في العربة ذاهبةً إلى الجنوب. وزاغريكا الأعمى تلمَّسَ طريقه عائداً إلى الشمال على طول المسارات باحثاً عن أخيه، وكان يعلم أنه سيظل يبحث عنه دائماً.

من الشرق نظرت إلى الجميع الشمسُ الحمراء الفتية، وهي ترتفع في السماء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

المحتويات

الجزء الأول: خمسمائة 7

الجزء الثاني: الاثنان معاً 87

الجزء الثالث: العدد المشؤوم 235

الجزء الرابع: واحد 307

الجزء الخامس: الطرح والجمع 335

الجزء الخامس: خمسمائة من جديد 425

الجزء السابع: الثلاثة................................ 495

صبيٌ يرتدي سترة رجالية من دون أكمام لونها قرمزي وذات أزهار ذهبية وأزرار من البلور كان واقفاً في الممر، ويبول في دلو. كانت السترة كبيرة جداً لدرجة أنَّ الحاشية تجعَّدت وامتدت على شكل طيات على الباركيه، وبرزت رقبة الصبي النحيفة من ياقة السترة مثل عصا من برميل. بدا تحت المخمل الأحمر جسده الأبيض العاري تماماً -لم يكن لدى الصبي بنطلون، ولا حتى ملابس داخلية. بعد أن قضى الصبي حاجته، انشغل برفع أطراف ردائه حتى لا تجرّ خلفه أثناء المشي، وتوجه إلى مكانه وهو يجر قدميه متثاقلاً. كانت قدماه الحافيتان اللتان تظهران من أسفل جوانب السترة تشبهان أقدام الفيل- طرفاه السفليان القبيحان المنتفخان اللذان فقدا أي شكل كانا يتقدمان ببطء، وبجهد، وبالكاد يرتفعان عن الأرض.

أوضحت شابيرو، وهي تلهث وقد انقطع نَفَسها من الصعود (بدا لدييف أنها كانت تتأرجح من التعب ومن كثرة القلق والاضطراب خلال الدقائق الأخيرة):

- وجدنا هذه الثروة على شرفة الأوركسترا، إلى جانب الشعر المستعار والبودرة. هذا صحيح، بقيت من الموسيقيين: دزينة من بدلات الحفلات التنكرية، ولم نعثر على زوج واحد من الأحذية. كان من الأفضل لو وجدنا العكس. لكن الخير لا يضيع، فوزَّعناها على الأولاد... أم إنكِ تنظرين إلى قدميه؟ لقد قلتُ لكِ، لدينا هنا مستوصف.

كانت مساحة الطابق الثالث أضيق بكثير وأشد انخفاضاً: في النوافذ الصغيرة يمكن للمرء أن يرى إفريزاً متدلياً من الأعلى، وكان بإمكان دييف أن يلمس السقف بيده إذا رغب. من الواضح، أنَّ أبنية مُلحَقَة كانت هنا ذات يوم. وثمة باب منخفض يؤدي إلى كل منها.

نظرت شابيرو ودييف في عدة ردهات (كان عليهما أنْ ينحنيا عند عتبة الباب حتى لا تضرب هامتاهما العتبة)، حتى وجدا بيلايا في واحدة منها: لم تكن تتمشى في الغرفة، بل وقفت فحسب على مقربة من الباب، وهي تتطلَّع باهتمام إلى الساكنين. وحتى لو أرادت أنْ تتمشى لن يكون بمقدورها السير هنا - كانت الغرف ضيقة للغاية، وقد افترشت أجسادُ الأطفال الأرضيةَ بكثافة.

مكتبة
t.me/soramnqraa